

شِعْرَاءُ الْأَنْدَلُسِ

ديوان ابن زيدون

رَسَائِلُهُ أَخْبَارُهُ شِعْرُ الْمَلِكَيْنِ

« ابن زيدون عبقرى زمانه قصر الحسنون عن إحسانه
أخذ الروم في الحزيرة عنه ومتوا في خياله وافئذانه .
« شوقي »

شَرْحٌ وَضَبْطٌ وَتَصْنِيفٌ

كامل كيلاني و عبد الرحمن خليفه

الطبعة الأولى

١٣٥١ هـ - ١٩٣٢ م - رقم ٤٧٤

كل الحقوق محفوظة

طبع بطبعة

مُصْطَفَى الْبَابِي الْحَلَبِيِّ وَأَوْلَادُهُ بِمُصَرَّ

وباشطقة محمد امين عمران

فهرس

مقدمة ديوان ابن زيدون

صفحة	صفحة
١٧	٨
٢٧	١٠
٣٠	١٠
٣٣	١٠
٣٧	١٢
٤٢	١٣
٤٤	١٥
٥٠	١٦
٥٥	١٧
	١٧

فهرس ديوان ابن زيدون

صفحة	صفحة
٣٨	١
٣٩	٤
٤٠	٩
٤٩	١٢
٥٤	١٣
٥٧	١٩
٥٨	٢٢
٥٩	٢٣
٦٠	٣٤
٦٠	٣٥

صفحة		صفحة	
١١٩	حبيب	٦١	وقال معانا من قصيدة
١٢٠	في مدح ابن جهور	٦١	موقف وداع
١٢٢	الى المطفر	٦٢	وقال أيضا بمدح أما الوليد بن - هور
١٣٠	في نكبة بني ذكوان	٦٦	مداعبة
١٣٦	تهنئة بقران	٦٨	جرب الناس وامتنحن
١٣٩	عهد	٦٩	في مدح ابن جهور
١٤٠	مدح ورثاء	٧٤	عاب
١٤٨	الى ابن ذكوان	٧٥	رثاء فتاه
١٤٩	الى المعتمد	٧٦	في الغزل
١٥٠	مدح ورثاء وتهنئة	٧٧	تهنئة
١٥٢	هدية عنف	٧٨	تهنئة بفسد
١٥٣	رثاء ابن ذكوان	٧٩	في مدح ابن جهور
١٥٨	في مدح المعتضد	٨٢	شكر
١٦٥	هدية تفاح	٨٩	شماعة
١٦٧	شكر على زيارة	٩١	هدية تفاح
١٦٨	تهنئة	٩٢	لا يهنا التمت
١٦٩	ابتداء قصيد	٩٨	أترع الكأس
١٧٠	الى أبي القاسم	٩٨	لا حيلة في الحب
١٧٤	مدح ابن جهور ورثاء أمه	٩٩	في مدح ابن جهور
١٧٧	في مدح ابن جهور	١٠٥	الى ابن جهور
١٨٤	رثاء أم المعتضد	١٠٦	مجلس أبي علي
١٨٨	فل للعاة	١٠٧	جواب
١٩٢	ذكرى قرطبة	١٠٨	كن كيف شئت
١٩٥	سلاوى المغنطار	١٠٩	حنين
١٩٧	في مدح المعتضد	١١١	في الغزل
٢١٦	في » »	١١١	في بعض مجالس الأنس
٢٢٣	دولة عباد	١١٢	شكوى وألم
		١١٨	جواب

صفحة		صفحة	
٢٦٥	قنم	٢٢٣	الى حبيب
٢٦٥	خداع الأمانى	٢٢٤	فى مدح أبى المظفر
٢٦٦	فى العزل	٢٢٩	ذكرى قرطبة وأيام الصبا
٢٦٦	الى هاجر	٢٣٦	الى ابن عبدوس
٢٦٦	دعاء محب	٢٤١	مدح ابن جهور وشكر باديس
٢٦٧	أنت حسبي	٢٤٣	اسم من أحب
٢٦٧	ما الذى أنكره ؟	٢٤٤	الى أبى العطف
٢٦٧	شوق بعد سلوان	٢٤٧	بين ابن زيدون والمعتمد
٢٦٨	أسر الهوى	٢٤٨	الى المعتمد
٢٦٨	ممنرة	٢٤٨	جواب للمعتمد
٢٦٨	وصف الكأس	٢٤٩	جواب آخر للمعتمد
٢٦٩	غاية المحبين	٢٤٩	وفال للمعتمد يستهديه خيرا
٢٦٩	صفح المذنب	٢٥٠	وفال مجاوبا المعتمد
٢٦٩	لا بأس	٢٥٣	وفال
٢٦٩	عتب	٢٥٣	وفال
٢٧٠	تجننى الحبيب	٢٥٤	هنتة
٢٧٠	لا بأس فى الحب	٢٥٧	ذكرى ولادة
٢٧٠	بقية المسواك	٢٥٨	الى ولادة
٢٧١	غرور المي	٢٥٩	الى أبى حفص بن برد
٢٧١	صلى	٢٥٩	ليل أنس
٢٧١	شكوى ضائعة	٢٦٠	دواء
٢٧١	وفاء المحب	٢٦١	حسبي رضاك
٢٧٢	عذر الحبيب	٢٦٢	عودى الى الوصال
٢٧٢	حذر العاشق	٢٦٣	أبو القاسم
٢٧٢	قناعة المحب	٢٦٣	وفال
٢٧٣	كيف السوا	٢٦٤	آلام المحب
٢٧٣	أنت المي	٢٦٤	كيف السوا

صفحة		صفحة	
٣١١	الى المعتمد	٢٧٣	بقاء على العهد
٣١٣	صرعى الحب	٢٧٤	ابن وفاؤك
٣١٣	ذكرى قرطبة	٢٧٤	صرع الحب
٣١٣	رسائل ابن زيدون وأخباره وشعر الملكين	٢٧٥	وفاء المحب
٣١٤	الرسالة الهزلية	٢٧٥	أنت حسبي
٣٣٣	الرسالة الجدبة لابن زيدون	٢٧٥	الى هاجر
٣٤٦	رسالة الى المطهر	٢٧٦	لا سبيل الى السلو
٣٥٥	رسالة الى ابن مسleme	٢٧٦	أنت الحياة
٣٥٧	رسالة الى المعتضد	٢٧٦	ذكرى معاهد قرطبة
٣٥٨	رسالة من قرطبة	٢٧٧	غدر الحبيب
٣٦٠	من رسالة	٢٧٨	أصنع ما شئت
٣٧٠	شعر المعتضد	٢٧٨	أمنية
٣٧٧	شعر المعتمد	٢٧٨	نعمسى فداؤك
٣٧٩	ابن عمار	٢٧٨	دين الحب
٤٠١	معارضات الشعراء لابن زيدون	٢٢٩	وفاء
٤٠١	معارضة أبى بكر	٢٧٩	فى سبيل الهوى
٤٠١	معارضات أمير الشعراء	٢٧٩	صلة المحب
٤٠٩	صفحات من كتاب الذخيرة	٢٨٠	مقيم على العهد
٤٢١	صفحات من كتاب نفح الطيب	٢٨٠	آلام المحب
٤٢٣	ابن جهور	٢٨١	المعميات والأغاز
٤٢٥	جهور	٢٨١	الى المعتمد
٤٢٥	بنو عباد	٢٩٩	الى المعتمد على الله
٤٢٦	صفحات من كتاب العيني	٣٠١	جواب
٤٢٧	ملوك الطوائف	٣٠٣	الى المعتمد
٤٣٠	دراسة الدكتور أحمد ضيف لابن زيدون	٣٠٦	جواب على بيت مطير
٤٣٨	دراسة الأستاذ السكندرى » »	٣٠٧	البيت المطير
٤٤٢	دراسة الأستاذ علام سلامة » »	٣٠٧	حل البيت المطير
٤٤٣	دراسة الأستاذ أحمد زكى اشا » »	٣٠٨	جواب على بيت مطير
٤٥٥	فهرس القوافى		

مقدمة ابن زيدون

تصدير

لحضرة صاحب السعادة أمير الشعراء

يَا أَبْنَ زَيْدُونَ مَرْحَبًا قَدْ أَطَلَّتِ التَّغْيِبَا
إِنَّ دِيوانَكَ الَّذِي ظَلَّ سِرًّا مُحَجَّبًا
يَشْتَكِي الْيَتِيمَ دُرُّهُ ، وَيُقَاسِي التَّغْرُبَا
صَارَ - فِي كُلِّ بَلَدَةٍ - الْأَلْبَاءَ مَطْلَبَا
جَاءَنَا « كَامِلٌ » بِهِ عَرِيًّا مُهَذَّبَا
تَجِدُ النَّصَّ مُعْجَبًا وَتَرَى الشَّرْحَ أَعْجَبَا

أَنْتَ فِي الْقَوْلِ كُلِّهِ أَجْمَلُ النَّاسِ مَذْهَبَا
بِأَبِي أَنْتَ هَيْكَلًا - مِنْ فُنُونٍ - مُرَكَّبَا
شَاعِرًا أَمْ مُصَوِّرًا كُنْتَ، أَمْ كُنْتَ مُطْرَبَا؟
تُرْسِلُ اللَّحْنَ كُلَّهُ مُبْدِعًا فِيهِ مَغْرَبَا
أَحْسَنَ النَّاسِ هَاتِفًا ، بِالْفَوَانِي مَشَبَّابَا
وَتَزِيلُ الْمُتَوَجِّعِ - نَ النَّدِيمَ الْمُقْرَبَا
كَمْ سَقَاهُمْ بِشِمْرِهِ مِذْحَةً أَوْ تَعْمَبَا
وَمِنَ الْمَذْحِ مَا جَزَى وَأَذَاعَ الْمَنَاقِبَا

وَإِذَا الْهَجْوُ هَاجَهُ - لِمَعَانَاتِهِ - أَبَى

وَرَأَاهُ رَذِيْلَةً لَا تُنَاسِي التَّأْدُبَا
مَا رَأَى النَّاسُ شَاعِرًا فَاصِلَ الْخُلُقِ طَيِّبَا
دَسَّ لِلنَّاشِقِينَ - فِي زُنْبَقِ الشَّعْرِ - عَقْرَبَا

جُلْتُ فِي الْخُلْدِ - جَوْلَةً هَلْ عَنِ الْخُلْدِ مَنْ نَبَا ؟
صِفْ لَنَا مَا وَرَاءَهُ مِنْ عُيُونٍ وَمِنْ رُبَى
وَنَعِيمٍ - وَنَضْرَةٍ وَظِلَالٍ مِنْ الصَّبَا
وَصِفِ الْخُورَ مُوجِزًا - وَإِذَا شِئْتُ - مُطْنِبَا

قُمْ تَرِ الْأَرْضَ - مِثْلَ مَا كُتِّمُوا مَنْسٍ - مَلْعَبَا
وَتَرَى الْعَيْشَ لَمْ يَزَلْ - ابْنِي الْمَوْتِ - مَا رَبَا
وَتَرَى ذَاكَ - بِاللَّيْ عِنْدَ هَذَا - مُعَذَّبَا

« إِنَّ مَرْوَانَ عُصْبَةٌ يَصْنَعُونَ الْمَجَائِبَا
طَوَّقُوا الْأَرْضَ مَشْرِقًا - بِالْأَيْدَى - وَمَغْرِبَا
آلَةُ أَطْلَمَتِكَ فِي ذِرْوَةِ الْمَجْدِ كَوْكَبَا
أَنْتَ لِلْمَتَّحِ تَنْتَمِي وَكَفَى الْفَتْحُ مَنْصِبَا
لَسْتُ أَرْضَى بغيرِهِ لَكَ جَدًّا وَلَا أَبَا »

« شوقي »

مقدمة

١ تحريف الديوان

كان أيسر ما في هذا الديوان نسخه وضبطه وشرحه : فقد أنشأنا ما كابدناه فيه من عناء التحريف كل عناء آخر كابدناه فيه ، وقد وفق السامع أيعا توفيق في تشويه محاسن هذا الديوان الفدّة ، وتحريف أبياته ، وطمس غرره وعبوبه .

ولقد كما قرأ القصيدة عدّة مرات ، وكأنا - لشدة ما فيها من تحريف واضطراب - أمام طلسم غامض لا سبيل إلى حله ، ثم لا يلبث الصبر أن يذلل من العقبات ما كنا نوقن باستحالة تذليله ، وكانت تعريتنا لذة الفوز والانتصار - كلما اجتزنا عقبة - أن تقتحم أخرى حتى انتهينا من هذا الديوان ونحن لانكاد نصدق بأننا قد اجتزنا هذه المعارة المخيفة ، ورفعنا عن ذلك المنجم الرائع كثيرا من الهضاب والكثبان المترصة فوقه .

وما نزعنا أننا قد برأنا هذا الديوان من كل عيب ، ونزهناه عن كل تحريف ، ولكننا نجروا فنزعم أننا لم نأل جهدا في تبرئته من كل عيب وتزيمه عن كل تحريف ، فإذا بدّ عن خاطرنا معنى أو لحق بذهننا كلال في تصحيح بيت أو تجلية غامض فهو الذهن الانساني يخلق ثم يسقط ، ويدع ثم يستخف ، ويعتوره النقص والكلال ، أقوى ما يكون رغبة في توخي الابداع والكمال .

٢ - أمثلة من التحريف

فلما إن نسخ هذا الديوان وضبطه وشرحه كانت أيسر ما لقينا من العناء ، وهذا الكلام ربما لمح فيه القارئ الحلى الدهن نوعا من الزهو والخيلاء ، ولكنه الحقيقة التي لا أثر للعلاة فيها ، ولو أننا أردنا أن نسرّد كل ما أصلحناه من تحريف أو تشويه . لا اضطررنا إلى ذكر أكثر أبيات الديوان ، وقد أشرنا إليها في مواضعها من الكتاب ، فلنجتزئ بذكر القليل منها عن الكثير ، ليرى القارئ المصنف مقدار ما جنى السامع على شعر هذا الشاعر العظيم ، ونحن لانرى في مثل هذا العمل إلا أنه زكاة يؤديها الأديب للأدب العربي الزاخر بأروع الحوارج النفسية وأسمى المعاني الرائعة .

وليمثل القارئ نفسه أمام هذا البيت مثلا .

« لم يدع مني شئنا من جلد مع أني لم أرل ثبت العور . »

أول البيت التالي :

« كأننا لم يوالينا زمان لين الأخدع . »

أوقوله في نفس القصيدة :

« وأف العمل لا يجدع . »

أوقوله في قصيدة أخرى :

« حياء هو الليل ادلهم ظلامه . »

أوقوله :

« زمن كما لون الرضا ع يشوق ذكره الفطيم »

« لم أدع حظي منها بالهيل . »

أوقوله :

أوقوله :

« فما ابنك إلا عدل نفسك إن بسر فالحجم لا للنفس منك مقام »

في قصيدة لم يرد فيها ذكر اسمه متاتا :

فإذا قرأت البيت الأول قراءة صحيحة . قلت :

« لم يدع مني سقاي جلدًا مع أني لم أزل نت المرر »

والبيت الثاني :

« كأننا لم يوالينا زمان لين الأخدع »

« وأف العمل لا يجدع »

والشطر الثالث :

والبيت الرابع :

« جفاء هو الليل ادلهم ظلامه »

والبيت الخامس :

« زمن كما ألوف الرضا ع يشوق ذكره الفطيم »

والبيت السادس :

« لم أرغ حظي منها بالهيل »

والبيت السابع :

« فما انك إلا عدل نفسك ان يع فالحجم لا للنفس منك مقام »

فإذا أضفت إلى هذا العناء عناء آخر هو بعض تسكيلة الأبيات الناقصة بما يلائمها، ظهر لك

أننا لم نكن مغالين في وصف ما كابدهناه من المشقة والتعب .

ومن أمثلة ذلك قوله :

« في جواركم ذليل . »

وقد أتممت بما يلائم المعنى قلنا :

« [جناحي] في جواركم ذليل »

وقوله :

« شافعا لأبياديك التي بعضها يفوق الشناء »

وقد آتمناه وأصلحناه كما يلي :

« [فتقبله] شافعا لأياك لك التي بعضها يفوق الثناء »
وانما اجتزأنا بهذه الأمثلة القليلة لأن الثمرة - كما يقول شيخ المعرة - تدل على الشجرة .
ولأن الديوان كله مائل بين يدي القارئ فلا حاجة بنا إلى الافاضة في ذكر الأمثلة .

٣ . أثر التحريف

وكثير مما يرويه أساتذة الأدب في المدارس من شعر ابن زيدون محرف أو مشوه ، فمن ذلك ما أثبتته الأستاذ علام سلامة في مذكراته المطبوعة لطلبة دار العلوم :

« ريب ملك كأن الله أنشأ مسكا وقد أنشأ الله الوري طينا . »

والبيت في وصف ولادة . وصوابه . « ريب ملك » ، وقد أكثر شعراء الأندلس - ومنهم ابن زيدون - من هذا التعبير، والرواية التي أخذ بها الأستاذ علام هي رواية نصح الطيب الذي لا يقل تحريفه وتصحيحه عن تحريف الديوان وتصحيحه . وقد أثبتنا هذا البيت كما يلي :

« ريب ملك كأن الله أنشأ مسكا وقدر إنشاء الوري طيا »

وبهذا يظهر جلال أسلوب ابن زيدون وروعة أدائه .

وقد روى بعض الأدباء البيت التالي لابن زيدون هكذا :

« سنون من الأيام خمس قطعها أسيرا ، وإن لم يد شد ولا قضا . »

وصوابها « مئون من الأيام خمس قطعها » فان سنين من الأيام أو سنين من الليالي أو سنين من الساعات لا معنى لها - ويؤيد هذا الرأي قول ابن زيدون نفسه من قصيدة أخرى في رسالة لابن جهور :

« أفصبرا مئين خمس من الأيام ؟ »

وقد وقع في هذا التحريف الأستاذ أحمد زكي باشا ثم تابعه في ذلك الأستاذ أحمد السكندري .

وظن الأستاذ زكي باشا ان ابن زيدون قد سجن مرتين ، الأولى خمس سنوات ، واستدل

على ذلك بالبيت الأول ، والثانية خمسمائة يوم ، واستدل على ذلك بالبيت الثاني .

أما الأستاذ السكندري فقد قرر أن ابن زيدون سجن خمس سنوات (١) ، وهو لم

يسجن إلا خمسمائة يوم كما يدل على ذلك شعره .

(١) قال الأستاذ السكندري :

« لست ابن زيدون في السجن بسبع سنين ، ولكن كم كان مدتها ؟ ومتى كان مبدؤها ؟ »

أما الأول فيجبنا هو عليه بقوله من قصيدته الطائية الليفة :

« سنون من الأيام - خمس قطعها أسيرا ، وإن لم يد شدولا قط »

وأما الثاني فيجبنا هو أيضا عليه بقوله من قصيدته الرائية التي كتب بها من السجن الى أبي الحزم

جهور : « لم يطو رد شابي كبرة وأرى برق المشيباعلى في عارض الشمر »

وقد جنى تحريف النساخ على أدباء العربية وشعرائها جناية لا تعترف فاضطربت بسببه آيات البلاغة ودقائق البيان وعزف الكثيرون عن أدبهم بعد أن رأوا ما فيه من الخلط والتشويه والتحريف ولا وهم على ذنوب لم يجترموها وآخذوهم بعيوب لا يد لهم فيها :

« وذنوب جرء سفهاء قوم وحل بغير جارمه العقاب »

ولا يزال رجال الأدب وأساتيده الأفاضل مسؤولين عن إصلاح هذه الروائع وتنظيم هذه الكنوز الغيسة ورددّها إلى الصواب، حتى يظهر جلال الأدب العربي وروعته وتبرأ ذم القدماء مما لحق آثارهم الأدبية من الخلط والتشويه .

٤ — لماذا بدأت بهذا الديوان

كانت فكرة موفقة سديدة تلك الفكرة التي خطرت ببال الأستاذ الكبير الدكتور «أحمد ضيف» مدرس الأدب العربي بالجامعة المصرية القديمة حين طلب إلى عام ١٩٢٢ أن أترجم لطلبة الجامعة الفصل الرابع الذي كتبه الأستاذ المستشرق « نيكلسون » عن الأدب الأندلسي وتاريخه ، فقد كان من آثار تلك الفكرة أنني نشطت إلى إلقاء تلك المحاضرات التي أظهرتها للقراء في ذلك العام بعنوان « نظرات في تاريخ الأدب الأندلسي (١) » ووعدت في مقدمة ذلك الكتاب بالعودة إلى البحث .

قل الثلاثين إذ عهد الصبا كث ولشبية غصن غير مهتصر »

ونحن نعلم أن انقطاع دعوة بى أمية عن قرطبة كان سنة اثنين وعشرين وأربعمائة ، ولم أن قد ولد ابن زيدون في سنة أربع وتسعين وثلاثمائة فإذ كان بدأ خدمته في دولة آل حهور وهو في الثانية والعشرين من عمره وإذا قدرنا أنه بمث بهذه القصيدة في مبدأ اعتقاله كما هو الظاهر إذ قد صرح بها بأنه لم يبلغ الثلاثين ، كانت مدة خدمته لآل حهور لا تزيد على سنتين وكان بدء اعتقاله في نهاية سنة أربع وعشرين وأربعمائة أو أول خمس وعشرين وأربعمائة .

لست ابن زيدون في السجن خمس سنين استظمف فيها أبا الحرم حهورا واستشفع عنده بابنه أنى الوليد محمد بن حهور ، وكان أليفه وصديقه من قل وشبهه من الرؤساء ووجوه قرطبة فوُبت إليه ولابهم شكواه بعدة قصائد أبدعها ورسائل استمد فيها حبه فلما ألأت له فلما أم

(١) وقد جاء في مقدمة ذلك الكتاب مايلي

طلب إلى حضرة الدكتور أحمد ضيف ، أن أترجم الفصل التاسع من كتاب « تاريخ آداب العرب للأستاذ نيكلسون » لألفيه في الجامعة المصرية ، وهو الفصل الذي أفردته من كتابه الممتع ، بالكلام على تاريخ الأدب العربي في أسبانيا .

لم أكد أقرأ هذا الفصل حتى بدا لي خطره ونقاسته وعرضت لي عدة ملاحظات دلي بمنى ما جاء فيه ولم أكد أشعر في مناقشة نغمة الجوهريّة حتى اتسع أسمى مجال البحث وشجى على مواصلة ماراجته من أقصى الشدائد الذي يكاد يلمسه كل مطلع على الكتب العربية التي تناولت الكلام في هذا الموضوع وما علمته من الحاجة الماسة إلى كتاب ييسر على طلبة الأدب الأندلسي وغيرهم من المتتبعين به ، قليلا مما يتكبدونه من عناء البحث في الأسفار العربية الضخمة الموهوشة ويحفظ وقتهم الثمين من الضائع .

فالآن أعود إلى الكتابة بعد عشر سواب مضت على تلك السحوت التمهيدية الأولى .

ولكن لماذا اخترت ابن زيدون وبدأت به قبل غيره من الشعراء ؟
لقد كنت أسيء الظن بشعر ابن زيدون وأدبه ، ويخيل إليّ - كما يخيل إلى كثير من
أدبائنا الذين يتسرعون في الحكم على الشعراء من غير أن يعنوا أنفسهم بدرس آثارهم
وعصورهم دراسة مستفيضة - أنه شاعر صنعة مولع بالديع والمقابلات اللفظية لا يسمو إلى
درجة الفحول المتارين .

فلما وصلت إلى قول « نيكلسون » في فصله الرابع : « وكانوا يلقبون ابن هانيء بأنه
متبني العرب ، كما يلقبون ابن زيدون بأنه محترى العرب (١) » صارحت القارئ حينئذ بأنني
لا أستطيع الحكم على الجزء الثاني من هذه التسمية ، وقد عقدت فصلا موجزا في المقارنة بين ابن
هانيء والمتبني ، لأنني درست ديوانيهما ، وقد عدت الآن عن بعض آرائي في ذلك الفصل . ولم
أستطع المقارنة بين ابن زيدون والبحترى ، لأنني قرأت ديوان الثاني ولم أقرأ للأول إلا بضع
قصائد لا تكفي للحكم على شاعر .

ودكرت أن حلال نهضنا القريبة لا ينداس مع حملنا عطاءا لعتا الذين تركوا أوصح الأثر في بلاغه
تستمد منها الحياة والنوّة ، ومن كان من أواحب ألا يجهل الإنسان عطاء الأمم دوى الأثر الكبير في
الحضارة العالمية فهو أجدر ألا يجهل عطاءه قل كل شيء .
ودفعتني هذه الاعتبارات إلى عدم الاختصار على ترجمة هذا الفصل الممتع وتم اتخذه مرجعا من المراجع
الكثيرة التي رجعت إليها بدلا من أن اتخذه موضوع المحاضرة .
وقد أقصرت في هذا الكتاب على ترجمة "النصب الأول من هذا الفصل ، وقد ألقى القسم الأكبر من
هذه المحاضرات مدأ كثر من عاين في الجامعة المصرية ، ثم نشرت بعضها في إحدى الصحف الأدبية
فليت من الاستحسان وإرضا ما سيجي على طبعها .

ولم يغني أن أورد في حواشي الكتاب كثيرا من التعليقات الضرورية التي اضطرنني ضيق الزمان إلى
الاكتفاء بالإشارة إليها دون ذكرها وقت لقاء المحاضرات .
وقد تعددت ذكر أمثلة وتعددت شملت مكانا من الكتاب ما كانت لتشغله لو أني كنت ما حدثت سببي إلى
الاستشهاد بها أو لو أني وثقت أن جمهور الأدباء قد يقرأها .
(وعد) هذه طرقات سريعة ألقى بها إلى تاريخ الأدب الإسلامي وسأذكرها بعد قليل بالقسم الثاني
منها فليقرأ القارئ على أنها مقدمة للدراسة لأدب في ذلك العصر ، ولتعدّها بوابة لكتاب تناول فيه
ذلك التاريخ شيء من السوسج والاسباب إذ أمكنة العصر ، وكان في الأجل بنية .
(١) قال الأستاذ نيكلسون :

« إن قائمة العلماء الذين رحلوا في طلب العلم إلى إفريقيا ومصر وإلى المدن المقدسة في بلاد العرب وإلى
حواضر - وريا العظيمة والعراق - وإلى حراسان وتركستان وإلى بلاد الصين - أمينا - كانت محوى
كل نابي الأدباء ورجال البلاعة العرسة الذين أُنح بهم أساليب لا لامة كما يرى ذلك من يصفح الفصل
الخامس من كتاب المعري . لهذا كتاب حركة ببادله الآراء في دؤب ونشاط فلم يستأثر إحد من رجال الشرق
والغرب شيء خاص ، وعرف الناس قبل كل شيء أن مذهب سمراء اللادلس كان هانيء وابن زيدون كان
بعضهما الداد "شعره من المعجونات" بهاء بني العرب ونخريه . »

ورأيت أن واجب الأمانة يقضى علىّ أن أدرس ابن زيدون كما درست المحترى ليتسنى لي أن أنصفه .

وما كدت أبدأ في درس ابن زيدون ، شعره ونثره ، وأتقصي أخباره وأخبار عصره ، حتى رأيت ماراعني وأدهشني مارأيت ، لقد كنت أستكثر عليه اسم شاعر عادي فصرت أسنقله الآن اسم شاعر كبير وكنت أكرهه لكلفه بالصنعة التي بغضت إلينا أكثر شعراء ذلك العصر وأفسدت علينا أكثر الأدب العربي ، فإذا بي أحب هذا اللون الرائع من الصنعة المجهة التي تتميز بالفس وتهمين على القلب وتحبب فيها أشد الناس بغضا لها ، وقد عرف ابن زيدون كيف يتخذ من الصناعة والبديع أدوات للافتنان في الأداء والتعبير والابداع في تصوير أروع المعاني الساحرة وأدق الخواج النفسية ، وإذا بها نفس تطرب إلى الجبال وتذئن في التعبير عنه ، وطبيعة سمحة صناع لا انواء فيها ولا تكلف ، وقد صدق القائل : « كل طعام يتناوله الصحيح ينقلب إلى صحة ، وكل طعام يتناوله المريض ينقلب إلى مرض » وهكذا كرهنا المقلدون في الصنعة والبديع ، كما حجب إلينا المدعون كثيرا من ألوان الصنعة والبديع .

الحق أن ابن زيدون ساحر بياني حلاب يتخذ من الصنعة وسيلة للروعة والدقة وحسن الأداء ، كما يتخذ المصور الماهر من مختلف الألوان والأصاغ - وسيلة للتعبير عن أدق وأخفى الأساير واللمحات .

ولا أكنتم القارئ أني من ألد أعداء الصنعة اللفظية ، ولكنني من أشد أنصارها إذا جاءت عن هذه الطريق .

ولقد أراد بعض الكتاب أن يعيب على ابن زيدون وأما تول فرانس أنهما من رجال الأساليب ، ونسوا أن الأسلوب العالي هو غاية تخلع دونها الرفاء ، وأن طول المراتة والدرس تخلق من صاحبها الكاتب الحاذق والشاعر اللق ولكنها أعجز من أن تخلق الكاتب الموهوب والشاعر العبقري أو تلهمهما الأسلوب العالي الذي يحاول بعض الأدباء أن يزري به ويحقره .

٥ تنفيذ الفكرة

ولم أكد أبدأ في قراءة ديوانه ونسخه حتى أكبرت الرجل وفتت بشعره وسحرت ببيانه الرائع وإن قطع علىّ إعجابي وفتني ما اعتوره من التحريف والتشويه - وهما من جبايات النساخ على الأدب العربي - ولكنني اعزمت المضي في هذه الطريق الوعرة وصممت على اجتياز هذه المفازة التي لأعلام فيها ولا صوى (١) نسترشد بها في السير ، ثم شغلني أعمال الكثرة عن المضي فيها لما تتطلبه من عناء لا تحتمله صحتي المهوكة ، وفراغ من الزمن يضيق عنه وقتي المزدحم بالفروض والواجبات .

(١) الصوى . للمات الطريق التي يطلق عليها اسم « Milestones »

ولم يكن من اليسير على أن أظفر بأديب تدفعه الغيرة على الأدب العربي إلى التضحية بصحته ووقته في عمل مضن شاق لا يفهم منه القارئ العادي إلا أنه حين سهل لا يتجاوز شرح ديوان شاعر وضطه .

ولكن صديقي الأديب العالم الفاضل الشيخ عبد الرحمن خليفة تقدم إلى مظهر إلى استعداده لمعاونتي في هذا العمل والسير معي في هذه المفازة .

ولصديقي الفاضل ولع شديد بدرس الأدب العربي، وغيرة نادرة على اللغة العربية وحرص بالغ على كسوز البيان العربي، وصبر لا يشركه فيه إلا القليل من الأدباء المخلصين، وعزيمة لا تعرف للتردد والنكوص معنى، وهذه هي الصفات التي كنت ولا زال أبشدها فيمن يتصدى لمثل هذه الأعمال المضنية .

وكان صديقي عند حسن ظني به، فقد كان يقضي معي الساعات الطوال دائماً لا يكل ولا يني ولا يفتر عزمه الأريثما يتجدد، ويعود إلى أقوى مما كان عليه نشاطاً وهمة، وهكذا مضينا معترمين في شرح الديوان وضطه وإصلاح تحريفه حتى أظهرناه للقارئ في هذا المظهر الأنيق .

٦ - رسائل ابن زيدون وأخباره

ولما كان التحريف قد لحق نثر ابن زيدون كما لحق أشعاره وإن خففت عناية الأدباء وتعاونهم وشروهم عناء التحريف في الرسالتين الجديدة والمزلية فقد رأينا أن نثبت كل ما وقع لنا من نثر ابن زيدون وشعره وأخباره كما أثبتنا ما وصل إلينا من شعر « المعتمد » و « المعتضد » و « ابن جمهور » وبعض المعاصرين لابن زيدون كابن عمار وغيره، وأتبعناهم بدراسات الأدباء المعاصرين تمة للبحث .

وقد اتسع النطاق حتى ضاقت صفحات هذا الديوان - على كثرتها - فاضطرت إلى فصل سفين عنه وإخراجهما مستقلين ليعاونا القارئ على درس هذه المسكرة من كل وجوهها. وسأفرد - إن شاء الله - كتاباً يظهر بعد انتهاء طبع هذا الديوان الحافل - بعنوان « ابن زيدون - أدبه وعصره » وكتاباً آخر بعنوان « ملوك الطوائف »، يتناول مساهم الكلام في عصر ابن زيدون الذي عاش فيه، حتى لا ينطق علينا قول المتنبي :

« ولم أر في عيوب الناس عيباً كنقص القادرين على التمام »

فاذا انتهت من ذلك بدأت في إظهار ديوان « ابن حديس » في الحلقة الثانية من سلسلة شعراء الأندلس، إن ساعدت الظروف وكان في الأجل بقية .

كامل كيلاني

المشاور

١ - ملوك الطوائف (١)

ابن جمهور - بنو عباد

منذ سنين عديدة تقلص ظل السلطة العامة عن الولايات الاسلامية ، وأصبح أمرها يسدها ، ولم يكن تفكك السلطة أمراً مرغوباً فيه عند أهل تلك الولايات عامة ، فقد ذهب بهم التفكير إلى أبعد مداه جزأ من المستقبل وأسفا على الماضي . ولم يستفد من هذا الانحلال في البلاد إلا ملوك الافرنج وحدهم . وكان من نتائج هذا الانحلال أن اقتسم قواد البربر جنوب الجزيرة فيما بينهم ، وحكم الصقالبة الشرق ، وصار ما تبقى بعد ذلك منها مقسماً بين الطارئين المتوئنين على الحكم ، وآخرين من بقايا الأسر العريقة ممن سنحت لهم الفرصة وساعدتهم على الثبات أمام ضربات « عبد الرحمن الثالث والمنصور » التي كانت مصوبة إلى الأرستوقراطية ، وانتهى الأمر بأن تكون من المدينتين الكبيرتين : قرطبة ، واشبيلية . حكومتان شوريتان ، أما قرطبة فقد حدث بعد إلغاء الخلافة أن اجتمع كبار أهلها وعمدوا إلى إسناد السلطة التنفيذية إلى « ابن جمهور » الذي عرف عند الجميع بالجدارة والاستحقاق لتقلد هذا المنصب والاضطلاع بالحكم فرفض - بادئ ذي بدء - هذا المركز السامي الذي عرض عليه ، و بعد إلحاح من جماعة المنتخبين له ، رضى بقول هذا المنصب ، ولكن على شريطة أن يكون عضوان من أسرته زميلين له في مجلس الشورى ، وهما : محمود بن عباس ، وعبد العزيز بن حسن ، فأجابه الجماعة إلى ما طلب ، ولكن على شرط أن يكون لهدين الاثنين صوت استشاري .

وقد حكم السفير الأول الحكومة النورية الجديدة بطريقة عادلة رشيدة ، وإليه يرجع الفضل في أن أهل قرطبة لم يعودوا يشكون شيئاً من الظالم التي كانت تقع عليهم من قسوة البربر . فكان أول ما وجه إليه نظره أن صرفهم عن الخدمة ، واحتفظ ببنى

(١) ارجع إلى ما نشرناه في آخر الديوان الأستاذ « نيكسون » « من ٤٢٧ » أما هذا الفصل فهو علامة دوزى وقد نقلناه من كتاب « ملوك الطوائف » الذي نطهره قريباً إن شاء الله .

ايغورين» « Beni - Iloren » وحدهم ، وهم الذين يستطيع أن يعتمد على ولائهم وطاعتهم ، واستبدل بالآخرين الذين سرحهم من البربر حرسا وطنيا . وكان يظهر بمظهر من يريد استقرار نظام الحكم الجمهوري ، فكان إذا طلب إليه تنفيذ أمر يقول : « ليس من شأني أن أقرر أمرا هو من اختصاص مجلس الشورى ، وما أنا إلا منفذ لأوامره وقراراته . » وكلما وردت عليه قصة أو كتاب رسمي يكون موجهها إلى شخصه أبى تسلمه وأمر بتوجيهه إلى مجلس الوزراء . ولم يكن ليصدر قرارا قبل عرضه على مجلس الشورى ، أضف إلى هذا أنه لم يكن يتظاهر التمتع بمظهر الحاكم ، فهو - بدلا من أن يقيم بقصر الخلافة - بقى مقبلا بمسكنه المتواضع الذي اعتاد سكناه دائما . وكانت العقيدة في نزاهته ثابتة قوية لانحوم حولها الشكوك والريب ، وقد رفض - مع هذا - أن يكون بيت المال في داره وتحت إمرته ، فعهد بحراسته إلى أكبر الناس مقاما وأكثرهم احتراما في المدينة . ومع حبه - في الحقيقة - للنال ، قضت عليه المصلحة ألا يرتكب عملا غير شريف ، ولما كان مقتصد ابل وحريصا حرصا يكاد يصل به إلى درجة الخل فقد أثرى حتى صار أغنى رجل في قرطبة ، ولكنه في الوقت نفسه بذل من الجهد المحمود ماوفر به اليسر والرخاء على الناس كافة .

وكان يندل ماى وسعه لتحسين العلاقات الودية بينه وبين الممالك المجاورة ، وقد كتب له النجاح في ذلك . فلم يمض وقت طويل حتى توطد الأمن ، وأمنت السبل ، وانتشرت التجارة والصناعة وهبطت أسعار المواد الغذائية . وأمّ قرطبة طوائف كثيرة من السكان أعادوا بناء الأحياء التي دمرها البربر أو أحرقوها حينما أدقعوا النهب والسلب في المدينة . وعلى الرغم من هذه الأعمال التي قام بها ، فإن قرطبة - عاصمة الخلافة القديمة - لم تسترد مكائنها السياسية ، ومنذ ذلك الحين بدأت اشبيلية - التي سنعنى بتاريخها غناية خاصة - تبرز الشأن الأول في المركز السياسى .

كانت اشبيلية - منذ أمد بعيد لا تزال - مرتبطة الحظ بقرطبة متأثرة بما يجرى من الحوادث فيها ، متأسية بالعاصمة حاصعة للملوك الدولة الأموية على التعقب ثم لدولة بنى حود ، ومن جراء ذلك كان للتورة التي وقعت في قرطبة أثرها السيئ في اشبيلية ، فقد ثار القرطيون على فاسم بن حود وطردهوه ، فعول هذا الأمير على الانجاء إلى اشبيلية حيث يقيم بها ولداه ، ومعهما حامية من البربر تحت قيادة محمد بن زيرى من قبيلة بنى ايغورين .

وأرسل إلى الاشبيليين يأمرهم باخلاء مائة مسكن لجنوده القادمين معه . وقد ترك هذا الأمر أثرا سيئا في نفوس أهل إشبيلية هذا إلى ما عرف عن جنود فاسم الذين هم أفقر أبناء جنسهم من أنهم من كبار اللصوص . وقد أظهرت قرطبة للاشبيليين أن من الممكن أن يتحرروا من هذا الير الذي يضجون بالشكوى منه ، فعولوا على أن يحدوا حذر قرطبة ، إلا أن خوفهم من حامية البربر المقيمة بين ظهرانيهم حال بينهم وبين تحقيق أمانيهم ، وبعد

جهود مجح فاضى المدينة «أبو القاسم بن عباد» فى كسب قائد الحامية وضمه إلى جانبه بعد أن صرح له بأنه من الهين السهل أن يصحح ملكا على اشبيلية ، فأعلن حينئذ محمد بن زيرى استعدادة لمساعدته، وسارع القاضى فعقد بينه وبين قائد بربر «قرمونة» محالفة نقلدوا السلاح - على أثرها - ضد ولدى قاسم وحاصروا قصره .

ووصل قاسم إلى أبواب اشبيلية التى كانت مغلقة ، وحاول أن يجتذب سكان المدينة إليه بالوعود الخلابه ، ولكنه أخفق فى هذه المحاولة ، ولما أوجس حيفة من نفسه على ولديه اللذين كانا معرضين للهلاك داخل المدينة ، قنطع على نفسه عهدا أن يحل - هو ومن معه من الجند - عن أراضي اشبيلية، اذا ما أسلموا اليه ولديه وأموالهما ومملكتاهما، فضمن له الاشبيليون تنفيذ هذا الشرط ، وعلى أثر ذلك انسحب قاسم وعاد أدراجه ، وتم سحت للقاضى أول فرصة ليرضى حامية البربر . ولما حصلت المدينة على حريتها اجتمع سكانها ليختاروا حاكما يولونه عليهم ، إلا أن الخواطر فى هذه الحال لم تكن هادئة والنفوس لم تكن مطمئنة خشية أن تتمخض الحوادث عن ثورة ، أو أن يعيد بنو جود الكرة عليهم ، وحينئذ لا يتوانون لحظة عن معاقبة المجرمين النافرين ، ولهذا لم تبد من أحد منهم أية رغبة قط فى أن يأخذ على عاتقه تحمل عبء المسؤولية عما وقع .

وانفق عامتهم على أن يلقوا عبء المسؤولية على عاتق القاضى وحده الذى حسدوا ثروته واستشعروا سرورا خفيا فى أعماق نفوسهم بدنو الساعة التى تصادر فيها هذه الثروة الطائلة .

فعرضوا على القاضى أن يتولى حكم المملكة، وكان - مع ما يجيش بصدرة من مطامع وآمال - حكما حازما ، فرفض فى إباء أن يتولى الحكم فى وقت غير مناسب . ولم يكن القاضى متصل النسب بالسلالات العربية، إلا أنه امتاز بحيازته أكر ثروة ، فقد كان يملك ثلث أرض اشبيلية ، وفوق ذلك امتلك له - بركة سامية من الاعتبار نظرا لمواهبه العلمية ، وكان يعوزه أن يضم الى هذه المؤهلات أن تدبج أسرته ضمن السلالات العربية القديمة . وقد تم له ذلك - فيما بعد - تريجا ، وكان يدرك أنه فى حاجة ماسة إلى وجود عدد من الجند تحت إمرته ، وليس لهذا العدد وجود ، ولم يشك فى أن الارستقراطية العظيمة المجيدة فى اشبيلية لابد أن تثور على صعلوك مثله غير معروف النسب ، يسمو مكانه إلى تسم ذروة الخلافة ، ولم يكن ثمة شئ غير هذا فى الواقع ، وقد وقع هذا حقيقة عند ما أوسك بنو عباد أن يؤسسوا الخلافة لأنفسهم . وثمة زعم آل عباد أنهم من سلالة ملوك «لحم» الذين كانوا يحكمون الحيرة قديما قبل ظهور محمد (صلى الله عليه وسلم) وكان الشعراء الذين يريدون إشباع بطونهم يتحننون الفرص للإشادة بهذا النسب العربى المزعوم ، على أنه لم يوجد ما يبرر هذا الزعم ، لأن بنى عباد والمترافين إليهم ومن يمتلقونهم لم يستطيعوا أن يقيموا الدليل على ذلك ، وكل ما يربط هذه الأسرة بملوك الحيرة أنها تنسب إلى قبيلة لحم الجمية التى ينسب إليها ملوك الحيرة . ولكن فرع أسرة آل عباد الذى

تسلسل منه آباؤهم لم يقطن - على ما يظهر - الحيرة بتاتا ، ولكنهم كانوا يقيمون أخيرا بالعريش الواقعة على حدود مصر وسوريا في قسم إيميز « Emese » .

وعلى الرغم من أن آل عباد بذلوا ماى استطاعتهم كي يصلوا نسبهم بملوك الحيرة فانهم لم يستطيعوا أن يصعدوا به إلى أبعد من نعيم والد عطف ، وكان عطف هذا على رأس كتيبة من جنود إيميز وقد رحل الى أسانبا مع بلج حيث أعطيت لجنود إيميز أراض على مقربة من اشبيلية وأقام على ضفاف الوادى الكبير ، وقد انحدر عن أصل هذه الأسرة فروع فيما يقرب من سبعة أجيال أخرجت بطاء من ظلمة الماضى أناسا صالحين عاملين مقتصدين ، واسماعيل والد القاضى هو عنوان مجدها وهو الذى خط بيمينه فى الصحيفة الذهبية لنلاء اشبيلية اسم عباد (١) . ولا غرو فقد كان اسماعيل من حملة الأقلام والسيوف ، وكان رجل فقه ودين كما كان رجل حرب وطعان ، فقد تولى قيادة فرقة فى حرس هشام الثانى ، ثم صار - فيما بعد - إماما لمجلس قرطبة الكبير ، ثم قاضيا لاشبيلية ، واشتهر بالفقه والذكاء والورع وإرشاد العامة ، وإسداء النصيح للكافة ، وكانت شهرته فى الزاهة تربو على شهرته فى غير ذلك من الأمور ، فهو على الرغم من انتشار الفساد والرشوة كان يتورع عن أن يقبل هبة من سلطان أو وزير ، وكان كريما الى أبعد غايات الكرم ، وقد لقي القرطبيون منه كرم الضيافة ، وحسن العشرة ، فجعلته كل هذه المزايا والصفات حريا أن يحرز أكر ألقاب النبل والسؤدد فى العرب .

وقبل العهد الذى نحن بصدد توفى الى رجة الله فى غصون سنة ١٠١٩ .
وربما كان ابنه أبو القاسم محمد يماثله علما وأدبا وإن كان لا يدانيه خلقا وفضلا ، فقد كان أنانيا ذا أثر وطمع وصلف وتكبر وإنكار للجميل ، وقد حدث على أثر وفاة أبيه أن طمع فى أن يخلفه فى منصب القضاء ، ولكن القوم آثروا عليه غيره ، فتقدم بالرجاء الى قاسم بن جود فقال - بفضل قاسم - منصب القضاء الذى كان يؤمله . وقد يرى المتدبر للحوادث فيما بعد كيف كان نكرانه لهذا الجليل .

وفى مفتتح هذا العهد الذى نحن بصدد - أشار نبل اشبيلية وأصحاب الراى فيها على أبى القاسم قاضى اشبيلية أن يتنوا عرش المملكة ، ولما أدرك الغاية التى يرمون اليها أظهر لهم أنه لا يستطيع أن يقل هذا الشرف الذى يولونه إياه إلا بشرط أن يشرك معه فى الحكم أفرادا يعينهم هو بنفسه على أن يكونوا وزراء وأعوانه فى الاضطلاع بأعباء الحكم بحجة أن هؤلاء الاشخاص الذين يشركهم معه فى الراى ستألف منهم هيئة شورى تقوم على تدبير المملكة بحيث لا يصدر إلا عن رأيهم ، ولا يتخذ أى قرار بدون مشاورتهم ، فقبل الاشبيليون ما اشترطه القاضى من أن يكون حكمه على قواعد الشورى فلا يحكم بمفرده ، وطلبوا إليه إنفاذ ما اذتمه من تعيين أولئك الزملاء والأعوان ، فعين بعض كرام الأسر العريقة مثل ابن حجاج وآخرين كانت تسمو إليهم الأنظار وترمقهم العيون من نصرائه الذين أنجبهم العصر ،

(١) وكان عباد الجد الثالث لإسماعيل .

وأطلعهم كواكب في سماء مصر ، كأبي بكر الزبيدي العالم النحوي الشهير . وأدب هشام الثاني ، وبعد أن تم له ما أراد من ذلك انصرف همه الى تكوين جيش للمملكة ، رفع أعطيات وأرزاق الجند ، فانضوى تحت لوائه كثير من العرب والبربر ، ثم اشترى عددا كبيرا من المماليك ودرّبهم على القتال وجرد منهم حملة على الشمال ، وهي في الكثير الغالب كانت موجهة الى أمراء آخرين ، وقد حاصر قصرين في شمال فيزي أنشأ متقابلين على صخور يفصلهما سور وأطلق عليهما اسم الأخوين وهما معروفان الآن باسم «الأفوين» وكان يقطنهما اسبانيون مسيحيون كان أسلافهم قد عقدوا معاهدة مع موسى بن نصير ، والظاهر أن هذين القصرين لم يكونا في العصر الذي نتحدث عنه في حياة ملك ليون ولا في حياة أمير مسلم ، ولذلك استولى القاضي عليهما وأرغم الذين كانوا يدافعون عنهما - وهم زهاء ثلاثمائة فارس على - الانضواء تحت لوائه ، وبذلك زادت نواة جيشه فبلغت خمسمائة فارس ، وثمة اجتمع لديه من الجند ما يكفي للاغارة على الممالك المناخلة ، إلا أن حاله هذه لم تكن لتمكّه من صدّ هجمات قوية جدية ضدّ اشبيلية ، وهذا ما وقع له سنة ١٠٢٧ ، ففي هذه السنة جاء الخليفة الجودي يحيى بن علي وأمير بربر قرمونة محمد بن عبد الله وحاصرا اشبيلية ، ولما كان في منتهى الضعف بحيث لا يستطيع المقاومة طويلا أخذ الاشبيليون يفاوضون يحيى وأعلنوا أنهم مستعدون للاعتراف بسيادته عليهم على شرط ألا يدخل البربر مدينتهم فقبل يحيى هذا الشرط ولكنه شرط عليهم - ضمنا لوفائهم وإخلاصهم - أن يرسل بعض أعيان ونبلاء اشبيلية أولادهم ليكونوا عنده رهائن يضمن بها ولاء الاشبيليين ، فلم يستطع أحد منهم أن يقدم ابنه خشية من البربر الذين يقضون على حياته لأقل شبهة ، والقاضي وحده هو الذي لم يتردد في إجابة الطلب إذ أرسل الى يحيى نجله عباد . ولعلم الخليفة بما للقاضي من الجاه والنفوذ اكتفى بقول ابنه رهينة لديه ، وبفضل هذا العمل المجيد الدال على الاخلاص للبلاد ازدادت مكانة القاضي عند الاشبيليين عامة ، وأصبح - منذ ذلك الحين - لا يخشى شيئا لامن جانب الشعب ، ولا من جانب الخليفة الذي اعترف بسيادته شكلا وخيل إليه أن الفرصة السانحة قد أمكنته من الانفراد بالحكم .

ولما كان قد أبعد من مجلس الحكم مثل ابن حجاج وغيره ولم يبق معه سوى زميلين ثم رأى أن يصرفهما عن خدمته ، ونفى زبيدي ، وعين رجلا من خواص اشبيلية اسمه « حبيب » رئيسا للوزارة ، ولم يكن حبيب هذا من رجال المبادئ إلا أنه مع هذا كان ذكيا مخلصا بكل معاني كلمة الاخلاص لمولاه ، مصرفا الى مصلحته .

وعلى أثر ذلك أراد القاضي أن يزيد في رقعة المملكة بالاستيلاء على باجة ، وقد حلت أخيرا هذه المدينة المصائب في غضون القرن التاسع عشر من جراء الحرب التي نشبت بين العرب والخالنيين . إذ نهبت وخرب البربر جزءا منها ، وعاثوا فيها سلبا ، وأحرقوا ما صادفوه في طريقهم ، وكان في نية القاضي إعادة تشييد ما خرب منها ، ولكن لما اتصل بعد الله بن الأفطس أمير « باداجوز » عزم القاضي ، جرد جيوشه تحت إمرة ابنه محمد « الذي خلفه فيما بعد باسم المظفر » وتم استيلاء هذه الجيوش على باجة في الوقت الذي جاء فيه اسماعيل بن القاضي بجيش اشبيلية وجيش حليف أبيه أمير قرمونه ، فبدأ حصارها في الحال وأمر فرسانه بالسلب والنهب في القرى الواقعة بين إيفورا والبحر ، وعلى الرغم من المدد الذي جاء من ابن طيفور ، فإن محمدا كان سيء الحظ كثيرا إذ بعد أن فقد نخبة فرسانه المحاربين وقع أسيرا بين يدي أعدائه وأرسل إلى قرمونه .

زادت هذه الانتصارات في حماسة القاضي وحليفه الأمير ، فلم يكتفيا بالاغارة على باداجوز وحدها بل أغارا على قرطبة أيضا فاضطرت حكومتها أن تستخدم للدفاع كثيرا من بربر ولاية سيدونا .

و بعد فترة من الزمن أبرم القاضي وحليفه صلحا أو سمه - إن شئت - هدنة مع الافتازيد وحيدث أطلق محمد من الأسر برضا القاضي (مارس سنة ١٠٣٠) ولما أبلغه أمير قرمونه نأى إطلاق سراحه عرض عليه أن يهرج في طريقه على اشبيلية ، ويدافع القاضي شكره ، ولكن محمدا لفرط اشمئزازه من القاضي ، قال لأمير البربر : « إني أدثر أن أظل سجينك على أن أقوم بما أشرت به عليّ ، فإذا كنت مدينا أميرك باطلاق سراحى ، وكان على أن أشكر قاضى اشبيلية وفاء لهذا الحق ، فإني أفضل أن أبقى حيث أنا سجين » فاحترم الأمير شعوره وأرسله إلى باداجوز مشيعا بما يليق برجل عظيم مثله من واجب الاجلال والتكريم .

و بعد بضع سنين أى في سنة ١٠٣٤ انقم عبد الله بطريقة قد تعتبر غير شريفة وثأر لنفسه من تلك الشدائد التي نالته ، وذلك بأن أباح للقاضى أن تمر بأرضه جنوده بقيادة اسمه اسماعيل وهي ذاهمة في طريقها للاغارة على مملكة ليون ، ولما كان اسماعيل وجنوده في مضيق لا يبعد كثيرا عن الحدود الليونية باغته جيش الافتازيد فقتل من جنود اشبيلية مقتلة عظيمة ، وقتل فرسان ليون فلول الجيش عند اياذهم بالفرار ، وأفلت اسماعيل من هذه المذبحة وبعه نفر يسير من رجاله ، وفيما كان موليا وجهه شطر مدينة لشبونة الواقعة على حدود مملكة أبيه من الجهة الشمالية الغربية تحمل هو ومن معه أشد آلام الحرمان من حاجات المعيشة الضرورية .

ومنذ هذه الآونة صار القاضي الحصم الألد للأمير « باداجوز » وليس لدينا معلومات تفصيلية عن

المعارك التي دارت بعد ذلك بين أمير «باداجوز» وخصمه، ومما لا ريب فيه أن هذه الحروب لم يكن لها نتائج ذات شأن عظيم لأسبانيا المسلمة ولم تترك فيها أثرا يضرع مآثره فيها حدث آخر سئناوله فيما يلي .
قلنا ان القاضي اعترف بسيادة الخليفة الجودي يحيى بن علي ولكن هذا الاعتراف عبارة عن تعهد غير مجد وقد بقي كذلك مدة طويلة فقد قام القاضي بحكم أشبيلية بلا سلطان عليه ولا رقابة وكان يحيى من الضعف بحيث لا يستطيع أن يلزمه بالمحافظة على حقوقه وقد تدلت هذه الحال تدريجا اذ وفق يحيى لأن يضم حوله جميع أمراء البربر تقريرا ، فأصبح من الآن بحق زعيم عامة الحزب الافريقى بعد أن كانت هذه الزعامة فيماضى اسمية ، ولما كان معسكره العام في قرمونة التي طرد منها محمد بن عبد الله فقد أصبحت جيوشه تهدد قرطبة وأشبيلية في آن واحد ، وقد أوحى هذا الخطر الخيف المحدث الى القاضي بفكرة وطنية لها خطرها ، بقيمتها لو لم يشبها الحرص والطمع والأناية والجشع .

فقد رأى من الضروري أن يجتمع العرب والصقالبة تحت راية حاكم واحد حتى لا يهزوا البربر الذين اتحدوا الاملاك التي سقى لهم غزوها .

وهذه هي الوسيلة التي تجعل اللاد بمنجاة من حلول مثل ما حل بها من المصائب من قبل ، وكان القاضي يشعر من أعماق نفسه بهذه الضرورة ، فقويت عنده الرغبة في أن يتألف حزب قوى كبير يندمج فيه جميع العناصر المعادية للحزب الافريقى ، وهو في الوقت ذاته يمتنى أن يكون رئيسه ، ولم تكن العقبات التي عليه أن يذلها لنيل تلك الغاية بخافية عليه . فقد كان يدرك أن ملوك الصقالبة وأمراء العرب ، وشيوخ قرطبة يجرحون في كرامتهم اذا ما حاول أن يبسط سلطانه عليهم ، على أن شيئا من ذلك لم يثبط همته ولم يجعل اليأس يتسرب الى نفسه .

ولما كانت المصادقات ستخدمه ، فهو سيتمكن الى حد ما من الوصول الى الغاية التي يرمى اليها ، والمشروع الذي يعمل على تحقيقه ، وسنرى فيما بعد على أى نحو يتم له ذلك .

أسلفنا أن الخليفة التمس «هشام الثانى» فر من القصر في عهد سليمان الثانى . وقلنا ان أكثر الظواهر تدل على أنه مات في آسيا مجهولا غير معروف . ومع هذا فقد بقي الشعب غير مصدق بوفاة لتعلقه المفرط بالدولة الأموية التي درت عليه أخلاف اليسر والرخاء ، وكسته حلل الشرف والمجد ، وكان عامة أفراد الشعب يتلقون الاشاعات التي كانت ترد اليهم من الخارج منبهة ببقائه على قيد الحياة باهتمام وشغف ، وهناك أفراد كانوا يزعمون أنهم واقفون على تفاصيل حياته بآسيا فقد أشاع بعض أولئك الزاعمين أنه رحل أولا إلى مكة ومعه خريطة مملوءة بالقود والمفاسس ، فسله الزنوج الذين كانوا برفقته مامعه ، وأنه استمر يومين لا يتذوق طعاما ولا شرابا ، إلى أن رآه رجل يصنع الفخار فرق له ورثى لحاله ، فعرض عليه أن يعجن له الصلصال على أن يعطيه في اليوم درهما ورغيفا ، فرجا صانع الفخار أن يعطيه الأجر سلفا إذ قد مضى عليه يومان لم

يتناول فيهما طعاما وبعد لأى استطاع هشام على كسل وفترة فى العمل أن يكسب قوت يومه ، إلا أنه أشف من هذه الحالة فهرب ، وسار مع قافلة ذاهبة الى فلسطين ، ووصل الى أورشليم ، وهو فى أشد حالات الاملاق ، وهناك بينما هو ينتقل فى بعض طرق المدينة إذ وقف على حانوت حصرى ، وأخذ ينظر الى عمله بانباء شديد ، فسأله الحصرى : هل تعرف هذه الصناعة ؟ فأجابه بحزن كلا ، وأما آسف لأنه لا سبيل الى العيش وكسب ما أسد به الرتمق ، فقال الحصرى : اذن فابق معى لحاجتى اليك فى احضار الخيزران ، ولك أجرك ، فقبل مسرورا وبقي عند الحصرى الى أن حذق الصناعة ، وما زال على هذه الحال بضعة سنين ، وقد أذاعوا بعد ذلك أنه عاد الى أسبانيا فى سنة ١٠٣٣ ونزل مائقه ثم تحوّل عنها الى المريه ، فوصل اليها سنة ١٠٣٥ فاضطر الأمير زهير الى إبعاده خارج حدود مملكته ، فرحل الى كالاترافا ونمة التى بها عصا التسيار .

هذه الرواية التى صادفت رواجاً وقبولا من الشعب لا تستحق - على ما يظهر - أن تنال شيئاً من الثقة ، والذي وقع حقيقة هو أنه فى العهد الذى كان فيه يحبى يهتد إشبيلية وقرطبة ، كان فى كالاترافا رجل حصرى اسمه خلف يشبه تمام الشه الخليفة هشاماً الثانى ، ولكن لم يقم دليل على أنه هو بعينه ، وقد نفي الأمويون شيعة هشام ومعهم ابن حيان وابن خزم المؤرخان ما دار حول هشام المزعوم من الروايات والاراجيف وعدوه ضرباً من الحيلة السياسية والخداع والقحة ، وان كان من مصلحتهم لو أمكن الوقوف لهشام على أثر ، ولم يتوقف خاف حين طرق سمعه كثيراً أنه شبيه هشام عن ادعاء أنه هو نفسه الخليفة هشام الثانى ، وقد جارت هذه الحيلة على أهالى كالاترافا ، لان خلفاً لم يكن معروف النسب عندهم ، والأغرب من هذا أنهم دخلوا فى طاعته ، وثاروا على أميرهم اسماعيل بن دهمان - نون أمير طليطلة فجاء هذا وحاصره ولم تطل مدة مقارنتهم ، وأخرج هشاماً المزعوم من المدينة فهذا نأثر الأهالى ، وعادوا الى السكينة والخضوع .

ولم ينته دور خلف عند هذا الحد ، بل رجع عوداً على بدء حين علم قاضى إشبيلية بخبره وعلم الفائدة التى يجيها من وراء ذلك الرجل اذا هو أحضره الى إشبيلية ، وكان الذى يهمه إنما هو استغلال الموقف بقطع النظر عن شخصية الرجل ، كما كان يسره كثيراً أن يراضى الناس أنه هشام ، ليستطيع أن يكون باسمه حزبا ضد البربر ويكون هو بعوان كونه رئيس الوزراء زعيم روح هذا الحزب ، ولهذا بادر الى دعوة الخليفة المزعوم الى إشبيلية ، ووعد به تعزيده اذا نجح فى اثبات شخصيته ، ولما حضر الحصرى الى إشبيلية قدمه القاضى الى نساء هشام بالقصر ، فصرحن جميعاً تقريرا بأنه هو بعينه الخليفة السابق ، وعول القاضى على قولهن ، وبعث الى شيوخ إشبيلية وأمراء العرب والصقالبة يعلمهم بأن هشاماً الثانى عنده ، ويدعوهم الى حل السلاح معه دفاعاً عن حقوقه ، ومؤازرة لقضية الخلافة وقد كان الله هذا المسمى

بالتجاح ، واعترف بسيادة هشام محمد بن عبد الله أمير قرمونة المخلوع الذي لجأ إلى اشبيلية ،
وعند العزيز أمير بلنسية ، ومجاهد أمير دانية ، وجزر بليار ، وأمير تروتوزا (طرطوشة) .
وعلم عامة الشعب في قرطبة علما مقروبا بالسرور أنه لا يزال على قيد الحياة ، إلا أن كبيرهم
أبا الحزم بن جمهور كان أقلهم تصديقا للخبر حرصا على الحكم ، فلم ينخدع ، ولم تجده هذه الحيلة
إلى نفسه مساغا ، ولكنه لم يجد سبيلا إلى مقاومة إرادة الشعب ، ومخالفة ميوله ، ورأى ضرورة
اتحاد العرب والصقالبة تحت راية حاكم واحد ، لأنه كان يخشى في ذلك الحين أن يهاجم البربر
قرطبة ، فلهذه الأسباب لم يناقض أغراض مواطنيه ، وسمحت نفسه بأن تتجدد البيعة لهشام
الثاني من جديد .

وكان من نتيجة هذه الحوادث أنه بينما كان الحزب العربي الصقابي يتسلح ضد يحيى ، كان هذا
محاصرا لإشبيلية ، مجدا في تخريب ما ينصل بها من العمران ، موطنا النفس على الانتقام الهائل
من القاضى الحائن ، ولكن الملتفين حوله من بربر قرمونة الذين أكرههم على الانضواء تحت
رايته - كان هواهم مع هشام الثاني خليفتهم السابق ، وكانت المخابرة بينهم وبينه سائرة ، وفي
أكتوبر سنة ١٠٣٥ ذهب فريق منهم خفية إلى إشبيلية ، وأبلغوا القاضى ومحمد بن عبد الله
أنه من السهل ماغته يحيى لأنه لا يكاد يفيق من السكر ، ولم يدع القاضى وحليفه هذه الفرصة
تمر دون أن يستفيدا منها ، وهنا وجه القاضى ابنه إسماعيل ومعه محمد بن عبد الله على رأس
الجيش الإشبيلي ، وعند ما أرخى الليل سدوله كن إسماعيل مع أكثر الجند في كمين ، وأرسل
كوكبة لماوشة قرمونة ليغري يحيى بالخروج إلى ظاهرها وقد نجح في خطته هذه ، إذ كان يحيى
حين بلعه مجيء ابن عباد على رأس جيش ثملا ، فنهض وكان متسكئا على سريره وصاح قائلا :
« يا لها من فرصة سعيدة ، هذا ابن عباد مقبل لزيارتي ، والآن أيها الجند ، خذوا أسلحتكم
وامتطوا جيادكم قبل ضياع الوقت ، وخرج في ثلاثة آلاف فارس ، وكان النبذ قد لعب برأسه
فلم يتمهل ريثما يعي جنده وينظم خططه ، يضاف إلى ذلك أن ظلام الليل الخالك كان يحجب
عنه كل شيء ، وفوجيء الإشبيليون منه بهذا الهجوم المماغت فقابلوه من جانبهم بجلد وعنف ،
وأخذوا يتقهقرون بنظام نحو المكان الذى كن فيه إسماعيل ، ومن هذه اللحظة سعى يحيى إلى
حرقه بنفسه ، فان إسماعيل انقض عليه بكل قوات الجند ، واضطره إلى التقهقر ، وقتل
يحيى نفسه في المعركة ، وكاد يأتى القتل على أكثر رجاله لو لم يحل محمد بن عبد الله دون ذلك ،
وقال له : « إن أغلب هؤلاء المساكين من بربر قرمونة الذين أكرههم هذا الطاغية على الدخول
في خدمته مع كراهتهم واحتقارهم له . » فأبقى عليهم وأمر جنده بترك أعقبهم وخف محمد
ابن عبد الله إلى قرمونة على ظهر جواده ليسترد ملكه ، وأراد زئوج يحيى الذين استولوا على
أبواب المدينة أن يحولوا بينه وبين الدخول لو لا أن ساعده الأهالى على دخولها من ثغرة ،
وسار إلى قصر الامارة وسلم نساء الأمير يحيى إلى بنيته ، واستولى على ما فى القصر من كنوز
ونقائس « نوفمبر سنة ١٠٣٥ »

وقد أحدث نبأ وفاة يحيى سرورا عظيما في اشبيلية وقرطبة ، وعند ما وصل الخبر الى مسامع القاضى خـ ساجدا شـكرا لله ، وحـذا حـذوه جـيع من كانوا حوله والآن أصبح القاضى لا يخشى شيئا من جانب اليهوديين ، وقد نودى بادريس أحد أشقاء يحيى خليفة فى ماله ، وقد كان يعوزه الوقت الكافى الذى يستطيع فيه أن يكسب بقوة نفوذه ، وما يقدمه من وعود ، قلوب زعماء البربر ، ليجعلهم فى صفه ، ولهذا لم يعد فى استطاعته أن يخضع الجزية بعد أن نادى الزوج فيها بأن عمه محمد ، خليفة .

ولما رأى القاضى أن الظروف خدمته ، همّ بأن يقيم هو وهشام الثانى المزعوم بقصر الخلافة فى قرطبة ، إلا أن يقظة ابن جهور ، وتصميمه على عدم التخلّى عن الحكم ، وقنأ حجر عثرة فى طريقه ، فقد نجح فى اقناع أهل قرطبة أن الخليفة المزعوم لم يكن سوى رجل ماكر مخادع وأن اسم هشام قد ألغى من الامامة ، وعرف أن القاضى عند مجيئه بهشام الى قرطبة سيلقى أبوابها معلقة فى وجهه ، وثمة لا يستطيع التغلب على مدينة منيعة حصينة مثالا ، فيضطر أن يعود من حيث أتى .

٤٤

وعوّل فى بداية الأمر على أن تعسكر جيوشه عند الأمير الصقايى ، وهو الأمير الوحيد الذى أبى الاعتراف بهشام الثانى ، ذلك الأمير هو زهير أمير المرية ، وممّد أراد الحايعة فسم أن يهون على الأمير ، واقطعه عدّة أملاك بدأ زهير يناصر اليهوديين ، ولما نودى بادريس حايعة بادر بالاعتراف به ، ولما صار الآن مهددا من القاضى عقد محالفة مع جيوس الفرناطى ، ثم زحم جيش إشبيلية ، وذهب لمقابلاته بجنوده وجنود حليفه إذ اضطره إلى التقهقر . ومن المحقق أن القاضى قد بالغ فى الاعتداد بقوته ، ولم يحسب حساب أعدائه ، وكان عليه أن يخشى يحيى الوقت الذى تغزو فيه جيوس المرية وغرابة بدورها إشبيلية . وكثيرا ما خدمته محاسن العصف التى شامت أن يخلصه أحد أعدائه من عدوه الآخر .

٢ - المناهج الأدبية (١)

كل ما يكتب في هذا العصر إنما هو محاولات أولية ترمى الى المثل الأعلى الذى نشده جميعا ، ولا يزال الأدب العربى وتاريخ الأدب العربى فى أشد الحاجة الى جهود الأدباء المتواصلة لتنظيمه وتمحيصه وإصلاح تحريفه والكشف عن الاغلاط الكثيرة التى ألحقها به الفساح . ولازال كل جهد يبذل فى ازاحة الستور عن هذه المناجم النفيسة مفتقرا الى جهد آخر يشد أزره ويساعده .

قد كنا الى عهد قريب لانكاد نؤمن بأن فى العربية كلها شاعرا واحدا يجارى المشهورين من شعراء الغرب . فلما انصرف الأدباء والعلماء الى الدرس والتحصيل والبحث والتحليل ، اكتشف الشباب نخبة من فادة الفكر العربى الممتازين ، ولا زلنا نطمح فى ازاحة الستور عن بقية اعلام الفكر العربى القدماء .

وقد كان من الطبيعى أن يصحب نهضتنا وهى فى أولها ما يصحب كل نهضة أخرى من العلو والاسراف فى بعض الواحى ، وفى نهضتنا الأدبية عيب جوهرى نخشى أن يعوق سيرها حيناً من الزمن نحن فى أشد الحاجة الى الانتماع به واسعلا له بأقصى ما فىنا من قوة . ذلك العيب الجوهرى هو أن أكثر من يكتب فى تاريخ الأدب العربى ينقسم قسمين : فريق من المحافظين الجامدين وفريق من المجددين المسرفين .

يأتى الفريق الأول الا أن يتقيد بالنصوص القديمة ويأخذ بأراء القدماء فى النقد والادب باللغة ما بلغت من الاضطراب والفساد من غير أن يعنى نفسه بعونها وتمحيصها ولا يكاد يردد الا عبارات محفوظة و (كلاشيهات) قدأبلاها الدهر ولا يكاد يجزو على استخلاص نتيجة واحدة من بحوثه الطويلة واطلاعه الواسع ، فامرؤ القيس أكبر مزاياه أنه دفع واستوقف ، وبكى واستكى ، وذكر الحبيب والمزل فى شطر بيت واحد وذلك فى قوله :

« قما نك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فومل »

والباقى الديانى قد بز الشعراء بقوله :

« فالك كالليل الذى هو مدركى وان خلت أن المنأى علك واسع »

الى آخر هذه العبارات التى حان الوقت لاراحتها بعد أن أنهكها طول الاستعمال وكثرة الاستشهاد والتكرار .

الفريق الثانى من غلاة المجددين أو - على الأصح - دعاة التجديد ، لا يبالون بالنصوص ولا يعنون أنفسهم بدرس الموضوع الذى يتصدون لبحثه ، وربما اكتفى بعضهم بالخلاص المدرسية التافهة فى الحكم على الشعراء والأدباء والأدب العربى كله . فالعرب - فى رأى أحدهم - لم يطر قوا نوعا بعينه من الشعر ، لأنه لم يقرأ هذا النوع فى تلك

(١) تثبت فيما يلى فصولا مختارة من رسالتنا عن ابن زيدون ، توبرا للقراء .

الخلاصات المدرسية ، وهذا الشاعر لا يسمو الى مرتبة الفحول لأن الأبيات القليلة التي قرأها في تلك الخلاصات لا تبرر وضعه في مصاف الممتازين والنوابغ .

وهم لا يرون اذا تصدوا للكتابة إلا وسيلة واحدة للطرافة والابداع وهي الخيال ، فهم لا يبالون اذا أعوزتهم النصوص أن يخلقوا تاريخ الشاعر خلقا ، وأن يدمجوا حياتهم في حياته وينحلوه نقائصهم وما يتخيلونه في نفوسهم من مزايا ، فتراهم يخفون من الشاعر صورة هي أصدق مرآة نستشف فيها نفوسهم .

فاذا كان أحدهم حليعا تلمس شاعرا مشهورا بالخلاعة ولم يعن نفسه بشرح أسباب خلاعته مقدار عنايته بتبرير الخلاعة والتمدح بها ، واذا كان أحدهم حاقدا تلمس شاعرا مشهورا بالحق ، ولم يعن بالأسباب التي أحفظته على معاصريه عنايته بتبرير هذه الخلة فيه . ولست أنكر على الباحث أن يتصدى لتحليل أية نفس إنسانية ماجنة أو جادة ، راضية أو ساخطة ، ولكنني أنكر عليه أن يخفق التاريخ خلقا يؤيد رأيا - صالحا كان أو فاسدا - فان أمانة المؤرخ ودقته هما أول واجبه نحو الحقيقة والانصاف .

أما أن يبصر هوى أو يحجى وراء خيال أو يطق لما - بلا روية ولا أناة - نظريات مغلوطة وآراء فاسدة خاطئة تلقعها بلا روية ولا تدبر ، فذلك أضرّ على الحقيقة من أوائك الجامدين الذين لا يثقون بالأدب خطوة واحدة .

وقد بلغ من تهوؤ وشطط بعض دعاة التجديد أنهم أنكروا كل خيال عربي - لماذا ؟ لأنهم سمعوا أن أحد المستشرقين قال : « إن العرب ضيقوا الخيال وإن سعة الخيال وعمق الفكر وقف على الآريين » .

فإن الرومي مثلا واسع الخيال . لالأهم اقتنعوا بسعة خياله ، بل لأن جده رومي . والمعري لا خيال له وإن كان خياله أوسع من خيال ابن الرومي - لماذا ؟ لأنه عربي قبح ، ولكن المعري هو صاحب رسالة الغفران التي تعدّ آية من آيات الخيال العربي ، فماذا يقولون فيها ؟ الأمر غاية في اليسر ، ليس في رسالة الغفران كلها خيال وإنما هي كتاب أنشاء المعري في جغرافية الجنة والنار .

ومن اليوم الى أن يظهر للمعري جده رومي تبقى رسالة الغفران كتاب جغرافية ، ومتى ظهر له جده آري أصبحت « رسالة الغفران » كتابا من أروع كتب الخيال .

هكذا يحكمون من غير أن يحاسوا نفوسهم على ما يقولون . وقد حاولنا جهدا أن تلمس لابن زيدون جده آريا نتقدم به الى هذه الفئة لتكبر من مواهبه وخياله ، فلم نظفر بذلك .

على أن في ابن زيدون منبة قد تشفع له عند هؤلاء المفتونين بالغرب ومايمت إلى الغرب . فقد نشأ ابن زيدون في بلاد الأندلس : وهي في صميم أوروبا ، فهو شاعر أوروبي البيئة وقد مدحه كثير من المستشرقين ، ولعلّ هذا يشفع له عند هؤلاء المقلدين .

أما الشباب المنصف الذي لا يعنى إلا بالحقائق ، فاننا نتقدم إليه بديوان ابن زيدون ورسائله ، وسيرى فيها أمثلة من الابداع والافتنان ، ونماذج من الروعة والاحسان ، وصفحات رائعة من صفاء الديباجة وسحر البيان - وكلما ثقة بأن درس ابن زيدون سيكون أكبر حافز على درس غيره من غول الأدب العربى والبيان العربى .

وما أجدر الباحثين أن يتوخوا الانصاف فان آفة الرأى الهوى ، وأكثر الناقدين لا يفسد عليهم بحوثهم إلا التحيز وتنسكب الجادة وإرضاء النزوات الفكرية الطائشة . وفى يقينى أن الناقد كالمقاضى يجب أن يتوخى النزاهة التامة ، ويسمو بنفسه عن مزائق الأهواء ، ولا يألو جهدا فى البحث عن الحقيقة ، أما أن ينقلب الناقد محاميا للدفاع أو نائب اتهام - كما يفعل أكثر الكتاب - فذلك ما لا نرضاه له ، ولعل أكبر عقاب يناله هو فقدان الثقة بما يكتب .

٣ - نشأة ابن زيدون

ولد ابن زيدون في قرطبة سنة ٣٩٤ هـ في زمن الدولة العاصمية ، في أول عهد المظفر ابن المنصور بعد سنة واحدة من موت المنصور بن أبي عامر . وهو من أسرة مجيدة من بني مخزوم (١) ، وهو أحد ثلاثة تسموا بابن زيدون وهم :

١ - أبوه : عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيدون وكنيته أبو بكر ، وكان فقيها بقرطبة وكان قاضيا وعالما مشهورا وأديبا واسع الثقافة .

وقدمات (٢) سنة ٤٠٥ هـ ، وترك ابنه وسنه حينئذ إحدى عشرة سنة وهكذا أصاب ابن زيدون اليتيم وهو صغير .

٢ - أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيدون صاحب هذا الديوان الذي بين يدي القارئ وكنيته أبو الوليد .

٣ - ابنه أبو بكر بن زيدون الذي تولى بعد وفاة أبيه وزارة المعتمد بن عباد وقتله يوسف بن تاشفين ، بعد أن استولى على ملك بني عباد سنة ٤٨٤ هـ .

وكان ابن زيدون صاحب هذا الديوان أشهر هؤلاء الثلاثة وفد كرس حياته للدرس والتحصيل وساعده نوغه ومواهبه على ذبوع صيته وشهرته وهو لم يتجاوز العشرين من سنه ، وكان عصره أزهى عصر أدبي في الأندلس وفد تلمذ على أساتيد الأدب في زمنه وألم من كل علم بطرف ، وفرص الشعر وسع فيه وهو في العشرين من عمره ، واشترك في الفتنة القرطبية ، وقام بسبب كبير في تلك الثورة التي اندلعت نيرانها في قرطبة .

وكان ابن زيدون من زعماء تلك الفتنة التي زلزلت دولة بني أمية ودولة بني حمود والعلويين ، وانتهى الأمر بانقضاء عليهم جميعا وقيام ملوك الطوائف على انقاضهم . وكانت سنة وقت الثورة ثمانيا وعشرين سنة (٣) .

(١) بطن من قريش ، وهم عشيرة خالد بن الوليد .

(٢) مات أبوه بمدينة البيرة ، ونقلت جثته الى قرطبة فدفن بها ، ومما وصل إلينا من رثاء الشعراء

فيه قول بعضهم :

«أي ركن من الرياضة هـ صا وجوم من المكارم فبضا

جلوه من بلدة نحو أخرى ليوافوا به ثراء الأريضا

من جن السحاب ماء صيبا ليداوى به مكانا صريضا

(٣) بدأت الثورة سنة ٤٢٢ هـ وكانت ولادته في سنة ٣٩٤ هـ فتكون سنه حينئذ ٢٨ عاما .

وقد ظل ملك بني أمية في الأندلس ٦١٢ سنة وثلاثة وأربعين يوما . وقد انقسمت ممالك الأندلس بعد

فقر به اليه ابن جهور (١) وأعلى قدره ثم لم يلبث أن منحه لقب « ذى الوزارتين » .
وكانت بين ابن زيدون وابن عبدوس منافسات كثيرة لاشتراكهما في حب ولادة ،
فأخذ يكيد له ابن عبدوس هو وأصحابه الناقون على ابن زيدون عند أبي الحزم حتى غيروا
عليه قلبه وسجنوه بتهمة التآمر على قلب الملك واعادته الى بنى أمية كما سنفصل ذلك في
رسالة خاصة .

وقد أنشأ ابن زيدون في سجنه كثيرا من القصائد الرائعة والرسائل البليغة التي يراها
القارى في ديوانه . وحاول أن يستعطف بها ابن جهور متوسلا اليه تارة بإبنه أبى الوليد وتارة
بغيره من أصدقائه ، فلم تلقى شكواه أذنا صاغية . على أن السجن لم ينس ابن زيدون حبه
ولادة فنظم فيها نخبه من أروع قصائده ، ولما ينس من عفو أبى الحزم ، لجأ الى الفرار من السجن ،
ولم ينس ولادة التي كان يهيم بحبها ، ولكنها أغفلته واشتعلت عنه بحب ابن عبدوس (٢)
على أن ابن زيدون لم ينسها طول حياته ، وما زال ينظم الأشعار متغزلا بها ، شديد الحنين
الى أيام وصالتها وظل حبها المعين الثرار الذي لا ينضب ، وما زال يلهمه أروع خواطره الثائرة
وعواطفه المتأججة ، وكان من أكثر الأسباب في وصول ابن زيدون الى مرتبة الزعامة بين
شعراء الغزل الممتازين .

سنوط الدواة الأموية الى تسع عشرة مملكة منها ، قرطبة ، واشبيلية ، وحيان ، وقرمونة ، والعرب ،
والجزيرة الخضراء ومرسية وبانسية ، ودانية ، وطرطوشة ، ولاردة ، وسرقطة ، وطليطلة ، وباجة ،
واشونة الخ

قال ابن حزم : كانت طرطوشة وسرقطة وفراغة ولاردة وقلمة أيوب في يد بى هود . وبلسية
في يد عبد الملك بن عبد العزيز . ولشراى مافوق طليطلة - من جهة الشمال - في يد بى رزيم . وطليطلة
في يد بى ذى اللون . وقرطبة في أيدي أساء جهور . واشبيلية في يد بى عباد . ومالقة والجزيرة الخضراء
في يد بى برزال من البربر . والمرية في يد زهير العامري ثم ابن صمادح . ودانية وأعمالها والخزائر
الشرقية في يد مجاهد العامري . وبطلبوس وبائرة وشنترين ولشوبه في يد بى الأفتس . وأصبح كل امرئ
وما اختار من الألقاب والاسماء ، حتى أن السجين ، لما جلس على كرسي الخلافة ، قال للناس أجمعين :
« ارتعوا كيف شئتم وارتمسوا على أحببتم من الخطط » فتسمى بالوزارة في أيامه - ممردة ومشاة - أراد
الدائرة ، وأحداث الطيارة ، فصلا عن زمام الكتاب والخدمة .

(١) هو أبو الحزم بن جهور الذي استولى على المملكة بعد خلع الجند آخر خلفاء بى أمية ، ولم يتحول
عن داره الى قصر الخلافة ، وجعل الأمر شورى ، وساس الأمور بحزمه وحسن تدبيره ، وكانت مدته في
الحكم أربع عشرة سنة وبضعة أشهر ، ثم خلفه ابنه أبو الوليد محمد بن جهور الذي مات في شوال
سنة ٣٤٣ هـ

(٢) وفي ذلك يقول ابن زيدون .

« أكرم بولادة ذخر المذخر لو فرقت بين بيطار وعطار
قالوا : أبوعاسر أضحى يلم بها قلت : العراشة قد تدن من النار
عبرتمونا بأن قد صار يخلفنا فيمن نحب ، وما في ذاك من طار
أكل شهى أصبنا من أطايبه بعصا ، وبعضا صفحا عنه قفار »

ولما مات أبو الحزم عاد ابن زيدون الى قرطبة وانضم الى أبي الوليد وقام بالسفارة بينه وبين ملوك الطوائف فأعجبوا به وتمنوا استئثارهم به لبراعته وحسن سيرته وتمكن من دولة ابن جمهور وابتم له الحظ ثانية حتى أفسد الحساد ماصلح ، وخشى ابن زيدون أن يلقى من الابن ما لقي من الأب من النكال والسجن ، ففرّ هارباً من قرطبة . وظلّ ينتقل في أرجاء الأندلس من رنده إلى باداجوز إلى اشبيلية أخيراً حيث اتصل بعباد ابن محمد صاحبها الملقب بالمعتضد (١) ولم يكن يخفى أدبه وشهرته ومكانته عليه فهش له وبش وألقى اليه مقاليد ورارته ، وبعد أن مات المعتضد حارل الوشاة وعلى رأسهم ابن عمار أخلص أصدقاء المعتضد أن يغيروا قلبه عليه وأن يدسوا له عنده ولم يفلحوا ، وأقصاهم المعتضد بن عباد عنه وقرّب اليه ابن زيدون وأعلى مكانته عنده وظلّ ابن زيدون يزين له غزو قرطبة حتى ملكها عنوة بفضل تدير ابن زيدون وسعة حيلته ، وانتقل المعتضد وابن زيدون اليها وجعلها عاصمة ملكه .

ولما وقعت الثورة ضد يهود اشبيلية ، انتهر ابن عمار وابن مرتين وأنصارهما هذه الفرصة لاقصاء ابن زيدون عنهم تخلصاً من منافسته ، فزينوا للمعتضد أن يوفده إلى اشبيلية لشدة تعلق أهلها به واستعمال حبه في تسكين الاضطراب وتهدئة الخواطر ، وكان المعتضد يعلم ما يكره أهل اشبيلية لابن زيدون من الحب وماله عندهم من المكانة والخطر . وكان ابن زيدون مريضاً فاضطره المعتضد الى السفر ، فلم يستطع إلى مخالفته سبيلاً ، ولم يلبث أن اشتدت به الحلى وألح عليه السقم فلحقت به أسرته . ولكن الشيخوخة والمرض تكاثفا عليه فأهلكاه في ١٥ رجب سنة ٤٦٣ هـ فزن عليه أهل اشبيلية أشدّ الحزن ودفن فيها باحتفال مهيب . وقد مكث في خدمة آل عباد تسعة عشر عاماً ، ولوطال عمره قليلاً لأفلق حساده ومنافسوه في تغيير قلب المعتضد عليه والتسكيل به كما أفلحوا في مثل ذلك من قبل ، ولكن الموت ألقاه من دساتهم وكيدهم ورجه من شرّهم .

(١) استطاع المعتضد أن يتلب علي كل ماواجهه من القات وبذل أقصى ما يبدل داهية من الداهة حتى صلاه الجو وسلم له الملك وكان أكبر من يناوئه من التملين وأشدّهم عليه صهاجة و هو برزال الذين كانوا بقرمونه وأعمالها من نواحي اشبيلية ، فلم يزل يصرف الحيلة نارة — كما يقول المراكشي — ويعجز الحيوش أخرى الى أن استلهم ففرق كلتهم ، وشقت منتظم أمرهم ، وساهم عن جميع تلك البلاد ، وصفت له أموره .

بحترى المغرب

« ويقول من أدنا : إن ابن زيدون بحترى زمانا ، وصدقوا

لأنه هذا حذو الوليد في بعض قصائده » « ابن سام »

قلت في فصل سابق : إننى ترددت في مشايعة « نيكلسون » حين وصلت إلى قوله :

« وقد أطلقوا على ابن هانيء لقب متنبى الغرب ، كما أطلقوا على ابن زيدون لقب بحترى

الغرب . »

وقد قلت حينئذ :

« ولما كنا لم ندرس ابن زيدون دراسة تمكننا من الحكم عليه حكما صحيحا ، فإنا نترك مناقشة القسم الثانى من هذه التسمية ونكتفى الآن بالكلام على النقطة الأولى وهى تشبيه ابن هانيء بالمتنبى لاستطاعتنا الكلام فى هذا الموضوع . »

والآن بعد عشر سنوات أستطيع أن أقرر مستوثقا : أن هذه التسمية صادقة فى تفصيلها وإجمالها ، وأن من يدرس ابن زيدون والبحترى يطلق على ابن زيدون لقب بحترى المغرب ، ولو لم يعرف أن القدماء قد أطلقوا عليه ذلك اللقب ، فكلاهما رائع الظم سحر الأداء ، وأكثر العصور الشعرية التى أبدعها جديرة بأن تنال أعز مكان فى أرقى المناحف الشعرية .

ولقد يسر علينا ما لقيناه من الجهد والعناء فى إظهار هذا الديوان أن به من الصور الشعرية الرائعة والبيان الساحر الغلاب ما يفخر به الأدب العربى والشعر العربى فى أزهى عصورهما وأنضرها ، فقد كان ابن زيدون فى سموه وافتنانه - وما أكثر سموه وافتنانه - مثالا رائعا للشاعر المدع القادر المتصرف بفنون القول وأساليب البيان .

وأحب أن أصرح القارىء أننى كدت أتسرع فى الحكم حين عرضت لهذه التسمية فى كتابى « نظرات فى تاريخ الأدب الأندلسى » ، فأقرر أن فى هذه التسمية كثيرا من الاسراف والمبالغة ، وقد كنت حينئذ متشعبا بروح البحترى مأخوذا بسحر بيانه ، وكنت لا أكاد أصدق أن شاعرا - كابن زيدون - جدير أن يوضع معه فى ميزان أو يشركه فى إحسان .

ولكننى رأيت أن من الظلم والغبن أن أفاضل بين شاعرين درست أحدهما دراسة مستفيضة ولم أقرأ لثانيهما إلا عشرات من الأبيات و بضع صفحات من النثر ، فأرجأت الحكم حتى أتم الدرس . وهذه حالة نفسية تعرض لأكثر المشتغلين بالأدب فى هذا العصر ، وهى آفة من الآفات التى تفسد على الباحثين بحوثهم ، فإن أكثرهم لا يتورع فى الحكم على شاعر لم يدرسه ولم يعن بقراءة آثاره وتقصى أخباره ، بأنه شاعر ممتاز أو سخييف ، وبعضهم يكتفى بالمختصرات المدرسية والمختارات الشائعة المقتضبة فيصدر الأحكام السريعة على الشعراء والأدباء وربما عكف أحدهم على درس شاعر ولم يدرس غيره ، فراح يعلأ الأرض بمجيداله ويسرف فى إظهار منازياه وتفضيله على جميع شعراء العربية حتى ليقول أحدهم فى وصف بعض الشعراء :

« فهو الشاعر من فرعه إلى قدمه وهو الشاعر في جيده ورديته ، وهو الشاعر فيما يحتفل به وما يلقيه على عواهنه » الى أن يقول « فما تحرك حركة الاكان للعقرية فيها أوفى نصيب » (١) وقد كان المرحوم الشيخ محمد شريف سليم شارح ديوان ابن الرومي ، يرى بعد أن درسه دراسة مستفيضة أن ابن الرومي أشعر شعراء العربية . وأكثرتهم تصرفا بفنون القول وكان الباعث له على ذلك أنه عكف على درسه زمنا طويلا فظهرت له مزاياه الباهرة فحسب أن أحدا من الشعراء مهما سما لن يصل الى مكانة ابن الرومي .

وهؤلاء الباحثين عذرهم في اصدار هذه الأحكام وإن لم ينصفوا الحقيقة، فإن كل شاعر من هؤلاء النحول يترجم لنا عن حضارة هائلة ويخلق بنا في أجواء ساحرة نفسينا - حين نحلق فيها - كل شاعر سواء ، فالسحري والمتنبى والمعري وابن الرومي وابن زيدون وابن جديس وأضرابهم يكاد يعيبك واحد منهم ويملا نفسك جمالا وبروعة اذا اقتصرت على درسه وحده . ولكك بعد ذلك جدير ألا نحكم بتفضيل أحد هؤلاء على الآخرين والازراء بهم لأنك لم تدرسهم جميعا دراسة مستفيضة .

وأذكر بهذه المناسبة أنني كنت في مجلس يضم صفوة من رجال الأدب الممتازين كانوا يتناقشون في الأدب فقال أحدهم :

« إن سيد كتاب العربية وإمام البيان العربي هو ابن المقفع » ثم راح يطربه ويخلع عليه كل عبارات الثناء ، فقال له الآخر : « أما أنا فقلت من رأيك ، فإن أبا الفرج الاصبهاني بثره المجز قد بز كل كتاب العربية » فقال الثالث : « أين أنتم من عبد الجيد السكاتب فهو سيد هؤلاء جميعا » فابرى له الرابع قائلا :

« الحق أن امام البيان العربي هو الجاحظ » ثم سألوني رأيي فقلت :

« بل سيد كتاب العربية هم هؤلاء جميعا وأضرابهم ولكن كل واحد منكم عكف على دس كاتب من هؤلاء فخل الىه أن أحدا لا يدانيه بلاغة وسحرا » وهذا مثال لا يزال يتكرر ولازلا نرى في كل يوم باحثا يأتي إلا أن يقتصر لنا بعة بعينه ويفضله على جميع الناس ، وفي هذا ما فيه من الاسراف والمبالاة وظلم الحقيقة .

وما رأيك في قروي لم يغادر قريته الحقيمة طول عمره ، فلما سافر إلى مدينة كبيرة ورأى ما فيها من قصور فخمة وحدائق غناء ، ظن أن هذه المدينة الكبيرة - التي جاءت ألوان الحضارة والترف وجماليات السرور - هي أجل مدن العالم ، وليس من الضروري أن يزور الانسان كل المدن الشهيرة ، فله أن يكتفي بواحدة أو أكثر ، ولكن من الضروري لمن يريد المقارنة بينها وبين سائر المدن أن يزورها ويتعرفها جميعا .

كذلك ليس من الضروري أن تقرأ كل شعراء العالم ، ولكن من الضروري الا تفضل أحدا من الشعراء عليهم جميعا من غير أن تقرأهم جميعا .

(١) ارجع إلى كتابي « صور جديدة من الأدب العربي » « ص ٢٢٣ »

ماذا ، بل أنت اذا توخيت الانصاف والدقة والتزاهة عاجز - بعد طول الأناة والدرس - عن البتة في تفضيل شاعر من الفحول على آخر ، وإن المنصف النزيه ليتدبّر في أن يجزم بتفضيل قصيدة رائعة على أخرى كما يتردد في تفضيل حسناء بارعة في الجلال على شبيبتها ، ورحم الله الأعرابي الذي طلب إليه أن يفاضل بين نوعين من الخلوى ، فظلّ يتذوّق أحدهما تارة ، ويتذوّق الثاني تارة أخرى ثم يعود إلى الأول ويرجع الى الثاني ثم قال :

« إنني كلما أردت أن أحكم لاحدهما أدلى الآخر بحجته »

وليس في قدرة ناقد غربيّ نزيه أن يسخف شاعرا خلا كشكسبيرو إن كان في قدرته أن ينتقده ويظهر عيوبه .

أما عندنا فعلى العكس من ذلك ، لا يتحرّج كاتب عن تسخيف شاعر فحل كلاتيني أو إنكار شاعرية المعري أو تحقير واهب ابن الرومي أو ابن زيدون أو ابن جديس أو البحتري الى آخر هؤلاء الفحول .

ثم ماذا ، عندنا من يجرؤ على إنكار شاعرية عصر بأكله كمصر ملوك الطوائف (١) الذي يعدّ أزهى عصر أدبي في الأندلس ، بل عندنا متهوسون بجرؤون - فيزعمون بلاحيطة أو مبالاة - أن ينكروا الأدب العصري كله في جميع عصوره المختلفة ، وعندنا آخرون ينكرون روعة الأدب العربي في شتى لعائده وعصوره من غير أن يجشموا أنفسهم قراءة شيء من آثار هؤلاء أو أولئك .

وما كنا لنعرض لمناقشة أمثال هؤلاء المتسرعين في الحكم لولا أن عدواهم كادت تسرى إلى أكثر شباننا وبعض شيوخ الأدب واعلام الفكر عندها .

وقد ساعدت الخلاصات المدرسية التي كتبها مدرسو الآداب عندنا على إصدار هذه الأحكام السريعة ، فان أحدهم ليكتب كتابا يعرض فيه لتاريخ أدب اللغة في جميع عصوره ويقتبس من أحكام القدماء ما شاء من غير أن يقرأ ديوان شاعر واحد بأكله ، ومن غير

(١) ومن هذه الأحكام قول أديب من هذا الطراز العجيب في هجاء هذا العصر الذهبي - عصر ملوك

الطوائف - الذي لا يكاد يعرف منه غير اسمه :

« دلكم عصر الاسرحاء والترف . عصر تزيف فيه الأبصار والبصائر فتكل عما وراء القصور والظواهر تهجم المناصر في ذلك العصر فتعربد الخواس ، ويموت الحب افطرى قمرح في رفاته ديدان السموات ، وناهيمك بعصر تكون فيه البهائم أصدق حياً من الناس ، لأن البهائم لا تنمب بالحب ولا تبتذل في مثل هاته المصنوع يأخذ الناس من كل شيء بأيسره ، ويقنعون من كل مطلب بأقربه إلى الحسن وأصعده . لا يكون الجلال فيها إلا صبغة في البشرة تلحسها الألسنة حتى تزول ثم تنجسها بصافا ، ولا تكون البساتين والأمواه إلا مجالس شراب ومراوح هواء ، ولا الطبيعة بكثها ورباحيتها وأثمارها إلا لطيفة مخررة بمختلف الألوان والأشكال ، ولا الشجر إلا مهرجا براناً لو صور بشرًا سويًا لالت منه السيون ما لا تنال النفوس ، وما الأخلاق والبرورة والشرف إلا آدابا يصطلح عليها المارقون ليدوم لهم صفو المجلس ، ثم ماشاء المارق سد ذلك من غي وشنار ، وما طاب له من هبت واستهتار لا يشينه ذلك ولا يقدح في آدابه . »

ان يدرس عصره ويتقصى أخباره ، وهو لو فعل لما استطاع اصدار فصل واحد من كتابه .
وعندنا أن الخلاصات المدرسية لا يمكن كتابتها الا بعد أن يستوفى الباحثون درس
العصور والشعراء والأدباء ويقطع كل منهم لشاعر بعينه أو كاتب بعينه ، فيدرسه من جميع
نواحيه ، فإذا تمّ ذلك كله أمكن اختصار بحوثهم المستفيضة في صفحات قليلة للناشئين .
وقد تكاثفت فئة من أعلام الباحثين في العصر الحديث كما قلنا على درس المتنبي وابن الرومي
والمعري ، وظفروا بنتائج باهرة أقنعت كثيرا من الشباب المصنف بأن عندنا من الشعراء من
نباهي بهم ونفخر معتطين ولا تردّد في مقارنتهم بأكبر شعراء الغرب .
وما كان في قدرة اسان أن يفهم جلال شعراء الغرب وكتابته ويقدر مواهبهم الممتازة
وعبقرياتهم الفذة لو لم يعرض القاد والشرح والباحثون لتجلية كل غامض وتوضيح مسامح
اتجاهاتهم الفكرية ، ولئن يقتنع الشباب العربيّ بأن أدبا زاخرا بالشعراء الدخول الذين
لا يتخلفون عن أكبر شعراء الغرب ، الا بعد أن يتصدى أدباؤنا وباحثونا لتحليل آثار القدماء
وتنظيمها وشرح غامضها وإزاحة الستور عن مناحي العقرية فيها وتقديم ثمار جهودهم الناضجة
للشباب العربيّ ، وثمّ يرى شيئا أن هذه العقول العربية الكيرة التي استوعبت أرقى
الحضارات في أزهي العصور وعبرت عن أخفى الخواج النفسية وأدقّ الاحساسات وأروع
الأفكار وأعمق الآراء ، حدية بالانصاف والاقبال عليها والتمتع بسحرها القائن .
وسيرى الشباب الذي نعلق عليه أكبّر الآمال في ديوان ابن زيدون بحترى المغرب ، إذا
درسه بعناية وأمانة . ولم يكتف بتصفحه والمرور به - على عادته - مروراً سريعاً ، أن ابن زيدون
كان جديراً بما بذلنا من عناء وجهد ، وأنه جدير بمعاودة الكرة لدرسه دراسة مستفيضة
في رسالتنا التي أفردناها لتحليل أدبه وعصره والذنيه على دقائقه ومزاييه والامام بعصره الزاهي .
وبعض الناس يفضلون الحترى على ابن زيدون ، لأن ابن زيدون كان يجب به ،
وهو رأى مردود عليهم . فان إعجاب ابن زيدون بالبحترى كإعجاب المعري بالمتنبي ، إعجاب عظيم بعظيم ،
ولو تقدّم ابن زيدون زمنه على زمن البحتري لقن البحتري بشعره ، واتخذ منه مثالا يسج
على منواله وإلماما يهتدى به في منه الرائع .

شاعرية ابن زيدون

« ابن زيدون عبقرى زمانه قصر المحنون من إحسانه
أخذ الروم - في الجريرة - عنه وهشوا في خياله وانصاه »
« شوق »

لكل شاعر من الفحول طابع خاص يمتاز به شعره فإذا امتاز المعرى بالفلسفة في شعره وامتاز المتنبى بالحكمة ، وامتاز ابن الرومي بالعوص على المعاني النادرة ، وامتاز أبو العتاهية بالزهديات ، وأبو نواس بالخرجات ، والبحترى بحسن النظم ، وأبو تمام بالصناعة وابن جديس بالوصف فإى ميزة امتاز بها شعر ابن زيدون ؟

ميزة ابن زيدون التى تكاد تفرد به من شعراء العربية هى الفن . فهو شاعر فنى قبل أن يكون فيلسوفاً أو حكماً أو غوّاصاً على المعانى أو وصافاً .

الفن وحده هو الذى أكسب ابن زيدون زعامة الشعر فى عصره ، وأغرى فحول الشعراء فى زمنه وبعد زمنه بمحاكاته والانضواء تحت رايته . فهو شاعر الفن الذى أبدع أمير الشعراء فى وصفه حين قال :

« بأبى أنت هيكلا من فون مركبا »

وإنك لترى صورته الفنية قد وصلت الى الذروة ، وقاما اشترك ابن زيدون مع شاعر آخر من الفحول فى معنى من المعانى إلا بزه ابن زيدون بفنه ، وأعجزه بديابه الساحر المحجب . حتى البحترى الذى كان الققاد يلقون ابن زيدون به ، كثيراً ما اشترك معه ابن زيدون فى صور شعرية وتفاوتت صور ابن زيدون على صور البحترى .

وإما خصصا البحترى بالذكر ، لأن البحترى هو المثال الذى اختاره ابن زيدون ونحا نحوه حتى غلب عليه اسم بحترى المغرب .

ومن الجيب أن ابن زيدون قد اشترك مع البحترى فى عدة صور شعرية - كما اشترك مع غيره من الشعراء - فكان ماذا ؟

كانت الصور الكلامية التى يبدعها الشاعران جديدة أن توضع فى أرقى المتاحف حين يشتركان فى غرض واحد ، ولكن الصور التى أبدعها ابن زيدون جديدة بالجائزة الأولى فى أغلب الأحيان .

قال البحترى :

« ولما حضرنا سدة الأذن أخت	رجال عن الباب الذى أما داخله
فأفضيت من قرب - إلى ذى مهابة	أقابل بدر التم حين أقباله
كما انتصب الرح الردينى . ثقفت	أنابيه ، واهتز للطنع عامله
وصكال بدر ، وافيانه ، تم سعوده	وتم سناه واستهلت منازل
وسلمت ، فاعتاقت جناي هيبه	تنزعنى القول الذى أنا قائله
فلما تأملنا الطلاقة ، وانثنى	إلى يشر آنستنى مخياله

دنوت فقبلت الـدى من يد امرئ
صفت - مثل ما تصفو المدام - خلاله
وقال ابن زيدون :

« فلما قضينا ماعسانا أداؤه
قرنا بحمد الله حمدك ، إنه
وعدنا إلى القصر الذى هو كعبة
إذا نحن طالعناه والأفق لا يس
رأيناك فى أعلى المصلى كأنما
ولما حضرنا الاذن والدهر خادم
وصلنا وقلنا الـدى منك فى يد
لقد جدت حتى ما بنفس خصاصة

وكل بما يرضيك داع فخلحف
لأؤكد ما يحظى إليه ويزلف
يفاديه منا ناظر أو مطرف
عجاجته والأرض بالخليل ترجف
تطلع من محراب داود يوسف
تشير فيمضى ، والقضاء مصرف
بها يتلف المال الجسيم ويخلف
وأمنت حتى ما بقلب تخوف »

فأى الصورتين يفضل القارئ ؟

الحق ان الانسان ليحار فى تفضيل إحدى الصورتين على الأخرى ، فقد كادنا تصلان الى أقصى درجات الكمال . وتجلى إبداع الشاعرين فيهما إلى أقصى حد ، ولكن المنصف لا يلبث بعد طول الروية والأناة ، أن يؤثر تلك الصورة الشعرية التى أبدعها ابن زيدون بحترى المغرب على صورة صاحبه بحترى المشرق .

وقد وفع كثير من القاد المعاصرين فى خطأ شنيع حين تسرعوا فى الحكم على ابن زيدون بأنه مقلد فى أكثر معانيه غير مبتدع ، وحسبوه لذلك فخصاح المكر لا ينفذ بشعره إلى الأعماق ، وقد عاب بعض المتسرعين فى الحكم مثل ذلك على أناتول فرانس ، وعيرووه بأنه كاتب أسلوب لا أكثر ، كما عيروا ابن زيدون بذلك ، ونسوا أن الفن - كما يقول أناتول فرانس - ليس فى الابداع والاختراع بقدر ما هو فى حسن التأليف ودقة الانسجام . وكثيرا ما اتخذ أناتول من الحوادث النافمة وسيلة إلى خلق قصة رائعة . وإنما يمتاز الشاعر على الشاعر - إذا اشتركا فى معنى من المعانى - بما يبدعه أحدهما من الألوان وما يوفق اليه من التعبير عن ظلال المعانى ودقائقها .

فإن أمهات المعانى - كما قلت فى كتابى « صور جديدة من الأدب العربى » - مشتركة بين الناس - على اختلاف لغاهم وأزماهم وبيئاتهم وأجناسهم - وإنك لو حاولت أن تجد لأكثر المعانى أشاها لما أعياك ذلك . وربما قلت المعنى تحسب أنك انقردت به ثم عثرت على شبيهه - بعد عام أو عامين - فى شعر قديم أو حديث عربى أو غربى وقد يما قال عنتره :

« هل غادر الشعراء من متردم ؟ » وذلك أن النفس الانسانية - على اختلاف نزعاتها وشتى أحاسيسها وشعورها - تكاد لا تختلف فى الشعور بأمهات المعانى ، وثمة تتوارد الخواطر . وإنما يمتاز الشاعر على الشاعر بالافتنان فى أداء هذه المعانى ، وروعة الأداء وحسن

التعبير عن دقائقها وظلالها والابداع في صوغ الخواج النفسية والصور الشعرية المشرقة بالحياة والقدرة على تهيئة الجو الرائع الذي تخالفيه شاعريته وعرض معانيه في أبهى صورها وأجل حليها . ولنضرب للقارىء مثلاً واحداً من أمثلة عدّة لا يتسع لها المقام :

لعلّ كثيراً من الناس يدركون من أمثلة الحياة ونظمها أن ما يضرّ واحداً قد ينفع الآخر . هذا معنى شائع ميسور لكل متأمل وليس للسرقة مجال فيه . وقد افتن كثير من الشعراء في صوغه فظهرت في ذلك ميّزاتهم ومواهبهم وتجلت قدرتهم على الخلق والابداع .

وقد صاغه المتنبي في أبسط صورته فقال : « مصائب قوم عند قوم فوائد . »
وتناوله ابن الرومي من قبله فجاءه في صورة أخرى وهي قوله :

« فاشقنى إنما هجاؤك عندي فحركات تزيد في السراء

ومحال أن يسعد السعداء الدهر إلا بشقرة الأشقياء . »

فلما طرقه المعري جلاء في أبدع صورته وأجلها فقال :

« وسخط الطاء بما نالها تولد منه رضى الخابل . »

فمثل لنا - من ذلك المعنى الشائع المطروق - صورة رائعة دقيقة مشرقة بالحياة وأظهر لنا - ريشة المصور الفطن - ظلية يوقعها القدر وسوء الحظ - ونسكد الطالع في حالة الناص فنذكر أن حينها قد اقترب وأن هلاكها وشيك ، وصياداً يراها - في هذه الحال من الألم والسخط - فيرى فرصة ثمينة نادرة بات يحلم بها طويلاً .

واقعد أحسن الجرجاني حين دل في ضمن فصل طويل يحب أن يرجع القارىء اليه في كتابه : « وقد يتفاضل مدعو هذه المعاني - بحسب مراتبهم - فنشترك الجبابة في التنبؤ المتداول وينفرد أحدهم بلفظة تستعذب أو ترتب يستحسن أو تأس كيد يوضع موضعه أو زيادة اهتدى إليها - دون غيره - فيريك المتذلل في صورة المبتدع والمخترع . »

وقد ضرب الجرجاني لذلك أمثلة كثيرة ثم قال :

« ولم يبق عليك إلا أن تحترس من التفريط - كما احتترست من الإفراط - فلا تسكن كمن يرى السرقة لا تتم إلا باجتماع اللفظ والمعنى ونقل البيت جملة والمصراع تاماً ، بل لا يعرف إلا من يفعل فعل عبد الله بن الزبير بأبيات معن بن أوس . »

إلى أن قال بعد كلام طويل :

« والسرقة - أيديك الله - داء قديم وعيب عتيق ، وما زال الشاعر يستعين بخاطر الآخر ويستمد من قريحته ويعتمد على معناه ولفظه . »

ومن أجل ما أورده في ذلك الفصل قوله :

« ومتى انصفت علمت أن أهل عصرنا - ثم العصر الذي بعدنا - أقرب فيه إلى المعذرة وأبعد من المذمة ، لأن من تقدمنا قد استغرق المعاني وسبق إليها وأتى على معظمها ، وانما يحصل

على بقايا إما أن تكون تركت رغبة عنها واستهانة بها أو لبعدها مطلبها واعتياص مرامها وتعذر الوصول إليها .

ومتى أجهد أحداً نفسه وأعمل فكره وأتعب خاطره وذهنه في تحصيل معنى - يظنه غريباً مبتدعاً ونظم بيت يحسبه فرداً مخترعاً ، ثم تصفح عنه الدواوين - ثم لم يحظ أن يجده بعينه أو يجد له مثلاً يغض من حسنه .

ولهذا السبب أحظر على نفسي ولا أرى لغيري بت الحكم دلي شاعر بالسرقة . وقد أحسن أحمد بن أبي طاهر في محاجة البحترى لما ادعى السرقة في قوله : -

« والشعر ظهر طريقاً أنت راكبه فنه منشعب أو غير منشعب

وربما ضم بين الركب منهجه وألصق الطنب العالي على الطنب »

فاذا شئت أن نمثل لك من شعر ابن زيدون بما يؤيد هذا الرأي ، عرضنا لك نخبة موجزة من أقوال رجال البيان في بعض المعاني التي طرقها ابن زيدون . قال معاوية : « السرو التغافل » وقال المتنبي : « ليس العبي بسيد في قومه لكن سيد قومه المتغابي » وقال زهير :

« ومن لم يصانع في أمور كثيرة يضرّس بأنياب ويوطأ بمنهم »

وقال بشار :

« اذا أنت لم تشرب مراراً على القذى ظمئت وأىّ الناس تصفو مشاربته
فعض واحداً ، أوصل أحاك ، فانه مقاروف ذنب مرة ومجانبه »

وقال أحد الشعراء :

« ومن يتقنع جاهداً كل عشرة يجدها ، ولا يسلم له الدهر صاحب »
وهل آخر :

« اقل معاذير من يأتيك معتذراً ان برّ عندك فيما قال أو جفرا

فقد أجلك من أرضاك ظاهره وقد أطاعك من عصيك مستترا »

الى آخر ما ملوه في هذا المعنى وهو كثير يجتزئ منه بما ذكرنا ، فهل ترى في كل ما ملوه أروع من قول ابن زيدون :

« إن السيادة بالاغضاء لا بسدة بهاءها وجمال الحسن في الخفر »

ألا ترى أن فنّ ابن زيدون قد غلب فنون هؤلاء المحول الأفتاد وتوق عليهم في هذه الصورة الرائعة ؟

وانظر الى ذلك البيت الرائع الذي طالما تغنينا به وحسبنا فائله قد تخطى به درجات الكمال والابداع حين قال :

« يزيدك وجهه حسنا اذا مازدته نظرا »

وقد أخذه ابن الرومي فقال في « وحيد » المغنية :

« ليت شعري ، اذا أعاد الينا كرة الطرف مبدئاً ومعيداً
أهـى شئ لا تسأم العين منه ؟ أم لها كل ساعة تجديد ؟
بل هي العيش لا يزال - متى استع رض - على غرائبها ويفيد »

انظر كيف تلتطف ابن زيدون في نظمه وتحويره ! وفي أى صورة مشرقة بالحياة رائعة الحسن
صاغه ذلك الشاعر العقري فقال :

« حسن أفانين لم تستوف أعيننا غاياته بأفانين من النظر . »

ومن اليسير على كل انسان أن يقرر أن حبيبه قد هجره وأنه لا يزال باقياً على عهده .
ولكنه ليس من اليسير عليه أن يؤدي هذا المعنى كما أداه المجنون يقول :

« وأذنتني حتى اذا ما فتنتني بقول يحل العصم سهل الأباطح
تناءيت عني حين لالى حيلة وغادرت ما غادرت بين الجوانح
ولا أن يقول مثل قوله أيضاً :

« أليس وعدتني يا قلب أنى اذا ما تبث عن ليلى تتوب
فها أما تائب عن حب ليلى فمالك كلما ذكرت تذوب . »
أو يقول كما قال ابن زيدون :

« كان التجارى بمحص الود مذمناً ميدان أنس جرينا فيه أطلاقاً
فالآن أحمد ما كنا له عهد كمو سلوتم وبقينا نحن عشاقاً (١) ؟ »

تلك صور فنية تنخلع دونهما الرقاب ولا يحسن أن يقولها إلا شاعر فنى موهوب ، ولا تزال
أهميات المعانى كأصول لأنواع لا تكاد تختلف فى جللتها وان اختلفت فى دقائقها وتفصيلها ، وانك
لترى ألف حسناء فترى فى وجه كل منهم ملاحظة من الحسن لا توجد فى الأخرى ، ولا يزال
الرسام يتفنن فى التعبير عن أسرار الوجوه ويبدع ما شاء ابداعه ، ولا يزال اللحن الواحد يؤديه
ألف مغن بارع فتحس نفسك لكل صوت سحراً خاصاً يختلف عن الآخر .

وما نريد أن نخص ابن زيدون بالابداع فى كل معانيه دون سائر الشعراء ، فقد تختلف عنهم
وقصر فى بعض قصائده كما يقصر النحول أحياناً . الشعر كما يقول ابن الرومى كالشجر :

« ركب فيه اللحاء والحشب اليا بس والشرك بينه الثمر . »

ولكن الانصاف يقضى عليك - إذا تصدّيت للتفضيل بين الشعراء - أن تقارن بين روائعهم
وبدائعهم ، أما ما يقولونه عفو الخاطر أو فى ساعات الكلال والضعف ، فليست جديراً أن تحكم به
على شاعريتهم ، فقد تخرج الشجرة الممتازة - إلى ثمارها الشهية الغضة - ثمرة جفة فلا ينقص ذلك
من قيمتها . وما نريد أن ننتصر لابن زيدون وأن نمدحه ولا نكسب نريد أن ننصفه ولا نظلمه .

(١) هأت ذا ترى صورتين رائعتين لمعنى واحد ، هل تستطيع أن تعمل إحداهما عن الأخرى ؟ ألا ترى
أن كل واحدة من هاتين الصورتين مستقلة عن الأخرى وكل الاستقلال وإن كانتا تعبران عن معنى واحد ؟
ألا ترى إلى الصدق الذى يتمثل فى كل صورة بينهما ؟ أليست كل واحدة من هاتين الصورتين ملكاً
للشاعر لا ينازع فيها الآخر ؟

لماذا سجن ابن زيدون ؟

لأنكاد نقرأ تاريخ ابن زيدون في أى كتاب من كتب الأدب وتصل إلى هذا الفصل من تاريخ حياته - حتى نقرأ هذه الجملة بنصها أو معناها .

« ثم سجنه ابن جهور لسبب وشاية أعداء ابن زيدون به » .

ولكن كيف وشى به أعداؤه فأحفظوا عليه قلب ابن جهور وأى وشاية هى ؟ دلك مايقف أمامه ، وورخو الأدب من غير أن يتعرفوا له حلا .

وقد حاول بعضهم أن يعلل ذلك بانغماس ابن زيدون فى حب ولادة وقلوا ان ابن عبدوس وأحزابه وشوا به عند ابن جهور فسجنه لأن أبا الحزم بن جهور - فى زعمهم - رجل ورع يؤثر القوى والزهد ولا يقبل أن يرى إلى جانبه خليعا ماجنا ككاتب زيدون ، ونسى هذا الفريق من مؤرخى الآداب أن ابن عبدوس نفسه كان مغمسا فى حب ولادة وكان أكثر من ابن زيدون خلاعة ومجونا إن كان لابد من هذا التعبير الذى ارتضاه مؤرخو الآداب ، فليس من الانصاف أن يطلق اسم الماجن المستهتر على مثل ابن زيدون ، فقد كان اذا قورن بغيره من شعراء عصره وشعراء العصور الأخرى أبعد عن هذه الصفة انى ألصقها به ، ومؤرخو الآداب ، ولم يكن أبو الحزم بن جهور متا مبتلا ورعا منقشفا كما حاولوا أن يفتعنوا به ، فقد كسر دنان الخمر حين ولّى أمور الناس ، وهذا يدل على حزم وبعد نظر ولا يدل على تقشف وزهد وورع .

وما كان أبو الحزم ليسىء الى وزيره الذى خاض إلى جانبه نار الثورة القرطبية وكان يلهمها بلاغته ويعنيها ببيانه والذى كان لا يستغنى عنه أبو الحزم بن جهور ، تقول ليس أبو الحزم الذكى الأريب - الذى شاد ملكا موطن الأساس بين الزعازع والفتن - من العفلة بحيث يأبه لأمثال هذه الصغائر ، انما كان يعنى أبا الحزم بن جهور أن يثبت ملكه ولا يعنيه بعد ذلك أن يكون ابن زيدون ملاكا طاهرا أو شيطانا فاجرا .

واقعد سجن ابن زيدون وزير ابن جهور وكان معرضا للقتل وسجن ابن عمار وزير المعتمد وقتل وسجن غيرهما من الأدباء والشعراء الذين استوزرهم ملوك الطوائف ، فاذا شئت أن تبحث عن أسباب سجنهم وقتل أكثرهم ، فلن تجد لذلك الاسباب واحدا وتهمة لا يتعداها من شاء أن يدس أو يكيد وهى التهمة التى تعنى ملوك الطوائف وتقض مضاجعهم وتنسبهم كل يد أسلفت إليهم ، هذه التهمة هى التآمر على قلب الملك والطمع فيه .

ولقد كان ابن عمار أخلص صديق للمعتمد وكان المقرّب الأمين عنده وكان أعزّ عليه من نفسه على حد تعبير المعتمد ، ولكنه طمع فى الملك فنسى المعتمد كل شيء الا سجنه وقتله والانتقام منه .

ولم تأخذ المعتمد رجة بأحد أولاده حين عرف أنه يطمع فى ملكه ، فقتله حنقا عليه .

ولقد كان ابن زيدون شاباً في مقتبل عمره وكان قريب عهد بالثورة التي دعا إليها آل جهور .
وكان أقرب شيء الى هذه النفس الشابة الفتية المتوقدة عزماً وهمة ، والتي ظفرت بالوزارة
في مستهل حياتها السياسية أن تطمح الى ما هو أبعد من الوزارة .

وقد كان ابن زيدون كثير السفارات وكان موقفاً محبوباً من ملوك الطوائف ذائع الشهرة
في عصره ، وكان قوياً شديد النكاية والسخرية بخصومه ، ولم يكن لهم طريق يسلكونها
للاستقام منه الا الكيد له - على أسلوب ذلك العصر - عند ابن جهور بأنه غير مخلص
لعهده ولا أمين لأمره .

وما نرى ابن زيدون من تهمة التآمر فانه هو نفسه لم يتصل منها اتصالاً واضحاً صريحاً
بل نحن لانرى في تصديقها حرجاً فقد كانت الظواهر كلها تؤيدها ولا تنفيها .

ولقد فرّ ابن زيدون من سجن أبي الحزم ثم عاد بعد وفاته الى ابنه أبي الوليد وبذل له
النصيحة كما بذل لأبيه ، وطفّر عنده بأعلى مكانة ، ولكن تهمة ذلك العصر فرت به من جديد
وكاد - لولا فراره - يسجن من جديد ويقضى بقية عمره في السجن .

وقد اتصل بالمعتضد وحاول خصومه أن يدسوا له فلم يفلحوا ولمامات المعتضد أعادوا
الكورة وأرادوا أن يغيروا عليه قلب المعتمد فأخفقوا ، وقرعهم المعتمد أشدّ قرع وما زال
ابن زيدون الوفي الأمين المخلص للمعتمد حتى قربت منيته وقرب نجاح أعدائه في تغيير قلب
المعتمد عليه ، ولوطال عمره قليلاً لأصابه من نكال المعتمد وانتقامه ما أصابه من أبي الحزم
وما كاد يصيبه من أبي الوليد بن جهور ، ولكن المنية أنقذته من شرورهم وأحقادهم كما أسلمنا .
على أن سجن ابن زيدون قد ترك في نفسه الفتية الوثابة أثراً لا يوصف . وألمه الحكمة
والأناة والصبر وعلمه مداراة الناس ومجاملة الخصوم ، وأقنعه بأن معاداة الرجال غير مأمونة
العواقب وأن السهام « قلما اعتورت غرضاً الا كلمته حتى يهي ما شدت من قوته » فلم يدخر
جهداً فيما بعد في اكتساب رضى العامة والخاصة ، حتى أحوه - الا القليل ممن دفعهم الحسد
والغيرة وهؤلاء لاحيلة لأحد في اكتساب رضاهم وسل سخائهم واحقادهم - وقد مات فسكاه
أهل أشبيلية وجزعت لفقده جبهة معاصريه . ولا تزال أشعاره ورسائله التي نظمها في سجنه
آيات فذة من البيان العالى والشعر المجز . ولا زال قوله :

« لا يهنئ الشامت المرتاح خاطره أنى معنى الأمانى ضائع الخطار
هل الرياح بنجم الأرض عاصفة أم الكسوف لغير الشمس والقمر »

وقوله :

« ولا يغيظ الأعداء كوني في السجن فاني رأيت الشمس تحصن بالدجن
وما كنت الا الصارم العضب في جفن أو الليث في غاب أو الصقر في وكن
أو العلق يخفى في الصوار ويخبأ »

إلى آخر هذه القصائد الفذة التي كتب لها الخلود . مثلاً عالياً للشعر الرائع والبيان الساحر

حساد ابن زيدون

كان من الطبيعي أن يلقي أديب مثقف وشاعر مجيد وسياسي مدرب كابن زيدون - واصل في مستقبل شبابه الى أرقى الدرجات - كثيرا من المنافسين والحساد ينقمون على أدبه وتفوقه ويفارون من تقربه الى الملوك الذين أكبروا فضله وأدبه فقرّبوه منهم وحاطوه برعايتهم ، وقد لقي ابن زيدون في قرطبة جعاعة من المنافسين وعلى رأسهم الوزير الأديب أبو عامر بن عبدوس ، فكادوا له حتى أحفظوا عليه أبا الحزم جهور فسجنه كما أشرنا الى ذلك في فصل سابق . ثم فرّ من السجن وعاد فانصل بأبي الوليد بن أبي الحزم ، فلم ينقطع كيد المنافسين حتى غيروا عليه قلب الابن كما غيروا عليه قلب أبيه من قبل ، ففرّ ابن زيدون خوفا من السجن وما زال يتنقل بين ملوك الطوائف حتى استقرّ به السوى في اشبيلية فلقى من كيد الحساد وعنتهم مثل مالتى في قرطبة ، ولكن مدائح الخالدة التي مدح بها المعتضد والتي تعدّ من مفاخر الشعر العربي وروائعه ، وحسن سياسة ابن زيدون وبعدها نظر المعتضد تغلّت على كيد المنافسين وأرغمت أنوفهم وأحلتها في المكان الأوّل كما يقول من قصيدة رائعة :

« وأرغم في برى أنوف عصابة لقائهم جهم وأعينهم شزر »

« اذا ما انثنى في الدست عاقد حبوة وفام سباطا حفله فلى الصدر »

فلما مات المعتضد أعادوا الكرة وجعوا جوعهم للكيد له عند المعتمد ولكن المعتمد صدّهم أشنع صدّ وقربه اليه ، فلم ينس له ابن زيدون هذه اليد وفي ذلك يقول :

« يطيل العدا في التناجي خفية يقولون لا تستفت قد قضى الأمر »

ثم ما زالوا يكيدون له حتى أقصوه عن قرطبة الى اشبيلية متهمين فرصة مرضه فسار اليها مرغما حيث لقي حتفه . وأفلح كيد ابن عمار وأصحابه في التخلص من منافسة ابن زيدون . ولا تكاد تخلو قصيدة من قصائده في أبي الحزم وأبي الوليد والمعتضد والمعتمد من الشكوى الصارخة من كيد الحساد الذين تطوّعوا لا يذائه وأرهموه بدسائسهم المنوالية ، والحسد داء قديم وكم لقي الأدباء والشعراء الممتازون منه ما نفص عليهم حياتهم وأقض مضاجعهم .

وقد لقي المتنبي قبله في مجلس سيف الدولة من حسد أبي فراس وابن خالويه ، ثم لقي عند كافور الاخشيدى من حسد ابن حنزابه ، ثم لقي في بغداد من حسد الوزير المهلبى الذي أغرى به الشعراء والأدباء كالحاتمي وابن سكرة وغيرهما ، ما أقلق باله وفاده الى حتفه .

وقد كان يبلغ المتنبي بعد أن ترك سيف الدولة تشنيع حساده به عنده ، فيقول :

« رأيتم لا يصون العرض جاركم ولا يدر على مرعاكم الماين

جزاء كل قريب منكم ملل وحظ كل غريب عنكم ضغن . »

الى آخر ما قال .

وكان يبلغ ابن زيدون عن ابن جهور بعد اتصاله بالمتنشد ما يسوءه في نفسه وقرابته بقرطبة فيقول :

« بنى جهور أحرقتم بجفائكم فؤادى فابال المدائح تعبق
تعدوني كالغبر الورد إنما تطيب لكم أنفاسه حين يحرق »
وقوله :

« قل للوزير وقد قطعت بمدحه زنا فكان السجن منه ثوابي :
لا تخش في حق بما أمضيته من ذاك في ولا توق عتابي
لم تخط في أمرى الصواب موقفا هذا جزاء الشاعر الكذاب . »
وقوله :

« من ملغ عنى البلاد اذا ثبت أن لست للنفس الألوف بياخع
أما الهوان فصنت عنه صفحة أغشى بها حد الزمان الشارع
فليغم الحظ المولى أنه ولي فلم أتبعه خطوة تابع
ان العنى طو القناعة لا الذى يشتف نطفة ماء وجه القانع »
الى آخر ما قال .

وقد كان هذه المافات أثرها العظيم في اجادة الشعارين واطهار أروع ما قاله من الشعر ، وصدق القائل :

« لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عرف العود »
وما كاد المعتمد يتولى الأمر بعد أبيه المتنشد حتى نشط الدساسون والمفسدون لمحاربة ابن زيدون فرموا اليه برقعة فيها قصيدة طويلة أولها :
« يأبها الملك العلى الأعظم اقطع ويريدى كل باغ ينثم
واقسم بسيفك داء كل منافق ييدى الجليل وضد ذلك يكتم »
فكان رد المعتمد على ذلك قوله :

« كذبت مناكم صرّحوا أوججتموا الدين أمتن والسجية أكرم
ختم وريتم أن أخون ، وربما حاولتم أن يستخف يالم (١) . »

(١) وفيها يقول

« وأردتم تضيق صدر لم يضق والسر في ثمر الحور تحطم
وزحقتكم - بمحالكم - لجرب مازال يثبت فامحال فيهمزم
أنى رجوتكم غدر من جربتم منه الوفا . وظلم من لا يظلم
أنا لكم لا الفى يشر غرسه عندى ولا مى الصيغة يهدم
كفوا . والافارقبوا لى بطشه باقى السفه بعتاها ويحلم »

وقد عرف ابن زيدون كيف يشكر له هذه اليد في قصيدته الرائعة التي يقول فيها :

« وأرى المساعي كالسيوف نادرت
ولكم تسامى بالرفيع نصابه
شأو المضاء ، فنثن ومصمم
خطر ، فناصره الوضع الألام »

وفيها يقول ويبدع :

« قل للبعاة المنبضين قسيمهم
أسررتهم ، فرأى نجى عيوبكم
سترون من تصميه تلك الأسهم
وعبأتم - للفسق - ظفر سعاية
شبحان ، مدلول عليها ملهم
ونبذتم التقوى وراء ظهوركم
فغدا بعينكم التقي الأكرم
عن عهد - دغل الضمير مذم »

وفيها يقول بعد أن أغراه بأعدائه :

« فرق عوت ، فزارت زارة زاجر
يأليت شعري هل يعود سفيهم
راع الكليب بها السبنتى الضيغم
لى منك - فليذب الحسود تلقيا -
أم قد حماء النعج ذاك المكهم
وشفوف حظ ليس يفتأ يجتلى
لطف المكانة والمحل الأكرم
غض الشباب وكل حظيهم . »

الى آخر هذه القصيدة الرائعة :

وقلما تخلو قصيدة من قصائده من مناسبة يخلقها خلقا ، ويتطرق منها الى الشكوى والألم من حساده ومنافسيه وما لقيه من كيدهم وعنتهم .

ومن أروع ما قاله في ذلك ، قوله من قصيدة :

« كان الوشاة وقد منيت بأفكهم
أساط يعقوب وكنت الذيبا »

الى أن قال :

« أنا سيفك الصدى الذى مهما تشأ
تعد الصقال اليه والتذريا »

وقوله :

« ايه » أبا الحزم « اهتل غرة
لاطارى حظ إلى غاية
ألسنة الشكر عليها فصاح
عتباك - بعد العتب - أمنية
ان لم أكن منك صريش الجناح
لم يثنى عن أمل ماجرى
مالى على الدهر سواها اقتراح
قد يرقع الحرق وتؤسى الجراح »

وقوله :

« ما جال بعدك لظى فى سنا القمر
إلا ذكرتك ذكر العين بالآثر »

إلى أن قال :

« حسن أفانين لم تستوف أعيننا
غايانه بأفانين من النظر . »

إلى أن قال :

محض العيان الذي يغنى عن الخبر
 برق المشيب اعلى في عارض الشعر
 وللشبية غصن غير مهتصر
 نار الأسى ومشيبي طائر الشرر
 انى معنى الأمانى ضائع الخطر
 أم الكسوف لغير الشمس والقمر
 قد يودع الجفن حد الصارم الذكر
 عن كشف ضررى فلا عتب على القدر
 غيرى - يحمانى أوزارها وزرى
 ولم أث من تجنيه على حذر . «

رد الصبا بعد ايفاء على الكبير
 كلاهما العلق لم يوهب ولم يعر
 لا عذر منها سوى أنى من البشر
 بهاءها وبهاء الحسن فى الحفر . «

« من يسأل الناس عن حالى ، فشاهدها
 لم تطو برد شبابى ككبرة وأرى
 قبل الثلاثين إذ عهد الصبا كتب
 ها انها لوعة فى الصدر فادحة
 لا يهنئ الشامت المرتاح خاطره
 هل الرياح بنجم الأرض عاصفة ؟
 إن طال فى السجن إيداعى فلا عجب
 وان يثبط - « أبا الحزم » الرضى - قدر
 ما للذنوب - التى جاني ككائرها
 من لم أرل من تأنيبه على ثقة
 إلى أن قال :

« لائله عنى فلم أسألك معذفا
 واستوفر الحظ من نصيح وصاغية
 هبنى أسأت فكان العلق سيئة
 ان السيادة بالأغضاء لابسـة

وقال :

« ولو أننى أستطيع كى أرضى العدا
 شريت ببعض الحلم حظا من الجهل . «
 إلى أن قال :

تمطر فاستولى على أمد الخصل
 بتصهاله ماناله من أذى الشكل . «

« جواد إذا استنّ الجياد الى مدى
 توى صافنا فى مرتبط ألهون يشتكى
 إلى أن قال :

« أعدك للجلى وآمل أن أرى
 بنعماك . وسوما وما أنا بالفضل . «

ثم قال :

تعذر فى نصرى وتعذر فى خذلى
 وأنحى إلى إنصافك السابغ الظل
 لما كان بدعا من سجايك أن تلى
 « مسيلة » إذ قال : انى من الرسل «

« أئن زعم الواشون ما ليس مزعما
 وأصدى إلى إسعافك السانغ الجنى
 * ولو أننى واقعت عمدا خطيئة
 فلم أسترحب « الفجار » ولم أطع
 وانظر إلى قوله :

قراهم - لسيران الفساد - ثقاب
 وبانيهم خلقى الجيـل فهابوا «

« فديتك كم ألقى العواغر من عدا
 عفا عنهم قدرى الرفيع فأهـجروا

وقد تسمع الليث الجحاش نهيقها
إذا راق حسن الروض أو فاح طيبه
إلى أن قال :

« فأنت الحسام العضب أصدى أمته
وما السيف مما يستبان مضاه
وقوله :

« لا تستجز وضع قدرى بعد رفعه
إلى أن قال :

« ظن العدا إذ أغبت - أنها انقطعت
لابأس بالأمر - أن ساءت مبادئه
إلى أن قال :

« ككم غرة لى تلقى شهاب الموقد الشمع
إذا تأملت حبي عتب غشهم
تلك العرازين لم يصلح لها شم
أودعت نعيك منهم شر مفترس
لا زال جدك بالاعداء يصرعهم

وما أروع قوله معذرا عن هجره ابن جهور : « وهو يرى ويسمع أن بالحضرة قوما لا يحصرهم
العد ، تحتل سقطاتهم وتغتفر هفواتهم وتقال عثراتهم وما أعلم أنهم يدلون بوسيلة إلا شاركهم
فيها ولا يمتنون بذريعة ينفردون دوني بها » الخ .

وقوله :

« أرى نبوة لم أدر سرّ اعتراضها
جفاء هو الليل ادلم ظلامه
هب العزل أخصى للولاية غاية
فتيم أرى ردّ السلام إشارة
أناس هم أخصى للذعة مقولى

وقوله :

« ألا هل أتى العتيان أن فتاهم
وأن الجواد الفائت الشاؤ صافن
وأن الحسام العضب ثاو بجفنه
فريسة من يعدو ونهزة من يسطو
تخونه شكل وأزرى به ربط
وما ذم من غريبه قد ولا قط »

وقوله :

« مئون من الأيام خمس قطعها أسيرا ، وان لم يبد شت ولا قط . »

وقال :

« وما زال يدنيني ، ويثني قبوله هوى سرف منه وصاغية فرط . »

وقال :

« عدا سمعه عني فأصني الى عدا لهم في أدبي كلما استمكنوا عط بلغت المنى إذ قصروا فقلوبهم مكان أحقاد أسودها رقط . »

وقوله :

« ومثلي قد تهفوه نشوة الصبا ومثلك قد يهفو ، ومالك من مثل وأنى لتهاني نهى عن التي أشاد بها الواشي ويعقلني عقلي . »

الى أن قال :

« وما كنت بالمهدى الى السودد الخنا ولا بالمسيء القول في الحسن الفعل . »

الى أن قال :

« هي النعل زلت بي ، فهل أنت مكذب لقليل الأعادي انها زلة الحسل . »

الى أن قال :

« ألا إن ظني - بين فعليك - واقف وقوف الهوى بين القطيعة والوصل . »

الى أن قال :

« وأين جواب عنك ترضى به العلا اذا سألتني بعد السنة الحفل . »

إلى آخر ما أبدعته هذه العبقرية الجبارة ، من الافتتان البارع ، في صورها الشعرية التي لا تنسى .

٤ - حب ولادة

تمرّ شتى الحوادث بالإنسان فينساها ولا تكاد تترك في نفسه أثرا يذكر ، على أن لبعض الحوادث أثرا لا يمحي ، حيث تمرّ الأيام والشهور والسنون وهو باق في ذهنه يؤثر فيه أعماق الأثر ، ويطبع نفسه بطابع خاص ، ومن الحوادث التي أثرت في نفس ابن زيدون وشعره ونثره أكبر الأثر ، حادثان : حب ولادة . وحبسه زهاء عامين .

فأما حب ولادة فقد ألهم نفسه إلهابا وأكسبها شاعرية خصبة ففاضت بأعذب الشعر وأبدعت في ضروب الغزل ما شاء لها أن تبدع ، وأخرجت لنا أروع قصائده الغزلية ، وألهمته أسمى ألوان الخيال العالى والغزل الرقيق . كقوله :

« ودع الصبر محب ودعك ذائع من سره ما استودعك »

وقوله :

« أما منى نفسى ، فأنت جيعها ياليتنى أصبحت بعض منك
يدنو بوصلك حين شط مزاره وهم أكاد به أقبل فاك »

وقوله :

« كان النجارى بمحض الود مذ زمن ميدان أنس جرينا فيه أطلاقا
فالآن أحسد ما كنا لهدهم سلوتم وبقينا نحن عشافا »
وقوله فى نفس القصيدة :

« لا سكن الله قلبا عن ذكركم فلم يطربجنح الشوق خفافا »

وقوله من قصيدة أخرى :

« ياليل طل ، لأشتهى إلا بوصل قصرك
لو كان عندى قرى مابت أرعى قصرك »

وقوله :

« بينى وبينك ما لو شئت لم يضع سر اذا ذاعت الأمرار لم يدع »

وقوله :

« بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا شوقا إليكم ولا جفت ما قينا »
إلى أن يقول :

« ماحقنا أن تقرّوا عين ذى حسد بنا ولا أن تسروا كاشحا فينا »
« غيظ العدا من تساقينا الهوى فدعوا بأن نعص فقال الدهر آمينا »
« فأنحل ما كان معقودا بأنفسنا وأنبت ما كان موصولا بأيدينا »

وقوله :

« لاستجدن - فى عشقى لها - زمنا ينسى سوائف أيامى وأزمانى »

حتى تكون لمن أحببت خاتمة نسخت - في حبها - كفرا بإيمان «
وقوله :

« إن ساء فعلاك بي ، فما ذنبي أنا ؟
لم أسأل حتى كان عذرك - في الذي
ولقد شكوتك - بالضمير - الى الهوى
منيت نفسي - من وفائك - ضالة
وقوله :

« أغائبة عني وحاضرة ممي
أفي الحق أن أشقى بحبك أو أرى
ألا عطفة تحيا بها نفس عاشق ؟
صليتي - بعض الوصل - حتى تبيني
وقوله :

« قد كان - في شكوى الصابة - راحة
لو أنني أشكو إلى من يرحم
وقوله :

« لما اتصلت اتصال الحب بالكبد
ساء الوشاة مكانى منك واتقدت
فليسخط الناس لأهدد الرضى لهم
لواستطعت - اذا ما كنت غائبة -
ثم امتزجت امتزاج الروح بالجسد
- في صدر كل عدو - جرة الحسد
ولا يضع لك عهد آخر الأبد
غضضت طرفي فلم أنظر الى أحد «

وقوله :

« ياليل خبر : انى
بالله قل لى : هل وفى ؟
التذ عنه خبرك
فقال : « لا . بل عذرك »

وقوله :

« لئن فانتى منك حظ النظر
وان عرضت غفلة للرقية
أحاذر أن تتظنى الوشا
واصبر مستيقنا انه
لأكتفين بسماع الخبر
ب فحسبى تسليمة تختصر
ة ، وقد يستدام الهوى بالحذر
سيحظى - بنيل المنى - من صبر «

وقوله :

« أشمت بي فيك العدا
لو كان يملك فدية
كنت الحياة لعاشق
و بلغت - من ظلمي - المدى
- من حيك القلب افتدى
- مذ حلت - أيقن بالردى

لعذرتي ، فبك اقتدى «

لم يسئل عنك ولو سلا

وقوله :

أرسلتني - في أحاديث الهوى - مثلاً
الاخلعت عليها - بالضنى - حلالاً
وليكف طرفك انى بعض من قتلا
لا أقض ماعشت سلوانا ولا مللاً
وجه السرور به جذلان مقبلاً
يهدى الى - تفاريق المنى - جلاً
بلغت يا أملى - من دهرى الأملأ «

« أبديتلى - من أفانين القلى - عبراً
لم تبق جارحة بالهجر من جسدى
فليغن كفك انى بعض من ملكت
ولا قضا ماشئت - من هجرو من صلة -
سقى لعهدك والأيام تقبلنى
إذ الزمان بليغ فى مساء - دتى
ان كان لى أمل الا رضاك فلا

وقوله :

فكلما قيل فيه : « قد قضى » ثاباً
- يوم الزيارة - أن القلب قد ذاباً
فان أكلته عنكم سلوة يابى
لا عذب الله الا عاشقاً ثاباً «

« انى لأعجب من شوق يطاولى
كم نظرة لك فى عينى علمت بها
قلب يطيل مقاماتى لطاعتكم -
ماتوبى بنصوح - من محبتكم

وقوله :

تدار علينا - للبعون - مدام
ترف وامواه السرور جمام
يشب لها - بين الضلوع - غرام
دموع كذا خان الفريد نظام
اذا هز للخطب الملم - حسام . «

« معاهد هو لم تزل فى ظلالها
زمان رياض العيش خضر نواضر
فان بان منى عهدا ، فلوعة
تذكرت أيامى بها فتادرت
وصحبة قوم كالمصاييح كلهم

الى أن قال :

« محل غنينا بالتصانى خلاله فأسعدنا ، والحادثات نيام

فما لحقت تلك الليالى ملامة ولا ذم - من ذاك الحبيب - ذمام «

وقوله : وهو بطليوس من قصيدة رائعة :

« إن قرت العين بأن أءوبا لم آل أن أسترضى الغضوبا

حسبى ان أحرم الغيبا قد يدفع المذنب أن يتوبا «

وقوله :

هيهات كيد الهوى يستهلك الحذرا
هل يستطيع فتى أن يدفع القدرا «

« لم ينجنى منك ما استشعرت من حذر
ما كان حبك الا فتنة قدسدت

وقوله :

« ما الذى ضرك لو سمر بمراك الحزين

وتلطف لـسبب حينه فيك يحين «

وقوله :

ماضر لوألمك لى راحم
يهنيك يأسؤلى ويا بغيتى
تضحك فى الحب وأبكى أنا
أقول لما طار عنى الكرى
يانأعما أيقظنى حـسه
وعلى أنت بها عالم
انك مما أشتكى سالم
الله - فيما بيننا - حاكم
قول معنى قلبه هائم
هب لى وقدا أيها النائم «

وقوله :

« هلا جعلت - فدتك نفسى غاية
لا تفسدن ما قد تأكد بيننا
حاشاك من تضييع ألف وسيلة
ان أجنه خطأ فقد عاقبتنى
للعب أبغها بجهد الجاهد
- من صالح - خطرات ظن فاسد
شجى العدو لها بذنب واحد
ظلمها بأبلغ من عقاب العامد «

وقوله :

« علام اطمئت دواعى القلى ؟
ألم الزم الصبر كيما أحف ؟
ألم أرض منك بغير الرضى
ألم اغتفر موبقات الذنوب
وما ساء ظنى فى أن يسىء
على حين أصبحت حسب الضمير
وصانك منى وفى أبى
وفيم ثنتك نواهى العذل ؟
ألم أكرر الهجر كي لا أمل ؟
وأبدي السرور بما لم أنل ؟
بعمدا أتيت بها أم زلل ؟
بى الفعل حسنك حتى فعل
ولم تنغ منك الأمانى بدل
لعلق العلاقة أن يبتذل «

وقوله :

« عليك السلام سلام الوداع
وما باختيار تسليت عنك
ولم يدر قلبى كيف النزوع
إلى آخر هذه القصيدة التى تخلق بك فى جو العباس بن الأحنف ، حتى ليخيل إليك أنها
وداع هوى مات قبل الأجل
ولكننى مكره لا يطل
إلى أن رأى سيرة فامتثل «

من شعره قد ألحقها بديوانه الحافل بهذه الروح الحائرة القلقة .

« يامن غدوت به فى الناس مشتهرا
قلبي عليك يقاسى الهمم والفكرا
إن غبت لم ألق إنسانا يؤنسنى
وان حضرت فكل الناس قد حضرا «

وانظر إلى قوله وقد حاجته الذكرى الى قرطبة :

« سقى الله أطلال الأحبة بالحي وحاك عليها ثوب وثى منمنا
وأطلع فيها للأزاهير أنجما فكم رفلت فيها الخرائد كالدمى
إذ العيش غص والزمان غلام »

وما أروع قوله فى تلك الموشحة الساحرة :

« أهيم بجبار يعز وأخضع شذا المسك من أردانه يتضوع
إذا جئت أشكوه الجوى ليس يسمع فما أنا فى شئ من الوصل أطمع
ولا أن يزور المقلتين منام »

الى أن يقول :

« فقل لزمان قد تولى نعيمه ورتت - على مر الليالى - رسومه
وكم رقى فيه - بالعشى - نسيمه ، ولاحت - لساى الليل فيه نجومه
عليك من الصب المشوق سلام »

وقوله فى ذكرى قرطبة وولادة ومجالس أنسه :

« أقربطه العراء ، هل فىك مطمع وهل ككبد حرى ليلتك تنقع
وهل للياليك الحيدة مرجع اذ الحسن مرأى فىك واللهم مسمع
واذ كنف الدنيا ليدىك موطأ »

« أليس عجيباً أن تشط النوى بك فأحيا كأن لم أنس فقع جنابك
ولم يلقنم شعبى خلال شعابك ولم يك خلقى بدؤه من ترابك
ولم يكتفى - من نواحيك - منشأ »

الى أن يقول :

« معاهد أبكىها لعهد تصرما أغص من الورد الجى وألعمنا
لسا الصا فيها حبرا منمنا وقدنا إلى اللذات جيشا عرمرما
له الأمن رده والعداوة مربأ »

وقوله :

« إخواننا للواردين مصادر ولا أول إلا سبتاوه آخر
وإنى لاعتاب الزمان لناظر فقد يستقيل الجد ، والجد عاثر
ونحمد عقبى الأمر ما زال يشنا »

وما أبدع قوله :

« وان بلادا هنت فيها لأهون ومن رام مثلى بالدنية أدنا . »

الى آخر هذه القصائد الفذة التى يفخر بها الأدب العربى والبيان العربى . والتى كان
الباعث الأول على نظمها العجيب وصوغها المعجز هو حب ولادة .

ه - أدب ابن زيدون

قما يظفر الانسان بأديب عربى يحمل لواء الزعامتين فى النظم والنثر ، فان أغلب ما نشاهده أن يبدع الأديب فى أحد النوعين إبداعا يغطى على إبداعه فى الآخر ، أما ابن زيدون فانك تقرأ نثره فلا تكاد تصدق أن شعره يتسامى إلى مثل هذه المرتبة العالية ، فاذا عدت الى شعره أنسك إبداعه روعة ما قرأت من نثره ، وهكذا لانكاد نقرأ قطعة مختارة من شعره أو نثره حتى تملأ نفسك بهجة وسرورا وينسيك سحرها كل شيء آخر . وليس من الانصاف أن نقول إنه شاعر ممتاز لحسب أوثائر ممتاز فقط ، وما أجدرنا أن ننصفه فنقول إنه زعيم من زعماء البيان العربى .

لقد قضى ابن زيدون حياته بين الدرس والتحصيل والتجارب والاختار والاتصال بكبار ساسة عصره ودهاتهم ، وصهر قلبه حب ولادة كما أسلفنا ، وحنينه الى وطنه ، وأثر فى نفسه الشاعرة الحساسة ما ممتازت به الأندلس من جمال التربة وصفاء الجو ، ولقى من السعادة والتخيم بالحسن أشهى وأعذب ما لقي محبة ، ثم لقي من لوعة الصدا والهجران أشقى وأمر ما لقي إنسان : « حسن أفانين لم تستوف أعيننا غاياته بأفانين من النظر »

ولقد نعم بصولجان السلطة والقوة حينما من الدهر ثم شقى بالسجن بين الأشرار والمجرمين زمنا غير قليل ، ولقى من كيد المنافسين والحساد كما أسلفنا ما لم يلقه أحد . فلا غرو أن تتضافر كل هذه العوامل القوية على خلق الشاعر العظيم . وأنت إذا درست أدب ابن زيدون دراسة مستفيضة رأيته خليقا بأن يقول كما قال فيلسوف المغرب :

« ماصر فى هذه الدنيا بنو زمن إلا وعندى من أخبارهم طرف »

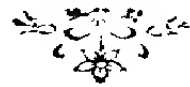
ولقد ترى فى أدبه أمثلة من ثقافة المعرى وسعة اطلاعه وتمكنه من اللغة ، ومحافظته على أساليبها ، كما ترى فيه أمثلة من صناعة أبى تمام ونظم البحتري واسترسال ابن الرومى وقوة أداء المتنبى .

وإنك لتقرأ أكثر غزله فيخيل اليك لسهولته أنك تحلق فى أجواء العباس بن الأحنف والشريف الرضى والمجنون ، ثم تقرأ اخوانياته فيخيل اليك لاسترساله وافتتانه فى ضروب القول ، أنك تقرأ ابن الرومى وهو يخاطب أبا القاسم التوزى بهمزيته المشهورة ، ثم تقرأ رسائله فيخيل إليك أنك تقرأ رسائل الجاحظ فى براعة الاستخفاف والنهك أو رسائل المعرى فى سعة الاحاطة وكثرة الاستشهاد ، والولوع بالأمثال .

وقد كان ابن زيدون زعيم شعراء عصره فى الأندلس فلا غرو أن يكون أدبه أصدق مرآة يتجلى فيها أدب هذا العصر الزاهى وثقافته .

وقد كان يجمع - إلى حسن رويته - قوة الدلاقة وسرعة البديهة ، وقلمما يتفق لأديب عمق التفكير مع دلاقة اللسان ، فقد روى صاحب نفع الطيب محدثنا عن دلاقة ابن زيدون : أن ابنته توفيت ، وبعد الفراغ من دفنها ، وقف للناس عند منصرفهم من الجنازة ليشكر لهم ، فقبل ، إبه ما أعاد في ذلك الوقت عبارة قالها لأحد ، قال الصفدي : « وهذا من التوسع في العبارة والقدرة على التفنن في أساليب الكلام ، وهو أمر صعب إلى الغاية » إلى أن قال - بعد أن قارن بينه وبين واصل بن عطاء في تجنبه الراء ، وأما ابن زيدون فأقول في حقه : « أقل ما كان في تلك الجنازة - وهو وزير - ألف رئيس ممن يتعين له أن يتشكر له ويضطر إلى ذلك فيحتاج في ذلك إلى ألف عبارة مضمونها الشكر وهذا كثير الغاية لاسيما من محزون فقد قطعة من كبده : « ولكنه صوب العقول اذا انبرت سحائب منه أعقبت بسحائب . » ومهما كان في هذا الخبر من الاسراف ، فان بعضه كاف في الدلالة على فضله . وكان ابن زيدون إلى ذلك إماما من أئمة عصره حتى قال بعض الأدباء فيه : « من لبس البياض وتخنم بالعقيق وقرأ لأبي عمرو وتفقه للشافعي وروى شعر ابن زيدون ، فقد استكمل الظرف » .

كامل كيلاني



في السجى (١)

« نظم ابن زيدون هذه القصيدة الفياضة بالألم واللوعة والحزن ، وهو فى السجى ، وبعث بها إلى صديقه الوزير السكاتب أبى حفص بن برد »

مَا عَلَى ظَنِّى بَاسٌ ^(١)	يَجْرَحُ الدَّهْرُ وَيَاسُو ^(٣)
رُبَّمَا أَشْرَفَ بِالْمَرْءِ	عَلَى الْآمَالِ يَاسُ
وَلَقَدْ يُنَجِّيكَ إِغْفَا	لَوْ يُرِيدُكَ ^(٤) احْتِرَاسُ
وَالْمَحَازِيرُ سِهَامٌ	وَالْمَقَادِيرُ قِيَاسُ ^(٥)
وَلَكُمْ أَجْدَى ^(٦) قُعُودُ	وَلَكُمْ أَكْدَى ^(٧) التِّمَاسُ
وَكَذَا الدَّهْرُ ^(٨) — إِذَا مَا	عَزَّ نَاسٌ — ذَلَّ نَاسٌ
وَبُنُو الْأَيَّامِ أَخِيَا	فَ سَرَاةٍ وَخِسَاسُ ^(٩)

(١) جاء فى قلائد العقيان :

١ وله عند فقد الوفاء من ألافه ، يخاطب أبى حفص بن برد ، وقد حار ولم يجد هاديا ، وصار رهينا يرحو فاديا ، وعلم أن الناس متقلدون ، وعلى من انقلب الدهر متقلدون ، لا يديهم فى الشدة إزاء ، ولا تنهم عن دوى الخطوة زهو ولا انتغاء .

ما على ظنى باس يجرح الدهر ويأسو

قد ذكرت بترتيب يخالف هذا الترتيب الذى نقله عن نسخى الديوان .

(٢) ويروى : « ما على ظنى باس » . (٣) يداوى . (٤) وى روايه : « وبؤذك احتراس » (٥) جمع قوس : عن يعقوب وأبى عبيد فهو على فعال ، وأصله نواس ثبت الواو ياء لمناسبة الكسرة ، يشاهده قول المائل :

« ووتر الأساور القياسا صفدية تنتزع الأنفاسا »

(٦) أغنى : أو أفاد . (٧) أحقق ولم يفز — يقول : كثيرا ما يكون القعود عن المطلب سببا فى نظمر والفوز والسعى سببا فى الإحفاق والحرمان ، وقد تهافت الشعراء على هذا المعنى كثيرا ، ومن أحسن ما جاء فيه قول بن زريق :

والسعى فى الرزق والأرزاق قد قسمت بى ألا إن بى إلى الرء يصرعه

(٨) وى رواية : « وكذا الحكم » .

(٩) الناس أخفاف : أى مختلفون ، شريف وخسيس . قال أحد الأعراب : « الناس أخفاف وشنى فى الشيم »

تَلْبَسُ الدُّنْيَا ، وَلَكِنْ مُتَعَةً ذَاكَ اللَّبَاسُ ^(١)
يَا أَبَا حَفْصٍ وَمَا سَأَلَكَ فِي فَهْمِ إِيَّاسٍ ^(٢)
مِنْ سَنَاءٍ ^(٣) رَأَيْكَ لِي فِي غَسَقٍ ^(٤) الْخَطْبِ أَقْتَبَسُ
وَوِدَادِي لَكَ نَصٌّ ^(٥) لَمْ يُخَالَفْهُ قِيَاسٌ ^(٦)
أَنَا حَيْرَانُ وَالْأَمْرِ وَضُوحُ وَالتَّبَاسُ
مَا تَرَى فِي مَعَشَرٍ حَا لُوا عَنِ الْعَهْدِ وَخَاسُوا ^(٧)
وَرَأَوْنِي سَامِرِيًّا ^(٨) يُتَّقَى مِنْهُ الْمَسَاسُ
أَذُوبٌ هَامَتِ بِلَحْمِي فَأَنْتَهَاسُ ^(٩) وَأَنْتَهَاسُ
كُلُّهُمْ يَسْأَلُ عَنْ حَا لِي وَلِلذُّبِ أَعْتِسَاسُ ^(١٠)

(١) يشير إلى قوله تعالى : « وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » .

(٢) هو القاضي إياس بن معاوية بن إياس المزني ولي القضاء في زمن عمر بن عبد العزيز ، وكان يضرب به المثل في الألمعية :

والألمى الذى يطن بك الظن كائن مد رأى ومد سماع

وإياس هذا هو من عناه الحريري بقوله في المقامة السابعة « فاذا ألمعيت ألمعية ابن عباس ، ومراستي فراسة إياس » وعناه أبو تمام في قصيدته السبئية بقوله :

اندام عمر في ساحة حاتم في حلم أخنف في دكاء إياس

(٣) من دواء رأيك (٤) طلبة (٥) النص : السند المقطوع صحته والتعيين على شيء ، وهو في عرف الفقهاء ، مقطوع صحته فلا يخالفه قياس ، فكأنه يقول : إن ودادي مسد إليك ، أو هو موقف عليك ، أو متعين لك ، وقد استعمل الشاعر لفظ النص والقياس في السمر ، وهما من مصطلحات الفقهاء على عادته في ذلك ، وهو يشير بذلك إلى اصطلاح الفقهاء إذ يعتبرون النص والقياس من مآخذ الأحكام الشرعية ، والأول صريح مط القرآن أو الحديث ، والثاني إلحاق قضية — لا نص فيها — بقضية أخرى منصوصة لاشتراكهما في علة حكم الأولى (٦) وفي رواية : القياس

(٧) حابوا (٨) السامري : عظيم من بني إسرائيل عبد العجل . قال الكشاف : عوقب في الدنيا بمقومه لانيء أطم منها وأوحش ، وذلك أنه منع من محالطة الناس منعاً كلياً ، وحرّم عليهم ملاقاته ومكالته ومنازحته ومواجهته وكل ما عايش الناس به منهم ، وإذا من أحدأ رحلا أو امرأة حمّ الناس والمعسوس ، فتعاضى الناس وتعاووه ، وكان يصيح في الناس « لا مساس » .

(٩) الانتهاس بالشين : الأحد بالأضراس ، وبالشين : الأخذ بمقدم الأسنان ، وفي رواية : فانتهاب وانتهاس (١٠) طلب الصيد بالليل ، ومعنى الأبيات أن أعداءه كالذئاب لا ينون من نهش لحمه ، متظاهرين بالتودد له والاشفاق عليه ، فهم يسألون عن حاله متجسسين ، كما يتجسس الذئب ليتعرف مواطن فريسته .

إِنْ قَسَا الدَّهْرُ فَلَمَّا مِنْ الصَّخْرِ أَنْبِجَاسُ^(١)
وَلَنْ أَمْسَيْتُ نَجْبُو سَا فَلَنْغَيْتُ أَخْتِبَاسُ
يَلْبُدُ^(٢) الْوَرْدُ السَّبْنَى وَلَهُ بَعْدُ أَفْتِرَاسُ

فَتَأْمَلْ كَيْفَ يَغْشَى مُقَلَّةَ الْمَجْدِ النَّعَاسُ
وَيُقْتِ الْمِسْكُ فِي التَّرْبِ بِ فَيُوطَا وَيُدَاسُ

لَا يَكُنْ عَهْدُكَ وَرَدًا إِنَّ عَهْدِي لَكَ آسُ^(٣)
وَأِدِرْ ذِكْرِي كَأَسَا مَا أَمْتَطَتْ كَفَّكَ كَاسُ
وَأَعْتِمِ صَفْوِ اللَّيَالِي إِنَّمَا الْعَيْشُ اخْتِلَاسُ
وَعَسَى أَنْ يَسْمَحَ الدَّهْرُ رُ فَقَدْ طَالَ الشَّمَاسُ^(٤)

(١) أى تشقق ينفع منه الماء ، وفى القرآن الكريم : « وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء ، » (٢) يلصق بالأرض ملازماً عريسه لا يبرحه . والورد من أسماء الأسد ، والسبني الجري ، ومنه فى صفة أبى أولؤة قاتل عمر بن الخطاب رضى الله عنه . قول الضمخ :
حزى الله خيراً من إمام وبارك يد الله فى داك الأديم الممزق
وما كب أحس أن تكون وفاته بكفى سبني أروق العين ، طرق
والسبني النمر أيضاً ، وفى الدخيرة لابن بسام قوله : يلبد الورد السبني البيت ، كقول النابغة :
وقلت يا قوم ان اليت منقبص على برائته للوثة العياري
وأحذه ابن الرومي فقال :

سكنت سكوناً كان وهناً لوثة عحاس كذاك اليت للوث يلبد

(٣) يقول : لا يكن عهدك كالورد فى سرعة الذبول ، فاب عهدي دائم كالآس ، ويفسر هذا المعنى قول العباس بن الأحنف :

ولكنى شبت بالورد عهداً وليس يدوم الورد والآس دائم

(٤) وفى رواية ثانية : « وقد طال التماس » ومعنى الرواية الأولى : أن مصيان الدهر وعمره قد طالا .

ذكرى أيام الوصال^(١)

« كتب ابن زيدون هذه القصيدة الفذة ، يتحسر فيها على انقضاء أيام الوصال ويشكو فيها ما يحسه من الوجد المبرح والألم القاسى ، وقد بعث بها إلى حبيته «ولادة بنت المستكفي» أديبة الأندلس الفذة ، يسعظها ويتلف على أيام الوصال السابقة »

أَضْحَى الثَّنَائِي بَدِيلًا مِنْ تَدَانِينَا	وَنَابَ ^(٢) عَنْ طِيبِ لَقِيَانَا بِجَافِينَا
أَلَا ^(٣) وَقَدْ حَانَ صَبْحُ الْبَيْنِ صَبَحَنَا	حِينَ فَقَامَ بِنَا لِلْحَسَنِ نَاعِينَا
مَنْ مُبْلَغُ الْمُلْسِينَا بِأَتْرَاجِهِمْ	حُزْنَا مَعَ الدَّهْرِ لَا يَتَلَى وَيُتْلِينَا
أَنَّ الزَّمَانَ الَّذِي مَا رَالَ يُضْحِكُنَا	أُنْسًا بِقُرْبِهِمْ قَدْ عَادَ يُبْكِينَا
غِيظَ الْعِدَامِينَ تَسَاقِينَا الْهُوَى فَدَعَوْا	بِأَنْ نَقْصَ ^(٤) فَقَالَ الدَّهْرُ آمِينَا
فَانْحَلَّ مَا كَانَ مَعْقُودًا بِأَنْفُسِنَا	وَأُنْبِتَ مَا كَانَ مَوْصُولًا بِأَيْدِينَا
وَقَدْ نَكُونُ وَمَا يُخْشَى تَفَرَّقْنَا	فَالْيَوْمَ نَحْنُ وَمَا يُرْجَى تَلَاقِينَا

(١) جاء في ولائد الغنيان :

« ولم يزل يروم دنو ولادة فيتعدى ، ويباح دمه دونها ويهدر ، لىء أثره في ملك قرطبة وواليتها ، وفمايح كان ينسبها إليه ويواليها ، أحقدت بى جهور عليه ، وسددت أسنتهم إليه ، فلما رئس من لقيائها ، وحجب عنه عيائها ، كتب إليها يستديم عهدا ، ويؤكد ودها ، ويعتذر من فراقها بالخطب الذي غشبه ، والامتحان الذي حشيه ، ويعلمها أنه ماسلا عنها بحمر ، ولا خبا ما بين صلوة لها من ملتب جر ، وهي قصيدة ضربت في الابداع بهم ، وطلعت في كل خاطر ووهم ، ونزعت منزعا قصر عنه حيب وابن الجهم »

وقد عارض هذه القصيدة كثير من الشعراء - من قداما ، ومحدثين - وقد أثبتنا شيئا من ذلك في غير هذا المكان من الكتاب فليرجع إليه من شاء (٢) رواية الديوان « نان » .

(٣) لمة في هلا ، والحين الهلاك ، والمعنى هلا صبحنا الهلاك صبيحة يوم الفراق - كأن الهجر والموت في نظر الشاعر سيان مادام كلاهما بعده عمن يحبه ويهواه بل الموت أروح لأنه فراق اضطرار ، أما الهجر فانه عن اختيار (٤) غصن بالما ، شرق به أو وقف في حلقه .

يَا لَيْتَ شِعْرِي وَلَمْ نُعْتَبِ^(١) أَعَادِيكُمْ
لَمْ نَعْتَقِدْ بَعْدَكُمْ إِلَّا الْوَفَاءَ لَكُمْ
مَا حَقَّقْنَا أَنْ تُقَرُّوا عَيْنَ ذِي حَسَدٍ
هَلْ نَالَ حَظًّا مِنَ الْعُتْبَىٰ أَعَادِينَا
رَأْيَا وَلَمْ نَتَقَلَّدْ غَيْرَهُ دِينَا
بِنَا وَلَا أَنْ تَسُرُّوا كَاشِحًا فِينَا

كُنَّا نَرَى الْيَأْسَ تُسَلِّينَا عَوَارِضُهُ
بِفَتْهُمْ^(٢) وَبِنَا فَمَا أَتَلَّتْ جَوَانِحُنَا
نَكَادُ حِينَ تَنَاجِيكُمْ ضَامِرُنَا
حَالَتْ لِفَقْدِكُمْ أَيَّامُنَا فَفَدَتْ
إِذْ جَانِبُ الْعَيْشِ طَلَقَ مِنْ تَأَلُّفِنَا
وَإِذْ هَصَرْنَا^(٣) فَنُونَ^(٤) الْوَصْلِ دَانِيَةً
لِيُسْقَى^(٥) عَهْدُكُمْ عَهْدُ السُّرُورِ فَمَا
لَا تَحْسَبُوا تَأْيِيَكُمْ عَنَّا يُغَيِّرُنَا
وَقَدْ يَغِيْرُنَا فَمَا لِلْيَأْسِ يُغَيِّرُنَا^(٦)
شَوْقًا إِلَيْكُمْ وَلَا جَفَّتْ مَا قِينَا
يَقْضِي عَلَيْنَا الْأَسَى^(٧) لَوْلَا تَأْسِينَا^(٨)
سُودًا وَكَانَتْ بِكُمْ يِيْضًا لِيَالِنَا
وَمَرْبَعُ اللَّهِوَ صَافٍ مِنْ تَصَافِينَا
قِطَافُهَا فَجَنَيْنَا مِنْهُ مَا شِينَا
كُنْتُمْ لِأَرْوَاحِنَا إِلَّا رِيَاحِينَا
إِنْ طَالَمَا غَيَّرَ الثَّأْيُ الْمُحِيْنَا

(١) أعتبه أعطاه العتي أي أرضاه ، يقول : لئن لم نرض أعداءكم ، فهل أنتم كذلك لم ترضوا أعداءنا
(٢) كننا نظن أن اليأس يسلي ، فما نال بأسا منكم يزيدنا ولو طابكم ، وفي هذا المعنى يقول المجنون :

أليس وعدتي يا قلب اني إذا ماتت عن ليلي تنوب
فيها أنا تائب عن حب ليلي فمالك كلما ذكرت تذوب

(٣) بعدتم وبعدنا (٤) الحزن (٥) التعزى

(٦) هصر الغصن : إيمائه (٧) ضروبه وأنواعه أو الفنون جمع فن ، وهو الغصن وما تشعب منه ، ففي اللسان (قال أبو الهيثم : الفنون تكون في الأغصان ، والأغصان تكون في الشعب ، والشعب تكون في السوق) فكان الشاعر استعار للوصل أفنانا يهصرها أي يميلها إليه كلما أراد انتطاف زهرها ، واحتناء ثمرها (٨) أي سقيا لمهدكم عهد السرور أي بإبدال الثاني من الأول لتبيينه وتعريفه

وَاللّٰهُ مَا طَلَبْتَ ^(١) أَهْوَاؤُنَا بَدَلًا مِنْكُمْ وَلَا أَنْصَرَفَتْ عَنْكُمْ أَمَانِينَا

يَا سَارَى الْبَرْقِ غَادِ ^(٢) الْقَصْرَ وَأَسْقِي بِهِ
وَأَسْأَلُ هُنَاكَ هَلْ عَنِّي ^(٣) تَذَكُّرُنَا
وَيَا نَسِيمَ الصَّبَا بَلِّغْ تَحِيَّتَنَا
فَهَلْ أَرَى الدَّهْرَ يَقْضِينَا مُسَاعَفَةً

رَيْبُ مُلْكٍ كَانَ اللَّهُ أَنْشَأَهُ
أَوْ صَاغَهُ وَرِقًا ^(٤) مَحْضًا وَتَوَجَّهَهُ
إِذَا تَأَوَّدَ آدَتُهُ رِفَاهِيَّةً
كَانَتْ لَهُ الشَّمْسُ ظِلًّا ^(٥) فِي أَكَلِيَّتِهِ ^(٦)
كَأَنَّمَا أَثْبَتَتْ فِي صَحْنٍ وَجَنَّتِهِ
مِسْكًا ^(٧) وَقَدَّرَ إِنْشَاءَ الْوَرَى طِينًا
مِنْ نَاصِعِ الثَّبَرِ إِبْدَاعًا وَتَحْسِينًا
تَوْمُ الْعُقُودِ وَأَدَمَتُهُ الْبَرَى لِينًا ^(٨)
بَلْ مَا تَجَلَّى لَهَا إِلَّا أَحَايِينَا
زُهْرُ الْكَوَاكِبِ تَعْمُودُ أَوْ تَزِينُنَا ^(٩)

(١) وفي رواية : « ما اطردت » اسحدثت ، بدلا طريفا ، يقسم أنه ما استحدثت هوى حديدا بعد هوى أحبابه ، (٢) باكره بالعمام أول النهار
(٣) هل شغل من تألفه مذكرنا كما شغلنا مذكوره .

(٤) المص في الزيارة أن تكون كل أسبوع ، والمقصود هنا القلة . يقول الشاعر :

لأننا لم نتفاض الوصال من الدهر غنا ، ولكننا تقاضيناها بالخاح . فهل ترى الدهر — بعد هذا —
يسمعنا باللقاء ؟

(٥) ليس هذا المحبوب مخلوقا من طين أو تراب كسائر البشر كلا ، وإنما هو طينة من المسك ولا زال
الشعراء المحبون يتغالون فيمن يحبون إلى الآن ، حتى قال بعضهم أخيرا لهو به :
أنت روحانية لا تدعي أن هذا الحسن من طين وماء

(٦) فضله ، يريد أن الله أبدعه ناصع البياض وتوجهه بشعر ذهبي (٧) يقول إذا تلى آدته أي
أثقلته وشق حملها عليه (توم) أي لآلى العقود وجرحته (البرى) أى الخلائيل ، وذلك لرفايته

(٨) مرضعة (٩) جمع كلة : وهي ستر أو قبقق يبقى من البعوض

(١٠) يعني أن جماله استعمار زهر الكواكب لتكون زينة له ، وتعميده من عيون حاسديه

مَا ضَرَّ أَنْ لَمْ نَكُنْ أَكْفَاءَهُ شَرَفًا وَفِي الْمَوَدَّةِ كَافٍ مِنْ تَكَاثُفِنَا

يَا رَوْضَةً طَالَمَا أُجِنْتُ لَوَاحِظُنَا وَرَدًّا جَلَاهُ الصَّبَا غَضًّا وَنَسْرِينَا
وَيَا حَيَاةً تَمَلِّينَا ^(١) بِزَهْرَتَيْهَا مُسَيَّ ضُرُوبًا وَلَذَاتِ أَفَانِينَا
وَيَا نَعِيمًا خَطَرْنَا مِنْ غَضَارَتِهِ ^(٢) فِي وَشْيٍ ^(٣) نَعْمَى سَحَبْنَا ذَيْلَهُ حِينَا
لَسْنَا نُسَمِّيكَ إِجْلَالًا وَتَكْرِمَةً وَقَدْرُكَ الْمُعْتَلِي عَنْ ذَاكَ يُغْنِينَا
إِذَا أَنْفَرَدْتَ وَمَا شُورَكَتَ فِي صِفَةٍ فَحَسْبُنَا الْوَصْفُ إِضَاحًا وَتَبْدِينَا

يَا جَنَّةَ الْخُلْدِ أَبَدِنَا بِسِدْرَتِهَا وَالْكَوْثَرِ الْعَذْبِ زَقُومًا وَغَسَلِينَا
كَأَنَّكَ لَمْ تَبِتْ وَالْوَصْلُ ثَالِثُنَا وَالسَّعْدُ قَدْ غَضَّ ^(٤) مِنْ أَجْفَانِ وَأَشِينَا
سِرَّانٍ فِي خَاطِرِ الظُّلَمَاءِ يَكْنُمُنَا حَتَّى يَسْكَدَ لِسَانُ الصَّبْحِ يُفْشِينَا ^(٥)
لَا غَرَوْ فِي أَنْ ذَكَرْنَا الْحُزْنَ حِينَ نَهَتْ عَنْهُ النَّهْيُ وَتَرَكْنَا الصَّبْرَ نَاسِينَا
إِنَّا قَرَأْنَا الْأَسَى يَوْمَ النَّوَى سُورًا مَكْتُوبَةً وَأَخَذْنَا الصَّبْرَ تَلْقِينَا

(١) تَمَلَّيْنَا وَنَعْمَى

(٢) نَفْسَتِهِ وَخَفَضَهُ (٣) فِي نَعْمَى كَالثُوبِ الصَّاقِ دَى الْوَشْيِ أَيْ الْقَشِ .

(٤) أَنَامَهُ عَا لَمْ يَشْ بِنَا

(٥) قَالَ ابْنُ بَسَامٍ : وَهُوَ مَعْنَى مَشْهُورٌ وَهُوَ فِي الشَّعْرِ كَثِيرٌ ، قَالَ أَبُو الطَّيِّبِ :
أَزُورُهُمْ وَسَوَادُ اللَّيْلِ يَشْفَعُ لِي وَأَسْنَى وَبَيَاضُ الصَّحْرِ يَفْشِي بِي

هَلَى أَنْ أَبَا الطَّيِّبِ أَجَادَ وَكَرَّرَهُ فِي مَوَاصِعَ مِنْ شَعْرِهِ كَقَوْلِهِ :

لَا تَلْقَ إِلَّا لَيْلًا مِنْ تَوَاصُلِهِ فَالْشَّمْسُ نَعَامَةٌ وَاللَّيْلُ قَوَادِ

وَكُلٌّ مِنْ إِلَى هَذَا الْمَعْنَى أَشَارَ ، خَوَالِي الْمَثَلِ دَارَ ، وَهُوَ قَوْلُهُمْ : « اللَّيْلُ أَحَقُّ لِلَّيْلِ »
قَوْلٌ : وَلَمْ تَرَفِ فِي هَذِهِ الْمَعْنَى الَّتِي ذَكَرَهَا ابْنُ بَسَامٍ أَدَقُّ وَأَعْلَفُ مِنْ قَوْلِ ابْنِ زَيْدُونَ :

« سِرَّانٍ فِي خَاطِرِ الظُّلَمَاءِ » الخ

أَمَّا هَوَاكَ فَلَمْ نَعْدِلْ بِمَنْهَلِهِ
لَمْ نَجْفُ أَفْقَ جَمَالِ أَنْتِ كَوْكَبُهُ
وَلَا اخْتِيَارًا تَجَنَّبْنَاهُ عَنْ كَثَبِ
نَاسِي عَلَيْكَ إِذَا حُثَّتْ مُشَعْشَعَةٌ (١)
لَا كَوْسُ الرِّاحِ تُبْدِي مِنْ شَمَائِلِنَا
دُومِي عَلَى الْعَهْدِ - مَا دُمْنَا - مُحَافِظَةٌ
فَمَا اسْتَعَضْنَا خَلِيلًا مِنْكَ يَحْبِسُنَا
وَلَوْ صَبَاً (٢) نَحْوَنَا مِنْ غُلُومِ مَطْلَعِهِ
أَبْنِي وَفَاءَ - وَإِنْ لَمْ تَبْذُلِي صَلَاةَ -
وَفِي الْجَوَابِ مَتَاعٌ إِنْ شَفَعْتَ بِهِ
عَلَيْكَ مِنَّا سَلَامٌ اللَّهُ مَا بَقِيَتْ

شُرْبًا وَإِنْ كَانَ يُرْوِينَا فَيُظْمِئِنَا (١)
سَالِينَ عَنْهُ وَلَمْ نَهْجُرْهُ قَالِينَا
لَكِنْ عَدَّتْنَا - عَلَى كُرْهِ - عَوَادِينَا (٢)
فِينَا الشُّمُولُ وَغَنَانَا مُغْنِينَا
سِيمَا أَرْتِيَا حِ وَلَا الْأَوْتَارُ تُلْهِينَا
فَالْحُرُّ مَنْ دَانَ إِنْصَافًا كَمَا دِينَا (٣)
وَلَا اسْتَفَدْنَا حَبِيبًا عَنْكَ يَثْنِينَا
بَذَرُ الدُّجَى لَمْ يَكُنْ حَاشَاكَ يُصْبِينَا
فَالطَّيْفُ يُقْنِعُنَا وَالذِّكْرُ يَكْفِينَا
بِيضَ الْأَيَادِي الَّتِي مَا زِلْتَ تُؤَلِينَا
صَبَابَةً بِكَ تُخْفِيهَا (٤) فَتَخْفِينَا

(١) قال ابن سبام : « وهذا معنى متداول من أشهره قول القائل :

ريق إذا ما ازدودت من شربه ربا ثنك الريق ظمنا
كالحر - أروى ما يكون الفقى من شربها - أعطش ما كانا

ولابن الرومي فيما يناسبه من معنى الوحوه :

« يارب ريق بات بدر الدجى عجب بين ثناياك

يروى ولا ينهاك عن شربه والماء يرويك وينهاك »

(٢) لم نتجنبه عن كَثَبِ أى قرب اختياراً ، ولكن صرفتنا على كره منا شواغلنا .

(٣) ممزوجة : أى نَحْزَنُ لغيابك من مجلسنا إذا حثت الشمول الممزوجة (٤) دومي عاهدة على

المهد مادما محاطين فالحر المنصف يحزى كما حوزى

(٥) مال (٦) أخفيت الشيء أخفيه سترته ، وخفيته أخفيه تأتى بمعنى سترته ، ومعنى أظهرته ،

وعلى ذلك فقوله « نخفيها » أى سترها « فتخفيها » بفتح أوله أى تطهرنا ، وشاهد خفاء يخفيه بمعنى

أظهره . قوله :

فان تكدنوا السر لا نخفه وإن تبمشوا الحرب لا تقعد

وقوله تعالى فى قراءة « أكاد أخفيها » بالصح أى أظهرها .

في مدح ابن جهور^(١)

مَا لِلْمُدَامِ تُدِيرُهَا عَيْنَاكَ فَيَمِيلُ فِي سُكْرِ الصَّبَا عِطْفَاكَ
هَلَّا مَزَجْتَ لِعَاشِقِيكَ سُلَافَهَا يَبْرُودِ ظَلَمِكَ أَوْ يَعَذِبُ لَمَّاكَ^(٢)
بَلْ مَاعَلَيْكَ وَقَدْ تَحَضَّتْ^(٣) لَكَ الْهَوَى فِي أَنْ أَفُوزَ بِمُحْظَوَةِ الْمِسْوَاكِ^(٤)
نَاهِيكَ ظُلْمًا أَنْ أَضْرَبَنَّ الصَّدَى^(٥) بَرَحًا^(٦) وَنَالَ الْبُرَى عُدُ أَرَاكَ

وَاهَا لِعِطْفِكَ وَالزَّمَانُ كَأَنَّكَ صُبِغَتْ غَضَارَتُهُ^(٧) يَبْرُدُ صَبَاكَ
وَاللَّيْلُ مَهْمًا طَالَ قَصَرَ طَوْلُهُ هَاتِي وَقَدْ غَفَلَ الرَّقِيبُ وَهَاكَ
وَاطْلَمَا أَعْتَلَّ النَّسِيمُ فَخِلْتُهُ شَكْوَايَ رَقَّتْ فَاقْتَضَتْ شَكْوَاكَ
إِنْ تَأَلَّفِي سِنَةَ النَّوْمِ خَلِيَّةً فَلَطَامَا نَافَرْتَ فِي كَرَاكَ^(٨)
أَوْ تَحْتَبِي بِالْهَجْرِ فِي نَادِي الْقَلَى فَلَكُمْ حَلَلْتُ إِلَى الْوِصَالِ حُبَاكَ^(٩)

أَمَّا مَنَى نَفْسِي فَأَنْتِ جَمِيعُهَا يَا لَيْتَنِي أَصْبَحْتُ بَعْضَ مَنَّاكَ
يَذْنُو بِوَصْلِكَ حِينَ شَطَّ مَزَارُهُ وَهُمْ أَكَادُ بِهِ أَقْبَلُ فَالِكَ

(١) تصدى كثير من الشعراء المعاصرين لمعارضة هذه القصيدة وقد ذكرنا طرفاً من ذلك في غير هذا المكان من الكتاب فليرجع إليه من شاء .

(٢) الظلم : ماء الأسنان أو بريقها ، والامى : سعة و الشمة (٣) أخلصت

(٤) يقول : ماضرك - بعد أن أخلصت لك الهوى ، وعصتك الحب أن أفوز منك بمحظوة المسواك .

(٥) العطش الشديد (٦) مشقة وشدة (٧) بهجته . يقول الشاعر : ما أحسن عطفك

نيا مضي والزمان كأنما صبغت بهجته بما كسبت أنت به من برد الشباب (٨) يقول أن تعادى اليوم

الآن خالية غير مبالية بي ، فكثيراً ما أسهدك الهوى ، وعاديت في نومك (٩) احتبي بالثوب اشتمل

والحي كهدى جمع حبة مثلثة الحاء ، فكان الشاعر يقول : إن نجلس في نادي البغض (القل) محتبية

أو مشتملة بحبة الهجر ، فكثيراً ما فزعنت إلى الوصال ، وحللت لأحله حباك .

وَأَنْ تَجَنَّبَ الرَّشَادَ بِغَدْرَةٍ لَمْ يَهْوِ بِي فِي الْغَى غَيْرُ هَوَاكَ ^(١)

* * *

لِلْجَهْوَرِيِّ أَبِي الْوَلِيدِ خَلَّائِقُ كَلَرَوْضٍ أَضْحَكُهُ النِّعَامُ الْبَاكِ

مَلِكُ يَسُوسُ الدَّهْرَ مِنْهُ مُهَذَّبُ تَذْبِيرُهُ الْمُلْكُ خَيْرُ مَلَاكٍ ^(٢)

جَارِي أَبَاهُ بَعْدَ مَا فَاتَ الْمَدَى شَمْسُ النَّهَارِ وَبَذَرُهُ وَنُجُومُهُ

يَسْتَوْضِعُ السَّارُونَ زُهْرًا كَوَاكِبُ مِنْهُمْ تُبِيرُ غِيَابَ الْأَحْلَاكِ ^(٣)

بُشْرَاكِ يَا دُنْيَا وَبُشْرَانَا مَعًا هَذَا الْوَزِيرُ أَبُو الْوَلِيدِ فَتَاكِ ^(٤)

أَبْنَاؤُهُ مِنْ فَرْقَدٍ وَسِمَاكِ ^(٥)

* * *

تُلْفَى السِّيَادَةُ نَمَّ إِنْ أَضَلَّتْهَا ^(٦) وَمَتَى فَعَدَّتِ السَّرَوَ ^(٧) فَهَوَّ هُنَاكِ

وَإِذَا سَمِعْتَ بَوَاحِدٍ جُمِعَتْ لَهُ فِرْقُ الْمَحَاسِنِ فِي الْأَنَامِ فَذَاكِ

صَمَصَامُ بَادِرَةٍ وَطَوْدُ سَكِينَةٍ وَجَوَادُ غَايَاتٍ وَجِذْلُ حَكَاكِ ^(٨)

(١) المعنى أئن وقعت في المي بسبب غدرك بي فاني أنا لم يوقعني في الغي غير هواك .

(٢) ملك الأمر : مكسر الميم ، أى قوامه الذى يملك به .

(٣) الفرقد والسماك من النجوم البيرة (٤) هم المسترشدين برأيهم إذا دحت الحوادث أمثال

النجوم الزهر للسايرين في ظلمات الليل البهيم (٥) وجاء بعد هذا البيت بحز بيت ناقص هكذا : —

(وصف جواك واستغفرك حاك)

(٦) ذهبت عنك وندت ، والخطاب للدنيا في قوله « بشارك يا دنيا » .

(٧) المروءة والشرف والوصف على فعيل يقال سرو يسرو فهو سري (٨) البادرة الحدة ، والجذل

أصل شجرة قطع رأسها أو عود ينصب في العطن لتحتك به الابل الجربى يقال هو جدل حكاك ، وهم جذال

حكاك ، ومنه قوله الحباب بن المدر الأصارى يوم سقيفة بني ساعدة « أنا حديثاها الحكاك ، وعديقها المرجب »

أى إنه يشتكى برأيه وعلمه وتحاربه في الأمور كما تشتكى الابل الجربى بهذا الجذل ، ومعنى البيت أنه مصمم

كالسيف في العنق ثابت كالطود في الحلم سباق إلى الغايات ليجرب يشتكى برأيه صلب لا يلين مكسره .

طَلَقُ يُفْتَدُ فِي السَّمَاحِ ، وَجَاهِلُ مَنْ يَسْتَشْفُ النَّارَ بِالْمُجْرَاهِ (١)

* * *

صَنَعُ (٢) الضَّمِيرِ إِذَا أَجَالَ يُهْمَرْقِ (٣) يُمْنَاهُ فِي مَهَلٍ وَفِي إِيشَاكَ (٤)

نَظَمَ الْبَلَاغَةَ فِي خِلَالِ سَطُورِهِ نَظَمَ اللَّالِي الثُّومِ فِي الْأَسْلَاكِ

نَادَى مَسَاعِيَهُ الزَّمَانُ مُنَافِسًا أَحْرَزْتَ كُلَّ فَضِيلَةٍ فَكَفَّاكَ

مَا الْوَرْدُ فِي مَجْنَاهُ سَامَرَهُ النَّدَى مُتَحَلِّيًا إِلَّا بِبَعْضِ حُلَاكَ

كَلَّا وَلَا الْمِسْكُ النَّوْمُ (٥) أَرِيحُهُ مُتَعَطِّرًا إِلَّا بِوَسْمِ (٦) ثَنَّاكَ

اللَّهُوُ ذِكْرُكَ لَا غِنَاءَ مُرَجَّعُ يَفْتَنُ فِي الْإِطْلَاقِ وَالْإِمْسَاكَ (٧)

طَارَتْ إِلَيْكَ بِأَوْلِيَايَاكَ يُهْزَةُ تَهْفُو لَهَا أَسْفًا قُلُوبُ عِدَاكَ (٨)

* * *

يَأْيُهَا الْقَمَرُ الَّذِي لِسَنَائِهِ (٩) وَسَنَاهُ تَعْنُو السَّبْعُ فِي الْأَفْلَاكَ

فَرَحُ الرِّيَاسَةِ إِذْ مَلَكَتْ عِنَانَهَا فَرَحُ الْعُرُوسِ بِصِحَّةِ الْإِمْلَاكَ (١٠)

(١) الخشبة التي تحرك بها النار ، والمعنى أنه باش الوحه سمع وأن الكرم طبيعة ميسه وليس يزيد.

تفنيده الجاهلين إلا تماديا في كرمه كالنار يزيد بها الحراك اشتعالا

(٢) يقال لسان صنع ، وشاعر صنع ، وبلغ صنع ، إذا كان حاذفا ماهراً ، والمعنى أنه كاتب رائع البيان

سيان رويته وإسراعه (٣) صحيفة (٤) إسراع

(٥) صيفه مبالغة من تم المسك سطر ، والأريج توهج ريح المسك

(٦) الوسم : العلامة والتناء والمدح - يخاطب على لسان الزمان في هذا البيت والذي قبله مساعي المدح

مثبتا أن الورد في مجاه ليس متحلياً إلا ببعض حلاها ، وأن المسك في سطوع أريحه لم يكن متعطراً إلا من

الاسماها بالتناء (٧) ما اللهو إلا ذكر تلك المساعي لاغناء مرجع يطلق في الغناء صوته ويمسكه .

(٨) طارت : أسرع ، والحظاظ للمساعي ، والهزة تحرك في نشاط وارتياح ، والمعنى أسرع إليك أيتها

المساعي مواكب بالأولياء ، وقد خففت لها حزناً قلوب الأعداء

(٩) السناء بالمدح الرفعة والفخر الضوء (١٠) عهد النكاح

مَنْ قَالَ إِنَّكَ لَسْتَ أَوْحَدٌ فِي النَّهْيِ وَالصَّالِحَاتِ فَدَانَ ^(١) بِالْإِشْرَاكِ
قَلَدْنِي الرَّأْيَ الْجَمِيلَ فَإِنَّهُ حَسْبِي لِيَوْمِي زِينَةٌ وَعِرَاكِ
وَإِذَا تَحَدَّثْتَ الْحَوَادِثُ بِالرَّأْيَا شَرُّرًا إِلَى فَقُلْ لَهَا إِيَّاكَ ^(٢)
هُوَ فِي ضَمَانِ الْعِزْمِ يَعْبَسُ وَجْهَهُ لِلخُطْبِ وَالْخُلُقِ النَّدَى الضَّحَّاكَ ^(٣)

وَأَحْمَ دَارِيَّ تَضَاعَفَ عِزُّهُ لَمَّا أَهَيْنَ بِمَسْحَقٍ وَمَدَاكَ
وَالدَّجْنُ لِلشَّمْسِ الْمُنِيرَةِ حَاجِبٌ وَالْجَفْنُ مَثْوَى الصَّارِمِ الْفَتَّاكَ
هَنَاتُكَ صَحْتُكَ الَّتِي لَوْ أَنَّهَا شَخْصٌ أَحَاوِرُهُ لَقُلْتُ هَذَا
دَامَتْ حَيَاتُكَ مَا اسْتُدْمِتَ فَلَمْ تَزَلْ تَحْيَا بِكَ الْأَخْطَارُ بَعْدَ هَلَاكَ

ذكرى ولادة ^(٤)

وَدَّعَ الصَّبْرَ مُحِبٌّ وَدَّعَكَ ذَائِعٌ مِنْ سِرِّهِ مَا اسْتَوْدَعَكَ
يَقْرَعُ السَّنَّ عَلَى أَنْ لَمْ يَكُنْ زَادَ فِي تِلْكَ الْخُطَا إِذْ شِيعَكَ
يَا أَخَا الْبَذْرِ سَنَاءَ وَسَنَا حَفِظَ اللَّهُ زَمَانًا أَطْلَعَكَ
إِنْ يَطُلْ بَعْدَكَ لَيْلِي فَلَكُمْ بَتُّ أَشْكُو قِصَرَ اللَّيْلِ مَعَكَ

(١) أى عدلك الذى قال لك لست أوجد فيهما قد دان بالشرك

(٢) إذا الحوادث تحدثت بالظن إلى بمؤخر عينها ، فقل لها حذار (٣) هو أى ذلك الذى تهم الحوادث أن تنظر إليه شرراً في ضمان عزم المدوح العابس في وجه الحوادث وفي ضمان خلقه الندى أى الدخى الضاحك عن ثمر الأمان .

(٤) جاء في فلاح المقيان :

ولما رحل عنه من كان يهواه ، وفاجأه بينه ونواه ، فسأيره قليلا وماشاه . وهو يتوهم ألم الفراق حتى غشاه ، فاستعجل الوداع ، وفي كبده ما فيها من الالصداع ، فأقام يومه بحالة المفجوع ، وبات ليلته نافر المسجوع ، يردد الفكر ، ويحدد الذكر . فقال :

وفد عزاً صاحب نفع الطيب هذه الأبيات الأربعة إلى ولادة .

بعد الفرار من السجن^(١)

« بعد أن فرّ ابن زيدون من السجن أرسل يخاطب ولادة ويستنهض الأديب أبا بكر للشفاعة ويستنزل أبا الحزم ابن جهور وكان ابن زيدون مخفياً بقرطبة . فقال : « وبلغني أنك أحد اللاتمين لي ، ومن أمثالهم : « ويل للشجى من الخلى » ، وهان على الأملس^(٢) ما لاقى الدبر^(٣) وعلمت أن العاجز من لا يسقى^(٤) ، فالمرء يجز لا محالة ، ولم أستجز أن أكون ثالث الأذلين - العير والوتد^(٥) .

وتذكرت أن الفرار من الظلم ، والحرب مما لا يطاق من سنن المرسلين ، وقد قال تعالى على لسان موسى : « ففررت منكم لما خفتكم »

فنظرت في مفارقة الوطن ، فقديما ضاع الفاضل في وطنه ، وكسد العلق في معدنه ، كما قال :

أضيع في معشري وكم بلد يكون عودالكباء^(٦) من حطبه
فاستخرت الله في إنفاذ العزم ، وأنا الآن حيث أمنت بعض الأمن
إلا أن النى لم يرتفع ، ومادة البنى لم تقطع :

شَحَطْنَا وَمَا بِالْأَدَارِ نَأْيٌ وَلَا شَحَطٌ وَشَطَطٌ يَمْنُ نَهْوَى الْمَزَارُ وَمَا شَطُوا^(٧)

(١) جاء في ثلاث العقيان :

وله عند فراره ، وخروجه من مراره ، وقد أقام بقرطبة متوليا يخاطب ولادة ويستنهض الأديب أبا بكر للشفاعة ويستنزل أبا الحزم بن جهور

(٢) الصحيح الطهر . (٣) الذى بطهره قرحه ، أى أن السليم الظاهر لا يحس ألم أخيه

المفروح الطهر . (٤) يشير إلى البتين المشهورين :

« ليت همداً أنجزتا ماتمد وشمت أنفسا مما تجد

واسفدت مرة واحدة إغما العاجز من لا يسقى »

(٥) يشير إلى قول القائل :

ولا يقوم على ضيم يراد به إلا الأذلان غير الحى والوتد

هذا على الحسف مربوط برمته وإذا يشح فلا يرثى له أمد

وابن زيدون يعنى أنه جدير ألا يفهم على الدل ، وأن يتغلس من الضيم بكل ما فى وسعه ، والله درّ الشفري إذ يقول : « ولكن تساحرة لاقيم بي على الضيم إلا ربنا آتحوّل »

(٦) عود البخور أو ضرب منه (٧) شحطت الدار : تشحط بمنع العين شحطاً وشحوطاً وشطت

تشط بالضم بعدت . يقول : قربت دار من أهوى ، ودنا مزارها . إلا أنه قرب فى غاية البعد لاستحالة اللقاء .

أَخْبَابَنَا أَلَوْتَ بِحَادِثِ عَهْدِنَا حَوَادِثُ لَاعَقْدُهُ عَلَيْهَا وَلَا شَرْطُ^(١)
لَعَمْرُكُمْ إِنَّ الزَّمَانَ الَّذِي قَضَى بِشَتِّ جَمِيعِ الشَّمْلِ مِنَّا لَمُشْتَطُ^(٢)
وَأَمَّا الْكَرَى مُذَلَّمٌ أَرْزَكُمُ فَهَاجِرٌ زِيَارَتُهُ غِيبٌ وَالْمَأْمَةُ فَرَطُ^(٣)
وَمَا شَوْقُ مَقْتُولِ الْجَوَانِحِ بِالصَّدَى إِلَى نُطْفَةٍ زَرْقَاءَ أَضْمَرَهَا وَقَطُ^(٤)
بِأَبْرَحَ مِنْ شَوْقِي إِلَيْكُمْ وَدُونَمَا أُدِيرُ الْمُنَى عَنْهُ الْقَتَادَةُ وَالْخَرْطُ^(٥)
وَفِي الرَّبِّبِ الْإِنْسِيَّ أَحْوَى كِنَاسُهُ نَوَاحِي ضَمِيرِي لَا الْكَتِيبُ وَلَا السَّقَطُ^(٦)

قال هذه القصيدة عند مراره من السجن واحتماؤه بقرطبة ، يخاطب بها ولادة عن كثب وهو لا يمكنه أن يدنو من دارها ، أو يخف لمزارها ، مشقاً أن يقع فريسة في يد من يمدو عليه أو يسطو ، ملازماً مخبأه لا يتحرك ولا يخطو ، جاعلاً الأديب « أبا بكر » عوضاً من أبيه والقريب ، مستطناً من أبي المزم ابن جهور العتي ، شاكياً إليه فرط إصمائه ، إلى عصاة السوء من أعدائه ، راحياً أن يخرجه من شيمته ، على سابق عادته ، وأن يختصه بالشفاعة ، بعد طول البت والضراعة ، وأن يسعفنه بطلبته ، وتتمس كربيته فان أي أن يفس عن نفسه ذلك الضمط ، وأمره إلى من بيده القرض والبسط .

(١) ألوت : دحبت ، والعقد أوكد اليهود ، والمعى ذهبت بجديد عهدنا حوادث تجري صروفها على غير مانهوي وزيد ليس بيننا وبينها عهد يؤكد ، ولا شرط نجده . (٢) الشت : التعريق ، والجميع : المجتمع ، والشمل : الاجتماع . يقال جمع الله شملك أي ماتشت من أمرك ، وفرق الله شمله أي ما اجتمع من أمره ، ومشتط : أي جائر بما حكم به وقضى . (٣) الكرى : اليوم ، وزيارته غيب : أي يزور يوماً بعد انقطاعه أياماً ، ومسه « زرغماً » تردد جأً ، والامام مصدر ألم به راره غماً ، والفرط : بمنع فسكون الحين . يقال آتبه في السرط ، أي في الحين بعد الحين .

(٤) الجوايح : حنايا الصلوع المطفة على القباب ، والنطفة : الماء الصافي وتجمع على نطف ، والوقط : حفر في الصخر مجتمع فيها ماء السماء .

(٥) أبرح بأشد برحاً وشمه وعذاباً من شوقي ، أدير المني عنه : أي ما أطالب المني بتركه والانصراف منه من قولهم ، أدار فلاناً عن الأمر إذا طلب منه تركه . قال الشاعر :

يديروني عن سالم وأديرهم وحلقة بين العين والأنف سالم

والقتادة شجرة قصيرة ذات نصبان مجتمعة كل قصيب منها ملآن ما بين أعلاه وأسفله شوكا كالابر ، وخرط القتادة اجتداب شوكلها من أعلى إلى أسفل بأسرار اليد مقبوضة على أخصائها ، وفي المثل « من دون ذلك خرط القتاد » (٦) الربرب : السرب من الظباء أو القطيع من بقر الوحش ، والانسي : مقابل الوحش أحوى في شفتيه حمرة منارية إلى السواد ، والكناس : مستتر من الشجر للظباء كالبيت للانسان والبقرة تستكن فيه من الحر ، والكتيب الرمل المحدوب ، والسقط : مثلث الفاء الرقيق من الرمل حيث اقتطع معظله

غَرِيبُ فُنُونِ الْحُسْنِ يَرْتَاحُ دِرْعُهُ مَتَى صَاقَ ذَرْعًا بِاللَّيِّ حَازَهُ الْمُرْطُ^(١)
كَأَنَّ فُؤَادِي يَوْمَ أَهْوَى مُودَعًا هَوَى خَافِقًا مِنْهُ بِحَيْثُ هَوَى الْقُرْطُ^(٢)
إِذَا مَا كِتَابُ الْوَجْدِ أَشْكَلَ سَطْرُهُ فَمِنْ زَفَرَتِي شَكْلٌ وَمِنْ عَبْرَتِي نَقْطُ^(٣)
أَلَا هَلْ أَتَى الْفَتَيَانَ أَنَّ فَتَاهُمْ فَرِيَسَةً مَنْ يَمْدُو وَنُهْزَةً مَنْ يَسْطُو^(٤)
وَأَنَّ الْجَوَادَ الْفَائِتَ الشَّوِ صَافِنُ تَخَوَّنَهُ شَكْلٌ وَأَزْرَى بِهِ رَبْطُ^(٥)
وَأَنَّ الْحَسَامَ الْعَضْبَ ثَاوٍ بِجَفْنِهِ وَمَا ذَمَّ مِنْ غَزِيْنِهِ قَدْ وَلَا قَطُ^(٦)

* * *

عَلَيْكَ (أبا بكر) بَكَرْتُ بِهِمَّةً لَهَا الْخَطَرُ الْعَالِي وَإِنْ نَالَهَا حَطُ^(٧)
أَبِي بَعْدَ مَا هِيلَ التُّرَابُ عَلَى أَبِي وَرَهْطِي فَذَا حِينَ لَمْ يَبْقَ لِي رَهْطُ^(٨)
لَكَ النِّعْمَةُ الْخَضْرَاءُ تَنْدَى ظِلَالُهَا عَلَى وَلَا جَحْدُ لَدَيَّ وَلَا غَمْطُ^(٩)

(١) الدرع : القميص ، والمرط : كساء من خزّ ونحوه يؤتز به ، والقميص يحوز النهدين والحصر ، والمرط : يحوز الردف ، والردف ثقيل ، والحصر نحيل (٢) أهوى مال إليه حانياً يظهره في حال توديعه ، وهوى القرط ، وهو ما يعلق في شحمة الأذن ، سقط متديلاً بهوى فؤاده معه خافقاً (٣) أسكل سطره من أشكل عليه الأمر احتلط ولم يبين ، والشكل والنقط تمديد الكتاب بحركات الأعراب ، وإجماعه ليظهر معناه . يقول إذا أشكل على من أهوى كتاب الوجد أوضحته له بما أصمده من زورات ، واسمعه من عبرات (٤) الفتيان يريد بهم فتياك قرطبة ، والنهزة : الصيد المعرض لمن يسطو عليه ويقننعه (٥) الشاو : الماية ، والشافن : الذي يقوم على ثلاث ويبنى سنبك يده الرابع تخونه وتخوفه : تنقصه ، ومنه قوله تعالى : « أو يأخذكم على تخوف » ، وشاهد تخونه بمعنى تنقصه قول لبيد : عدافرة قميص بالرداي تخونها زولي وارتحالي أي تنقص لحما وشحمها وشكل الدابة : شد فوائدها بجمل ، وأردى به : أهانه وحقره (٦) الحسام العصب : السيف الفاطم ، وثار مقيم : يريد أنه كالسيف المسد في حمة ، وما عيب من غريبه : أي حديده قد ، وهو القاطع طولاً ولاقط ، وهو القاطع عرضاً . (٧) بدأ يخاطب الأديب (أبا بكر) ويستنهض همه ، ويذكر يده عنده . يقول : إن لي همه طالية لها خطرهما بكرت بها عليك وتقوت لك قديما ، وإن نالها الآن انحطاط بعد علو .

(٨) أنت أبي بعد فقد أبي وأنت وحدك رهطى حين لم يبق لي رهط . (٩) غمط النعمة غمطاً لم يشكرها أي لك عدى النعماء الخضراء التي تظلى ، والتي مارلت أشكرها ولا أنكرها وأكبرها ولا أحقرها

وَلَوْلَاكَ لَمْ تَنْقُبْ زِنَادُ قَرِيحَتِي
وَلَا أَلْقَتْ أَيْدِي الرَّيِّعِ بَدَائِعِي
هَرِمْتُ وَمَا لِلشَّيْبِ وَخَطٌّ بِمَقَرِّي
وَطَاوَلَ سُوءَ الْحَالِ نَفْسِي فَأَذْكَرْتُ
مِثُونَ مِنْ الْأَيَّامِ خَمْسٌ قَطَعْتُهَا
أَتَتْ بِي كَمَا مِصَّ الْإِنَاءُ مِنَ الْأَذَى
أَتَدْنُو قُطُوفُ الْجَنَّتَيْنِ لِمَعَشَرِ

فَيَنْتَهَبِ الظُّلُمَاءُ مِنْ نَارِهَا سِقْطُ^(١)
فِنْ خَاطِرِي تَظْمٌ وَمِنْ زَهْرِهِ لَقَطُ^(٢)
وَكَاثِنٌ لِشَيْبِ الْهَمِّ فِي كَبِدِي وَخَطُ^(٣)
مِنْ الرُّوَصَةِ الْغَنَاءِ طَاوَلَهَا الْقَحْطُ^(٤)
أَسِيرًا وَإِنْ لَمْ يَبْدُ شَدٌّ وَلَا قَطُ^(٥)
وَأَذْهَبَ مَا بِالثُّوبِ مِنْ دَرَنِ مَسْطُ^(٦)
وَعَايَتِي السَّدْرُ الْقَلِيلُ أَوْ الْخَمَطُ^(٧)

(١) لم تنقب: أي لولاك لم تطهر نار ، قريحتي الشبهة بالزناد في الأبراء ، وينتهب الظلماء يأتي عليها ويلاشيها ، والسقط: مثلث الفاء ساكن العين ما سقط من النار بين الرنديين . يقول: لولاك لم تذك قريحتي فيطهر عند اقتداحها نار تنتهب الظلماء . (٢) النظم: نظم الحب في السك ، واللقط: التناطه - أي ولولاك (أبا بكر) ما ألفت بدائي يسد الربيع ، فهو يلقط من حاشي الزهر ما أنظمه في سك خاطر . (٣) الوخط: مشو الشيب ، واختلاط يابسه بسواد الرأس ، والمرق: وسط الرأس ، وهو موضع فرق الشعر من الجين إلى الدائرة ، والمعنى لم أشب شيب الكبرة ، ولكن شبت شيب اله . (٤) يقول أن مطاوله سوء الحال نفسه ذكرته بحال الروصة الغناء طال عليها أمد القحط . (٥) القحط: هنا قحط الأسير ، وهو أن يجمع بين يديه ورجليه بحبل أو نحوه ، والمعنى أنه قطع حبله يوم قرطه أسيراً ، ولكن بلا قيد ولا غل لأنه كان مختبئاً بمواربها عن الأنظار .

(٦) الموص: العسل ، وميص الثوب: غسل بالأصابع ، ومسح الثوب: به ثم تحريكه لاستخراج ماؤه والدرن: الوسخ ، والمعنى جاءت بي أيام الخوف والاعتقال عند نهايتها معسول الذنب كما غسل الإناء من الأذى ، والثوب من الدرن . (٧) السدر: السق ، والخمط: كل ثوب أخذ من المارة طعماً فلم يمكن أكله - يشير بهذا إلى قصة الجنيتين في قوله تعالى - فأرسلنا عليهما سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنيتين ذواتي أكل حمط وأتل وشي . من سدر قليل - ووصف السدر بالقله لكونه أحسن شيء فيما بدلوا ، والعرم بفتح دكسر ، والسكر: بكسر فسكون ، والمسناء: بضم ففتح فتشديد النون كلها - كما يؤخذ من اللسان والكشاف - أسماء للسديين لبس ماء العيون والأمطار ويترك فيه فتحات توضع عليها أبواب لاطلاق الماء على حسب ما يحتاجون إليه في سقيهم ، وقد ورد ذكر النساء في بعض قصائد الديوان . يمثل في هذا البيت حاله بحال سبأ إذ أعرضوا عن الشكر ، فغضب الله جنيتهم بسيل العرم وأبدلها عنهما الخمط ، والأتل والقليل من السدر ، ومعنى البيت: أيموز غيري بالنعم ولا أكاد أظفر بالنافه الحفير .

وَمَا كَانَ ظَنِّي أَنْ تَغُرَّنِي الْمَنَى
أَمَّا وَأَرْتَنِي النَّجْمَ مَوْطِيَّ أَخْصِي
وَسُتَبْطِلُ الْعُتْبَى إِذَا قُلْتَ قَدْ أَنَى
وَمَا زَالَ يُذَنِّبِي وَيُذِي قَبُولَهُ
وَنَظْمُ ثَنَاءٍ فِي نِظَامٍ وَلَايَةٍ
عَلَى خَضِرِهَا مِنْهُ وَشَاخُ مُفَصَّلٍ
عَدَا سَمْعَهُ عَنِّي وَأَصْنَعِي إِلَى عِدَى
بَلَغَتْ الْمَدَى إِذْ قَصَرُوا - فَقَلُّوهُمْ

وَاللَّغْرِ فِي الْعَشَوَاءِ مِنْ ظَنِّهِ خَبِطُ^(١)
لَقَدْ أَوْطَأَتْ خَدَيَّ لِأَخْصٍ مِنْ يَحْطُو^(٢)
رِصَاهُ تَمَادَى الْعُتْبَى وَأَتَّصَلَ السُّخْطُ^(٣)
هُوَ سَرَفٌ مِنْهُ وَصَاغِيَةٌ فَرَطُ^(٤)
تَحَلَّتْ بِهِ الدُّنْيَا لِأَلِئْهُ وَسَطُ^(٥)
وَفِي رَأْسِهَا تَاجٌ وَفِي جِيدِهَا سِمْتُ^(٦)
لَهُمْ فِي أَدِيمِي كُلَّمَا اسْتَمَكَّنُوا عَطُ^(٧)
مَكَانٍ أَضْغَانٍ أَسَاوِدُهَا رُقْطُ^(٨)

(١) المرء : الذي لم يعرب الأمور ، وفي النسل : « هو يحبط خط عشواء » يضرب لدى بركب رأسه ، ولا يتم لماقبة أمره ، كالبانة العشواء التي تحبط بيديها كل مامرت به لسوء بصرها ، والعشواء : هنا ظلمة الليل لا البانة ، يريد أن ظلمه حمله على الاغترار بالمي ، فخط لمرأته في عشواء من طسه أي في ظلمة وليس . (٢) أما حرف للاستفتاح بمعنى ألا ، ولتحقيق الكلام الذي يتلوه بمعنى حقا ، والأخص باطن الندم الذي لا يلبق بالأرض عند الوطء . يقول : حقا لقد أوطأت خدي لكل واطئي في حال أنها أرتى فيما مضى النجم موطي أخصي (٣) العتي : الرصاء ، والعتب : السخط ، ورواية : « قد أنى » (٤) صاعية الرجل من يلم به ويعشى مجلسه من أهله وحاشيته ، وفرط يريد بهذا أنهم يفرطون عليه في القول أي يسرفون ، والمعنى وما زال يقربى منه هوى ، تتجاوز حد الاعتدال ويعد قبوله حاشية مسرفة في القول . وقد جرى في هذا البيت على أسلوب اللب والنسر للرتب ، فهو يرى أن ممدوحه مسرف في هواء فهو يذنبه لذلك وإن حاشية مسرفون في الوشاية به فهو يشبهه لما يسمعه من وشايتهم المتكررة (٥) أي وما زال يقربى منه نظم ثناء أحبه في نظام ولاية كأنه المقعد النعيس تحلت به الدنيا كل لواؤة منه جديدة أن تكون واسطة المقعد لنفاستها .

(٦) أي على حصر الولاية من نظمه وشاخ مفصل ، وفي رأسها تاج مرصع ، وفي جيدها سبط من لواؤ (٧) الأديم : الجلد ، والمط : شق الثوب طولا أو عرسا من غير إبانة ، والمعنى صرف ابن جهور سمعه عني وأصغى إلى أعداء كلما تمكنوا من عرضي قدوه كما يتد الأديم وشقوه كما يشق الثوب . (٨) المدي : العاية ، والأسمان : الأحقاد ، والأساود ، الحيات ، والرقط : جمع رقطاء ، وهي التي في ألونها سواد وبياض ، والمعنى بلغت العاية التي قصروا عنها فكمن في قلوبهم من الأحقاد ما يشبه الحيات الرقط التي تنفث السموم القاتلة .

يُؤْلُونِي عَرْضَ الْكَرَاهَةِ وَالْقَلَى
وَقَدْ وَسَمُونِي بِأَلِي لَسْتُ أَهْلَهَا
فَرَزْتُ فَإِنْ قَالُوا الْفِرَارُ إِرَابَةٌ
وَإِنِّي لَرَاجٍ أَنْ تَعُودَ كَبَدْتُهَا
وَحِلْمُ أَمْرِي تَعْفُو الذُّنُوبُ لِعَفْوِهِ
فَمَا لَكَ لَا تَخْتَصُّنِي بِشَفَاعَةٍ
يَنِي بِنَفْسِي الْعَنْبَرُ الْوَرْدِ نَفْحُهَا
فَإِنْ يُسْعِفِ الْمَوْلَى فَنُعْنِي هَبِئْتَهُ
وَإِنْ يَأْبَ إِلَّا قَبْضَ مَنَسُوطٍ فَضْلِهِ
وَمَا دَهَرُهُمْ إِلَّا النَّفَاسَةُ وَالنَّمَطُ^(١)
وَلَمْ يُنَمِّ أَمْتَالِي بِأَمْتَالِهَا قَطُ^(٢)
فَقَدْ فَرَّ مُوسَى حِينَ هَمَّ بِهِ الْقَبْطُ^(٣)
لِي الشَّيْمَةُ الزَّهْرَاءُ وَالْخَلْقُ السَّبْطُ^(٤)
وَتَمَحَّى الْخَطَايَا مِثْلَ مَا مُحَى الْخَطُ
يَلُوحُ عَلَى دَهْرِي لِيَسْمَهَا عِلْطُ^(٥)
إِذَا شَعَشَعَ الْمِسْكُ الْأَحْمَ بِهِ خَلْطُ^(٦)
تُنْفَسُ عَنْ نَفْسِ الْظُّ بِهَا ضَغْطُ^(٧)
فَنِي يَدِ مَوْلَى فَوْقَهُ الْقَبْضُ وَالنَّسْطُ

(١) وفي رواية: العبط والمعنى يعملوني أسعبل منهم ناحية الكراهة والامس ، وليس منهم أبد الدهر (إلا الاماسة) من مس عليه بالشيء ، سى به وكره أن يصل إليه ، و (المنط) : من غط الرجل بسطه غطاً من باب ضرب حده ، ومن معانيه أيضاً تى الوصول إلى نعمة فيرك من غير أن تروى عنه .
(٢) أى جعلوني معروفاً بالاسمة والصفة المعية التي لست متأهلاً لها ، والتي ما منى أى ابتلى بها أمثالي
(٣) إرابة : سبب في الريبة والشك والاثهام ، والمعنى مررت من السحن ، فان قالوا إن في الفرار ما يعمل منيها ، فقد فرّ موسى من القبط حين اتدروا به وهجوا بقتله بشير إلى قوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام : « وسررت منكم لما خفتكم »

(٤) السبط : السهل . (٥) الميسم : المكواة بوسم بها البعير ، والعلط : الوسم عرصاً في المعنى يقول : لماذا لا أرضى عى وتتحنى شفاءك لأتلف بها على دهرى وأدله وأدمنه في دعاء دمنه بدينه الأثر يخط أو خطين أو حطوط . (٦) العنبر : الطيب الماروف ولونه أسود ، ويطلق العنبر أيضاً على الزعفران ، وهو المراد هنا ، والورد حمرة تضرب إلى صفرة حسنة ، وشعشع : مزج ، والأحم : الأسود من كل شيء ، أى ينى نفع هذه الشفاعة براهمة الزعفران الورد إذا مزج بالمسك الأسود .

(٧) تنفس : تترج ، وألط بها — وفي رواية : ألط بها — لازمها . قال أبو العلاء :

ألطوا بالقبيح وتابوه . ولو أمروا به لتحبوه

أى لازم الناس القبيح عاداً . منهم حين نهام الله عنه ولو أمرهم به لدفعهم عنادهم إلى تكبته ، ضغط : أى ضيق

في مدينة بطليوس (١)

يَا دَمْعُ صُبْ مَا شِئْتَ أَنْ تَصُوبَا (٢)
وَيَا فُؤَادِي آتِي أَنْ تَذُوبَا
إِذِ الرَّزَايَا أَضْبَحَتْ ضُرُوبَا (٣)
لَمْ أَرِ لِي - فِي أَهْلِيهَا - ضَرِيْبَا (٤)
قَدْ مَلَأَ الشَّوْقُ الْحَشَا نُذُوبَا (٥)
فِي النَّعْرَبِ إِذْ رُحْتُ بِهِ غَرِيْبَا
عَلَيْلَ دَهْرٍ سَأَمَنِي تَعْذِيْبَا (٦)
أَذَنْ (٧) الضُّعْفَى إِذْ أَبْعَدَ الطَّيِّبَا (٨)

٢٦

لَيْتَ الْقَبُولَ (٩) أَحَدَنْتَ هُبُوبَا
رِيحٌ يَرْوُحُ عَنْهَا قَرِيْبَا (١٠)
بِالْأَفْقِ الْمُهْدِي إِلَيْنَا طِيْبَا (١١)

- (١) مدنته كبيرة من مدن الأندلس تقع غربي قرطبة. وهذه الأرحورة تذكرنا بالأرحورة المذهورة :
« دمع المطايا تسم الجنوبيا » الخ (٢) اسكب يا دمي ما شئت أن تنسكب ، والأصل في الصوب نزول المطر ، والعمل صاب يصوب والأمز ص . قالوا : وكلّ نازل من علوة إلى أسفل فقد صاب ، ومنه قوله « كأنهم صابت عليهم سحابة » . (٣) أضنافا . وفي رواية : إن الرزايا (٤) نظيراً أو مثيلاً . يقول : اسكب يا دمي فقد صبت عليك ألوان من المصائب والآلام لم تصب على أحد من المرزوقين . (٥) آثار الحروح إذا لم ترتفع عن الجلاء ، ومنه قول الفرزدق :
ومكبل ترك الحديد بسافه ندبا من الرسفان في الأحجال
(٦) أمرضني دهر قد حشمي دلّ الاغتراب وسامى سوء العذاب . (٧) وفي روايه : أعني الضي
(٨) قرب الدهر مني السقام في وقت أبعد فيه عني الطبيب . (٩) ما يستقبلك بين يديك من الريح إذا وقفت في القبلة . (١٠) أي يكون رواح ما تحمله الريح من المطر قريباً ، والعهد هنا معناه المطر الأول الذي يليه الوسمي . (١١) أي متصلاً بالأفق الذي طالما أهدى إلينا من ناحية الحبب طيباً .

تَعَطَّرَتْ مِنْهُ الصَّبَا جُيُوبًا
مُيَزِدُ حَرِّ الْكَبِدِ الْمَشْبُوبَا^(١)

* * *

يَا مُتَّبِعَا إِنْسَادُهُ^(٢) التَّأْوِيَا
مُشْرِقًا قَدْ سَاسَمَ التَّغْرِيَا
أَمَا سَمِعْتَ الْمَثَلَ الْمَضْرُوبَا
أَرْسَلَ حَكِيمًا^(٣) وَأُسْتَشِيرَ أَبِيَا

* * *

إِذَا أَتَيْتَ الْوَطْنَ الْحَبِيْبَا
وَالْجَانِبَ الْمُسْتَوْضَحَ^(٤) الْعَجِيْبَا
وَالْحَاضِرَ^(٥) الْمُنْفَسِحَ الرَّحِيْبَا
فَحَيَّ^(٦) مِنْهُ مَا أَرَى الْجَنُوبَا

(١) بطى ذلك الطيب الذى تعطرت منه جيوب الصبا كبداً مشوبة فيها ايران الشوق. وفي الأصل «المشوبا»

(٢) الاكساد سير الليل كله لا تعريس فيه ، والتأويب : سير النهار كله لا تعريج فيه .

(٣) وفي رواية : أرسل حلماً .

(٤) المبحوث عنه أو الذى يستوضحه الراكب أى يستدركه ويستكشفه بأن يصع كفه على عينيه فى الشمس

لينظر هل يراه . (٥) الحاضر : ضد البادى . (٦) مرتبط بالأيات قبله . يقول : أيها
المواصل سير الليل كله سير النهار كله مشرقاً قد ملّ السير إلى الجانب الغربى أى مرسلتك فى حاجة ،
ومتبع المثل المشهور :

إذا كنت فى حاجة مرسلًا فارسل حكيمًا ولا توصه

وإن باب أمر عليك التوى فشاور ليلاً ولا تعصه

ذلك أنك إذا أتيت ذلك الوطن المحبوب ، والجانب المأهول والحاضرة الفسيحة ففى مما قد ترى الجنوب
حيث يقيم الحبيب ، وقوله : ما رأى جملة مقترنة وحدث هكذا وحرر .

مَصَانِعُ ^(١) تَجْتَذِبُ ^(٢) الْقُلُوبَ
 حَيْثُ أَلْفَتْ الرَّشَأَ الرَّيْبَا ^(٣)
 مُحَالَفًا ^(٤) فِي وَضْلِهِ الرَّقِيبَا
 كَمْ بَاتَ يَذْرَى ^(٥) لَيْلَهُ الْغَرِيبَا
 لَمَّا أُنْتَنَى فِي سُكْرِهِ قَضِيبَا
 تَشْدُو ^(٦) حَمَامُ حَلِيهِ تَطْرِيْبَا
 أَرْسُفُ مِنْهُ الْمَبْسِمُ الشَّنِيْبَا ^(٧)
 حَتَّى إِذَا مَا أُعْتِنَ لِي مُرِيْبَا ^(٨)
 سَبَابُ أَفْقٍ هَمٌّ أَنْ يَشِيْبَا
 بَادَرْتُ سَعْيًا ، هَلْ رَأَيْتَ الذِّيْبَا ؟ ^(٩)

(١) دير وأبوية وقصور . قال لبيد :

بلينا وما تلى النجوم الطوالع ونقى الديار بمدنا والمصانع

(٢) تجذب . (٣) الرشأ : الطى إذا قوى وتحرك ورمى مع أمه ، والربب : المربي من قولهم

سقى مربي وربب . وفي رواية : اللببا

(٤) من المحالفة بمعنى عدم الموافقة أو من قولهم جاء فلان خلاف صاحبه ومحالفة إذا أتى بعبه مخالفاً له .

(٥) يذرى يحتمل من قولهم دريت الذي أى احتلت له وختلت حتى أصيده ، والمريبب : الشديد السواد

ومعنى الأبيات تلك دور ومصانع تجذب القلوب إليها ألف فيها الرشأ المتربى في حجر النعمة محالفاً أى آتياً في غفلة الرقيب ، فكثيراً ما بات يحتمل ليله الشديد السواد ليصيب منه غرة ويحتاس منه غفلة .

(٦) تعنى ، استعار شدو الحمام لوسوسة الحلى (٧) أرسف : كأنصر وأضرب مصارع رشف

الماء والريق ونحوهما رشفاً ، وهو المصّ والتفيل وشرب الماء قليلاً قليلاً ، والمبسم ، القبل ، والشنيب : صفته مأخوذ من الشب وهو برد وعدوبة في الأسنان . قل ذو الرمة :

لمياء في شفتها حوة لس وفي اللات وفي أنيابها شنب

(٨) اعتن : اعترض ، ومريباً : ذارِب . (٩) يقول في هذا البيت والأبيات قبله : بتّ ناعماً

لبلى بالعناق والتفيل حتى إذا اعترضني مارابى من سواد أفق وشك أن يفسحه ضوء الصبح بادرت الطريق أسى ، هل رأيت الذئب ، يريد : هل رأيت الذئب في خفته وسرعة عدوه وفراره ومعنى : أنه قد فرّ فرار الذئب .

هَضَرْتُهُ (١) حُلُو الْجَنَى رَطِييَا

* *

أَهَاجِرِي أَمْ مُوسِي تَأْنِيْبَا
مَنْ لَمْ أُسِيْغْ مِنْ بَعْدِهِ مَشْرُوبَا (٢)
مَا ضَرَّهُ لَوْ قَالَ لَا تَثْرِيْبَا (٣)
وَلَا مَلَامَ يَلْحَقُ الْقُلُوبَا
فَدَ طَالَ مَا تَجَرَّمُ الذُّؤُوبَا (٤)
وَلَمْ يَدْعُ فِي الْعُذْرِ لِي نَصِيْبَا

* *

إِنْ قَرَّتِ الْعَيْنُ بِأَنْ أُوْبَا (٥)
لَمْ آلْ أَنْ أَسْتَرْضِي الْغَضُوبَا
حَسْبِي أَنْ أُحَرِّمَ الْمَنِيْبَا
قَدْ يَنْفَعُ الْمَذْنِبَ أَنْ يَتُوبَا

يوم بوصول ساعة

بِاللَّهِ خُذْ مِنْ حَيَاتِي يَوْمًا وَصِلْنِي سَاعَةً
كَئِنَّمَا أَنَالَ بِقَرَضٍ مَا لَمْ أَتْلُ بِشَفَاعَةٍ

(١) أمله إلى وعظته على وهو جواب لما .

(٢) هل هذا الحبيب الذي غصمت بفراقه ولم أحد معه مساعا للشراب إلى حلتي هاجري أو موسى

لوما وثريا . (٣) أي ضرر عليه إذا هو قل العذر وبى الملام والعتاب .

(٤) كثيراً ما ادمي على ذنوبيا لم أقلمها (٥) يقوله في هذا البيت والذي بعده : إن قرَّت العين

بالرحوع إلى الوطن بذات جهدي في استعدائه ، وكفاي أن أحرّم على نفسي ترك هذا الوطن وأتوب
فقد تنفع توبة الذنب .

في عيد الأضحى (١)

« لما حلّ ابن زيدون من المعتضد بالمكان الذي حلّ ، وانتكث
عقد شدائده وانحلّ ، تسلت نفسه من شجونها ، وحتت إلى صفا
« ولادة » وحجونها ، وتذكرها وما تناساها ، وعاودته لوعتها
وأساها ، وحن إليها حنين من حيل بينه وبين ما يشتهي ، وقنع
باهداه تحية تبلغ إليها وتنتهى . فقال يتغزل فيها ويمدح المعتضد (٢) : »

أَمَّا فِي نَسِيمِ الرِّيحِ عَرَفْتُ مُعَرَّفُ	أَنَا هَلْ لِدَاثِ الْوَقْفِ بِالْجَزْعِ مَوْقِفُ (٣)
فَنَقَضِي أَوْطَارَ الْمُنَى مِنْ زِيَارَةِ	لَنَا كَلَفٌ مِنْهَا بِمَا تَتَكَلَّفُ (٤)
ضِمَانٌ عَلَيْنَا أَنْ تُزَارَ وَدُونَهَا	رِقَاقُ الظُّبَا وَالسَّمْهَرِيِّ الْمُثَقَّفُ (٥)
وَقَوْمٌ عِدَى يُبْذُونَ عَنْ صَفَحَاتِهِمْ	وَأَزْهَرُهَا مِنْ ظُلْمَةِ الْحِقْدِ أَكْلَفُ (٦)
غِيَارِي يَعْبُدُونَ الْغَرَامَ جَرِيرَةَ	بِهَا وَالْهَوَى ظُلْمًا يَغِيظُ وَيُؤْسِفُ (٧)

(١) هو أضحى سنة ٤٤٥ هـ . وهذه القصيدة من ضمن قصائده التي يمدح بها المعتضد ، وقد ذكر طرفاً منها ابن بسام في الدحيرة ، وقد روى أبياتها ، وذكر طائفة منها كذلك صاحب فرائد العقيان في ضمن ما ذكره من طرف ابن زيدون وأحاده ، وقرره وأشعاره . (٢) فرائد العقيان .
(٣) أما استفهام فيه معنى التوبيخ ، والعرف : الرمح الطيب ، والجزع : منعطف الوادي ، ولوقف : السوار - من العاج وغيره - قال حران المود النخعي :

كوفت العاج من ذكي منك تحيى به من اليمن الدحار

أو هو الخلل من النسبة وغيرها . والمعنى : لب لنا في هبوب النسيم طيب رائحة يعرفنا هل المحوبة واقعة بمكان وقوفها من منعطف الوادي فنقضى الخ . وفي رواية : يعرف .

(٤) المعنى : هل لها وقفة بالمحى فنقضى حاجات النفس من زيارة لما ولع بما تنجشمه من مشقة التعرض لها .
(٥) الظبا : جمع ظبية ، وهي حد السيف ، والسهمري : الرمح ، والمثقف : السوى بالثقاف ، وهي خشنة فيها خرق توضع فيه الرماح لتسوية ما اعوج منها ، أى نحن ضالمون على أنفسنا أن تزار ، ودون زيارتها ظا السيوف الرقيقة ، وأسنة الرماح الصلبة ، وفي بعض النسخ عزيز علينا أن تزار .
(٦) أى ودون الوصول إليها أصلاً قوم معادون يظهر ما يخفونه من العداوة والشر على وحوهم - هم ، والمشرق للمضى ، من تلك الوجوه أكلف أى به كلف وسواد من ظلمة الحقد .

(٧) غيارى وغيارى - بمع الغين وضما - كسكارى وسكارى جمع غيران من غار الرجل على امرأته يمار قيرة ، والجريرة : الذنب والجنابة يجنبها الرجل على نفسه أو يجربها على غيره ، ويؤسف : كيفضب وزناً ومعنى ، ومنه قوله تعالى « فلما آسفونا انتقمنا منهم » .

يَوَدُّونَ لَوْ يَدْنِي الْوَعِيدُ زَمَاعَنَا وَهَيْهَاتَ رِيحِ الشَّوْقِ مِنْ ذَاكَ أَعْصَفُ^(١)
يَسِيرُ لَدَى الْمُشْتَاكِ فِي جَانِبِ الْهَوَى نَوَى غُرْبَةً أَوْ مَجْهَلٌ مُتَعَسِّفُ^(٢)
هَلِ الرُّوعُ إِلَّا غَمْرَةٌ ثُمَّ تَنْجَلِي أَمِ الْهَوَلُ إِلَّا غُمَّةٌ ثُمَّ تُكْشَفُ^(٣)
وَفِي السَّيْرَاءِ الرَّقْمُ وَسَطٌ قِبَابِهِمْ بَعِيدُ مَنَاطِ الْقُرْطِ أَحْوَرُ أَوْطَافُ^(٤)
تَبَايَنَ خَلْقَاهُ ، فَجَبَلٌ مُنْعَمٌ تَأَوَّدَ فِي أَغْلَاهُ لَدُنْ مُهْفَفُ^(٥)
فَلِلْمَانِكِ الْمُرْتَجِجِ مَا حَاَزَ مِزْرُ وَلِلْفُصْنِ الْمُهْتَزِّ مَا ضَمَّ مِطْرَفُ^(٦)
حَبِيبٌ إِلَيْهِ أَنْ نُسَرَّ بِوَصْلِهِ إِذَا تَحَنَّنَ زُرْنَاهُ وَتَهَنَّنَا وَنُسَعَفُ
وَلَيْلَةٌ وَافِينَا الْكَتِيبَ لِمَرْعِدِ سُرَى الْأَيْنِ لَمْ يُعْلَمْ لِمَسْرَاهُ مَزْحَفُ^(٧)

(١) الوعيد : التهديد والتخويف ، والرمال : مالمح المضى في أسر الريارة والعزم عليه ، وأعصف : اعم
تعميل من عصفت الريح تعصف بالكسر مهي عاصف أى شديدة تعصف بما صرت عليه من تراب ونحوه ،
أى يودون لو يصرقوا تهددهم عما أرمته من أسر ريارته تلك الحساء التى مارون عليها ، وهيهات أن يصرقنا
عن ذلك صارف ، فان ربح الشوق أشد مصيا بنا إلى ناهيتهم من تهددهم ووعيدهم .

(٢) بقول يسير علينا في جانب الهوى الاغتراب والاندساف المحادل .

(٣) الروع : الخوف ، والغمرة : الشدة .

(٤) السسيرة : كسر معج نوع من العرود يحلظه حرر كالسبور ، ويقال ثوب رقم إذا رقم أى كتف
عليه ثمة ، أو اسم الناحر ، ومناط القرط معلمة ، وأحور : وصف من حور العين . وهو شدة سواد اللقطة
في شدة بياضها ، وأوطاف : طويل شعر أهداب العين ، وفي الأصل أوطاف ، والمعنى أن حبيسه التى تلتس
تلك الحلة السيرة الثمينة تقيم وسط قباب الأعداء وهي بعيدة مهوى القرط أى طويلة العنق ، في عيذها حور ،
وفي أهدابها وطب . (٥) جبل : أى ردف مشخيم تام ، وهنم : من النعمة والراحة ، وعدم
الامتنان في عمل البيت انوفر الخدم ، ويلزم ذلك العبالة والامتلاء ، وتأود : تلى ، ولدن أى خصن لين ،
ومنهف أى خصر دقيق نازل ، بقول : تباينت خلفه أسفله وأغلاه ، مردف تليل وخصر نجيل .

(٦) المانك : من الرمال ما تمعد وارتفع ، وفي الأصل : المانك . والمزور : معروف وهو ما يشد على
الوسط ، والمطرف - وهي مثلثة الميم - من ثياب الحر ما جعل في طرفيه علمان ، ويجمع على مطارف ، أى
فلكتيب للزنج ماحواه المزور ، وللمصن المهتز ما سمى المطرف . (٧) وافينا الكتيف : أى توافينا

على موعدي الكتيف ، والسرى : السير بالليل ، والأين : الأعياء والتعب ، والمزحف الغاية وهو من الزحف
وهو المعنى قليلا قليلا ، أو المراد به هنا أثر المعنى ومنه مزحف الحية ، وهو أثر انسيابها في الرمل قال الشاعر :

كأن مزاحف الحيات فيه قبيل الصبح آثار السباط

تَهَادَى أَنَاةَ الْخَطْوِ مُرْتَاعَةَ الْحَشَا
فَمَا الشَّمْسُ رَقَّ الْغَيْمُ دُونَ إِيَّاتِهَا
فَدَيْتُكَ أَنِّي زُرْتُ نُورَكَ وَاصْبَحُ
هَيْبِكَ أَعْتَرَزْتُ الْحَيَّ وَاشْيَيْكَ هَاجِمُ
فَأَنِّي أَعْتَسَفْتُ الْهَوَلَ خَطْوُكَ مُدْمَجُ
لَجَاجُ ، تَهَادَى الْحُبُّ فِي الْمَعْشَرِ الْعِدَا
وَأَنْ تَتَلَقَّى السُّخْطَ - عَازِينَ - بِالرَّضَى
كَفَاءً مِنَ الْوَصْلِ التَّجِيَّةُ خُلْسَةً
كَمَا رِيحَ يَعْقُورُ الْفَلَا الْمُتَشَوِّفُ^(١)
سَوَى مَا أَرَى ذَاكَ الْجَبِينُ الْمُنْصَفُ^(٢)
وَعِطْرُكَ نَمَامٌ وَحَلْيُكَ مُرْجَفُ^(٣)
وَفَرْعُكَ غَرِيبٌ وَلَيْلُكَ أَغْضَفُ^(٤)
وَرِدْفُكَ رَجْرَاجٌ وَخَصْرُكَ مُخْطَفُ^(٥)
وَأُمُّ الْهَوَى الْأَفْقَ الَّذِي فِيهِ نُشْنَفُ^(٦)
لِغَيْرِ أَنْ أَجْنَى مَا يُرَى حِينَ يَنْطَفُ^(٧)
فَيَوْمِي طَرْفُ أَوْ بَنَانُ مُطَرْفُ^(٨)

(١) تهادى أصله تهادى أى تشبى فى تمال وسكون ، وأناة الخطو : متتدة الخطو وصفها بالمصدر ، وهو الأناة بمعنى الأؤدة السالبة ، ومرتاعة الحشا : متفرعة القلب ، وريح : فزع وحيث ، واليعور : الذي والمتشوف : المتطلع . وفى بعض النسخ المنسرف ، وهو الذى يرفع رأسه ويحد بصره لينظر إلى السى .

(٢) إناة الشمس - بالكسر والفتح - حسننها وسوءها ، وادة هي الشمس أصلاً ، قال أبو العلاء :

ومن العالم من بعثه لولا إياه لم يكن - تحت

أى لولا الشمس لما كان العمر ، والمصنف : الذى على الصيف وهو الحمار ، أى لست الشمس بستر العيم الرقيق حسننها وسوءها إلا ما أراه ذلك الحمار من حسن يبدو من خلل الصيف .

(٣) وفى بعض الروايات : قعيدك وهو مصدر منصوب لسابته عن العمل والقدير سألت الله حفيدك من قوله تعالى « عن اليمين وعن الحنأ قعيد » أى حفيظ ، والمتعمل قعيدك الله مثل عمرك الله ، وهو مصدر منصوب أيضاً ناب عن الفعل تقدره عمرك الله بالانشديد ، ومعناه هنا : ملازمك ، ومرحب : من أرحب إذا تحرك واضطرب ، ويصح أن يكون من أرحف ذابنا للمجهول فهو مرحب ، وفى بعض النسخ بدل قعيدك قعيدك . (٤) هيك : يقال هيك فعلت ، وهيك فعلت كذا ، ولا يقال هب أنك فعلت ، ولا هي أنك فعلت ، والمعنى احسني واعددي ، واعتزرت الحى : حشته وجزت به على غير علم ، وفرعك غريب : شعرك شديد السواد ، وأغضف حالك السواد ، يقال ليل أعضب إذا ألبس ظلامه .

(٥) مدمج : داخل بعينه فى بعض ، ومخطف : ضامر يقال فرس مخطف الحشا : أى ضامره .

(٦) نشنف : نيفش ، والمعنى أصرى لجأ فقد تمادى فى حب من أهواء بين المعشر العداء وقصد الهوى :

المكان الذى فيه أمقت وأبغض . (٧) المعنى ولجأ أيضاً أن تتحمل السخط وقد عانانا ردا صاحب

غيرة يشتد جفاؤه وغلظته ، حين يظن لطفه ورقته . (٨) البنان : الطرف الذى طرف بالحناء .

خَلِيلِي مَهْلًا لَا تَلُومًا فَإِنِّي
فَأَعْنَفُ مَا يَلْقَى الْمُحِبُّ لِحَاجَةٍ
وَإِنِّي لَيْسَتْهُوَ بِنِي الْبَرْقُ صَبُوءَةٌ
وَمَا وَلَعِي بِالرَّاحِ إِلَّا تَوَهُمٌ
وَتَذَكُّرِي الْمِقْدَ الْمُرْنَ مَجَانَهُ
فَمَاقِبَلِ مَنْ أَهْوَى طَوَى الْبَذَرِ هَوْدَجٌ
وَلَا قَبْلَ «عَبَّادٍ» حَوَى الْبَحْرَ مَجْلِسُ
فَوَادِي أَيْفُ الْبَتِّ وَالْجِسْمُ مُذَنَّفُ
عَلَى نَفْسِهِ فِي الْحُبِّ حِينَ يُعْنَفُ
إِلَى بَرْقٍ تَغْرِ إِنْ بَدَا كَادَ يَخْطَفُ
إِظْلَمَ بِهِ كَالرَّاحِ لَوْ مَيَّرَشَفُ^(١)
مُرِنَاتُ وَزْقٍ فِي ذُرَا الْأَيْكِ تَهْتَفُ^(٢)
وَلَا صَانَ رِيَمَ الْقَفْرِ خِذْرُ مُسَجَّفُ^(٣)
وَلَا حَمَلَ الطَّوْدَ الْمُعْظَمَ رَفَرَفُ^(٤)

(١) اظلم به : أى باثمر في البيت قبله . قال في اللسان ، والظلم : الماء الذي يجري ويطهر على اللسان من صماء ، اللون لامن الريق كالمزند حتى يتحول لك منه سواد . من شدة البرق والصفاء ، قال كعب بن زهير : تخلو غوارب دى ظلم إذا ابتسمت كأنه . منهل بالراح معلول
لو يترشم : لو هنا للمدى ، وفي بعض النسخ إذا يترشم ، والترشم : من الماء قليلا قليلا . قال ابن بسام : « أراه بدت أبي الطيب : وما شرق بالماء إلا تذكر الماء به أهل الحبيب نزول
(٢) المرن : اسم فاعل من الأركان ، وهو الصوت المزين ، والجان : حب يتخذ من صغار الأولاد ، أو من العصاة أمثال الأولاد ، ولورق : جمع ورقاء وهي الحماة التي لونها بين السواد والغبرة وهي ما تسمى في عرف أهل مصر بالحماة ، وفي مثل هذا يقول الشاعر المحسن حران العود القهري :
..... ثم هاجى حاتم ورق بالمدينة هب

والأيك : جمع أَيْكَة ، وهي الشجر الكثير اللدغ ، وتهتف : تنوح . (٣) الهودج : ما ترك فيه المرأة يكون مقبلا وغير مقبب ، وفي بعض النسخ بدل صان ضم ، والريم : الطي الخالص البيضاء ، والخذر المسحب : ما على كل مدخل أو نافذة من بوافده سبحانه أى ستران بينهما مشقوق كالصراعين .
(٤) (ولا قبل هاد) هو المعتمد بالله أبو عمر هاد بن الطاهر المؤيد بالله أبي القاسم محمد بن إسماعيل قاضي أشيلية ينهى سبه إلى السمعان بن المدر آخر ملوك الحيرة ، وهو صاحب قرطبة وأشبيلية وما والاها من جزيرة الأندلس ، وللملك بعد وفاة أبيه الطاهر محمد بن إسماعيل القاسم سنة ٤٣٣ هـ وكان هو وابنه المعتمد أوسع ملوك الطوائف ملكا ، وأشداهم بأسا ، وأكثرهم عبدا وعددا ، وكان المعتضد فيما ذكره ابن بسام صاحب الدخيرة قطب رضى الغنة ، ومنتهى غاية المحبة في بلاد الأندلس ، وإلى سياسته يعزى السبب في تلك الحروب الطاحنة التي نشبت بين ملوك الطوائف واستعان بعضهم على بعض فيها بالعدو الذي انتهز فرصة ضعفهم ، ونهق كلمتهم فعمل على إزالة ملكهم ، وإخراج المسلمين من بلادهم - والرفرف - الفرش والبسط ، وكل ما أعد للجلوس ، وفي التذييل العزيز « متكئين على رفرف خضر » وهو جمع رفرفة ورفارف جمع الجمع . قال ابن بسام : وهذا البيت للقسطلي بجملة حيث يقول في ابن أبي طاهر : وكيف أسوى بالبر والبحر مجلس وقام بمعبه الراسيات سرر

هُوَ الْمَلِكُ الْجَمْعُ الَّذِي فِي ظِلَالِهِ
مُهَامٌ يَزِينُ الدَّهْرَ مِنْهُ وَأَهْلُهُ
يَتِيهِ بِعِرْقَاهُ سَرِيرٌ وَمُنْبَرٌ
رَوِيَّتُهُ فِي الْحَادِثِ الْإِدِّ لَحْظَةٌ
يَذِلُّ لَهُ الْجَبَّارُ خِيفَةً بِأَسِيهِ
حِذَارُكَ - إِذْ تَبَغَّى عَلَيْهِ - مِنَ الرَّدَى
سَتَعْتَامُهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِالتَّوَى
أَغْرُ مَتَى نَذْرُسْ دَوَاوِينَ نَجْدِهِ
إِذَا نَحْنُ قَرَّظْنَاهُ قَصَرَ مُطْنِبُ

تُكْفُ صُرُوفُ الْحَادِثَاتِ وَتُصَرَّفُ^(١)
مَلِيكَتُ قَقِيهِهِ كَاتِبُهُ مُتَفَلْسِفُ
وَيَحْمَدُ مَسْعَاهُ حُسَامُ وَمُصْحَفُ
وَتَوْقِيْعُهُ الْجَالِي دُجَى الْخَطْبِ أَحْرَفُ^(٢)
وَيَعْنُو إِلَيْهِ الْأَبْلَجُ الْمُتَعَطِّرُ^(٣)
وَدُونَكَ فَاسْتَوْفِ الْمَتَى حِينَ تُنْصِفُ
كِتَابُ تَرْجِي أَوْسَفَانِ تُجْدَفُ^(٤)
يَرْقُنَا غَرِيبُ مُجْمَلُ أَوْ مُصَنَّفُ^(٥)
وَلَمْ يَتَجَاوَزْ غَايَةَ الْقَصْدِ مُسْرَفُ^(٦)

(١) الحمد : قال في اللسان « والحمد إذا ذهب به مذهب المدح وله معنيان مستحيان ، أحدهما : أن يكون معصوب الجوارح ، شديد الأسر والخلق غير مسترح ولا مضطرب ، والثاني : أن يكون شعره حمدا غير سبط ، لأن سبوطة الشعر هي الغالة على سمور العجم من الروم والفرس ، وحمودة الشعر هي العالية على شعور العرب ، فإذا مدح الرجل بالحمد لم يخرج عن هذين المعنيين » الخ ما قال في الجعد على كلا الاعتبارين المدح أو الدم فادبره ، والمعنى هو الملك المجتمع الخلق الذي ليس رهلا مسترخيا الاعضاء ، أو الجعد السمر ، أو الكرم الذي في طله وكسبه تكف غير الحوادث وصروف الدهر وتردها عن أن تقصد المستظلين طله بالسوء .

(٢) الاد العظيم ، والوقيع : ما يكتنه الملك في الكتاب من حل قصيرة ، وأحرف يسيرة ، لانفاذ أوامره ، وإمضاء شؤون دوائه ، والمعنى تكبيره في الحادث العظيم القطع الداعي سربح لا يحتاج إلى تريث ، وعدم تعجل ، وتوقيعه الكاشف طلبة الخطوب كلمات قليلة حاملة لمصون ما يريد إنفاذه .

(٣) الأبلج : الأبيس ، والمتعطر : السيد السرى المحتال في مشيته .

(٤) ستعتامهم : ستختارهم ، والتوى : الهلاك ، وترجى : تساق ونسير ، وتجدف تدفع بالمجاديف .

(٥) أغر كريم الأفعال واضحها ، وندرس : أى متى نرض أنفسنا على قراءة ماسطر في دقائره مجده ، يرقنا : أى بمحبتنا الخ ، وفي الأصل : « متى تدرس » ، والغريب : الفاعل البعيد عن الفهم ، والمجمل : المحتاج إلى التفسير والبيان ، والمصنف : المميز بعصه من بعض ، والمبين خفاؤه وإحماله .

(٦) قرظناه : من القرظ وهو المدح والثناء ، وأصله من تقرظ الجلد أى دبهه بالقرط ، والطب : المسهب المتوسع في القول ، والقصد : التوسط والاعتدال .

وَأَرْوَعُ لَا الْبَاغِي أَخَاهُ مُبْلَغٌ
مُحِرُّ الْقُوَى لَا يَمْلَأُ الْخَطْبُ صَدْرَهُ
لَهُ ظِلٌّ نَعْنَى يَذْكُرُ الْهَمُّ عِنْدَهُ
جَحِيمٌ لِعَاصِيهِ يُشَبُّ وَقُودُهُ
مَحَاسِنُ ، غَرَبُ الذَّمِّ عَنْهَا مُفْلَانٌ
تَنَاهَتْ فَعَقْدُ الْمَجْدِ مِنْهَا مُفَصِّلَانٌ
طَلَافَةٌ وَجْهِهِ فِي مَضَاءٍ كَثَلِ مَا
عَلَى السَّيْفِ مِنْ تِلْكَ الشَّهَامَةِ مَيْسَمٌ
سَجَايَا لِمَنْ وَالَاهُ كَالْأَرَى تُجْتَنَى
يُرَاقِبُ مِنْهُ اللَّهُ « مُعْتَصِدٌ » بِهِ

مُنَاهُ وَلَا الرَّاجِي نَدَاهُ مُسَوِّفٌ (١)
وَلَيْسَ لِأَمْرِ قَائِلٍ يَتَلَهَّفُ (٢)
ظِلَالُ الصَّبَا بَلْ ذَاكَ أُنْدَى وَأُورَفُ (٣)
وَجَنَّةُ عَدْنٍ لِلْمُطِيعِينَ تَرْلَفُ (٤)
كَهَامٌ ، وَشَمْلُ الْمَجْدِ فِيهَا مُؤَلَّفُ (٥)
سَنَاءٌ وَبُرْدُ الْفَخْرِ مِنْهَا مُفَوِّفُ (٦)
يَرُوقُ فِرْنَدُ السَّيْفِ وَالْحَذُّ مُرْهَفُ (٧)
وَفِي الرَّوْضِ مِنْ تِلْكَ الطَّلَافَةِ زُخْرُفُ (٨)
تَعُودُ لِمَنْ عَادَاهُ كَالشَّرَى يُنْقَفُ (٩)
يَدَ الدَّهْرِ يَقْسُو فِي رِضَاهُ وَيَرَأْفُ (١٠)

- (١) الأروع : الذي يروغك حسبه ، ويحرك مرآه ، ومعنى سائر الدت ليس الذي يعنى له مثيلاً ببالغ مناه ، وليس الذي يرحو نداء مؤجراً عطوؤه . (٢) الأمر : الحبل الذي أحيده فله ، والقوى : طاقاته يريد أنه مستحكم تقوى وائس رحوا صمناً يملأ الهول صدره مرعاً وبأسى على ماهاه تاهلاً وتحسراً . (٣) الهم : الدبح الكبير الفانى ، يعنى أن الشيخ الهم يذكر عند استظلاله حبل نواه الوارف أنه في ظل الشاب الذي المعتدل بل إن ظل نواه أكثر ندوة وودواً وامتداداً . (٤) تزلف : تقرب ، وفي التنزيل العزيز « وأزانت الحنة لتقبي » أى قرب . (٥) الغرب : الحد ، مهمل : فيه كسور ، وكهام - كليل ناب عن الضريبة لا يقطع . (٦) السناء : الرمة ، وبرد مهوف : رقيق من نسج العن . (٧) فرند السيف : صهره وماؤه الذي يجرى فيه وطرائفه ، والمعنى : يدلو وجهه ماء كغرنند السيف المتفرق ، مع مضاء هرم كدبه المرعب في التصميم والقطع ، وفي رواية : « طلامة مجر » (٨) ميسم أنز وعلاء . وفي الأصل : « من تلك الطلامة مطرف » (٩) الأرى : العسل ، والشرى : الحنظل ، وينقف : أى يشق لأخذ ما في داخله قال امرؤ القيس :
كأنى خداة البين يوم تحملوا لدى سمرات الحى نائف حنظل
(١٠) يد الدهر : مدى الدهر ، قال أبو العلاء :

يألبتنا حشا حياة بلا ردى — يد الدهر — أو متنامتاً بلا نذر
ومعنى البيت أنه يرأف ويصف دائماً في سبيل مرساة الله وحده ، ويقال أيضاً يد الحياة ، قال أبو العلاء :
لو كان لى أمر يطاوع لم يشن — يد الطريق — يد الحياة — مجرم

فَقُلْ لِلْمُلُوكِ الْحَاسِدِيهِ مَتَى أَدْعَى
أَلَيْسَ « بَنُو عَبَّادٍ » الْقِبْلَةَ الَّتِي
مُلُوكُهُ يُرَى أَحْيَاؤُهُمْ فَخَرَّ دَهْرُهُمْ
بِهِمْ بَاهَتِ الْأَرْضُ السَّمَاءُ فَأَوَّجُهُ

أَشَارِحَ مَعْنَى الْمَجْدِ وَهُوَ مُعَمَّسٌ
لَعَمْرُكَ الْمِدَا الْمُسْتَدْرِجِيكَ بَرَنَمِهِمْ
لَكَالُوكَ صَاعَ الْغَدْرِ لَوْثُمْ سَجِيَّةٍ
لَقَدْ حَاوَلُوا الْعُظْمَى الَّتِي لَا شَوَى لَهَا

وَمُجْزِلَ حَظِّ الْحَمْدِ وَهُوَ مُسْفِسِفٌ^(٥)
إِلَى غِرَّةٍ كَادَتْ لَهَا الشَّمْسُ تُكْسَفُ^(٦)
وَكَيْلَ لَهُمْ صَاعُ الْجَزَاءِ الْمُطَفَّفُ^(٧)
فَأَعْجَاهُمْ عَقْدٌ مِنْ أَلْهَمٍ مُخَصَّفُ^(٨)

(١) العتيق : التجيب الكريم من الخيل ، والشأو : الاية ، والمقرف : الهجين وهو الذى أمه بردونة وأبوه عربى أو بالعكس . (٢) معكف مصدر مبعى بمعنى المكوف أى إقامة وملازمة .

(٣) أى بنو عباء ملوك يرى الناس أحياءهم مفخرة الزمان ، ويخلف من بعد موتاهم ذكر حسن ونساء موروث يتحدث به الناس ، ومناقلة الخلف عن السلف .

(٤) الحيا : المطر ، والرمن : السحاب ، وأوكف : أهطل وأعزر والمعنى : فاخترت بهم الأرض السماء فوجوههم أبهى طلعة من النيرات ، وآثار نعمهم ، ومنزل أيديهم أقزر وأهطل من السحب الهاطلات .

(٥) معمس : ملبس ملتوعن جهته مظلم لا يدرى من أين يؤتى له ، ومسفسف : نازل من أسف الطائر إذا دنا من الأرض ، والمعنى : يا من بفعالك الجيدة أبنت معنى المجد فى حال كونه عامضا ملتبسا ، وأجزل بآثارك الحميدة حظ الحمد على حين حظ غيرك منه حقير ، وجواب النداء فى الأبيات بعده .

(٦) لعمرالدى : يقسم بحيانهم متكهما للإشارة إلى إحفاقهم فيما حاولوا ، المستدرجيك : أى الدين حاولوا فى زهمهم أن يتدرجوا بك قليلا قليلا على غرة ، وبأخذوك على غفلة إلى ما تكاد له الشمس تكسف لجرأتهم ، وهول ما أدمموا عليه . (٧) لكالوك : أى لقد كالوك من لؤم سجيئهم صاع الغدر ، وكلتهم صاع الجزاء والمعقوبة على غدرهم ، والمطفف : فى الأصل المنقوص المبخوس من طفف الكيل نقصه وبخسه ، وقد يستعمل بمعنى الوافى وهو المراد هنا .

(٨) افند حاولوا العظمى : أى الفتنة العظمى ، التى لا شوى لها : أى التى لا تصيب الأطراف ولكن تصيب المقاتل ، وأعجلهم عقد : أى رأى وتدير من همك وعزمك ، محصف : محكم شديد لا خلل فيه .

وَلَمَّا رَأَيْتَ الْعَنْدَرَ هَبَّ نَسِيمُهُ تَلَقَّاهُ إِعْصَارُ لِبَاطِشِكَ حَرْجَفُ (١)
 أَظَنَّ الْأَعَادَى أَنَّ حَزْمَكَ نَائِمٌ لَقَدْ تَعَدَّى الْفَسْلَ الظَّنُّونُ فَتُخَلِفُ (٢)
 دَوَاعِي تَفَاقٍ أَنْذَرَتْكَ بِأَنَّهُ سَيَاشْرَى وَيَذْوِي الْعُضْوُ مِنْ حَيْثُ يُشَافُ (٣)
 تَحَمَّلْتَ عِبَاءَ الدَّهْرِ عَنْهُمْ وَكَلَّمَهُمْ بِنِعْمَتِكَ مَوْصُولُ التَّنْعَمِ مُتَرَفُ (٤)
 فَإِنْ يَكْفُرُوا النِّعْمَى فَلَمَّا دَيَّارُهُمْ بِسَيْفِكَ قَاعُ صَفْصَفِ الرَّسْمِ تُنْسَفُ
 وَطَى الثَّرَى مَثْوًى يَكُونُ قُصَارُهُمْ وَإِنْ طَالَ مِنْهُمْ فِي الْأَدَاهِمِ مَرْسَفُ (٥)
 وَبُشْرَاكَ عِيدٌ بِالسُّرُورِ مُظَلَّلُ وَبِالْحَظِّ فِي نَيْلِ الْمُنَى مُتَكَنَّفُ (٦)

(١) النسيم : الريح نهب هبوبا . عيبا ، والأعصار : الريح الشديدة الى تهب من الأرض ، وتثير العمار فيرتفع كالعمود إلى نحو السماء ، وهي الى تسمى بالروسة ، وفي النزل « إن كنت ربحاً فقد لاقت إعصاراً » يضرب للراحل يلقي نده في الدسالة والقوة ، والحرجف : البارد وصف بها الأعصار . وفي الأصل « حرجب »
 (٢) الفسل : الردل الذي الأحمق ، والمعنى لم يتحقق طل الأعادى أن تدبيرك نائم عن كيدهم وغدرهم وكثيراً ما تعد الضنون الجلي الأرفال مغفلتهم .

(٣) شري العصور : أي يضرب عليه ورم وفروح تحياح إلى الكي ، ويدوي : يدل ويسمر ، ويشاف أي تنكوي شأوه أي قرحه اتدهب بالكي ، والدت تمثيل لحال طائفة من هذا النفاق والشر ديكات كالعصو الرئيس لح به الداء فلم يكن د من معالجته . الكي لاستئصال سآومه ، وفي رواية « يدوي العصور »
 (٤) أي كفتهم مؤونه نسى ، وحملت عنهم العناء ، فكلمهم في طل نعمتك دائم التمتع والقرب ،

(٥) قصارهم : ينال مصرك وقصارك وقصارك أن تعمل كذا أي عابك ، والأداهم : القيود لسوادها جمع أداهم وتسمى بالأسود أيضاً ، والمرسف : مصدر ميمي من الرسفان وهو مشي اللقيد ، أي أن هؤلاء الأعداء سيكون ما لهم أن يموتوا في الحبس ، بعد أن تطول عليهم مدته .

(٦) انتقل إلى ذكر مظاهر الدولة عند خروج الملك لصلاة العيد ، وترتب المملكة في ذلك على ما يؤخذ من صح الأعشى أن يبادى في طامة الحد ، وأهل الأسواق ليلة العيد فيخرج أهل كل صاعة بظاهر البلد ، ويسحق أهل كل سوق ناحية ، متجهلين بأحسن الثياب ، وكل منهم متنكب فوساً أو مقلد سبها ، ومع أهل كل سوق علم يختص بهم ، عليه رنك أهل تلك الصاعة بما يناسبهم ، ويكر الملك بالركوب فيركب ومن يمينه ويساره فارسان ، وممسك بركابه رحلان مقلدان سيفين ، ويركب العسكر معه ميمنة وميسرة ، ويصطف الناس صفوفاً يسون قدامه ، والمولج خلفه مائتفون به ، والأعلام منشورة وراءه ، والطبول خلفه حتى يصل إلى العيد ، ثم يعود فيصرف طامة الشعب ويعد السباط فيحضر طمأنينه حوامه وأعيان مملكته ، ومعنى البيت أنه يبعثه بالعيد : بالله السرور ، ويكتفه الحظ بلوغه إلى .

بَشِيرٌ بِأَعْيَادٍ تُؤَافِيكَ بَعْدَهُ كَمَا يَنْسُقُ النِّظَمَ الْمُوَالِي وَيَرْصُفُ^(١)
تَجَرَّدَ فِيهِ سَيْفٌ دَوْلَتِكَ الَّذِي دِمَاوُ الْعِدَى دَأْبًا بِغَرَبِيهِ تُظْلَفُ^(٢)
هُوَ الصَّارِمُ الْمَضْبُ الَّذِي الْعَزَمُ حَذُّهُ وَحِلْيَتُهُ بَذَلُ النَّدَى وَالْتِفَافُ^(٣)
مُهَامٌ سَمَا لِلْمَلِكِ إِذْ هُوَ يَافِعُ وَتَمَّتْ لَهُ آيَاتُهُ وَهُوَ مُخْلِفُ^(٤)
كَرِيمٌ يَمُدُّ الْحَمْدَ أَنْفَسَ قَنِيَةٍ فَيُولَعُ بِالْفِعْلِ الْجَمِيلِ وَيُشَغَفُ^(٥)
غَدَاً بِخَمِيْسٍ يُقْسِمُ النَّعِيمُ إِنَّهُ لَا حِفْلٌ مِنْهَا مُكْفَهَرًا وَأَكْثَفُ^(٦)
هُوَ النَّعِيمُ مِنْ زُرْقِ الْأَسِنَّةِ بَرَقَتُهُ وَلِلطَّبْلِ رَعْدٌ فِي نَوَاحِيهِ يَقْصِفُ

فَلَمَّا قَضَيْنَا مَا عَنَّآ أَدَاؤُهُ وَكُلُّنَا بِمَا يُرْضِيكَ دَاعٍ فَلَحِفُ^(٥)
قَرَنَّا بِحَمْدِ اللَّهِ خَمْدَكَ إِنَّهُ لَا زُكْدَ مَا يُحْظَى لَدَبُهُ وَيَزَافُ^(٦)

(١) ينسق النظم : أى يتابع بيته ويحمله على طريقة نظام واحد ، ويرصف : أى ينظم وينصّد ، والمعنى هذا العبد شير بأعداد تأتى بعده على دمه وترتيبه .

(٢) بدريه : بخديه ، وتطام : تهدر من دوله ذهب دمه طلباً أى هدرأ .

(٣) اللام الرابع الذى شارف الاحلام ، وانحلف : الذى احتلب بطار الناس فيه جمعهم بقول قد احتلم وأدرك ، وبعض يقول غير مدرك ، والمعنى بما سمته إلى الملك وهو دون الاحلام ، وتمت له علاماته ورسومه ومميزاته ، وهو مشكوك فى احتلامه .

(٤) الخيس : الحبش الجرار التام العرق من المقدمة والليمة والديرة والقلب والاساق وأراد به العسكر السائرين فى موكب الملك عند خروجه لصلاة العبد ، واليم : السحاب ، وأحمل : أى أكثر منها احتشاداً واحتماءً فى حال كونه (مكهراً) أى مطلقاً أسود لما على الجسد من الدروع والسلاح ، وأكثف : أى أكثر كثافته وتراكباً من السحاب لشدة الزحام وكثرة العدد وأعاد الصبر فى قوله (منها) على الهم مؤثراً سراحة للمعنى . (٥) أى فلما أدبنا ما أهمنا أداؤه من صلاة العبد : وكل الناس داعٍ فلح فى الدعاء بما يرضيك ، وجواب لما يأتى بعد .

(٦) يحظى : أى يوجب الحظوة والتفضيل ، وزلف : يقرب ، والمعنى : ولما انتهينا من صلاة العبد جمعنا بين حمد الله والثناء عليك لأنه أبلغ فى بلوغ الحظوة لديه ، والزلفى إليه .

وَعُدْنَا إِلَى الْقَصْرِ الَّذِي هُوَ كَعْبَةٌ يُغَادِيهِ مِنَّا نَظِيرُهُ أَوْ مُطَرَّفُ (١)
فَإِذْ نَحْنُ طَالِعَتَاهُ وَالْأَفُقُ لَابَسٌ عَجَاجَتُهُ وَالْأَرْضُ بِالْخَيْلِ تَرْجُفُ (٢)
رَأَيْتَاكَ فِي أَعْلَى الْمُصَلَّى كَأَنَّمَا تَطْلَعُ مِنْ مِحْرَابِ دَاوُدَ يُوسُفُ (٣)
وَلَمَّا حَضَرْنَا الْإِذْنَ وَالْدَّهْرُ خَادِمٌ تُشِيرُ فَيَمُضِي وَالْقَضَاءُ مُصَرَّفُ (٤)
وَصَلَلْنَا فَقَبَّلْنَا النَّدَى مِنْكَ فِي يَدٍ بِهَا يُتَلَفُ الْمَالُ الْجَسِيمُ وَيُخْلَفُ

لَقَدْ جُذِتَ حَتَّى مَا بِنَفْسٍ خَصَاعَةٌ وَأَمْنِتَ حَتَّى مَا بِقَلْبٍ تَخَوُّفُ

(١) بغاديه : أى يباكره ويغدو عليه فى أول النهار ، والمطرف : الذى يديم النظر فى النصر من حب وإعجاب ، وهو فى الأصل الذى أساء طرفة أى عينه عود يهودى تأيبت طرفة فى الشيء ، ولا يفهم طرفة أو هو اسم فعل من طرّف الشيء اختاره ، قال الشاعر :

أطرف أبكارا كأن وجوهها وجوه عذارى حسرت أن تقما

(٢) طالعناه : أى القصر ، والمعجاجة : ما تثيره سنايك الحيل من البهار ، وترحب : تصطرب .

(٣) المصلى : المكان المعد لصلاة العيد ، وتطلع : طلع وأشرف عليهم من محراب ، وروى عن الزجاج فى قوله تعالى « وهل أناك نأ الخضم إدا تسوروا المحراب إدا دخلوا على داود » قال : المحراب ارفع بيت فى الدار ، وارفح مكان فى المسجد ، والمعنى : رأيتك حين عودتنا إلى القصر ومطالعنا إياه مشرفا بأعلى المصلى من غرفة قصر كائنما أشرق من محراب داود فى يوم سكه وعبادته وجه يوسف رائعا فى حسنه وحاله .

(٤) قال ابن بسام :

وقوله ولما حضرنا الإذن البيت مع الذى بعده أرى أبا الوليد احتدى فيه حذو الوليد فى أبيات أشدها لحسها وهى من أحسن ما قيل فى الهيبة :

ولما حضرنا سدة الأذن أخرت رجال عن الباب الذى أنا داخله
مأفضيت من قرب إلى دى مهابه أقابل بدر التم حين أقابله
كما انتصب الرمح الرديى تنفت أنا يديه واهتز لاطمن عامله
وكالبدر وافته لثم سموده وتم بناء واستهلت مبارله
وسلمت فاصتافت حنانى هبة تازهى القول الذى أنا قائله
فلما تأملنا الطلاقة وانثى إلى بيشر آسستى بحايه
دتوت فقبل البدى من يداسرى كريم بحياه سبباط أمامله
صفت مثل ما يصفو المدام خلاله ورقى كما رقى النسم شمائله

وقول ابن زيدون وصلنا قبلنا الندى من يد اسرى معنى ملبح ولفظ صحيح ، إلا أنه كما تراه ليط بيت البحرى ويقول بعض أدبائنا إن ابن زيدون يحترى زماننا وصدقوا لأنه حذا حذو الوليد فى بعض قصائده .

وَلَوْلَاكَ لَمْ يَسْهَلْ مِنْ الدَّهْرِ جَانِبٌ وَلَا ذَلَّ مُقْتَادٌ وَلَا لَانَ مَعْطِفٌ
لَكَ الْخَيْرُ ، أَنَّى لِي بِشُكْرِكَ نَهْضَةٌ ؟ وَكَيْفَ أَوْدَى فَرَضَ مَا أَنْتَ مُسْلِفٌ ؟^(١)
أَفَذَتْ بِهِمِ الْحَالِ مِنِّي غُرَّةٌ يُقَابِلُهَا طَرْفُ الْجَمُوحِ فَيُطْرِفُ^(٢)
وَبَوَّأَتْهُ دُنْيَاكَ دَارَ مُقَامَةٍ بِحَيْثُ دَنَا ظِلٌّ وَذُلِّلَ مَعْطِفٌ^(٣)

* *

وَكَمْ نِعْمَةٍ أَلْبِسَتْهَا مُنْدُسِيَّةٌ أَسْرَبَلَهَا فِي كُلِّ حِينٍ وَأَلْخَفَ
مَوَاهِبُ قِيَاضِ الْيَدَيْنِ كَأَنَّمَا مِنَ الْمِزْنِ تُتْرَى أَوْ مِنَ الْبَحْرِ تُعْرَفُ
فَإِنْ أَكُ عَبْدًا قَدْ تَمَلَّكَتْ رِقَّةٌ فَأَرْقَعَ أَحْوَالِي وَأَسْنَى وَأَشْرَفُ^(٤)

- (١) نهضة : أى طافة وقدرة أى كيف يكون لى قدرة على القيام بشكرك ، ومسلم : اسم فاعل من أسلفه أى أقرضه ، وفى رواية : « قرض ما أت مسلم »
(٢) المسمى اكتبت سواد الحال من غرة يدعى واحدها طرف الطموح الذى يد بصره إلى الشيء . فبطرف أى ثبت فيها نظره من قولهم فلان بطرف العين بفلان إذا كان لا ينظر إلا إليه .
(٣) أى أرلنى وأحلى من دنياك الشبهة بدار المقامة حدة دنا ظلها ودلت قطوعها .
(٤) فان أك بما أوليتى من نعم عبداً سرى وقال لك فاني أعد اتجاني إليك بالعودة والرق اسى أحوالى وأرعبها وأشرفها ، قال أبو الطيب المتنبى « ومن وجد الاحسان جيداً نبيداً » .
وليدكر - بمناسبة هذه القصيدة العبد الذى قالها ابن زيدون بختري العرب فى المعتصم بالله بمناسبة عيد الأضحى - قصيدة بختري الشرق التى قالها فى الموكل بمناسبة عيد العطر - لبرى القارى صوريتين قارب بينهما اتحاد العرض والشاعره وان احتلت القافيه والبحر :

الله مكن للخليفة حمير ملكاً يحسنه الخليفة جعفر
بسمى من الله اصطفاه بعصاها والله ردد من يشاء ويقدر
عاسم أمير المؤمنين ، ولا تزل تمنى الريادة - فى البقاء - وتشكر
عنت فواضلك السرية ، فلقى فيها المقل على الغى والمكثر

* *

بالرصم - وأنت أفضل صائم - وبسنه الله الرسمية تغدار
فانهم بيوم العطر عباداً ، إنه يوم أعر - من الرمان - مشهر
أظهرت عز الملك فيه بمحفل لب ، يحاط الدين فيه وينصر

في طرطوشة (١)

غَرِيبٌ بِأَقْصَى الشَّرْقِ يَشْكُرُ لِلصَّبَا (٢)
تَحْمِلُهَا مِنْهُ السَّلَامُ إِلَى الْغَرْبِ
وَمَا ضَرَّ أَنْفَاسَ الصَّبَا فِي أَحْتِمَالِهَا
سَلَامٌ هَوَى يَهْدِيهِ جِسْمٌ إِلَى قَلْبِ (٣)

حطنا الجبال تسير فيه ، وقد غدت
فالتحلل تصل ، وانموارس ندعى ،
والأرض حاتمة تيمد ثفلها ،
والشمس مامة تومد ناصحي
حتى طلعت بصرة وجهك ، فاختلت
وافقت بك الظروف ، فاصبح
يمجدون رؤياك التي فاروا بها
دكروا لطلعتك التي مهلوا
حتى انتهت إلى المضي لا ساء
ومشيت مشية حاتم متوابع
فلو ان مشاتها تكف فوق ما

أندت من فصل الخطاب بحكمة
ووقفت في برد التي مدكرا
ومواعط شفت الصدور من الذي
حتى اقد علم الجهول وأخلصت
صلوا وراءك آحين بمصمة
فاسلم بمفخرة الاله فلم يزل
الله أعطاك المحبة في الوري
ولأت أملاً للعيون لديهم

تبي عن الحق المبين وتخبر
بالله تسدر تارة وتبصر
يمتادها وشفاؤها معمر
نفس المروي واعتدى المتخير
من ربههم وبذمة لا تحمر
يهب الدنوب لمن يشاء ويغفر
وحماك بالعسل الذي لا يكر
وأجل قدراً في الصدور وأكبر

(١) هي مدينة بأقصى الشرق من الأندلس على البحر الأبيض المتوسط ، وهي من أعمال بلنسية . قالوا :
وكانت متقنة العمارة ، وهي من العرص البحرية التي ينتابها التجار ويسافرون منها إلى سائر الأمصار ، وقد
استولى عليها الانرنج وعلى جميع حصونها في سنة ٥٤٣ هـ . (٢) ريح الصبا ، وهي التي تهب من
الشرق ، وتقابلها الدبور . (٣) ليت الصبا تحمل أماسها سلاماً من جسم في الشرق إلى قواده النائي
هنا في الغرب ، وقريب من هذا المعنى قول عبد الرحمن الداخل « صقر قريش » :

إن جسي كما علمت بأرض وفؤادي وساكنيه بأرض
فسدر الله بالفراق علينا فمسي باجتماعنا سوف يمضي

إلى الوزير أبي عبد الله^(١)

« لم ترل الأيام تدنى « ابن زيدون » وتعدده ، وتسوؤه وتسعده ،
وتقذف به إلى كل نازح ، وتطرف أمله بعين الللاعب المارح ، حتى
أحلت له « بلنسية » وهلال ذكائه كما أقر ، وغصن نباهته يانع قد أثمر ،
وبنو عبد العزيز غرر ملكها ، ودرر سلكها ، يفيضون بحور الدى ،
ويومعون في كل مستدى ، فخل منهم محل الجيا في الكؤوس ،
ووقع منهم موقع الدشائر في النفوس ، وأفام بين مبرة تواضله ، وسرة
تغازله ، ومكارمة تفاديه ، ومجامة كرائح القطر وغاديه ، فاه الفصل ،
وحصل ما حصل ، تذكر بعد رهة ذلك العيش ودر عمره قد
صوح ، وغصن سه قد دوح ، فلم يجد إلا له طيبا ، ولم يهصر غير
فنه عصا رطيا ، فكتب إلى ابن عبد العزيز^(٢) : »

رَاحَتْ فَصَحَّ^(٣) بِهَا السَّقِيمُ رِيحُ مُعْطَرَّةِ النَّسِيمِ
مَقْبُولَةٌ هَبَّتْ قَبُو^(٤) لَا^(٥) فَهِيَ تَعْبُقُ فِي الشَّيْمِ^(٥)
أَفْضِيضُ مِسْكِ أُمِّ بَلَدٍ سَيِّئَةٌ لِرِيَّاهَا^(٦) نَعِيمٌ^(٧)
بَلَدٌ حَبِيبٌ أَفْقُهُ لِفَتَى يَحُلُّ بِهِ كَرِيمٌ

-
- (١) هو الوزير أبو عبد الله بن عبد العزيز . (٢) فلان العقيان .
(٣) وفي رواية « راح لها السقيم » راحت أى بردت وطابت ، وراح لها السقيم من قولهم : « راح
للأمر يراح » إذا أخذته أريجيه وخفة وشاط ، أى فارتاح لطيبها السقيم .
(٤) القبول : ريح الصبا لأنها تقابل الدبور أو لأن النفس تملأها .
(٥) أى أن ريح الصبا تحمل معها عطرا تنسم منه طيب الشدى .
(٦) لريحها الطيبة . (٧) يقول لعل نسيم بلنسية الشدى الذى تستروح النفس لآيه مد هبّ عليا .

* * *

أَيُّهَا أَبَا عَبِيدِ الْإِلَهِ دُعَاءُ مَغْلُوبِ الْعَرِيمِ^(١)
 إِنَّ عَيْلَ صَبْرِي مِنْ فِرَا قِكَ فَالْعَذَابُ بِهِ أَلِيمٌ^(٢)
 أَوْ أَتَّبَعْتُكَ حَيْنَتَهَا نَفْسِي فَأَنْتَ لَهَا قَسِيمٌ^(٣)
 ذِكْرِي لِعَهْدِكَ كَالشَّهْمِ^(٤) سَرَى قَبْرَحَ بِالسَّلِيمِ^(٥)
 مَهْمَا ذَمَّمْتُ فَمَا زَمَا نِي فِي ذِمَامِكَ بِالذَّمِيمِ^(٦)
 زَمَنْ كَمَا لَوْ رِضَا عِشْوَفِي ذِكْرَاهُ الْفَطِيمِ^(٧)
 أَيَّامَ أَعْقَدُ نَاطِرِي بِذَلِكَ الْمُرَأَى الْوَسِيمِ^(٨)
 فَأَرَى الْفُتُوَّةَ غَضَّةً فِي ثَوْبِ أَوَاهِ حَلِيمِ^(٩)
 اللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ حُبَّكَ مِنْ فُؤَادِي بِالْمُسْتَعِيمِ^(١٠)
 وَلَئِنْ تَحَلَّ عَنْكَ لِي جِسْمٌ فَعَنْ قَلْبٍ مُقِيمِ^(١١)

(١) أَيُّهَا : بكسر الهمزة بمعنى ردف من الحديث ، وبفتحها بمعنى اكتمب واسكت ، أو للتبديد بمعنى هيهات ، أي امد دعاء مغلوب العريم ، والعريم : الأمر الداهي العظيم ، والمغلوب هيهات يحدى دعائي وأنا من خاتمة الحادثات على أمره . وفي الأصل : « مغلوب العريم »

(٢) لِي "عذر إذ ضحرت هراقل وعيل صبرى فقد اشددت لي الأثم لعدائك .

(٣) القسيم : شطر الشيء المقسوم ، أي أنت شطر نفسي الثاني فلا عى لى علك .

(٤) وفي الأصل : « كالعداد »

(٥) الدمام : الحق والحرمة . والمعنى مهما زمت : من عهد داليمان الغادر .

الذى قضى لك وعدت بيه قربك ووطايتك .

(٦) وقد كان في ذلك العهد المحبوب منعت ذكريات سارة أحس إليها كما يحسن التعامل المقطوم إلى عهد

الرباع العريم . وفي الأصل « زمن كما لوف الرضا » (٧) أيام نعم ناطرى برؤيد محباك البهى .

(٨) أَوَاهِ : الكثير الأواه إشماماً وفرقاً ، قالوا : « وهو الكبير التضرع والدعاء أو الحزن والبكاء

أو هو الرقيم الرقيق » والمعنى : أرى الفتوة — فى صوانها — معتزلة بالخشية والتضرع والحلم ، وفى الكتاب

الكريم : « إن إبراهيم حلم أواه ميب » (٩) الصميم : المحس أو الخالص .

(١٠) وإذا رحل عنك جسمى فإن قلبى لم يرحل عنك ولم يخل عن حبك فهو ثابت مقيم عندك .

قُلْ لِي بِأَيِّ خِلَالٍ مَرَّ وَكَ^(١) قَبْلُ أَفْتَنُ أَوْ أَهِيْمُ^(٢)
 أَيْمَجِدُكَ الْعَمَمَ^(٣) الَّذِي نَسَقَ الْحَدِيثَ مَعَ الْقَدِيمِ^(٤)
 أَمْ ظَرَفِكَ الْخُلُو الْجَنَى أَمْ عِرْضِكَ الصَّافِي الْأَدِيمِ
 أَمْ بِرِّكَ الْعَذْبِ الْجَمَا مِ، وَبِشْرِكَ الْغَضِّ الْجَمِيمِ^(٥)
 أَمْ بِالْبَدَائِعِ كَاللَّاءِ لِي مِنْ تَثِيرٍ أَوْ نَظِيمٍ
 وَبِلَاغَةِ إِنْ غَدَّ أَهْلُهَا فَأَنْتَ لَهُمْ زَعِيمٍ
 فَقَرَّ تَسْوِغُ بِهَا الْمَدَا مُ إِذَا تَكَرَّرَهَا النَّدِيمِ^(٦)
 إِنْ أَشْمَسَتْ تِلْكَ الطَّلَا قَةً قَالَتِي مِّنْهَا مُقِيمٍ

* * *

إِنَّ الَّذِي قَسَمَ الْخُطُو ظَ حَبَاكَ بِالْخُلُقِ الْعَظِيمِ
 لَا أَسْتَزِيدُ اللَّهَ نِعْمِي فِيكَ ، لَا بَلْ أَسْتَدِيمُ
 فَلَقَدْ أَقَرَّ الْعَيْنَ أَنَّكَ غُرَّةُ الزَّمَنِ الْبَهِيمِ
 حَسْبِيَ الثَّنَاءُ لِحُسْنِ بَرِّكَ مَا بَدَا بَرَقَ قَشِيمِ^(٧)
 ثُمَّ الدُّعَاءُ بِأَنْ تَهَنِّأَ طُولَ عَيْشِكَ فِي نَعِيمِ
 ثُمَّ السَّلَامُ تُبَلِّغُنِيهِ فَقَيْبُ ، مُهْدِيهِ سَلِيمِ^(٨)

- (١) السرو : الفصل والسجاء في الرواة . (٢) لأنى لا أدري أى خلال مصلاك جدير بالاشارة والتثويه ، وأى مزاك حدير بأن يهيم به طارفك ويمتنع (٣) الشامل .
 (٤) انتظم المجد الحديث ، والمجد القديم . (٥) الجمام - جمع جمة بتشديد الميم - الماء الكثير المجتمع ، يقال : جت البرج جوما ، إذا اجتمع ماؤها وارتفع بمد نرح ما فيها ، قال زهير :
 « ولما وردن الماء زرقا جامه وصعن عصي الحاضر المتخيم »
 والجيم : النبت الكثير . (٦) كلمات تذبذب بها الحر إذا ردها القديم .
 (٧) شام البرق : نظر إليه أين يقصد وأين ينظر ، وفي الأصل : « لحسن برقك » .
 (٨) وفي رواية : « ثم السلام تبليغه بقلب مهديه السليم »

جَوَابُ كِتَابِ

« كتب إليه الوزير أبو بكر بن الطيبي :

أبا الوليد وما شطت بنا الدار
وقلّ منا ومك اليوم زوّار
وبينا كل ما تدريه من ذم
واللصا ورق حصر ونوّار
وكل عيب وإعجاب جرى له
مواقع حلوة عندى وآثار
فادكر أحوالك بخير - كلما اعت
به الليالي - فإن الدهر دوّار
بخار به بديها في ظهر رقعه : «

لَوْ أَنَّي لَأَكَّ فِي الْأَهْوَاءِ مُخْتَارُ	لَمَّا جَرَّتْ بِاللَّيْلِ تَشْكُوهُ أَقْدَارُ
لَكِنَّهَا فِتْنٌ فِي مِثْلِ غَيْبِهَا	تَعْنَى الْبَصَائِرُ إِنَّمَا تَعْنَمُ أَبْصَارُ ^(١)
فَأَحْسِنِ الظَّنَّ لَا تَرْتَبِ بِعَهْدِ فَتَى	تَعَفُّوْا الْعُهُودَ وَتَبْقَى مِنْهُ آثَارُ
لَوْ كَانَ يُعْطَى الْمُنَى فِي الْأَمْرِ يُمَكِّنُهُ	لَمَّا أَغْبَيْتُكَ - يَوْمًا - مِنْهُ زَوَّارُ ^(٢)
فَلَا يَرِيْبُنْكَ فِي ذِكْرِ الصَّدِيقِ بِهِ	مَنْ لَا يَسَ يَجْهَلُ أَنَّ الدَّهْرَ دَوَّارُ

(١) لو كان لي الخيار مما تهواه وتعه لما جرى القدر بما يسوك وبينك على الشكوى ، ولكنه قدر

لا سبيل إلى ردّه ، وفاته فصل في غياها العنول وتعمى الأصار .

(٢) لو كان الأمر بيدي لما تعلمت عن زيارتك يوما واحداً .

في الغزل

وَضَحَ الْحَقُّ الْمُبِينُ وَنَفَى الشَّكَّ الْيَقِينُ
وَرَأَى الْأَعْدَاءَ مَا غَرَّ تَهْتُمُّ مِنْهُ الظُّنُونُ
أَمَلُوا مَا لَيْسَ يُمْنَى وَرَجَّوْا مَا لَا يَكُونُ
وَتَمَنَّوْا أَنْ يَخُونُ الْمَهْدَ مَوْلَى لَا يَخُونُ ^(١)
فَإِذَا الْغَيْبُ سَلِمَ وَإِذَا الْوُدُّ مَصُونُ ^(٢)

* *

قُلْ لِمَنْ دَانَ بِهِجْرِي وَهَوَاهُ لِي دِينُ
يَا جَوَادًا بِي إِنْ بِكَ وَاللَّهِ صَنِينُ
أَرْخَصَ الْحُبُّ قُوَادِي لَكَ وَالْعَلَقُ ^(٣) تَمِينُ

* *

يَا هِلَالًا تَتَرَا هَاهُ نُفُوسٌ لَا عِيُونُ
مُحِبًّا لِلْغَلَبِ يَقْسُو مِنْكَ وَالْقَدُّ يَلِينُ ^(٤)
مَا الَّذِي ضَرَّكَ لَوْ سُرَّ بِمَرَاكَ الْحَزِينُ
وَتَلَطَّفْتَ لِصَبِّ حَيْنُهُ ^(٥) فَيْكَ يَحِينُ
فَوَجُوهُ اللَّفْظِ شَتَّى وَالْمَعَاذِيرُ فُنُونُ ^(٦)

(١) وفي رواية : وتمنوا أن يخون ال عبد مول لا يخون
(٢) خطاب ظن الأعداء وظهر أني لم أكن لمولاي عهداً ، وأن إخلاصي ووفائي لها سليمان وودي له لا يتغير
(٣) النيس ، وفي رواية : « والعلق الثمين » .
(٤) وفي رواية « والمطع يلى » . (٥) هلاكه . (٦) سقى .

في مدح ابن جهور

قال يمدح الوزير الأجل محمد بن جهور بن محمد بن جهور :

أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الشَّقِيعَ شَبَابٌ فَيَقْضُرُ عَنْ لَوْمِ الْمُحِبِّ عِتَابُ^(١)
 عَلامَ الصَّبَا غَضٌّ يَرِفُ رُؤَاؤُهُ إِذَاعَنَّ مِنْ وَصْلِ الْحِسَانِ ذَهَابُ^(٢)
 وَفِيمَ الْهُوَى مَحْضٌ يَشْفُ صَفَاؤُهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ عَنْهُ ثَوَابُ^(٣)
 وَمُسْتَعِقَةً بِالْوَصْلِ إِذْ مَرَّ بِعُ الْحِمَى لَهَا كُلَّمَا قَظْنَا الْجَنَابَ جَنَابُ^(٤)
 تَظُنُّ الذُّوَى تَعْدُو وَالْهُوَى عَنْ مَزَارِهَا وَدَاعَى الْهُوَى نَحْوَ الْبَعِيدِ مُجَابُ^(٥)

(١) ألم تعلم أن حير شافع المحب إذا حى دما هو غصارة شبابه ، وأن الشباب لحسه في الأعين ولما فيه من الترمه والخفة يعتبر شهجا في تحميم العفوية وتنزيلها من لوم عيب إلى عتاب حميف يلطم مدله على القلب ، وإذا كان الشاب حير شافع للحسان فما أـدرهى الاقصار عن اللوم ، وما أبدع قول علقمة :

فان تسألوني بالنساء ، فافى حير بأدواء النساء طيب
 إذا شاب رأس المرء أو دلّ ماله فليس له في ودعه نصيب
 يردن ثراء المال حث وحده وشرخ الشباب عندهن عجيب

(٢) غس : طرى ناعم ، يرف : رؤؤه : يترفق فيه ماء الحسن ، والرواء الحسن ، ومعنى البيت : وما قيمة الشباب وغصارة الصبا إذا احتمقا في ترغيب الحسان ومجرا عن اكتساب ودعه .

(٣) محض : حاص لا شائبة فيه ، وش من شموف الماء أى يبدى ما وراءه أى وفيه حبا خالص لا يشوب صماء كدر إذا لم يكن من الحسان مشوبة به وخزاء عليه .

(٤) المرنج : الموسع الذى يتزلون به زمن الربيع ، والحمى : موضع فيه كلاً يحميه أهله من أن يرهقه غصيرهم ، ونظما : من القبط وهو صميم الصيب يقال نظما يمكن كذا أى أقفا فيه زمن الصيب والقبط والصيب بمعنى واحد ، والجناب الأول ما قرب من محلة القوم أى قتلنا في المكان القريب من الحمى واتخذناه مصيفاً لنا ، والجناب الثانى الداحية ، أى رب حساء تسعفى بوصلها كلما اتخذنا جانب الحمى مصيفاً لنا وكانت لها ناحية الحمى سكناً في زمن الربيع ، وفي هذا البيت جناس متكلم كما ترى .

(٥) تظن مسافة العدى وبها تصرف تنسى عن زيارتها والحال إن داعى الهوى الذى ينادى من ناحيتها بجانب الدعوة .

وَقَلَّ لَهَا نِضْوٌ بَرَى مَحْضُهُ الشَّرَى وَبَهْمَاءٌ غَفُلُ الصَّخْصَحَانِ تَجَابُ^(١)
 إِذَا مَا أَحَبَّ الرَّكْبُ وَجْهًا مَضَوَا لَهُ فَهَانَ عَلَيْهِمْ أَنْ تَخْبَ رِكَابُ^(٢)
 عَرُوبُ الْأَحْتِ مِنْ أَعَارِبِ حِلَّةِ تَجَاوَبُ فِيهَا بِالصَّهِيلِ عَرَابُ^(٣)
 غِيَارَى بْنِ الطَّيْفِ الْمَأْوِدِ فِي الْكَرَى مُشِيحُونَ مِنْ رَجْمِ الظَّنُونِ غِضَابُ^(٤)
 وَمَاذَا عَلِمَهَا أَنْ يُسْنَى وَصَلَهَا طِمَآنٌ - فَإِنْ لَمْ يُغْنِنَا - فَضِرَابُ^(٥)
 أَلَمْ تَذَرِ أَنَا لَا تَرَاخُ لِرَيْبَةٍ إِذَا لَمْ يُلَمَّعْ بِالنَّجِيعِ خِضَابُ^(٦)
 وَلَا نَنْشُقُ الْعِطَرَ النَّمُومَ أَرِيحُهُ إِذَا لَمْ يُشْعَشَعْ بِالْعَجَاجِ مَلَابُ^(٧)

(١) النضو : المهزول والمراد به البعير الذي أنساه السفر أى أهزله ، وبرى نخصه السرى : أى أذهب لجه السير بالدليل ، والبهماء : الغلاة لا يهتدى فيها ، وغفل : أى لا علامه سهاولا أثر يعرف ، والصخصحان : المستوية الجرداء ، أى ولى لهذه المحبوبة ثمانية بعير أسماء السر ودلاة مجهولة لا أثر فيها للعبارة والطرق تحاب وتقطع سيرا لأجلها . (٢) فى معنى هذا البيت قول الشاعر :

وَكُنْتُ إِذَا مَا جِئْتُ أَسْلَى أَزُورُهَا أَرَى الْبِدْ تَطْوِي لِي وَيَدُو بَعِيدَا

(٣) العروب : المطعمة لروحها المنحة إليه ، والأاحت : ظهرت أولوحت بطرف شيء من مكان بعيد والأعارب : الأعراب ، والحلة : مجتمع البيوت ، والعراب : الحبل العربى ، والمعنى : روعة من طاعة زوجها والتحق إليه بحيث لا تلتصق إلى غيره . قد لوحت بطرف منديل أو نحوه من ناحية الحلة التى ينزل بها أولئك الأعراب الميرون حيث ارتبطوا خيولهم وركزوا رماحهم .

(٤) غيارى : جمع غيران من العيرة وهى الحية والأقنعة . يقال رحل غيورا على أهله وكذلك غيران والأقنعة غيرى ، والمشيع : الحذر المجذ المسرع إليك لمداومة الموت أو الدفاع عن الحرم ، ومنه قوله .

أَبِى لِي هَمَّتْ وَأَنْى بَلَأَتْ وَأَحْدَى الْجُدْ بِالْمُنَى الرِّيحَ

وَأَقْدَامِي عَلَى الْمَكْرُوهِ مَضَى وَضَرَبَنِ هَامَةَ الْبَطْلِ الْمَشِيحَ

(٥) يسى : أى سهل ويسر ، ومنه تسمى له كذا أى تسهل وتيسر ، وقال الشاعر :

وَأَعْلَمُ عَلَمَا لَسَ بِالطَّنِ أَنَّهُ إِذَا اللَّهُ سَى عَقْدَ شَيْءٍ تَيْسَرَا

والمعنى : وأى تبعة ولوم عليها فى أن يسهل الطريق إلى وصلها مطاعة بالرماح فإن لم تمن فصارية بالسيوف

(٦) نراح : كخفاف من قوهم فلا نراح المعروف إذا أحدث له أريحية وحمة ، ويلمع أى يلون بلون النجيع أى الدم ، يقول نحن لا نستريح لوصول الفاقيات إذا لم تدفع نحمه من دم الأعداء .

(٧) النوم : مبالغة فى التمسك به عن سطوع الرائحة ، والأريج : ما يفوح من العطر ، ويشعشع :

يختلط ، والعجاج : العبار ، والملاب : كسحاب العطر ، أى لا يستريح إلى امتشاق عطرهن الساطع الأريج

إلا بعد امتشاق الحسام ، واختلاط ما تثيره سنابك الخيل من التراب ، بما يروح من رائحة الملاب ، والمعنى أنه

لا يحب أن يظفر بتلك الأذائد إلا إذا اغتصبها اعتصابا بحمد السيف . فهو لا يسلم الرية إلا بدم ولا يشق

المطر إلا مشوبا بنهار الهيجاء .

وَكَمْ رَاسِلَ الْغَيْرَانِ يُهْدِي وَعِيدُهُ فَمَا رَاعَهُ إِلَّا الطَّرُوقَ جَوَابُ^(١)
وَلَمْ يَثْنِنَا أَنَّ الرَّبَابَ عَقِيلَةٌ تَسَانَدُ سَعْدُ دُونَهَا وَرَبَابُ
وَأَنْ رُكِزَتْ حَوْلَ الْخُدُورِ أَسِنَّةُ وَحَفَّتْ بِقُبِّ السَّابِحَاتِ قِبَابُ^(٢)
وَلَوْ نَذَرَ الْحَيَّانِ غَيْبَ الشَّرَى بِنَا أَكْرَرْتُ عُظَالِي أَوْ أَمَادَ كُلابُ^(٣)
وَلَيْلَةٌ وَاقْتَنَّا تَهَادَى فَنَمْتَرِي أَيْسُمُو حَبَابُ أَوْ يَسِيبُ حُبَابُ^(٤)
يُعَذِّبُهَا عَضُّ السَّوَارِ عِمَصِمِ أَبَانَ لَهَا أَنَّ النَّعِيمَ عَذَابُ
لَا بَرَحْتُ مِنْ شَيْحَانٍ حُطَّ لِثَامُهُ إِلَى خَفَرٍ مَا حُطَّ عَنْهُ نِقَابُ^(٥)
ثَوَى مِنْهُمَا ثَنَى النِّجَادِ مُشَمِّعُ نَجِيدُ وَمَيْلَاهُ الْوُشَاحُ كَمَابُ^(٦)

(١) العيران : وصف من العبرة ، والطروق : طروق الحى بلابل ، وفي التمتع بالوصل رغم العبور يقول ابن الرومي .

ألا ربما سؤت العبور وساء في وإن كلانا من أحبيه على وحر
وملت أفواهاً عذاباً كأنها يابغ حمر حصبت لؤلؤ البحر

(٢) الف : جمع بناء ، وأث والأف السار ، من الخيل ، ومعنى هذا البيت والذي قلبه لم يصرفا عن زيارة هذه المحبوبة التي كفى عنها دلت أن تساعد هاتان القيلتان وتماوتتا دون الوصول إليهما .

(٣) نذر به كمرح علمه فخره وعظالي وكلاب ضم أولهما يومان من أيام العرب ، أي لو علم بسرانا لماها هذان الحيان لكان لنا معهما يومان كيومي عظامي وكلاب في الشهرة والمول .

(٤) يسمو : أي يرتفع للمناظر إليه من بعيد فيستدنيه وحاب - فافتح - توج الماء وطرائقه التي كأنها الوشي أو الدسيج وبالضم الحبة ، وسمو إليها حباب بالفتح وهو الماء في تدافعه وتموجه وإحداثه طرائق كطرائق الفسج وهو تمثيل لاحتلاص الخطا في اللبس ، والمعنى : وادكر ليلة وادما محتمة فشك أقبل نحونا حبيب أو تذاب إليها حبة . يقول : لقد كما لا ندرى أتكون ليلتنا ليلة أس واغشيط بقرب الحبة ، أم ليلة حرب وضرب بفرو أهداء إياها ، وسمو الحباب : فيه إشارة إلى قول امرئ القيس :

سموت إليها - بعد ما نام أهلها - سمو حباب الماء . حالا على حل

(٥) لأمرت : لقد أفرطت في الحذر وتوقع موانة العدو ومشايخه ، والشيجان : العبور الحذر على الحرم ، والخمر : الحياء ، واللثام : للرجل ، واللقاب : للمرأة ، يقول : لقد وضعت اللثام عن وجهي وتمتعت بحبيب لم يرفع عنه وجهه نقاب ليرط حائه . ولقد كنت - إلى ذلك - دائم الحذر والتوقع لموانة العدو .

(٦) ثوى : أدم ، وثى السجاد : بكسر أولهما أي على الفرش والوسائد ، والمشيح : كمظلم الشجاع ، والنحيد : الأسد - وهو يعنى بذلك نفسه - وميلاء الوشاح : يريد أن وشاحها به ميل وانحدار لتهود ثدييها وضمور كنهجها ، والكعاب : كسحاب التي كعب ثدياها - وهو يعنى بها حبيته - وفي معنى هذا البيت يقول الطمراني :

وبنا على رغم العبور يسمنا جميعاً حواشي بردها وردائنا
وكانت إساءات الليالي كثيرة فما برحت حق شكرنا الليالي

يُعَلَّلُ مِنْ إَغْرِيسٍ تَغْرِ يَعْلُهُ (١)
إِلَى أَنْ بَدَتْ فِي دُحْمَةِ الْأَفْقِ غُرَّةٌ
وَقَدْ كَادَتْ الْجُوزَاءُ تَهْوِي فَخَلَّتْهَا
كَأَنَّ الثَّرَيَّا رَايَةً مُشْرِعٌ لَهَا
كَأَنَّ سُهَيْلًا فِي رِبَاوَةِ أَفْقِهِ
كَأَنَّ الشَّمَا قَانِي الْحُشَاشَةِ شَفَّةً
كَأَنَّ الْعَصَبَاحَ اسْتَقْبَسَ الشَّمْسُ نَارَهَا
كَأَنَّ إِيَّاهُ الشَّمْسُ بِشْرُ ابْنِ «جَهْوَرٍ»
هُوَ الْبَشْرُ شَمْنَا مِنْهُ بَرَقَ غَمَامَةٌ

غَرِيضٌ كَمَا الْمُزْنُ وَهُوَ رُضَابٌ (١)
وَتَغَرَّ مِنْ جُنْحِ الظَّلَامِ غُرَابٌ (٢)
ثَنَاهَا مِنَ الشَّعْرَى الْعَبُورِ جَنَابٌ (٣)
جَبَانٌ يُرِيدُ الطَّعْنَ ثُمَّ يَهَابُ
مُسِيمٌ نُجُومٍ حَانَ مِنْهُ إِيَابٌ (٤)
ضَنَى فَخُفَاتٍ مَرَّةً وَمَثَابٌ
فَجَاءَ لَهُ مِنْ مُشْتَرِيهِ شِهَابٌ
إِذَا بَدَلَ الْأَمْوَالَ وَهِيَ رِغَابٌ (٥)
لَهَا بِاللَّهِ فِي الْمُعْتَفِينَ مَصَابٌ (٦)

(١) يعلل : أى يكرر من التعليل وهو حى الثرة مرة بعد مرة ، ومنه قول امرئ القيس :

فعلت لها سيري وأرخى زمامه ولا تمعدي من حناك المعلن

والأغريس : الطلع حمل ما ناله مكررا من نقيلها بمنزلة إغريس أبيض حلو تكرر جده ، ويعلمه أى يسقيه مكررا ، والغريس : ماء الأسنان ، والرضاب : الرق المرشوف ، ملوا : وهو الريق مادام فى الدم .

(٢) الدحمة : سواد الليل ، والمرة : باض الصبح ، تنه الصبح فى استعجاله الدسى بمن يطير غرابا ، ويطير هذا قول ابن المعتز :

كأنما وصو الصبح يستعمل الدسى نظير غرابا ذا قوادم حوت

(٣) الجوزاء : نجم يعترض فى جور السماء أى وسطه ، والشعري : شعريان « إحداهما » الشعري العبور وهى كوكب يطلع بعد الجوزاء وسميت العبور لأنها - كما يقال - عبرت السماء عرضاً ولم يعبر السماء عرضاً غيرها وهى التى عبقها طائمه من العرب فى الحاعلية ، وقد ورد ذكرها فى القرآن الكريم فى قوله تعالى « وأنه هو رب الشعري » أى التى تميدونها « والثانية » السبيضاء تقول العرب فى أحاديثها لأنها غمضت من تكائها على العبور ، وثناها : عطعها ، والجباب : الناحية والفتاء .

(٤) سهيل نجم ، وراوة أبيض ما ارتفع منه ، ومسيم : اسم فاعل من أمام الابل أى أرطها ، شبه سهيلا فى انحداره آخر الليل وراء النجوم براع حان منه رجوع ورواح .

(٥) إياة الشمس : بكسر الهمزة وفتحها صوفا وحسنا .

(٦) اللها : بالصم المعطايا ، والمعنى : كلعافى طالب العسل رالجود ، والمصاب : بالفتح نزول المطر مصدر ميمى من صاب المطر يصوب إذا نزل .

جَوَادٌ مَتَى اسْتَعَجَلْتَ أُولَى هَبَاتِهِ
 غَنِيٌّ عَنِ الْإِبْسَاسِ دَرُّ نَوَالِهِ
 إِذَا حَسَبَ النَّيْلَ الزَّهِيدَ مُنِيْلُهُ
 عَطَايَا يُصِيبُ الْحَاسِدُونَ بِحَمْدِهِ
 مُوَطَّأٌ أَكْنَافِ السَّمَاحِ دَنَتْ بِهِ
 قَرْزُهُ تَرَزُّ أَكْنَافَ غَنَاءِ طَلَّةِ
 زَعِيمُ الْمَسَاعِي أَنْ تَلَيْنَ شَدَائِدُ
 مَهِيْبٌ يُغَضُّ الطَّرْفُ مِنْهُ لِأَذِنِ
 لِأَبْلَجَ مَوْفُورِ الْجَلَالِ إِذَا أُحْتَبِيَ
 وَذِي تُدْرَا يَعْدُو الْعِدَا عَنْ قِرَاعِهِ
 إِذَا هُوَ أَضَى الْعَزَمَ لَمْ يَكُ هَفْوَةٌ
 كَفَاكَ مِنَ الْبَخْرِ الْخَضَمِ عُبَابُ
 إِذَا اسْتَنْزَلَ الدَّرَّ الْبَكِيَّ عَصَابُ^(١)
 فَمَا عَطَايَاهُ الْحِسَابِ حِسَابُ^(٢)
 عَلَيْنَهَا ، وَلَمْ يُحِبُّوا بِهَا فَيُحَابُوا
 خَلَائِقُ زُهرُهُ إِذَا أَنْفَ نَصَابُ^(٣)
 أَرَبَتْ بِهَا لِلْمَكْرُمَاتِ رَبَابُ^(٤)
 يُمَارِسُهَا أَوْ أَنْ تَلَيْنَ صِعَابُ
 مَهَابَتُهُ دُونَ الْحِجَابِ حِجَابُ^(٥)
 عَلَا نَظْرُهُ مِنْهُ وَعَزَّ خِطَابُ
 غِلَابُ فَهَمَّا عَزَّةٌ فَخِلَابُ^(٦)
 يُؤَثِّرُ عَنْهَا فِي الْأَنَامِلِ نَابُ^(٧)

(١) الناقة البسوس : هي التي لا تدر إلا على الإبساس بأن يقال لها « بس بس » تكبياً لها ، والدرايين ، والكي الذئبة التي قل لبنها ، والعصاب : بالكسر شد غدي الناقة لتدر . يقول : إن نواله قريب ميسور لا يكدهك مشقة ولا يحوذك إلى الخاف . (٢) حسب : عد ، والحساب : بالكسر بمعنى الكثرة الكافية صفة عطاياها ، ومنه قوله تعالى « عطاء حساباً » أى كامياً ، والمعنى : إذا عد العطاء القليل مثله ومعطيه ليحصى بها عطاياها الكثيرة الكافية عد ولا إحصاء .
 (٣) يقال رل موطأ الأكناف : كمعظم أى سهل دمت الأحلاق سمح كريم ، والعصاب : كالمصّب الأصل ، والمعنى : أنه سهل حوائب السباح يقربه منك ويدنوه إليك دماثة أخلاقه وإن علا نصبه وسما أصله
 (٤) البناء : الكثيرة الشجر ، والطلّة : الروضة بلها الطل ، وأربت : من أرب بالمكان إذا لزمه والرباب السحاب . (٥) يقول إن ابن جهور مهيب بعضى من مهابه ومع هذا فهو بعض طرفه حياء ، وهذا قريب من قول الفرزدق :

« بعضى حياء ، وبعضى من مهابه فلا يكلم إلا حسين ينم »

(٦) دو تدرأ : بضم أوله أى صاحب عدة وفوة طى دمع أعدائه عن نفسه ، وغلاب : أى مغالبة ، وعزه : غلبه ، وحلاب : من خلبه إذا خدعه ، وى المثل « إذا لم تطلب فاخلب » .
 (٧) يقول إذا مضى العزم لم يكُ إمضاؤه هفوة بعض عليها أنامله ندماً وغيظاً .

عَزَائِمُ يَنْصَاعُ الْعِدَا عَنْ مُرَّهَا كَمَا رُهِبَتْ يَوْمَ النَّضَالِ رِهَابُ^(١)
صَوَائِبُ ، رِيَشُ النَّصْرِ فِي جَنْبَاتِهَا لَوَامُ ، وَرِيَشُ الطَّائِشَاتِ لُغَابُ^(٢)
حَلِيمٌ تَلَا فِي الْجَاهِلِينَ أَنَاتُهُ إِذَا لِحْلُمٍ عَنْ بَعْضِ الذُّنُوبِ عِقَابُ^(٣)
إِذَا عَثَرَ الْجَانِي عَفَا عَفْوَ حَافِظِ بِنُعْمَى لَهَا فِي الْمُذْنِبِينَ ذِنَابُ^(٤)
شَهَامَةٌ نَفْسٍ فِي سَلَامَةِ مَذْهَبِ كَمَا الْمَاءُ لِلرَّاحِ الشَّمُولِ قِطَابُ^(٥)
« بَنَى جَهْوَرٍ » مَهْمَا فَخَرْتُمْ بِأَوَّلِ فَسِرُّ مِنْ الْمَجْدِ التَّلِيدِ لُبَابُ
حَطَّطْتُمْ بِحَيْثُ أَسْلَنْطَحَتْ سَاحَةُ الْعُلَا وَأَوْفَتْ لِأَخْطَارِ السَّنَاءِ هِضَابُ
بِكُمْ بَاهَتِ الْأَرْضُ السَّمَاءَ فَأَوْجُهُ شُمُوسُ وَأَيْدٍ فِي الْمُخُولِ سَحَابُ

* * *

أَشَارِحَ مَعْنَى الْمَجْدِ وَهُوَ مُعَمَّرُ وَعَارِ مَعْنَى الْحَمْدِ وَهُوَ خَرَابُ^(٦)
مُحْيَاكَ بَدْرُ وَالْبَدُورُ أَهْلَةٌ وَيُعْنَاكَ بَحْرُ وَالْبُحُورُ ثِعَابُ^(٧)
رَأَيْتُكَ جَارَاكَ الْوَرَى فَعَلَبْتَهُمْ لِذَلِكَ « جَرَى الْمَذْكِيَاتِ غِلَابُ »^(٨)

- (١) الانصياع الرجوع أي رجع الأعداء عما أسره من العزائم حوفا ورهبة كما رعت يوم النضال رهاب أي نضال رفيقة جمع رهب كحل . (٢) صوائب : صفة العزائم في البيت قوله يريد أنها عزائم صائبة كالسهام ، واللغات : ريش السهم إذا لم يتدل فاذا اعتدل فهو أوام . (٣) وهذا ريب من قول المتنبي : « ترفق أيها المولى عليهم فان الرفق بالخاني عقاب »
- (٤) الدباب : بالسكر خيط يشد به ذب البعير لئلا يخطر به أي يحركه يمينا وشمالا فيسأ راكبه ، أي أنه بما يسديه إلى الحنطة من نعمي ينههم من الوقوع في الدن كما يتبع لدباب ذب البعير عن تلويث راكبه بخطرانه
- (٥) قطاب : بالسكر مزاج . (٦) شمس : خفي مشتق ، والمعنى : المنزل .
- (٧) ثعاب : بالسكر جمع ثوب وهو العدير . أو هو مسيل الوادي ، وجمعه ثعاب ، قال ابن دريد : « والناس ضمهضاح ثعاب وأضى » ويجمع أيضا على ثعبان ، قال الحريري في أحاجيه إلى ذكرها في مقاماته : « أيجور الوضوء من ماء الثعبان » فقيل : « وهل أحسن منه ثعربان »
- (٨) والمذكيات : والمذكيات بالضميف — الجبل التي بلغت تمام السن ونهاية الشباب وفي المنزل : « جرى المذكيات غلاب » أي أن تغالب الجري غلابا .

فَقَرَّتْ بِهَا مِنْ أَوْلِيَاكَ أَعْيُنٌ وَذَلَّتْ لَهَا مِنْ حَاسِدِيكَ رِقَابُ

* * *

فَتَحَّتَ الْمُنَى مِنْ بَعْدِ إلهَامِنَا بِهَا
مَدَدَتْ ظِلَالُ الْأَمْنِ تَحْضُرُ تَحْتَهَا
حَمَى سَالَمَتْ فِيهِ الْبُغَاثُ جَوَارِحُ
فَلَا زِلْتُ تَسْمَعُ سَعَى مَنْ حَظَّ سَعْيِهِ
فَإِنَّكَ لِلدِّينِ الشَّعِيبِ لِمَلَامُ
إِذَا مَعَشَرَ الْهَاهُمْ جُلَسَاؤُهُمْ
تَعَزَّيْكَ عَنْ تَهْرِ الصِّيَامِ الَّذِي أَتَقَضَى
هُوَ الزُّورُ لَوْ تُعْطَى الْمُنَى وَضَعُ الْعَصَا
شَهْدَتْ لِأَدَى مِنْكَ وَاجِبَ فَرْجِهِ
وَجَاوَزَتْ يَبْتَ اللَّهُ أَنْسَاءَ مَعَشَرِ
لَقَدْ جَدَّ إِخْبَاتٌ وَحَقٌّ تَبْتَلُ

وَقَدْ صَاعَ إِفْلِيدُ وَأُنُومَ بَابُ (١)
مِنْ الْعَيْشِ فِي أَعْدَى الْبِقَاعِ شِعَابُ (٢)
وَكَفَّتْ عَنِ الْبَهْمِ الرِّتَاجِ ذِتَابُ (٣)
نَجَاحُ وَحَظُّ الشَّائِنِيهِ تَبَابُ
وَإِنَّكَ لِلْمُلْكِ الثَّيِّ لَرِثَابُ (٤)
فَلَهْوُكَ ذِكْرُ وَالْجَلْدِيسِ كِتَابُ (٥)
فَإِنَّكَ مَفْجُوعٌ بِهِ فُصَابُ
لِيَزْدَادَ مِنْ حُسْنِ التَّوَابِ مُنَابُ
عَلِيمٌ بِمَا يُرْضَى الْإِلَهِ نِقَابُ (٦)
خَشَوْهُ فَخَرُّوا رُكْعًا وَأَنَابُوا
وَبَاغَعَ إِخْلَاصُ وَصَحَّ مَتَابُ (٧)

- (١) إلهام : إلالة ، إلالة ، وإلهام : أي مغلق ، والإفليد : المفتح .
(٢) أعدي : أعمل تفصيل من عديت الأرض يقال أرض هداة وهي الطيبة التربة الخاملة من الررع البعيدة من ماء الأنهار والحداول ، والشعاب : جمع شعب بالكسر وهو الطريق في الجبل ومسيل الماء ، يقول ، أنه مد ظلال الأمن على البلاد النائية ، وحمل الخصب يعتمد إلى الجهات البعيدة من مياه الأنهار .
(٣) البغاث : صغار الطير ، البهم : واحدها بهيمة بالفتح وهي أولاد الصان والمز والبتر . وهذا البيت من أيدع ما قرأناه في وصف استقبالات الأمن .
(٤) الشعيب : المنفرد ، والثني : العاسد من ثأى ثأى فهو ثأ كثر إذا عس ، ورثاب : جمع رؤبه وهي القطعة من الحشب يشعب بها الإناة ويسد بها ثلمة الجفنه
(٥) يشير إلى قول المتنبي :
(٦) النقباب : بالكسر العالم بالأمور .
(٧) الإخبات : مصدر اخبت إلى ربه اطمأن إليه وتخشع وتواضع ، والتبطل : الانقطاع إلى الله تعالى .

سَيَخْلُدُ فِي الدُّنْيَا بِهٍ لَكَ مَفْخَرُهُ
وَبُشْرَاكَ أَعْيَادُ سَيَنْمِي أَطْرَادُهَا
تَرَى مِنْكَ سَرَّوَالِ الْمَلِكِ فِي قَشْفِ الثَّقَى
قَابِلٍ وَأَخْلِفَ إِنَّمَا أَنْتَ لَابِسٌ
فَدَيْتُكَ كَمْ أَلْقَى الْفَوَاغِرَ مِنْ عِدَا
عَفَا عَنْهُمْ قَدَرَى الرَّفِيعُ فَأَهْجَرُوا
وَقَدْ تَسْمَعُ الْمَيْتَ الْحَحَّاشِ نَهَيْقَهَا
إِذَا رَاقَ حُسْنُ الرِّوَضِ أَوْ فَاحَ طَيْبُهَا
فَلَا بَرَحَتْ تِلْكَ الضَّغَائِنُ نَهْيًا
يَقُولُونَ شَرِّقْ أَوْ فَعَرِّبْ صَرِيعةً
فَأَنْتَ الْحَسَامُ الْعَضْبُ أَصْدَى مَتْنُهُ
وَمَا السَّيْفُ مِمَّا يُسْتَبَانُ مَضَاوِهُ
وَإِنَّ الَّذِي أَمَلْتُ كُدَّرَ صَفْوُهُ
وَقَدْ أَخْلَفَتْ مِمَّا ظَنَنْتُ مَحَايِلُ
فَنَ لِي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ عَلَيْهِمْ
لِيُخْرِجَهُمْ إِنْ لَمْ تَرُدَّنِي نَبْوَةً

وَيَحْسُنُ فِي دَارِ الْخُلُودِ مَأْبُ
كَمَا أَطْرَدَتْ فِي السَّهْمَرِيِّ كِمَابُ
فَيَبْزُقُهَا مَرَأَى هُنَاكَ مُجَابُ
لِهَذِي اللَّيَالِي الْغُرَّ وَهِيَ ثِيَابُ
قِرَاهُمُ - لِنِيرَانِ الْفَسَادِ - ثِقَابُ (١)
وَبَايَنَهُمْ خُلِقَ الْجَمِيلُ فَعَابُوا
وَتَعَلَّى إِلَى الْبَدْرِ الشَّبَاحُ كِلَابُ
فَمَا ضَرَّهُ أَنْ طَرَفَ فِيهِ ذُبَابُ
أَفَاعٍ لَهَا بَيْنَ الضَّلُوعِ إِيصَابُ (٢)
إِلَى حَيْثُ آتَلَ النُّفُوسُ نِهَابُ (٣)
وَعُطِّلَ مِنْهُ مَضْرَبُ وَذَبَابُ (٤)
إِذَا حَارَ جَفَرٌ حَدَّهُ وَقِرَابُ
فَأَضْحَى الرِّضَا بِالسُّخْطِ مِنْهُ يُشَابُ
وَقَدْ صَفَرَتْ مِمَّا رَجَوْتُ وَطَابُ
إِذَا لَجَّ بِالْخَصْمِ الْأَلَدُ شِفَابُ
يُسَاءُ الْفَتَى مِنْ مِثْلِهَا وَيُرَابُ

(١) الفواغر : جمع فاغرة من مفرغها إذا فتحه أراد بها المخاوف ، والنقاب : ما اتقيت به النار واشعلتها به من صغار العبدان . يقول : نسي اداؤك ، كم ألقى الكوارث من أعداء خبيثاء دوى مكر خفى في تدبير الفتن ، ودهاء في نصب للشر . (٢) إصاب : بالكسر من لصب الجلد باللحم لرق به من شدة الهزال يريد ان ما يحملونه من ضغن له لدغ في صدورهم كلذع الأفاعي سبب لهم الهزال . (٣) الصريعة : المريعة وقطع الأسر ، والنهاب : بالكسر القنائم جمع نهب . (٤) مضرب السيف : بالفتح والكسر ، وذبابه : بالضم حده .

فَقَدْ تَتَغَشَّى صَفْحَةَ الْمَاءِ كُذْرَةً
سُرُورُ الْغِنَى مَا لَمْ يَكُنْ مِنْكَ حَسْرَةً
وَإِنْ يَكُ فِي أَهْلِ الزَّمَانِ مُؤْمِلٌ
أَبْعُورٌ مِنْ جَارِ السَّمَاءِ كَيْنِ جَانِبِ
فَإِنَّ ثَنَاءَ يَهْرَمُ الدَّهْرُ كِبْرَةً
مَسَابِكِي عَلَى حَظِّي لَدَيْكَ كَمَا بَكِي
وَأَشْكُو نُبُو الْجَنْبِ عَنْ كُلِّ مَضْجِعٍ
فَتَقِ بِهَزْزِ الشَّعْرِ وَأَصْفَحْ عَنِ الْوَرَى
وَلَا تَعْدِلِ الْمُشِينِ بِي فَأَنَا الَّذِي
يَتُوبُ بَيْنَ الْمَدَاحِ مِنِّي وَاحِدٌ
وَرَدْتُ مَعِينَ الطَّمَعِ إِذْ زِيدَ دُونَهُ
وَتَحَدَّنِي عِلْمٌ تَوَالَتْ فُتُونُهُ
فَعُدَّ بَيِّنَ يَبْنَاءِ يَعْصِدُ صِدْقُهَا
وَحَاشَاكَ مِنْ أَنْ تُسْتَعَرَّ مَرِيرَةٌ

وَيَغْطُو عَلَى صَوْنِ النَّهَارِ ضَبَابٌ ^(١)
وَأَرَى الْمُنَى مَا لَمْ تُنَلْ بِكَ صَابٌ ^(٢)
فَأَنْتَ الشَّرَابُ الْعَذْبُ وَهُوَ مَرَابٌ
وَيُعْمِرُ فِي ظِلِّ الرَّيْسِ جَنَابٌ ^(٣)
وَجَلِيَّتُهُ فِي الْغَابِرِينَ شَبَابٌ
رَبِيعَةٌ لَمَّا ضَلَّ عَنْهُ ذُؤَابٌ
كَمَا يَتَجَانَى بِالْأَسِيرِ ظَرَابٌ ^(٤)
فَإِنَّهُمْ - إِلَّا الْأَقْلَ - ذُبَابٌ
إِذَا حَضَرَ الْعَقْمُ الشَّوَارِدُ غَابُوا
جَمِيعُ الْخِصَالِ لَيْسَ عَنْهُ مَنَابٌ
أَنْسُ لَهُمْ فِي حَجَرَتَيْهِ لُؤَابٌ ^(٥)
كَمَا يَتَوَالَى فِي النِّظَامِ سِخَابٌ ^(٦)
فَإِنْ أَرَا جَيْفَ الْمُسْدَاةِ كِذَابٌ
لِمَهْدِكَ أَوْ يَخْفَى عَلَيْكَ صَوَابٌ ^(٧)

(١) غطا غطوا : ستر والاضباب سحاب رقيق يشبه الدخان .

(٢) الأرى : العسل ، والصاب : شجر من واحدته صابه .

(٣) أبور : من أبور المكان إذا بدت منه عورة ، ويبرز : أي صاب ومنه المبرز للأرض الصلبة .

(٤) الطارب : ككاتب ما بدأ من الحجارة وحده ضربه والجمع طراب بالسكس .

(٥) ديد : بالنساء للجهول منع ، والحجرة : منع يسكون الناجية ، ولؤاب : فالضم عطش ، والمعى : أنه طبع

على الشعر وورد معين الطمع في حين أن عيه من الشعراء حبس عن وروده فله في حابيه لؤاب أي عطش

(٦) المسجد : كمفلة الذي حرب الأمور وقاسها عقله وعلمته التجارب ومثله المسجد بالذال المعجمة ،

والسخاب : بالسكس المقعد . (٧) المرير : والمريرة الحمل ، والاستمرار إحكام فله ، بقول حاشاك

أن أدعوك إلى إصلاح حادث من مهديك ، أو يخفى عليك وجه الصواب .

بعد خمسمائة يوم في السجن

« نظم ابن زيدون هذه القصيدة في مدح ابن جهور واستعطافه ،
وقد وردت في آخر رسالته الجديدة التي بعث بها إلى ابن جهور ^(١)
بعد أن مهد لتلك القصيدة بقوله مخاطبا ابن جهور :

وإنك إن سنيت عقد أمري تيسر ^(٢) ، ومتى أعتذرت ^(٣)
في فك أسرى لم يعتذر ، وعلمك محيط بأن المعروف ثمرة النعمة ،
والشفاعة زكاة المروءة ، وفضل الجاه تعود به صدقة ^(٤)

وإذا امرؤ أهدي إليك صنعة من جاهه ، فكأنها من ماله
لعل ألقى العصا بذراك ^(٥) ، وتستقر في النوى في ظلك ، وأستأنف
التأدب بأدبك ، والاحتمال على مذهبك ، فلا أوجد للحاسد مجال
لحظه ^(٦) ، ولا أدع لقادح مساغ لفظه ، والله ميسرك من إطلابي ^(٧)
بهذه الطلبة ، واشكائي من هذه الشكوى بصنعة تصيب منها
مكان المصنع ، وتستودعها أحفظ مستودع ، حسبما أنت خليق له ،
وأنا منك حري به ، وذلك بيده ، وهين عليه .

ولما توالى غرر هذا النثر واتسقت ^(٨) درره ، فوز عطف
غلاوته ، وجر ذيل خيلائه ^(٩) ، عارضه الزمام ماهيا ، بل كأيده
مداهيا ، حين أشفق من أن يعطفك استعطافه ، وتميل بنفسك
الطافه ، فاستحسن العائدة منه ، واعتد بالعائدة له ، وما زال

(١) وقد أثبتنا هذه الرسالة في مكان آخر من الكتاب فليرجع إليها القارئ إذا شاء .

(٢) ان يسر ما تمهد من أمري تيسر وسهل . (٣) قبلت العذر .

(٤) قال الشاعر :

قد نصب العمول أن الشفقه على الصديق والمدون صدقه
وأفصل المالم عند الله من ساعد الناس بفضل الجاه
ومن أعات البائس الملهوفا أعاته الله إذا أخيم

(٥) و كعك . (٦) فلا يجد الحاسد سبيلا إلى الشتمة في وعته بالعذر إلى وأنا متكور .

(٧) أسما في واتالي ما أبخيه . (٨) انتظمت . (٩) كبره ورحوه .

يستكد الذهن العليل ، والخطر الكليل حتى زف إليك عروسا
مجلوة في أنوابها ، منصوصه ^(١) بحليها وملابها ^(٢) وهامى القصيدة «

الهوى في طلوع تلك النجوم والمنى في هبوب ذاك النسيم
سرنا عيشنا الرقيق الحواشي لو يدوم السرور للمستديم
وطر ما انقضى إلى أن تقضى زمن ما دمامه ^(٣) بالديم ^(٤)
إذ ختام الرضا المسوخ منك وزاج الوصال من تسديم
وغريض الدلال ^(٥) غص ^(٦) جنى الصبوة ^(٧) نشوان من سلاف ^(٨) النعيم
طالما نافر الهوى ^(٩) منه غر ^(١٠) لم يطان عهد جيده بالتميم ^(١١)

* * *

أيها المؤذني بظلم الليالي ليس يوزي بواجد من ظلم ^(١٢)
قمر الأفق - إن تأملت - والشمس هما يكسفان دون النجوم

(١) مرموعة .

(٢) اللاب : الرحرا . قال الشاعر : « كالخفة الصفراء صاك عسرها بلبها »

(٣) دمامه : عهد . (٤) لم يقض لنا وطر من السرور بتلك الحياة الناعمة والعيش الرغد

حتى تولى ذلك الزمن غير مدوم العهد . (٥) وذلك الدلال اللطيف الحس .

(٦) الغص : الطرى ، الناعم : الناضر . (٧) الهوى . (٨) حمر .

(٩) نافر الهوى : غلبه . (١٠) لم يجرب الأمور .

(١١) التميم : جمع تميمه ، وهو العود : جمع عودة . أى الحرزات ونحوها مما يعاق على الصبي ليس

هذه العين ، وقد أنكر الاسلام ذلك ، وفي هذا يقول القائل :

ولذا للنية اشبه أظفارها الفيت كل تيممة لا تمنع

وهمى ذلك البيت : أب حبيبه قد طاحى الهوى وجافاه لأنه غر حدث لا يزال قريب العهد بالتميم ، فهو
لا ينفك كما يزال النافر لعراوته وحدثه عهد .

(١٢) أيها المحبى بما تدحرجه لى الليالى من كبد ، رويدك لا تخفى بذلك طالت بمحاق يوما على دهرى

لأننى ألت منه الظلم دائما .

وَهُوَ الدَّهْرُ لَيْسَ يَنْفَكُ يَنْحُو بِالمَصَابِ العَظِيمِ نَحْوِ العَظِيمِ^(١)

* * *

بَوَّأَ اللهُ « جَهْوَرًا » شَرَفَ السُّوَّ دَدٍ فِي السَّرْوِ^(٢) وَالْأَبَابِ الصَّمِيمِ^(٣)
وَاحِدٌ سَلَّمَ الْجَمِيعُ لَهُ الْأَمْدَ رَءَاكَ الْخُصُوصُ^(٤) وَفَقَّ الْعُمُومُ^(٥)
قَلَدَ الْعُمُرِ^(٦) ذَا التَّجَارِبِ فِيهِ وَأَكْتَنَى جَاهِلٌ بِعِلْمِ الْعَلِيمِ^(٧)
خَطَرَ يَفْتَضِي الْكَمَالَ بِشَوْعَى خُلِقَ بَارِعٌ وَخُلِقَ وَسِيمِ^(٨)

* * *

أَيُّهَا ذَا الْوَزِيرُ هَا أَنَا أَشْكُو وَالْمَصَا بَدءَ قَرَعِهَا لِلْحَلِيمِ^(٩)

(١) أكثر الشعراء من ذكر هذا المعنى في صور مختلفة ، وكادوا يذكرونه بمس هذه الألفاظ ، وقد ذكره أبو تمام بأسلوب آخر فقال :

لا تكري عطل الكريم من العي فالحليل حرب المكاث العالي

ومنه قول أبي العلاء :

والخط يهناح الحليل وكم شكا نأ على ، ما شكا قنبر

(٢) الرواة . (٣) المحسن : الخالص . (٤) الخصوص : الخاصة ، قال الشاعر :

أبلغ حليلى عند هند ولا رلت قريباً من سواد الخصوص

(٥) اتفق الخاصة والعامة على تسليمه مقاليد الأمور (٦) العمر : بالضم والفتح ، الذي لم يجرب الأمور

(٧) سلم الجميع مقاليد أمورهم إليه ، واتفق علمهم وحاصتهم على الاعتراف له بالفضل فأولوا العلم عرفوا بالعلم فسله ، ثم تلدهم في ذلك الجاهلون ، واكتنى العمر الجاهل بعلم الخير المجرب ، قالوا : وابن ربدون ينظر من طرف حتى إلى قول البحترى :

ودوو الفضل يجمعون على فضلك من بين سيد ومسود

عرف العالموت فضلك بالعلم وقال الجهمال بالتقليد

(٨) خطر : شرف وارتفاع قدر ، وعلو منزلة ، يقتضى الكمال : يستلزم الكمال وبلوغ العاية

لما أحرزه من جلال السجايا ، ووسامة الخلقة .

(٩) والمصا بده قرعها للحليم : تصمين للمثل العربي المشهور : « إن المصا قرعت لدى الحلم » وهم

يضربون هنا المثل للذي الذي إذا نهته انتبه .

مَا عَنَّا أَنْ يَأْتِيَ السَّائِقُ الْمَرْ
وَبَقَاءَ الْحُسَامِ فِي الْجَفْنِ يَنْزِي
أَفْصَرُ مِثْنَيْنِ خَمْسًا مِنَ الْأَيَّامِ
وَمَعْنَى مِنَ الضَّغْنَتَيْنِ بِهِنَاتِ
سَقَمٌ لَا أَعَادُ فِيهِ وَفِي الْعَا
نَارُ بَغْيٍ سَرَى إِلَى جَنَّةِ الْأَمْنِ أَظَاهَا فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ^(٤)
بَطَ فِي الْعَتَقِ مِنْهُ وَالْتَّطْهِيمِ^(١)
مِنْهُ بَعْدَ الْمَضَاءِ وَالنَّضْمِ
مِ ، نَاهِيكَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمِ
تَكَاتٍ بِالْكُلُومِ قَرَحَ الْكُلُومِ^(٢)
يُدِ أَنْسُ يَنْفِي يَبْرُءُ السَّقِيمِ^(٣)
نَارُ بَغْيٍ سَرَى إِلَى جَنَّةِ الْأَمْنِ أَظَاهَا فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ^(٤)

بَابِي أَنْتَ - إِنْ تَشَاءُ - تَكُ بَرْدًا وَسَلَامًا كَنَارِ إِبْرَاهِيمِ^(٥)

(١) السابق : الفرس ، الربط : اسم مكان - بكسر العين وفتحها - والعق في الخيل : الكرم ، والتطهيم : تمام الحس فيها يشبه نمه - وهو على هذه الحال من الاعتقال - بالاضاء الذي - ثم مكانه الذي ربط فيه - لعتقه وكرمه ، وقد وجد هذا البيت في ديوانه على هذه الصورة :
..... يَأْتِ الْمَرْ بَطَ فِي الْعَتَقِ مِنْهُ وَالْتَّطْهِيمِ

فأكملناه مما ورد في الروايات الأخرى .

(٢) المعنى : المحبوس من التعية وهي الحبس الذليل ، والصبي : المرض اللارم ، والهات : جمع هنة وهي الشدائد أو كى بها عن الأشياء ، وسكات : أى قشرت الحرج قل أن يبرأ فأدنته ، والكولم : الحراحت والمعنى : ومحبوس من المرض اللارم بسبب أشياء . ألمت قرح حراحتة بنراحت أخرى ، يريد أن عاء السجن أسبب إليه عاء المرض فهو في محبين ، يعانى ألم شديدين .

(٣) أى سرس لا يعودنى فيه - وأنا في السجن - طأء وق عيادة من يرورنى ما يكى وبقى شئائى لو أمكن ذلك (٤) أى نار بى وطم استمر لطاها في حنة الدعة والراحة والأمن فأصبح كالصريم : أى كالليل في السواد بعد الاحترق ، وعيه تليج إلى قصة أصحاب الجنة المذكورة في قوله تعالى في سورة الفلم « إياها بلونا كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصيبين » الآيات ١٧ : ٣٣ وهم قوم كانت لأبهم هذه الجنة مكان يأخذ منها قوت سنته ويتمدق بالباقي ، فلما مات رأى بوه أن يستأثروا بما فيها لأنفسهم وعيالهم فخلدوا ليصرمنها مصيبين ، أى ليقطعن ثمارها مبكرين في الصبح خفية عن أهين المساكين « فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون فأصبح كالصريم » أى احترقت فصارت في السواد كصفحة الليل .

(٥) أفديك أب أنها الممدوح بأى ، إن تشاء تكن تلك النار التي مرت إلى حنة الأمن برداً وسلاماً فلا تحترق كنار إبراهيم إذ قدف فيها ناسر نمرود فكأت برداً وسلاماً عليه فلم يخرق ، وفيه تليج إلى قوله تعالى « قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم » .

لِلشَّفِيعِ الشَّاهِدِ ، وَالْحَمْدُ فِي صَوْنِ بِي الْحَيَا لِلرِّيَّاحِ ، لَا لِلْغَيُومِ ^(١)
 وَزَعِيمٍ بِأَنْ يُذَلَّ لِى الصَّغَبَ مَثَانِي إِلَى الْهَمَامِ الرَّعِيمِ ^(٢)
 وَوِدَادُ يُغَيِّرُ الدَّهْرُ مَا شَاءَ ، وَيَبْقَى بَقَاءَ عَهْدِ الْكَرِيمِ -
 وَثَنَاءُ أَرْسَلْتُهُ سَلَوَةَ الظَّا عَنِ عَن شَوْقِهِ وَلَهُوَ الْمُقِيمِ ^(٣)
 فَهُوَ رِيحَانَةُ الْجَلْدِيسِ - وَلَا فَخْرَ - وَفِيهِ مِزَاجُ كَأْسِ النَّدِيمِ -
 لَمْ يَزَلْ مُغْضِيًا عَلَى هَقْوَةِ الْجَا نِي مُصِيخًا إِلَى أَعْتِدَارِ الْكَرِيمِ -
 وَمَتَى يَبْدَأِ الْعَسْفِيَّةَ يُؤَلِّمُكَ تَعَامُ الْخِصَالِ بِالسَّمِيمِ ^(٤)

(١) أى الشفيع الشاهد والحمد لا للشغور إليه ، كما ان الحمد في نزول المطر للرياح التي تهب من اليوم فينزل المطر بسببها لالهس الغيوم ، وهو كقول الحنظلي :

حار حدى وللرياح اللواتي تحلب العيث مثل حمد العيوم

(٢) كهيل تذليل ما استصعب تدليله رجوعى إلى الهمام الرئيس . وقد ورد في بعض النسخ البيت التالي بعد هذا البيت :

أمل برغم الحفاء إليسه وهو ثبت المقام ماضى العزم

(٣) أى مدح أرسلته مسار على السنة الناس مسير المثل إذا تلاه الذاعن نلى به عن شوقه إلى وطنه وحنينه إلى أهله ، وإذا تلاه المقيم كان فيه لهوه وأنسه .

(٤) أى متى يبتدئك الحيل نغراك خصاله التامة ، وتحملك أخلاقه الكاملة على المطالبه بقتيم ما ابتدئك به من معروف ، وتكمل ما شرع فيه من صنيع يرد - بعبارة أوضح - أن ماله عليه من نعمة متدأة ، ويد سابقة يبعث في نفسه أملا قويا في إتمام تلك النعمة بانجاز ما وعده به ، وفي هذا المعنى يقول أبو تمام :

هذا سحاب أنت سفت غمامه فعليك - بعمد الله - فيس غمامه

إن ابتداء العرف مجد باسق والمجد - كل الجد - فى استتمامه

وقرب منه قول المتنبي :

ولم أرى عيوب الناس عيباً كدعس القادرين على التمام

وقول الفائق :

إذا أسديت مكرمة فاعم فان البدر يسطع بالتمام

من قصيدة صنعها بَطْلَيْوس^(١)

« قال هذه القصيدة عند فراره من السجن والتجائه إلى بى عباد باستيبيلية سنة ٤٢١ هجرية ، وكان نداءه الفطر فالأضخى وهو على حاله من الذكرى والشوق إلى معاهد بقرطبة ، كان يخرج إليها في العيد ، ويشعرج يتفارهما ، ويلهو بمحاسنها مع من يهوى ، وقد أذكى تذكرها في فؤاده لاعج الشوق ، وبه كامن الوحدة ، فأخذ يذكرها ممهداً ممهداً ، ويصف ما حلفت في نفسه من الأثر ، ويبين ما أثارته دواعي الذكرى في ذاته من العصابة والأسى والشوق ، وتقول صاحب ثلاثد العقيان في هذه الأماكن التي يذكرها بهد : — « هذه معاهد لبي أمية سميت بها ليالي وأياما ، وظلت فيها الحوادث عنهم نياما ، فهاهوا (تفرق العقاب) وشاموا به برقاً يدو من تقاب ، ونعموا (بحوى الرصافة) ، وطعموا عيشاً تولى الدهر حلاهم وزفاه ، وأعدوا بصح الباصح ، وحدوا أمس (مجلس ناصح) ، وعموا (بالزهراء) ، وصعدوا من نبأ صاحب (الرواء) حتى رحلهم الموت عنها وقوضهم ، وعوضهم منها ما عوضهم » إلى آخر ما قال .

خَدَيْلِي لَا فِطْرٌ يَمُرُّ وَلَا أَضْحَى	فَإِذَا حَالُ مَنْ أُمْنِي مَشُوقًا كَمَا أَضْحَى
لَنْ شَاقِي (شَرْقُ الْعُقَابِ) فَلَمْ أَزَلْ	أَخْصُ بِمَحْوُضِ الْهُوَى ذَلِكَ السَّقْمَا ^(٢)
وَمَا أَنْفَكُ جُوفِي (الرُّصَافَةَ) مُشْعِرِي	دَوَاعِي ذِكْرِي تُعْقِبُ الْأَسْفَ الْبَرَحَا ^(٣)

(١) بطليوس : بصحتين وسكون اللام ، وياء مصمومة ، وسين مهملة مدية كبيرة بالأندلس من أعمال ماردة على نهر « آنه » غربي قرطبة كما في معجم البلدان . (٢) العقاب : بالضم العلم الضخم والصخرة العظيمة في عرض الجبل اسم موضع بقرطبة ، ومحوض الهوى : خالصة .

(٣) (حوى الرصافة) : الجوى بضم الجيم الواسع الجوف . قال في اللسان وشيء حوى أى واسع الجوف ، ودلا . حوى : أى واسعه ، و (الرصافة) : بضم راء اسم لعدة مواضع منها بالأندلس موضعان أحدهما بايدة صديرة عند المنسية ينسب إليها الرفاء الأندلسي الرصافي الشاعر المشهور والأخرى وهي التي ذكرها هنا عند قرطبة أنشأها عبد الرحمن الداخل أول ملوك الأندلس من بى أمية وسماها رصافة جده هشام بن عبد الملك بن مروان التي كانت بالشام كما يؤخذ من ابن خلكان نقلا عن كتاب ليافوت الحموي اسمه « المشترك وضما المحلف صما » ، والبحر : بفتح فسكون العذاب والشدة وصف به الأسف بمبالغة والمراد أنها تعقب أسفا مبرحا شاقا شديدا .

وَيَهْتَاجُ (قَصْرُ الْفَارِسِيِّ) صَبَابَةً لِقَلْبِي لَا تَأْلُو زِنَادَ الْأَسْنَى قَدْحًا ^(١)
وَلَيْسَ ذَمِيمًا عَهْدُ (مَجْلِسِ نَاصِحٍ) فَأَقْبَلَ فِي فَرْطِ الْوُلُوعِ بِهِ نَضْحًا
كَأَنِّي لَمْ أَشْهَدْ لَدَى (عَيْنِ شَهْدَةٍ) نَزَالَ عِتَابٍ كَانَ آخِرُهُ الْفَتْحَا ^(٢)
وَقَائِعُ جَانِبِهَا التَّجَبُّى فَإِنْ مَشَى سَفِيرُ خُضُوعٍ يَدْفِنُنَا أَكْثَادَ الصُّلْحَا ^(٣)
وَأَيَّامُ وَصِلِ (بِالْعَقِيقِ) اُقْتَضَيْتُهُ فَإِلَّا يَكُنْ مِيعَادُهُ الْعِيدَ فَالْفِصْحَا ^(٤)
وَأَصَالَ لَهْوٍ فِي مُسْنَنَةِ مَالِكٍ مُعَاطَاةً نَدْمَانٍ إِذَا شِئْتُ أَوْسَبَحَا ^(٥)
لَدَى رَاكِدٍ يُصْبِيكَ مِنْ صَفْحَاتِهِ قَوَارِيرُ خُضْرٍ خِلَتَهَا مَرَدَّتْ صَرْحَا ^(٦)

(١) يقول : تثير ذكرى قصر الفارسي لقلبي صباقة لا تنقر من قبح رنَاد الحزن ، والرنَاد ما يصدح به النار

(٢) يعنى أنه عبأ لمحبوبته في هذا المكان حيش عتاب أحرز به نصراً عليها وفتحاً .

(٣) التجبى ادحاؤها عليه دنبا لم يفعله ، والسفير المصلح بين القوم ، والمعنى أن هناك وقائع جاعها ادحاؤها الذنوب عليه كان خضوعه فيها رسول سلام لتوكيد الصلح بينهما . (٤) يقال اقتضيت الدين أى

قبضته وأخذته ، والفصح بالكسر عيد النصارى ، والمعنى أن أياما معلومة من السنة كنت أحصل فيها (بالعقيق) على الوصل واقتضيه في ميعاده كما يقتضى أى يقيم الغريم دينه ، فإن لم يكن ذلك الاقتضاء

موعه العيد فالفصح . (٥) الأصال : جمع أصيل وهو ما بعد العصر إلى المغرب ، والسنة : سدّ

يبنى في وسط الوادى لاحتجاز الماء ورد ما لا يعل منه ومنعه عن الحرى في طريقه المعتاد ، له أبواب

تفتح لإطلاق الماء بحسب الحاجة ، ومعى العرم . قال في الصحاح ، « والسنة العرم لا واحد له من لفظه » ، والمعنى أنه يذكر تلك الأيام التى كان ياهو بها مع الأصيل في تلك السنة الملكية مرة بمعاطاة

الراح إذا شاء ، وأخرى بالسح والعموم في الماء ، وهذا مما يثبت أنهم كانوا يبنون (الخزانات) لاختصاص الأرض وإمداد البرك بالماء بعد ثقلته . (٦) قال بعض المفسرين في قوله تعالى (قبل لها ادخلى

الصرح) . الصرح : بلاط اتخذ لها من قوارير ، ومن معانى الصرح الساحة أيضا ، فكانه أراد تشبيه ماء السنة الراكد في خضرته واسوائه بزجاج أخضر مرد (بالتشديد) أى ماس صرحا أى ساحة مستوية

من زجاج .

مَعَاهِدُ لَذَاتٍ وَأَوْطَانُ صَبْوَةٍ أَجَلْتُ الْمُعَلَى فِي الْأَمَانِي بِهَا قِدْحًا^(١)
 الْأَهْلَ إِلَى (الزَّهْرَاءِ) أَوْبَةً نَازِحٍ تَقَضَّى تَنَائِيهَا مَدَامِعُهُ نَزْحًا^(٢)
 مَقَاصِيرُ مُلْكٍ أَشْرَقَتْ جَنَبَاتُهَا فَخَلْنَا الْمِشَاءَ الْجَوْنَ أَثْنَاءَهَا صُبْحًا^(٣)
 يُمَثِّلُ قُرْطَيْنَا لِي الْوَهْمُ جَهْرَةً فَتُبْنَاهَا فَالْكَوْكَبَ الرَّحْبَ فَالْسَّطْحًا^(٤)
 مَحَلُّ أَرْتِيَاحٍ يُذَكِّرُ الْخُلْدَ طَبِيبُهُ إِذَا عَزَّ أَنْ يَصْدَى الْفَتَى فِيهِ أَوْ يَضْحَى^(٥)

(١) القدح : كسر فيكون واحد البهام التي كانوا يستقسمون بها الخزور في الميسر ، وكانت قدام الميسر عشرة عشرة ثلاثة منها غمل ، وسبعة من دوات الاصماء ، وكان المعلى أوفرها حظا له سبعة أجزاء من الخزور ، فإذا أقال مخرج القدح يده في الخريطة ، وأخرج المعلى باسم أحد المتقامرين كان هو الفائز بأكثر الأنصام وأوفر الخطوط . يقول : هذه معاهد لذات قضيت فيها من اللذات ، وبلغت فيها من الأمانى ما حمل قدسى منها المعلى . (٢) الزهراء من عجم أمية الدنيا أنشأها أبو المظفر عبد الرحمن ابن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم الأموي الملقب بالناصر أحد ملوك بني أمية بالأندلس بالقرب من قرطبة في سنة ٣٢٥ هـ والمسافة بينها وبين قرطبة ستة أميال تقريبا ، وطول الزهراء من الشرق إلى الغرب ٢٧٠٠ ذراع ، وعرضها ١٥٠٠ ذراع ، وعدد الدواب التي فيها ٣٠٠ : سارية ، وأبوابها نحو ١٥ بابا ، وكان الناصر يقيم على صهارتها ثلث حبابه بلاد الأندلس التي كانت تبلغ في ذلك الوقت نحو ستة ملايين من الدنانير ، وهي من أحسن مناره الدنيا وأبدعها ، وقد أكثر أهل قرطبة في وصفها وما قاله الشعراء فيها ، ولهم في ذلك تصانيف ، والأوبة : الرحون ، والنازح : البعيد ، وتقضى أحد وتناول حقه من غريمه ، وهي المدامع هنا ، والنزح : من نزح الثر ، وهو استنزاف مائها ، ورأيت في بعض النسخ (تقضى ما فيها مدامع مدامعها) (٣) المقصورة : ناحية من البناء على جبالها تنصر على الملك ، أو على صاحب الدار ، أو هي الدار الواسعة المحصنة ، وتجمع على مناصر ومقاصير ، والجنات : جمع جنه كسجدة وسعدات ، وفي اللسان ما يفيد اختلاف الاعوين في إسكان النون وفتحها في المفرد ، ونقل عن ابن جني قوله : وقد غرى الناس بقولهم ، أنا في ذراك وحببتك بفتح النون قال والصواب إسكان النون ، واستشهد على ذلك بقول أبي صعقره البولاني :

فانظرة من حبّ مزن تهادفت بها حنبتا الجودى والليل دامس
 بأطيب من فيها وما دقت طلعها ولكني فيما ترى العين فارس

والجود : هنا الأسود ، والمعنى أن تلك المقاصير أسيئت نواحيها بالمصابيح والسرر ، لحسبنا المشاء في داخلها صمعا (٤) يمثل له اليوم هذه المواضع من الزهراء كأنه يراها جهره (٥) في بعض النسخ من بدل من وفي بعضها يفتدى بدل يصدى ، ولعلها مصدرة عن يمرى ، والأنشبه بالصواب ما هنا ، ومعنى البيت أن

هَناكَ الْجِمامُ الزُّرْقُ تَنَدَّى حِفافَها ١
تَعَوَّضْتُ مِنْ شَذْوِ الْقِيانِ خِلالَها
صَدَى فَلَوَاتٍ قَدْ أَطَارَ الْكَرَى ضَبَّحاً ٢
تَقَحَّمْ أَهْوالٍ حَمَلْتُ لَها الرُّثْمَ
أَجَلٌ إِنْ لَيْلِي فَوْقَ شَاطِئِ نِيطَةٍ ٣
ظِلالٌ عَمِدَتْ الدَّهْرَ فِيها فَنِّي سَمَحاً ٤
لَأَقْصِرُ مِنْ لَيْلِي بِأَنَّةٍ فَالْبَطَحَ ٥

في الغزل

عَلَامَ صَرَمْتَ حَبْلَكَ مِنْ وَضُولِ ١
وَفِيمَ أَنْفَتَ مِنْ تَعْلِيلِ صَبِّ ٢
فَدَيْتَكَ وَأَعْتَرَزْتَ عَلَى ذَلِيلِ ٣
فَهَلَّا عُدَّتَنِي إِذْ لَمْ تُعَوِّذْ ٤
بَشَخْصِكَ بِالْكِتابِ أَوِ الرَّسُولِ ٥
لَقَدْ أَغْيَا تَلَوْنُكَ أُخْتِيالِي ٦
وَهَلْ يُغْنِي أُخْتِيالٌ فِي مَلُولِ ٧

الزهراء محل ترناح النفس إليه يذكر طيه حمة الخلد حيث يمنع أن يصدى التي أى يعطش أو يصحى أى يبرز للشمس ، وميمه الإشارة إلى قوله تعالى « إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيها وَلَا تَمُوتَ فِيها وَلَا تَصْحَى » ولا شك أن الجوع ، والمرض ، والظلم ، وعدم السكن أركان الشقاء في هذه الحياة وبدونها يكون العم والراحة والسعادة ، وأن الشخص في الحياة الدنيا معنى بطلب هذه الأشياء بخلافه في دار العيم والخلد ، وقد توفرت له في الزهراء أسباب الراحة والعيم فادكره ذلك جنة الخلد .

(١) الحمام : جمع حمة ، وهي مكان اجتماع الماء ، والزرق : صفة للجمام بمعنى المياه المنعمة ، وحفافها : حواننها وما يطيف بها من حولها ، والمعنى هناك في الزهراء البرك ذات الأمواه الزرق تطلعا حفافها وحولها ظلال بليلة ندية (٢) أي أدلت من سماع صوت المعنيات خلال تلك النوادي الآهله بأبواب الطرب سماع صدى هذه الفلوات المخفة يتردد فيها ضجج العاديات من الحيل يطير النوم من العين (٣) نيطه وآه : نهران (٤) يقول : لماذا قطعت حل محب دائم الوصال لك ولماذا تكبرت على صدك الخاضع الذليل .

(٥) هلاعدني بالكتاب أو الرسول إذ لم يكن من عادتك أن تعودني بشخصك .

(٦) من أجل ما قرأناه في هذا المعنى قول العباس بن الأحنف :

لو كنت طائفة لكن لوعتي أملى رضاك وزرت غير معاتب
لكن مللت فليس لي من حيلة صد الملول خلاف صد العاتب

وقرب منه قول ابن الرومي :

ولكنكم كنتم تريدون علة فهاجكم أدنى عتاب إلى الصد
أردت صلاح القبل بالبعد فابعد لنا ظالمكم فاستفسد القبل بالبعد

بين صديقين

« كتب اليه ذو الوزارتين أبو عامر معاتبا :
 تماعدنا على قرب الجوار
 كأننا صدنا شحط المزار
 تطلع لى هلال الهجر بدرا
 وصار هلال وصلك فى سرار
 وشاع شنيع وصلك لى وهجرى
 فهلا كان ذلك فى استنار
 أيجمل أن ترى عنى صورا
 وأصبح مولعا دون اصطبار
 ولما أن هجرت وطال غفرى
 عقرت هموم نفسى بالعقار
 وكنت أريد سمعك من عتابى
 ولكن عافنى قرب الخمار
 فراع مودتى واحفظ جوارى
 فان الله أوصى بالجوار
 وزرنى منعما من غير أمر
 وآنس موحشا من عقردار
 فجأوه ابن زيدون : »

هَوَاىَ - وَإِنْ تَنَاءَتْ عَنْكَ دَارِى -	كَمْثَلِ هَوَاىَ فِي حَالِ الْجَوَارِ
مُقِيمٌ لَا تُغَيِّرُهُ عَوَادِ	تُبَاعِدُ بَيْنَ أَخْيَابِ الْمَزَارِ
رَأَيْتُكَ قُلْتَ : إِنَّ الْوَصَلَ بَدْرٌ	مَتَى خَلَّتِ الْبُدُورُ مِنَ السَّرَارِ (١)
وَرَأَيْتُكَ أَنَّى جَلْدُ صَبُورٌ	وَكَمْ صَبْرٌ يَكُونُ عَنِ أَصْطِبَارِ (٢)

(١) متى أمررت أن الوصل بدر فأت حليق أن نعلم أن البدر - لأن شتى هو - إذا اكتمل نموه فى وسط الشهر لحقه الحاق فى آخره .

(٢) إن صبرى لبس طبيعيا ولكنى انكفئه اضطرابا إليه لأنى لا أجد مندوحة عنه .

وَلَمْ أَهْجُزْ لِمَتَّبِعِ غَيْرَ أَنِّي أَضَرَّتْ بِي مُعَاوَرَةُ الْعُقَارِ
وَأَنَّ الْخَمْرَ لَيْسَ لَهَا خِمَارٌ^(١) مُبَرِّحٌ بِي ، فَكَيْفَ مَعَ الْخِمَارِ^(٢)

* * *

وَهَلْ أَنَسَى لَدَيْكَ نَعِيمَ عَيْشٍ كَوَشِي الْخَدَّ طُرَزَ بِالْعِذَارِ
وَسَاعَاتٍ يَحُولُ اللَّهُوُ فِيهَا مَجَالِ الطَّلِّ فِي حَدَقِ الْبَهَارِ^(٣)
وَإِنْ يَكُ قَرٌّ عَنْكَ الْيَوْمَ جِسْمِي - فُؤِدِي - فَمَا لِقَلْبِي مِنْ قَرَارِ^(٤)
وَكُنْتُ عَلَى الْبِعَادِ أَجَلٌ عَلِقَ^(٥) لَدَيَّ ، فَكَيْفَ إِذَا صَبَحْتَ جَارِي^(٦)

دعوة

« كتبها إلى ذي الوزارتين أبي عامر يدعو به إلى زيارته »

طَابَتْ لَنَا لَيْلَتُنَا الْخَالِيَةِ فَلَتُنْسِنَاهَا هَذِهِ التَّالِيَةِ^(٧)
أَبَا الْمَعَالِي نَحْنُ فِي رَاحَةٍ فَأَنْقُلْ إِلَيْنَا الْقَدَمَ الْعَالِيَةَ
لَيْلَتُنَا عَاطِلَةٌ إِنْ تَغِبَ عَنَّا ، فَرَزْنَا كَيْ تَرَى حَالِيَةَ
أَنْتَ الَّذِي لَوْ تَشْتَرِي سَاعَةً مِنْهُ بِدَهْرٍ لَمْ تَكُنْ خَالِيَةَ

(١) سورة . (٢) إذا كانت الحر التي لا سكر فيها تبرح بي فما بالك بها إذا أسكرت .

(٣) البهار : نبت طيب الريح . (٤) إذا كان جسمي قد فرَّ قراره بعيداً عنك فأنَّ قلبي لا يزال

يهفو إليك . (٥) العلق : النفيس ، قال الشاعر :

« أبيت إلا أن سكاب علق هيس لا يعار ولا يباع »

(٦) إليك - مع البعاد الذي يندى الألف - كنت أجل مخلوق لدى ، فكيف أنساك وقد زادني الجوارح بافك

(٧) لقد طابت ليلة أمس بقربك منا فلنذكرها ، ولننسنا ما ينمونا من السرور في ليلتنا التالية ما نعمنا

به في ليلتنا الماسية .

قال في الوزير الشيخ أبي الحزم

« بَنِي جَهْوَرٍ » أَحْرَقْتُمْ بِحَفَائِكُمْ جَنَانِي وَلَكِنَّ الْمَدَائِحَ تَعْبَقُ^(١)
تَعْدُونَنِي كَالْعَبْرِ الْوَرْدِ^(٢) إِنَّمَا تَطِيبُ لَكُمْ أَنْفَاسُهُ^(٣) حِينَ يُحْرَقُ

قُلْ لِلْوَزِيرِ وَقَدْ قَطَعْتُ بِمَدْحِهِ زَمَنًا فَكَانَ السَّجْنُ مِنْهُ تَوَابِي
لَا تَحْشَى فِي حَقِّي عَمَّا أَمْضَتْهُ مِنْ ذَاكَ فِي وَلَا تَوَقَّ عِتَابِي^(٤)
لَمْ تُخْطِ^(٥) فِي أَمْرِي الصَّوَابَ مُوَفَّقًا هَذَا جَزَاءُ الشَّاعِرِ الْكَذَّابِ

وصال

وَشَادِنِ أَسْأَلُهُ قَهْوَةً^(٦) فَجَادَ بِالْقَهْوَةِ وَالْوَرْدِ^(٧)
فَبِمَتْ أَسْقَى الرَّاحَ مِنْ رِيْقِهِ وَأُجْتَنِيَ الْوَرْدَ مِنَ الْخَدِّ

(١) عبق : الطيب يسبق من باب فرح بقيت رائحته زمانا ، يقول بالرغم من أنكم أحرقتكم قوادى بنار الحفاه ، وقابلتم شكواي بعدم الاصفاء ، فان مديحي باق فيكم ملازم انكم ملازمة الطيب صاحبه .
(٢) الرعفران لمرته . (٣) ما يبعث عنه عند الاحراق من الروائح الطيبة ، والمعنى : تحملوني في صداد ما يحرق من الطيب الذي ليس لكم من إحراقه إلا طيب أنفاسه . قال ابن سبام عند إيراد هذين البيتين ، وأراه توارد مع أبي علي بن رشيقي القيرواني حيث يقول :
أراك اتهمت أحاك الله وعندهك مقت وعندي مقه
وأنتى طيبك وقد سؤني كما طيب العود من أحرقة
وأخذه مما من قول أبي تمام :

لولا اشتعال النار فيما حاورت ما كان يعرف طيب عرف العود

(٤) لا تحش في حق لوما بما أنذته في من حكم السجن ولا تتوق عتابي فاني أنا الحقيق باللوم والعتاب
(٥) أبدل الهزة من الياء وحدها للحارم كما يحذفها من المعتل وأصله لم تحطى ، يقول : لم تعد في أسرى الصواب وقد وقتت في حكمك على بالسجن بعد أن انقطعت زمانا لمحك ، وهذا حزام من يكذب في شعره ويعدح من لا يسهق المدح ، وقريب من هذا الهجاء قول ابن الرومي :

إن كنت من جهل حق غير معتذر وكنت من رد مدحى غير متذب
فأهطى عن الطرسى الذى كتبت فيه القسيمة أو كفارة الكذب

(٦) حرأ : يعنى حر ريقه . (٧) أى ورد وحنه .

وقال معاتبا من قصيدة أولها

بَنَيْتَ فَلَا تَهْدِمِ وَرِشْتَ^(١) فَلَا تَبْرِي
أَرَى نَبْوَةً لَمْ أَدْرِ سِرًّا أَعْتَرَا ضِهَا
جَفَاءَ هُوَ اللَّيْلُ أَذْلَهُمْ ظَلَامُهُ
هَبِ الْعَزَلَ أَضْحَى لِلْوَلَايَةِ غَايَةً
فَقِيمَ أَرَى رَدَّ السَّلَامِ إِشَارَةً
أَنَاسُ هُمْ أَخْشَى لِلذَّغَةِ مِقْوَلِي
فَإِنْ عَاقَتِ الْأَقْدَارُ فَالْنَفْسُ حُرَّةٌ
وَأَمْرَضْتَ حُسَّادِي وَحَاشَاكَ أَنْ تُبْرِي^(٢)
وَقَدْ كَانَ يَجْلُو عَارِضَ الْهَمِّ أَنْ أَدْرِ^(٣)
فَلَا كَوْنُ كَبِّ لِلْعُذْرِ فِي أَفْقِهِ يَسْرِي^(٤)
فَمَا غَايَةُ الْمُوفِي مِنْ الظِّلِّ أَنْ يُكْرِي^(٥)
تَسْوَعُ بِي إِزْرَاءَ مَنْ شَاءَ أَنْ يُزْرِي^(٦)
إِذَا لَمْ يَكُنْ مِمَّا فَعَلْتَ لَهُمْ مُضِرٌ^(٧)
وَإِنْ تَكُنِ الْعُتْبَى فَأَخْرِجْهَا أُخْرِي

موقف وداع

وَلَمَّا التَّقِينَا لِلْوَدَاعِ غُدِيَّةً
وَقُرْنَتِ الْجُرْدُ الْعِتَاقُ^(٨) وَصَفَقَتْ^(٩)
بَكَيْنًا دَمًا حَسَى كَأَنَّ عِيُونَنَا
وَكُنَّا نُرْجَى الْأَوْبَ بَعْدَ ثَلَاثَةِ
وَقَدْ خَفَقَتْ فِي سَاحَةِ الْقَصْرِ رَايَاتُ
طُبُولٍ وَلَا حَتَّ لِلْفِرَاقِ عِلَامَاتُ
لِجَرَى الدُّمُوعِ الْحُزْرِ فِيهَا جِرَاحَاتُ
فَكَيْفَ وَقَدْ كَانَتْ عَلَيْهَا زِيَادَاتُ

- (١) من راح صديقه كساه وأصلح حله . (٢) من البرء : وهو الشفاء من المرض .
(٣) أرى جملة لم أدر سرّاً اعتراضها أى منها الود من أن يسير في طريقه الأول ، وقد يكشف ما عرس
لى من الهم والحزن بسبب ذلك أن أعرف سرّاً تلك النبوة والحقوة .
(٤) جفاء كالليل اشتدّ ظلامه فلم يسر في أفقه كوكب عذر واضح . وفى الأصل :
« حياء هو الليل ادلهم ظلامه »
(٥) أكرى : الطل بكري نفس ، والمعنى : هب العزل أضحى حاتمة ماولينه من عمل ولا يبى أن تكون
غاية ما أوفى على من طلاك ورعايتك أن يكري أى ينقص . (٦) معنى البيت : فى أى ذنب أراك تشير
بالسلام إشارة تسيع وتحوز لمن شاء أن يزرى بى الارراء بى والتحقير لثنائى .
(٧) اضراء : بالصيد ونحوه أعراء به فهو مضر أى مضر ، يقول : أولئك الزارون على المحمرون لثنائى
أناس هم أخوف الناس من لسانى لو لم تكن مما فعلته معى قد اضريتهم بى وأعريتهم بالرراية على .
(٨) الجياد السكرية . (٩) دقت الطبول إيذاً بالمسير .

وقال أيضا يمدح أبا الوليد بن جهور

هَلْ عَمِدْنَا الشَّمْسَ تَعْتَادُ الْكِلَانَ ^(١) أَمْ عَمِدْنَا الْبَدْرَ يَحْتَابُ ^(٢) الْحُلَانَ
أَمْ قَضِيبُ الْبَابِ يَعْنِيهِ الْهَوَى أَمْ غَزَالُ الْقَفْرِ يُصْبِيهِ الْغَزَلُ ^(٣)
خَرَقَ الْعَادَاتِ مُبْدَى صُورَةٍ حَشَدَ ^(٤) الْحُسْنِ عَلَيْهَا فَأَحْتَفَلَ ^(٥)
مُشْرَبُ الصَّفْحَةِ مِنْ مَاءِ الصَّبَا مُشْنَعُ الْوَجْهِ مِنْ صَبْغِ الْخَجَلِ
مَنْ عَذِيرِي ^(٦) مِنْهُ إِنْ أُغْبِنُهُ ^(٧) نَسَى الْعَهْدَ وَإِنْ عَاوَدْتُ مَلَّ

(١) جمع كله بالكسر ، وهي ستر رقيق يحاط كالنت يتوقى فيه من العوس ونحوه ، وتقدم هذا المعنى عند قوله في القصيدة اليونية :

كأن له الشمس ظنرا في أكلته بل ما تحلى لها إلا أحيانا

(٢) يحتاب يلبس من قوهم : احتاب الفبيص إذا لبسه ، وسأهده قول لبيد :

سلك إمد رقص اللوامع بالسحى واجتأب أردية السراب اكلمها

أى لبست الأكمام أردية السراب ، والحل بالضم جمع حلة أثرت أن من يهواه سمس وأنه بدر على الحقيقة ، وتمحب من احتجاب الشمس في السكال ، واجيباب أى لبس الصدر الحلال ، وأنكر أن يكون ذلك معهودا في العادة . (٣) يعنیه : يهيمه ، وصديه : شؤنه ويدعوه إلى الصا والحين إلى من يحب ، والغزل : معاراة النساء ومحادثتهن ، أى ولم نعهد أيضا أن الهوى يهيم قضيب البان ، وأن المغازلة تدعو غزال اقمر إلى الصا فيحن إلى من يهوى . (٤) احتفعل .

(٥) احتشد واحتتمع : أى أتى بالمعزات ذلك الذى طلع عليها بصورته العائسة الجامعة لأمور الحسن ، الحاملة بأنواع الجمال .

(٦) يقال من عذيري من فلان أى من يصيرى ، ويقال : عذير فلان النصب أى هات عدوا له ، ومنه قول ذى الاصم العدواني :

عذير الحى من عدوا ن كانوا حية الأرض

نقى بعض على بعض فلم يرعوا على بعض

أى هات عدوا فيما فعل بعضهم ببعض من البغى ، والقتل ، والتباعد ، والتنافس ، ولم يرع بعضهم على بعض بعد ما كانوا حية الأرض التى يحذرها كل أحد ، ويقال عذيري من فلان أى من يمدقنى ، ومنه قول الآخر :

عذيري من الانسان لا إن جموته صفالى ولا إن كنت طوخ يديه

وإنى لمشتاق إلى طلق صاحب يروق ويصفو إن كدرت عليه

(٧) من اللعب في الزيارة ، أى جثته زائرا يوما وتركته يوما أو أكثر يقال : « زرغبنا تردد حبا » وفى

اللسان : « الغب في الزيارة فالحسن في كل أسبوع »

قَاتِلْ لِي بِالتَّجَنِّي ، مَا لَهُ لَيْتَ شِعْرِي أَحْلَالَ مَا أُسْتَحَلُّ ؟

أَيُّهَا الْمُخْتَالُ (١) فِي زِينَتِهِ أَنْتَ أَوْلَى النَّاسِ بِالْخَالِ (٢) فَخَلْ (٣)
لَكَ إِنْ أَذَلَّتْ (٤) عُذْرُ وَاضِحٌ كُلُّ مَنْ سَاعَفَهُ (٥) الْحُسْنُ أَذَلُّ
سَبَبُ الشُّقْمِ الَّذِي بَرَّحَ بِي صِحَّةٌ كَالشُّقْمِ فِي تِلْكَ الْمُقَلِّ (٦)
إِنَّ مَنْ أَضْحَى أَبَاهُ « جَهْوَرٌ » قَالَتْ الْأَمَالُ عَنْهُ فَفَعَلْ (٧)
مَلِكٌ لَدَّ جَنَنِي الْعَيْشِ بِهِ حَيْثُ وَزِدُ الْأَمْنِ لِلْعَادِي عَمَلْ (٨)

(١) ذو الخيلاء المعجب بنفسه المتباهي زينته وجماله .

(٢) الخال له معان كثيرة منها الخيلاء ، وهو المراد هنا ، وقد أورد صاحب اللسان عن ابن بري أحياناً في معاني الخال ، والمناسبات منها لما نحن فيه قوله :

وَإِذَا أَنَا خَدْنُ لِّلْعَوَى أَحَى الصَّبَا وَلِلْعَزَلِ الْمَرْجِ ذَى الْهَوَى وَالْخَالِ

أَيُّ الْخِيَلَاءِ . (٣) أَيْ كُنْ دَا خِيَلَاءَ وَزَهْوَ وَتَكْبَرٍ ، مَنْ خَالَ يَخَالُ بِمَعْنَى اخْتَالَ ، وَمِنْهُ بَيْتُ الْحَمَاسَةِ :

مَنْ كُنْتُ سَيِّدَنَا سَدَدْنَا وَإِنْ كُنْتُ لِلْخَالِ فَادْهَبْ تَخَلْ

مَعْنَاهُ : إِنْ فَعَلْتَ مَا يُوْجِبُ لَكَ السِّيَادَةَ عَلَيْنَا سَدَدْنَا ، وَإِنْ حَاوَلْتَ أَنْ تَسُوْدَنَا لِحِرَادِ الْكُفْرِ وَالْإِخْتِيَالِ فَادْهَبْ فَاحْتَلْ مَا شِئْتَ أَنْ تَحْتَالَ ، فَارْكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ أَنْ تَسُوْدَنَا حَيْثُذَ ، وَمَعْنَى الْبَيْتِ الَّذِي نَحْنُ بِمُصَدِّدِهِ :

أَيُّهَا الْمُخْتَالُ الزَّهْوَ سُلْعًا وَكِبَرًا زَيْنَتُهُ وَجَمَالُهُ كُنْ دَا خِيَلَاءَ وَنَظَرٌ وَإِعْجَابٌ فَأَنْتَ أَوْلَى النَّاسِ بِذَلِكَ لِمَرْطِ جَمَالِكَ .

(٤) يُقَالُ أَذَلَّ عَلَيْهِ وَتَدَلَّ : انْبَسَطَ وَاحْتَرَأَ وَتَحَيَّ فِي غَيْرِ مَوْسِعٍ نَحْنُ .

(٥) سَاعَدَهُ وَوَاتَاهُ وَأَسْعَفَهُ تَجَمُّعُ أَسْبَابِهِ لَدَيْهِ ، وَمَعْنَى الْبَيْتِ : إِنْ أَهْرَطْتَ فِي الدَّالَةِ عَلَى ثِقَةٍ بِمَعْجَى

لَكَ ، وَاعْتَدَادًا بِمُسَاعَفَةِ الْحَسَنِ وَمَوَاتَاتِهِ فَكَانَ فِي الْإِدْلَالِ عُذْرٌ وَاصِحٌ .

(٦) يَقُولُ : أَنَّ سَبَبَ الصِّىِّ وَالشُّقْمِ الَّذِي اشْتَدَّ بِي تَبَرِّجِي وَأَذَاءَ فَتُورٍ فِي لَحْظِ تِلْكَ الْعَيُونِ الصَّحِيحَةِ

لِلْمَرْضَةِ ، وَهَذَا مَعْنَى مَطْرُوقِ الشُّمْرَاءِ ، وَمَنْ أَحْسَنَ مُلَاجَأَةً فِي مَرَضِ الْعَيُونِ قَوْلُ ابْنِ الْمُعْتَزِّ :

عَلِيمٌ بِمَاتَحَتِ الصَّدُورُ مِنَ الْهَوَى سَرِيعٌ بِكَرَالِ الْعُظِّ وَالْقَلْبِ حَازِعٌ

وَبِمَرْحِ أَحْشَائِي مَيِّنٌ مَرِيضَةٌ كَمَا لَانَ مِنَ السِّيفِ وَالسِّيفِ قَاطِعٌ

(٧) يَعْنِي أَنَّ « ابْنَ جَهْوَرٍ » : إِذَا قَالَتِ الْأَمَالُ عَنْهُ قَوْلًا صَدَقَ قَوْلُهَا فَعَلَهُ .

(٨) شَرِبَ بَعْدَ شَرِبٍ .

أَحْسَنَ الْمُحْسِنِ مِنَّا فَجَزَى مِثْلُ مَا لَجَّ مُسِيءٌ فَأَحْتَمَلَ ^(١)
 سَعْيُهُ فِي كُلِّ بَرٍّ مِثْلُهُ ^(٢) إِذْ مَسَاعِي مَنْ يُنَاوِيهِ ^(٣) مِثْلُهُ ^(٤)
 لَا يَزَلُ مِنْ حَاسِدِيهِ مُكْتَبِرٌ أَوْ مُقِلٌّ ، سَبَقَ السَّيْفُ الْعَدْلَ ^(٥)

« يَا بَنِي جَهْوَرٍ » الدُّنْيَا بِكُمْ حَلَيْتَ أَيَّامَهَا بَعْدَ الْعَطَلِ ^(٦)
 إِنَّمَا دَوَّلْتُكُمْ وَاسِطَةً ^(٧) أَهْدَتِ الْحُسْنَ إِلَى عِقْدِ الدُّوَلِ
 نَحْنُ مِنْ نِعْمَائِكُمْ فِي زَهْرَةٍ جَدَّدَتِ عَهْدَ الرَّيِّعِ الْمُقْتَبِلِ ^(٨)
 طَابَ كَانُونٌ ^(٩) لَنَا أَثْنَاءَهَا فَكَأَنَّ الشَّمْسَ حَلَّتْ بِالْحَمَلِ ^(١٠)
 زَهَرَتْ أَخْلَاقُكُمْ فَأَبْتَسَمَتْ كَابِتِسَامِ الْوَرْدِ عَنْ لَوْثِ طَلٍّ

(١) أحسن المحسن ما جزاء وكأناه على إحسانه ، كما تكررت إساءة المسيء فاحتملها عفواً منه وكرماً .

(٢) أى كمثل السائر يشيع في الناس ذكره ، ويحمد أثره .

(٣) يماحره ويهاديه . (٤) جمع مثال ، أى أمثلة وصور يقول أن مساعي المدح في صلة الناس

بأنواع البر والاحسان أصبحت مضرب الأمثال ، في حين أن مساعي أعدائه المناوئين له سور جائحة أملاك — كاترى —

لم يشع لها ذكر ولم يعرف عنها أثر . (٥) يدعو استمرار حاسديه على الاكثار أو الافلال

من لومه على ما يصبه على رءوسهم من ويلات ، ويذله بهم من عقوبات ويقول « سبق السيوف العدل »

أى فلامعى تقوم أكثر الأعداء منه أم أملاوا ، وهو مثل مشهور يضرب للأمر الذى فات فلم يتمكن تداركه .

(٦) مصدر عطلت المرأة كفرح لم يكن عليها حلى ، وهو ضد « حليت » .

(٧) هى الدرة التى فى وسط العقد وتمتد أبيض حويرة فيه .

(٨) يقول : نحن قد حللنا من نعمائكم فى بهجة من الرمان ، وضرة من الحياة ، جددت لنا عهد الربيع

هدد استقبال أيامه ، وتجدد أوانه ، والربيع عند العرب ربيعان . الربيع الذى فيه النور والكلأ ، والربيع

الذى تدرك فيه الثمر . (٩) شهر ، وهو اثنان : كانون الأول ، وكانون الثانى .

(١٠) الحمل : برج من بروج السماء .

* * *

أَيُّهَا الْبَخْرُ الَّذِي مَهَّمَا تَفَضُّ ^(١) بِالْنَدَى ^(٢) يُمْنَاهُ فَالْبَخْرُ وَشَلَّ ^(٣)
مَنْ لَنَا فِيكَ بَعِيبٍ وَاحِدٍ
شَرَفٌ تَغْنَى عَنْ الْمَدْحِ بِهِ
تَحَذَّرُ الْعَيْنُ إِذَا الْفَضْلُ كَمُلَ ^(٤)
مِثْلَ مَا يَغْنَى عَنْ الْكُحْلِ الْكَعَلِ ^(٥)

* * *

أَنَا غَرَسٌ فِي ثَرَى الْعَلِيَاءِ لَوْ
لِي ذِكْرٌ بِالَّذِي أَسْدَيْتَهُ
فَلَيْمْتُ بِالْدَّاءِ مِنْ حَالٍ فَتَى
فَوَعَى الْحِكْمَةَ عَنْ قَائِلِهِمْ :
أَبْطَأْتُ سُقْيَاكَ عَنْهُ لَدَبُلُ
نَابِهِ وَدَّ حَسُودٌ لَوْ خَلَّ ^(٦)
أَدْبَتُهُ سِيرُ النَّاسِ الْأَوَّلِ
« الزَّمِ الصَّحَّةَ يَلْزَمُكَ الْعَمَلُ »

* * *

أَقْبَلْتُ نِعْمَاكَ تُهْدِي نَفْسَهَا
فَقَبِلْتُ الْيَدَ ^(٧) مِنْ بَطْنِ يَدٍ
كَلْنَا بُلْغَ مَا أَمْلَهُ
وَإِذَا مَارَامَكَ الدَّهْرُ فَفُتْ
لَمْ أَرْغُ ^(٨) حَظِّي وَنَهَا بِالْحَيْلِ
ظَهَرُهَا - الدَّهْرُ - مَحَلٌّ لِلْقَبْلِ
قَابِلُغِ الْغَايَةِ مِنْ كُلِّ أَمَلٍ
وَإِذَا رُمْتَ الْأَمَانِيَّ فَنَلْ

(١) الكرم . (٢) ماء قليل يتحلب من حل أو صخرة .
(٣) يقول من لنا بمن يعدد فيك عيما واحدا فانا نحن نحمدرك عليك وقد كنت فساك عيون الحاسدين ، وهو نظير قول الآخر :

ما كان أحوج ذا الكمال إلى عيب يوقبه من العيبين

(٤) الكحل : بحركة أن تسود . واضح الكحل من العين خلقة ، أى شرف تستمى بسببه عن المدح كما تستمى العين المكحولة خلقة عن الذكحل بالكحل صناعة . (٥) أسديته : أعطته ، والذكر

الناب : الشريف المشتهر ، وهو خلاف الحامل . (٦) لم أطلب وفي الأصل : « لم أدع » .
(٧) الجليل .

مداعبة

« كتبها إلى أبي عبد الله بن القلاس البطليوس

يداعبه بها »

أَصِيخُ لِمَقَالَاتِي وَأَسْمَعُ وَخُذْ - فِيمَا تَرَى - أَوْ دَعُ
وَأَقْصِرْ - بَعْدَهَا - أَوْ زِدْ وَطِرْ - فِي إِثْرِهَا - أَوْ قَعْ

أَلَمْ تَعْلَمْ بِأَنَّ الدَّهْرَ يُعْطِي بَعْدَ مَا يَمْنَعُ
وَأَنَّ السَّعْيَ قَدْ يُكْذِبُ (١) وَأَنَّ الظَّنَّ قَدْ يَخْدَعُ
وَكَمْ ضَرَّ أَمْرًا أَمْرٌ تَوَهَّاهُمْ أَنَّهُ يَنْفَعُ

فَإِنْ يُجْدِبُ مِنَ الدُّنْيَا جَنَابُ طَالَمَا أَمْرٌ
فَمَا إِنْ غَاضَ لِي صَبْرٌ وَمَا إِنْ فَاضَ لِي مَذْمَعٌ
وَكَأَنَّ رَامَتِ الْأَيَّامُ مُ تَرْوِيحِي فَلَمْ أَرْتَعْ (٢)
إِذَا ضَاغَتْنِي الْجُلَى تَجَلَّتْ عَنْ فَتَى أَرْوَعِ (٣)
عَلَى مَا فَاتَ لَا يَأْسُنِي وَمِمَّا نَابَ لَا يَجْنَعُ
تَدِبُ إِلَى مَا تَأْلُو عَقَارِبُ مَا تَنِي تَلْسَعُ

(١) يخفق ، وقد كرر هذا المعنى في سبئته فقال :

« ولكم أجسدى قعود ولكم اكدى التماس »

(٢) حاولت الأيام أن تحيى فلم أخف .

(٣) أى أن المصائب لا تناله منه منالا ، ضاوت من صافه الهم ، انزل به ، والجلي : الأمر العظيم والحادث المروع ، والأروع : الدكي الحديد الفؤاد الحلى النفس ، والمعنى : إذا نزلت بي جلى الحوادث فكشفت عن فتى حاضر العقل حديد الفؤاد ، وفي الأصل « صابنى » من صاب السهم القرطاس بمعنى أصاب وهي لغة قليلة لا نظن أن ابن زيدون يلجأ إلى استعمالها مع غزارة مادته .

كَأَنَّا لَمْ يُولَدْ الْفِتْنَا زَمَانُ لَيْتُ الْأَخْدَعُ (١)
 إِذِ الدُّنْيَا - مَتَى تَقْتَدُ أَبِي سُورِهَا - يَتَّبِعُ (٢)
 وَإِذْ لِلْحَظِّ إِقْبَالُ وَإِذْ فِي الْمَيْشِ مُسْتَمْتَعُ
 وَإِذْ أَوْتَارُنَا تَهْقُو وَإِذْ أَقْدَحُنَا مُتَرَعُ (٣)
 وَأَوْتَارُ الْمُنَى تُقْضَى وَأَسْبَابُ الْهَوَى تَشْفَعُ
 فِنْ أَدْمَانَةٍ (٤) تَعْطُو (٥) وَمِنْ قُمْرِيَّةٍ تَسْجَعُ
 أَعِذْ نَظْرًا فَإِنَّ الْبَغْدَ حَى مِمَّا لَمْ يَزَلْ يَصْرَعُ
 وَلَا تُطْعِمِ الْآتَى تُغْوِيكَ، فَهَى لَغَبِّهِمْ أَطْوَعُ (٦)
 تَقْبَلُ - إِنْ أَتَى - خَطْبًا وَأَنْفُ الْفَحْلِ لَا يُقْرِعُ (٧)

- (١) يقول : إليك مولع الآن بالكيد والاساءة إلى مناسيا تلك الأيام التي ألب فيها ، منا الزمن المواتي ، حين كنا أخوين متآلفين ، وفي الأصل : « كأنا لم يولينا » .
 (٢) وفي الأصل : « إيد الدنيا مي » . (٣) تملأ .
 (٤) الأدمان - بالفتح - شجر الحببة ، وهي أكبر من البقول وأصغر من الشجر ، الأدمانه : بضم فسكون قالوا إنه جمع إدماء كدماء وهي الطيبة الخفاصة البيضاء ، قال ذو الرمة :
 من المؤلفات الرمل أدماء حرة شعاع الضحى في منها يتوسح
 وصحح بعض المصويين أن أدمانة مفرد تكمصانة وإذن فهي مرادف لأدماء ، وتمطوا : تنطاول إلى الشجر لتناول منه . (٥) تمل .
 (٦) دع غواية هذه الماكرة فلها أطوع لعاوية أعدائك ومناصيك ولن تستطيع أن تغلب على كيدهم وغوايتهم ، وفي الأصل : « هي لبغبيهم أطوع » .
 (٧) قرع الأنف رمزه للهوان ، قالوا : وخس الألف بالضرب لأنه محل الأنة والكبر والشم .
 والعرب تقول في أمثالها : « أنف الفحل لا يقرع » وهي تقوله : للخطاب الكف .
 والأصل لغل الأبل إذا ضرب وجهه عن الباقة التي يريدون تاجها منه .
 قالوا : وتمثل به أبو سفيان بن حرب حين ماته زواج النبي (صلى الله عليه وسلم) ابنته أم حبيبة فقال :
 « ذاك الفحل لا يقرع أنفه » .
 وفي الأصل : « وأنف الفحل لا يقرع » يقول : إن العظيم لا يهن عزمه أمام الخطوب والكوارث ، وليكن لك في هذا عزاء ولتقبل أي خطب إن أناك بصدر رحيب ، غير واحد على تلك المرأة العادرة التي لا قيمة لها ولا خطر .

وَلَا تَكُ مِنْكَ تِلْكَ الدَّارُ رُ بِالْمَرَأَى وَلَا الْمَسْنَعُ
فَإِنَّ قُصَارِكَ الدَّهْلِيَّزُ، حِينَ سَوَّالِكِ فِي الْمَضْجَعِ^(١)

جَرَّبِ النَّاسَ وَأَمْتَحِنِ

خُنْتُ عَهْدِي وَلَمْ أَخُنْ بَعْتَ وَدَى بِلَا نَمَفْ
قَائِلًا : « هَلْ مُزَايِدٌ رَاجِحًا ؟ ثُمَّ مَنْ يَزِنُ^(٢) »
عُدَّتِي كُنْتُ لِلزَّمَانِ ، فَقَدْ حُلْتُ وَالزَّمَانُ^(٣)
أَرْخِصَ الْبَيْعَ كَيْفَ شِئْتُ وَذَرْنِي ، لَتَنْدَمَنَّ^(٤)
سَوْفَ تُبْلَى بِغَيْرِنَا ، جَرَّبِ النَّاسَ وَأَمْتَحِنِ

(١) وتناس تلك الدار التي كانت ذكرياتها . بحث آلامك وأحزالك ، فليس لك أمل في اكتساب ودعها ، وقصاري ما فعل إليه أن تكون في الدهليز حين ينعم غيرك بالمصنع .

(٢) كنت عهدي راجحاً مع صدق ودادي لك ، وأخذت تدال عليه في السوق زاهداً فيه باحثاً عن يشتره بأجس الأمان . (٣) كنت عدتي التي أحاربها الزمن فأصعبت حرباً على أمت والزمن . وقريب من هذا المعنى وأدق منه وأروع قول ابن الرومي :

« تحذتكمو درواً مُسِيماً ! لتنعوا سهام العدا على فكتم لهاها
وقد كنت أرحو منكم خير ناصر على حين حدلان المين شهاها »

إلى أن يقول :

« تقفوا وقفة المذور على بنجوة وحلوا نبالي لعدا ونبالها »

وقول المائل^١ :

« واخوان حستهمو دروا فكانوها ، ولكن للأعادي
وحستهمو مهاما صائبات فكانوها ، ولكن في وادي
وقالوا : « قد صفت منا قلوب لقد صدقوا ، ولكن من ودادي »

(٤) ازهد في ودي كما شئت فوالله لتندمن على زهادتك في ، وما أحل قول ابن الرومي .

« وارباباً بودي أن يذال فاني في غير ذاك من الأمور أرخص
إياك لا تسئل ما أرخصته بطرا ، فأقلني منه ما لا أرخص
ستري — من استغفرتني وطلبتي — أني سأزهد عند ذاك — وتحرم »

في مدح ابن جهور

« قالها في مدح أبي الحزم بن جهور
أحد ملوك الطوائف »

هَذَا الصَّبَاحُ عَلَى سُرَاكِ رَقِيبَا فَصَلِّي بِفَرَعِكَ لَيْسَكَ الْغَرِيبَا ^(١)
وَلَدَيْكَ - أَمْثَالَ النُّجُومِ - فَلَائِدُ أَلِفَتْ سَمَاءَكَ لَبَّةً وَتَرِيَا ^(٢)
لِيَنْبُ عَنِ الْجَوَازِاءِ قُرْطُكَ كُلَّمَا جَنَحَتْ تَحْتُ جَنَاحَهَا تَغْرِيَا ^(٣)
وَإِذَا الْوَشَاحُ تَعَرَّضَتْ أَثْنَاوُهُ طَلَعَتْ ثُرْيَا لَمْ تَكُنْ لِتَغْيِيَا ^(٤)

(١) سراك : سيرك ليلا ، العريب : الشديد السواد يقول كاد الصبح يفضحك فصي سواد الليل بسواد شعرك ، أليس شعرك كالليل ، قال ابن بسام :
قوله : « فصلي بهرك ليلك الغريبا » من قوله أبي الطيب :
« كسفت ثلاث دوائ من شعرها في ليلة فأرت ليالي أرمأ »
وينظر إلى قول المعري :
« يود أن طلام الليل دام له وزيد به سواد القلب والصر »
وللتأني :

« وتود لو حملت سواد قلوبها وسواد أعينها سواد عذار »

وقال محمد بن حاتم :

قد أطلعوا بالدم منها فجرهم فتكورت شمس النهار تعصبا
واستأنفوا بشتاتها بحرا ، فلو عقدوا نواصيها أعادوا السببا

(٢) اللب بوزن الحبة البحر - والتريب : واحد ترائب الصدر ، وهي موضع القفلة منه - والمعنى لديك فلائد شبيهة بالنجوم تسكن سماء البحر والصدر ملك كما تسكن الدجوم السماء - وأمثال النجوم بالنصب حال من فلائد السكره متقدم عليه ، وهو الذي سوغ مجيء صاحب الحال نكره ، قال ابن مالك :
« ولم ينكر غالبا ذو الحال إن * لم يتأخر » ومن شواهد قوله : « وما لام ، معى مثلها لي لام »
فشلها بالنصب حال من لأم السكره ، ويجوز أن يكون أثنا لابتداء خبره لديك وفلائد بدلا منه .
(٣) الجوراء : نجم يعترض في جور السماء أي وسطه ، شبه قرطها بالجوراء وجنحت أي مالت معربة كأنها طائر يمتد جناحه . يقول أبيبي عن الجوزاء قرطك إذا مالت مغربة لتعيب في الأفق .

(٤) الوشاح : أديم ينسج عريضا ويرصع بالجواهر وتشد المرأة بين طائفيها وكشحيها وتشه الثريا إذا تعرضت أي سارت معوجة بالوشاح المعوجة أثناؤه - وأثناء الوشاح ما أنشأه ، قال اسرؤا القيس :
إذا ما التريا في السماء تعرضت تعرض أثناء الوشاح المعصل
أي أعوجت ولم تستقم في سيرها اعوجاج ما أنشأ من الوشاح على جارية اتشدت به .

وَلَطَمًا أَبَدَيْتِ إِذْ حَيَّيْتِنَا كَفَّاهِ الْخَضِيبُ خَضِيبًا

أُظْنِنَتْ ، دَعَوَى الْبَرَاءَةِ شَأْنَهَا أَنْتِ الْعَدُوُّ فَلِمِ دُعَيْتِ حَيِّبًا (١)
مَا بَالُ خَدِّكَ لَا يَرَالُ مُضَرَّجًا يَدَمٍ وَلَحْظُكَ لَا يَرَالُ مُرِيًّا (٢)
لَوْ شِئْتُ مَا عَذَّبْتُ مُهْجَةَ عَاشِقٍ مُسْتَعَذِّبٍ فِي حُبِّكَ التَّعْذِيبَا
وَلَزُرْتِهِ - بَلْ عَذَّبْتِهِ - إِنَّ الْهَوَى
مَا الْهَجْرُ إِلَّا الْبَيْنُ لَوْلَا أَنَّهُ لَمْ يَشْخُ فَاهُ بِهِ الْغُرَابُ نَعِيًّا (٣)

(١) يا متهمة بقتل الماشقين يا محضوبة الكلب بدمائهم أنت العدو فكيف دعوت نفسك حياء .

(٢) مثله قول الحميري :

« عيناك قد اعترفا بدمي وعلى خديك تورد »

(٣) شحا فاه بشجوه : متجه ، والعيب والنقاب : صوت الغراب ، وانعى : ما الهجر إلا البين إلا أن الغراب في هذه المرة - لم يفتح فاه ليندسنا بذلك المجر المميت ، والعيب ندير المراء عند العرب ، ويسمون الغراب الأبقع غراب البين ، ول عنقرة :

« طعن الذين فراقهم أتوقع وحرى بينهم الغراب الأبقع »

وقال نابغة البدياني :

« زعم الأُحبة أن رحلتهم غذا لا مرحبا بعد ، ولا اهلا »
وبذلك تنعب الغراب الأسود إن كان تمزيق الأُحبة في عد »

وقال قيس ابن ذريح :

« الا يغراب البين ، قد طرت بالدي وأنت لو أبانتها : قبلي اسلمي
وقد المرى : « نبي من الغراب ليس على شرع »
أسدته في صرجه ، وقد امترت
وقال في رثاء الشريف المرتضى :

« من شاعر لا ين مال قصيدة رثى الشريف على روى القاف »

لأن آخر هذه الأبيات التي لاحظنا بها إلى تفصيلها .

وقد شد أحد الشعراء بأنكى باللائمة على من ذهب هذا المذهب الخاطيء في ذم الغراب ، وبرأه من تهمة التفريق ، فقال :

والناس يلحون غراب البين لما جهلوا
وهل غراب البين إلا ناقة أو جل
وما على طهر غراب البين تطوى الرحل

وَلَقَدْ قَضَىٰ فِيكَ التَّجَلُّدُ نَجْبَهُ فَتَوَىٰ وَأَعْقَبَ زَفْرَةً وَنَحِيًّا
وَأَرَىٰ دُمُوعَ الْعَيْنِ لَيْسَ لِفَيْضِهَا غَيْضٌ إِذَا مَا الْقَلْبُ كَانَ قَلِيًّا

* * *

مَالِي وَلِلْأَيَّامِ لَبِجٌ مَعَ الصَّابَا عُدْوَانُهَا فَكَسَا الْعِذَارَ مَشِيبَا
مَحَقَّتْ هِلَالَ السَّنِّ قَبْلَ تَمَامِهِ وَذَوَىٰ بِهَا غُصْنُ الشَّبَابِ رَطِييَا
لَا لَمْ بِي مَا لَوْ أَلَمْ بِشَاهِقٍ لَأَنْهَالَ جَانِبُهُ فَصَارَ كَثِيْبَا^(١)
فَلَنْ تَسْمِنِي الْحَادِثَاتُ فَقَدْ أَرَىٰ لِلْجَفْنِ فِي الْعَضْبِ «الطَّرِيرِ نُدُوبَا»^(٢)
وَلَنْ عَجِبْتُ لِأَنْ أَضَامَ «وَجْهَوْرٌ» نِعَمَ النَّصِيرِ لَقَدْ رَأَيْتُ عَجِيْبَا
مَنْ لَا تُعَدِّي النَّائِبَاتُ لِجَارِهِ زَحْفًا وَلَا تَمْشِي الضَّرَاءُ دَيْبَا^(٣)
مَلِكُ أَطَاعَ اللَّهَ مِنْهُ مُوَفَّقٌ مَا زَالَ أَوَّابًا إِلَيْهِ مُنِيْبَا
يَأْتِي رِضَاهُ مُعَادِيَا وَمُوَالِيَا وَيَكُونُ فِيهِ مُعَاقِبَا وَمُشِيْبَا
مُتَمَرِّسٌ بِالذَّهْرِ يَقْعُدُ صَرْفُهُ إِنْ قَامَ فِي نَادِي الْخُطُوبِ خَطِيْبَا

- (١) المعنى : لقد نزل بي مالو رمل بجبل شامق لسقط جانبه فصار كثيبا مهيبا أى رملا قد هيل وانتثر — وهو مأخوذ من قوله تعالى « يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيبا »
- (٢) تسمى : أى تجتمع مكروها من قولهم سامه حسفا إذا أولاه إياه وأراده عليه — والجفن : النعمد — والعضب : السيف — والطير : القاطع — والندوب : جمع ندب بفتحين وهو فى الأصل أثر الجرح فى الجسم إذا لم يرتفع عن الجلد — وأراد به هنا أثر الصدا الذى يملو فرند السيف لطول مكته فى النعمد — والمعنى فلن يبرنى طول المسكت فى السجن قال السيف بصدأ بطول المسكت فى الجفن .
- (٣) تعدى : بالتضعيف تحضر وتسرع فى العدو — وزحفا من زحف الجيش — والضراء : من قولهم فلان يمشى الضراء إذا مشى مستخفيا فيما يوارى من الشجر — والديب : مصدر دب النمل والشيخ مشى على هيئته والمعنى : نعم النصير جهور من لا تسرع النائبات إلى جاره رجعا ولا تدب إليه مستخفية .

لَا يُوسَمُ الرَّأْيُ الْفَطِيرُ بِهِ وَلَا
تَأْنِي ضَرَائِبُهُ الضُّرُوبَ نَفَاسَةً
بَسَامُ تَغْرِ الْبَشْرِ إِنْ عَقَدَ الْحُبَا
مَلَأَ التَّوَاطِرَ صَامِتًا وَلَرُبَّمَا
عَقَدَهُ تَأَلَّفَ فِي نِظَامِ رِيَاسَةٍ
يَغْشَى التَّجَارِبَ كَهَلْمُهُمْ مُسْتَغْنِيَا
وَإِذَا دَعَوْتَ وَلِيَدَهُمْ لِعَظِيمَةٍ
يَعْتَادُ إِزْسَالَ الْكَلَامِ قَضِيْبًا^(١)
مِنْ أَنْ تَقِيْسَ بِهِ النُّفُوسُ ضَرِيْبًا^(٢)
فَرَأَيْتَ وَضَاحًا هُنَاكَ مَهِيْبًا^(٣)
مَلَأَ الْمَسَامِعَ سَامِعًا وَمُجِيْبًا^(٤)
نَسَقَ اللَّالِي مَنْجِيْبًا وَمُنْجِيْبًا
بِقَرِيْحَةٍ هِيَ حَسْبُهُ تَجْرِيْبًا
لَبَّاكَ وَرَقْرَاقَ السَّمَاحِ أَدِيْبًا^(٥)

(١) الرأى الفطير : ما فيه عجة وأصله من اختبار المجين قبل أن يحتمر — والقضيب : المفتض من قولهم اقتضب الخطبة والكلام أى أرسلها من غير إعداد وتهئية — والمعنى : أنه لا يندم بسمة العجلة في الرأى ولا يرسل الكلام مفتضاً مرتحلاً من غير إعداد له ورباصة عليه .

(٢) ضرائبه : سجاياه — والضروب : جمع ضرب وهو المثل والشبيه كالضرب ، أى تمنع سجاياه أن يكون له أمثال وأشباه نفاسة بتلك الللال الكريمة أى ضاها وأما من أن تقيس به النفوس ضرباً وشبهها (٣) الحبوة : كبرفة وسدرة تجمع على حباً كدرف وسدر ، والاحتباء أن يضم الجالس رجله إلى بطنه ويجمعهما مع ظهره بثوب وقد يحني يديه ، وهو يقوم مقام إسناد الظهر إلى حائط أو نحوه ، يعنى أنه كثير الابتسام في طلاقة وبشر أن جلس محتبياً فنظرت منه وصاح الجين مشرق الطمة مهيباً .

(٤) المعنى : أنه ملأ التواطير — روعة وهيبة في حال صمته والمسامع حكمة وبياناً سامعاً من الناس ومجيباً قال ابن سام :

قوله : « ملأ التواطير صامتاً » من قول ابن زيدون أيضاً :

اسألها واحمل بكاك - وايا - تخدم الشوق سائلاً ومجيباً

وينظر أيضاً إلى اعط هذا البيت دون معناه قول أبي الطيب :

فدعاك حاسدك الرئيس وامسكوا - ودعاك خالفك الرئيس الأكبرا

خلقت صفاتك في العيون كلامه - كالخط يملأ مسمى من أبصرا

ويلمح أيضاً هذا البيت قول أبي نواس — على ما فسره بعض الناس —

« ألا فاسقنى حمرا وقل لى : هى الحمر » وهذا التفسير فيه أضعف الوجوه ، وبيت بن شرف أشبه من هذه

كلها بيت ابن زيدون ، وهو قوله يمدح صاحب القيروان :

سل عنه وطلق به وانظر إليه تعبد - ملأ المسامع والامواه والقلل

(٥) لباك : أجابك — ورقراق السماح : يريد أن سماحه يترفق أى يجرى كلامه جرياً سهلاً — وأديباً :

لعلها أديباً بالراء المهملة أى طافلاً .

هَمُّ تُنَافِسُهَا النُّجُومُ وَقَدْ تَلَا فِي سُودَدٍ مِنْهَا الْعَقِيبُ عَقِيبًا
وَمَحَاسِنُ تَنْدَى رَقَاتِقُ ذِكْرِهَا فَتَكَادُ تُوهِمُكَ الْمَدِيحَ نَسِيبًا ^(١)
كَالَاسٍ أَخْضَرَ نَضْرَةً، وَالْوَرْدِ أَخْمَرَ بَهْجَةً، وَالْمِسْكِ أَذْفَرَ ^(٢) طِيبًا
وَإِذَا تَفَنَّنَ فِي اللِّسَانِ ثِمَانُوهُ فَافْتَنَّ لَمْ يَكُنِ الْمُرَادُ غَرِيبًا ^(٣)
غَالِيًا بِمَا فِيهِ فَغَيْرُ مُوَاقِعٍ سَرَفًا وَلَا مَتَوَقِّعٍ تَكْذِيبًا ^(٤)

كَانَ الْوُشَاةُ وَقَدْ مُنِيتُ بِإِفْكِهِمْ - أَسْبَاطَ يَعْقُوبٍ وَكُنْتُ الذِّبَا ^(٥)
وَإِذَا الْمَنَى بِقَبُولِكَ الْغَضَّ الْجَنَى هَزَّتْ ذَوَائِبُهَا فَلَا تَشْرِيَا
أَنَاسِيْفُكَ الصَّدَى الَّذِي - مَهْمَا تَشَأْ - تُعِدُّ الصَّقَالَ إِلَيْهِ وَالتَّذْرِيَا ^(٦)
كَمْ ضَاقَ بِي مِنْ مَذْهَبٍ فِي مَطْلَبٍ فَثَنَيْتُهُ فُسُحَ الْمَجَالِ رَحِيَا
«وَزَهَا» جَنَابُ الشُّكْرِ - حِينَ مَطَرَتْهُ - بِسَحَابِ النَّعْمَى - فَرُدَّ خَصِيْبًا ^(٧)

(١) قال ابن بسام :

قوله : « فتَكَادُ تُوهِمُكَ المَدِيحَ نَسِيبًا » من قول أبي تمام :

(٢) أذفر : ذكى طيب الريح .

طاب لك المديح والدحى فاق وصف الديار والنشيبا

(٣) إذا تفنن : أى أطرد مديحه فى اللسان - فافتن : أى أخذ فى فنون وضروب من المدح لم يكن

مراد المادح غريباً لأنه يستعمل من صفاته فيقول .

(٤) مواقع : مدان ، والمتوقع : المنتظر - والمعنى : بالغ مادحه بما فيه من الصفات فلم يكن مدانيها

إفراطاً ولا متخوفاً تكديباً .

(٥) منيت بليت - والافك الكذب والتحديث بالباطل ، يريد انه يرى مما ابلى به من إفكهم براءة

الذئب من دم ابن يعقوب .

(٦) التذريب : التحديد .

(٧) وجد هذا البيت فى الأصل وفى غيره من المطاوع ناقصاً ، والزائدة يعطيها السياق .

* * *

فَتَهَنَّا الْأَعْيَادَ عَادَةً لَا بَسَ يُبْلِي الدَّرِيسَ فَيَسْتَجِدُّ قَشِيبًا ^(١)
وَمَتَى سَعَيْتَ لِنَارِ حِ مَتَعَذِّرْ فَوَجَدْتَهُ سَهْلَ الْمَرَامِ قَرِيبًا ^(٢)
وَأَرَادَ فِيكَ مُرَادَكَ الْقَدَرُ الَّذِي لَا تَسْتَطِيعُ لِحُكْمِهِ تَعْقِيًا

عتاب

أَحِينَ عَلِمْتَ حَظَّكَ مِنْ وَدَادِي وَلَمْ تَجْهَلْ مَحَلَّكَ مِنْ فُؤَادِي
وَقَادَنِي الْهُوَى فَانْقَدْتُ طَوْقًا وَمَا مَكُنْتُ غَيْرَكَ مِنْ قِيَادِي
رَضِيتَ لِي السَّقَامَ لِباسَ جِسْمِ كَحَلَّتْ الطَّرْفَ مِنْهُ بِالشَّهَادِ ^(٣)

* * *

أَجَلْ عَيْنِكَ فِي أَسْطَارِ كُنِّي تَجِدُ دَمْعِي مِزَاحًا لِمَدَادِ ^(٤)
فَدَيْتُكَ إِنِّي قَدْ ذَابَ قَلْبِي مِنْ الشُّكْوَى إِلَى قَلْبِ جَمَادِ

(١) يقال تهنا الطعام وتهنا به كما يقال تعلق الشيء وتعلق به — أي تهنا بالأعياد غير محال فحدثك فيها من إبلاء الثوب الدريس أي الخلق ، ولبس القشيب أي الحديد ، وهذا نظير قوله في البائية .

فأبل وأخلف إنما أمت لاس لهدى الليال الغر وهي ثياب

(٢) ومتى سعيت لعل الأصل ولكم سعيت البت — والذي يظهر أن هذه الأبيات التي خدمت بها هذه القصيدة ومع فيها شيء من التعريب فليحذر .

(٣) يقول : « أحين أيقنت أنني لا أحل أحداً مذكك من قلبي وعلمت أنني أسير هواك حزيتي على ذلك الاحلاس في الحب سفاما وتسهيداً . وما أحل قول المجنون :

وأديتني حتى إذا ما فتنني بقول يحل العزم سهل الأباطح

تاهيت عني حين لالي حيلة وعادرت ما قادرت بين الجوامح

(٤) تأمل في سطور الكتب التي أبعث بها إليك تجد دمي محتفظاً بمدادها .

رثاء فتاة

« قال يرثي ابنة المعتضد المتوفاة قبل وفاته بثلاث »

سَرَّكَ الدَّهْرُ وَسَاءَ قَافِنَ شُكْرًا وَعَزَاءَ (١)
 كَمْ أَفَادَ الصَّبْرُ أَجْرًا وَأَقْتَضَى الشُّكْرُ نَمَاءَ (٢)
 أَنْتَ إِنْ تَأْسَى عَلَى الْمَفْقُودِ إِفَاءً وَاجْتِبَاءَ (٣)
 فَاسْأَلْ عَنْهُ غَيْرَةً وَأَخْشَلِ الرُّدَّاءَ إِبَاءَ (٤)
 أَيُّهَا « الْمُعْتَضِدُ » الْمَنْصُورُ مَلَيْتَ الْبَقَاءَ (٥)
 وَتَزَيَّدْتَ مَعَ الْأَيَّامِ عِزًّا وَغِلَاءَ (٦)
 إِنَّمَا يُكْسِبُنَا الْحُزْنَ نُحْنَاءُ لَا غِنَاءَ (٧)
 أَنْتَ طَبَّ أَنْ دَاءَ الْمَوْتِ قَدْ أَغْيَا الدَّوَاءَ (٨)
 فَتَأْسَى (٩) إِنْ ذَاكَ الْخَطْبُ غَالِ الْأَنْبِيَاءِ
 وَسَيَفْنِي الْمَلَأَ الْأَعْلَى إِذَا مَا اللَّهُ شَاءَ

حَبَّذَا هَدَى عَرُوسٍ دَفْنَهَا كَانَ الْهَيْدَاءُ
 عَمَّرَتْ حِينًا وَمَاءَ الْأَمْزِنِ شَكْلَيْنِ سَوَاءُ

(١) افن : الرم من موفهم ميت حياى أى لرمته ، قال عنتره :

فأحببتها إلت الليسة منهل لايد أن أسقى بذاك المنهل
 فاقى حياهك لا أبالك واعلى أنى امرؤ ساموت إن لم أقتل

والمعى : مراك الدهر وساءك فاشكره على أن مراك وتمز بذلك عما ساءك .

(٢) زيادة . (٣) الاجتباء : الاسطماء .

(٤) ملئت البقاء : متعك الله بالبقاء . (٥) الغلاء : الرمة .

(٦) إنما يكسبها الحزن ألما لا فائدة فيه ولا - يدوى منه .

(٧) أنت طالم خير بأن داء الموت لا دواء له . (٨) اصبر .

ثُمَّ وَلَّتْ قَوَجَـذَنَا أَرْجَ (١) الْمِسْكِ ثَنَاءً
جَمَعَتْ تَقْوَى وَإِخْبَاءً (٢) وَفَضْلاً وَذَكَاءً
سَتَوَفَّى مِنْ جِـهَامِ الْكَوْثَرِ الْمَذْبِ رَوَاءَ (٣)
حَيْثُ تَلَقَى الْأَتْقِيَاءُ الشُّعَدَاءَ الشُّهَدَاءَ

* * *

هَانَ مَا لَاقَتْ عَلَيْهَا أَنْ غَدَتَ مِنْكَ فِدَاءً (٤)
غُتِمَ أَحِبَّابُكَ أَنْ تَبْقَى وَإِنْ عُثُوا فَنَاءً (٥)
فَالْبَسِ الصَّنْعَ مُلَاءً وَأَسْحَبِ السَّعْدَ رِدَاءً (٦)
وَرِثِ الْأَعْدَاءَ أَنْعَمَا وَهُمْ وَالْأَوْلِيَاءَ (٧)

في الغزل

مَا صَرَ لَوْ أَنَّكَ لِي رَاحِمٌ وَعَلَيَّ أَنْتَ بِهَا عَالِمٌ
يَهْنِيكَ يَا سَوْفِي وَيَا مُبْنِيَّ أَنْكَ مِمَّا أَشْتَكِي سَالِمٌ (٨)
تَضَحَّكَ فِي الْحُبِّ وَأَبْكِي أَنَا اللَّهُ - فِيمَا يَبْنِنَا - حَاكِمٌ
أَقُولُ لَمَّا طَارَ عَنِّي الْكَرَى قَوْلَ مُعَنَى قَلْبُهُ هَائِمٌ
« يَا نَائِمًا أَيْقَظْنِي حُبُّهُ هَبْ لِي رُقَادًا أَيُّهَا النَّائِمُ » (٩)

-
- (١) طيب . (٢) الاخبات : الخشوع . (٣) ستروى من ماء الكوثر .
(٤) هون عليها حطب الموت أنها افتدتك بنفسها من الردى .
(٥) إن أحبابك يرون في بقائك أكبر فوز لهم ولو افتدوك بأنفسهم .
(٦) اللام والملاءة : الربطة ذات لفتين ، والمعنى : ارجل في حلل المعروف والسعادة .
(٧) وهبك الله أعمار أعدائك وأسعياتك .
(٨) من أبدع ما فرأناه في هذا المعنى قول الشريف الرضي :
« أهون عليك - إذا امتلأت من الكرى - أنى أبيت بليسة اللبس - ومع »
(٩) يقول : « ليس من العدالة أن تنام وأسهر ، فأنم على بالكرى بعد أن أيقظى هجرتك » .

تهنئة

« وقال يهنئ المعتضد وقد شرب دواء »

أَحَدَتْ عَاقِبَةَ الدَّوَاءِ وَنَلَتْ عَافِيَةَ الشِّفَاءِ
وَخَرَجَتْ مِنْهُ مِثْلَمَا خَرَجَ الحُسَامُ مِنَ الْجِلَاءِ
وَبَقِيَتْ لِلدُّنْيَا قَانُتَ دَوَاوِهَا مِنْ كُلِّ دَاءِ
وَوَرِثَتْ أَعْمَارَ الْمَدَى وَقَسَمَتْهَا فِي الْأَوَّلِيَاءِ (١)
يَا خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْجَيَاءِ دَسَارَ فِي ظِلِّ اللَّوَاءِ
وَأَجْتَالَ يَوْمَ الْحَرْبِ قَدْ مَا وَاحْتَبَى يَوْمَ الْحِبَاءِ (٢)
بُشْرَاكَ عُقْبَى صَحَّةٍ تَجْرِي إِلَى غَيْرِ انْتِهَاءِ
فِي دَوْلَةٍ تَبْقَى بَقَا الدَّهْرِ آمِنَةً الْفَنَاءِ
وَمَسْرُةٍ يُفْضِي بِهَا زَمَنٌ كَحَاشِيَةِ الرِّدَاءِ
وَأَشْرَبَ فَقَدْ لَدَّ النَّسِيمُ وَرَقَّ سَرْبَالُ الْهَوَاءِ
لِنَرَى بِكَ الْبَهْوَ الْمُطِلَّ يَمِيسُ فِي حُلَلِ الْبَهَاءِ
وَبَقِيَتْ مَفْدِيًّا بِنَا إِنْ نَحْنُ جُزْءَنَا فِي الْفِدَاءِ (٣)

(١) قوله : « وقسمتها في الأولياء » يذكرنا قول العباس الأحف :

لو كنت هذا الحب يذ فذفيه حكى أو قضائي
لطنته لجمعت به من كل أرض أو سما
فقسمته بيني وبينه من حبيب نفسي بالدواء
حسنى إذا ما حمى بعا ، والأمر إلى انتهاء
مات الهوى - من عدنا - أو عاش في أهل الوفاء

(٢) أجال : من إجاله القдах في البسر ويناسبه قدما أى فار بالظفر والصر على الأعداد ، واجتال في الحرب وجال بمعنى واحد ويناسبها قدما بضمتين - والتخفيف بالاسكان في مثله جائز - ومعه جال في الحرب يعنى قدما أى إلى الامام ، والحباء : نالكسر العطاء .
(٣) فدتك أعمارنا إن كان يقبل ما هذا الفداء .

تهنئة بفصد

« وقال يهنيه بفصد »

لِيَهْنِكَ أَنْ أُتَحَدَّتْ عَاقِبَةُ الْفُصْدِ فَلِلَّهِ مِنَّا أَنْجَلُ الشُّكْرِ وَالْحَمْدِ
وَيَا عَجَبًا مِنْ أَنْ مَبْضَعٌ قَاصِدٍ تَلَقَّيْتَهُ لَمْ يَنْصَرِفْ نَابِي الْحَدِّ
وَمِنْ مُتَوَلَّى فَعَصِدٍ يُعْنَاكَ كَيْفَ لَمْ يَهْلُهُ عُبَابُ الْبَحْرِ فِي مُعْظَمِ الْمَدِّ
وَلَمْ تَغْشَهُ الشَّمْسُ الْمُنِيرُ شُعَاعُهَا فَيُخْطِئَ فِيمَا رَامَهُ سَنَنَ الْقَصْدِ

مَرَى دُمُكَ الْمُهْرَاقُ فِي الْأَرْضِ فَاسْتَسْت أَفَانِينَ رَوْنِي مِثْلَ حَاشِيَةِ الْبُرْدِ
فِصَادُ أَطَابِ الدَّهْرِ فَالْقَطَرُ فِي الثَّرَى كَمَا طَابَ مَاءُ الْوَرْدِ فِي الْعَنْبَرِ الْوَرْدِ
لَقَدْ أَوْقَتِ الْأَيَّامُ بِعَيْدِكَ نُصْرَةً كَأَنَّكَ قَدْ عَلِمْتَهَا كَرَمَ الْعَهْدِ^(١)
لَدَى زَمَنِ غَضٍّ أُنِيقَ فِرْنَدُهُ^(٢) كَمَثَلِ فِرْنَدِ الْوَرْدِ فِي خَجَلَةِ الْخَدِّ
تُسَوِّغُ مِنْهُ الْعَيْشُ فِي ظِلِّ دَوْلَةٍ مُقَابَلَةً الْأَرْجَاءِ بِالْكَوْكَبِ السَّعْدِ

فَهَبْ إِلَى الْأَذَاتِ مُرْتَرٍ رَاحَةٍ تُجْمُ بِهَا^(٣) النَّفْسُ الْفَيْسَةَ لِلْكَدِ^(٤)
وَوَالِ بِهَا فِي لَوْلُوٍ مِنْ جَنَابِهَا^(٥) كَجِيدِ الْفَتَاةِ الرُّودِ فِي لَوْلُوٍ الْعِقْدِ
وَإِنْ تَدْعُنَا لِلْأُنْسِ - عَنْ أَرْيَحِيَّةٍ - فَفَدَّ يَا نَسُّ الْمَوْلَى إِذَا أُرْتَاحَ بِالْعَبْدِ

(١) يقال وى بالعهد أوى بالعهد وكلاهما تعنى واحد قال تعالى « وأودع بهد الله » ومعنى البيت لقد طاهدتك الدنيا على البصرة وومت بالعهد ولم تنقضه فكأنك قد علمتها الوفاء وكرم العهد .

(٢) أبقى الوشى . (٣) ترتاح بها .

(٤) تجم : يقال جمت وأجمها هو أى تركها تستجمع ما فقدته ، والمعنى : انشط إلى اللذات متصلا الراحة قليلا ، وارك نفسك تستجمع ما فقدته من قوتها انفسان الكد والعمل لمهام الدولة .

(٥) الجناب : الناحية وما قرب من محلة العوم .

في مدح ابن جهور

- مَا طُولُ عَذْلِكَ الْمُحِبِّ بِنَافِعِ - ذَهَبَ الْفُؤَادُ فَلَيْسَ فِيهِ بِرَاجِعِ^(١)
 فَتَدَّتْ حِينَ طَمِعَتْ فِي سُلوَانِهِ - هَيْهَاتَ لَا ظَفَرَهُ هُنَاكَ لِطَامِعِ^(٢)
 فَدَعِيهِ خَيْثُ يَطُولُ مَيْدَانُ الصَّبَا - كَيْمَا يَجُرُّ بِهِ عِنَانُ الْخَالِعِ^(٣)
 مَاذَا يَرِيكَ مِنْ فَتَى عَزِّ الْهُوَى - فَعَمَّا لِنَخْوَتِهِ بِذِلَّةٍ خَاضِعِ^(٤)
 هَلْ غَيْرَ أَنْ مَحْضَ الْوَفَاءِ لِعَادِرِ - أَوْ غَيْرَ أَنْ صَدَقَ الْوَصَالُ لِقَاطِعِ^(٥)
 لَمْ يَهْوَ مَنْ لَمْ يُنْسِ قُرَّةَ عَيْنِهِ - سَهَرُ الصَّبَابَةِ فِي خَلِيٍّ هَاجِعِ^(٦)
 وَاهَا لِأَيَّامٍ خَلَّتْ مَا عَزَّ ذُهَا - فِي حِينَ ضَيَّعْتَ الْعُهُودَ - بِضَائِعِ^(٧)
 زَمَنْ كَمَا رَاقَ السَّقِيطُ مِنَ النَّدَى - يَسْتَنُّ فِي صَفَحَاتٍ وَرْدٍ يَانِعِ^(٨)
 أَيَّامٍ إِنْ عَتَبَ الْحَبِيبُ - شَفَعَ الشَّبَابُ فَكَانَ أَكْرَمَ شَافِعِ^(٩)

- (١) العذل : اللوم ، والمعنى : لا تمل عليه فليس العذل نافع مما ذهب فؤاده مع من يرواه فليس يرجعه كثرة الاوم والتميع . (٢) فتدت : أى نسبت إلى السكذب وسعت الرأى حين تطمعين في سلو محب يبعد كل البعد أن يظفر طامع في سلوانه بظائل .
 (٣) الخالع : من خلع الفرس عذاره ألقاه عن نفسه فعدا بشر ، وهو مثل يضرب لمن أطلق من قيده ، يقول : اتركه وشأنه في الهوى حيث يتسع له مجال الصبا ، وسراح الشاب ، كي يطلق لنفسه العنان في اللهو والمرح . (٤) ماذا يريك : ماذا تكرهينه ويسوءك من فتى ، أو أى شئ يجعلك منه في ريبه وشك ، وعما : خضع وأطاع ، والنخوة : العظمة ، والكبر ، وهذا البيت يذكرنا بقول الشريف الرضى : « لو حيث يستمع السرار وقعتما لعجتما من عزه وحضوعي »
 (٥) معناه : هل يعرف غير محسن الوفاء لمن غدر ، وحسن الصلة لمن هجر .
 (٦) لم يذق طعم الهوى من لم يكن سهر الصبابة في خلى تأم حبيباً إلى نفسه ، وقررة لعينه .
 (٧) واهما : كلمة يتمحب بها من طيب الشيء وحسنه ، والمعنى : ما عهد تلك الأيام التي تروق بهجتها بضائع عندى في حين ضيعت أنت كل العهود .
 (٨) راق : أعجب ، والسقيط : ماسقط من الندى على الزهر ، ويستن : ينصب كالدمع في صفحة الورد
 (٩) قريب من هذا المعنى قوله في مطلع بائته :

أما علمت أن الشفيع شباب
 علام الصبا غنى يرف رواؤه
 فبقصر عن لوم المح عتاب
 إذا عن من وصل الحسان ذعاب

مَالِي وَلِدْتُ نِيًّا غُرِزْتُ مِنْ الْمَنَى فِيهَا بِيَارِقَةٍ السَّرَابِ الْخَادِعِ
مَا إِنْ أَزَالَ أَرْوْمُ شُهْدَةٍ عَاسِلٍ أَنْحَى مُجَاجَتَهَا بِإِبْرَةِ لَا سَعِ^(١)

مَنْ مَبْلُغٌ عَنِّي الْبِلَادَ إِذَا نَبَتْ أَنْ لَسْتُ لِلنَّفْسِ الْأَلُوفِ بِبَاخِعِ^(٢)
أَمَّا الْهُوَ أَنْ فَصَنْتُ عَنْهُ صَفْحَةً أَغْشَى بِهَا حَدَّ الزَّمَانِ الشَّارِعِ^(٣)
فَلَيْزُ غِمِّ الْحَظِّ الْمَوْلَى أَنَّهُ وَلَّى فَلَمْ أَتَّبِعْهُ خُطْوَةً^(٤) تَابِعِ
إِنَّ الْغِنَى لَهُوَ الْقَنَاعَةُ لَا الَّذِي يَشْتَفُ نُظْفَةً مَاءَ وَجْهِ الْقَانِعِ^(٥)

اللَّهُ جَارُ « الْجَهْوَرِيِّ » فَطَالَمَا مُنِيتُ^(٦) صَفَاءُ^(٧) الدَّهْرِ مِنْهُ بِقَارِعِ

(١) شهدة : باعم والفتح واحدة الشهد وهو العسل مادام لم يمصر من شمعته ، والعاسل : الذي يشتار العسل أى يأخذه من الخلية ، والمجاجة : ما يجهجه الحبل من العسل ، وبين « عاسل » و « لاسع » حساس القلب ، والمعنى : مارلت أطلت من الدنيا أملا يحكى مجاجة طائل حتمها ليرة لاسع .

(٢) نبت : لم يوافق المقام بها قال : « وإذا نبا بك منزل فحول » ، وباحع : مزهق نفسى وقائلها محما والمعنى : من يبلغ عى ساكى تلك البلاد التي نزحت عنها مع سدة تعلق بها أى لسب بقائل نفسى أسفا ومحما على مشارفتها إذا نبت بى ولم توافنى الإقامة فيها ، وفى معنى التحول عن منزل الصيم بقول شار : إذا أمكرتنى لدة أو نكرتها خرجت مع البازى على سواد

أى على بقية من سواد الليل .

(٣) الشارِع : من شرع نحوه حد السيف أو الرمح وأشرعه سده له وهو الظاهر مول الآخر : تعرض للطعان إذا التقيا وحوها لا تعرض للسباب

(٤) بالضم ما بين القدمين وتجمع على خطا وخطوات .

(٥) النظفة الماء : القليل ، ويشتمها : يضرها عن آخرها ، يقال اشتب فى شربه إذا أتى على آخر ما فى الإناء فلم يستر ، والمراد هنا أنه يريقها كلها عند السؤال ، والقانع : السائل ، وفى الكتاب العزيز « وأطعموا القانع والمعتر » وهو من قنع - بالفتح - قنونا إذا سأل ، لامن قنع - بالكسر - قناعة إذا رضى ولم يرق ماء وجهه بهذا السؤال ، يقول أن الغنى عى النفس بالقناعة لا غنى المال الذى يستغنى فيه السائل ماء وجهه ، ويشتم آخر قطرة من حياته .

(٦) ابتليبت .

(٧) الحجر العريض الأملس ويجمع على صفا .

مَلِكٌ دَرَى أَنَّ الْمَسَاعِيَ مُنْعَمَةٌ فَسَعَى فَطَابَ حَدِيثُهُ لِلْسَّامِعِ
 شِيمٌ هِيَ الزَّهْرُ الْجَنِيُّ تَبَسَّمَتْ عَنْهُ الْكَمَامُ فِي الضَّحَاءِ^(١) الْمَاتِعِ^(٢)
 أَغْرَى مُنَافِسَهُ يُدْرِكُ شَأُوهُ فَشَاءَهُ بِالْبَاعِ الطَّوِيلِ الْوَاسِعِ^(٣)
 ثَبَّتُ السَّكِينَةَ فِي النَّدَى كَأَنَّمَا تِلْكَ الْحَبَا لِيَثَّتْ بِهَضْبِ مَتَالِعِ^(٤)
 عَذَبُ الْجَنَى لِلْأَوْلِيَاءِ فَإِنْ يَهْجُ فَالَسَّمُ يَا بَنِي أَنْ يَسُوغَ لِحَارِجِ



يَأْيُهَا الْمَلِكُ الَّذِي حَاطَ الْهُدَى لَوْلَاكَ كَانَتْ حَمَى قَلِيلِ الْمَانِعِ
 أَنَسَ الْأَنَامُ إِلَيْكَ فِيهِ ، فَهَمُّ بِهِ مِنْ قَائِمٍ أَوْ سَاجِدٍ أَوْ رَاكِعِ
 مُتَبَوِّثُونَ جَنَابَ عَيْشٍ مُوْتَقٍ مُتَفَيِّثُونَ ظِلَالِ أَمْنٍ شَائِعِ
 فَلْتَضْرِبَنَّ مَعَهُمْ بِأَوْفَرِ شِرْكَةٍ فِي أَجْرِهِمْ مِنْ مُوْتِرٍ أَوْ شَافِعِ
 خَيْرُ الشُّهُورِ اخْتَرْتُ عِنْدَ طُلُوعِهِ خَيْرَ الْبَقَاعِ لَهُ بِأَسْعَدِ طَالِعِ^(٥)

(١) النهار قبل انتصافه بقليل وزمنه بعد زمن الضحى .

(٢) المرتفع .

(٣) الشأو : الطلق والشوط والماية ، وشأه : سبقه .

(٤) الندى : المجلس ، والحا : بالضم والكسر جمع حبوه وهي أن يجمع الجالس ساقيه إلى بطنه بيديه أو يجمع ظهره وساقيه بثوب ، والاحتباء من طاعة العرب وهو يمنع الجالس من السقوط ويعنيه عن الجدار الذي يسد إليه ظهره ، وليت : لمت وطويت حوله كما تطوى العمامة ، والمعنى : أنه وفور في مجلده رانط الجأش كأنما شددت تلك الحبا منه على طود من الصخر تنحدر عنه مسايل الماء .

(٥) يقول إن شهر الصيام وهو خير الشهور قد اخترت له خير البقاع عند طلوعه بأسعد طالع .

شكر

« وقال أيضا وقد أباح له المعتضد التنزه مع حرمه في إحدى جناته . »

غَمَرَتْني لَكَ الأيادي ^(١) البِيضُ نَشَبَ ^(٢) وَافِرٌ وَجَاهُ عَرِيضُ
كُلَّ يَوْمٍ يَجِدُ مِنْكَ أَهْتِيَالٌ ^(٣) ، عَهْدُ شُكْرِي عَلَيْهِ غَضُّ عَرِيضُ ^(٤)
بَوَّأْتَنِي ^(٥) نِعْمَاكَ جَنَّةَ عَدْنٍ جَالَ فِي وَصْفِهَا فَضْلُ الْقَرِيضُ
مُجْتَنِي مُدْنٍ ، وَظِلُّ بَرُودٍ ، وَنَسِيمٌ يَشْفِي النُّفُوسَ - مَرِيضُ ^(٦)
وَمِيَاهُ قَدْ أَخْجَلَ الْوَرْدَ أَنْ عَا رَضَ تَذْهِيئَهُ لَهَا تَفْضِيضُ
كُلَّمَا غَنَّتِ الْحَمَامُ قُلْنَا : « مَعْبِدٌ إِذْ شَدَّ أَجَابَ الْغَرِيضُ ^(٧) »

(١) النعم . (٢) النشوب : المال والمقار . (٣) غم .

(٤) الغريض : ماء العطر ، وكل أبس طرى ، والمعنى : إني أطعمك كل يوم نعم جديد أقابله منك

شكر جديد . (٥) أحلتني أو أنزلتني أو أسكنتني .

(٦) يصب الحنة التي أحلها فيها ممدوحه بأن قطوفها دانية وطلها ظليل ونسيمها عليل يشي النفوس .



(٧) معبد والغريض

هذان من أعلام الموسيقى العربية وقد كانا متعاصرين ، وقد ذاع صيتهما حتى أصبحا مضرب الأمثال في إحادة البناء والافتتان فيه ، وقد كان معبد يقدر نوع الغريض ويشيد به ، كما يدل على ذلك قصة تعارفهما التي تترك لمعد روايتها بأسلوبه الممتع ، قل :

« خرجت إلى مكة في طلب إفاء العريض ، وقد بعني حسن غنائه في لحنه :

وما أس ملاً شياء لا أس شادنا بئكة مكحولاً أسسبلاً مداهمه

وقد كان ماعى أنه أول لحن سمعته ، وأن الحان نهته أن يعنيه لأنه متن طائفة منهم فانتقلوا عن مكة من أجل حسنه وفي هذا التمهيد ما يدل على تصويرهم واعتقادهم في ذلك العصر ، فقد سحرتهم ألحان الغريض فانسوا إليها المعزات وأنشأوا حولها الأساطير .

قال معبد :

فلما قدمت مكة سألت عنه فذات على منزله فأتيته ، ففرع الباب ، فما كلمني أحد ، وسألت بعض الجيران فقلت : هل في الدار أحد ؟ فقال لي : نعم فيها الغريس ، فقلت : إني ود أكثر ذق الباب فما أجابني أحد قالوا : إن الغريس هناك ، فرجعت فذقت الباب ، فلم يحسن أحد ، فقلت : إن نعي غنائى يوما نفعي اليوم فاندفعت وسيت لحنى في سمر جيل ، فوالله ما سمعت حركة الباب ، فقلت : بطل سحرى ، وساع سمرى وحثت أطلب ما هو عسير على واحتقرت نسي ، وقلت : لم يتوهى لصعب غنائى عنده ، فما شعرت إلا صباح يصبح يا معبد المعنى ، اهدم وتلق عى ، سمر جيل الذى تنى فيه ياشقى البغف ، وغى :

« وما أنس مل أشياء لا أس قولها . . . »

(قال) فلقد سمعت شفا لم اسمع أحسن منه وقصر إلى نسي وعلمت فسيلته على بما أحسن من نفسه ، وقلت : انه لحرى بالاستتار من الناس تنزيها لنفسه وقهطيا لهدره وان مثله لا يستحق الاتدال ، ولا ان تتداوله الرجال ، فاردت الانصراف إلى المدينة واجما ، فلما كنت غدير بعيد إذا بصباح يصبح بى :

يا معبد انظر أ تلك فرجعت ، فقال : إن الغريس يدعوك ، فأمرع فرحاً فدنوت من الباب . فقال لي :

آتبح الدخول ، فقلت : وهل إلى ذلك من سبيل ، ففرع الباب ففتح ، فقال لي : ادخل ولا تطل الخلوس فدخلت فاذا شمس طالعة في بيت ، فسلمت فرد السلام ثم قال : اجلس فجلست ، فاذا أنزل الناس وأحسنهم وجهاً وخلقا وخلقا ، فقال : يا معبد كيف طرأت إلى مكة ، فقلت : حملت بداءك وكيف عرفتى ؟ فقال : بصوتك فقلت : وكيف وأنت لم تسمعه بط ؟ قال : لما غنيت عرفتك به وقلت : إن كان معبد في الدنيا فهذا ، فقلت : جعلت فداك فكيف أجتى بقولك : « وما أنس مل أشياء لا أس قولها » ، فقال :

قد علمت أنك تريد أن أسمعك صوتى :

« وما أنس مل أشياء لا أنس شاذنا بكة مكحولاً أسيراً مدامعه »

ولم يكن إلى ذلك سبيل لأنه صوت قد نهيت أن أغنيه فغنيتك هذا الصوت جواباً لما سألت وغنيت ، فقلت : وافة ما عدوت ما أردت بهل لك حاجة ، فقال لي : يا أبا عباد لولا ملاة الحديث وتغل إطالة الجلوس لا ستكثرت منك فاعذر ، فخرجت من عنده وأنه لأجل الناس عندي ورجعت إلى المدينة ، فتحدثت بحديثه وحببت من فطنته وقيافته ، فما رأيت انساناً إلا وهو أجل منه فى عى .

✱ ✱

ومما تختاره من أخبار معبد الطريفة ما حدث له فى السفينة ، فقد رووا عنه أنه كان قد علم الغناء حارية من جوارى الحجاز تدعى ظبية وهى بتخريجها ، فاشتراها رجل من أهل العراق فأخرجها إلى البصرة وباعها هناك فاشتراها رجل من أهل الأهواز فأعجب بها وذهبت به كل مذهب وغلت عليه ، ثم ماتت — بعد أن أقامت عنده برهة من الزمان — وأخذ جواريه أكثر غنائها عنها ، فكان لمحبتة

أيها وأسفه عليها لا يزال يسأل عن أخبار معبد وأين مستقره ويظهر التعمص له والميل إليه والقديم لعنائه على سائر أعاني أهل عصره إلى أن عرف ذلك منه وبلغ معبدًا خبره فخرج من مكة حتى أتى البصرة ، فلما وردها صادف الرجل وقد خرج عنها في ذلك اليوم إلى الأهواز فاكترى سفينة ، وجاء معبد يلتبس سفينة ينحدر فيها إلى الأهواز فلم يجد غير سفينة الرجل ، وليس يعرف أحد منهما صاحبه ، فأمر الرجل الملاح أن يجلسه معه في مؤخر السفينة ففعل وانحدروا ، فلما صاروا في قم نهر الأبله تغدوا وشربوا وأمر جواريه فغنين ومعبد ساكت وهو في ثياب السفر وعليه فروة وخفان غليظان وزى جاف من زى أهل الحجاز إلى أن غنت إحدى الحواري :

بانت سعاد وأمسى حبلىها انصرما واحتلت المور فالأجراع من إضما

(والفناء لمعبد) فلم تجد أداءه فصاح بها معبد : يا جارية إن غناءك هذا ليس بمستقيم (قال) فقال له : ولاها - وقد قصب - أنت ما يدريك الغناء ؟ ما هو إلا أن تمسك وتلزم شامك فأمسك ، ثم غنت أصواتاً من غناء غيره وهو ساكت لا يتكلم حتى غنت « يا بنة الأزدي فلي كئيب . . . » (والفناء لمعبد) فأخلت ببعضه ، فقال لها معبد : يا جارية لقد أخلج بهذا الصوت إحلالاً شديداً . فغضب الرجل وقال له : ويحك ما أنت والفناء ، ألا تكف عن هذا الفضول . فأمسك ، وغنى الحواري ملياً ثم غنت إحداهن :

خليل عوجاً منكما ساعة ممي على الربيع بقضى حاجة ونودع

(والفناء لمعبد) فلم تصنع فيه شيئاً ، فقال لها معبد : يا هذه أما تقوين على أداء صوت واحد ؟ فمعبد الرجل وقال له : ما أراك تدع هذا الفضول بوجه ولا حيلة ، وأقسم بالله لئن عاودت لأخرجك من السفينة فأمسك معبد حتى إذا سكنت الجواري سكنت اندفع بعنى الصوت الأول حتى مرغ منه ، فصاح الجواري : أحسن يا رجل فأعده ، فقال : لا والله ولا كرامة ، ثم اندفع بعنى الثاني ، فقالن لسيدتهن : ويحك هذا والله أحسن الناس غناء فسله أن يعيده علينا ولو مرة واحدة لعنا نأخذه عنه فانه إن فاتنا لم نجد مثله أبداً فقال : قد سمعت سوء رده عليكن وأنا خائف مثله منه وقد أسلفناه الاساءة فاسبرن حتى نداريه ، ثم غنى الثالث فزلزل عليهم الأرض ، فوثب الرجل فخرج إليه وقبل رأسه ، وقال : يا سيدي أخطأنا عليك ولم نعرف موضعك ، فقال له : بهبك لم تعرف موسى قد كان ينبئ لك أن تتئب ولا تسرع إلى بسوء العشرة وجفاء القول . فقال له : قد أخطأت وأنا اعتذر إليك مما جرى وأسألك أن تنزل إلى وتختلط بي ، فقال : أما الآن فلا . فلم يزل يرفق به حتى نزل إليه ، فقال له الرجل : ممن أخذت هذا الغناء . قال : من بعض أهل الحجاز ، فن أين أخذته حواريك ، فقال : أخذته عن جارية كانت لي ابتاعها رجل من أهل البصرة من مكة ، وكانت قد أخذت عن أنى عباد معبد وعنى بتخريجها فكانت تحلّ منى محل الروح من الجسد ، ثم استأثر الله عز وجل بها وبقي هؤلاء الحواري وهن من تعليمها فأنا إلى الآن اتمصب لمعبد وأفضله على المعنين جميعا وأفضل صنفته على كل صنعة . فقال له معبد : أو إنك لأنب هو افتعرفني ؟ قال : لا (قال) فصك معبد بيده صلته ، ثم قال : فأنا والله معبد وإليك قدمت من الحجاز ووافيت البصرة ساعة نزل السفينة لأفصذك بالأهواز والله لا قصرت في حواريك هؤلاء ولأجملن لك في كل واحدة منهن خلفاً من الماضية ، فأكب

الرجل والجواري على يديه ورجليه يقبلونها ويقولون : كتمتنا نفسك طول هذا حتى جفوناك في المخاطبة وأسأنا عشرتك وأنت سيدنا ومن تمنى على الله أن تلقاه . ثم غير الرجل زيه وحاله وخلع عليه عدة خلع وأعطاه في وقته ثلثمائة دينار وطيبا وهدايا بثلثها وانحدر معه إلى الأهواز فأقام عنده حتى رضى حذق حواريه وما أخذنه ، ثم ودعه وانصرف إلى الحجاز .

✱ ✱

وقد روى أبو الفرج قصة قدوم معبد إلى مكة وسماعه من المعنين وغناؤه لهم فقال :

قال . معبد : غيب فأعجبني ضائي وأعجب الناس وذهب لي به صيب وذكر ، فملك : لآتين مكة فلا سمعن من المعنين بها ولأعزبنهم ولأتمرفن إليهم ، فابتعت حمارا فخرحب عليه إلى مكة ، فلما قدمتها بع حماري وسأل عن المدينين ابن بجمعون ، فقبل : بقميتمان في بيت ملان جئت إلى منزله بالملس فقرع الباب ، فقال من هذا ، فملك : انظر طاماك الله ، فمدنا وهو يسمج ويستعيز — كأنه يخاف — ففتح ، فقال : من أنت طاماك ، الله ؟ قل : رجل من أهل المدينة . قال : فما حاجتك ؟ قل : أنا رجل أشتهى الغناء وأرعم أن أعرف منه شيئا وقد باسي أن القوم يجتمعون عندك وقد أحب أن تنزلي في جانب منزلك وتخلطي بهم فانه لا مؤونة عليك ولا عليهم مني ، فتلوى شيئا ثم قال : أنزل على بركة الله (قال) فقبل . فتلوى فتنزل في جانب حجرته ثم جاء القوم حين أسبحوا واحدا بعد واحد حتى اجتمعوا فأذكروني ودلوا : من هذا الرجل . قل : رجل من أهل المدينة حبيب يشهى الغناء ويطرب عليه ليس عليكم منه عناء ولا مكروه . فرحبوا بي وكلمتهم ثم ابسطوا وشربوا وعنوا فجعلت أعجب بسائهم وأطهر ذلك لهم وبمعجبهم مني حتى أقام أياما وأخذت من غنائهم وهم لا يدرون أصواتا وأصواتا وأصواتا ، ثم دل لأن صريج : مديتك امسك على صوتك :

قل لهسد وتربها قبل شحط النوى عدا

قال : أو تحسن شيئا ، فملك : تنظر وصي أن أصنع شيئا . واندفعت فيه ومنيته فصاح وصاحوا ودلوا : أحسب فأنلك الله . قل : فأمسك على صوت كذا فامسكوه على ومنيته فازدادوا عجباً وصياحا . فاستركت أحداً منهم إلا غنائه من غنائهم أصواتاً قد تحجرتها (قال) فصاحوا حتى علب أصواتهم وهرقوا بي ، وقالوا : لأن أحسن بأداء غنائنا عنا منا ، قل : فامسكوا على ولا تصحكوا بي حتى تسمعوا من غنائى ، فامسكوا على فعبت صوتنا من غنائى فصاحوا بي ثم غنيتهم آخر وآخر فوثبوا إلى وقالوا : نحب بالله إن لك لصيتنا واصبا وذكراً وإن لك فيما عايناهما لهما عظيماً فن أن ؟ قل أنا معبد فقبلوا رأسي وقالوا : لبعث علينا وكنا نهابون بك ولا نعدك شيئا وأنت أنت . فأقت عندهم شهرا آخذ منهم وبأخذون مني ثم انصرفت إلى المدينة .

✱ ✱

ومن الطرف النادرة ما حدث لمعبد والأسود .

قال معبد : بعث إلي بعض أسراء الحجاز وقد كان جمع له الحرمان إن اشخص إلى مكة فشخصت ، قال : فتقدمت غلامى في بعض تلك الأيام واشتدت على الحر والمعش فانتبهت إلى خباء فيه أسود ، وإذا حباب

جَاوَرَتْ حَمَّةٌ ^(١) مُشَيَّدَةً الْمُبَنَّى لِزَبْقِ الرَّخَامِ فِيهِ وَمِيضُ
مَرْمَرٍ أَوْقَدَ الْفَرْنَدَ ^(٢) عَلَيْهِ سَلْسَلُ بَحْرُهُ الزُّلَالُ يَفِيضُ
وَسَطَهَا دُمِيَّةٌ يَرُوقُ أَجْتِلَاةً الْكُلُّ مِنْهَا وَيَفْتِنُ التَّبَعِيضُ ^(٣)

ماء قد بردت قلت إليه قلت : يا هذا اسقى من هذا الماء ، فقال لا ، قلت : فأذن لي في الكن ساحة
قال : لا ، دأبت نائتي ولحأت إلى ظلها فاستترت به ، وقلت : لو احدثت لهذا الأمير شيئاً من العناء أقدم
به عليه ولعلني إن حررت لساني أن يبل حاقى ريقى فيحف عني بعن ما أجده من العناء. فترنمت بصوتي :
« القصر والجل دلتها بينهما » فلما سمعني الأسود ما سعرت به إلا وقد احتملى حتى ادخلني خنامه ثم قال
إي مأبى أنت وأىء حل لك في سويق السلت بهذا الماء البارد ، قلت : قد منعتي أبل من ذلك وشربة ماء
تجوزني (قال) فسفاني حتى روي وحاء العلام فأثقت عنده إلى وقت الرواح ، فلما أردت الرحلة قال : إي
مأبى أنت وأىء الحرة شديد ولا آمن عليك منى الذى أصالك فأذن لي أن أحمل معك قربة من ماء على هتقى
وأسمى بها معك بكلمة عطشت سقيتك وغببتى صوتاً (قال) قلت : ذلك لك ، فوالله ما فارقتني
يسقيى واعيه حتى بلغت المنزل .

وأخبار معدد والعريض طويلة متفرقة في كتاب الأغاني طبرجرح إليها من شاء .

(١) الحمة — بالفتح — المين الحارة الماء يستشفى بها الأعداء ومنه الحديث : « مثل العالم كمثل الحمة
يأتينا السعداء ويتركتها القراء ، فمنها هي كذلك إذ عار ماؤها وقد اسبع بها قوم ونقى أروام يتكفون أى
يندمون » والحمة مدينة ذات ينابيع معدة حارة واردة بالقرب من مدينة « لوشة » ومد زارها « ابن بطوطة »
ودخل مسجدها ووصف ما فيها من صيد البر والبحر ، والحمة — أيضاً — اسم لمدين أخرى ذات ينابيع
معدية حارة في إقليم « غرناطة » وإقليم مرسية وغير ذلك ، وحة غرناطة ، وتسمى مدينة الحمة عند
أهل غرناطة .

(٢) الفرند : السيف ووشيه وجوهره ، وهو ما يرى فيه شبه غبار أو مدب نخل ، والفرند : الورد
الأحمر أيضاً .

(٣) أحد هذا المعنى من قول ابن الرومى في وحيد المعية :

وغرير بحسبها قال : « معها » قلت : « أمران ، حين وشديد .

يسهل القول : إنها احسن الأشاء . ياء طراً ويصعب التحديد »

وفى هذه التفسيره يقول :

عاده زانها — من العن — قد ومن الطي مقلتان وحيد
ورهاها من فرعها ومن الحدين داك السوداء والوربد
هي برد — بعداها — وسلام وهي لعمادتين جهد — هيد
مالما عطليه — من وحناتها — غير ترشاف ريقها تبريد
مثل داك الرصاب أفعأ داك الوجود ، لولا الالباء والتصريد

وفيا يقول : تتحلى للناظرين إليها فتشقى بحسبها وسعيد

طلبه — تسكن القلوب وترها ها — وقرية لها تمريد

بَشَرٌ نَاصِغٌ وَخَدُّ أَسِيلٌ وَمُحْيَا طَلَقٌ وَطَرَفٌ غَضِيضٌ
وَقَوَامٌ كَمَا اسْتَقَامَ قَضِيبُ الْبَابِ إِذْ عَلَهُ ^(١) ثَرَاهُ الْأَرِيضُ ^(٢)
وَأَبْتَسَامٌ لَوْ أَنَّهَا اسْتَعْرَبَتْ فِيهِ أَرَاكَ اتِّسَافَهُ الْإِغْرِيبُ ^(٣)
وَالْتِفَاتٌ كَأَنَّهَا هُوَ بِالْإِيحَاءِ - مِنْ فَرَطٍ لُطْفِهِ - تَعْرِيبُ

* * *

لَمَعَ طَلَّةٌ مِنَ الْعَيْشِ مَا إِنْ لِلْهَوَى عَنْ مَحَلِّهَا تَعْوِيضُ
سَوَّغَتْنِي نَعِيمَهَا نَفَحَاتٌ لِلْمُنَى - مِنْ سَحَابِهَا - تَرْوِيضُ
تَابَعَتَهَا يَدُ الْهُمَامِ أَبِي عَمْرِو فَمَا غَمَرُهَا لَدَى مَغِيضُ ^(٤)

تعبى كأنها لا تعبى - من سكون الأوصال - وهي تعيد
لا تراها هناك تحفظ عيني - لك منها - ولا يدور ويد
من هدوء وليس فيه إعطاء ، وسجود وما به تبليد
مدى في سائر صوتها نفس كا - كأساس عاشقها - مديد
وأروى الدلال والتمنع منه وراه الشجا ، فكاد يبس
من تراها يدوت طورا وريحيا مستلذت بسيطه والنشيد
فيه وثى وفيه حلى من اللذ - م مصوع يحال فيه القصيد
طاب دوها وما ترجع فيه كل شيء لها بذاك شهيد
ثم يبع الصدى ، وعاء عنه يوجد السرور الععيد
فلها - الدهر - لائم مستزيد وفها - الدهر - سامع مستعيد
في هدوى منها يحف حلیم - راحح حلمه - ويعوى رشيد
ما تناحى الفلأوب إلا أصابت به - واهها منهن - حيث تريد

إلى آخر هذه القصيدة للعدة التي تحتوى منها بهذا القدر اليسير فليرجع إليها من شاء في ديوانه ليقرأ بين هذه القصيدة وقصيدة ابن زيدون .

(١) عله : سقاء ، والأريس : الركي القربة الخلق للبت . (٢) المعجب .

(٣) استعربت : بالعت في الصلح ، والاعريس : الطلم وكل أبيض طرى .

(٤) اليد : البعة ، والفمر : الماء الكثير ، ومبيض : اسم مفعول من عيس الماء فهو مبيض إذا طار

ونصب ، أي تابعت تلك اللع من رغد العيش يد مصافة إلى « أبي عمرو » لا تزال تمرنا بمعينها الذي

الذى لا يبيض ماؤه فليس معينها العزيز الماء ناصيا عندي .

مَلِكٌ ذَادَ عَنْ حِجَى الدِّينِ مِنْهُ مَنْ إِلَيْهِ فِي نَصْرِهِ التَّفْوِيزُ
وَسَمَا نَاطِرٌ مِنَ الْمَجْدِ فِي دُنْيَاهُ قَدْ كَانَ كَفَّهُ التَّغْمِيزُ^(١)
إِنْ أَسَاءَ الزَّمَانُ أَحْسَنَ دَأْبًا مِثْلَمَا بَايَنَ النَّقِيزِ النَّقِيزُ^(٢)

* * *

يَا مُعِزُّ الْهُدَى الَّذِي مَا لَسْنَا هُ إِلَى غَيْرِ سَمْتِهِ تَغْرِيزُ
يَا مُحِلِّي يَفَاعَ حَالٍ ، مَكَانُ النَّجْمِ - مَهْمَا يُقَسِّ إِلَيْهِ - حَضِيزُ^(٣)
إِنْ أَنْزَلَ أَيْسَرَ الرِّغَائِبِ فِيهِ يَرْضَ فَوْزَ الْقِدَاحِ مِنِّي مُفِيزُ^(٤)
لَوْ يَفَاعُ الْمَجَرَّةُ أَعْتَضَتْ مِنْهُ رَاحَ يَدْعُو ثُبُورَهُ الْمُسْتَعِيزُ
حَظُّ سِنِّ أَمْرِي نَأَى مِنْكَ قَرَعُ وَقْصَارَى بَنَانِهِ تَعْمِيزُ

* * *

حَسْبِيَ النُّصْحُ وَالْوِدَادُ وَشُكْرُ عَطَرِ الدَّهْرِ مِنْهُ مِسْكٌ فَضِيزُ
دُمُ مَوْقَى وَإِيكَ - الدَّهْرِ - تَحْبَبُ رُ مَسَاعِيكَ ، وَالْعَدُوُّ مَهْزُ
فَاعْتَرَفُ الْمُلُوكِ أَنَّكَ مَوْلَا هُمْ حَدِيثُ مَا يَبْنِيهِمْ مُسْتَفِيزُ

(١) وتطلع إليك ناظر المجد بعد أن كتب ناظره كثرة الدِّينيس . يريد أنه بعد أن ذاد عن حيرة الدين
سما بنظره في شؤون دينا كما قد صرفه عنها كثرة التعميس والاعراس .

(٢) وقريب من هذا قول الشاعر :

نشدان لما استتجما حسا والصدء يظهر حسنه الضدء .

(٣) اليفاع : ما ارتفع من الأرض . يقول : يا من أحللتني حالا رديما ، إذا قيس إليه النجم — على رفعتة —

عد حضيفا . (٤) المبيض : من أفاض الرجل بقداح اليسر إذا ضرب بها فوقعت مبهثة متمركة .

شفاعة

قال هذه القصيدة يمدح أبا الحزم بن جهور ويتحرم بجنابه وبطلب
شماعته ، قال ابن بسام :

« كان أبو الوليد ممن أنشأته دولة الجهاورة واصطفته اصطفاء الفرس
للأساورة ، وقد اختص بأبي الوليد اختصاص الفرع بالنور وارتبطهم
ارتباط الأماضة بالنور ، وأبو الحزم بن جهور — إذ ذاك — رأس الجماعة
وأصل تلك الأسرة المطاعة من رجل أدمى من عمان وأجرأ من ليت
خفان وأدمى من عمرو بن الحقان . وكان ابن زيدون متصلا بأبيه
أبي الوليد أطول حقه اتصال أبي زييد بلوليد بن عمية وبينهما
تآلف أحراما بكميته وطافا وسقيا من قصائدهما نطافا وابن زيدون
يمتد ذلك حساما مسلولا ويرى أنه يرد به صعب الخطوب دلويا ، إلى
أن طلب عند أبيه أبي الحزم وتوسل فاستدفع به تلك الأسنة والأسل
فما نفي إليه عنان عطفه ولا كعب عنه سنان صرفه مع استعطافه له
بكل مقال يحل سقائم الاحقاد واستلطافه إياه بما يرد الصعب
سلس القياد ، فن بدع ذلك وأحسه قوله :

إيه أبا الحزم اهتبل غرة ألسة الشكر عليها فصاح

أَمَّا وَالْحَاطِظُ مِرَاضٍ صِحَاحُ	تُصْنِي وَأَعْطَافٍ نَشَاوَى صَوَاحُ
لِبَائِنٍ بِالْحُسْنِ فِي خَدِّهِ	وَزْدٌ وَأَثْنَاءُ ثَنَائِيهِ رَاحُ
لَمْ أَنْسَ إِذْ بَاتَتْ يَدِي لَيْلَةً	وَشَاخَهُ اللَّاصِقَ دُونَ الْوِشَاحِ ^(١)
أَلَمْتُ بِالْأَلْطَفِ مِنْهُ وَلَمْ	أَجْنَحْ إِلَى مَا فِيهِ بَعْضُ الْجُنَاحِ
لَأُصْفِيَنَّ الْمُصْطَفَى ^(٢) « جَهْورًا »	عَهْدًا لِرَوْضِ الْحَزَنِ عَنْهُ أَتَضَاحُ

(١) قال ابن بسام : قوله : « وشاخه اللاصق دون الوشاح » معنى متداول ، ومن أنكره عصره
قوله الفعل من أهل وقتنا :

« إن العزيز على حقوك انه بالردف حمل منك مالا يحمل

نحدي له حسمى مكان وشاخه إن الليل بشكله يتعمل »

وقريب من هذا المعنى قول العباس بن الأحنف :

« يا ليت عباس سربال على جسدي أو ليتني كنت سربالا لعباس »

(٢) وفي رواية ابن بسام : « لأصين المرتضى جهورا »

جَزَاءَ مَا رَفَعَهُ شُرْبَ الْمُنَى وَأَذَنَ السَّعَى بَوْشَكَ النَّجَاحِ ^(١)
يَسْرَتْ أَمَالِي بِتَأْمِيلِهِ فَمَا عَدَانِي مِنْهُ قَوْزُ الْقِدَاحِ ^(٢)
لَمْ أَشِمِ الْبَرْقَ جَهَامًا وَلَمْ أَقْتَدِحِ الصَّمَّ بِيِضِ الصَّفَاحِ ^(٣)
مَنْ مِثْلُهُ - لَا مِثْلَ يُلْفِي لَهُ - إِنْ فَسَدَتْ حَالُ فَمَزَّ الصَّلَاحُ
يَا مُرْشِدِي جَهْلًا إِلَى غَيْرِهِ أَغْنَى عَنِ الْمِصْبَاحِ ضَوْءُ الصَّبَاحِ
رَكِينٌ مَا تُثْنِي عَلَيْهِ الْحَبَا يَهْفُو بِهِ نَحْوَ النَّشَاءِ أَرْتِيَاخِ ^(٤)
ذُو بَاطِنٍ أَقْبَسَ نُورَ الثُّقَى وَظَاهِرٍ أَشْرَبَ مَاءَ السَّمَاخِ
أَنْظُرْ تَرَى الْبَدْرَ سَنَا وَاخْتَبِرْ تَجِدُهُ كَالْمِسْكَ إِذَا مِثَ فَاحِ ^(٥)

إِيَّاهُ « أَبَا الْحَزْمِ » أَهْتَبِلَ غِرَّةً أَلْسَنَةُ الشُّكْرِ عَلَيْهَا فِصَاحُ ^(٦)
لَا طَارَ بِي حَظٌّ إِلَى غَايَةٍ إِنْ لَمْ أَكُنْ مِنْكَ مَرِيشَ الْجَنَاحِ

(١) ربه : من ورود الابل ربهما ، وهي أن ترد الماء في كل يوم في شاة .

(٢) يسرت يجور أن يكون بالفتديد بمعنى سهل وبالتخفيف من يسر يسر إذا ضرب بقداح لليسر - والمعنى على الثاني ضربت بقداح آمالي ياسراً فلم أعدني أن فزت بأوبر القداح - مطوطاً ، وفي روايه ابن بسام : « سرت آمالي بتأمله »

(٣) أي لم انظر البرق ليس فيه مطر ، ولم اقتدح صلدا لم يور ناراً .

(٤) ركين من الركائز أي الرزاة - والمعنى : أنه وقور الحوة رزينها يهوى به ويحركه نحو المدح أريحي فيهنر بعد سكون في مجلسه ووقار .

(٥) مات الشيء يميته إذا مرسه يده في الماء فداب من مسك ونحوه - يقول انظر تره كالبدر سا وبهاء واختبره تحده كالملك فاح شذاه وقد ميث أي مرس باليد ، والملك - لما سحق - فاح شذاه ، وقد قال للمرى في هذا المعنى وأجاد ما شاء أن يحيد .

« حل البلى سيعيد المرء فائدة - فملك يزاد من طيب إذا سحقاً »

(٦) اهبل : اغتم يقال اهبت غمته - والمرء : بالسكسر اللمعة ، وفي المثل « الغرة تجلب البرء » أي اللمعة تجلب الرزق - والمعنى : أسكت أبا الحزم في غلة أعدائك من المعام والأموال تنطلق الألسن معصحة بشكرك ، وفي رواية ابن بسام : « ألسنة الدهر عليها فصاح »

عُتْبَاكَ - بَعْدَ الْعَتَبِ - أُمْنِيَّةٌ
لَمْ يَثْنِي عَنْ أَمَلٍ مَا جَرَى
فَأَشْحَذُ بِمُحْسِنِ الرَّأْيِ - عَزَمِي يُرْعِ
وَأَشْفَعُ فَلِلشَّافِعِ نَعْمَى بِمَا
إِنَّ سَحَابَ الْأَفْقِ مِنْهَا الْحَيَا
وَقَالَ مَا تَخْشَى مِنَ الدَّهْرِ مَنْ
مَا لِي عَلَى الدَّهْرِ سِوَاهَا أَقْتِرَاحُ^(١)
قَدْ يُرْقِعُ الْخَرْقُ وَتُوَسِّى الْجِرَاحُ
مِنِّي الْعِدَاءُ أَلَيْسَ شَاكِي السَّلَاحِ؟^(٢)
سَنَاءَهُ مِنْ عَقْدٍ وَثِيقِ النَّوَاحِ^(٣)
وَالْحَمْدُ فِي تَأْلِيفِهَا لِلرِّيَاحِ^(٤)
تَعَبْتُ فِي تَأْمِينِهِ وَأَسْتَرَاحُ

هدية تفاح

« وهل في تفاح أهدها إلى المضئ بالله
أبي عمرو عباد بن محمد بن عباد »

يَا مَنْ تَزَيَّنْتَ الرِّيَا سَةِ حِينَ أَلْبَسَ ثَوْبَهَا
وَلَهُ يَدٌ يَدُ الْفَمَا مٌ مِنْ أَنْ يُعَارِضَ صَوْبَهَا^(٥)
جَاءَتْكَ جَامِدَةُ الْمَدَا مَ فَخُذْ عَلَيْهَا ذَوْبَهَا^(٦)

- (١) العتبى : الرجوع إلى ما يرضى العاتب أى رجوعك بعد العتاب إلى ما يرضى أمسه لا اقترح على الدهر سواها . (٢) فوّ بحسن الرأى عزمى يحب منى العدا ، أليس عزمى شاكي السلاح ؟ (٣) سناء : سهله وسره - من عقد : أى من حل عقد - وثيق النواح : أى عسر الحل من أى نواحيه أتيته ، وقرأت شاهدا على هذا فى أمالى أبى القاسم الرجبى ، إن معاوية بن أبى سفيان صرف روح ابن زبناج عن عمله لحيانة ، المغنم عنه ، وأمره بالدوم عليه ففعل ، فأمر ضربه فلما أحدثته الشياطين قال : « نشدتك الله يا أمير المؤمنين أن تهدم منى ركنا أت بنيت ، أو تضع منى حسنة أت رفعتها » الخ ما قال ، فقال معاوية . « إذا الله سى حل عقد تسر ، حلماعه » - ومعنى البيت أنه اطلب شعاعته ، وبين أن للشامع على المشفوع له يد وسمعة بسبب ما سهله وسره من حل عقد تسر حد أن تعقدت أواخيه وتوثقت نواحيه . (٤) الحيا : المطر - برى أن الحمد للشامع لا للذى قبل منه الشماعة ، كما أن الحمد ليس للسحب التى منها المطر بل للرياح التى تزيحها ثم تؤلف منها فتطر ، وقد كرر هذا المعنى فى بعض قصائده فقال :
للشامع النساء - والحمدى صوب الحيا للرياح لا لعيوم
انظر (ص) من هذا الديوان . وقد سبقه البحرى إلى هذا المعنى فقال وأبدع :
« حارحدي ، وللرياح - اللواتى تجلب العيث - مثل حمد الغيوم »
(٥) نزول المطر . (٦) جعل المدام وهي الخمر نوعين جامدة وهي التماح ودائبة وهي الراح وطلب إلى الممدوح أن يشرب عليها ذوبها وهي الراح الحقيقية .

لا يهنا الشامت

« قال يمدح أبا الحزم بن جمهور وقد كتبها
إليه من السجن . »

مَا جَالَ بَعْدَكَ لَحْظِي فِي سَنَا الْقَمَرِ إِلَّا ذَكَرْتُكَ ذِكْرَ الْعَيْنِ بِالْأَثَرِ ^(١)
وَلَا اسْتَطَلْتُ ذَمَاءَ اللَّيْلِ مِنْ أَسْفِ إِلَّا عَلَى لَيْلَةٍ سَرَّتْ مَعَ الْقَصْرِ ^(٢)
نَاهِيكَ مِنْ سَهَرٍ بَرَحَ تَأْلَفُهُ شَوْقِي إِلَى مَا أَتَقَضَى مِنْ ذَلِكَ السَّعَرِ
فَلَيْتَ ذَلِكَ السَّوَادَ الْجَوْنَ مُتَّصِلُ لَوْ اسْتَعَارَ سَوَادَ الْقَلْبِ وَالْبَصَرِ ^(٣)

أَمَّا الضَّنَى فَجَبَّتُهُ لَحْظَةٌ عَنْ كَأَنَّمَا وَالرَّذَى جَاءَ عَلَى قَدَرِ ^(٤)
فَهَمْتُ مَعْنَى الْهَوَى مِنْ وَحْيِ طَرَفِكَ لِي إِنَّ الْخَوَارَ لَمَفْهُومٌ مِنَ الْخَوَرِ
وَالصَّدْرُ مُذْ وَرَدَتْ رِفْهًا نَوَاحِيَهُ تَوْمُ الْقَلَائِدِ لَمْ تَجْنَحْ إِلَى صَدْرِ ^(٥)

(١) أى لم أحل بلحظى فى نور القمر بعد غيبتك عني إلا ذكرتَكَ كما يذكر الرائي عين الشيء ودأته بما يراه من آثاره . (٢) الدعاء : بالمتنج البقية الباقية من الليل — أى ما بقيت أن يطول ما بقي من عمر الليل إلا أسعما على أيسلة اشتملت على ما يسر مع قصرها والشعراء كثيرا ما يسمون ليلة الوصال بالعصر ، ومن أبدع ما فرأناه فى ذلك قول الشريف الرضى :

« أَشْكُو اللَّيْلَ غَسِيرَ مَعْتَبَةٍ إِمَّا مِنْ الطُّوْلِ أَوْ مِنَ الْقَصْرِ

تَطُولُ فِي هَجْرِهِمْ وَتَقْصُرُ الْوَصْلَ . فَلَا يُلْتَقَى عَلَى الْقَدْرِ

يَا لَيْسَةَ كَادَ مِنْ تَقَاصُرِهَا نَعَثَ فِيهَا الْعِشَاءُ بِالْعَصْرِ »

(٣) ينمى أن يسأل طلام الليل عما يسره من سواد القلب والعصر ، ولو لاحت أى وابته استعار ، ولا خفاء أن سويداء القلب وسواد العين من أغس الأشياء وأعزها ، واسكنه يبدلها طاربه فى سبيل اسدامة الليل وطوله ، وجاء لابن ساسم فى الدخيرة فى نقد هذا البيت . قوله : « لو استعار سواد القلب والبصر » لفظ المعرى حيث يقول :

يودُّ أَنْ طَلَامَ اللَّيْلِ دَامَ لَهُ وَزَيْدِيهِ سَوَادَ الْقَلْبِ وَالْبَصْرِ

(٤) العنت : بفتحين من عن الشيء إذا طهر أماءك واعترس .

(٥) رِفْهًا : هو أن ترد الابل الماء كل يوم — توم القلائد : جمع تومه بالضم وهى اللاؤة ، استعار ورود الابل رفها للارمة الحلى صدرها من غير أن تجنح بعد الورد إلى الصدر .

حُسْنُ أَفَانِينَ لَمْ تَسْتَوِفْ أَعْيُنُنَا غَايَاتِهِ بِأَفَانِينَ مِنَ النَّظَرِ
وَأَهَا لِمَعْرِكَ تَعْرًا بَاتَ يَكْلُوهُ غَيْرَانُ تَسْرِي عَوَالِيهِ إِلَى الشَّعْرِ^(١)
يَقْظَانُ لَمْ يَكْتَحِلْ غَمَضًا مُرَاقِبَةً لِرَابِطِ الْجَأَشِ مِقْدَامٍ عَلَى الْغِرَرِ^(٢)
لَا لَهُوَ أَيَّامِهِ الْخَالِي عُمُرْتَجَمٍ وَلَا نَعِيمُ لِيَالِيهِ عُمُتَّظَرِ
إِذْ لَا التَّحِيَّةُ إِيمَاءُ مُحَاسَنَةً وَلَا الزِّيَارَةُ إِمَامٌ عَلَى خَطَرِ
مُنَى كَأَنَّ لَمْ يَكُنْ إِلَّا تَذَكُّرُهَا إِنَّ الْقَرَامَ لَمُعْتَادٌ مَعَ الذِّكْرِ

مَنْ يَسْأَلِ النَّاسَ عَنْ حَالِي فَشَاهِدُهَا مَحْضُ الْعِيَانِ الَّذِي يُغْنِي عَنْ الْخَبَرِ
لَمْ تَطْوِ بُرْدَ شِبَابِي كِبَرَةً وَأَرَى بَرَقَ الْمَشِيبِ أُعْتَلَى فِي طَارِضِ الشَّعْرِ^(٣)
قَبْلَ الثَّلَاثِينَ إِذْ عَهْدُ الصَّبَا كَثَبُ وَلِلشَّبِيَّةِ غُصْنٌ غَيْرُ مُهْتَصِرِ

(١) يكلؤه : يحفظه ويغار عليه - وغيران : وصف من الغيرة - والعوالى صدور الرماح - الشعر : جمع ثغره بالضم وهي الطرق والمنافذ المسلوكة أو أراد بها جمع الثغرة وهي الثغرة في النحر .
(٢) المرر : جمع غرة بالكسر وهي العفلة ، والمعنى : أنه يتهز غرات الرقيب الساهر طول ليله غيرة وحفاظا ومراقبة ، فيقدم رابط الجأش بالرغم من يقظته ونذبه ومراقبته إياه ، ولا يحجم عما اعتزمه من موااة حبيبه .
(٣) الكبرة : بفتح فسكون كبر السن - والعارض : الحد يقال أخذ الشعر من طارضيه - والمعنى : أن بياض المشيب وخط طارضيه قبل أن يخلع برد الشباب وقبل أن يمد من سنيه ثلاثين ربيعا ، وأبدع أبو نواس في هذا المعنى أيما إبداع إذ يقول في سيبته :

« وإذا عددت سني ، كم هي لم أحد »

قالوا كبرت فقلت ما كبرت يدي عن أن تسير إلى في بالكاس »

وقال ابن الرومي : « قد شبب الفسقى وليس عجبا أن يرى النور في القضيبي الرطيب »

وقال الآخر : « يا عز هل لك في شيخ فتى أبدا وقد يكون شباب غير فتيان »

وقال أبو العلاء : ارجع إلى السن فانظر ما تقادهما فاحكم عليه ولا تحكم على الشعر

فكم ثلاثين حولا شببت ، ومضت ستون ، والشيب فيها غير مستمر

وليس ذلك إلا صبغة جعلت طبعاء ، وإن قيل : شاب الرأس للدمر .

هَإِئِنَّهَا لَوَعةٌ فِي الصَّدْرِ قَادِحَةٌ نَارَ الْأَمَى وَمَشِيبِي طَائِرُ الشَّرِّ (١)

* *

لَا يَهْنِي الشَّامِتَ الْمُزْتَاخَ خَاطِرُهُ أَنَّى مُعْنَى الْأَمَانِي ضَائِعُ الْخَطَرِ (٢)
هَلِ الرِّيحُ بِنَجْمِ الْأَرْضِ عَاصِفَةٌ؟ أَمْ الْكُسُوفُ أَغْيَرُ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ (٣)
إِنْ طَالَ فِي السَّجْنِ إِيدَاعِي، فَلَا عَجَبُ قَدْ يُودَعُ الْجَفْنُ حَدَّ الصَّارِمِ الَّذِي كَرَّ
وَإِنْ يُدَبِّطُ - «أَبَا أَحْزَمِ» الرَّضَى - فِدَرٌ عَنْ كَشْفِ ضُرِّي فَلَا عَتَبُ عَلَى الْقَدَرِ

* *

مَا لِلذُّنُوبِ - الَّتِي جَانِي كَبَائِرِهَا - غَيْرِي - يُحَمَّدَنِي أَوْزَارَهَا وَزِرِي (٤)

(١) أي أنها لوعة تقذح نار الأمى والحزن في صدره ، ومشيب رأسه ما تطاير من شر تلك النار الموقدة فيه ، وحاء في الدجيرة لأن بسام قل هذا الت قوله :

يا للرزايا لقد شامت منهلها عمرا فما اثرب المكروه بالعمر

والعمر القذح الصغير ، فهو يعي انه لا يثرب من المصائب بالمدح الصغير .

وحاء بعد في سجنى الديوان المحطوطتين هذا الت ناقضا هكذا :

حوادث استعرضتني ما فذرت لها غرارها

ونحن شاتهما ها كما وجدناهما .

(٢) لا يهين : يقال هناه الأمر أي تهنا به - معنى الأمانى : اسم مفعول من الهناه وهو التعتب - والخطر

الشرف والمنزلة - والمعنى : لا يتهنأ الشامت المنلوح الفؤاد بكوني في عناء وهب سبب الأمانى وبكوني ضائع القدر والمنزلة .

(٣) أراد شحم الأرض ما شحم على وجهها من النبات ولم يقم على ساق ومنه قوله تعالى « والنجم والشجر يسجدان » وهذا البيت تمثيل للفتنة أي لا تفرح أبها الشامت فاريخ لا تعصف إلا بما له ساق من الشجر ، والكسوف : لا يكون أمير الشمس والقمر - وهو معنى طرده الشعراء كثيرا ، ومنه قول أبي تمام

إن الرياح إذا ما أعصف فصفت عيذان نجد ولم يبيان بالرم

سات نعلش ونعلش لا كسوف لها والشمس والبدر منها الدهرى رقم

وقريب منه قوله أيضا :

لأنكرى عطل الكريم من الأذى فالسبيل حرب للكان للعالى

(٤) الوزر : بالكسر الداء والوزر بمنحيتين المعين والملجأ - والمعنى : لأى سبب يحملنى ما جئى ومعتصنى

تبعة ما جناه غيرى من كبائر الذنوب ، وهو نظير قول المعرى :

وحرم حره سمهاء قوم وحل بغير جازمه العقاب

مَنْ لَمْ أَزَلْ مِنْ تَأْنِيهِ عَلَى ثِقَةٍ
ذُو الشَّيْمَةِ الرَّمْلِ - إِنَّ هِجَّتْ حَفِيزَتُهُ -
مَنْ فِيهِ لِلْمَجْتَلِيِّ وَالْمُبْتَلِيِّ نَسَقًا
مُذَلِّلٌ لِلْمَسَاعِي حُكْمَهَا شَطَطًا
وَزَيْرٌ سَلِمَ كَفَاهُ يُمْنُ طَائِرِهِ
أَغْنَتْ قَرِيحَتُهُ مَغْنًى تَجَارِيهِ
كَمْ أَشْتَرَى - بِكَرَى عَيْنِيهِ - مِنْ سَهَرٍ
فِي حَضْرَةِ غَابِ صَرْفِ الدَّهْرِ - خَشْبَتِهِ -
مُتَمِّعٌ بِالزَّيْعِ الطَّلُقِ نَازِلُهَا
مَا إِنْ يَزَالُ يَبْتُ الثَّبْتُ فِي جَلَدِهِ

* *

قَدْ كُنْتُ أَحْسَبُنِي وَالنَّجْمَ فِي قَرْنٍ فَفِيمَ أَصْبَحْتُ مُنْهَضًا إِلَى الْعَفْرِ (٨)

- (١) التَّأْنِي : التَّهْلُ ، والتَّحْي : ادِّعَاءُ ذَنْبٍ لَمْ يَفْعَلْهُ - أَيْ أَنَا عَلَى ثِقَةٍ مِنَ الْحَصُولِ عَلَى أَمْنِي ، وَإِنْ تَأْنَى ، وَلَا أَحْذَرُ أَنْ يَسْبَ إِلَى ذَنْبٍ لَمْ أَفْعَلْهُ .
(٢) الشَّيْمَةُ الرَّمْلُ : الْخَلْقُ السَّهْلُ السَّامِعُ - وَالْمُجَبَّنَةُ : الْغَضَبُ - وَالْمُسْتَعْتَبُ : مَصْدَرٌ مِمَّا يَمْعَى بِالْمُسْتَعْتَابِ أَيْ الْاسْتِرْسَاءِ يُقَالُ اسْتَعْتَبْتُهُ أَيْ اسْتَرْسَأْتُهُ فَأَعْتَبْتُهُ أَيْ أَرْضَاهُ - وَالْيَسْرُ : الْمَيْسَرُ .
(٣) الْمَجْتَلِيُّ : الْبَاطِلُ ، وَالْمُبْتَلِيُّ : الْمُحْتَرَفُ ، وَالسَّرُّ : الشَّرَفُ أَيْ مُحْتَبَرٌ سَرَى شَرِيفٌ .
(٤) الْمَسَاعِي الْمَآثِرُ أَيْ مَدَلُّ الْمَسَاعِي أَنْ تَشْتَغِلَ عَلَيْهِ فِي الْحُكْمِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَسِ الْمُنِيعُ الْجَانِبُ .
(٥) مَحْصَدُ الْمَرْرِ : مَقْتُولُ الْقَوَى .
(٦) يَقُولُ أَنَّهُ لِأَمْعِيَّتِهِ لَا يَحْتَاجُ إِلَى تَحَارُبٍ وَإِنْ بَدَأَتْهُ تَعَبٌ عَنْ رَوْحِهِ وَنَظَرَتُهُ الْمَرِيضَةُ تَعْنِي هُنَا إِطَالَةَ الْفِكْرِ وَقَدِيمًا قَالُوا :

الْأَمْلَى الَّذِي يَنْظُرُ بِكَ الطَّيْسُ كَأَنْ قَدْ رَأَى وَقَدْ سَمِعَا

- (٧) الْجَلْدُ : الْأَرْضُ الصَّلْبَةُ ، أَيْ أَنَّهُ مَدَّ سَاسَ الْمَمْلَكَةِ وَهُوَ دَائِبٌ عَلَى مَثَلِ الثَّبَاتِ وَالزَّرْعِ فِي أَرْضٍ لَا تَبْتَ لِصَلَابَتِهَا وَإِفَاضَةِ الْمَاءِ إِلَيْهَا مِنْ عِيُونٍ تَتَجَرَّعُ مِنَ الصَّخْرِ .
(٨) يَقُولُ : مَا نَالَكِ أَخْلَافَ آمَالِي وَيَدَاتِ مَكَائِفِ الْعَالِيَةِ عِنْدَكَ الَّتِي كُنْتَ تَحْلِي بِهَا فَوْقَ ذُرْوَةِ النِّجْمِ فَأَنْزَلْتَنِي إِلَى حَضِيضِ الْمَوَانِ .

أَحِينَ رَفَّ عَلَى الْآفَاقِ مِنْ أَدْبَى غَرْسٍ لَهُ مِنْ جَنَاهُ يَانِعُ الثَّمَرُ ^(١)
وَسِيْلَةً مَبِيًّا - إِلَّا تَكُنْ نَسْبًا - فَهَوَّ الْوِدَادُ صَفَا مِنْ غَيْرِ مَا كَذَرِ

* * *

وَبَاشٍ مِنْ ثَنَاءِ حُسْنِهِ مَثَلٌ وَثَى الْمَحَاسِنِ مِنْهُ مُعَلِّمُ الطَّرَرِ
يُسْتَوْدَعُ الصُّحُفَ لَا تَخْفَى نَوَافِحُهُ إِلَّا خَفَاءَ نَسِيمِ الْمِسْكِ فِي الصَّرَرِ ^(٢)
مِنْ كُلِّ مُخْتَالَةٍ بِالْحَبْرِ رَافِلَةٍ فِيهِ اخْتِيَالُ الْكَعَابِ الرُّودِ بِالْحَبْرِ ^(٣)
تُجْنَى لَهَا الرُّوضَةُ الْفَنَاءُ أَضْحَكُمَا تَجَالُ دَمْعُ النَّدَى فِي أَغْيُنِ الزَّهْرِ ^(٤)

(١) رف البات اهتر - يقول : هل حين انتشرت آدابي ومدائمي في الآفاق فاجت يانع الثمر ، ولم يذكر جواب الاستعظام في البيت بعده لأنه مفهوم من السياق ، وهي عادة مألوفة كما قال الشاعر :
«الآن لما كذب أكل من مثنى واغتر نابتك عن شباة الفارح
وتكاملت ذيك المروءة والتقى وأعنت ذلك بالفعال الصالح»
وقوله القائل :

«أبت لي مثنى وأبي بلاني وأخسدي الحمد بالتمس الربيع
وإجشامي على المسكروه نفسي وضربي هامة البطل المشيع
وقولي - كلما حشأت وجاشت - مكانك تهمدي أو تستريحي»

وربما ذكر الجواب كما ترى في قول ابن الرومي :

«الآن حين زأرت واستمع الوري زأري وأنذر كلب شر ديبه
الآن حين سفت كل مسابقي فتركت اسرع حريه تقريبه
يتكلم المتكلمون رياستي ليطل بذلك معجب تعجيبه»

(٢) أي يستودع ذلك الثناء - المضروب بحسنه المثل - بطون الصحف ولا يمكن أن يخفى ما يدوح من أريحه إلا إذا حو ربح المسك في الصرر .

(٣) أي من كل صحيفة تختال بما فيها من المداد الذي سطرت به آيات بيانه وسحر بلاغته اختيال الجارية التي كعب ثدياها بما تلدسه من وثى منمر وبرد غير .

(٤) أي أنه يصطبح المحبرة التي يكتب بمدادها آيات بلاغته ويجمو لأجلها الروضة النناء أضحكها الحيا ، وجالت في أعين أرهاها دموع الندى .

يَا بَهْجَةَ الدَّهْرِ حَيًّا وَهَوًّا - إِنَّ فَنَيْتَ
لِي فِي اعْتِمَادِكَ - بِالتَّأْوِيلِ - سَابِقَةً
فَقِيمَ غَضَّتْ تَهْمُومِي مِنْ غَلَا هَمِّي
هَلْ مِنْ سَبِيلٍ فَمَاءُ الْعُتْبِ لِي أَسِنَّ
نَذَرْتُ شُكْرَكَ لَا أَنْسَى الْوَفَاءَ بِهِ

حَيَاتُهُ - زِينَةُ الْآثَارِ وَالسَّيْرِ (١)
وَهَجْرَةٌ - فِي الْهَوَى - أُولَى مِنَ الْهَجْرِ
وَحَاصَ بِي مَطْلَبِي عَنْ وَجْهَةِ الظَّفَرِ؟ (٢)
إِلَى الْمَذُوبَةِ مِنْ عُتْبَاكَ وَالْخَصْرِ؟ (٣)
إِنْ أَسْفَرْتُ لِي عَنْهَا أَوْجُهُ الْبُشْرِ (٤)

* * *

لَا تَلُّهُ عَنِّي فَلَمْ أَسْأَلْكَ مُعْتَسِفًا
وَأَسْتَوْفِرِ الْحَظَّ مِنْ نُصْحٍ وَصَاحِيَةٍ
هَبْنِي جَهَلْتُ فَكَانَ الْعِلْقُ سَيِّئَةً
إِنَّ السِّيَادَةَ بِالْإِغْضَاءِ لَا بِسَةِ

رَدَّ الصَّبَا بَعْدَ إِيفَاءٍ عَلَى الْكِبَرِ (٥)
كِلَاهُمَا الْعِلْقُ لَمْ يُوهَبْ وَلَمْ يُعَرِّ (٦)
لَا عُذْرَ مِنْهَا سِوَى أَنِّي مِنَ الْبُشْرِ
بِهَاءَهَا وَبِهَاءِ الْحُسْنِ فِي الْخَفْرِ

(١) نسي في هذا البيت ممدوحه وهو لا يزال حيا يرزق ، وقد أخذ هذا المعنى - ولم يحسن الأخذ - من قول أبي العلاء :

« حمال ذى الأرض كانوا في الحياة وهم بعد الممات حمال الكسب والسير . »

(٢) حاس : حاد ومال .

(٣) العتب : السخط وإطهار الوحدة لمخافة ارتكاب ، والعتي : الرضا والروح إلى المصرة بعد السخط ، والخصر : البرودة ، والمعنى : هل من سبيل يبدل بعد العتب الشبيه بالماء الآسن أى التغير الذى لا يستسيغه شارب به إلى العتي الشبيه بالماء المذب التارد السائغ شرابه - وقد أحسن أبو العلاء في جعل برد الماء الذى يصير به أطيب لشاربه سببا في هجره لا فراطه في الحصر والبرودة وذلك حيث يقول :

« لو اختصرتم من الاحسان زرتكم والعذب يهجر للافراط في الحصر . »

(٤) الضمير في « عنها » طائد إلى العتي ، والبشر : جمع بشرى .

(٥) أى لم أعترف في السؤال ولم أطلب مستجيلا .

(٦) استوفر : استكثر ، وصاحبة : الاسان خاصته الذى يميلون إليه ويمشون مجلسه ويطلبون ما عنده والمعاق : الشيء الذى يمس به لفاسته فلا يوهب ولا يمار ، وقد ورد في ديوان الحماسة قول الشاعر :

« أبيت الأمن إن سكاب عاق نفيس لا يمار ولا يباع
مفسدة مكرمة علينا بجاع لها العيال ولا تماع
سليقة سابقين ناعجلاها إذا نسا يصهما الكراع . »

لَكَ الشَّفَاعَةُ لَا تُدْنِي أُعِثَّتْهَا دُونَ الْقَبُولِ بِمَقْبُولٍ مِنَ الْعِذْرِ (١)
وَالْبَسَ مِنَ النِّعْمَةِ الْخَضِرَاءَ أَيْكَتْهَا ظِلًّا حَرَامًا عَلَى «الْآفَاتِ وَالْغَيْرِ» (٢)
نَعِيمَ جَنَّةٍ دُنْيَا - إِنْ هِيَ أَنْصَرَمَتْ - نَعِمْتَ بِالْخُلْدِ فِي الْجَنَّاتِ وَالنَّهْرِ

أترع الكأس

أَدْرِهَا فَقَدْ حَسُنَ الْمَجْلِسُ وَقَدْ آتَى أَنْ تُتْرَعَ الْأَكْوُسُ
وَلَا بَأْسَ إِنْ كَانَ وَلَّى الرَّيِّعُ إِذَا لَمْ تَجِدْ فَقْدَهُ الْأَنْفُسُ (٣)
فَإِنَّ خِلَالَ أَبِي عَامِرٍ بِهَا يَحْضُرُ الْوَرْدُ وَالنَّرْجِسُ (٤)

لا حيلة في الحب

يَا مُخْجِلَ الْغُصْنِ الْفَيْنَانِ إِنْ خَطَرَا وَفَاصِحَ الرَّشَاءِ الْوَسْنَانِ إِنْ نَظَرَا (٥)
يَقْدِيكَ مِنِّي مُحِبٌّ شَأْنُهُ عَجَبٌ مَا جِئْتَ بِالذَّنْبِ إِلَّا جَاءَ مُعْتَذِرَا (٦)
لَمْ يُنْجِنِي مِنْكَ مَا اسْتَشْعَرْتُ مِنْ حَذَرٍ هَيْمَاتِ كَيْدِ الْهَوَى يَسْتَهْمِلُكَ الْحَذَرَا
مَا كَانَ حُبُّكَ إِلَّا فِتْنَةً قُدِرَتْ هَلْ يَسْتَطِيعُ الْفَتَى أَنْ يَدْفَعَ الْقَدَرَا (٧)

(١) العذر : جمع عذره كسدره مصدر كلندر . (٢) وجد هذا البيت في الأصل ناقصاً هكذا :
وَالْبَسَ مِنَ النِّعْمَةِ الْخَضِرَاءَ أَيْكَتْهَا ظِلًّا حَرَامًا عَلَى الْآفَاتِ

ووجد في هامش بعض النسخ بكلمة لهذا البيت كله (والغير) وهذه الكلمة باسمها الآفات لا الآفات
لخصت بكلمة البيت بكلمتين كما ترى إحداهما من هامش بعض الأصول ، والأخرى يعطى السياق .

(٣) أدر الكأس فقد صفا المجلس واغناه حسنه عن حسن الربيع فلم يعد نحس للربيع فقدا .

(٤) فان خلا أبي عامر تذكرنا بالورد والرجس ويسبى عليها عنهما .

(٥) يقول : « لك تردى بالعصن المورق إن مشيت وتردى بالغلي الغرير الطرف إن نظرت .

(٦) يقدم لك الفداء محب أسره عجيب ، فإليك كلما أتيت ذنباً أنى إلا أن يلبس لك الأعذار ويغلفها لك خلفاً

(٧) كنت أقدر أنك تهجرني بعد الوصال وكنت انلاقي كل سبب يؤدي إلى ذلك وأحذر جهدي ألا يقع
ما حفته ولكن القدر لا بد أن يمدح مكره وليس يدفعه حذر . وما أجل قول الشاعر البايع محمود أبي الوفا :

« بالأمي في الهوى دعى وما حلف روحى له ، ليس أمرى في الهوى بيدي »

وقول العباس بن الأعمى :

« أنشد ولدت حواء . لك بليسة طي أماسيها ، وغبلا من الخبل . »

في مدح ابن جهور

مَرَادُهُمْ حَيْثُ السَّلَاحُ حَمَائِلُ وَمَوْرِدُهُمْ حَيْثُ الدَّمَاءُ مَنَاهِلُ ^(١)
وَدُونِ الْمَنَى فِيهِمْ جِيَادُ صَوَافِنُ وَمَأْثُورَةٌ بِيضٌ وَسُتْرٌ عَوَامِلُ ^(٢)
لِكُلِّ نَجِيدٍ فِي النَّجَادِ كَأَنَّمَا تُنَاطُ بِمَتْنِ الرُّمَحِ مِنْهُ الْحَمَائِلُ ^(٣)
طَوِيلٌ عَلَيْنَا لَيْلُهُ مِنْ حَفِيزَةِ دَانَ صَبَابَاتِ النُّفُوسِ طَوَائِلُ ^(٤)
كِئَاسٌ دَنَا مِنْهُ الشَّرَى فِي مَحَلَّةٍ بِهَا اللَّيْثُ يَعْدُو وَالْفَزَالُ يُغَازِلُ ^(٥)

(١) المراد : اسم مكان من راد يرود أى ارتاد طلباً للنخلة والسكّاء ، والحمايل : جمع حيلة وهى الشجر الكثير المجمع للثمن الذى يستر ما فى داخله ، والمناهل - جمع منهل - وهو موضع النهل وهو الضرب أولاً يقال شرب هلالاً بعد نهل يريد أنهم يهلون من دم واردهم ، والمعنى : الذى يرود حى أولئك العرب الانحداد حيث تسكن الحيلة يرود هناك حمائل يكثر فيها السلاح وتشتجر الرماح ، ومن يرد مستجمعهم يتخذ مناهل تهل فيها الدماء ويتمرض واردها لاسباب الدماء .

(٢) الصوافن : من الحيل جمع صافى وهو الذى يقوم على ثلاث ويبنى سبلك الرابعة ، ومأثورة صفة السيوف ، يقال سيف مأثور أى فى مسه أثر بمتع فكون وهو مرند السيف وجوهره وديباجه ، والسمر الرماح ، والعوامل : صدورها جمع طائل ، يقول دون ما تتمناه حى منبع بالصاوات الجياد حى ببس السيوف وسمر الرماح .

(٣) نجيد : شجاع ذو نخدة وبأس ، والنجاد : حمائل السيف ، وتنط : تملق ، يتم الرمح : أى بقامة كالرمح فى الطول ، والعرب تمدح بالطول وتدم الدمامة والقصر ، دل رحل من طي :

«ولما التقى الصمان واختلف الفسا نهالا وأسباب المايا نهالها

تين لى أنت القماء ذلة وأن أعزاء الرجال طواها

دعوا يا سعد واشميننا لطى أسودا لئلا نرى إندامها ونزالها»

وقد أجاد أبو الملاء فى مدح القصر ، فقال :

«عجب الأمام لطول همه ما حد أوفى به قصر على أضرابه

سهم الفتى أصى مدى من سيمه والرمح ، يوم طمانه وضرايه»

(٤) الحفيظة : العصب ، والصبابات : جمع صبابه وهى العشق ، والطوائل : جمع طائفة وهى الفرقة والنار

يقول يطول على كل طويل النجاد ليله من حفيظة وغصب علينا ، وكان العشق وصبابات النفوس أوجبت له هدنا طوائل وترات فهو كمن يطلبنا ليأثر منا .

(٥) الكئاس : مأوى الظباء والبقرا الذى تستكن فيه من الحر ، والشرى : موضع تنسب إليه الأسود .

أَعْمَرُ الْقِيَابِ الْحُمُرِ وَسَطَ عَرَبِيهِمْ لَقَدْ قُصِرَتْ فِيهَا السَّرُوبُ الْعَقَائِلُ^(١)
 أَمْحُجُوبَةٌ لَيْثِي وَلَمْ تَخْضِبِ الْقَنَا وَلَا حَجَبَتْ شَمْسُ الضَّحَاءِ الْقَسَاطِلُ^(٢)
 أَنَاةٌ عَلَيْنَا مِنْ سَنَا الْبَذْرِ بِسَمٍّ وَفِيهَا مِنَ الْغُصْنِ النَّضِيرِ شَمَائِلُ^(٣)
 يَجُولُ وَيَشَاكُهَا عَلَى خَيْرِ رَانَةٍ وَتُشْرِقُ فِي «مَوْشِيَتَيْنِ» الْخَلَائِلُ^(٤)
 وَلَيْلَةٌ وَافْتَنَّا الْكَثِيبَ لِمَوْعِدٍ كَمَا رِيْعَ وَسَنَانُ الْعَشِيَّاتِ خَاذِلُ^(٥)
 تَهَادَى - أَنْسِيَابُ الْأَيْمِ - يَغْفُو إِنْثَارَهَا مِنْ الْوَشْيِ مَرْقُومُ الْعِطَافَيْنِ ذَائِلُ^(٦)

(١) العرين : موى الأسد ، وقصرت : حبست قال تعالى « حور مقصورات في الخيام » أى محوسات في الخيام محذرات على أزواجهن في الخانات ، والسروب : جمع سرب بالكسر وهو القطيم من الطباء والنساء والطيور ، والمقصود في كتب الله أنه يجمع على أسراب وسراب ، وقد جمعه هنا على سروب ، والقياس لا يأتيه كما في حمل وحول وضرس وضروس ، والمقاتل : جمع عقيلة وهي من النساء السكرية المحسرة ، والمعنى أفسم بحياة القباب الحمر وسط عرين حاتمها والداين عنها من أولئك الأسود اعد حاسمت فيها أسراب المعائل ومصب من السروب إلينا والخروج لملاقانا .

(٢) الضحاء : ارتفاع النهار ووقته عقب الضحى بل انتصاف النهار ، والقسائل : جمع قسطل وهو المبار الساطع
 (٣) الاناة : المرأة التى فيها مور عن القيام وتأن ، قال الشاعر :

أما تزين الدت إما تلتس وإن قعدت هلا فأحس بها هلا

أى تزين البيت لاسه حلتها ومتفلة بثوب واحد ، والسنا : المسوء ، والمسم : ما عليها من أثر الوسامة والخنس ، والشمائيل : الطباع .

(٤) وفى الأصل « وتشرق في بردتين الخلاخل » وهذه الرواية يحتمل ورن البيت ، وقد أبدلناها بلفظة « مَوْشِيَتَيْنِ » الموضوعية بين قوسين لأنها بمعنى بردتين منقوشتين ولأنها قريبة منها في رسم الحروف ، إلى أن يظهر خلاف ما أثبتناه هنا .

(٥) ريع : فرح لأسر مفاسح ، واللوسان : الدائر الطرف شبه بالمرأة الوسى من النوم ، والمعنيات : جمع عشية وهي آخر النهار ، والخلادل : من حذات الظلية فهي حاذل تخلفت عن صوابها وانفردت ، يقول ما أس لا أنس ليلة وادنا في الكتيب لومت حددناه موعدا للقاء مكانت كما ريع ظي فاطر اللحظ انفرد عن سائر سرب الطباء ، وقد مرّ الشطر الأول من هذا البيت في قصيدته القائدة ص (٢٤) من هذا الكتاب إذ قال :

وليلة وامننا الكتيب لموعد سرى الأين لم يعلم لسراه مزحف

تهادى اناء الخطو مرتاعة الحشا كما ريع يغفور الفلا التشراف

(٦) تهادى : أصله تهادى ، وهو مشى في تناقل وتمایل وسكون ، والأيم : والأين الحية ، ويعفو : يحو والاثار : جمع أثر جمعه على فعل بالكسر حمما قياسيا كما في جبل وحبال وجبل وجمال ، قال ابن مالك : « وفعل أيضا له فقال ما لم يكن في لامة اعتلال . »

قَعِيدِكَ ، أَنَّى زُرْتِ ضَوْءَكَ سَاطِعُ
هَبِيكَ اغْتَرَزْتِ الْحَىَّ وَاشِيكَ هَاجِعُ
فَأَنَّى اَعْتَسَفْتَ الْهَوْلَ خَطَاؤُكَ مُدْمَجُ
خَلِيلِي مَالِي كُلُّمَا رُمْتُ سَلْوَةَ
أَرَاخُ إِذَا رَاحَ النَّسِيمُ شَامِيًا
صَلَا لَا تَمَادِي الْحُبَّ فِي الْمَعْشَرِ الْمَدَا
وَطِيبُكَ تَفَاحُ وَحَلِيكَ هَادِلُ (١)
وَفَرْعُكَ غَرِيبُ وَلَيْلُكَ لَائِلُ (٢)
وَرِذْفُكَ رَجْرَاجُ وَعِطْفُكَ مَائِلُ
تَعَرَّضَ شَوْقُ دُونَ ذَلِكَ حَائِلُ
كَأَنَّ شَمُولًا مَا تُدِيرُ الشَّمَائِلُ (٣)
وَلَجَّ الْهُوَى فِي حَيْثُ تُخْشَى الْغَوَائِلُ (٤)

ولم نعتز فيما راحناه من كتب الامة على هذا الجمع ، والعطف : بالكسر والمعطف كل ثوب كالرداء ، والطيلسان تعطت أى تردت به ، وسمى عطافاً لوعوه ، على عطى اللبس وهما ناعياً عنه ، والروم : ذو الوشى والنش أو المكسوت عليه رثم البحر ، والدائل ذو الديل ، وهو أيضاً من الدالان وهو مشى مقارب الخطو فيه ذهب وعجلة شبيهة بشية الدث أو المنفل من حمل ، أو هو دشى سريع خفيف فى ميس وسرعة وبه سى الدث . والة ، والمعنى الأول هو المقصود هنا ، يقول وانما الدوعدى تلك الالة تنهادى مشيتها كاسيات الحية فى الرمل نحو ماركه من آثار المشى ، ديل ثوبها الموشى ، وهو مريب من دول امرى النيس : « حرحت بها أ شى نجر وراءنا على أنربا ديل مرط مرحل . »

(١) قعيدك : مصدر معسوب لنيابته عن العمل والتقدير سألت الله حفظك ، وهادل : مرسل مسترخ إلى أسهل (٢ و ٣) مكرران مع قوله فيما تقدم فى العائيه :

« هيك اغتررت الحى واشيك هاجع » وفرعك غريب وليلك لائلك

فأنى اعتسفت الهول خطوك مدمج » وردفك رجراج ونصرك محطف »

ولكن بتغيير القافية كما ترى ، واغتررت : بالغين الميمجة أشت منهم غرة وغمة فزرتنا ، وقد ضمنت معنى خدعت بعداه إلى المفعول بنفسه ، وتقدم تفسيره بالعين للهمة بمعنى حب الحى وطفت به سائلة على غير علم من أهله ، إلا أن هذا يستعمل غالباً فى المترأى طالب المعروف . قال حاتم القنائى :
« أوقد فان الليل ليل قرّ والريح يا غلام ريح صرّ
لعلّ أن يصهرها المعسر إن حلب صيماً فأنت حر . »

(٣) أراح : كأحاف من الارتياح ، وراح : من الرواح ، والشمول : من أسماء الحر ، والشمائيل : حمد

العمال بالفتح وهى ريح تهب من قبل الشام عن يسار القبلة ، وفى الشمال والشمول يقول الشاعر :

« أملت سليمى والذسيم عليل تخيل لى أن الشمال شمول »

كأن الحزامى صعدت منه قرعقا فلكسر أعناق المطى تطول . »

(٤) معنى مكرر بلطفه واسكن بتغيير القافية مع قوله فى النائية المتقدمة :

« لجاج تمادى الحب فى المعشر المدا وأم الهوى الأفق الذى فيه شنف . »

كَأَنَّ لَيْسَ فِي نَعْمَى الْهُمَامِ « مُحَمَّدٍ »
 أَغْرَتْ إِذَا شَمْنَا سَحَابَ جُودِهِ
 يَبْشُرُنَا بِالنَّائِلِ الْغَمْرِ « جُودُهُ »
 لَدَيْهِ رِيَاضُ السَّجَانِ أُنَيْقَةُ
 أَتَى فَمَا تِلْكَ السَّمَاحَةُ مُهْزَةُ
 زَعِيمُ الدَّهَاءِ أَنْ تُصِيبَ مِنَ الْعَدَا
 فَمَا سَيْفُ ذَاكَ الْعَزْمِ فِيهِمْ عِمْقُودُ
 بَنِي « جَهْوَرٍ » عَشْتُمْ بِأَوْفَرِ غِبْطَةٍ
 تَفَاضَلَ فِي السَّرْوِ الْمُلُوكُ، فَخَلَّسْتَهُمْ
 مُسَلٍّ وَفِي مَثْنَى أَيْادِيهِ شَاغِلُ^(١)
 تَهْلَلُ وَجْهَهُ وَأَسْتَهْلَتْ أَنْائِلُ^(٢)
 وَقَبْلَ الْحَيَا مَا تَسْتَطِيرُ الْمَخَائِلُ^(٣)
 تَغْلُغُلُ فِيهَا لِلْعَطَايَا جَدَاوِلُ
 وَفِي فَمَا تِلْكَ الْجِبَالُ حَبَائِلُ^(٤)
 مَكَايِدُهُ مَا لَا تُصِيبُ الْجَحَافِلُ
 وَلَا سَهْمُ ذَاكَ الرَّأْيِ أَفُوقُ نَاصِلُ^(٥)
 فَلَوْلَا كُمْ مَا كَانَ فِي الْعَيْشِ طَائِلُ
 أَنَايِبَ رُمُحٍ أَهْنَمُ فِيهِ حَامِلُ

- (١) - مل : أى صارف عن الهوى لدى تحدث عنه فيما سبق من أبيات القصيدة ، ومثى الأيادي : إعادة المعروف مرتين فأكثر ، والانصاء : من حذور الميسر يشرها الجواد فيطعمها الأبرام ، قال النابغة :
 « يسبك دو عرضهم على واصلهم وليس حامل أسر مثل من علما
 أنى أتمم أيسارى وأوحهم مثنى الأيادي وأكروا الجنة الأدماء »
 واللت من أحسن أبيات التخلّص من الدبيب إلى المدح .
- (٢) تهلل : أشرق وطهرت عليه أمارات السرور ، واستهل : من استهلل المطر وهو انصبابه شدة حتى يسمع له صوت ، شه أنامله في الجود بالسحاب للنهل .
- (٣) الحيا : المطر ، ما تستطير : مارأفة أو مصدرية ، وتستطير : تنشر ونعم الأمل ، والمخايل : جمع محيلة وهي أن ترجو وتفن أن السماء حلقة بالمطر ، وفي الأصل « يبشرنا بالنائل العمر » وسده ياض وقد أكرنا الشطر بلفظ « حوده » الموضوعه بن هلالين أخذنا من السياق ، ومعنى اللت يبشرنا بالهطاء الكثير حوده وقل استهلل المطر تنشر محايله وعلاماته في السماء .
- (٤) الأتني : الزائد الذي يتأتى للامور ، ونهزة : يريد أنه لا يمل السباحة شهارة وافتراساً إذا سنحت له الفرصة بل يتأتى لها ويضى عليها في كل وقت غير متعين لها المرض ، والحل : العهد والذلة والذواصل وعدم التقاطع ، والحائل : جمع حالة وهي المصيدة وفي الحديث « النساء حائل الشيطان » أى مصايده .
- (٥) المعصد والمعضد : سيف متمم على شكل المحل يتخذ القصابون لقطع العظام ، والرعاة لقطع فروج السحر ليعلموا بما يسقط من ورقها غنمهم وإلهم ، وأفوق : مكسور الفوق بالضم وهو حرف السهم وإذا كان في إحدى رمحي السهم أى حرفيه انكسار مذكاة السهم أفوق ، والاصل : الداط النزل وهو حديدة السهم ، والمعنى : أنه ماضى العزيمة صائب الرأى ، وفي الأصل : « أفوف نائل » .

لَنْ قَلَّ فِي أَهْلِ الزَّمَانِ عَدِيدُكُمْ
فِدَاؤُكُمْ مَنْ إِنْ تَعِدُهُ ظَنُونَاهُ
مَنَاكِيدُ^(١) فِعْلُ الْخَيْرِ مِنْهُمْ تَكَلَّفُ
فَإِنْ سُبِّرَتْ أَخْلَاقُهُمْ يَتَخَلَّقُ
لَكَ الْخَيْرُ ، إِنِّي قَائِلٌ غَيْرُ مُقْصِرٍ
لَعَمْرُ سَرَاةِ الشَّعْرِ وَافَاكَ وَفَدُهُمْ
لَا عَذْرَتَ لَمَّا لَمْ يُمَلِّكَ مُكْتُمُهُمْ
نَضَدَتْ رِيَاحِينَ الطَّلَاقَةِ غَضَّةً
فَمَا مِنْهُمْ إِلَّا سَدِيدُ نِزَاعِهِ
صَمَانٌ عَلَيْهِمْ أَنْ سَيُؤَثِّرُ عَنْهُمْ

فَإِنْ دَرَارِي النَّجُومِ قَلَّائِلُ^(١)
لِحَاقِكُمْ فِي الْمَجِيدِ فَالْدَّهْرُ مَا طِلُّ
إِذِ الشَّرُّ طَبَعَ مَا لَهُمْ عَنْهُ نَاقِلُ
فَكُلُّ خَضِيبٍ لَا مَحَالَةَ نَاصِلُ^(٢)
فَرَفَّ لِي بِاسْتِيفَاءِ مَا أَنْتَ فَاعِلُ ؟
لَمَّا ذَمَّ مِنْهُمْ ذَلِكَ النَّزْلَ نَازِلُ
إِذَا عَذَرَ الْمُسْتَنْقِلِ الْمُتَنَاقِلُ^(٣)
وَرَقَرَقْتَ مَاءَ الْبِرِّ وَهُوَ سَلَاسِلُ
إِلَيْكَ مُقِيمُ الْقَلْبِ وَالْجِسْمِ رَاحِلُ
عَلَيْكَ ثَنَاءٌ فِي الْمَحَافِلِ حَافِلُ^(٤)

(١) ألم كثير من الشعراء بهذا المعنى في صور مختلفة تختار منها قول السموأل في لاميته المشهورة :

« تعبرنا أنا قليل عديدنا فقلت لها : إن الكرام قليل وما قل من كات بقاياها مثلاً شباب تسامى للعلا وكهول. »

وقول العباس بن مرداس :

« نعات الطير أكثرها فراحا وأم الصقر مفلاة نزور . »

(٢) جمع منكود من تكدر لرجل نابذ المجهول وهو منكود إذا كفر سؤاله وقتل خيرته .

(٣) خضيب : محضوب ، واصل : وصف من يصل الشعر ينصل بالضم زال عنه الخضاب ، وهو معنى كثير الورود في كلام الشعراء ، قال زهير .

« ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خلها تخفى على الناس تعلم . »

وقال الآخر : « ومن يتخذ خيلاً سوى خيم نفسه يدعه ويغلبه على النفس خيها . »

وقال ذو الأصم العدواني .

« كل امرئ صائر يوماً لشيمته وإن تخاف أخلاقاً إلى حين . »

(٤) لأعذرت : لقد بدا عذرك واتضح ، والمستنقل : السقطي* لمكثهم أكثر مما تستلزمه . ووجبات الضيافة ، والمتناقل : المتباطي* الذي أثقل على مضيفه فأله وأصهره ، يقول أثبت عذرا لنفسك واضحا حين لم تمل ولم تسأم طول مكث سراة الوافدين عليك في وقت يعرف فيه المتناقل عذر مضيفه إذا مل مكانه وعدم ثقلا .

(٥) صمان على هؤلاء الوافدين أنه سيؤثر ويروى عنهم ثناء عليك في المحافل حافل بأنواع المحامد والمدائح .

تَحْتَلِي بِهَا جِيدٌ مِنَ الدَّهْرِ حَاطِلُ
وَتُخَصِّبُ مِنْهَا الْأَرْضُ وَالْأَفُقُ مَاحِلُ

تُرِوقُ الضُّجَا مِنْهُ وَتَنْدِي الْأَصَائِلُ
فَبُشْرَاكَ أَلْفٌ بَعْدَ عَامِكَ قَابِلُ
نَنَا صَالِحِ الْأَعْمَالِ مَا أَنْتَ عَامِلُ
فَلَمْ تَرْضَ حَتَّى شَبَّعْتَهُ النَّوَافِلُ
لَكَ اللَّهُ بِالْأَجْرِ الْمُضَاعَفِ كَافِلُ
لِيَعْتَادَهُ مَحْضُ الْهَوَى مِنْكَ وَاصِلُ
تَنَاقَلَتِ الْبَدْرُ الْمُنِيرُ الْمَنَازِلُ
وَكُلُّ مَدِيحٍ - لَمْ يَكُنْ فِيكَ - بَاطِلُ
وَلَا لِلَوَاءِ الْمَلِكِ - غَيْرُكَ - حَامِلُ

وَبَلَغْتَنِي الْحَظُّ الَّذِي أَنَا آمِلُ (٣)
لَهُ شَاحِدٌ مِنْ حُسْنِ رَأْيِكَ صَاقِلُ
تَزِينُ ، وَلَكِنْ أَنْطَقْتَنِي الْفَوَاصِلُ
خَوَالِدُ حِينَ الْعَيْشِ كَالظِّلِّ زَائِلُ
لِنَفْسِكَ غَيْرِ الْخُلْدِ إِذْ أَنْتَ كَامِلُ (٤)

مَسَاجٍ هِيَ الْمَقْدُ أَنْظَامَ مَحَاسِنِ
ثَنِيرُ بِهَا الْآمَالُ وَاللَّيْلُ وَاقِبُ (١)

هَنِيئًا لَكَ الْعِيدُ الَّذِي بِكَ أَصْبَحْتَ
تَلْقَاكَ بِالْبُشْرِ وَحَيَاكَ بِالْمُنَى
لَنْ يَنْصَرِمَ شَهْرُ الصَّيَامِ لِبَعْدِهِ
رَأَيْتَ أَذَاءَ الْفَرَضِ ضَرْبَةً لَازِمَ
سَدَنْتَ (٢) يَبِيتُ اللَّهُ حُبَّ جَوَارِهِ ،
هَجَرْتَ لَهُ الدَّارَ الَّتِي أَنْتَ آلِفُ
فَإِنْ تَتَنَاقَلَ الدِّيَارُ فَطَالَمَا
أَلَا كُلُّ - رَجَوَى فِي سِوَاكَ - عُلاَةٌ
فَمَا لِعِمَادِ الدِّينِ - حَاشَاكَ - رَافِعُ

لَا مَتْنَنِي الْخَطْبَ الَّذِي أَنَا خَائِفُ
أَرَى خَاطِرِي كَالنَّصَارِمِ الْمَضْبِ لَمْ يَزَلْ
وَمَا الشَّعْرُ مِمَّا أَدْعِيهِ فَضِيلَةٌ
بَقِيَتْ كَمَا تَبَقَى مَعَالِيكَ إِنَّهَا
فَمَا نَسْتَزِيدُ اللَّهَ بَعْدَ نِهَايَةٍ

(١) في الأصل «رائد» (٢) وفي الأصل «سدت» (٣) وقد ورد بعد هذا البيت قوله :
« أَلَمْ هُمِ هِيَ فَمَا أَنَا لَا خُفْلَ وَلَا أَنْتَ ظَالِمٌ . »

وقد أثبتناه ناعسا كما ورد بالأصل .

(٤) قريب من هذا المعنى قوله من قصيدة سابقة :

« لَا أَسْتَزِيدُ اللَّهَ لَمْ يَكُنْ بِكَ ، لَا بَلْ أَسْتَدِيمُ »

إلى ابن جهور

« وقال أيضا مع تفاح أهدها إلى ابن جهور . »

أَتَتْكَ بِلَوْنِ الْمُحِبِّ الْحَبِيبِ تُخَاطِبُ لَوْنِ الْمُحِبِّ الْوَجِلِ^(١)
 ثَمَارُ تَضَمَّنَ^(٢) إِذْرَاكَهَا هَوَاهُ أَحَاطَ بِهَا مُعْتَدِلِ
 تَأْتِي^(٣) لِإِلْطَافٍ تَذْرِيبِهَا فَمِنْ حَرِّ شَمْسٍ إِلَى بَرْدِ ظِلِّ^٤
 إِلَى أَنْ تَنَاهَتْ شِفَاءَ الْعَدِيلِ وَأُنْسَ الْمَشُوقِ وَلَهْوِ الْغَزَلِ
 فَلَوْ تَجَمَّدُ الرِّاحُ لَمْ تَعْدُهَا وَإِنْ هِيَ ذَابَتْ فَخَمَرُ تَحِلِّ^(٥)
 لَهَا مَنَظَرُ حَسَنٍ فِي النُّفُوسِ كَذُنْيَاكَ لَكِنَّهُ مُنْتَقِلِ^(٦)
 وَطَعْمُ يَلِدُ لِمَنْ ذَافُهُ كَلَذَةُ ذِكْرِكَ لَوْ لَمْ يُعَلِّ^(٧)
 وَرَيًّا إِذَا نَفَحَتْ خِلَتُهَا يُعَمِّلُ ثَنَاءَكَ أَوْ تَسْتَهِّلُ^(٨)
 يُعَمِّلُ مَلَسُهَا لِلْأَكْفِ لَيْنَ زَمَانِكَ أَوْ يَمَثِّلُ^(٩)

- (١) معنى البيت: أتتك هذه التماحات بحمرة كحمره خدود الملاح عند الخجل، تخاطبها صمرة كصمرة حدود العاشقين عند الوحل . (٢) أى تكفل بانصاج هذه الثمار هواءه معدل متوسط بين الحرارة والبرودة (٣) تأتى للاسرتفى له وأناه من وجهه ، والمعنى : تلتطف ذلك الهواء فى تدريج نحوها وصبغها بتلك الألوان الراهبة فنقل معها من حر شمس إلى برد طل حتى فضجت وأبنت . (٤) يقول لو أن ذوب الراح تحول إلى جمد لم يعد أن يكون ذلك التفاح ، ولو أن جامد التفاح تحول إلى ذوب أحر لم يعد أن يكون غمرا حلالا لا يتم على شاربها . (٥) يعنى : أن منظرها حسن ينظم ما فى دنياك من محاسن إلا أنه حسن منتقل حائل ، وحسن دنياك لا يحول ولا ينتقل . (٦) ولها طعم حلو اللذاق لذيذ كاذنة ذكراك فى الأسماع إلا أنه يمل وترديد ذكراك لا يمل . (٧) ولها ريا : أى ربح طيبة ، تمل : أى تملى مدحك ، أو تستهل : أى ترفع صوتها بالثناء عليك . (٨) بصور ملس التفاح الناعم للأكف لين زمانك حتى كأنها تمسه ، أو يمثّل أى يضرب نفسه مثلا لين زمانك .

صَفَوْتُ فَأَذَلَّتْ^(١) فِي عَرْضِهَا وَمَنْ يَصِفُ مِنْهُ الْهُوَى فَلْيُدِلْ^٢
 قَبُولُكُمَا نِعْمَةٌ غَضَّةٌ وَفَضْلٌ - بِمَا قَبْلَهُ - مُتَّصِلٌ
 وَلَوْ كُنْتُ أَهْدَيْتُ نَفْسِي أَخْتَصِرُ^(٣) عَلَى أَنَّهَا غَايَةُ الْمُحْتَفِلِ^(٤)

مجلس أبي علي

« لما ورد ابن زيدون إشبيلية نزل في دار
 ذى الوزارتين الكاتب أبي علي بن جبلة وهو
 يبنى فيها مجلساً ، فصنع أبياتاً فكتبت فيه : »

عُمِّرَ مَنْ يَعْمُرُ ذَا الْمَجْلِسَا أَطْوَلَ عُمُرٍ يُنْهَجُ الْأَنْفُسَا
 وَبَعْدَ ذَا عَوْضَ عَنْ دَارِهِ عَدْنَا وَمَنْ دِيْبَا جِهَ السُّنْدُسَا
 وَوُفَى الْفَوْزَ بِهَا وَالرَّضَى وَوُفَى الْأَسْوَاءَ وَالْأَبْوَسَا^(٣)
 وَدَامَ عِبَادُ لِعَهْدِ الْهُدَى يَحْرُسُ حَتَّى يُفْنِيَ الْأَحْرُسَا^(٤)

* * *

مُعْتَضِدٌ بِاللَّهِ إِحْسَانُهُ جَمٌّ إِذَا مَا الدَّهْرُ يَوْمًا أَسَا
 الْمَلِكُ الْغَمْرُ النَّدَى الْمُقْتَنَى مِنْ كُلِّ حَمْدٍ عِلْقَةُ الْأَنْفُسَا^(٥)
 إِنْ رَامَ يَوْمًا وَصَفَ عَلَيْهِ إِيَّاهُ مُفَوَّةٌ مُقْتَدِرَةٌ أُخْرِسَا^(٦)
 لَا زَالَ بَذْرًا طَالِمًا نَيْرًا يَكْشِفُ مِنْ آمَالِنَا الْخُنْدُسَا^(٧)

(١) الأدلال التدل والانبساط والجرأة على من تحب باظهار الدالة عليه ، أى وثقت بما بيننا من الصفاء والود فأفرطت في الدالة عليك بعرض هذا التفاح الذى يتهادى بثلثه الأصفياء المحاصون ، ومن وصف في الهوى فليظهر الدلال على من يحبه .

(٢) المحتفل المبالغ في الاحداء ، والمعنى : لو كنت حين أردت الاحداء أهديت نفسي لاختصرت ، على أنها غاية ما أحتمل وأبالغ في تقديمه إليك هدية . (٣) الأسواء : جمع سوء والأبوس جمع أؤس .

(٤) الأحرس : الدهور ، جمع حرس بفتح مسكون وهو الدهر .

(٥) الملك العظيم الاحسان الذى طهر من الثناء بما لم يظفر به غيره من آيات الحمد .

(٦) إذا رام اللسن البين أن يصف مجده أعياه الخرس لأنه يحاول بذلك أن يظفر بالمستحيل .

(٧) الطلام .

جواب

« كتب الوزير الفقيه صاحب الأحكام والأجاس

« أبو طالب بن مكي » بيتين وهما :

« يا بعيد الدار موصو

لا بقلبي ولساني

ربما باعدك الده

وقادتك الأمانى . »

فكتب إليه الأبيات التالية :

لَا أَفْتِنَانِ كَافْتِنَانِي فِي حُلَى الظَّرْفِ الْحِسَانِ^(١)

خَصَّنِي بِالْأَدَبِ اللَّهُ فَأَعْلَى فِيهِ شَانِي

خَاطِرِي أَنْفَذُ - مَهْمَا قِيسَ - مِنْ حَدِّ السَّنَانِ

أَيُّهَا الْمُرْسِلُ أَطْيَا رَ الْمُعْتَى لِامْتِحَانِي

هَآكَ كَى تَزْدَادَ فِي الْآدَابِ عِلْمًا بِمَكَانِي

قَدْ أَتَيْنَا الطَّيْرُ تَشْدُو بَعْضَ أُنْيَاتِ الْأَغَانِي

بِرِطَانَاتٍ قَضَتْنَا مَا أَقْتَضَتْنَا مِنْ بَيَانِ

إِنْ تَغْنَى الْبُلْبُلُ أَهْتَا جَ غِنَاءَ الْوَرَشَانِ^(٢)

(١) قال في اللسان : الظرف البراعة ودكاء القلب بوصف به اللسان الأروال والعتيات الزولات ولا يوصف به الشيخ ولا السيد، وقد وصف الحسان بالظرف مبالغة ، ويمحوز أن يكون بالضم جمع ظرف، فانه يجمع على ظرف بضمين ، والاسكان في مثله جائز ، والمعنى : ايس يحيد أحد - كما أجيد - الافتنان في صوغ تلك الحلى الحسان التي عليها الظرف واللباقة .

(٢) الورشان : طائر لجه - فيما يقولون - أخف من الحمام ، والمعنى : أن غناء البلبل يحتاج غناء الورشان يشير بذلك إلى أن شعر صديقه الوزير احتاجه لحرك فيه بواث الشعر كما احتاج غناء البلبل غناء الورشان .

فَتَأْدَى مِنْهُ يَدَنَا غَزَلَ مُنْقَرِدَانِ
لِمُحِبِّ فِي حَبِيبٍ عَنْهُ نَاءٌ مِنْهُ دَابِ :
« يَا بَعِيدَ الدَّارِ مَوْصُو لَا بِقَلْبِي وَلِسَانِي
رُبَّمَا تَبَاعَدَكَ اللَّهُفَرُ فَأَذْنُكَ الْأَمَانِي »

كن كيف شئت

بَاغَزَ إِلَّا أَصَارَنِي مُوْتَقًا فِي يَدِ الْمِحَنِ
إِنِّي - مَذْهَجَرَتْنِي - لَمْ أَذُقْ لَذَّةَ الْوَسَنِ
لَيْتَ حَظِّي إِشَارَةً مِنْكَ، أَوْ لِحَظَةً عَنْكَ^(١)
شَافِعِي يَا مُعَذِّبِي فِي الْهَوَى - وَجْهَكَ الْحَسَنِ
كُنْتُ خِلَؤًا مِنَ الْهَوَى قَانَا الْيَوْمَ مُرْتَهَنًا^(٢)
كَانَ سَرَى مَكْتُمًا وَهُوَ الْآنَ قَدْ عَلَنَ^(٣)
لَبَسَ لِي عَنْكَ مَذْهَبٌ فَكَمَا أَشَدُّتُ لِي فَكُنْ^(٤)

(١) يقول : لاني اقم معك بالشيء المليل النافه وأكتفى بأن يكون حظي من حرك إشارة أو لحنه سريعة وقد دار الشعراء حول هذا المعنى ، واملأ أبدع ما قيل فيه قول جميل شبيهة :

« ولاني لأرضى من بنية بالدي لو أصبره لوأشى افرت بلابله
بلا ، وبألا أستطيع ، وبألى ، وبالأمل المرحو قد خاب آله
وبالظرة العجلى ، وبالحول تنقضى أواخره - لانتقى - وأوائله . »

(٢) الخلو : الخالي . يقول « كنت طليقاً حالياً من إيسار الهوى فصرت اليوم أسيراً مرتتهنا . »

(٣) يقول : « كان سرى حائياً لا يعلمه أحد وأصبح معلناً ، وما أجهل قول صرود في شبيه هذا المعنى

« وفد كشف الغطاء فما نبألى أصرحاً بذكرك أم كنيئنا

سائل عن ثمامات بحزوى وبات الرمل يعلم من عنينا

ولو أنا فتادى « ياسليمى » اقالوا : ما عنيت سوى لبيى »

(٤) يقول : « لافكاك لى من إيسار حبك فاصنع بى ما أنت صانع . »

حنين

هَلْ رَاكِبٌ ذَاهِبٌ عَنْهُمْ يُخَيِّنِي إِذْ لَا كِتَابَ يُوَفِّيَنِي فَيُخَيِّنِي ^(١)
 قَدْ مِتُّ إِلَّا ذِمَاءٌ فِي يُمُسِكُهُ أَنْ الْفُؤَادَ بِلُقْيَاهُمْ يُرَجِّئِي ^(٢)
 مَا سَرَّحَ الدَّمْعَ مِنْ عَيْنِي وَأَطْلَقَهُ إِلَّا أَعْتِيَادًا سَيَّ فِي الْقَلْبِ مَسْجُونِ ^(٣)
 صَبْرًا لَعَلَّ الَّذِي بِالْبُعْدِ أَمْرَضَنِي ، بِالقُرْبِ يَوْمًا يُدَاوِينِي فَيَشْفِينِي
 كَيْفَ أَصْطَلِبَارِي وَفِي كَانُونِ ^(٤) فَارَقَنِي قَلْبِي وَهَاتَخُنْ فِي أَعْقَابِ تَشْرِينِ ^(٥)
 شَخْصٌ يُذَكِّرُنِي قَاهُ وَغُرَّتَهُ شَمْسُ النَّهَارِ وَأَنْفَاسُ الرِّيَاحِينِ
 لَنْ عَطِشْتُ إِلَى ذَاكَ الرُّضَابِ لَكُمْ قَدْ بَاتَ مِنْهُ يُسْقِينِي فَيُرْوِينِي
 وَإِنْ أَفَاضَ دُمُوعِي نَوْحٌ بَاكِئَةٌ فَكَمْ أَرَاهُ يُغَنِّئُنِي فَيُشْجِينِي ^(٦)
 وَإِنْ بَعُدْتُ وَأَصْنَعْتُني الْهُمُومُ لَقَدْ عَهْدَتُهُ وَهُوَ يُذَنِّبُنِي فَيُسْلِينِي
 أَوْ حَلَّ عَزَائِي نَأْيُهُ فَلَكُمْ حَلَلْتُ عَنْ خَصْرِهِ عَقْدَ الثَّمَانِينِ ^(٧)

(١) هل يوافيني رسول من قل من أحبه يحمل إلى محبتهم بعد أن حرمت كتبهم التي كانت تعيد إلى الحياة .
 (٢) لقد كدت أحسب في عداد المهلكي لولا بقية قليلة من الروح يبحثها في الرجاء والامل في لقاءهم .
 قال ابن الرومي في رثاء ابنه :

« ولقد تمزى القلب سلوته أنى بأن ألفاك مرتين . »

(٣) لم يفيض دمي إلا دكريات مؤلمة مسجونة في قلبي تمنادني حيناً بعد حين وتطبف بعسى فتطلق الدمع وتسرجه . (٤) شهر من شهور الشتاء وهو ديسمبر ، قال أبو العلاء :

مضى كانون ما استعملت فيه حميم الماء ، فاقدم يا شرباط

تشابه أنفاس الحشرات تنفي يكون لمن بالصيف ارتباط

(٥) شهر من شهور السنة الرومية وهو يوافق ١٤ أكتوبر ، وهما تشرينان أحدهما في ١٤ أكتوبر والثاني في ١٤ نوفمبر ، ولعل المراد تعرين الثاني . (٦) في الأصل : يروى .

(٧) عقد عزائي : العقد ضد الحل ، والعزاء : الصبر ، والنأي : البعد وعقد الثمانين : أحد عقد الأصابع التي يفهم بها عدد الثمانين والاشارة إلى عقد الثمانين تكون ببسط الإبهام والسبابة معا متلاصقتين بلا درجة ظاهرة بينهما ، والمعنى : لئن حل نأى الحبيب وبمده عقد عزائي وسلواني عنه ، فكثيراً ما حلت عن خصره نطافاً تشبه في الضيق عقد الثمانين ، وهذا الحصر الذي وصفه ابن زيدون يدق في الوم ، ويلطف في الحيال والحس إلى حسد أنا لا نأثر له على شبيه ومثيل حتى ولا في خصور الناحلات الرشيقا

*
*
*

يَا حُسَيْنَ إِشْرَاقِ سَاعَاتِ الدُّنُوبِ بَدَتْ كَوَاكِبًا فِي لَيَالِي بُعْدِهِ الْجُؤُنِ (١)

من بنات أوروبا وباريس في العصر الحاضر عصر العفن والرشاقة ، ودقة الحضور ، والامراط في تصديق عقد النطاق .

عقد الأصابع

لما كانت كلمة « عقد الثمانين » الواردة في بيت « ابن زيدون » هذا لا يبين فيها وجه التعقيد والمعاطة التي عند إليها ابن زيدون أحيانا ، إلا عند بيان ما تدلّ عليه عقد الأصابع من الأعداد العريضة للحساب ، وهو اصطلاح قديم استعمله العرب ، وجاء في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم عقد ثلاثة وخمسين في التشهد ، أي بقبس الخصر والبصر والوسطى على هيئة خاصة تدلّ على العدد المذكور ، فنحن نستطرد بلخص ما هو مبسوط في بعض كتب اللامعة والدحو متعلقاً بهذا الموضوع فقول : حصلوا للدلالة على الأحاد من أصابع اليد اليمنى الخصر والخنصر والوسطى ، والامشرات إلى التسمين الوسطى والسبابة .

فالعقد الدالّ على الواحد يكون بالصاق الخنصر باطن الكف مع بسط سائر الأصابع ، وعلى الاثنين بالصاق البصر معها كذلك ، وعلى الثلاثة بضم الوسطى إليهما كذلك ، وعلى الأربعة بالصاق البصر والوسطى وحدهما كذلك ، وعلى الخمسة بالصاق الوسطى وحدهما كذلك ، وعلى الستة بالصاق البصر وحدهما كذلك ، وعلى السبعة بالصاق الخصر وحدهما ممدودة إلى أسفل الكف على شكل يحال شكل الواحد . وعلى العشرة بوضع ظهر السبابة في وسط باطن أكلة الإبهام بحيث يحصل شكل حلقة ، ولكن مع ثوز رأس الإبهام بقدر نصف الأكلة ، وعلى العشرين بحمل المعصل الأول من السبابة على ظهر الإبهام بحيث تكون السبابة على شكل الدال ، وعلى الثلاثين بضم رأس باطن السبابة إلى باطن رأس الإبهام على هيئة لاقط الابرّة ، وعلى الأربعين بوضع باطن أكلة الإبهام على ظاهر أصل السبابة مما يلي الكف ، وعلى الخمسين بوضع الطرف الأيمن للإبهام على محز العقدة السفلى للسبابة بحيث تكون قائمة ، والجانب الأهل للإبهام معنياً عليها ، وعلى الستين بوضع باطن أعلى أكلة الإبهام على باطن أعلى أكلة السبابة ، بحيث تكون السبابة على شكل قوس وتره الإبهام ، وعلى السبعين بوضع حرف ظهر الإبهام على العقدة الوسطى لاطل السبابة على هيئة رامي الحصاة بالهدف « وهو رمي شعار الحصا بعد أحدها بين طرفي السبابة والإبهام » ، وعلى الثمانين بسطهما معاً لاصتين بلافرجة بينهما كما أسلفناه في شرح البيت الذي نحن بصددده ، وعلى التسعين بطن السبابة إلى أصلها ووضع الإبهام على ظهر العقدة الوسطى للسبابة كما تتجوى الحية .

وجعلوا للدلالة على المئات من أصابع اليد اليسرى السبابة والإبهام طبق ما في اليد اليمنى . فالمائة في اليسرى كالعشرة في اليمنى ، والمئتان كالعشرين ، وهكذا إلى التسعمائة ، والألف في اليسرى كلواحد في اليمنى ، والألفان كالانين ، وهكذا إلى تسعم آلاف ، والعشرة آلاف بضم أعلق السبابة والإبهام بطاً لبطن ، وتستعمل عند أصابع اليدين معاً للدلالة على الأعداد المركبة من الأحاد والعشرات والمئات والآلاف بنفس الهيئات المتقدمة .

(١) أي أن ليالي الوصال تبدو مصيبتات لامعات في ليالي البعاد السود .

وَاللّٰهُ مَا فَارَقُونِيْ بِاخْتِيَارِهِمْ - وَإِنَّمَا الْكَفَرُ بِالْمَكْرُوهِ يَزْمِينِي
وَمَا تَبَدَّلْتُ حُبًّا غَيْرَ حُبِّهِمْ - إِذَا تَبَدَّلْتُ دِينَ الْكَافِرِينَ دِينِي^(١)
أَفْدَى الْحَبِيبِ الَّذِي لَوْ كَانَ مُقْتَدِرًا - لَكَانَ بِالنَّفْسِ وَالْأَهْلِينَ يَفْدِينِي
يَا رَبِّ قَرِّبْ - عَلَى خَيْرٍ - تَلَاوِينَا - بِالطَّالِعِ السَّعْدِ وَالطَّيْرِ الْمَيَّامِينَ .

في الغزل

أَيُّوحِشْنِي الزَّمَانُ وَأَنْتَ أَنْسِي - وَيُظْلِمُ لِي النَّهَارُ وَأَنْتَ تَشْمِسِي
وَأَغْرِسُ فِي مَحَبَّتِكَ الْأَمَانِي - فَأَجْنِي الْمَوْتَ مِنْ ثَمَرَاتِ غَرَمِي^(٢)
لَقَدْ جَاوَزْتَ غَدْرًا عَنْ وَفَائِي - وَبِعْتَ مَوَدَّتِي ظَلَمًا يَبْخُسِ
وَلَوْ أَنَّ الزَّمَانَ أَطَاعَ حُكْمِي - فَدَيْتُكَ - مِنْ مَكَارِهِهِ - بِنَفْسِي^(٣)

في بعض مجالس الأناجس

يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الْجَلِيلُ بِكُلِّ أَلْسُنٍ جَلَالُكَ - انْظُرْ إِلَى مُحْتَلِنَا^(٤) قَدْ زَانَ سَاحَتَهُ اخْتِلَالُكَ
نَهْرٌ وَرَوْضٌ نَحْنُ بَيْنَهُمَا تُفِيدُنَا ظِلَالُكَ^(٥) - قَدْ فَاضَ فِي هَذَا نَدَا لَكَ وَنَعَمْتَ هَذَا خِلَالُكَ .

-
- (١) إن إيماني بحبهم كإيماني بديي سواء بسواء . وليس في مقدور أحد أن يدلي بمن أحب إلا إذا استطاع أن يتغلب من ديبه إلى الكفر .
- (٢) يقول : « هل من العدل أن أكثر من الآمال والأمانى فلا أجني من ذلك كله إلا الاحفاق :
- (٣) ليت الزمان يقبل حكمي ، أدن لعديتك بنفسى ، وإن كنت لا تجاريى بحبي إلا بالغدر .
- (٤) المكان الذى حللنا فيه .
- (٥) وفي الأصل : « توافنا طلالاك . » والطلال : ما أظلك من سحب ونحوه ، وظلال البحر : أمواجه ، والمقصود هنا النعيم والراحة ، ولما كانت بلاد العرب في غاية الحرارة وكان الظل عندهم من أعظم أسباب الراحة جعلوه كناية عن الراحة .

شكوى وألم !

« قال في مدح ابن جهور »

ألم يأن أن يئسكى الغمام على مثلي
وهلاً أقامت أنجُمُ اللَّيْلِ مائتاً
ولو أنصفتني - وهى أشكاهم -
ولا فترقت سبعُ الثُّرَيَّا وغاضها (١)
ويطلب تأري البرق من نصلي النصيل (٢)
لتنذب في الآفاق ماضع من تشلي (٣)
لألت بآيدي الذل لما رأت ذلي
بمطلعها ما فرق الدهر من شملي

* * *

لعمري الليالى إن يكن طال ترعها
تحملت باداي وإن ماري
أخص لفهمي بأقلى وكأئما
وأجنى على نظمي لكل قلادة
ولو أنني أستطيع كى أرضى العدا
لقد قرطست بالنبل في موضع النبل (٤)
لسانحة في عرض أمنيّة عطل
بيت لذي الفهم الزمان على دخل (٥)
مفصلة السمطين بالمنطق الفصل
شرئت ببعض الحلم حظاً من الجهل (٦)

(١) الذى فى الأصل المتول « ألم يأن أن يئسكى الحام على قتلى » والذى أنبتاه هنا هو ما نقلناه من
الدخيرة لابن بسام وهو أصب مما ذكر فى الأصل لأنه يريد من الطبيعة أن تنكى لبكائه ، وتثار من أعدائه .

(٢) مثلى : أى ما انتقله واستخرجته فى حياتى من جاه ومنصب ومال .

(٣) غاضها : غيضاها أى أخفاها .

(٤) ترعها : حذبها وتر القوس مصوبة نحوى سهام المصائب ، وقرطس : أى أصاب انقرطاس ، وهو

غرض من أديم يتخذ للنضال وأسد يد الرماية .

(٥) اقلى - بالكسر - البعس ، والفحل النار ، يريد أن غيره من أهل الجهل نالوا الحظوة والقربى ،

وهو لئهم خص بالقل والبعد وكأئهم قد جى على الزمان فبات يطالبه بشاره .

(٦) الحلم : العقل ، والحظ : النصيب . يقول : لو أستطيع لإرضاء العدا وشفاء ما فى نفوسهم من

الحقد لاستبداد بشىء يسير من الجهل ، حظاً عظيماً من العقل .

أَمَقْتُوَلَةَ الْأَجْفَانِ مَالِكٍ وَالْهَامِ أَلَمْ تُرِكَ الْأَيَّامُ نَجْمًا هَوَى قَبْلِي ^(١)
 أَقْلِي بُكَاءَ لَسْتِ أَوَّلَ حُسْرَةٍ طَوَتْ بِالْأَسَى كَشْحًا عَلَى مَضَضِ الشُّكْلِ ^(٢)
 وَفِي « أُمِّ مُوسَى » عِبْرَةٌ أَنْ رَمَتْ بِهِ إِلَى الْيَمِّ فِي التَّابُوتِ فَأَعْتَبِرِي وَأَسْلِي ^(٣)
 لَعَلَّ الْمَلِيكَ الْمُجْمِلَ الصَّنْعِ - قَادِرًا لَهُ - بَعْدَ يَأْسٍ سَوْفَ يُجْعِلُ ضُنْعًا لِي ^(٤)
 وَلِلَّهِ فِينَا عِلْمٌ غَيْبٍ وَحَسْبُنَا بِهِ - عِنْدَ جَوْرِ الدَّهْرِ - مِنْ حَكَمٍ عَدْلٍ ^(٥)

مُهَامٌ عَرِيقٌ فِي الْكِرَامِ ، وَلَمَّا تَرَى الْفَرْعَ إِلَّا مُسْتَمَدًّا مِنْ الْأَصْلِ
 نَهْوضٌ بِأَعْبَاءِ الْمُرُوءَةِ وَالْثَقَى سَحُوبٌ لِأَذْيَالِ السِّيَادَةِ وَالْفَضْلِ
 إِذَا أَشْكَلَ الْخَطْبُ الْمِلْمَ فَإِنَّهُ وَآرَاءُهُ كَالْخَطِّ يُوضَعُ بِالشُّكْلِ

وَذُو تُدْرٍ لِلْعَزْمِ - تَحْتَ أَنْاتِهِ - كَمُونُ الرَّدَى فِي فِتْرَةِ الْأَعْيُنِ النَّجْلِ ^(٦)

(١) أمه ولة الأسفان ، الهزلة فيه للبداء أى يامن فى أحكامها دور وتكره ، ولواله : الشديدة الحزن على
 فقد ولدعا شهها فى شدة حرئها على محبة الهاوى فى غيابة السجن بالمرأة التكلى التى لا تنقر أحكامها العاترة
 المقرحة عن الكاء اعقد الحبيب .

(٢) الكشخ : الخاصرة ، وطوى كشحه على كذا استدر عليه ، والمضض : ألم المصيبة ، والشكل -
 بالضم - فدان الولد والحبيب : أى لا تكلى باستمرار فليست أول حرّة لارمها وجع مصيبة التكل .

(٣) يشير بهذا إلى قوله تعالى : « وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألنيه فى اليم ولا
 تخافى ولا تحزنى إنا رادّوه إليك » أى اعبرى بهسده القصة واصبرى .

(٤) اعمل الملك المعتاد صنع الجليل - قادرا اصنعه قدره - سوف يعمل على خلاصى بعد يأس .

(٥) بلى هذا الب بيب وحدى الأصل ناصبا هكذا :

..... آل جهور لمستحكم الأسباب مستحصد الحبل

(٦) ذو تدرا - بالضم - أى . وعدة وقوة على مداومة أعدائه إذا وجه عزيمته لعمل أسكن الردى
 تحب تأنيه كونه تحب صور الأعين الجبل أى الواسعة جمع نجلاء ، واستعمل الفترة بمعنى انكسار جهون
 السنين وضمها ليعقد بنها وبين الأناة مناسبة وموافقة .

يَرِفَ عَلَى - التَّامِيلِ - لَأَلَاءِ بَشَرِهِ
مَحَاسِنُ مَا لِلْحُسْنِ فِي الْبَذْرِ عِلَّةٌ
تُعِصُّ ثَنَائِي مِثْلَمَا غَصَّ جَاهِدًا
وَتَفْنَى عَنِ الْمَذْحِ بِاِكْتِفَاءِ بِسْرُوهَا -

كَمَارَفَ لَأَلَاءِ الْحُسَامِ عَلَى الصَّقْلِ (١)
سِوَى أَنَّهَا بَاتَتْ تُثْمِلُ فَيَسْتَمِلِي (٢)
سِوَارُ الْفَتَاةِ الرَّادِ بِالْمُعْصَمِ الْخُذَلِ (٣)
غَنَى الْمُقَلَّةِ الْكَخْلَاءُ عَنْ زِينَةِ الْكُخْلِ

* * *

« أبا الحزيم » إني في عتابك - مائيل
حَمَامٌ شَكْوَى صَبَّحَتْكَ هَوَادِلًا
جَوَادُ إِذَا أَسْتَنَّ الْجِيَادُ إِلَى مَدَى
ثَوَى صَافِنًا فِي مَرْبَطِ الْهُونِ يَشْتَكِي

عَلَى جَانِبٍ - تَأْوِي إِلَيْهِ الْعُلَا - سَهْلٍ
تُنَادِيكَ مِنْ أَفْنَانِ آدَانِ الْهُدَلِ (٤)
تَمَطَّرَ فَاسْتَوَلَى عَلَى أَمْدٍ الْخَصْلِ (٥)
بِتَضَمُّنِهِ مَا نَالَهُ مِنْ أَدَى الشَّكْلِ (٦)

(١) يرف - بالكسر - يرفق ويتلأأ ، أى يلوح لألاء بشره مع التأميل كما يبدو برقى السبب ولعمارة حين تصفله وتجلوه .

(٢) ثمل مصارع أمل : يقال أملاه العول وأمله ألقاه عليه ليكتبه ، ومنه قوله تعالى : « وقلوا أساطير الأولين اكتبها غنى تملى عليه » وقوله تعالى : « فليمل وليه بالمدل » واستعملته السكتاب طلب أن يمليه على ، أى هذه محاسن المدوح الشبيه بالنذر لاجب فيها - سوى أنها بائنة تملى على الشاعر وهو يكتب ، ويستكتبها فتمليه .

(٣) ثمن ثنائي : أى تجمعه يمين كما يمين الشارب بالماء فلا يمكنه أن يستوى هذه المحاسن كلها أو يسيعها ، وكما يمين سوارا لفتاة الراد أى التي ترود بيوت حاراتها بالمعصم الخذل - بالعدل المهملة - أى المدلى فلا يتحرك (٤) الهوادل : جمع هادلة ، والهديل : صوت الحمام ، والهدل : جمع أهمل ، وهو صفة الأفنان ، يقال : تهدأ أغصان الشجرة أى تدأ - يثمل شكوى رفعها إليه بالحمام الهوادل تناديه بهديله من أعلى - سجرة الأدب وتد تدأ أفنانها ، وتهدأ أفصانها .

(٥) استلب الحداد : مضت على وجهها في الساق ، والمدى : الغاية تمطر : جاء إلى البابة مسرعا ، فاستولى على الخصل : غلب على الرهان - يضرب الشاعر نفسه بالسق على غيره .

(٦) ثوى : أقام ، والعاصي : من الجياد الذى قام على ثلاثة قوائم وقلب حابر الراحة ، والشكل - بفتح - مسكون - شد قوائم الدابة رأسكال - يصف حاله في محبسه وما يبته من الشكوى بحال الحواد المقير على افون يشكو بتضمه ، أدى شكله ، قال ابن بسام في الذخيرة : « وقوله ثوى صافنا » كقول المتنبي :

« وإن تكن محكمات الشكل تسمى ظهور جرى على فيهن تعمال . »

أَفِي الْعَدْلِ أَنْ وَافَتَكَ تَتَرَى رَسَائِلِي
أَعِدُّكَ لِلْجُلَى وَأَمَلُ أَنْ أَرَى
فَلَمْ تَتْرُكْنِ وَضْعًا لَهَا فِي يَدَيَّ عَدْلٍ
بِنِعْمَتِكَ مَوْسُومًا وَمَا أَنَا بِالْعَقْلِ
وَمَا ذَاكَ وَعْدُ النَّفْسِ لِي مِنْكَ بِالْمُنَى
كَأَنِّي بِهِ قَدْ شِمْتُ بَارِقَةَ الْمَحَلِ (١)

أَنْ زَعَمَ الْوَاشُونَ مَا لَيْسَ مَزْعَمًا
وَأَصْدَى إِلَى إِسْعَافِكَ السَّائِعِ الْجَنَى
تُعْذِرُ فِي نَصْرِي وَتُعْذِرُ فِي خَذْلِي
وَأُضْحِي إِلَى إِنْصَافِكَ السَّابِغِ الظَّلَ (٢)
وَلَوْ أَنَّنِي وَافَعْتُ عَمْدًا خَطِيئَةً
لَمَا كَانَ بِدَعَامِنِ سَجَايَاكَ أَنْ تُنْمِلِي (٣)
فَلَمْ أَسْتَتِرْ حَرْبَ « الْفِجَارِ » وَلَمْ أَطِيعِ
« سُيْلِمَةَ » إِذْ قَالَ: إِنِّي مِنَ الرُّسُلِ (٤)

(١) في معنى هذه الأبيات يقول ابن الرومي معانيها :

« إِذَا أَبْ أَرَمَعْتُ الْعَنِيَّةَ مَرَّةً فَلَا تَعْتَصِرُ مَاءَ الْعَنِيَّةِ بِالْمَطَلِ
وَلَا تَحْلُطُ الْحَسَى بِسَوْءِهِ فَهُوَ يَجْشِمُنِي أَنْ تَحْلُطَ الشُّكْرُ بِالْعَدْلِ
أَتَرْضَى بِأَنْ تَكُنِّي بِسَهْلٍ وَتَنْ تَرَى وَمَا مَطْلَبُ الْخَادَةِ عِنْدَكَ بِالسَّهْلِ
أَنْفَ لِعِشَاقِ الْمَكَارِمِ أَنْ بَرَى مُوَاعِيدِهِمْ مِثْلَ الْوَارِقِ فِي الْمَحَلِّ . »

(٢) أصدى : مصارع صدى - بالكسر - أي أعطش ، وأضحى مضارع كل من ضحا وضحي - بالفتح
والكسر - أي أبرز للشمس ، و... قوله تعالى : « وَأَنْتَ لَا تَطْلُبُ فِيهَا وَلَا تَسْجِي » واستعمله هنا
في البروز إلى إصافه السابغ الظل ، لا في البروز إلى الشمس ، وبعد هذا البيت وجد في الأصل بعض بيت
على هذه الصورة :

وحاشاك رام العذب لإبلاغ سمعه فمهم

(٣) واقمت دانيت ، وعلى تهمل ولا تنعجل العقوبة ، أي لو أرى دانيت متممدا لوموع في الخطيئة لم يكن
من سجاياك غير المعو والامهال .

(٤) يقول : إن هفتوني صغيرة لا ينبغي أن تجسم إلى حد أن أكون كثير حرب الفجار أو كطبيع مسيلة
في دعواه الرسالة ، والفجار : بالكسر بمعنى المعاجرة كالقتال والمقاتلة ، وسميت حرب الفجار لأن العرب
لجروا فيها إذ قاتلوا في الأشهر الحرم ، وكان للعرب قبل بعث النبي صلى الله عليه وسلم أربع فجارات
آخرها حرب الفجار التي ذكرت في كتب السير ، وكان بين قريش ومن معها من كنانة ، وبين قيس عيلان
وعهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بمس أيامها سنة وعشرون سنة ولم يقاتل ولكنه كان يبذل على
أسماءه أي يرد عليهم نبل عدوهم إذا رموه ، وأما « سائلة » فكان من حبره أن وفد مع قومه

وَمِثْلِي قَدْ تَهَفُّوْا بِهٖ نَشْوَةُ الصَّبَا
وَمِثْلَكَ قَدْ يَمَقُّوْا ، وَمَا لَكَ مِنْ مِثْلٍ
وَبَنِي لَتَنْتَهَانِي نُهَائِي عَنِ الْبَنِي
أَشَادَ بِهَا الْوَاشِي وَيَعْقِلُنِي عَقْلِي ^(١)

* *

أَأَنْكُتُ فِيكَ الْمَدْحَ - مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ -
وَلَا أَقْتَدِي إِلَّا بِنَاقِضَةِ الْغَزْلِ ! ^(٢)
ذَمَّمْتُ إِذَا عَهْدَ الْحَيَاةِ وَلَا يَزَلُ
مُحَرًّا عَلَى الْأَيَّامِ طَعْمُهُمَا الْمَحْطَى ^(٣)
وَمَا كُنْتُ بِالْمُهْدِي إِلَى السُّودَدِ الْخَنَاءِ
وَلَا بِحِيٍّ لَا أَثْنِي بِآلَاءِ مُنْعَمٍ
هِيَ النَّعْلُ زَلَّتْ بِي ، فَهَلْ أَنْتَ مُكْذِبٌ
لَقِيلِ الْأَعَادِي إِنَّهَا زَلَّةُ الْحُسْلِ ^(٤)
وَهَلْ لَكَ فِي أَنْ تَشْفَعَ الطُّوْلَ شَافِعًا
فَتُنَجِّحَ مَيِّمُونَ النَّقِيبَةَ أَوْ تُتْلَى ^(٥)

« مني حبيبة » على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولما رجع ومن معه من قومه إلى « البصرة » ادعى السوء ، وأنه أشرك مع محمد بالأمر ، واجتمع عليه « بنو حبيبة » وكانوا أربعين ألف مقاتل ، وفي عهد الخليفة « أني نكر » رضى الله عنه أرسل إليه « خالد بن الوليد » على رأس جيش ، وحررت حرب بين ألفي ألف قتيل « مسيلة » وتفرق أصحابه .

(١) نهائى أى عقلى فاسم تفعلة مفردا ، قال فى اللسان : « والذى العقل يكون واحدا وجمعا ، وفى التنزيل العزيز : إن فى ذلك لآيات لأولى النهى » اهـ ، وكان عليه حيث اعتبره فردا وأما إلى نفسه أن نرد العمل من علامة التأنيث إلا أن يكون قد أراد جمع نهييه ، وأن عقله اقوته بتأنيدها هى متعددة ، عن التى : أى مهمة التى ، أشاد بها : أساءها وندد بها ، ويعقلى يحبسى ويعنى .

(٢) ناقضة الغزل ، فى الكشف عند قوله تعالى : « ولا تكونوا كأتى عصب غزلهما من بعد قوة أنكاه » قيل هى ربطة بات سعد بن تميم وكانت خرقاء اتحدت مغزلا مدر دراع ، وصارة مثل أصبع ، وقد كانت عظيمة على قدرها ، فكانت تغزل هى وحواريها من الهداة إلى الظلم ، ثم تأمرهن فيقفن ماغزلن .

(٣) محمدا من أمر الطعام صيره مرا ، والمحلى اسم مفعول من حليت العيش أحلاه أى استحلته .

(٤) الخسة والنداء ، والحسل - الكسر - ولد الضب ، ويكى الضب : « أبا الحسل » .

(٥) تشفع : من قولهم شفع الوتر من العدد شعما صيره روجا ، والطول : القدرة الفصل ، وتبلى : تبلى مصارع أنثى ، إياه أتيهه ، والذى هل لك أن تضم إلى طولك وإحسانك شاعرا منك يشفع لى فى الخلاص من السجن فتسعى نادراك حاجق فى حال كوكب ميمون النقية أو تبلى أى تنفع الإحسان والشفاعة بأمثالهما : هذا مبلغ مايعهد من البيت ، وقد وجد فى الأصل « تبلى » بالباء الموحدة ، وقد فهمنا من السياق أنها تبلى لا تبلى ليناسب قوله « تشفع » أى تضم .

أَجْرُ أَعْدَائِنِ أَحْسَنُ أَبَدًا عَدَا كَفِ حُطِّ تَحَفَّ ابْسُطِ اسْتَأْلِفِ صَنِ أَحْمِ اصْطَنِعِ أَعْلِ ^(١)
مُنَى - لَوْ نَسَى عَقْدُهَا يَدِ الرِّضَا - تَيْسَّرَ مِنْهَا كُلُّ مُسْتَضْعَبِ الْحَلِّ ^(٢)

أَلَا إِنَّ ظَنِّي - بَيْنَ فِعْلَيْكَ - وَاقِفٌ
فَإِنْ تُنَمِّنَ لِي مِنْكَ الْأَمَانِي فَشِيمَةٌ
وَالْأَجْنَيْتُ الْإِنْسَ مِنْ وَحْشَةِ النَّوَى

سَمِعَنِي عِمَّا صَنِيعَتْ مِنِّي حَافِظٌ وَإِنْ جَوَابُكَ عَنْكَ تَرْضَى بِهِ الْعُلَمَاءُ وَيُلْقَى لِمَا أَرَخَصْتَ مِنْ خَطَرِي مُغْلًى إِذَا سَأَلْتَنِي بَعْدُ أَلْسَنَةُ الْحَفَلِ (٥)

(۱) فی هذا البیء كما یرى العازیء محاکاة لقول التثنیء ، وقد سئل بیتاً يتضمن أكثر ما یکن من الحروف ، فقال :

« عش ، اق ، اسم ، سد ، حد ، قد ، مه ، انه ، اسر ، هه ، تسلسل
غظ ، ارم ، صب ، احم ، اغر ، اسب ، رع ، زع ، دل ، اثن ، مل
وهـدا دعاه لو مسـك كميته لاني سأل الله فيك ، وقد تسلسل . »
وحير من هذه المعاطلة قول ابن الرومي :

« أُلِي ، ورهبي ، وأحزل مثوبي وثابر على إدرار بـرى وواظ
لأثني جدواك - وهي سليمة من الذم - ما فيها اعتلال أمان . »

(٢) لو تسي : أى فسهل وتسهل أحكام أمر تلك إلى بيد المدعوع لتسهل منها ما استصعب حله .

(۳) تمی : تقدیر من مذاہ اللہ یمتیہ قدرہ ومنہ قول الشاعر :

« لا تأمن الدهر في حل وفي حرم إن المأيا توافي كل إساءة »

واسلك طريقك فيها - غير محتشم - حتى تلاق ما يمي لك (التي ٥)

أى يقدر لك القادر ، والفعال - بالفتح اسم جامع لكل فعل حسن ، والقصد التوسط بين طرفي الامراط والمعريط ، والرسل - بالسكر - الرضى والثؤدة ، قال افعل كذا على رسلك أى على هبتك وليس مرادا هنا بل المراد الرسل - بالفتح - أى المهل بقا سبر رسل أى سهل .

(٤) وإن لم يقدر الله حصول تلك الأمانى على يدك ولم تحر على مادتك وخافك في إسماعى بحاجتى فأعطف سراحى لأضرب فى العيانى وأحى من وحشة البوى وهول السرى أسا .

(٥) وأين - وأب عنك أي بماذا يكون جوابي عنك إذا سئلت عما أسعدت من معروف أو قدمت من معونة . قال ابن بسام في باب الموارنة والغد : « وأين جواب فيك ترضى به العلاء » . أحوذ من قول الآخر :

« فاختر لنفسك ما أقول فاني لا بدّ أخبرهم وإن لم أسأل . »

جواب

« كتب اليه الوزير الكاتب أبو بكر بن القصيرة
في يوم أحذف فيه دواء :

مولاي نفسي إلى مطالعة الـ
بحسنى بعقبى الدواء مطالعة
وكيف ذاك الحس الدكى وقد
ناشر تلك المداقة الشعة
وددب لو أنى حصصت بما اسـ
تدشعت منه وحزنت منتفعه
أعقك الله من فظاعته
أسوع صنع فى مثله صنعه
نصيحة تصحب الزمان فتـ
لميه واتنى جديدة نصعه
فأت روح العلاء ساء الـ
له وسمل الوفاء لا صدعه
خاوند ابن ريدين :

قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ فِي الذِّى صَنَعَهُ عَارِضُ كَرْبٍ بِلُطْفِهِ رَفَعَهُ
تَبَارَكَ اللَّهُ إِنَّ عَادَةَ حُسْنِهِ - مَعَ الشُّكْرِ - غَيْرُ مُنْتَزَعَةٍ

يَا سَيِّدِي الْمُسْتَجِدَّ^(١) مِنْ مِيقَتِي^(٢) بِخُطَّةٍ قَاتَتْ الْحِسَابَ سَعَةً
وَأَقَانِي الْعِقْدُ - زَيْنَ نَاطِمُهُ - وَالْوَشْيُ لَأَرَاغَ حَادَثُ صَنَعَةٍ^(٣)
بَثَّتْ فِيهِ الْبَدِيعَ مُنْتَقِيًا كَالرَّوْضِ إِذْ بَثَّ فِي الرِّبَابِ قِطْعَةً

أَزَاحَ كَرْبَ الدَّوَاءِ مَطْلَعُهُ لَمَّا بَدَأَ طَالِعُ السُّرُورِ مَعَهُ ^(١)
 كَمْ دَعْوَةٍ - قَدْ حَوَاهُ - صَالِحَةٍ ، مِنْ أَمَلِي أَنْ تَكُونَ مُسْتَمَعَةً ^(٢)
 جُحْلُهُ مَا نَفْسُكَ السَّرِيَّةُ مِنْ حَا لِي إِلَى عِلْمِ كُنْهِهِ طُلْعَةٍ
 أَنْ الدَّوَاءَ التَّدَّتْ عَوَاقِبُهُ مِنْ نَفْسٍ تَبَشَّعَتْ جُرْعَةً ^(٣)
 فَالْحَمْدُ لِلَّهِ - لَا شَرِيكَ لَهُ - إِنْ بَدَأَ الطَّوْلُ مِنْعِمًا شَفْعَةً

حبيب

وَرَامِشَةً ^(٤) يَشْنِي الْعَلِيلَ نَسِيمَهَا مُضْمَخَةً ^(٥) الْأَنْفَاسِ طَيِّبَةَ النَّشْرِ ^(٦)
 أَشَارَ بِهَا نَحْوِي بَنَانٌ مُنْعَمٌ لِأَغْيَدِ مَكْحُولِ الْمَذَامِعِ بِالسَّحْرِ ^(٧)
 سَرَتْ نَضْرَةً - مِنْ عَهْدِهَا - فِي غُصُونِهَا وَعُلَّتْ بِمِسْكِ مِنْ شَمَائِلِهِ الزُّهْرِ
 إِذَا هُوَ أَهْدَى الْيَاسَمِينَ بِكَمِّهِ أَخَذْتُ الشُّجُومَ الزُّهْرَ مِنْ رَاحَةِ الْبَدْرِ
 لَهُ خُلُقٌ عَذْبٌ وَخُلُقٌ مُحَسَّنٌ ^(٨) وَظَرَفٌ كَمَرْفِ الطَّيِّبِ أَوْ نَشْوَةِ الْخَمْرِ ^(٩)
 يُعَلِّلُ نَفْسِي مِنْ حَدِيثٍ تَلَذُّهُ كَهَيْلِ الْمُنَى وَالْوَصْلِ فِي عُقْبِ الْهَجْرِ ^(١٠)

- (١) لما بدا شعرك الجليل ومعه طالع السرور أنساني سرارة الدواء .
 (٢) كم دعوة حواها سحرك ادعو الله أن تكون مستجابته .
 (٣) كانت طاقبة الدواء حميدة وإن حرمت غشى من شره .
 (٤) في القاموس الرمش : الطاقة من الريحان ونحوه . وفي شفاء العليل ، رامشه : قال الصولي في ورقة آس لها رأسان . قال أبو نواس :
 « لها روامش ينتعين لنا نفل آذانا مطاياها . »
 (٥) معطرة . (٦) طيبة : الرائحة .
 (٧) رب طاقة من الزهر معطرة الشذى طيبة الأنفاس قدما إلى من أهواه .
 (٨) خلقة حسنة . (٩) يعني أن سحر عينيه يفعل في النفس ما يفعله الطيب أو الخمر .
 (١٠) العقب : بضمين ، والعقب بضم فسكون العاقبة مثل عسرو عسر . قال تعالى : « هو خير ثوابا وخير عقبا . »

في مدح ابن جهور

« قال يمدح ابن جهور ويذكر جوارالم يرمعه ، وأملا ضيعه ، وبمعنى إغماحه في طلته ، وإسمافه بأميةه . »

« جَنَاحِي » فِي جِوَارِكُمْ أَذْذَالُ وَحَدَى فِي رَبَائِكُمْ الْكَائِلُ ^(١)
نَصِيبٌ مِنْ وَلَايَتِكُمْ كَثِيرُ وَحَظٌّ مِنْ عِنَايَتِكُمْ قَلِيلُ
لَمُخْتَلِفَاتٍ مِنْ حَالٍ مَهْمَا أَجَالَ الْفِكْرَ بَيْنَهُمَا مُجِبِلُ ^(٢)
أَنْحِيَا أَنْفُسُ الْأَمَالِ فِيكُمْ وَلِي - أَنْثَاءُ هَا - أَمَلٌ قَتِيلُ ؟ ^(٣)
وَأَعْجَبُ حَادِثٍ نَظَرِي لَدَيْكُمْ إِلَى غَمَلِ النِّجَاحِ وَبِي غَلِيلُ ! ^(٤)
وَقِدْحِي فِي وَدَادِكُمْ مَعَلَى وَبَاعِي فِي أَعْتَادِكُمْ طَوِيلُ ^(٥)
وَكَاثُنٌ لِي ثَنَاءُ رَاحَ يَثْنِي إِلَيْهِ الْعُطْفَ مَبْدُكُمْ الْأَمِيلُ ^(٦)

(١) وجد هذا البيت في نسخة الديوان على هذه الصورة .

..... في جواركم الدليل وحدي في رحائكم الكليل

والنكمة من عدنا كما يعطها السياق .

(٢) يقول : إن حالي لمختلفان عند إجابة الدار ، منسبي من ولايتكم ونصرتكم وحي لكم كثير ، وحظي من عنايتكم وتعتدكم قليل .

(٣) يذكر عليهم أن تكون آمال الناس حية بسببهم وأمله بينها كالقيل بين الأحياء .

(٤) الدال : السبل الضعيف الذي يحرق في أصول الشجر يبروها قبل أن تضف ، والميل : العطش أي وأعجب ما حدث لي أن أنظر إلى مسيل ماء من ناحيتكم فيه نخاح وانتعاش آمال ، وإن طاماً شديد فيحال بيني وبين ما يرد علي ويشق قليل .

(٥) المعنى من فداح الميسر الميسر ، والفدح : بالكسر اسم للسم ، وكانت فداح الميسر عندهم معروفة بعلامات حاسة ، يضعونها في خريطة على يدي عدل يحيلها ويخرج باسم كل واحد من اليامرين فدحا ، فإن كان غملاً أي لا يصيب له عزم صاحبه ، وإن كان من دوات الاصابة ، أحسد نصيبه بحسبه ، والذي يخرج له المدح المعلى يمدح أكبر فائر بأوهر نصيب لأن له سبعة أسماء ، واثنا عشر بتمارون على جزور يقذفون بها والذي يخرج لهم من الاصابة ، يوزعون على الفقراء .

(٦) وكم من ثناء ومدح راح بنى إليه مجدكم المتأصل عطفه .

تَنَافِسُهُ الرِّيَاضُ مُنَوَّرَاتٍ تَنَفَّسَ عَنْ نَوَافِحِهَا الْأَصِيلُ ^(١)
 « أَبَا الْحَزْمِ » الزَّمَانُ - بِأَنْ تُنَدَّى إِذَا عُدَّتْ فَوَاضِلُكُمْ - بِخَيْلٍ ^(٢)
 عَلَوْتَ النَّجْمَ - إِذْ مَلَّ الْمَسَامِي وَحُزْتُ الْخَصْلَ إِذْ كَلَّ الرَّسِيلُ ^(٣)
 رَأَيْتُ النَّاسَ - مَا أَصْبَحْتَ فِيهِمْ - بَلَاءُ اللَّهِ عِنْدَهُمْ جَمِيلٌ
 وَمَاءُ الْعَيْشِ يَدْنَهُمْ فَضِيضٌ وَظِلُّ الْأَمْنِ فَوْقَهُمْ ظَلِيلٌ ^(٤)
 وَلَوْ فَقَدْتُكَ - لَأَفْقَدُوا - حَوَاهِمَ مَرَادٌ مِنْ زَمَانِهِمْ وَبِئْسَ ^(٥)
 وَشَاقَ نُفُوسَهُمْ رَسْمٌ مُجِيلٌ - مِنْ الدُّنْيَا - وَعَهْدٌ مُسْتَحِيلٌ ^(٦)
 فَخَاصِرُ دَوْلَةٍ تَفْنَى لِلَّيَالِي وَلَمْ يُلَمَّ بِسَاحَتِهَا مُدِيلٌ ^(٧)
 وَلَا زَالَتْ نِبَالُ الدَّهْرِ تُصْنِي عُدَاتَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ النَّبِيلُ
 أَيْدُسٌ مِنْ مُسَاعَفَةِ اللَّيَالِي وَأَنْتَ - إِلَى نِهَائَتِهَا - سَبِيلٌ ^(٨)

- (١) النوايح : جمع نايحة وأراد بها أعاصير الرياح التي تحملها سبات الأصيل فسوح منها نفحات طيبة ، يقول إن ذلك النماء الطيب تمامه الرياس وهي - ورات تد تفس الأصيل عن نوافحها أي ما يروح من طيب روائحها ، ويحور أن يكون عن نوافحها جمع نايحة الملك . (٢) ثناء بنية حمل له ثانيا ، أي يا أبا الحزم الزمان بحيل بأن أعدت لك ثانيا في العسل إذا عدت فواضلكم .
- (٣) حزت الخصل : أي أحررت العلية في الزمان أو أدرك المايه في السقي ، والرسيل الماضل ، أو السابق ، وقد جاء في الأصل «المساعي» فوحى في مكانها «المسامي» كما يرشد إليه المعنى .
- (٤) العيسيس : الماء العذب الكثير المتدفق ، أو ماء السحاب الغزير المنفرق ، وطل طليل : أي دائم لا يفسخه الصبح . (٥) مراد - بالفتح - اسم مكان من رادت الابل تروء ، أي اختلط ذهابها ومجيئها في المرعى ، والوبيل الوحيم الذي لا يستمرأ ، والمعنى : لو فقدوك - لا قدر الله - ولم يستطلوا بطل دولتك لاحتواهم من زماهم . مرعى وبيل فلم يهنا لهم عيش ولم ينعم لهم بال .
- (٦) الرسم ما بقي من آثار الدار بعد ارتحال ساكنيها ، والحيل : المتقادم العهد الذي مرت عليه أحوال ، والمستحيل : المتغير ، أي لو فقدوك لاستوحوا العاقبة ، وبارعتهم نفوسهم - إذا استمتعوا فقدك ولم يقوموا بنصرتك - إلى دنيا تحول حدثها إلى بلى ، وسبابها إلى هرم ، وتدير عهدها من سعادة وهناء إلى محنة وشقاء . (٧) المحاصرة أخذ الرجل بيد صاحبه إذا ماشاه ، ومنه قوله :
- ثم خاصرتها إلى القبة الخضراء تمشي على مرمر مسنون
 معناه ماشيتها إلى القبة الخضراء تمشي على مرمر مسنون ، والمديل المتقلب الذي تنتقل إليه الدولة ، يدعو للدوح ببقاء الدولة له من غير تحول ولا انتقال .

إلى المظفر

« كتب إلى المظفر سيف الدولة أبي بكر محمد بن
عبد الله بن محمد بن مسلم صاحب بطليوس . »

لَبِيضِ الطَّلَى وَلِسُودِ اللَّمَمِ بَعَقَلِي - مُذْنٍ عَنِّي - لَمَمٌ ^(١)
فَنِي نَاطِرِي - عَن رَشَادٍ - عَمِي وَفِي أُذُنِي - عَن مَلَامٍ - صَمَمٌ ^(٢)
قَضَتْ بِشِمَاسِي عَلَى الْمَازِلِينَ شُمُوسٌ مُكَلَّمَةٌ بِالظَّلَمِ ^(٣)
فَاسَقَمَتِ لَحَظَاتُ الْغَيُوثِ نِ إِلَّا لِتُغْرِيَنِي بِالسَّقَمِ
يَلُومُ الْخَلِيَّ عَلَى أَنْ أُجَنَّ وَقَدْ مَزَجَ الشَّوْقُ دَمْعِي بِدَمٍ ^(٤)
وَمَا ذُو التَّذَكُّرِ يَمُنُّ يَلَامُ وَلَا كَرَمُ الْعَهْدِ مِمَّا يُذَمُّ ^(٥)
وَإِنِّي أَرَاخُ إِذَا مَا الْجَنُوثِ بُ رَاحَتِ بَرِّيَا جَنُوبِ الْعَلَمِ ^(٦)

(١) الغلالة : ضم الطاء هي العمق والجمع طلى مثل نقاة وتقى ، واللمم : تكسر اللام جمع لمه - الشعر
الهجور شعمة الأذن - لم يفتح اللام - الجون .

(٢) في هذا البيت والذي قبله يقول الشاعر أنه عمى عن الرشاد وصم عن الملام وصار في حل حنون مد بان
وبعد عنه الحسان بين الأعماق سود اللم .

(٣) شمس العرس شمساً وشماساً مع طهره - العرب تقول روية مكلمة ، يعنى محفوفة بالور ، فقول
الشاعر : شمس مكلمة : أى مجللة بلال الشعر الأسود - وهذا البيت بمثابة التكملة لوصف حالته في البيتين
السابقين فكأنه يقول وكما عميت عن الرشاد وصدمت عن الملامه كذلك فقد قضى على هذا الجمال أن أشمس
على المازلين . (٤) الخلى : كعبى الفارغ ، وفي المثل العربى القديم « ويل للشجى من الخلى » .

(٥) انتقل الشاعر لتبرير جنونه في غرامه وفي دموعه التي مزجت بالدم فألزم لونه بالحكة وقذف في
وجوههم بالبرهان الذى ليس وراءه برهان ، فقال : إن بكائى وحنونى ولوعتى كل أوائك لا لوم فيه
ولا بأس منه في سبيل الذكرى والحفاظ بالعهد فليس كرم العهد مما يذم ، وفي القرآن الكريم : « وأوفوا
بالعهد إن العهد كان مشمولاً »

(٦) أراح - استريح - ريح الجنوب هي المقابلة لريح الشمال - « راحت » - من الرواح ، وهو ضد
الغدو يقول : إنى لكثرة تذكرى الأحبة ولكثرة حفاظى بعهودهم أستريح إذا ريح الجنوب طادت إلى
برائحة أمكنهم المقدسة المحبوة .

وَأَصْبُو لِمِرْفَانٍ عَرِفَ الصَّبَا وَأَهْدَى السَّلَامَ إِلَى «ذِي سَلَمٍ»^(١)
 وَمِنْ طَرَبٍ عَادَ نَحْوَ «الْبُرُو قِ» أَجْهَشْتُ لِلْبَرْقِ حِينَ أَبْتَسَمَ^(٢)
 أَمَّا وَزَمَانٍ - مَضَى عَهْدُهُ حَمِيدًا - لَقَدْ جَارَ لَمَّا حَكَمَ
 قَضَى بِالصَّبَابَةِ ثُمَّ أَنْقَضَى وَمَا اتَّصَلَ الْأَنْسُ حَتَّى أَنْصَرَمَ^(٣)
 لِيَالِي نَامَتْ عِيُونُ الْوُشَا عَنَّا، وَعَيْنُ الرَّضَى لَمْ تَنَمْ^(٤)
 وَمَالَتْ عَلَيْنَا غُصُونُ الْهُوَى فَأَجْنَتْ ثَمَارَ الْمُنَى مِنْ أُمَمٍ^(٥)
 وَأَيَّامُنَا مُذْهَبَاتُ الْبُرُودِ رِقَاقُ الْحَوَاشِي صَوَافِي الْأَدَمِ^(٦)

(١) أصبو - أميل - وعرفان - معرفة ، والعرف هو الشدى . يقول : أنى أيضا أميل صبوة وحبا إذا هبت العسا - ريح الدخان - لأنها ممطرة بشدى من يحبه . ويهواهم يهدى السلام إلى ذى سلم الموضع الذى حملت منه العسا لك الشدى المحبوب .

(٢) أجهشت : ارتفع صوتى باكيا ، يقول : كما أنى أسترخ للحبوب إذا طادت برياً ريح العلم وأصبو إلى شدى الصاك ذلك أكنى من طرب يماودنى إذا ابتسم البرق ولمع ، والمعنى فى هذه الأبيات أنه يستريح لكل دادم من جهات أحسه لأن فى ذلك نوما من الذكرى . ولا تظن شاعرا لم يك لا بتمام العروق ولم ينتش من ربا الصبا والحنوب .

(٣) انصرم : هو القطع ، والمعنى أن الزمان الذى مضى حميدا حاد عن المعدل حين حكم وهل أقل من رسم هذا الزمن - ساعة المعدل ، وهو الذى ما كاد يقضى لنا بالصبا والاسمتاع حتى انقضى وشيكا ، وما كادت تتصل أوقات الأنس حتى صرمة عما وحال بيننا وسه .

(٤) الوشاة : فى الأصل هم الذين يمشون بالسر والسمايه فيذبون الأسرار ، والاراد بهم هنا الخصوم على الإطلاق والمراد بعين الرضى حالة السعادة التى ينعم بها المحبوب فى ساعات الوصال ، وكأنك بالشاعر فى هذا الباب شرع يعزل الصباة التى انصبت والانس الذى انصرم ، فقال : ليالى نامت عيون الوشاة إلى آخر هذا الوصف الذى يتخلص به إلى المديح فى أبى بكر .

(٥) أحتت ثمار المي : أى أعطى ، والألم هو القرب ، تقول : رأيت من أمم ، أى من مرب ، يقول أيضا فى تفصيل الأنس الذى انصرم : ومالت علينا غصون الهوى أى وليالى طلائنا هذه المصود - فجئنا منها ما نشاء .

(٦) مذهبات البرود : أى مموهة البرود - جمع برد - فالذهب ، وتوله « رفاق الحواشى » كناية عن رقة وحضرة العيش فى تلك الأيام ورغده ، وكذلك قوله صوافى الأدم ، والأدم هو الحلد . دل المتن : « فبأيما قدم سميت إلى الملا أدم الهلال لأحميك حذاء . »

كَأَنَّ « أَبَا بَكْرٍ » الْأَسْلَمِيَّ أَجْرَى عَلَيْهَا فِرْنْدَ الْكَرَمِ ^(١)
 وَوَشَّحَ زَهْرَةً ذَاكَ الزَّمَانَ بِمَا حَازَ مِنْ زُهْرٍ تِلْكَ الشَّيْمِ ^(٢)
 هُوَ الْحَاجِبُ الْمُعْتَلِي لِلْعُلَا شَمَارِيحَ كُلِّ مُنْزِفٍ أَشْمِ ^(٣)
 مَلِيكَ إِذَا سَابَقَتْهُ الْمُلُوكُ حَوَى الْخِصْلَ أَوْ سَاهَمَتْهُ سَهْمِ ^(٤)
 فَاطَوْهُمْ - بِالْأَيَادِي - يَدًا ، وَأَثْبَتَهُمْ - فِي الْمَعَالِي - قَدَمَ ^(٥)
 وَأَرْوَعَ لَا مُعْتَنِي رِفْدِهِ يَخْبِي وَلَا جَارُهُ يَهْتَضِمُ ^(٦)

(١) كأن أبا بكر الأسلمي أحرق حوده ودباجة كرمه على تلك الأيام والأيام التي نامت عنها هيون الوساة وظلاله غصون الهوى فيها ، وعدا مما يعمل الثمرات كثيرا نخلصا من العزل والديب إلى المدح وهو ما يسميه علماء الديب : حسن التخلص .

(٢) وكان أبا بكر بما أحرز من شمائل ليس كأنها زهر الحرم قد وسح تلك الأيام تما وشجها به من نضرة وحين .

(٣) شماريح : جمع شراح أو شعروح - أعلى الحال - كل ميبب أنم : أى كل عاك مرتفع . يقول : إن أبا بكر هذا لا يقف في العلاء عند حد فهو في سبيلها قد تسنم ذرا كل ميبب ، وعلاء هو كل طاء .

(٤) حوى الخصل : أحرر الشيء ، المعلوم الذي تراهوا عليه في السباق ، يعنى أحرز نصيب السبق ، وساهمه : أى عارعه الملوك وبأسله سهمهم أى عليهم ، والمعنى : أن هذا الملك سابقه الملوك في المجد فأحرز دونهم نصيب السبق ، وفارعه في مضمار الصال فارعههم وغلبهم .

(٥) بالأيادي : بالسم ، وبدا : يريد ناعاً ، وهذا البيت توصيح أو تأكيد لسابقه أو هو بيان للميزات التي بها يغلب هذا الملك أقدار الملوك من أمثاله ويسبقهم .

(٦) الأروغ : من يمدك نفسه وجهارة مطرره أو شامتته كالزراع ، ودلوا في الأروغ : إنه الرجل الكريم الحى النفس الذي يمدك حسنه ، ويمدك إذا رأيه ، والمعنى : كأنما في كل من جاء يطلب رعداً وعطاء وملا . قال الأعشى :

« تطوف العمامة بأبوابه تطواف النصارى ببيت الوثن . »

وقال مسلم بن الوليد :

« ترى العمامة عكوماً حول حجرته برجون أروغ رحب الباع سلماً . »

وقال أبو تمام :

« كم أعطيت راحته من شب سلامة المعتبين في عطيه . »

والرغد : العطاء - وقوله لا معتنى - في الناموس اعتنت الأبل اليأس واستعوت أحدثه بلسانها فوق التراب مستصينة له ، والرغد هو العطاء ولا حاره يهضم هضم الجار وتوضه بمعنى طله يقول إن هذا الملك أحسن له حسن الخلق فهو محب الناطر إليه بحسنه وجمال هيئه كما احتنع له حسن الخلق ، لأنه لا يخيب طالب رغه ولا يظلم جاره .

ذُلُّ الدَّمَائِ صَعْبُ الْإِبَاءِ ثَقِيفُ الْعَزِيمِ إِذَا مَا اعْتَزَمَ ^(١)
 سَمَا الْمَجَرَّةِ فِي أَفْقِهَا فَجَرَ عَلَيْنَهَا ذُيُولَ الْهِمَمِ ^(٢)
 وَنَاصَتْ مَسَاعِيهِ زُهْرَ النُّجُومِ وَبَارَتْ عَطَايَاهُ وَطْفَ الدِّيمِ ^(٣)
 نَهَيْكَ إِذَا جَنَّ لَيْلُ الْعَجَاجِ سَرَى مِنْهُ فِي جَنَحِهِ بَذْرُتَيْمِ ^(٤)

(١) الدمائى سهولة الخلق - وقوله ثقيف العزيم - ثقف إذا صار حذفاً حصيفاً بطناء، وثقيف إذا عظمت فيه هذه الصفات ، والعزيم - والمزعة والعزم واحد ، أى أن المدوح مع ما تقدم من صفات رجولة وسمو دروسته وطوائفه ليس بمكبر ولا متعجب ، وإنما هو سهل الخلق دمت الطبع ولكن في إباء ، كما أنه كثير الحدق والمطة منتفب العزيم إذا ما اعتزم الأمور أو طلب القنائس والرغاب .

(٢) المجرة : إحدى كواكب السماء فهذا المدوح قد سما للمجرة أى علا إليها وزاد عليها سائر الهمم التى يصلها قوله فى الآيات السابقة لامتنعى ربه يحيب ولا حاره يهتضم وأنه إذا ساق الملوكة غلبهم ، وأنه أطولهم بدا ، وأثبتهم تدماً ، وليس المجرة من المآثر فى الناس ما يعادل مآثرهم هذا المدوح .

(٣) ناصت مساعيه زهر النجوم الزاهر كالجرة والثرثرة والأكابل ، وقوله وطف الديم ، وطف : جمع وطفاه ، وهى السحابة المسترخية من المطر ، والديم : جمع ديمة ، وهى مطر يدوم فى سكون بلا رعد ، يقول : إن عطاياه تبارى السحب للمطره الدائمة بلا حلبة ولا ضوضاء فكان هذا الدب برهان لسابقه ، وكأنه يقول : لم لاتفصل على المجرة من هذه صفات مساعيه وسحب مبراته وعطاياه .

(٤) النهيك : الشجاع الموى للمناع فى الشجاعة لأنه ينهك عدوه فيبلغ منه ما يريد ، حسن أبل العجاج : كل ما ستر عنك فقد حسن عنك ، والمعاج : العار المثار واحده معجاءه ، وجمع الليل - بكسر الحيم ويضم - الطائفة من الليل ، وبذرتم : هو القدر إذا أبرد فى ليلة تمامه أربع عشرة ، يقول : حسبك من هذا المدوح أنه إذا جن ليل الحرب سرى منه وجه مشرق أو سيف لامع يشبه البدر فى ليلة التمام يكنف ظلام هذا المعجاء ، ويبين عن جبهة النصر والنور ، فهو بعد أن فرغ من إثبات كرم مدوحه ، وحسن خلقه بما يملو به على مكانة النجوم وزهره بقدره فوق هام الكواكب شرع يثبت له أنه فارس خيل ، وكاشف ويل ، وأنه لا يسطع بدر كلما ثارت معجاجة الهيجاء ، وادهمت الحرب الهوجاء .

فَشَامَ السُّيُوفَ بِهَامِ الْكُمَاةِ وَرَوَى الْقَنَا فِي نُحُورِ الْبِهِمِ^(١)
 جَوَادُ ذَرَاهُ مَطَافُ الْعُقَاةِ وَيُمْنَاهُ رُكْنُ النَّدَى الْمُسْتَلَمِ^(٢)
 يَبْجُ النَّزَالُ بِهِ وَالسُّوَا لِيُنْشَاهُ صُورًا وَبَحْرًا خُضَمِ^(٣)
 شَهْدَنَا ، لَأَوْتَى فَضْلَ الْخِطَابِ وَخُصَّ بِفَضْلِ النُّهَى وَالْحِكَمِ^(٤)
 وَهَلْ فَاتَ شَيْءٌ مِنَ الْمَكْرُمَاتِ جَرَى السَّيْفُ يَطْلُبُهُ وَالْقَلَمُ^(٥)

(١) شام السيف : معناه أغمدها أو سلها فهو من الاتعداد ، ولكن يتبعها ما أن يكون معناه أغمدها في هام الكماة ، يقال شام الشيء في الشيء ، أدخله فيه أي حمل من رؤوس الكماة أغماداً للسيف — هام : جمع هامة ، وهي الرأس ، والكماة : جمع كمي ، وهو العارس المدجج في السلاح واللقا : جمع قناه ، وهي الرمح ، والبهيم : جمع بهيمة تضم الباء وسكون الهاء الشجاع الذي لا يهتدى من أين يؤتى — أو هو الحيش ، فهو يقول : إداجن ايل المعجاج وسرى من ذلك المددوح في تلك العاجية — بدرتم — هالك رأيت كيف يحمي السيف في رؤوس الفرسان المدججين في السلاح ، ورأيت كيف تدق الرماح من دم نحور الشجعان الذين لا تعرف ما آتيهم في الحروب .

(٢) يقول : إن ممدوحه جواد وإن في داره مطافاً ومثابه العقاة من طلاب الرغد والمطام . وإن يده اليمنى كأنها لكثرة ما قبل من سماء المرقودين أصحت كالبحر الأسود المستلم الذي يقبله حجاج بيت الله الحرام .

(٣) الخضم : السيد الجول المعطاء . قال في القاموس : هو خاص بالرجال ومن معاهيه البحر أيضاً — النزال : بالسكسر أن ينزل الفرقان المتحاربين عن إبلهما إلى حبلهما فيساروا ، ويقال : نزال : كعظام ، أي انزل — لا واحد والجمع والمؤنث ، والثلاث من أسماء الأسد ، والمصور — كالمهصار — والمهصير — أمها . للأسد أيضاً ، وقوله « ومحرأ خضم » ، وكذلك قوله في بيت سبق في هذه القصيدة نفسها : « فأطوهم بالأيدى يداً وأبنتهم في المعالي قدم »

أجرى فيه المنصوب المنون في الوقف مجرى المرفوع والمجرور ، موقف عليه بالسكون ولم يقف عليه بالألف . وذكر الحياة أن الامة العاشية من لسان العرب قلب التوين ألما في المنصوب المنون عند الوقف نحو رأيت زيدا ، ومحرأ خضما ، وربيعة يحيزون لإحرامه في لومف مجرى المرفوع والمجرور ، قال الشاعر : « ألا حسدا غنم وحسن حديثها فقد ترك بلى بها هاتما دنف . » « وابن زيدون » على فحولته ما كان ينبغي له أن يضطر إلى استعمال هذه الامة القليلة في شعره . ومعنى البيت أن دعوى الحرب تهيج من هذا المددوح ليثا مصورا كما أن سؤال رفته وعطائه يهيج منه سيدها حولاً لما يكلف معناه . لما يسأل كالبهر .

(٤) في هذا البيت الجالس بين فصل الخطاب وفصل النهي ، ومعنى البيت أن المددوح حكيم لا في ضبا وبكم وذرب اللسان والمنطق والسكن لا في طيش وخفة ، وهذا فلما يتاح لإلا لم يهأهم الله لنصرة الحق والدفاع عن حوزة الدين ، وجدير بمن يؤتى فصل الخطاب وفصل النهي أن يشهد له زمه ويعترف له بالزامة . والرياسة والفصل . (٥) ذكر ما قاله في البيت السابق ، فيقول : هل ترك المددوح أو فات شيئا من المكرمات يمكن السيف والقلم إحرازه من غير أن يحزره ؟

* * *

وَمُسْتَحْمَدٍ بِكَرِيمِ الْفَعَا لِي عَفْوًا إِذَا مَا اللَّثِيمُ أُسْتَدَمَ^(١)
شَمَائِلُ شُهَجَرُ عَنْهَا الشَّمُولُ وَتُجْنَى لَهَا مُشْجِيَاتُ النَّعَمِ^(٢)
عَلَى الرَّوْضِ مِنْهَا رُؤَاةٌ يَرْوِقُ وَفِي الْمِسْكِ طِيبٌ أَرِيحُ يُشَمُّ^(٣)

* * *

أَبُوهُ الَّذِي فَلَّ غَرْبَ الضَّلَالِ وَلَا مَ شَعْبَ الْهُدَى فَالْتَأَمَ^(٤)
وَلَاذِ بِهِ الدِّينُ مُسْتَعَصِمًا بِذِمَّةِ أَبْلَجٍ وَافِي الدَّمَمِ^(٥)
وَجَاهِدَ - فِي اللَّهِ - حَقَّ الْجِهَامَا دِمْنِ دَانٍ - مِنْ دُونِهِ - بِالصَّنَمِ^(٦)

(١) مستحمد : أى منسوب إلى الحمد ، ويقال فعل الذى . عفواً أى من غير تعمل ولا طلب ، واستنم : فعل ما يذم عليه ، والمعنى فى هذا البيت أنه من طيبته الاستحمام - عفواً - لأنه كريم العمال التى من شأنها أن تعود على صاحبها بالحمد ، وذلك فى الوقت الذى يصدر فيه أوامر الأوامر عفواً أيضاً . يقول إن ممدوحه فى الوقت الذى يدو فيه . لؤم الأوامر رغم أوامهم وديانهم يطهر كرمه العطرى وموله الحفية التى ترغمه أيضاً على إحراز المحامد .

(٢) الشمول : من أسماء الحر - تحنى : تهجر ، والمعنى أن شمائل ممدوحه تنفى عن الحر والماء الشجى لأنها يتسمى بها متطرب ويتحدث عنها فتسكر .

(٣) الرواء الحسن - الأريج : الرائحة الطيبة ، يقول : إن هذه الشمائل تلى فى رواء الحسن الذى يروق الباطر فى الروس ، وكذلك تلى فيما يلد المعاطس فى الأريج الطيب المشموم من المسك .

(٤) فلَّ غرب الضلال : أى تلم حده الذى يشبه حدَّ السيف فى المضاء ، وقوله - ولا مَ شعب الهدى فاللتأم معناه أصلح شعب الهدى فاصلح ، والمعنى أن أباه وأب صدىع الهدى وفرق حزب الضلال وخصد شوأكته .

(٥) الأبلج : هو كل واسع ، ويقال : أبلج الصبيح وضع يقول بابى الممدوح احتفى الدين منه واعتصم بواصح المسكنة وافى الذمم .

(٦) يقول : وإن أباه هذا الممدوح أبلى البلاء الحسن فى الجهاد لله وفى مجاهدة من دان من دون الله بالصنم ، يعنى أنه عاش لله ولياً لأوليائه عدواً لدوداً لأعدائه .

فَلَا سَامِيَ الطَّرْفِ إِلَّا أَذَلَّ وَلَا شَامِيخَ الْأَنْفِ إِلَّا رَغَمَ^(١)
تَقِيلَ فِي الْعِزِّ - مِنْ خَيْرٍ - مَقَاوِلَ عَزُّوا جَمِيعَ الْأُمَمِ^(٢)
هُمْ نَعَشُوا الْمُلْكَ حَتَّى أُسْتَقَلَّ وَهُمْ أَظْلَمُوا الْخَطْبَ حَتَّى أُظْلِمَ
نُجُومُ هُدًى - وَالْمَعَالِي بُرُوجٌ - وَأَسْدُ وَغَى وَالْعَوَالِي أَجَمَ^(٣)

« أَبَا بَكْرٍ » أَسْلَمَ عَلَى الْحَادِثَاتِ وَلَا زِلْتَ مِنْ رَبِّهَا فِي حَرَمٍ^(٤)
أَنَادِيكَ - عَنْ مِقَّةٍ - عَهْدُهَا كَمَا وَشَتِ الرُّوضُ أَيْدِي الرَّهَمِ^(٥)
وَإِنْ يَعُدُّنِي عَنْكَ شَحْطُ النَّوَى فَحَظِّي أَخْسَ وَأَنْفُسِي ظَلَمَ^(٦)

(١) رَغَم : ارغم : يقول : إنه لم يترك من أعدائه ، سامي الطرف إلا أدله ، ولا أشم الأنف إلا أرغمه ، ويقال رغم أمه يمي أدله عن كره بمعنى أرغمه .

(٢) تقيل أماء أشبهه - مَقَاوِلَ ومَقَاوِلَ وأَقْيَالَ وأَقْوَالَ جمع معول كبير أو جمع قِيلَ - الملك من ملوك حير - أو هو مادون الملك الأعلى ، وسمى نبلا لأنه يقول ما شاء فيبعد ، وحيث تدعى البيت أنه في عزه ومجده ومناعته أشبه أمه وأحداؤه من ملوك وأقيال حير الدين - ادوا وغلبوا جميع الأمم .

(٣) بروح السماء معروفة - الوعى : غمار الحرب أو الحرب - العو إلى صدور الرماح - والأحمر بالضم وضممتين - الحريك جمع أحمر - محرقة - الشجر الكثير اللثف ، والمعنى أن المفاولة الأقيال آباء هذا المدوح كانوا في المعالي يشبهون النجوم في بروجها في السماء كما كانوا في الحروب يشبهون الأسد تطلهم رماح كأنها أحمر الأسد .

(٤) بدعوله أن : نل في : آمن من أحداث الدهر ومصائبه ، وأن يظل في موضع لا تنهك الحادثات ولا تصل إليه ربيها .

(٥) المقة : المحبة ، والرهَم : كعب جمع رهمة تكسر الراء وسكون الهاء وهي الطار الصعيف الدائم ويقال روضة مرهومة ، يقول الشاعر : أناديك نداء صادراً عن مقة ومحبة - عهدا في الحدة والشباب كما نقش أيدى المحاب المدحار ، أديم الروض الناضر ، بألوان الربيع الزاهر .

(٦) عداء عن الأمر صرفه وشمله ، ويمدني عنك : صرفني ويشملني عنك ، والشحط : البعد ، والنوى : الاغتراب . يقول : إذا كان الاغتراب يشعلني ويصرمي عنك فانه لم يرخص إلا حظي ولم يظلم إلا نفسي فضرر هذا البعد واقع بي وحدي وليس يقع منه شيء عليك .

وَإِنِّي لِأُصْفِيكَ مَحْضَ الْهَوَى وَأُخْنِي لِبُعْدِكَ بَرَحَ الْأَلَمِ ^(١)
وَعَزِيرُكَ أَخْفَرَ عَهْدَ الدَّمَامِ إِذَا حُسْنُ ظَنِّي عَلَيْهِ أَذَمَ ^(٢)
وَمُسْتَشْفَعِي بِي بَشَرَتُهُ عَلَى ثِقَةٍ - بِالنَّجَاحِ الْأَثَمِ ^(٣)
وَقَدِّمًا أَقَلَّتْ الْمَسِيءَ الدِّمَارَ وَأَحْسَنْتَ بِالصَّفْحِ عَمَّا أَجْتَرَمَ ^(٤)
وَعِنْدِي - لِشُكْرِكَ - نَظْمُ الْعُقُودِ تَنَاسَقُ فِيهَا اللَّالِي الثُّومُ ^(٥)
تُجِدُّ لِفَخْرِكَ بُرْدَ الشَّبَابِ إِذَا لَبَسَ الدَّهْرُ بُرْدَ الْهَرَمِ ^(٦)
تَمْشِي مَعْصَمًا يَفْقَاحُ السَّعُودِ وَدُمُ نَاعِمًا فِي ظِلَالِ النِّعَمِ ^(٧)
وَلَا يَزَلُ الدَّهْرُ أَيَّامُهُ لَكُمْ حَشَمٌ وَاللَّيَالِي خَدَمُ ^(٨)

(١) نفس الهوى : حاله — وانبرج : أشدته يدعم بهذا البت معنى سابقه بقول إني لأصفيك وأعصك الهوى حاضاً لاسيابة فيه وإني في نفسك لأسمر في معنى بالألم المبرح والادوعة المرة ولكي أحي ذلك في حايا السنين وفي موضع الأسرار من المطلوب .

(٢) أذمر به : نفس عهده وعمره — الدمام : الحرمة ويجمع على أذمة ويقال — أذم له عليه أي أهد له ذمة أي حرمة أو اجارة . يقول : إن عبرك ، أما نكر هو الذي يحمر عهد الدمام ويسمي به ويمد به إذا جعل حسن ظني وطيب بلي له حرمة عندي و أذما لي عليه ذمة .

(٣) يقول : ما بشرت المستشفع في لديك بالنجاح إلا أني لمطلبه ويل له ثق ببجاحك فقد تشمت بالذي لا ترد شفاعة عند أي مكر ولا يحجب له راحة لديه .

(٤) قدما أي تديماً وأملت ولاناس كذا يعنى أعيتته منه واحترم أي آتى الذمب أو الجريمة والصفيح هو الغفو يقول وأما نعرفك فعمل العائر من عثرته وتصور عن النسخي في حريمته .

(٥) التناسق هو التناغم حبات العقود والآثما والآلي الثوم أي المتشابهة وتسمى الاوؤة الدوامية وبواتم الدوم والاوؤة ما تشابك منها يعمد الشعر إلى تشويق المدوح لافشاء مدائحهم وشعره الذي يشبه العقود المددومة المساسقة ببواتم الآلي .

(٦) أحد الثوب صيره جديداً يعنى أن نظم هذه العقود المقسمة يحد ويميد اراد الشاب من انصر بها حادثة في الوقت الذي يلبس فيه الرمن ثوب الهرم ، أو أن طر المدوح نفسه هو الذي يطل بلك المدائح جديداً .

(٧) يفاع : كسحاب التل والنقصود به هنا المرتفع يدعو للدوم أن يمشي معصماً بمرتفعات السعود وان يدوم مظللاً بالنعم المظلة لوارفة .

(٨) حشم الرجل وحشمة الدين يعصبون له من أهله وعبيده وجيرانه ، والحشم للواحد والجمع والحدم جمع خادم . يقول : لا زال الدهر خادماً لك .

في نكبة بني ذكوان

«قال عند نكبة بني ذكوان وابن حذام
في سنة ٤٤٠ هـ أربعين وأربعمائة.»

هَلِ النَّدَاءُ - الَّذِي أَعْلَنْتُ - مُسْتَمَعٌ	أَمْ فِي الْمُنَاتِ الَّتِي قَدَّمْتُ مُسْتَمَعٌ ^(١)
إِنِّي لَأَعْجَبُ مِنْ حَظِّ يُسُوفُ بِي	كَأَيَّاسٍ مِنْ نَيْلِهِ أَنْ يَجْذِبَ الطَّمَعُ ^(٢)
تَأْتِي الشُّكُونُ إِلَى تَعْلِيلِ دَهْرِي لِي	نَفْسٌ - إِذَا خُودِعَتْ - لَمْ تُرْضِهَا الْخُدَعُ ^(٣)
لَيْسَ الرُّكُونُ إِلَى الدُّنْيَا دَلِيلَ حَجًّا	فَإِنَّهَا ذُولُ أَيَّامِهَا مُتَعٌ ^(٤)
تَأْتِي الرِّزَايَا نِظَامًا مِنْ حَوَادِثِهَا	إِذِ الْفَوَائِدُ فِي أَثْنَائِهَا لَمَعُ ^(٥)
أَهْلُ النَّبَاهَةِ أَمْثَالِي لِدَهْرِهِمْ	بِقَصْرِهِمْ دُونَ غَايَاتِ الْمُنَى وَلَعُ ^(٦)

(١) يقول : هل وصل إلى سمعكم ذلك النداء الذي أعلت فيه شكواي ، أم هل هما قدسه من منات الفصائد والرسائل غناء ونفع ، وهو بهذا الاستفهام يكرر أن تكون - كواء قد سمعت ، وأن تكون نصائده قد سمعت .

(٢) الطمع : ضد اليأس . وللمنى : إني لأعجب من حظ امتدّ لي في نيله تسوي - المدحوم ومطله ، حتى لقد أصبح شبيها - ليأس - طمع يخدبني إليه يريد أن الطمع فيه أحو اليأس منه .

(٣) يقول : إن دهرى يطلى بفيل تلك الأمانى العبيدة ، وإن كان نسي لا تكن إلى هذا التعطيل لأنها لا تنخدع إذا خودعت .

(٤) الحما : العقل والعطش ، معناه أن الركون إلى الدنيا ليس به دليل على ذكاء وفطنة من يركن إليها لأنها زائلة متحولة ، والمنع بها مرور مفتون .

(٥) يقول : إن الرزايا في هذه الدنيا تأتي على سق تتابع من الحوادث التي يخلل سوادها بصيص من لمع الفوائد .

(٦) القصر : الحبس والمنع ، والولع : مصدر ولع فلان بكذا إذا لجّ فيه وحرص عليه ، بمعنى أن الدهر مولع بالحيلولة بين النابه الشريف وبين بلوغ أمانيه .



لَوْلَا بَنُو « جَهْوَرٍ » مَا أَشْرَقَتْ هَمَمِي كَمَثَلِ بَيْضِ اللَّيَالِي دُونَهَا الدَّرْعُ ^(١)
 هُمْ الْمُلُوكُ مُلُوكُ الْأَرْضِ دُونَهُمْ غَيْدُ السَّوَالِفِ فِي أَجْيَادِهَا تَلَعُ ^(٢)
 مِنَ الْوَرَى إِنْ يَفُوقُوهُمْ فَلَا تَحْجُبُ لِذَلِكَ الشَّهْرُ مِنْ أَيَّامِهِ الْجُمُعُ ^(٣)
 قَوْمٌ مَتَى تَحْتَفِلُ فِي وَصْفِ سَوَدَدِهِمْ لَا يَأْخُذُ الْوَصْفُ إِلَّا بَعْضَ مَا يَدْعُ ^(٤)
 تَجْهَمُ أَدَّهْرُ فَأَنْصَاتِ لَهُمْ غَرَرُ مَاءُ الطَّلَاقَةِ فِي أَسْرَارِهَا دُفَعُ ^(٥)
 بَاهَتِ وُجُوهُهُمْ الْأَعْرَاضَ مِنْ كَرَمِ فَكُلَّمَا رَاقَ مَرَأَى طَابَ مُسْتَمَعُ
 سَرَوْ تَزَاحَمُ فِي وَصْفِ الْمَدِيحِ لَهُ مَحَاسِنُ الشَّعْرِ حَتَّى يَنْتَهَى قُرْعُ ^(٦)

(١) الدرع : اللآلئ التي اسودت أوائلها وابتض سائرها ، والليال البس هي التي يطالع فيها القمر من أولها إلى آخرها ، أي لولا الجماورة ما أشرفت همي لإشراق اللآلئ البس دونها في الياض الدرع أي اللآلئ التي أطلت أوائلها .

(٢) غيد جمع أعيد : أي مائل ، والسوالف : جمع سالفة ، وهي صفحة العنق مما يلي الأذن ، والتلع : طول العنق وامتداده ، يقول : سو جهور هم ملوك الأرض لا يدايهم في المنزلة أولئك الملوك الذي أمالوا سवालهم ، ومدوا أعنانهم خيلاء وكبرا .

(٣) أي هم من الورى وليس عجيبا أن يفوقوهم ، كما أن الجمع من أيام الدهر ولكنها تنوق سائر .

(٤) تحتفل : تبالغ يريد أنك مهما بالغ في وصف سوددهم فلا يمكنك أن تثبت من صفاتهم في السيادة والمجد إلا جزءا صغيرا مما تدعه لكثرة ، وعجزك عن الاطاعة به .

(٥) تجهم : عبس وتكرت أيامه ، وانصات : اشتهرت ، والأسرار : جمع سر . ويجمع أيضا على أسارير ، وهي خطوط في العرة والجبين ، والدفع : جمع دفعة ، وهي الدفعة من المطر ونحوه ، والمعنى عبس وجه الرمان واسودت جوانب العيش فاشتهرت لهم في أثناء تجهمه غرر بيني يجرى في غصونها ماء الطلانة والبشر مرققا متسلسلا .

(٦) جمع قرعه ، وهي السهبة ، أي حتى يساهم ويقرع بين جيد الأشعار أيها أدنى وأحسن وأجدر بسني الجوائز .



« أَبُو الْوَلِيدِ » فَدِ اسْتَوَى مَنَاقِبُهُمْ فَلِلْفَارِيقِ مِنْهَا فِيهِ مُجْتَمَعٌ (١)
هُوَ الْكَرِيمُ الَّذِي سَنَّ الْكَرَامُ لَهُ زُهْرَ الْمَسَاعِي فَلَمْ تَسْتَهْوِهِ الْبِدْعُ
مِنْ عِزَّةٍ أَوْ هَمَّةٍ فِي تَعَاقِبِهَا أَنْ الْمَكَارِمَ إِيصَاءَ بِهَا شَرَعُ (٢)
مُهَذَّبُ أَخْلَاصِهِ أُولِيَّتُهُ كَالسَّيْفِ بَالِغٍ فِي إِخْلَاصِهِ الصَّنْعُ (٣)

(١) يعني أن (أ. الوليد) استوفى مناب الملوك حتى اجتمع فيه مانعق و غيره منها وعبر «الفاريق» الإشارة إلى ولحم في الثل السائر «هو خير من تماريق العصا» ، يريد أن مناقبه كالعصا حمت كثيرا من المانع ، وأن مناب غيره من الملوك كتماريق العصا احتضت كل واحدة منها مائدة ومعدة ، وجاء في كتاب العصا من البيان والخبير للمحافظ مدسخته : «ومن حل القول في العصا» وما يوزن فيها من المانع والمراق ، تفسير شعر «عنية» الأعرابية في شأن أسها ، وذلك أسها كان لها ابن سديد العرامة كثير التحب إلى الناس مع زهد أمر ، ودنة عظم ، واثب مرة وثى من الأسراب ، تقطع التي أعنه وأخذت رغبته «دنه أدنه» فحسبت حلقها مدبر مدع ، ثم واثب آخر تقطع أدنه فأحدثت له فزادت دية أدنه في المال وحبس أخاه ، ثم واثب بعد ذلك آخر تقطع سعه ، فلما رأت ما قد صار سدها من الابل والام والمالك والكسب شوارح أسها ، حس رأبها فيه مذكرته في أرجورة لها تقول فيها :
«أحلف للمروءة يوما والعصا إليك خير من تماريق العصا»

مثل ابن لأعرابي ، ما تماريق العصا ؟ قال : العصا تقطع ساحورا وتقطع عصا الساور مصير أوتادا ، وينرق الوند مصير كل طمة شطاطا ، فان كان رأس الشطاط كالمملكة صار للنخى دمارا ، وهو المود لدى يدخل في أنف الحق ، وإذا فرق المهار حامت منه التوادى ، والدواخير تكون للكلاب والأسراء من الناس - وداه إلى سالى الله عليه وسلم ، «وثى بناس من هاهنا يقادون إلى خفاطهم بالسواخير» - وإذا كادت قناة وكل شقة منها قوس يندى ، قال فان مرف الشقة صارت سهام ، فان فرتت السهام صارت حطاء ، ومن مهام صفار ، ولو ا واحدة حظوة وسروه ، فان مرت الحطاء صارت مغارل ، فان فرق المغزل شعب به الشهاب أوداه المصدوعة المشقوفة على أنه لا يجد لها أصلح منها . وقال الشاعر :
«تواعد أطراف الفتا قد شككته كشكك بالشعب الاماء اللئلا»

فادا كانت العصا صحيحة سالمة جميعا من المانع الكبار ، والرائق الأوسط والصغار ، مالا يحصيه أحد ، فادا مرت فيها مثل الذى ذكرنا وأكثره إلى آخر ما أورده الجاحظ في هذا الباب .

(٢) جمع شرعة بكسر أوله أى شرائع ومناهج يجرى فيها على سنة الملوك من آثاته . يريد أن آباءه من الملوك لتعاقبهم على سن المكارم يمين يحلفهم من أبائهم أو هموه لكثرة ما أوصوا بها أنها شرائع منزلة .
(٣) الحادق و مستعته .

إِنَّ السَّيُوفَ إِذَا مَا طَابَ جَوْهَرُهَا فِي أَوَّلِ الطَّبَعِ لَمْ يَعْلَقْ بِهَا طَبَعُ^(١)
جَذْلَانُ يَسْتَضْحِكُ الْأَيَّامَ عَنْ شَيْمٍ كَالرَّوْضِ تَضْحَكُ مِنْهُ فِي الرِّثَا قِطْعُ
كَالْبَارِدِ الْمَذْبِ لَذَّةٌ مِنْ مَوَارِدِهِ - لِشَارِبٍ غِيبٌ تَزِيحُ الصَّدَى - جُرْعُ^(٢)

* * *

قُلْ لِلْوَزِيرِ الَّذِي تَأْمِيْلُهُ وَزَرِي إِنَّ صَاقَ مُضْطَرَبٍّ أَوْ هَالٍ مُطْلَعِ^(٣)
أَصْبَحَ لِهَمْسٍ عِتَابٍ تَحْتَهُ مَقَّةُ وَكَلَّفَ النَّفْسَ مِنْهَا فَوْقَ مَا تَسَعُ^(٤)
مَا لِلْعِتَابِ - الَّذِي أَحْصَفَتْ عُقْدَتُهُ - قَدْ خَانَ الْقَلْبَ مِنْ تَضْيِيعِهِ جَزَعُ^(٥)
لِي فِي الْمَوَالَاةِ أَتْبَاعُ يَسْرُهُمْ أَنِّي لَهُمْ فِي الَّذِي تُجْزَى بِهِ تَبَعُ^(٦)
أَلَسْتُ أَهْلَ اخْتِصَاصٍ مِنْكَ يُلْدِسُنِي جَمَالَ مَبِيَّاهُ ؟ أَمْ مَا فِي مُسْطَنَعِ ؟^(٧)

(١) الطبع : الصدا ، يقول : إنه السيوف في مبدأ طبيعتها إذا طاب جوهرها لم تعلق بها شين الصدا ، يعنى أن المدحوح طابت أوليته تخلص جوهره ولم يشنه عيب .

(٢) فيه تشبيه المدحوح بورد الماء البارد العذب لذ لشاربه منه جرعة أضحت غلة صدره بعد ضماً مبرح شديد .

(٣) وررى : ملجئى ومعتصمى ، واضطرب اسم مكان من الضرب وهو السر في الأرض ، ومطلع : مكان الاطلاق من مشرف حال ، أو مكان الصعود من أسفل إلى أعلى ، وفي حديث صروضى الله عنه أنه قال عند موته ، « لو أنى ما فى الأرض حياء لا فتديت به من حول المطلع » وهو بالشديد مكان الاطلاق أراد به ما مشرف عليه من أسر الآخرة ويطلع عليه غيب الموت .

(٤) اقبل رفيق عتاب كالهمس في الأذن ينطوى على مقة ومحنة وكلم بمسك من تحقيق أسبق فوق طائتها .

(٥) أحصفت : أحكمت ، والعقدة : المراد بها هنا الرأى والتدبير ، والمعنى : قد كان من العدل وحصافة الرأى أن أبادر إلى التوبة وأناذا تائب مما نسب إلى ، فما لتوبتي قد صيحت ولم تقبل مما حمل قاي بمخالطة الجوع وعدم الصبر ، وبمازجه اليأس والحزن .

(٦) يقول : أنا أول الناس في الولاء لكم وغيرى تبع ، وأتباعي في الموالاة يسرهم أن أكون في الجزاء تبعاً وتاليا لهم ، فهم دائماً يسعون لاسقاط منزلي وإحباط مساعى .

(٧) يقول : أنتكر اختصاصى منك بما يحلى محليا بجمال هذا الاختصاص ، فلا يتقدم على من هم تبع لى في الولاء والاخلاص ؟ أم هل تنكر أى قبل غيرى أهل لرب الصنعة وإسداء الجليل ؟

لَمْ أَوْتِ فِي الْحَالِ مِنْ سَعْيِي لَدَيْكَ - وَنَى
لَا تَسْجِزْ وَضَعُ قَدْرِي بَعْدَ رَفْعِكَ
تَقَدَّمْتُ لَكَ نَعْمَى رَادَهَا أَمَلِي
مَا زَالَ يُوتِقُ شُكْرِي فِي مَوَاقِعِهَا
شُكْرُ يَرُوقُ وَيُرْضَى طِيبُ طُعْمَتِهِ
ظَنَّ الْعِدَا - إِذْ أُغْبِتْ - أَنَّهَا انْقَطَعَتْ ،
لَا بَأْسَ بِالْأَمْرِ - إِنْ سَاءَتْ مَبَادِئُهُ
بَلْ بِالْجُدُودِ تَطِيرُ الْحَالُ أَوْ تَقَعُ ^(١)
فَاللَّهُ لَا يَرْفَعُ الْقَدَرَ الَّذِي تَضَعُ
فِي جَانِبٍ هُوَ لِلْإِنْسَانِ مُنْتَجِعُ ^(٢)
كَالْمُزْنِ تُوتِقُ فِي آثَارِهِ التَّرْعُ ^(٣)
فِي طَيْهِ نَفَحَاتُ يَدْنِهَا خَلَعُ ^(٤)
هَيْهَاتَ لَيْسَ لِمَدِّ الْبَحْرِ مُنْقَطَعُ ^(٥)
نَفْسَ الشَّقِيقِ - إِذَا مَا سَرَتْ الرُّجْعُ

إِنَّ الْأَلَى كُنْتُ مِنْ قَبْلِ افْتِنَاحِهِمْ - مِثْلَ الشَّجَى فِي لَهَا هُمَ لَيْسَ يُنْتَزَعُ ^(٦)

(١) ونى : أى فترة وتوان فى السعى ، والجودود : جمع جد ، لفتح وهو الحظ والاحت والمعى : لم أوتى ولم يذهب سعيى عندك فتور ولا تنصير فى المطالبة والسعى ، ولكن الذى قد بدى عن درك أعتيقى عندك إنما هو حطى الذى به يمازى الحال ويرتفع ، كما يطير الطائر أو يقع .

(٢) رادها : أى تقدمى أبل أرسلته فى طلب الرحمة ، وارتباد التهمة ، فصادف حابيا مرعا ، ومراداً لعمالك ومنتهجا .

(٣) الترعى : جمع ترعة ، وهى الروضة على المكان المرتفع من الأرض ، يقول : ما زال روس شكرى موقعا موحا عن سماء ، كالمزن أى السحاب يعجبك على أثر نزول المطر منه الرياس والربى قد أترعت بألوان الزهر ، وأيدمت بأنواع الثمر .

(٤) طيب طعمه : أى مكسبه الطيب الحلال ، والخلع : جمع خلع بالسكر ، وهى ما تحلعه من الثياب وتطرده على آخر ، أى شكر يروى السامع حسه . ويرضى الشاكر ما يشمره من طيبات المكاسب ، فى طيه مثل صفات الروس بينها وفى أثنائها تحلج عليها حلق ثمنه ، وحلل فاخرة .

(٥) طل العدا أن هذه العطايا والفائس مد أعبت وتأخرت أياما أنها انقطعت عى ، هيهات أن ينقطع مطاه شبه البحر الذى ليس لمدته انقطاع .

(٦) يقول فى هذا البيت والذى مده : -

أَنْ الدِّينَ كُنْتُ - مِنْ قَبْلِ اتِّضَاعِ أَمْرِهِمْ وَظُهُورِ صَرِيحِ الْمَدَاوَةِ مِنْهُمْ كَالشَّجَا مُعْتَرِضًا فِي حُلُوقِهِمْ لَا عَمَلٌ لِمَنْ يَعْتَرِضُهُمْ ، لَمْ أَحْطَ مِنْهُمْ وَهُمْ أَعْدَاءُ مَا أَقْوَمَ ، إِلَّا بِمَا كُنْتُ أَحْطَى بِهِ مِنْهُمْ وَهُمْ شَيْعَةُ مُسَالِمِينَ ، يُرِيدُ أَنْ يَصِيبَهُ مِنْهُمْ فِي الْحَالَيْنِ لَمْ يَكُنْ سِوَى الشَّرِّ وَالْأَدَى وَالْوَقِيعَةِ .

لَمْ أُحْظَ - إِذْ هُمْ عَدَا بَادٍ نِفَاقُهُمْ -
مَا غَظَهُمْ غَيْرُ مَا سَيَّرْتُ مِنْ مِدْحِ
كَمْ غُرَّةٌ لِي تَلَقَّتْهَا قُلُوبُهُمْ
إِذَا تَأَمَّلْتُ خُصْبِي غِيبَ غَشَّهِمْ
تِلْكَ الْعَرَائِينُ لَمْ يَصْلُحْ لَهَا شَمَمٌ
أَوْ دَعَتْ نِعْمَاكَ مِنْهُمْ شَرَّ مُفْتَرِسٍ
لَقَدْ جَزَّيْتَهُمْ جَوَازِي الدَّهْرِ عَنْ مَنِي
لَا زَالَ جَذْكَ بِالْأَعْدَاءِ يَصْرَعُهُمْ
إِلَّا كَمَا كُنْتُ أُحْظَى إِذْ هُمْ شَيْعٌ
فِي صَائِكَ الْمِسْكِ مِنْ أَنْفَاسِهَا فَنَعٌ^(١)
كَمَا تَلَقَّى شِهَابَ الْمَوْقِدِ الشَّمْعُ^(٢)
لَمْ يَخَفْ مِنْ فَلَقِ الْإِصْبَاحِ مُنْصَدِعٌ^(٣)
فَكَانَ أَهْوَنَ مَا نِيلَتْ بِهِ الْجَدْعُ^(٤)
لَنْ يَكْرُمَ الْغَرَسُ حَتَّى تَكْرُمَ الْبُقْعُ^(٥)
عَفَتْ فَلَمْ يَثْنِبْهُمْ عَنْ غَمْطِهَا وَرَعٌ^(٦)
إِنْ كَانَ بَيْنَ جُدُودِ النَّاسِ مُصْطَرَعٌ

(١) صائك : اسم فاعل من صاك به المسك يصيك أى لصق به ، قال الأعشى :

« ومثلك معجبة بالشبا ب صاك العير بأحلامها . »

وسياتى لصاحب الديوان قوله فى « ص ١٣٩ » :

« ثناء : عمل كأن ثناء مسك بأردان المحافل صاكا . »

والفنع : نعمة المسك ، ومسك دومع ذكرى الرائحة طيب الأنفاس . قال الشاعر :

وعرو ع ساغ أطرافها علاتها ربح مسك ذى فنع

وجاء بالأصل « صايك » بالياء . و « كعب » بالكاف ولا معنى لهما .

(٢) كم غرّة لى واضحة منيرة تطلع عليهم فتشقها قلوبهم وهى متأججة مستمرة ، كما يتلقى الشمع عند

الانارة حر الشهاب من موقده ومشعله .

(٣) يقول حى واسع كفتاق الصبح ، وجههم مغشوش كاذب .

(٤) العرائين : جمع عرين ، وهو أعلى الأنف عند ملقى الحاحيين ، أو هو ما صلب من عظم الأنف ،

قال ذو الرمة :

« تنفى القاب على عرين أربة شام مارنها بالمسك مرثوم . »

والشمع : ارتفاع قصبة الأنف وحسنها مع استواء أعلاها وإشراف الأرنبة ، وإذا وصف الرجل بالشمع

فانما يعنون أنه سيد شريف النفس ذو أمة وشموخ وحمية ، ويقال هم شم العرائين كناية عن ذلك ، قال

كعب بن زهير :

« شم العرائين أبطال لوسهم سن سج داود فى الهيجا سرايل . »

والجدع : القطع البائن فى الأنف والأذن ونحوهما وهو مصدر جدع كمرح فهو أجدع .

(٥) يقول : لقد استنبت نعاك فى بقعة خبيثة من نفوس عرف بغمط النعمة ونكران الحيل .

(٦) يقول : إن الدهر جازاهم عن من أسديتوها إليهم ، فغفوا على آثارها ولم يتورعوا فى غمطها

والامتناع عن شكرها .

تهنئة بقران

« وقال يمدح المعتضد بالله المنصور بفضل الله
أبا عمرو عد الله ويهنيه بالناء على السيدة
بنت الموفق مجاهد رجهما الله . »

أَخْطَبَ فَلَكُكَ يَفْقِدُ الْإِمْلَاكَ ۚ وَأَطْلَبَ فَسَعْدُكَ يَضْمَنُ الْإِذْرَاكَ ۚ (١)
وَصَلَ النُّجُومَ بِحِظِّ مَنْ لَوْ رَامَهَا هَجَرَتْ إِلَيْهِ زُهُرُهَا الْأَفْلَاكَ ۚ (٢)
وَأَسْتَهْدُ مِنْ أَهْمِي مَرَاتِعَهَا الْمَهَا يُأَيُّهَا الْمَلِكُ الَّذِي تَذِيرُهُ هَذِي اللَّيَالِي بِالْأَمَانِي سَمَحَةً ۚ (٣)
فَاعْقِلْ شَوَارِدَهَا إِزَاءَ عَقِيلَةٍ أَهْدَى الزَّمَانُ إِلَيْكَ مِنْهَا تُخَفَّةَ ۚ (٤)
شَمْسٍ تَوَارَتْ - فِي ظَلَامٍ مَضِيعَةٍ - ثُمَّ أَسْتَطَارَ لَهَا السَّنَا بِسَنَاكَ ۚ (٥)

(١) الاملاك : عقد الزواج ، يقول : اخطب فملكك بعوزها الصهر والذنب ، واطلب فسعدك يضمن لإدراكك مااطلب .

(٢) وصل النجوم بحظ ملك لو رام زهر النجوم لهجرت إليه أفلاكها ، يريد أنه لو رام مصاهرة من ارتفع نسبهم من الملوك إلى مستوى زهر السكواك في أفلاكها ، اساءوا إليه من زهر عرائسها ما يرومه ، وتسمو إليه نفسه ، ويختاره نسا وصهرا .

(٣) استهد : أطلب الهداء من هدى المروس يهديها إليه هداء زفها إليه ، وفي الأصل (استهو) وهو من استهواء الشياطين ، ولا معنى له هنا ، أي اطلب من أمنع أحياء العرب وأشدها حماية وحفيظة أن يهدوا إليك من بناتهم الشبهات بالمها أي بقر الوحش في البياض وسواد العيون من تريد وتهوى فان الصعب يسلس وينقاد في عنائه مرادك وهوالك .

(٤) أي أضحي تديره قوام المملكة ونظامها الذي يعتمد عليه في أمورها .

(٥) مضيعه : يقال هو بدار مضيعه كعيشة أي بدار ترك واطراح وإضاعة ، واستطار : إنتشر ، والسنا : بالضم الضياء ، أي كانت قبل هذا الاملاك شمساً محتجبة وراء حجب الالهام والترك ، فاستطار لإيها شعاع من سنا وجهك ، فأشرقت وأنارت .

قُرِنتَ بِبَدْرِ السَّمِّ كَافِلَةً لَهُ
هِيَ وَالْفَقِيدَةُ كَالْأَدِيمِ اخْتَرْتَهُ
فَاصْفَحْ عَنِ الرِّزْوِ الْمَعَاوِدِ ذِكْرُهُ
أَنْ سَوْفَ تُتَّبِعُ فَرْقَدَيْنِ سِمَاكَ^(١)
فَقَدَدْتَ إِذْ خَلَقَ الشَّرَّاءُ شِرَاكَ^(٢)
وَأَسْتَأْنِفِ النُّعْمَى فَتِلْكَ بِذَاكَ^(٣)

لَمْ يَبْقَ عُذْرٌ فِي تَقَسُّمِ خَاطِرٍ
كُفَّارُ أَنْعَمِكَ الْآلَى حَلَّتْهُمْ
أَعْرِضْ عَنِ الْخَطَرَاتِ إِنَّكَ إِنْ تَشَأْ
هَضِرَ النِّعَمِ بِعِطْفِ دَهْرِكَ فَأَنْقِىْ
وَبَدَا زَمَانُكَ لَابِسًا دِيْبَاجَةً
دُنْيَا لَزَهْرَتَيْهَا شُعَاعٌ مُذْهَبٌ
إِلَّا الصُّبَابَةُ مِنْ دِمَاءِ عِدَاكَ
أَطَوَّفَهُمْ ، سَيُطَوَّقُونَ ظُبَاكَ^(٤)
تَكُنِ النُّجُومُ أَسِنَّةً لِقَنَاكَ^(٥)
وَجَرَى الْفَرِيدِ نَدْبُ بَصَفَتِي دُنْيَاكَ^(٦)
تَجَلُّوْا لِعَيْنِ الْمُجْتَلِي سِيَمَاكَ
لَوْ كَانَ وَصْفًا كَانَ بَعْضَ خُلَاكَ

(١) يقول : قرب هذه العقيلة ببدر السَّمِّ كَافِلَةً لَهُ أَنْ سَتَتَّبِعُ فَرْقَدَيْنِ نَحْمَا يَرِيدُ أَنَّهَا سَتَتَّجِبُ أَمثال السُّكَاكِ الْبَيْرَةِ مِنَ الذِّكْرِ .

(٢) الْأَدِيمُ : الْجِلْدُ ، وَخَلَقَ : بَنَى ، وَالشَّرَّاءُ : أَحَدُ سَيُورِ النَّمْلِ الَّتِي عَلَى ظَهْرِهَا ، يَقُولُ : هَذِهِ الْعَقِيلَةُ وَزَوْجَتُكَ الْعَقِيلَةُ كَالْأَدِيمِ قَطَعْتَ مِنْهُ بَدَلَ الشَّرَّاءِ الَّذِي بَنَى شِرَاكَاً جَدِيداً ، أَيْ اخْتَرْتَ بَدَلَ الْفَقِيدَةِ ، زَوْجاً أُخْرَى جَدِيدَةً ، وَقَدْ أَلَفَ الْعَرَبُ أَنْ يَشَبِّهُوا الْمَرْأَةَ بِالنَّمْلِ ، وَجَارَاهُمْ ابْنُ زَيْدُونَ فِي ذَلِكَ ، وَقَدْ قَالَ الْحَرِيرِيُّ فِي مَقَامَانِهِ مِنْ حَوَارِ طَوِيلٍ : « فَا نَ لَمَسَ ظَهْرَ نَعْلِهِ » فَقَدْ انْتَقَصَ وَضُوؤُهُ بِفَعْلِهِ أَيْ إِنْ لَمَسَ أَمْرَأَتَهُ .
(٣) أَيْ ذَلِكَ النِّعْمَى بِالْجَدِيدَةِ ، عَوِضَ مِنْ ذَلِكَ الرِّزْوِ بِالْفَقِيدَةِ ، فَاصْرَبْ صَفْعاً عَمَّا يَمَاوِدُكَ مِنْ ذِكْرِيَّاتٍ تَوَلَّمْ نَفْسَكَ وَتَبِعْتُكَ عَلَى الْحُزَنِ .

(٤) جَمْعُ ظِلَّةٍ بِالضَّمِّ ، وَهِيَ حِدَّةُ السِّيفِ ، يَقُولُ : إِنْ الدِّينَ طَوَّقْتَهُمْ بِأَنْعَمِكَ فَجَعَلُوا بِهَا ، سَتَجْعَلُ لَهُمْ خَدَاً مِنْ سَيُوفِكَ فِي أَعْنَاقِهِمْ أَطَوَّافاً يَطُوقُونَهَا .

(٥) أَعْرِضْ عَنْ كُلِّ خَطَرَةٍ تَخْطُرُ بِفَلَيْكَ ، وَتَقَعْ فِي بَالِكَ مِنْ حِمَاةِ تَدْبِيرِ الْمَلِكَةِ ، فَانْكَ مَنْصُورٌ عَلَى أَعْدَائِكَ ، وَلَوْ شِئْتَ لَتَنَاوَلَتْ نَجُومُ السَّمَاءِ لِحِمْلِنَا أَسَنَةً لِمَا حَكَ .

(٦) حَمَلُ النِّعَمِ عَظِماً كَعَطْفِ الْحَسَنَاءِ تَهْصِرُهُ أَيْ تَمِيلُهُ إِلَيْكَ فَيَنْتَفِي كَمَا تَهْصِرُ الْفَصْنَ وَتَمِيلُهُ نَحْوَكَ لِفَطْمِ عَمَارِهِ ، وَجَمَلُ لَدُنْيَا الْمَدْمُوحِ الَّتِي احْتَوَتْ النِّعَمَ فَرَنَدَا يَجْرِي فِي صَفْحَتَيْهَا مَاؤُهُ وَتَتَرَقَّقُ دِيْبَاجَتُهُ ، فَأَعْطَاكَ صُورَةَ سَاحِرَةٍ فَائِدَةٍ لَمَّا يَتَّصِلُ بِالْمَدْمُوحِ مِنْ دُنْيَا يَحْفَظُهَا النِّعَمُ .

فَتَمَلَّ في قُرْشِ الْكَرَامَةِ نَاعِمًا وَأَعْقِدْ بِمَرْتَبَةِ الشُّرُورِ حُبًّا كَا^(١)
وَأُطِلْ - إِلَى سَدْوِ الْقِيَانِ - إِصَاخَةً وَتَلَقَّ مِثْرَعَةَ الْكُؤُوسِ دِرَاكًا^(٢)
تَحْتِهَا مِثْنِي مَنَانِي غَادَةً شَفَعْتَ بِحَثِّ غِنَاهَا الْإِمْنَسَاكًا^(٣)
مَا الْعَيْشُ إِلَّا فِي الصَّبُوحِ بِسُحْرَةٍ قَدْ جَاسَدَتْ أَنْوَارَهَا الْأَخْلَاكًا^(٤)
لَكَ أَرْيَحِيَّةٌ مَاجِدٍ - إِنْ تَعْتَرِضُ[✽] فِي لَهْوِ رَاحِكَ - تَسْتَهْلُ لَهَا كَا^(٥)
مَنْ كَانَ يَمْلُقُ فِي خِلَالِ نِدَامِهِ ذِمٌّ يَبْعُضُ خِلَالِهِ فَخْلًا كَا^(٦)
أُسْبُوعُ أَنْسٍ مُحْدِثٌ لِي وَحْشَةً عِلْمًا بِأَنِّي فِيهِ لَسْتُ أَرَا كَا^(٧)
فَأَنَا الْمُعَذِّبُ غَيْرَ أَنِّي مُشْعَرٌ ثِقَةً بِأَنَّكَ نَاعِمٌ فَهَنَا كَا^(٨)
إِنِّي أَقُومُ بِشُكْرِ طَوْلِكَ بَعْدَ مَا مَلَأْتَ مِنْ الدُّنْيَا يَدَيَّ يَدَا كَا^(٩)
بَرَدَتْ ظِلَالُ ذَرَاكَ ، وَأَخْلَوْنِي جَنَى نُعْمَاكَ لِي ، وَصَفَتْ جِهَامُ نَدَا كَا^(١٠)
وَأَمِنْتُ عَادِيَةَ الْعِدَا الْأَقْتَالِ مُذْ أَعْصَمْتُ فِي أَعْلَى يَفَاعٍ حِمَا كَا^(١١)

(١) تمل : تمتع ، يقال ملاك الله حبيبك أى متمك وأطاعتك معه طويلاً ، والحب : جمع حبة وهو أن يجمع الخالس طهره وسافيه بتوب أو نحوه .

(٢) نحتها : أى الكؤوس أصوات نغاد - شئ من رنات مثاني عود في يد خاد - سمع إلى حث الغناء لمسك الصوت بعده إطلافة .

(٣) جاسدت : حاطت بياض أنوارها سواد ظلماتها .

(٤) لهو راحك : أى في إبان لهوك اشرب الراح : وتستهل تخطر واللها : جمع لهوة بالضم ، وهى العطايا الجزلة الكثيرة .

(٥) من كان في أثناء الندامة على الشراب يلقى ببعض حاله وخصاله ما يعاب ويذم عليه ، فخلاك ذم وحشاك عيب .

(٦) هو الأسبوع الذى بأس فيه بهروسه ، ولا يخرج إلى خاصته القدرا : بالفتح كل ما استندريت به ، يقال أنا في دراهم أى في كعبه ، والجمام : جمع جمة بالضم وهى معظم الماء ، والسدى : العطاء أى صفا هطاؤك الشبه بالماء في الصفاء فلم يكدر بمن .

(٧) الأقتال : الأمران الساوودله في الشجاعة من أعدائه ، وأعصمت : مثل اعتصمت أى استمسكت وامنعت ولجأت ، واليفاع : المكان المرتفع .

جَهْدَ الْمَقِلِّ نَصِيحَةً تَمَحُّوْصَةً أَفْرَدْتَ مُهْدِيَهَا فَلَا إِشْرَاكَ (١)
وَتَنَاءَ مُحْتَفِلٍ كَانَ تَنَاءَهُ مِسْكٌ بِأَرْذَائِ الْمَحَافِلِ صَاكَ
وَلْتَدْعُنِي وَعَدُّوكَ الشَّانِي ، فَإِنْ يَرُمُ الْقِرَاعَ يَجِدُ سِلَاحِي شَاكَ (٢)
لَا تَعْدَمَنَّ الْحَظَّ غَرَسًا مُطْلِعًا *** تَمَرَّ الْفَوَائِدِ دَانِيًا لِحَنَّا كَا
وَالنَّصْرَ جَارًا لَا يُحَاوِلُ ثِقَلَةً وَالصَّنْعَ رَهْنًا لَا يُرِيدُ فِكَا كَا
وَإِذَا غَمَامُ السَّعْدِ أَصْبَحَ صَوْبُهُ دَرْكَ الْمَطَالِبِ فَلْيَصِلْ سُقْيَا كَا
فَالْدَّهْرُ مُعْتَرِفٌ بِأَنَا لَمْ نَكُنْ لِنُسْرٍ مِنْهُ - بِسَاءَةِ - لَوْلَا كَا

عهد

كَمَا تَشَاءُ فَقُلْ لِي لَسْتُ مُنْتَقِلًا لَا تَخْشَ مِنِّي نِسْيَانًا وَلَا بَدَلًا (٣)
وَكَيْفَ يَنْسَاكَ مَنْ لَمْ يَذَرِ بَعْدَكَ مَا طَعَمَ الْحَيَاةَ وَلَا بِالْبُعْدِ عَنْكَ سَلَا
أَتَلَفْتَنِي كَلَفًا ، أَبْلَيْتَنِي أَسَفًا قَطَّعْتَنِي شَغَفًا ، أَوْرَثْتَنِي عِلَلًا

إِنْ كُنْتُ خُنْتُ وَأَضْمَرْتُ السُّلُوفَ فَلَا بَلَغْتُ يَا أَمَلِي مِنْ قُرْبِكَ الْأَمَلَا (٤)
وَاللَّهِ لَا عَلِقَتْ نَفْسِي بِغَيْرِكُمْ وَلَا اتَّخَذْتُ سِوَاكُمْ مِنْكُمْ بَدَلًا

(١) أهدى إليك نهاية ما يستطيع إهداءه عقل مثلي ، نصيحة خالصة أفردت مهديها واختصصته بما لم تشرك معه فيه غيره .

(٢) الشان : المبعص ، والقِرَاع المفاوعة بالسيوف ، وشاك : السلاح شاك شوكا ظهرت شوكته وحدته ، أى أدعى للمازلة ومجالد عدوك الشان المبعص فانه متى يرم ذلك يحدنى شاكى السلاح مستعدا لمفاوعة .

(٣) يقول : إني احتمل منك كل شيء وليس ذلك بمحولى عن حبك ولا هو يدانى لى نسيانك أو الاتقال عن حبك إلى حب سواك .

(٤) يقول : « طافى الله بى أسمى منك وحرمنى عظمك وودادك إن كنت فكرت لحظة فى السلو عنك .

مدح ورثاء^(١)

« قال يمدح المعتمد ، ويرى المعتضد بالله . »

هُوَ الدَّهْرُ فَأَصْبِرْ لِلَّذِي أَحْدَثَ الدَّهْرُ فَنَ شِمَ الْأَبْرَارِ - فِي مِثْلِهَا - الصَّبْرُ
سَتَصْبِرُ صَبْرَ الْيَأْسِ أَوْ صَبْرَ حَسْبَةِ^(٢) فَلَا تُؤْثِرُ الْوَجْهَ الَّذِي مَعَهُ الْوِزْرُ^(٣)
حِذَارَكَ مِنْ أَنْ يُعْقِبَ الرُّزْءَ فِتْنَةً يَضِيقُ لَهَا - عَنْ مِثْلِ إِيْمَانِكَ - الْعُذْرُ
إِذَا أَسِفَ الْكُلَّ اللَّيْبُ فَشَفَّةً رَأَى أَفْدَحَ الشُّكْلَيْنِ أَنْ يَهْلِكَ الْأَجْرُ^(٤)
مُصَابُ الَّذِي يَأْمُرُ بِمَيِّتِ ثَوَابِهِ هُوَ الْبَرْخُ لَا الْمَيِّتُ الَّذِي أَحْرَزَ الْقَبْرُ^(٥)

حَيَاةُ الْوَرَى نَهْجٌ إِلَى الْمَوْتِ مَهْجٌ^(٦) لَهْمٌ فِيهِ إِيضَاعٌ^(٧) كَمَا يُوضَعُ السَّفَرُ^(٨)

(١) جاء في ص ٤٧٩ من نفع الطيب ما نصه :

« ولما مات والد المعتمد واستقل بالملك ، قال ذوالوزار بن زيدون يرثي المعتضد بقصيدة طويلة أَوْهَا :

« هو الدهر ، فاصبر للذي أحدث الدهر فن شيم الأحرار في مثلها الصبر . »

وقد ذكر صاحب نفع الطيب أكثر أبيات هذه القصيدة وإن اختلفت في قليل من الألفاظ في بعض أبيات القصيدة عن رواية الديوان .

وسيرى القارى تشابها كثيرا بين هذه القصيدة وبين القصيدة الرائية التي قالها ابن زيدون في رثاء الوزير أبي الحزم .

(٢) حسبة : احتساب الأجر ، وفي رواية نفع الطيب : « أو صبر وحشة »

(٣) وفي رواية نفع الطيب : « فلا تؤثر الوجه الذي معه العذر »

(٤) وفي رواية نفع الطيب : « أن يذهب الأجر »

(٥) وفي رواية نفع الطيب : « يأس بموت ثوابه » (٦) طريق .

(٧) الإيضاع : السير السريع . قال أبو العلاء :

« لا وضع للرجل إلا بعد الإيضاع فكيف شاهدت إمصاتي وإرماعي . »

(٨) السفر : السامرون .

فَيَاهَادَى الْمِنْهَاجِ جُحْرَتَ ، فَإِنَّمَا
إِذَا الْمَوْتُ أَضْحَى قَصَرَ ^(٢) كُلُّ مُعَمَّرٍ
أَلَمْ تَرَ أَنَّ الدِّينَ ضِيمٌ ذِمَارُهُ
بِحَيْثُ اسْتَمْتَلَّ الْمَلِكُ ثَانِي عِطْفِهِ
هُوَ الْعَنِيمُ لَوْ غَيْرُ الْقَضَاءِ يَرْمُوهُ
إِذَا عَثَرَتْ جُرْدُ الْعَنَاجِيحِ ^(٤) فِي الْقَنَا

هُوَ الْفَجْرُ يَهْدِيكَ الصِّرَاطَ أَوِ الْبَجْرُ ^(١)
فَإِنْ سَوَاءٌ طَالَ أَوْ قَصَرَ الْعُمُرُ
فَلَمْ يُغْنِ أَنْصَارُهُ عَدِيدُهُمْ دَثْرُ ^(٣)
وَجَرَّرَ مِنْ أَذْيَالِهِ الْعَسْكَرُ الْمَجْرُ
ثَنَاهُ الْمَرَامُ الصَّعْبُ وَالْمَسْلَاكُ الْوَعْرُ
بِدَلِيلِ عَجَاجٍ لَيْسَ يَصْنَعُهُ فَجْرُ

* * *

أَنْفَسَ نَفْسٍ فِي لُورَى - أَقْضَدَ الرَّدَى
أَعْبَادُ يَا أَوْفَى الْمُلُوكِ ، لَقَدْ عَدَا
وَهَلَا عَدَاةً أَنْ عَلِمَاكَ حَلِيمَةً .

وَأَخْطَرَ عِلْقٍ - لِلْهَدَى - أَفْقَدَ الدَّهْرُ
عَلَيْكَ زَمَانٌ مِنْ سَجَبَتِهِ الْغَدْرُ
وَذَكَرَكَ - فِي أَرْذَانِ أَيَّامِهِ - عِطْرُ

* * *

غُشِيَتْ فَلَمْ تَعْلَشِ الطَّرَادَ سَوَاحِجُ ،
وَلَا جُرَدَتِ يِيْضُ ، وَلَا أَشْرَعَتْ سُمرُ ^(٥)

(١) الجر لفتح والضم : المكروه والأمر العذاب ، وقد روى اللبرد صاحب الكامل أن الخليفة أبا بكر رضي الله عنه حين حضرته الوفاة ، قال في آخر كلمة له : ياهادى الطريق حرت ، إنما هو والله المجر أو البجر وقوله « إنما هو والله المجر أو البجر » يقول : « إن انتظرت حتى يضيء لك أفقر الطريق أضرت قصدك وإن حبط الظلماء وركبت المشواء هجما بك على المكروه » وضرب ذلك مثلا لعمرات الدنيا وتجيدها أهلها (الكامل : ج ١ ص ٥ و ٦ و ٧)

وجاء في اللسان قوله : وفي حديث أبي بكر رضي الله عنه : إنما هو الفجر أو البحر قال : البحر - بالفتح والضم - الداهية والأمر العظيم . أي أن انتظرت حتى يضيء الفجر أبصرت الطريق ، وإن حبطت الظلماء أنضت بك إلى المكروه . قال : ويروى البحر بالخاء يريد غمرات الدنيا شبهها بالبحر لتحير أهلها فيها .

(٢) قصر : قصارى أو غاية . (٣) دثر : كثير .

(٤) العناجيج : جياذ الحبل والأبل . (٥) ييض وسمر : سيوف ورماح .

وَلَا ثَنَّتِ الْمَحْدُورَ عَنْكَ جَلَالَةً وَلَا غُرَّرُ ثَبَّتْ وَلَا نَائِلُ غَمَرُ ^(١)
 لَنْ كَانَ بَطْنُ الْأَرْضِ هَيَّ أَنْسُهُ [✱] بِأَنَّكَ تَأْوِيهِ لَقَدْ أَوْحَشَ الظَّهْرُ
 لَعَمْرُ الْبُرُودِ الْبَيْضِ فِي ذَلِكَ الثَّرَى لَقَدْ أُدْرِجَتْ أَثْنَاءُهَا النِّعَمُ الْخَضِرُ
 عَلَيْكَ - مِنْ اللَّهِ - السَّلَامُ تَحِيَّةً يُنْسَمُكَ الْغُفْرَانُ وَنَحَائِهَا النَّضْرُ
 وَعَاهِدَ ذَاكَ اللَّحْدَ عَهْدُ سَحَائِبٍ إِذَا اسْتَعْبَرَتْ فِي تَرْبِهِ أَبْتَسَمَ الزَّهْرُ ^(٢)
 فَفِيهِ عِلَالَةٌ لَا يُسَامَى يَفَاعُهُ ^(٣) وَقَدَرُ شَبَابٍ لَيْسَ يَعْدِلُهُ قَدَرُ
 وَأَيُّضَ فِي طَيِّ الصَّفِيفِ كَأَنَّهُ [✱] صَفِيفَةٌ مَأْثُورٍ طَلَّاقَتُهُ الْأَثَرُ ^(٤)
 كَأَنَّ لَمْ تَسِرْ مُخْرُ الْمَنَآيَا تُظْلِمًا إِلَى مُهَجِ الْأَقْيَالِ ^(٥) رَأَاتُهُ الْحُمُرُ
 وَلَمْ يَحْمِ مِنْ أَنْ يُسْتَبَاحَ حِمَى الْهُدَى فَلَمْ يَرْضَهِ إِلَّا أَنْ أُرْتَجَعَ الْغُرُ
 وَلَمْ يَنْتَجِعْهُ الْمُحْتَفُونَ ^(٦)، فَأَقْبَلَتْ عَطَايَا كَمَا وَآلَى شَأْيِيْبَةُ ^(٧) الْقَطَرُ

(١) النائل العمر : العطاء الجزيل الكثير .

(٢) يدعو الله أن يطرأ حذته سحائب تدرف ماءها على الأرض فتروى أرحارها منتضرها .

(٣) اليفاع : المرتفع من الأرض .

(٤) الأثر : فرمد السيف ، وروقه ، وهو واحد ليس بجمع ، قال الشاعر :

« حلاها الصيفلون فأخلصوها حماما ، كلها يبقى بأثر . »

أى كلها يستقلك بغيرنده . ويتقى بحفف من يتقى .

وقال إعرابية :

« فإذا وجدت فأنت منقبه وإذا انقبه فعزك الأثر . »

وقالوا : سيف مأثور ، أى فى منته أثر . وأخذ من الأثر كأن وشبه أثر فيه ، أو منته حديد أثبت

وشفرته حديد ذكر ، ومد رعوها أنه السيف الذى يعمل به الجن .

(٥) الأقيال - جمع قيل - وهو الشجاع .

(٦) ينتجعه المعتنون : يطلب معروفه طالبو الاحسان والدى .

(٧) شأيب : جمع شؤبوب ، وهو الدفعة من المطر .

وَلَمْ تَكْتَفِ آرَاءَهُ الْمَعِيَّةُ كَانَ نَجَى الْغَيْبِ فِي رَأْيِهَا - جَهْرٌ^(١)
وَلَمْ يَتَشَذَّرْ لِلْأُمُورِ^(٢) مُجَلِّيًا إِلَيْهَا كَمَا جَلَّى مِنَ الْمَرْقَبِ الصَّقَرُ

* * *

كِلَا لَقَبَى سُلْطَانِهِ صَحَّ قَالُهُ فَبَا كَرَهُ عَضْدٌ وَرَاوَحَهُ نَضْرٌ^(٣)
إِلَى أَنْ دَعَاهُ يَوْمُهُ فَأَجَابَهُ وَقَدْ قَدَّمَ الْمَعْرُوفَ وَأَسْتَمَجَدَ الذُّخْرُ
فَأَمْسَى ثَبِيرُهُ قَدْ تَصَدَّى لِحِمْلِهِ سَرِيرُهُ فَلَمْ يَبْهَضْهُ^(٤) مِنْ هَضْبِهِ إِصْرُ

* * *

أَلَا أَيُّهَا الْمَوْلَى الْوَصُولُ عِيْدُهُ لَقَدْ رَابَنَا أَنْ يَتْلُو الصَّلَاةَ الْهَجْرُ
تُعَادِيكَ - دَاعِينَا السَّلَامَ - كَعَهْدِنَا فَمَا يُسْمَعُ الدَّاعَى وَلَا يُرْفَعُ السُّتْرُ
أَعْتَبَ عَلَيْنَا ذَاكَ عَنِ ذَلِكَ الرَّضَى فَنُعْتَبَ أَمْ بِالْمُسْمَعِ الْمُعْتَلَى وَقُرْ^(٥)
أَمَّا إِنَّهُ شُغْلٌ فَرَاغَكَ بَعْدَهُ سَيَنْصَاتُ إِلَّا أَنْ مَوْعِدُهُ الْحَشْرُ^(٦)
أَنْسَاكَ - لَمَّا يَنْأَى عَهْدُ - وَلَوْ نَأَى سَحَابِيسَ الْأَيَّامِ لَمْ يَرَمْ نَفْسِي الذِّكْرُ^(٧)
وَكَيْفَ بِنِسْيَانٍ وَقَدْ مَلَأَتْ يَدِي جِسَامُ أَيْدِي مِنْكَ أَيْسَرُهَا الْوَقْرُ

(١) كان لم تكتف فطنته والمعينة . مستور الغيب الذي يتبدى لها رغم حفاؤه واضحا حليا .

(٢) تشذر الأمور : نشط إليها وتسرع ، وتشذر الرجل تهيأ للقتال والحلة .

(٣) يشير إلى تلقيبه بالمتضد والنصور . (٤) يهضه : يهظه ، أى ينقل عليه حمله .

(٥) في رواية فتح الطيب :

« أعتب علينا ذاوهن ذلك الرضى فسمع أم الخ . . . »

(٦) يقول : إنك في شغل لن يتقضى إلا إذا جاء يوم الحشر .

(٧) دام برم : فارق بفارق ، يقول : كيف أنساك ولم يطل عهدي بك ولو طال أيد الدهر لم أسك

ولم تفارق نفسي ذكراك .



لَنْ كُنْتَ لَمْ أَشْكُرْ لَكَ الْمِنَّةَ إِنِّي تَعْلِيَّتُهَا تَتَرَى لَا وَبَقَى (١) الْكُفْرُ
فَهَلْ عَلِمَ الشَّلُو الْمُقَدَّسُ أَنِّي مُسَوِّغٌ خَالٍ ضَلَّ فِي كُنْهَهَا الْبِكْرُ (٢)
وَأَنْ مَتَابِي لَمْ يُضِغْهُ « مُحَمَّدٌ » خَلِيفَتُكَ الْمَدْلُ لِرَضَى وَأَبْنُكَ الْبَرُّ
هُوَ الظَّافِرُ الْأَعْلَى الْمُؤَيَّدُ بِالذِي لَهُ فِي الذِي وَلَاءُهُ مِنْ صُنْعِهِ سِرُّ
رَأَى فِي اخْتِصَاصِي مَا زَأَيْتَ وَزَادَنِي مَرِيَّةَ زُنْفَى (٣) مِنْ تَتَأَجَّجَهَا الْفَخْرُ
وَأَزْغَمَ فِي رِي أَتُوفَ عِصَابَةً لِقَاوُهُمْ جَهْمٌ وَلَحْظُهُمْ شَزْرُ
إِذَا مَا أَسْتَوَى فِي الدَّسْتِ عَاقِدَ حَبْوَةٍ وَقَامَ سِمَاطًا خَفْلِهِ قَلَى الصَّدْرُ (٤)

(١) لأهلكي (٢) الشلو : المصروع منه أشلاء . يقول : هل علم اخذ اليك الظاهر
أني أحاول أن أستبيع ما لا سبيل إلى استنافته أي أنه يحاول أن يرغم نفسه على الرضى بما حدث
ولا يجد إلى ذلك سبيلا . (٣) مري .

(٤) استوى : جلس ، ولدت : معرب دشت ومماها بالمأرسية اليد - كما وُجد من شعاع العليل
وترك هذه المادة في اللسان ، وفي القاموس : « الدسب لدشت ومن الثياب والورق وصدر البيت
« مرات . » واستعملها المؤيدون لمعان منها المجلس كما في اليد الذي نحن بصدده ، قال أبو العلاء المعري :
« من آلة الدست ماعد الوزير سوى تحريك الحيتة في حال إيماء
هو الوزير ولا أُرر يشهد به مثل العروض له بحر بلا ماء . »
وورد في النفاة الحادية عشرة من مقامات الحريري عند قوله :

« تبصر ودع اللوم وقل لي هل ترى اليوم

فستى لا يقر القوم إذا مادسته ثم . »

وهو هنا بمعنى الحيلة والخداع ، والمعنى أن حيله ، ويقال لأن تم عليه الدست في القمار أي لم يعز وورد
في آخر النفاة الثامنة عشرة عند قوله :

« فمادرتنا بعد أن وخذت عنسه ، ورايلنا أنسه ، كدس عاب صدره ، أو ايل أبل بدره . »

وهو هنا بمعنى المجلس وورد في أوله النفاة الثالثة والعشرين عند قوله :

« مركنس في إثر النظاره ، حتى وائينا باب الاماره ، وهناك صاحب المرومة متربما في دسسته ،
ومروعا بسمته . »

وَفِي نَفْسِهِ الْعَلِيَاءَ لِي مُتَبَوِّأً يُتَابَسُّنِي فِيهِ السَّمَاءُ كَأَنِ وَالْفَسْرُ
يُطِيلُ الْعِدَا فِي التَّنَاجِي خُفْيَةً يَقُولُونَ: «لَا تَسْتَفْتِ، قَدْ قُضِيَ الْأَمْرُ»
مَضَى نَفْسُهُمْ - فِي عُقْدَةِ السَّعْيِ - ضَلَّةً فَعَادَ عَلَيْهِمْ غُمَّةٌ ذَلِكَ السَّحَرُ
يَسِيبُ مَكَانِي عَنْ تَوَقِّي مَكَانِهِمْ كَمَا شَبَّ - قَبْلَ الْيَوْمِ - عَنْ طَوْقِهِ عَمْرُو^(١)

وهو هنا بمعنى المجلس أيضا وورد في آخر هذه المقامة عند قوله :

« فلما حضرت الوالي وقد خلا مجلسه ، وانجلي تعبه ، أخذ يصف أبا زيد وفضله ، ويذم الدهر له ، ثم قال : نشدتك الله - ألسن الذي أطاره الدست ؟ قلت : لا والذي أحلك في هذا الدست ، ما أما بصاحب هذا الدست ، بل أنت الذي تم عليه الدست . » فالدست الأول هو التوب ، والثاني المجلس ، والثالث هو التوب أيضا ، والرابع الحيلة .

والحبوة : بضم وكسر أوله وتجمع على جباى أن يجمع الجالس ظهرو وساقيه بثوب أو يديه ، ويقال حل ملان حبوته ، وهذا الأمر مما تحمل له الحبا ، والحبوة - بالفتح - المصدر ، والسماط : الصف من الناس ، يقال قام اليوم حوله سماطين أي صفين ، ومعنى بين السماطين أى بين الصفين ، يقول إنه يفسح لى الجلوس فى الصدر إذا استوى فى مجلسه ومثل حوله صفان من حفله .

(١) أصل المثل : « شب عمرو عن الطوق » وفى رواية أساس البلاغة : « جل عمرو عن الطوق » ، وفى رواية يجمع الأمثال الميداني « كبر عمرو عن الطوق » ومعنى البيت :
« لقد جل مكانى عن أن أحاذرهم ، كما حل عمرو عن الطوق . »

قال ابن قتيبة فى كتاب المعارف : و عمرو هذا هو عمرو بن عدى بن نصر ، ابن أخت جذيمة الأبرش ، وهو الذى كان يقول - إذا حنى الكمأة بين يدى خاله وهو صبي - :

« هذا جنائى ، وخياره فيه - إذ كل جان يده إلى فيه . »

وقد زعموا أن الجن استهوته حيناً ، ثم طهر فوجده مالك وعقيل ، قالوا : « فانتسب لهما . فأتيا به جذيمة فسر به سرورا شديدا وحكهما مسألاه منادمته . »

وقد ضربت الأمثال شذمانى جذيمة ، فقال مشم الزويرى حين رثى أحاه :

« وكنا كندمانى جذيمة حقة - من الدهر حتى قيل لن تصدقا

وعشنا بخير - فى الحياة - وقبلنا - أصاب الناي رهط كسرى وتبعا

فلما تمرقنا كئانى ومالكا - لطول افتراق - لم نبت ليلة معا . »

وقال أبو خراش الهذلى :

« ألم تعلمى أن قد تفرق - قبلنا - خبيلا صفاء مالك وعقيل . »

وقد أشار أبو العلاء المعرى إلى ندمانى جذيمة لإشارة نافعة فى رسالة العفران (ج ١ ص ١٣٢) فليرجع إليها من شاء ، قالوا : وأصل هذا المثل أن أم عمرو نظفته وألبسته ثياب الملوك وطوقته بطوق فى عنقه وأمرته بزيارة خاله ، قالوا : فلما رأى خاله لحيته والطوق فى عنقه ، قال : « شب عمرو عن الطوق » فذهبت مثلا . قالوا : « وكانت الزباء قتلت خاله فأدرك عمرو وقصير ثأره فقتلها . »



لَكَ الْخَيْرُ ، إِنَّ الرُّزْءَ كَانَ غِيَابَةً
فَقَرَّتْ عِيُونُ كَانَ أَسْخَنَهَا الْبُكَاءُ
وَلَوْلَاكَ أَعْيَا رَأَيْنَا ذَلِكَ النَّأْيَ (١)
وَلَمَّا قَدَمْتَ الْجَيْشَ بِالْأَمْسِ أَشْرَقَتْ
فَقَضَيْتَ مِنْ فَرَضِ الصَّلَاةِ لِبَايَةِ
وَمِنْ قَبْلُ مَا قَدَمْتَ مَثْنَى نَوَافِلِ
وَرُحْتَ إِلَى الْقَصْرِ الَّذِي غَضَّ طَرْفَهُ
فَدَامَا مَعًا فِي خَيْرِ دَهْرٍ ، صُرُوفُهُ
وَأَنْجَلَ - عَنِ النَّوَى - الْعَزَاءُ فَإِنْ نَوَى

طَلَعْتَ لَنَا فِيهَا كَمَا طَلَعَ الْبَدْرُ
وَقَرَّتْ قُلُوبُ كَانَ زَلْزَلَهَا الدُّعْرُ
وَعَزَّ قَلَمًا يَنْتَعِشُ ذَلِكَ الْعَثَرُ
إِلَيْكَ - مِنَ الْأَمَالِ - آفَاقُهَا الْغُبْرُ (٢)
مُشِيعَهَا نُسْكَ وَفَارِطُهَا طُهُرُ (٣)
يَلَاقِي بِهَا مَنْ صَامَ مِنْ عِيدِهِ فِطْرُ
بُعَيْدَ التَّسَامِي أَنْ غَدَا غَيْرُهُ الْقَصْرُ (٤)
حَرَامٌ عَلَيْهَا أَنْ يَطُورُهَا هَجْرُ (٥)
فَإِنَّكَ لَا الْوَانِي ، وَلَا الضَّرْعُ الْغَمْرُ (٦)

(١) النَّأْيُ : المساد ورأبه إصلاحه ، قال الشاعر :

« يرأب الصدع والنأى برصين من سجايا آرائه ويعير . »

(٢) قدمت : يقال قدم فلان فلانا يقدمه من باب نصر إذا تقدمه ، قال تعالى : « يقدم يومه يوم القيامة فأوردهم النار » والمعنى : ولما تقدم الجيش صبيحة يوم العطر أشرق إليك شمسوس الآمال من آفاقها الغبر يريد أن الآمال ابتسمت له مسرعة ، وقد اغبرت الآفاق حزنا على فقد والده .

(٣) اللبابة : الحاجة يقال قضى فلان لبائته أى حاجته ، والفارط : المتقدم أى قضيت حاجة فى نفسك من صلاة الفرض التى شيعها وتلاها نك العيد وسبقها وتقدمها الطهر المسنون والطيب ، وفى رواية نفع الطيب : « فشيعها نك وفارطها طهر »

(٤) أى بعد أن عدت من مصلى العيد - درحت إلى القصر الذى غض طرفه حياء - بعد أن سما يبصره إليك - لأنت تبدأت به قصرا غيره . (٥) لا يطورها : لا قربها والصغير طأد على القصرين .

(٦) الوانى : الضعيف ، والضرع : الخاضع الدليل ، والنمر : الذى لم يحرب الأمور ، يقول : تدرع بالصبر وأجل عزاء عن الراحل النوى فى قبره ، فانك لست - إذ ألم بك خطب - بالضعيف ولا الغر الجاهل الذى لم يحرب الأمور ولم يعتبر بصروف الدهر ، وفى الأصل « فانك لا الفانى » وقد أثبتنا هنا رواية نفع الطيب ، قال الشاعر :

أناة وحدا وانتظارا بهم خدا فما أنا بالوانى ولا الضرع الغمر

وَمَا أُعْطِيَ السَّيِّئُونَ قَبْلُ - أُولَى الْحِجَابِ مِنْ الْإِزْبِ مَا أُعْطِيَكَ عِشْرُوكَ وَالْعَشْرُ^(١)

أَلَسْتَ الَّذِي إِنْ ضَاقَ ذَرْعُ بِحَادِثٍ فَلَا تَهَيِّضِ الدُّنْيَا جَنَاحَكَ بَعْدَهُ وَلَا زِلْتَ مَوْفُورَ الْعَدِيدِ بِقُرَّةٍ فَإِنَّكَ شَمْسٌ - فِي سَمَاءِ رِيَاسَةٍ -
تَبَدَّجَ مِنْهُ الْوَجْهُ وَاتَّسَعَ الصَّدْرُ^(٢) فَنَكَ - لِمَنْ هَاضَتْ نَوَائِبُهَا - جَبْرُ لِعَيْنَيْكَ مَشْدُودًا بِهِمْ ذَلِكَ الْأَزْرُ تَطَّلَعَ مِنْهُمْ حَوْلَهَا أَنْجُمُ زُهْرُ

شَكَكْنَا فَلَمْ نُثَبِّتْ^(٣) أَيَّامُ دَهْرِنَا وَمَا إِنْ تَغَشَّتْهَا مُغَازِلَةُ الْكَرَى سِوَى نَشَوَاتٍ - مِنْ سَجَايَا مُمْلَكٍ -
بِهَا وَسَنُ أَمْ هَزَّ أَعْطَافَهَا سُكْرُ؟ وَمَا إِنْ تَمَشَّتْ - فِي مَفَاصِلِهَا^(٤) - خَمْرُ يُصَدِّقُ فِي عَلَيَّاتِهَا الْخَبَرَ الْخَبْرُ

أَرَى الدَّهْرَ - إِنْ يَبْطِشُ - فَأَنْتَ يَمِينُهُ وَكَمْ سَائِلٍ - بِالْغَيْبِ عَنْكَ - أَجَبْتُهُ : هُنَاكَ الْأَيَادِي الشَّقْعُ وَالسُّودَدُ الْوِثْرُ^(٥) وَبَذَلُ اللَّهِ وَالْبَاسُ وَالنَّظْمُ وَالنَّثْرُ هُنَاكَ الشَّقَى وَالْعِلْمُ وَالْحِلْمُ وَالنُّهَى

(١) أُولَى الْحِجَابِ : أرباب العقول ، والارب : العقل والدعاء والبصر بالأمور ، يقال أرب ككرم أربابة هو أربب أى حافل وجاء فى نفع الطيب « اللب » بدل « الارب » ، وعشروك : بالاضافة ، وعشرون إذا أضيف سقطت منه الون لأنه ملحق بجمع المذكر السالم ، يقال : « هذه عشروك وعشري » بتشديد الياء كسلى ، أى أن ثلاثين حبة أعادتلك من الحجا والعنل مالم تعطه غيرك السبعون .

(٢) أَلَسْتَ الَّذِي إِنْ ضَاقَ النَّاسُ ذَرْعًا بِحَادِثٍ تَهْلِلُ لَهُ وَجْهَكَ بِصِرَا ، واتسع له صدرك احتمالا وصبراً ، ثقة منك بأنك ستكشف البازلة ، وتدفع الكارثة .

(٣) وفى نفع الطيب : « فلم ندرك » (٤) وفى نفع الطيب : « معاطفها » .

(٥) أى : هناك الايادى أى النعم المزدوجة المتكررة والمجد الفذ .

مُهَامٌ - إِذَا لَاقَى الْمُنَاجِزَ رَدَّهُ - وَإِقْبَالَهُ خَطْوُهُ ، وَإِذَا بَارَهُ حُضْرُ^(١)
نَحَّاسِينَ ، مَا لِلرَّوْضِ - خَامَرُهُ النَّدَى - رُؤَايَا إِذَا نُصِّتَ حُلَاهَا وَلَا نَشْرُ^(٢)
مَتَى أَنْتَشِقَّتْ لَمْ تُطَرِّ دَارِينَ مِسْكَهَا حَيَاءٌ ، وَلَمْ يَفْخَرْ بِعَنْبَرِهِ الشَّجَرُ^(٣)
عَطَائِهِ وَلَا مَنٍّ ، وَحُكْمُهُ وَلَا هَوَى وَحِلْمُهُ وَلَا عَجْزُهُ ، وَعِزُّهُ وَلَا كِبَرُهُ
قَدِ اسْتَوْفَتْ النِّعَمَاءُ فِيكَ تَمَامَهَا عَلَيْنَا ، فَمِنَّا الْحَمْدُ لِلَّهِ وَالشُّكْرُ

إلى ابن ذكوان

« كتب إلى الوزير أبي العباس بن حاتم بن ذكوان »

لَسْتُ مِنْ بَابَةِ الْمُلُوكِ^(٤) أبا العباس ، دَعَهُمْ فَشَأْنُهُمْ غَيْرُ شَأْنِكَ
مَا جَزَاءُ الْوَزِيرِ مِنْكَ - إِذَا اخْتَصَّكَ - أَنْ تَسْتَمِرَّ فِي إِذْمَانِكَ
أُتْرَاهُ لَا يَسْتَرِيبُ لِإِمْسَا كَلِكَ سَرْدِ الْعِرَاقِ تَحْتَ لِسَانِكَ^(٥)
مُذْ نَهَانَا - عَنِ الْمُدَامِ - أَنْتَهَيْنَا مَعَ أَنَا نَعُدُّ مِنْ صِبْيَانِكَ .

(١) المناجز : من المناجزة وهي المبارزة في القتال والمقاتلة ، فال صيد :

كالهندواني المهنيـــــــــــــــد هزمه القرن المناجز

والحضر : إحضار الفرس وعدوه ، يقول هو ملك همام إذا لاقى عدوه المناجز في الحرب والقتال رده منهزما في حال كون إقباله بطيئا وإدباره سريعا .

(٢) نصت : وضعت على المنصة بكسر الميم وهي سرير المروس الذي تنص وتجلس عليه ليلة الزفاف ، والشر : الرائحة الطيبة ، وفي الأصل « ولا بشر » والذي أثبتناه هنا رواية نفع الطيب .

(٣) لم تطر : لم تدمح ، ودارين : ثمر على الخليج الفارسي يجلب إليه الطيب من بلاد الهند ، والذي في هج الطيب « لم يدر » والشجر : ساحل البحر - بين « عمان » و « عدن » - أو هو صقع على ساحل الخليج الفارسي وإلى هذا الصقع ينسب العبر الشجرى ، وهناك عدة مدن بهذا الاسم كما يؤخذ من مجمل البلدان ، والمعنى : متى فاح غير تلك النحاسن لم تنن دارين على مسكها ولم يفخر الشجر بعنبره .

(٤) من بابة الملوك : من الشروط والوجوه التي تصلح لهم ، ويقال : « هذا شيء من بابتك » أى يصلح لك . يقول : « لست من بيتهم . »

(٥) العراق : بالكسر الحلة المخروز على فم السقاء والزق ونحوهما تشبه بخزفه الأسنان في السرد ، والاستواء : وجاء في الأصل « سعد العراق » يقول : أترى الوزير لا يقع في الريبة لوضعك مسرودة العراق تحت لسانك ، يريد أنه يحشى الخمر من فم زق معرق أى على فمه عراق .

إلى المعتمد

« كتب ابن زيدون إلى المعتمد يشوقه إلى تعاطي

الحيا في قصوره البديعة التي منها المبارك والثريا (١) . »

فُزْ بِالنَّجَاحِ وَأُخْرِزِ الْإِقْبَالَ
وَأَيْهِنِكَ التَّأْيِيدُ وَالظَّفَرُ الْلَذَا
وَحُزِرِ الْمُنَى وَتَنْجَزِ الْآمَالَ
تَجِدِ الْمُقُولُ النَّاشِدَاتُ كَمَا لَا

* * *

أَمَّا « الثَّرَيَا » (٢) فَالْثَّرَيَا نَصْبَةً
قَدْ شَاقَهَا الْإِغْبَابُ حَتَّى أَنَّهَا
وَأُطِلَ مَزَارُهَا لِتَنْعَمَ بِلَا
لَوْ تَسْتَطِيعُ سَرَتْ إِلَيْكَ خَيَالًا

* * *

وَتَمَثَّلِ الْقَصْرَ « الْمُبَارَكَ » وَجَنَّةً
وَأَدِرْ هُنَاكَ مِنْ الْمُدَامِ أَتَمَّهَا
بَهَجُ الْجَوَانِبِ، لَوْ مَشَى لَأَخْتَلَا
فِيهِ ، وَتَلْتَحِفُ النِّعِيمُ ظِلَالًا
قَصْرُهُ يُقَرُّ الْعَيْنَ مِنْهُ مَصْنَعٌ
لَا زِلْتَ تَفْتَرِشُ الشُّرُورُ وَحْدًا اثِقًا

(١) وردت هذه القصيدة في الديوان ولم يكتب لها عنوان ، وقد نقلنا هذه الكلمة من مع الطيب .

(٢) يعني قصره المسمى « الثريا » .

(٣) أى اجعل ورودك أياها رفقها أى كل يوم ، يقال وردت الأبل رفقها إذا كانت ترد الماء كلها

شامت الورد . (٤) الجريال : الحر ، أو حررتها وسيأتى تفسيرها في ص « ١٥٥ »

مدح ورثاء وتهنئة (١)

« وقال أيضا بمدحه ويرثي الوزير الكاتب الأعلى

أبا الحزم أباه رجهما الله . »

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الشَّمْسَ قَدْ ضَمَّتْهَا الْقَبْرُ
وَأَنَّ الْحَيَا (٢) - إِنَّ كَانَ أَقْلَعَ صَوْبُهُ -
إِسَاءَةُ دَهْرٍ أَحْسَنَ الْفِعْلِ بَعْدَهَا ،
فَلَا يَتَهَنَّ الْكَاشِحُونَ قَا دَجَا
وَإِنْ يَكُ وَلَى « جَهْوَرُ » ، « فُحَمَّدُ »
وَأَنْ قَدْ كَفَانَا - فَقَدْ نَا الْقَمَرُ - الْبَدْرُ
فَقَدْ قَاضِ الْأَمَالِ فِي إِثْرِهِ الْبَحْرُ
وَذَنْبُ زَمَانٍ جَاءَ يَتَّبَعُهُ الْعُذْرُ
لَنَا اللَّيْلُ إِلَّا رَيْثًا طَلَعَ الْفَجْرُ
خَلِيفَتُهُ الْعَدْلُ الرَّضَى وَأَبْنُهُ الْبَرُّ

لَعَمْرِي أَنْعَمَ الْعِلْقُ (٣) أَتْلَفَهُ الرَّدَى
هَزَزْنَا بِهِ الصَّمْصَامَ (٤) فَأَلْعَزَمُ حَدَهُ
فَتَى يَجْمَعُ الْمَجْدَ الْمَفْرَقَ هَمَّهُ
أَهَابَتْ إِلَيْهِ بِالْقُلُوبِ مَحَبَّةُ
سَرَتْ - حَيْثُ لَا تَسْرَى مِنَ الْأَنْفُسِ الْمَنَى -
لَبَسْنَا لَدَيْهِ الْأَمْنَ تَنْدَى ظِلَالُهُ
وَعَادَتْ لَنَا عَادَاتُ دُنْيَا كَانَتْهَا
فَبَانَ ، وَنِعَمَ الْعِلْقُ أَخْلَفَهُ الدَّهْرُ
وَحَلِيتُهُ الْعَلْيَا وَإِفْرِنْدُهُ الْبِشْرُ
وَيُنْظَمُ - فِي أَخْلَاقٍ - السُّودُ الدُّنْشُرُ
هِيَ السَّحَرُ الْأَهْوَاءُ ، بَلْ دُونَهَا السَّحَرُ
وَدَبَّتْ دَيْبًا لَيْسَ يُحْسِنُهُ الْخَمْرُ
وَزَهْرَةَ عَيْشٍ مِثْلَ مَا أَيْنَعَ الزَّهْرُ
بِهَا وَسَنُ أَوْ هَزَّ أَعْطَافَهَا سُكْرُ

مَلِكُ لَهُ مِنَّا النَّصِيحَةُ وَالْهَوَى وَمِنْهُ الْأَيَادِي الْبَيْضُ وَالنَّعْمُ الْخَضِرُ

(١) ارجع إل من « ١٤٠ » و من « ١٧٤ » من هذا الديوان .

(٢) المطر . (٣) النفيس . (٤) الحسام .

نَسِرُ وَفَاءَ - حِينَ تُعْلِنُ طَاعَةَ -
فَمَا خَانَهُ سِرٌّ وَلَا رَابَهُ جَهْرُ
فَقُلْ لِلْحَيَارَى: « قَدْ بَدَأَ عِلْمُ الْهُدَى »
وَالِطَّامِعِ الْمَغْرُورِ: « قَدْ قُضِيَ الْأَمْرُ »^(١)

« أَبَا الْحَزَمِ » قَدْ ذَابَتْ عَلَيْكَ - مِنَ الْأَسَى -
دَعِ الدَّهْرَ يَفْجَعْ بِالذَّخَائِرِ أَهْلَهُ
قُلُوبٌ مِّنْهَا الصَّبْرُ، لَوْ سَاعَدَ الصَّبْرُ
فَمَا لِنَفْسٍ - مُذْ طَوَاكَ الرَّدَى - قَدْرُ
تَهْوُنُ الرِّزَايَا بَعْدُ - وَهِيَ جَلِيلَةٌ -
وَيُعْرِفُ - مُذْ فَارَقْتَنَا - الْحَادِثُ النُّكْرُ
لَهَا أَثَرٌ يُبْنِي بِهِ السَّهْلُ وَالْوَعْرُ
فَقَدْ نَاكَ فَقْدَانُ السَّحَابَةِ لَمْ يَزَلْ
وَذِكْرُكَ - فِي أُرْدَانِ أَيَّامِهَا - عِطْرُ
مَسَاعِيكَ حَلَى لِّلْيَالِي مُرْصَعٌ
إِلَيْهَا التَّنَاهَى طَالَ أَوْ قَصُرَ الْعُمُرُ
فَلَا تَبْعَدَنَّ إِنَّ الْمَنِيَّةَ غَايَةٌ

عَزَاءَ - فَدَتْكَ النَّفْسُ عَنْهُ - فَإِنْ ثَوَى
وَمَا الرِّزْوُ فِي أَنْ يُودَعَ التُّرْبَ هَالِكٌ
فَإِنَّكَ لَا الْوَانِي وَلَا الضَّرْعُ الْغُمُرُ
أَمَامَكَ - مِنْ حِفْظِ الْإِلَهِ - طَلِيعَةٌ
بَلِ الرِّزْوُ كُلُّ الرِّزْوِ أَنْ يَهْلِكَ الْأَجْرُ
وَحَوْلَكَ - مِنْ آلَائِهِ - عَسْكَرُ مَجْرُ
وَمَا بِكَ مِنْ فَقْرٍ إِلَى نَصْرِ نَاصِرٍ
كَفَتْكَ مِنْ اللَّهِ الْكَلَاءَةُ^(٢) وَالنَّصْرُ

لَكَ الْخَيْرُ، إِنِّي وَاثِقٌ بِكَ شَاكِرٌ
تَحَامَى الْعِدَا - لَمَّا أَعْتَلَقْتُكَ - جَانِبِي
لِمَشَى أَيْادِيكَ الَّتِي كُفِّرُهَا الْكُفْرُ
وَقَالَ الْمَنَاوِي: شَبَّ عَنْ طَوْقِهِ عَمْرُو^(٣)

(١) قريب من هذا قول ابن هاني الأندلسي :

تمول بنو العباس : « هل فتحت مصر ؟ » فقل لبني العباس : « قد قضى الأمر »

(٢) الرقابة والحفظ . (٣) ارجع إلى تفسير هذا المثل في (ص ١٤٥) من هذا الكتاب .

يَلِينُ كَلَامٌ كَانَ يَخْشَنُ مِنْهُمْ وَيَفْتَرُ نَحْوِي ذَلِكَ النَّظْرُ الشَّرُّ

فَصَدَّقْ ظُنُونًا لِي وَفِيَّ ، فَإِنِّي لَأَهْلُ الْيَدِ الْبَيْضَاءِ مِنْكَ وَلَا فَخْرُ
وَمَنْ يَكُ - لِلدُّنْيَا وَلِلْوَفْرِ - سَعْيُهُ فَتَقَرِّبُكَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالَكَ الْوَفْرُ (١)

هدية عنب

« وأهدى إلى الوزير الفقيه صاحب الأحكام أبي بكر
محمد بن محمد بن إبراهيم جده لأمته عنباً عذاري
وكتب معه . »

أَتَاكَ مُحْيِيًّا عَنِّي أَعْتَذَارًا عَذَارَى دُونَهُ رِيْقُ الْعَذَارَى (٢)
تَخَالُ الشَّهْدَ مِنْهُ مَسْتَمَدًّا وَتَفْعُ الْمِسْكَ مِنْهُ مُسْتَعَارًا
يَرُوقُ الْعَيْنَ مِنْهُ جِسْمُ مَاءٍ غَدَا ثَوْبُ الْهَوَاءِ لَهُ شِعَارًا
وَلَوْ لَا أَنِّي قَدْ نِلْتُ مِنْهُ - وَلَمْ أَسْكُرْ - خَلَيْتُ بِهِ عُقَارًا
بَعَثْتُ بِهِ وَلَوْ أَهْدَيْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ ، لَكَانَ مِنْ بَرِّى أَقْصَارًا
فَأَنْعِمَ بِالْقَبُولِ فَرُبَّ نِعْمَى أَعَدْتَ بِهَا دُجَى لَيْلِي نَهَارًا

(١) يقول : إن من كائنات عاينه من الدنيا أُنْ تقبل عليه وأن ينال الغنى فإنه يطعم بهما جميعاً « من تدنيه منك وتقبل عليه . »

(٢) العذاري : صنف من العنب يشبه بأصابع العذارى لطوله ، يقول : أذاك يحمل تحيى معتذراً إليك « عنب عذاري » حلو دونه في الحلاوة ريق العذارى .

رثاء ابن ذكوان

« قال يرثي القاضي أبا بكر بن ذكوان . »

انجَبَ لِحَالِ السَّرْوِ كَيْفَ تُحَالُ وَلِدَوْلَةِ الْعَلِيَاءِ كَيْفَ تُدَالُ ^(١)
لَا تَفْسَحَنَّ لِلنَّفْسِ فِي شَأْوِ الْمُنَى إِنَّ اغْتِرَارَكَ - بِالْمُنَى - لَضَلَالُ
مَا أُمْتَعَ الْآمَالُ لَوْلَا أَنَّهَا تَعْتَاقُ - دُونَ مُبْلُوغِهَا - الْآجَالَ ^(٢)
مَنْ سُرَّ - لِمَا عَاشَ - قَلَّ مَتَاعُهُ فَالْعَيْشُ نَوْمٌ وَالسَّرُورُ خِيَالُ ^(٣)

* * *

فِي كُلِّ يَوْمٍ تُنْتَحَى بِرِزْيَةٍ لِلْأَرْضِ - مِنْ بُرَحَاتِهَا - زَلْزَالُ ^(٤)
إِنْ يَنْكَدِرَتْ بِالْأَمْسِ - نَجْمٌ ثَاقِبٌ فَالْيَوْمَ أَقْلَعَ عَارِضٌ هَطَّالُ ^(٥)
إِنَّ النَّعْيَ « لَجَهْوَرٍ » وَ « مُحَمَّدٍ » أَبْكَى الْعَمَامَ ، فَدَمَعُهُ مُنْثَالُ ^(٦)
شَكْلَانِ - إِنْ حُمَّ الْحِمَامُ - تَجَاذَبَا لَا غَرَوْ أَنَّ تَجَاذَبَ الْأَشْكَالُ ^(٧)

- (١) السرو : الشرف والسيادة ، يقول : أجب لهذا المجد كيف حال عن عهده وتحول ، و اجب لدولة العلياء كيف دالت وتبدلت .
(٢) يقول : إن أحسن شيء تتمتع به النفس الآمال ، لولا أن الآجال ، تموق دون بلوغ الآمال .
(٣) من سره العيش في هذه الحياة الدنيا فليعلم أن متاعها قليل ، وأن الناس فيها نيام لا انقباه لهم ولا ينظرون إلا بعد الموت إذن فسرورها خيال ، وغرورها باطل .
(٤) تنتحى : تقصد ، يقال انتحاه إذا قصد ناحيته ، والبرحاء : الشدة .
(٥) ينكدر : ينقض ويستقط ، قال تعالى « وإذا النجوم انكدرت » أى تناثرت ، والعارض : السحاب ، يقول : إن موت أبى بكر القاضي جاء عقب موت اثنين من آل جهور سيذكروها في البيت التالي لهذا البيت .
(٦) النعي : كنى الناعي ، من نعى الميب إنعاه إذا أخبر بموته ، ومثال : من تذل الذم وغیره استخرجه .
(٧) حم : قدر ، والحمام : الموت ، يقول : « جهور » و « محمد » شكلان متجانسان حم الموت على أحدهما فاجذب إليه شكله ، وكذلك الأشكال تتجاذب .

وَلِيَّ « أَبُو بَكْرٍ » فَرَاعَ لَهُ الْوَرَى
قَرَّ هَوَى فِي التُّرْبِ - تُحْنِي فَوْقَهُ -
قَدْ قُلْتُ - إِذْ قِيلَ السَّرِيرُ يُقِيلُهُ -
الآنَ رَيْنَ لِلْعُقُولِ زَوَالُهُ
مَا أَقْبَحَ الدُّنْيَا ! خِلَافَ مُودَعٍ
هَوْلٌ تَقَاصَرُ - دُونَهُ - الْأَهْوَالُ
لِلَّهِ مَا حَازَ الثَّرَى الْمُنْهَالُ ^(١)
هَلْ لِلْسَّرِيرِ بِقَدْرِهِ أَسْنَتِقْلَالُ؟
أَنَّ الْجِبَالَ قُصَارُهُنَّ زَوَالُ
غَنِيَّتٍ بِهِ فِي حُسْنِهَا تَحْتَالُ ^(٢)

يَا قَبْرَهُ الْمَطَرِ الثَّرَى لَا يَبْعَدُنْ
مَا أَنْتَ إِلَّا الْجَفْنُ أَصْبَحَ طَيِّهٌ
فَهُنَاكَ نَفَاحُ الشَّمَائِلِ مِثْلَ مَا
خُلُوْ مِنْ الْفَتَيَانِ فِيكَ حَلَالُ ^(٣)
نَضَلْ عَلَيْهِ مِنْ الشَّبَابِ صِقَالُ ^(٤)
طَرَقَتْ بِأَنْفَاسِ الرِّيَاضِ شِمَالُ ^(٥)

(١) تحنى : نهال فوقه ، والترى : التراب الندى .

(٢) خلاف مودع : أى بعده ، يقال جاء فلان خلاف فلان أى بعده ، قال تعالى « وإذن لا يلبثون خلاصك إلا قليلا » أى خلعت كما فى القراءة الثانية ، والمعنى : ما أُنقذ الدنيا بعد هذا الراحل المودع الذى كانت الدنيا به تحتال كالمرس المستغنية بحملها عن الزينة ثم أصبحت بعده قبيحة دميمة .

(٣) الحلو الحلال : من الفتيان هو الفتى الذى لاربة فيه الوثوق به ، قال الشاعر :
« ألا ذهب الحلو الحلال الحلال ومن دوله حكم وعدل ونائل » .

وقال الآخر :

« رأيت رباطا حين تم شبابيه وولى شبابى ليس فى بره عتب

إذا كان أولاد الرجل حرازة فأنت الحلال الحلو والبارد العذب . »

والمعنى : يا قبره الشدى العطر ثراه لا سمعن بك من الفتيان ذلك الفتى الحلو الحلال أى الذى لاشك ولا رية فى رجولته وفنوته .

(٤) ما أب أيها القبر إلا حفن طوى فيه فتى كنهل السيف صقل بصقال الشباب .

(٥) هناك أى فى ذلك القبر وورى فتى شمائله وطباعه تنفع بأنواع العطر مثل ما هب بأنفاس الرياض ربح الشمال .

دَانٍ مِنَ الْخُلُقِ الْمُزِينِ ، نَارِحُ عَنْ كُلِّ مَا فِيهِ عَلَيْهِ مَقَالُ (١)
شِيمٌ يُنَافِسُ حُسْنَهَا إِحْسَانَهَا كَالرَّاحِ نَافَسَ طَمَعُهَا الْجِرْيَالُ (٢)

* * *

يَا مَنْ شَأَى الْأَمْثَالِ ، مِنْهُ وَاحِدٌ ضُرِبَتْ بِهِ فِي السُّودِ الْأَمْثَالُ (٣)
نَقَصَتْ حَيَاتُكَ حِينَ فَضْلُكَ كَامِلٌ هَلَّا اسْتُضِيفَ إِلَى الْكَمَالِ كَمَالُ (٤)
وَدَّعَتْ عَنْ عُمْرٍ عَمَرْتَ قَصِيرَهُ بِمَكَارِمِ أَعْمَارُهُنَّ طَوَالُ
مَنْ لِلنَّدَى إِذَا تَنَازَعَ أَهْلُهُ فَاسْتَجْهَلْتَ حُلَمَاءَهُ الْجُهَالُ (٥)
لَوْ كُنْتَ شَاهِدَهُمْ لَقَلَّ مِرَاؤُهُمْ لِأَغْرَفِيهِ - مَعَ الْفَتَاءِ - جَلَالُ (٦)

(١) دان : قريب من كل خالق حميد يزيه ، نارح : يعيد من كل يدل فيه عليه لوموه واحدة وعيب ، ولغظه كلفظ قول الشاعر :

« إِذَا أَنْتَ لَمْ تَعِصِ الْهَوَى فَاذْكِ الْهَوَى إِلَى نَعِصِ مَا فِيهِهِ عَلَيْكَ مَقَالٌ . »

(٢) جريال الخمر : حمرتها الشديدة ، قل الأعشى :

« وَسِدِيَّةٌ مِمَّا تَعْنُقُ بَابَ كَدَمِ الدَّبِيجِ سَلْتَهَا حَرِيَالَهَا . »

ومعنى سلتها جريالها - أى لونها وحررتها - أن لونها ظهر على وجهه حين شربها ولكنها حين خرجت منه عند البول خرجت بيضاء ، ونطاق الحريال والحريالة على الخمر نغمها ، قال ذو الرمة :

« كَأَنِّي أَحْوُ حَرِيَالَةً بِأَلِيَّةٍ كَمِيتٍ تَمُتُ فِي الْعِظَامِ شَمُولَهَا . »

وفلوا في السلاف - وهو أول ما يجري من ماء العنب من غير عصر ولونه أصفر - إنه أحود من الجريال . قال المتنبي :

« وَاقْدُ خَبَأَتْ مِنَ الْكَلَامِ سَلَامَهُ وَسَقَيْتَ مِنْ نَادَمَتْ مِنْ جَرِيَالِهِ . »

ومعنى البيت الذى نحن بمسددده : نافس إحسان شريكك وخلالك حسنهما كما نافس لون الراح طمعها ، حين جمعت إلى لذة الطعام حسن اللون .

(٣) وفي الأصل : « يَأْمَنُ شَاءٌ . »

(٤) طاحتك المية في الوقت الذى كل فيه فضلك ، فهلا نسي في عمرك حتى تستضيف كمالا إلى كمالك .

(٥) الندى : المجلس ، واستجهلت نسبتهم إلى الجهل ، والحلماء : أصحاب الأحلام أى العقول .

(٦) لو كنت حاضر مجلسهم لاحتفتم فلم يماروك ويجادلوك إذعانا لأغرفيه مع فتاء السن وقار وهيبة .

* * *

مَنْ لِلْعُلُومِ؟ فَقَدْ هَوَى الْعِلْمُ الَّذِي
مَنْ لِلْقَضَاءِ يَعِزُّ (٢) - فِي أَثْنَائِهِ -
مَنْ لِلْيَتِيمِ تَتَابَعَتْ أَرْزَاؤُهُ؟
أَعَزَّزَ بِأَنْ يَنْعَاكَ نَعَى شِمَاتِهِ
جُمِعَتْ رَحَى الْإِسْلَامِ مِنْكَ بِقُطْبِهَا
وُسِّمَتْ بِهِ أَنْوَاعُهَا الْأَغْفَالُ (١)
إِيضَاحُ مُظْلِمَةٍ لَهَا إِشْكَالُ؟
هَلَكَ الْأَبُ الْحَانِي وَضَاعَ الْمَالُ!
لِلْأَوْلِيَاءِ الْمَعَشَرُ الْأَقْتَالُ (٣)
لَيْتَ الْحُسُودَ فِدَاكَ فَهُوَ ثِقَالُ (٤)

* * *

زُرْنَاكَ كَمْ تَأَذَّنَ كَأَنَّكَ غَافِلٌ
أَيْنَ الْحَفَاوَةُ رَوْضُهَا غَضُّ الْجَنَى
أَيَّامَ مَنْ يَعْرِضُ عَلَيْكَ وَدَادَهُ
مَهْمَا تُنْبِئَكَ لَا تُرْبِكَ وَإِنْ نَزَرَ
هَيْهَاتَ لَا عَهْدٌ - كَعَهْدِكَ - عَائِدٌ
مَا كَانَ مِنْكَ لِوَاجِبِ إِغْفَالُ
أَيْنَ الطَّلَاقَةُ بِشَرُّهَا سَلَسَالُ
يَكُنِ الْقَبُولُ بِشِيرُهُ الْإِقْبَالُ
رِفْهًا فَمَا لِزِيَارَةِ إِمْلَالُ (٥)
إِذْ أَنْتَ فِي وَجْهِ الزَّمَانِ جَمَالُ

(١) العلوم المتروكة لصعوبة الخوض فيها لإلا على أمثاله من الباحثين .

(٢) يقل ويمتنع ولا يوجد لاستكمالها حل .

(٣) أعزز : أعظم على نفسي منعاك نعى شماته أى يعز على ويشق على نفسي أن ينعاك الأنتال أى الأعداء نعى شماته لأوليائك وأسفيائك .

(٤) قطب الرحى : الحديدية القائمة في وسط الرحى السفلى ، وهو الذى يدور عليه طبق الرحى العليا ، جعل للإسلام رحى هو قطبها الذى تدور عليه ، يعنى أن عليه نظام الاسلام ، ودار الأحكام ، والنفال ما يوضع تح الرحى من جلد ونحوه ليقى ما يسقط عند الطحن من التراب ، وهذا لا يكون إلا فى رحى اليد ، قال زهير . « فتمرككم عرك الرحى بفالها » ، والمعنى بجمع الاسلام قطب العلماء ورؤسهم ، وليت الحسود كان فداء لك معركة الموت عرك الرحى فوق فبالها أى ليت رحى الموت دارت على حاسدك وشأتك .

(٥) نبيك : الاغياب أن تزوره يوما وتقبه أى تنقطع عنه يوما أو أياما ، وردها : هو من ورود الابل ردها وهو أن ترد الماء كلما شاءت الورد ، والمعنى : مهما انقطعنا عن زيارتك لم ترتب فى ودما ، وإن زرتك ردها وفى كل وقت لم تسأم ولم تمل الزيارة .

فَاذْهَبْ ذَهَابَ الْبُرِّ أَعْقَبَهُ الضَّنَى
لَكَ صَالِحُ الْأَعْمَالِ إِذْ شِيعَتَهَا

حَيًّا حَيًّا مَثْوَاكَ ، وَأَمْتَدَّتْ عَلَى
وَإِذَا النَّسِيمُ أَعْتَلَّ فَأَعْتَامَتْ بِهِ
وَلَيْتَ أَذَالَكَ - بَعْدَ طُولِ صِيَانَةٍ -

سَيَحُوطُ مَنْ خَلَقَتْهُ مُسْتَبْصِرٌ
كَفَلَ الْوَزِيرُ «أَبُو الْوَلِيدِ» بِجَبْرِهِمْ
مَلِكٌ سَجِيئُهُ الْوَفَاءُ فَالَهُ
حَتَمٌ عَلَيْهِ لَعًا (٥) لِعَثْرَةٍ حَالِهِمْ

إِيهَا: بَنِي ذَكْوَانَ - إِنْ غَلَبَ الْأُسَى -
إِنْ كَانَ غَابَ الْبَدْرُ عَنْ سَاهُورِهِ
فَلَكُمْ إِلَى الصَّبْرِ الْجَمِيلِ مَالٌ
مِنْكُمْ وَفَارَقَ غَابَهُ الرَّثْبَالُ (٦)

(١) اذهب على رغم منا دهاب العاقبة جاء عقبها المرض ، والأمن وافى بعده الأحل .

(٢) الحيا : المطر ، والمثوى ، القبر ، وضاحي ثراك : أى ثراك الضاحي أى البارر للشمس .

(٣) اعتامت : اختارت ، ومنه قول طرفة :

« أرى الموت يعتام الكرام ويصطفى عقيلة مال الغامش المتشدد . »

والمعنى : اعتامت أى اختارت العدوات والأصالح ساحات القبر وآثرتها بمرور النسيم العليل .

(٤) أذالك : أهانك ، أى لئن امتنعتك القدر بعد طول صيانته ، فكل مصون لم تمتد إليه يد القدر

سيذال ويهان يوما من الأيام .

(٥) دعاء للعائر أن يقيه الله من عثرته ، وإذا قيل « لالعا للعائر » فمعناه لاأفاله الله من عثرته .

قال ابن دريد :

« فان عثرت بعدها - إن وأت - نفسى من هاتا - فقولا : « لالعا »

وإن تكن مدتها موصولة بالحنف ، سلطت الأسى على الأسى . »

وقال الأخطل :

« فلا هدى الله قيسا - من ضلالتهم - ولا لما لبى ذكوان إذ عثروا . »

(٦) الساهور : دارة القمر ، والرثبال : الأسد .

في مدح المعتضد

« قال يمدح المعتضد بالله المنصور بفضل الله
أبا عمرو عباد بن محمد بن عباد . »

أَعْرِفُكَ رَاحَ فِي عُرْفِ الرِّيحِ ؟ فَهَزَّ مِنَ الْهُوَى عِطْفَ أَرْتِيَا حِي^(١)
وَذِكْرُكَ مَا تَعَرَّضَ أَمْ عَذَابُ ؟ غَصِصْتُ عَلَيْهِ بِالْعَذْبِ الْقَرَّاحِ^(٢)
وَهَلْ أَنَا مِنْكَ فِي نَشَوَاتِ شَوْقِي - هَفَّتْ بِالْعَقْلِ - أَوْ نَشَوَاتِ رَاحِ^(٣)
لَعَمْرُ هَوَاكِ مَا وَرَيْتَ زِنَادُ لَوْصِلَ مِنْكَ طَالَ لَهَا أَقْتِدَا حِي^(٤)
وَكَمْ أَسْقَمْتُ - مِنْ قَلْبٍ صَحِيحٍ - بِسُقْمِ جُفُونِكَ الْمَرْضَى الصَّحَّاحِ

مَتَى أَخِيفُ الْغَرَامَ يَصِيفُهُ جِسْمِي بِالسِّنَةِ الضَّنَى الْخُرْمِ الْفِصَّاحِ^(٥)
فَلَوْ أَنَّ النِّيَابَ فُحِصْنَ عَنِّي خَفَيْتُ خَفَاءَ خَضْرِكَ فِي الْوِشَاحِ

(١) العرف : بالفتح الرائحة الطيبة ، والعرف : بالضم واحد أعراف الرياح وهي أوائلها وأطالها ،
والعطف : الجانب ومائتيه إذا عطفت على شيء حموا وإشعافا ، وتحركه إذا هزتك أريحية ، والمعنى :
أمرتك وطيبك سرى إلى أوائل الرياح التي هبت مائجة من ناحيتك ، فذهبت نحوك بمادمة الهوى والارتياح .
(٢) غصصت : كثرت بالماء وزنا ومعنى ، أو وقف في حلقه فلم يسعه ، والقراح : الماء الذي لم يخالطه
غيره ، يقول : وهل ما تعرض ذكرك أم عذاب شرقت لأحله بالماء العذب الذي لم تشبه شاة فلم أسفه ، وفي
الأصل « وذكرك ما تعرض أم عداد »

(٣) نشوات : واحدها نشوة ، والنشوة تكون من الريح ومن السكر وهي من السكر أوائله ومقدماته ،
وهفت بالعقل : ذهبت به ، يقال : هفت الريح بالشئ تهو أي ذهبت به ، والمعنى : هل أنا من أجل هواك ،
وبسبب ذكرك ، في نشوات من ريع الشوق أو نشوات من سكر الراح أطارت عقلي وأذهبت لي .

(٤) أقسم بهواك إن طول اقتداحي لزناد الوصل لم يور نارا .

(٥) في الوقت الذي أخنى فيه غرامي عن العادلين يتم على تحول جسمي بالسنة المرض الخرساء المفصحة .

لَلْقَيْنَا مِنَ الْوَاشِينَ حَتَّى رَضِينَا الرُّسُلَ أَنْفَاسَ الرِّيَّاحِ (١)
وَرُبَّ ظَلَامٍ لَيْلٍ جَنِّ قَوْقِي فَنُبْتُ عَنِ الصُّبَّاحِ إِلَى الصُّبَّاحِ (٢)
فَهَلْ عَدَّتِ الْعَفَافَ هُنَاكَ نَفْسِي - فَدَيْتُكَ - أَوْ جَنَحْتُ إِلَى الْجَنَاحِ (٣)

* * *

وَكَيْفَ أُلِجُ لَا يَتَذَنِّي عِنَانِي رَشَادُ الْعَزَمِ عَنْ غَيِّ الْجِمَاحِ (٤)
وَمِنْ سِرِّ ابْنِ « عَبَّادٍ » دَلِيلُ بِهِ بَانَ الْفَسَادُ مِنَ الصَّلَاحِ
هُوَ الْمَلِكُ الَّذِي بَرَّتْ فَسَرَّتْ خِلَالُ مِنْهُ طَاهِرَةُ النَّوَاحِي
هُمْ أَمْ خَطُ - بِالْهَمَمِ السَّوَامِي - مِنَ الْعَلَيَاءِ فِي الْخُطَطِ الْفِسَاحِ (٥)
أَغْرُ إِذَا تَجَهَّمْ وَجْهَهُ دَهْرٍ تَبَلَّجَ فِيهِ كَالْقَمَرِ الْإِيَّاحِ (٦)

(١) لقد تاملنا من الواشين حبلهم في الوقوف على مكتوم أسرارنا ، حتى أصبحنا نقنع بأن تكون أنفاس الرياح بربداً يحمل عنا رسائل الحب والغرام ، وقد أبدع ابن الرومي حيث يقول :
« أحببناكم لي نحوكم من تحية أحملها هبات كل حبوب
فلا تتركوا رد السلام إذا حرت شمال على نائي المحل قريب . »
(٢) كثيراً ما أرخى الليل علينا سدوله ، فنبت في ظلامه عن الصباح إلى أن أسفر الصباح وقريب من هذا قول أبي تمام :

« رحن والليل قد أقام رواقاً فأقن الصباح فيه عموداً . »

(٣) لم تنعد نفسي في تلك الليلة التي نعت فيها بالحبيب حدود العفاف ، ولم تمل إلى ارتكاب ما يخالف طبيعة الحب البريء مما فيه إثم علينا وحناء ، وفي هذا المعنى يقول ابن المعتز :
« كم قد خلوت بها وثالثنا التي يحمى على العطشان برد المورد . »

(٤) في هذا البيت والذي بعده تخاض من النسيب إلى المدح حيث يقول : كيف أُلج في الهوى ، وآتمادي في النوى ، ولا يذني عنان جماعي اعتزامي الرشيد ، في حال أن لي من سر « ابن عباد » وقوة نفسه دليل عرفت به الرشيد من النوى ، والصلاح من الفساد .

(٥) خط : اختط الأرض وهو أن يعلم عليها علامة بالخط ليعلم أنه قد احتازها لبيها ، والخطط : جمع خطه بكسر أولهما ، وفي الأرض التي يختطها لنفسه لبيها .

(٦) الإيَّاح : بكسر وفتح أوله الأييض المتلألئ .

سَمِيعُ النَّصْرِ لِأَسْتَعْدَاءِ جَارِ
ضَرَائِبُ جَهْمَةٍ - فِي الْعَتَبِ - تُثَلَّى
إِذَا أَرَجَ الشَّكَاةَ الرَّوْعُ مِنْهَا
هُوَ الْمُتَبَقِّي مُلُوكِ الْأَرْضِ تَدْمَى
رَأَاهُ اللَّهُ أَجْوَدَ بِالْعَطَايَا
وَأَفْرَسَ لِلْمَنَابِرِ وَالْمَذَاكِي
وَأَمْتَعَهُمْ جَمِيعَ عَرْضِ مَضُونِ
فَرَّاضَ لَهُ الْوَرَى حَتَّى تَأْدَّتْ
« لِمُعْتَصِدٍ » بِهِ أَرْضَاهُ سَعِيًّا
فَمَنْ قَاسَ الْمُلُوكَ إِلَيْهِ جَهْلًا
أَصَمُّ الْجُودِ عَنْ تَقْنِيدِ لَاحٍ^(١)
بِأَخْلَاقِي لَدَى الْعُتْبَى مِلَاحٍ^(٢)
فَكَمَ لِلْمِسْكِ عَنْهُ مِنْ أَفْتِضَاحِ
قُلُوبِهِمْ كَأَفْوَاهِ الْجِرَاحِ
وَأَطْمَنَ بِالْمَكَايِدِ وَالرَّمَاكِ
وَأَبْهَى فِي الْبُرُودِ وَفِي السَّلَاحِ^(٣)
وَأَوْسَعَهُمْ ذُرًّا مَالٍ مُبَاحٍ
إِلَيْهِ إِتَاوَةٌ الْحَى الْقَاحِ^(٤)
فَأَقْبَلَ وَجْهَهُ وَجْهَ الْفَلَاحِ^(٥)
كَمَنْ قَاسَ النُّجُومَ إِلَى بَرَّاحٍ^(٦)

(١) الاستعداد : الاستعانة وطلب الصرة ، والتقنيد : التوم وتصنيف الرأى ، ولاح : اسم فاعل من لحاه يلحاه إذا لامه وعذله .

(٢) ضرائب : سجايا وطبائع جمع ضريبة ، وجهمة : طابسة من جهمة إذا استقبله بوجه كريمة ، والعتبي : الرجوع إلى ما يرضى العاتب . وفي المثل « لك العتي ولا أعود » أى لك منى أن أعتبك أى أرسبك ولا أعود إلى ما يستعظك .

(٣) أفرس : أعمل تفصيل من الفراسة بالفتح والفروسة والفروسية وهى الخندق بركوب الخيل ، وفى المثل : أفرس من ملاعب الأسنة ، وأفرس من طاهر ، وأفرس من بسطام ، والمذاكي : الخيل التى أتى عليها بعد تمام السن أى - بلوغها النهاية فى الشباب - سنة أو سنتان ، والمعنى أنه أحذق للملوك باعتلاء المنابر وركوب الخيل وأبهاهم لباسا ولبوسا فى السلم والحرب .

(٤) الاتاوة : الحراج وكل ما أخذ بكرة أو فرض من أموال الجباية ، والحى القاح : فى اللسان قوم لقاح وحى لقاح لم يدينوا للملوك ولم يملكوا ولم يصبهم فى الجاهلية سباء أنشد ابن الأعرابي :

« امر أبيك والأنام تنمى لنعم الحى فى الحسلى رباح
أبوا دين الملوك فهم لقاح إذا هيجوا إلى حرب أشاحوا . »

(٥) أقبل وجهه : من قولهم أقبلته الشيء أى جعلته يلى قبائله وجهته والمعنى أن سكان الحواضر والبادى دانوا بالطاعة « لمعتصد » بالله أرضت مولاه مساعيه فأقبل الله وجهه وجه الفلاح أى جعل وجهه يستقبل جهة الفلاح : (٦) إلى أرض ظاهرة .

وَمُتَّقِدُ الرِّيَاسَةِ فِي سِوَاهُ كَمُتَّقِدِ الثَّبُوتِ فِي سَجَّاحٍ (١)

(١) هي « سجاح » بنت الحرث بن سويد بن عتمان التميمية ، وكانت تسكن الجزيرة في أخوالها من بني تلب ، فادعت الدعوة وخرحت تريد فزو المدينة في عهد « أبي بكر » رضي الله عنه ، وحرث بينها وبين مسلمي قومها - من بني تميم - حروب انتهت بمجزها عما اعتزمت من الذهاب إلى المدينة لنزوها ، فاقبلت إلى اليمامة وتقاتلت مع مسيلمة ، ثم رجعت إلى موطنها من بلاد الجزيرة وبقيت في أخوالها - من بني تلب - إلى أن قتلهم « معاوية » عام المجاعة : وجاءت معهم فأسلموا وأسلمت وحسن إسلامهم .

حروب الردة وقصة سجاح ومسيلمة

وقد كتب المؤرخ « دوزي » كلمة ممتدة عن « سجاح » - « مسيلمة » وعن حروب الردة في كتابه القيم : « تاريخ الإسلام » وقد نشرنا بعض مصوله في كتاب « مختارات كامل كيلاني » ، ونحن نحترق منه بما طي : كان الوقت عصياً ، وكنت الظروف غاية في المرح ، فقد كان موت النبي - صلى الله عليه وسلم - الذي كانت تقربه العرب منذ زمن طويل بفارغ الصبر مؤذناً بالثورة في كل مكان ، ولقد كنت ترى الثائرين - في حتما ذهبت - راضين تلم الثورة والتمرد ، وقد رجحت كفتهم أيما رجحان حتى لقد طردوا ولاتهم من بلادهم ، فلم يجد هؤلاء أمامهم ملجأ إلا المدينة ، فتقاطروا عليها من كل فج يحتمون فيها من أذاهم . وكان لا يمر يوم حتى يغد على المدينة بعض الولاة والأمال المبرودين ، وأعدت القاتل الخبيرة للمدينة عدتها لحصارها .

مكيف يعادهم « أبو بكر » وليس لديه حش محاربهم به بعد أن أرسل جيشه إلى سوريا ليفتحها تنفيذاً لأمر النبي - صلى الله عليه وسلم - برغم هيبة المسلمين الذين رأوا خطورة الحال ، فقد ألحوا عليه أن يعدل عن تنفيذ فكرة المتح حيثئذ ، فقال لهم : « ان أخالف ما أمر به النبي صلى الله عليه وسلم ولو أصعبت المدينة نفسها نهياً للثائرين والمتردين ولا بد لي من تحقيق مشيئته ! »

ومن ثم ترى الخطر العظيم نادياً . على أنه - على الحقيقة - خطر اقل مما تدل عليه ظواهره ، فان قوة الحشم الحقيقية لانقاس بما لديه من عدة ورجال بل بما عسده من « قوة معنوية » وبما يصبو إلى تحقيقه من غاية سامية يتطلع إليها ويخوض غمار الحرب من أجلها باذلاً في سبيلها النفس والمفيس .

فما هي العاية التي يسعى إليها الثائرون ؟ وأي حائر يدفعهم إلى إضرار هذه الحرب ؟ أهو إيمان وثيق متوشح في أعماق قلوبهم كإيمانهم القديم الذي كانوا عليه قبل العثة ؟ لو كان ذلك لما كان ثمة شك في انتصارهم الحاسم !

ولكن شيئاً من ذلك لم يكن ، فانهم لا يحاربون الآن لينصروا دينهم القديم ويؤيدوه ، بل هم يشورون على دينهم الجديد لأنهم لا يطيقون احتماله .

وليس هذا بالسبب القوي الذي يلهب حماسهم ويحفزهم إلى الاتيان بمجلائل الأعمال ، ولا هو بالسبب الذي يخلق البطولة والأبدال ، فقد كان رؤساء القبائل المتردة أضخم شاعرين كل الشهور بصفت قوتهم للمعنوية ، ملجأ مضهم إلى فكرة سخيصة حسوا أنها تعيد إليهم تلك القوة ، فادعوا النبوة ! وخيل إليهم أن محمداً - صلى الله عليه وسلم - لم يتبع إلا بهذه الفكرة فأرادوا تقليده .

ولكنهم نسوا أمراً واحداً - هو سر نجاحه في بث دعوته - ذلك أنه كان مؤمناً بما يدعي إله إيمان المستيقن الجازم . وهذا هو الذي يعوزهم وينيرهم لايتم نجاح .

أُبْحِرَ الْجُودُ - فِي يَوْمِ الْعَطَايَا - وَلَيْتَ الْبَأْسُ فِي يَوْمِ الْكَفَاحِ

وكانت تلك الثورة الهائلة وتلك الحرب الشعواء - على ما أريق فيها من دماء غريرة إذا قورفت بما أثاره المسلمون في غزواتهم التي عز بها الاسلام - ظاهرة سحيمة مصعكة ، يتمثل فيها الانسان - غير قصد - كيف قبلوا تمثيل هذه الرواية الجدية - التي مثلها النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه - مهزلة وعبتا ؟ ألا ترى إلى مسيامة لدى مثل دور النبي صلى الله عليه وسلم في اليمامة ؟ ألا ترى إلى ذلك الدجال السوق التعس ، ذلك المشعوز السمع الذي لا يصلح لغير التدجيل وإدخال بيضة في زجاجة ضيقة الفوهة ؟ ألا ترى إليه ينشئ - قرآنا سحيقا يقلد به محمداً - صلى الله عليه وسلم - ثم يرخص لأنباعه في شرب الخمر أنى شاءوا ، ولا يكاد يبدش دعوته حتى يصادفه سوء الحظ فتحاصره « سجاح » وتنازعه الدعوة ؟

أما « سجاح » هذه فقد كانت مسيحية نشأت في « بلاد النهرين » وجاءت تبث الدعوة لغيرها - على رأس جيش عظيم فمادا يصنع مسيامة ؟ ليس أمامه إلا أن يلجأ إلى طريق المسألة - وقد فعل - فأرسل إليها هدايا فاخرة ودعاها إلى عاداته ، وطال بينهما الحوار .

ولما عادت « سجاح » إلى قومها سألوها عن رأيها في « مسيامة » فقال لهم - :

« لقد رأيته نبياً حقاً فزوح منه ! »

مسألها التميميون - : « هل أهدى إلينا شيئاً من مهر الزواج ؟ » فقالت : « لا » فقالوا لها - :

« طار علينا أن نزوج بيقنا بلا مهر ! وإن تقبل ذلك بحال ما ! »

فأرسلت إليه بذلك - وكان « مسيامة » حائماً متحصناً - فلما جاءه الرسول لم يأذن له حتى عرف العرض

الذي جاء من أحد فاضأان إليه وقال له :

« عد إلى قومك فأحبرهم أن «مسيامة بن حبيب» رسول الله قد رفع عن التميميين - من الصلوات الخمس - صلاة الصبح والعشاء »

واقعد فرح التميميون بذلك وطلوا يتبعونه حتى بعد أن عادوا إلى الاسلام من حديد .

ومن ثم ترى أن هؤلاء النافرين ليس لهم عقيدة جدية يدافعون عنها ، فلاغرو إذا قهرهم رجل كأبي بكر وثيق الایماد قوى الارادة صلب العزيمة لايعرف هوادة في إرغام أتومهم ولا رحمة !

ولو شاء أبو بكر أن يبادم لتنازل لهم عن قليل من مطالبه فكسب بذلك مساعدة كثير من القبائل - أو سدن حياذهم على الأقل - فقد وعدوه بالواظبة على إمامة الصلاة المفروضة عليهم على شريطة أن يعفيهم من إيتاء الزكاة ، ونصحه أعيان المسلمين أن يقبل ذلك منهم فرفض رأيهم بأباء شديد ، وقال لهم :

« إن الاسلام قانون واحد لايتعزأ ، وليس لأحد أن يأخذ ببعضه ويرفض البعض الآخر . »

ونذكان هذا الاصرار الحازم وذلك الحقد الشديد - على أهل الردة - سبباً في منحه قوة أكثر مما تصور .

ولم يكن ينتهي من إخضاع القبائل المجاورة له حتى بدأ يهاجم « طليحة » الذي كان بطلام قبل وقد جاء يدعى الخبوة كميده ثم جبن عن دخول المعركة فظل يرقب الحرب - وهو بعيد عن الميدان - مدثراً في عباءته

لَقَدْ سَفَرْتَ بِعِلَّتِكَ الْإِلَهِ لَنَا عَنْ وَجْهِ حَادِثَةٍ وَقَاحٍ (١)

كأنما يؤمل أن يزل وحى من السماء أو تحدث معجزة خارقة ، وقد لبث زمناً طويلاً ثم وقعت المعجزة — إذ بدأت تنهرم قبيلته أشنع انهزام — وحينئذ صاح في جنده « اختدوا حذوى إن استطعتم . » ثم امتدح جواده وأطلق له العنان وأمن في دراهه .

وكانت تلك المعركة التي اصطلاها المسلمون معركة مروعة ماثلة ، وفي الحق أن الدماء التي أريقَت في هذه الحرب كانت أكثر مما أريق في تلك الحروب الفاحشة التي نشبت — ديمابعد — بين المسلمين والفرس ، ثم بين المسلمين والإمبراطورية الرومانية ، وقد اقترفت العرب من المظالم في هذه الحرب « حرب الردة » شنعاً لم يعرفها الإسلام قط . مكابوا إذا انهزم العدو تمغيبوه ونكسوا به . لأن الردة حراؤها القتل ، لا هوادة في ذلك ولا رحمة ، وقد بعث أبو بكر إلى خالد يأمره بقوله — : « عليك بإبادة الكفر بالحديد والنار ، ولا تأخذك رحمة بهم قط »

ولقد انهرم أصحاب « مسيلة » — وكان عددهم زهاء عشرة آلاف مقاتل — ومرتفعهم المسلمون شرّ مرتق ، وغرقت بلاد العرب كلها في الدماء !

ولكن الإسلام قد خرج من تلك المعارك — الناشئة في كل مكان — مؤيذا منصورا ، ودان به العرب بعد ذلك . — طوما أكرما — فقد أقنعهم خذلانهم بوجود الاعتراف بالدين الاسلامي ، إن لم يكن اعتراف المستيقن المؤمن باعتراف الحائب الذي يعرف قوة هذا الدين المعظيمة التي لا تحدى معها أية مقاومة .

بعد النصر

ولم يكدم انتصار أبي بكر حتى وحى هؤلاء البدو الدماغيين إلى الدماء ، إلى مهاجمة فارس : الإمبراطورية الرومانية ، وهذا العمل — عند من ينظر إلى ظواهر الأمور وحدها — حراة وتهور ، ولكنه — على الحقيقة — رزاة وتغل .

ولأنما سار أبو بكر في هذا على خطة النبي صلى الله عليه وسلم التي كان يتبعها ، وحى أن يشل العرب عن التفكير في خصومهم ولا يدع لهم وقتاً كافياً لذلك ، وقد رأى أن خير ما يربطهم بالإسلام لا يكون إلا عن طريق الفتح والانتصارات الحربية وما يحجره ذلك من العنائم .

وهكذا انتهت حروب الردة ولم تقم للمرتدين بعدد ما قامة ، فقد كان عقاب الردة اقنل ، ومن هنا تظاهر الناس بالإسلام ووقفوا عند هذا الحد .

وعن — إذا استقنينا صفرة المسلمين ونواهم المؤلفة من المهاجرين والأنصار وبعض من يمتون إليهم بسبب — لم نجد بعد ذلك من يعرف القرآن وتعاليمه إلا عدداً غاية في القلة . أما العرب الذين استوطنوا أفريقيا فقد ظلوا — حتى بعد مضي قرن من الهجرة — لا يعرفون من الإسلام أكثر من أنه دين أتى بتحريم الخمر . أما أولئك الذين استوطنوا مصر فأنهم ما تحدثوا عن الإسلام أو شعلوا به أنفسهم قط . وكانوا لا يدكرون إلا أيام الوثنية وعهودها الظلمة بالشاء والحسين .

(١) وقاح : صلبة الوجه لحياء فيها ، يقال رجل وقيح الوجه ووقاح الوجه صلبه لحياء فيه ، والأنثى وقاح بغير هاء .

أَلَسْتُ مُصِحِّهَا مِنْ كُلِّ دَاءٍ ؟ وَمُبْدِي حُسْنِ أَوْجُهِهَا الصَّبَاحِ
وَلَوْ كَشَفْتُ عَنْ الصَّفَحَاتِ شَامَتُ بِرُوقِ الْمَوْتِ مِنْ بَيْضِ الصَّفَاحِ (١)

وَقَالَ اللَّهُ مَا تَخْشَى وَوَالِيَّ عَلَيْكَ بِصُنْعِهِ الْمَغْدَى الْمَرَّاحِ (٢)
فَلَوْ أَنَّ السَّمَاءَ سَوَّغَتْهَا تَجَارَتَهَا الْمِلْثَةَ بِالرَّيَّاحِ
تَجَافَيْنَا عَيْدَكَ عَنْ نُفُوسِ - عَلَيْكَ مِنَ الضَّنَى - حَرَى شِحَاحِ (٣)
شَهْنَأُ فِيكَ بِالْبُرءِ الْمَوْفَى وَتُبْهِجُ مِنْكَ بِالْأَلَمِ الْمَزَاحِ

فَدَيْتُكَ كَمْ لِعَيْنِي مِنْ سُمُورٍ - لَدَيْكَ - وَكَمْ لِنَفْسِي مِنْ طَمَاحِ
أَلَا هَلْ جَاءَ مَنْ فَارَقْتُ أَنَّى بِسَاحَاتِ الْمُنَى رَفْلُ الْمَرَّاحِ (٤)
وَأَنَّى - مِنْ ظِلَالِكَ - فِي زَمَانٍ نَدَى الْأَصَالِ رَقْرَاقِ الضَّوَاحِ
تُحَيِّدُنِي بِرَيْحَانِ التَّحْقِي وَتُصْبِحُنِي مُعْتَقَةُ السَّمَاحِ (٥)
فَهَا أَنَا قَدْ نَمَلْتُ مِنَ الْأَيَادِي إِذِ اتَّصَلَ أُغْتَبَاقِي فِي أَصْطِبَاحِي

(١) لو كشف هذه الليالي ، وأبدت عن صفحة الشر والعداء لثابت سيوف بأس المدوح
تلمع ببروق موت وهلاك تلك الليالي التي فاحتنا بمرضه ، بعد أن أصحها من كل داء وخلع عليها
من الرواء والحسن أبهى رداء .

(٢) وقال الله ما تخشى من عارض المرض وعصمك من كل مخذور ومخوف ، وتعهدك بمجميل صنعه المغدى
المراح أى الذى يجعله يسدو عليك فى أوله النهار ، ويروح فى آخره ، فلا يفتك صديقه ، ولا يتخلف
عنه لإحسانه .

(٣) الضنى : السقم ، وحرى : عطشى ، وشحاح : جمع شحيحة من الشح وهو البخل .

(٤) الرفل : جر الدبل وركضه بالرجل ، يقول : ألا هل أنى من فارقت من فتيان « قرطبة » أنى
أجر ذيل مرج وأرفل فى ثياب النعمة وخضارة العيش .

(٥) التحقى : الحفاوة ، والسماح : الجود .

فَإِنْ أَعْجَزُ فَإِنَّ النُّصْحَ ثَقِفْ وَإِنْ أَشْكُرْ فَإِنَّ الشُّكْرَ صَاحِ
لِمَا كَسَبْتَ قَدَرِي مِنْ سَنَاءِ وَمَا لَقَيْتَ سَمِي مِنْ نَجَاحِ

* * *

لَقَدْ أَنْفَذْتَ - فِي الْأَمَالِ - حُكْمِي وَأَجَرَيْتَ الزَّمَانَ عَلَى اقْتِرَاحِي
وَهَلْ أَخْشَى وَقُوعًا - دُونَ حَظِّ - إِذَا مَا أَثَّ رِيشُكَ مِنْ جَنَاحِي
فَمَا أَسْتَسْقِيْتُ مِنْ غَيْمِ جَهَامِ وَلَا أَسْتَرْوَيْتُ مِنْ زَنْدِ شِحَاحِ
وَوَاصَ - لَنِي جَمِيلُكَ - فِي مَغِيْبِي - وَطَالَعَنِي نَدَاكَ مَعَ أَتْرَاحِي
وَلَمْ أَنْفَكْ - إِذْ عَدَّتِ الْعَوَادِي - إِلَيْكَ رَهْنِ شَوْقِي وَالتِّيَاحِ
فَحَسَنِي أَنْتَ - مِنْ مُسَدِّ لِنُعْمِي - وَحَسْبُكَ بِي بِشُكْرِي وَامْتِدَاحِ

هدية تفاح

« وأهدى إليه تفاحا وأراد أن يكتب معه قطعة ،
فدأ بها ثم عرض له غيرها فتركها . »

دُونَكَ الرَّاحَ جَامِدَةً وَفَدْتَ خَيْرَ وَافِدَةٍ
وَجَدْتَ سُوقَ ذَوْبِهَا - عِنْدَ تَقْوَاكَ - كَاسِدَةٍ
فَاسْتَحَالَتْ إِلَى الْجُمُودِ دِ وَجَاءَتْ مُكَايِدَةٍ

والقطعة التي بعثت هي هذه

جَاءَتْكَ وَافِدَةُ الشَّمُولِ فِي الْمَنْظَرِ الْحَسَنِ الْجَمِيلِ
لَمْ تَحْظَ ذَائِبَةً لَدَيْكَ وَلَمْ تَنْلِ حَظَّ الْقَبُولِ

فَتَجَامَدَتْ مُحْتَالَةً وَالْمَرْءُ يَعْجِزُ لَا الْحَوِيلَ^(١)
لَوْلَا أَنْقِلَابُ الْعَيْنِ سُدَّتْ دُونَ بُغْيَتِهَا السَّبِيلَ^(٢)
لَهَجَرَتْهَا صَفَرَاءُ فِي يَبْضَاءَ هَاجِرُهَا قَلِيلَ
الْكَأْسُ مِنْ رَأْدِ الضَّحَى وَالرَّاحُ مِنْ طَفَلِ الْأَصِيلِ
آثَرَتْ عَائِدَةَ الثَّقَى وَرَغِبْتَ فِي الْأَجْرِ الْجَزِيلِ
يَأَيُّهَا الْمَلِكُ الَّذِي[❦] مَا فِي الْمُلُوكِ لَهُ عَدِيلُ
يَا مَاءَ مَزْنٍ ، يَا شَهَا بَ دُجْنَةٍ^(٣) ، يَا لَيْتَ غِيلُ
يَا مَنْ عَجِبْنَا أَنْ يَجُوءَ دَ بِمِثْلِهِ الزَّمَنُ الْبَخِيلُ
بُشْرَاكَ دُنْيَا غَضَّةٌ فِي ظِلِّ إِقْبَالِ ظَلِيلِ
رَقَّتْ كَمَا سَالَ الْعِذَا رُ بِجَانِبِ الْخَدِّ الْأَسِيلِ
وَتَأَوَّدَتْ كَالْمُعْنَنِ قَا بَلَّ عِطْفَهُ نَفْسُ الْقَبُولِ^(٤)
يُضَيِّ مُقْبِلُهَا الشَّهْيُ وَلَحْظُهَا السَّاجِي الْعَلِيلُ
فَتَمَلَّهَا^(٥) فِي الْعِزَّةِ الْقَقَعَسَاءَ وَالْعُمُرِ الطَّوِيلِ

(١) الحويل : الحيلة ، يقال : احتال احتيالا وحولا وحيلة وحويلا ومخاله ، قال دؤاد بن ثابت زوجة :

« حازلت — بين صرمتي — والمرء بمعجز لا المخال
والدهر يلمع بالفتى والدهر أروغ من ثماله
والمرء يكسب ماله بالشح ، يورثه الكلاله . »

وفي المثل المشهور : « المرء يعجز لا المخال » أو « لا مخال » في رواية أخرى ، أي لا تصيق بخارج الأمور إلا على العاهر الذي لا يعرف وحوه الخيل . ويقال : احتال وتحيل وتحول ، قال أبو العلاء :
« لا يحببك خطيب — فام في ملا — بخطبة — ذات معناها وطولها
فما العظا — وإن راع — سوى حيل — من ذى مقال على ناس تحولها . »

(٢) يقول : لولا انقلاب عينها من ذائبة إلى جامدة اسدت دون ما تنبه من إهداء نفسها إليك السبيل
لأنك لا تبيع لها أن تزور مجلسك وهي ذائبة . (٣) يقال يوم دجنة ، والدجنة : الظلمة والقيم المطبق
الريان المطعم لا مطر فيه . يقول : إليك نور تبدد الدياسى والطلعات .

(٤) القبول : ربح العبا ، قالوا وذلك بأنها تقابل الدبور . (٥) إنعم بها .

شكر على زيارة

« قال يشكر المعتمد على الله أبا القاسم محمد
ابن المعتض بالله عباد بن محمد بن عباد ، وقد
شرفه بالعبادة في بعض عله . »

لَسْتُ بِالْجَاحِدِ آلاءَ الْعِلَلِ أَجْتَلِي - مِنْ أَجْلِهَا - بَذَرَ الْعَلَا
حُلَّةُ الْبَسِّ عَيْنِي فَخَرَهَا
رَفَّ بِشَرِّ الْأَفْقِ فِي عَيْنِي لَهَا
مَا أَبَالِي مِنْ زَمَانٍ بَعْدَهَا
كَمْ لَهَا مِنْ أَلَمٍ يُذْنِي الْأَمَلِ
مُشْرِقًا فِي مَنْزِلِي حِينَ كَمَلِ
فَاغْتَدَّتْ تَرْفُلُ فِي أَهْنِي الْحُلَلِ
لَا لِأَنَّ الشَّمْسَ حَلَّتْ فِي الْحَمَلِ (١)
إِذَا أَصَحَّ النَّفْسَ - إِنْ جِسْمِي أَعْلَ (٢)

أَيُّهَا الْمَوْلَى لَقَدْ حُمِلْتُ مَا
وَضَحَّ الطَّوْقُ الَّذِي حَلَّيْتَنِي
أَنَا لَوْ طَوَّقْتُ مِنْهُ بَدَلًا
كَمْ مَرَادِي - مِنْ نَعْمَائِكُمْ -
لَا تَزَلْ دَوَائِكُمْ مَبْسُوطَةً
وَرَأَى الْمُتَضَيِّدُ الْمَنْصُورُ مَا
فَسَلَّمَاهُ اللَّيَالِي طَلَمَةً
لَمْ يَدَعْ فِي وَسْعِ عَبْدٍ مُحْتَمَلِ
فَتَرَاءَتْهُ نَفُوسٌ لَا مُقْلَ (٣)
أَنْجُمَ الْجَوَازِءِ لَمْ أَرْضَ الْبَدَلِ
وَارِفَ الظِّلِّ وَكَمْ وَرْدٍ عِلَلِ (٤)
بَسْطَةً فِي طَيْهَا قَبْضُ الدُّوَلِ
أَنْبَأَتْهُ فَيْكَ لَيْتَ أَوْ لَعَلْ
بِتَفَارِيقِ أَمَانِيهِ جَمَلِ (٥)

- (١) الحمل : برج في السماء من البروج الربيعية ، يقول إن الأبق أشرق بنوره وازدان بيهاه لا يباه
الشمس التي حلت في برج الحمل .
(٢) يقول : لا أبالي بعد أن صحت نفسي بزيارته وتشريفه منزلي إن أرض الدهر جسمي .
(٣) يقول : إن إحسانك الذي طوّقت به عني قد وضع لدهوس لا لالعيون . وفي الأصل : تمامته من
مأى في الشيء . يعأى مأيا بالغ وتماى الحشد إذا مددته ، وقد سبق له هذا المعنى في قوله :
« يا هلالا تترأءا » نفوس لالعيرن . انظر صفحة ٣٩ .
(٤) العلل : الشرب الثاني ويقال علل بعد نهل أي شرب ثمان بعد شرب أول أي أنه ورد حياض كرمه
مرة بعد أخرى . (٥) أي سينيله الدهر جملة أمانيه المنفرقة فلا يدع منها شيئا إلا حققه له .

تهنئة

« وقال يهيه أيده الله بقدم وإبلال » .

أَقْدَمَ كَمَا قَدِمَ الرَّيْسُ الْبَا كِرُ
قَسَمًا لَقَدْ وَفَى الْمُنَى وَتَفَى الْأَسَى
لَيْسَرَ مُكْتَتِبٌ وَيَغْفَى سَاهِرُ
قَفَلٌ وَإِبْلَالٌ - عَقِيبٌ مُطِيفَةٌ -
إِنْ أَعْنَتَ الْجِسْمَ الْمَكْرَمَ وَغَشَا
مَا كَانَ إِلَّا كَانَجِلَاءَ غِيَابَةٍ
فَلْتَعُدُّ السَّنَةَ الْإِنَامَ وَدَأْبَهَا
إِنْ كَانَ أَسْعَدَ مِنْ وَصُولِكَ - طَالَعُ
أَضْحَى الزَّمَانِ نَهَارُهُ كَافُورَةٌ
قَدْ كَانَ هَجَرِي الشَّعْرَ - قَبْلُ - صَرِيعةً (١)
حَتَّى إِذَا آنَسْتُ أَوْبِكَ بَارِئًا
عَى قَلْبَتِ إِلَى الْبَلَاغَةِ عِيَّةُ
لَقَعْتَ ذَهْنِي ، فَأَجْنِ غَضَّ عِمَارِهِ

وَأَطْلَعُ كَمَا طَلَعَ الصَّبَاحُ الزَّاهِرُ
مَنْ أَقْدَمَ الْبُشْرَى بِأَنْكَ صَادِرُ
وَيَرَّاحَ مَرْتَقِبٌ وَيُوفَى نَاذِرُ
غَشِيَتْ كَمَا غَشَى السَّبِيلَ الْمَابِرُ (٢)
فَلَرُبَّمَا وَعَيْكَ الْهَزْبُ الْخَادِرُ (٣)
لَيْسَ الْفِرْدَوْسُ نَدْبَهَا الْحُسَامُ الْبَاتِرُ (٤)
شُكْرُ مُجَاذِبِهِ الْخَطِيبِ الشَّاعِرُ
فَكَذَلِكَ أَيْمَنْ مِنْ قُفُولِكَ (٥) طَارُ
وَاللَّيْلُ سِنَكُ - مِنْ خِلَالِكَ - عَاطِرُ
حَذَرِي لِدَاكَ النِّقْدَ فِيهَا عَازِرُ
صَفَتِ الْقَرِيحَةَ وَأَسْتَنَارَ الْخَاطِرُ (٦)
لَوْ لَا ثِقَاكَ لَقُلْتُ : إِنَّكَ سَاحِرُ (٧)
فَالنَّحْلُ يُحَرِّزُ مُجْتَنَاهُ الْآبِرُ (٨)

(١) يقول : قدوم من السفر ، وإبلال من المرض عقيب علة أطاع بك وغشيتك غشيان طار سبيل .
(٢) الوعك : الحمى أو ألمها والموعوك المصوم ، والخادر : الفاتر الكسلان ، والأسد الخادر : المقيم في خدمه أي الذي لزم عرينه . (٣) يقول : لم يكن المرض إلا فترة طاد بعدها الحسام إلى حلأته وروثه .
(٤) رجوعك . (٥) الصريعة : المزعة ، يقال : « هو رجل ذو صريعة وصرائم » أي ذو عريضة ، يقول : إني هجرت قبل قدومك الشعر هجرا صارما فاطعاً ، وعذري في ذلك واضح وهو ما كتبت أحذره من ذلك النقد الذي يتعرض له شعري ، أما الآن فقد صفت القرية لأوبتك بارئاً . (٦) يقول كست اعترفت هجراً بشعر حتى إذ آنس خاطري لإيالك من سمرك صفت قريحتي وشجدة فكري ففتحت أمامي طرق الشعر .
(٧) يقول إنك ألهمت العبي بالبيان فعاد بليغا ولولا أنك تقي لانهم منك بالسحر في ذلك . وفي الأصل : « عي رددت إلى البلاغة عينه . »
(٨) يقال لفتح النخلة وألفحها وألفح الفحل الناقة أحبلها ، وألقت الرمح الشجر والسحاب أحلتها ، والواقع من الرياح : التي تحمل الندى ثم تعجه في السحاب فاذ اجتمع في السحاب صار مطراً ، يقول إنك : لفتت ذهني - كما يلقح الزارع النخلة - فأني بأحسن الثمر وأشدها ، فأنت أحق باجتناء الثمر لأنك فارسه ومنتهمده .

(٨) يقال لفتح النخلة وألفحها وألفح الفحل الناقة أحبلها ، وألقت الرمح الشجر والسحاب أحلتها ، والواقع من الرياح : التي تحمل الندى ثم تعجه في السحاب فاذ اجتمع في السحاب صار مطراً ، يقول إنك : لفتت ذهني - كما يلقح الزارع النخلة - فأني بأحسن الثمر وأشدها ، فأنت أحق باجتناء الثمر لأنك فارسه ومنتهمده .

كَمْ قَدْ شَكَرْتُكَ - غِيبَ ذِكْرِكَ - فَأَتَشْتَّى مُتَذَكِّرٌ مِنِّي وَغَرَّدَ شَاكِرٌ ^(١)
يَأْيَاهَا الْمَلِكُ الَّذِي عَدِيَاؤُهُ * * * مَثَلٌ - تَنَاقَلَهُ اللَّيَالِي - سَاكِرٌ
يَا مَنْ لِبَرْقِ الْبَشْرِ مِنْهُ تَهْلُلُ مَا شِيمَ إِلَّا أَنْهَلَ جُودَ هَامِرٍ
أَنْتَ ابْنُ مَنْ مَجَّدَ الْمُلُوكَ ، فَإِنْ يَكُنْ لِلْمَجْدِ عَيْنٌ فَهُوَ مِنْهَا نَاطِرٌ
مَلِكٌ أَعْرُ أَزْدَانَتِ الدُّنْيَا بِهِ وَأَعَزَّ دِينَ اللَّهِ مِنْهُ نَاصِرٌ
أَبْنَاكَ فِي ثَبَجِ الْمَجَرَّةِ قُبْسَةٌ فَهَنَّاكَ أَنْكَ لِلنُّجُومِ مُخَاصِرٌ ^(٢)
وَتَلَقَّ - مِنْ سِمَتِكَ - صِدْقَ تَفَاوُلِي فَهَمَّا « الْمُوَيْدُ » بِالْإِلَهِ « الظَّافِرُ » ^(٣)

ابتداء قصيد

« وقال ابتداء قصيد اعتقد إنفاذه إليه وقد طالت
غيبته في بعض أسفاره ولم يكلمه . »

سَأَهْدِي النَّفْسَ فِي نَفْسِ الشَّمَالِ فَقَدْ لَفَحَ التَّشْوِيقُ عَنْ خِيَالِ
إِلَى الشَّيْنِ الْعَزَائِمِ - إِنْ أَثِيرَتْ حَفِيزَتُهُ - إِلَى اللَّذَنِ الْخِلَالِ ^(٤)
إِلَى الْوَضَّاحِ آثَارَ الْمَسَاعِي إِلَى النَّفَّاحِ أَخْبَارَ الْمَعَالِي
إِلَى مَلِكٍ هُوَ الْمَعْنَى الْمُجَلَّى بِهِ الْإِشْكَالُ مِنْ لَفْظِ الْكَمَالِ
إِلَى مَنْ لَا مَثِيلَ لَهُ إِذَا مَا بَدَأَ فِي السَّرَجِ أَوْ فَوْقَ الْمِثَالِ
هَدِيَّةٌ مِنْ - لَوْ أَنَّ الدَّهْرَ سَنَى مُنَاهُ - هَدَى إِلَيْكَ سُرَى الْخِيَالِ
فَكَمْ بَوَّأَتْنِي سَاحَاتٍ نَعْمَى عَذَابِ الْوَرْدِ وَارِفَةِ الظَّلَالِ

(١) يقول ما شكرتك عقب ذكراك إلا تملك من نشوة الفرح وغردت بالثناء عليك . وفي الأصل :
« وعربد شاكر . » (٢) نيج المجرة وسطها أو أعلا مكان فيها ، وتخاصر : أى تمشى إلى جنبها ،
يقول : « لقد بنى لك أبوك قبة في ذروة المجرة فهيننا لك هذا المقام الرفيع الذى تخاصر فيه السجود فى عليائها . »
(٣) يقول : ثنى بتفاؤلى فيك فسيحقق الله صدق لفيك وهما المؤيد والمنصور فيؤيدك وينصرك على أعدائك .
(٤) إلى ذى العزيمة القوية إن هاجه مثير والخلال المرضية السمعة إذا لاينه سالم ، ودرب من هذا
قول ابن دريد :

« سهل إذا لوبت لدن معطى أوى - إذا خوشفت - مرهوب الشذا . »

إلى أبي القاسم

« كتب إلى أبي القاسم بن رفق »

عِذْرِي^(١) - إِنْ عَذَلْتِ فِي خَلْعِ عِذْرِي^(٢) - غُصْنُ أَثْمَرَتْ ذُرَاهُ يَبْدُرُ^(٣)
 هَزَّ مِنْهُ الصَّبَا فَقَوَّمَ شَطْرًا - وَتَجَافَى - عَنِ الْوَسَّاحِ - بِشَطْرِ
 رَشَاءٍ أَقْصَدَ^(٤) الْجَوَانِحَ قَصْدًا - عَنْ جُفُونِ كُحْلِنَ - عَمْدًا - بِسِحْرِ
 كُسَى الْحُسْنِ فَهَوَّ يَفْتَنُ فِيهِ - سَاحِبًا ذَيْلَ بُرْدِهِ الْمُسْبِكِ^(٥)
 تَحْتَ ظِلِّ - مِنَ الْغَرَارَةِ - فِينَا - نَ وَوُزْقٍ^(٦) مِنَ الشَّبِيبَةِ نُضِرُ
 أَبْرَزَ الْجِيدَ فِي غَلَائِلَ بِيضٍ - وَجَلَا الْخَدَّ فِي مَجَاسِدِ حُمْرٍ^(٧)
 وَتَشَدَّتْ بِعِطْفِهِ - إِذْ تَهَادَى - خَطَرَةُ تَمَزَّجُ الدَّلَالَ بِكِبَرِ
 زَارِنِي - بَعْدَ هَجْعَةٍ - وَالْثُرَيَّا - رَاحَةُ تَقْدِرُ^(٨) الظَّلَامَ بِشِيرِ
 وَالْدُّجَا - مِنْ نُجُومِهِ - فِي عُقُودِ - يَتَلَاوَنَ مِنْ سِمَاكِ وَنَسْرِ
 تَحْسَبُ الْأَفْقَ يَبْنَاهَا لَا زَوْرَدًا - مُتَرَتِّ - فَوْقَهُ - دَنَانِيرُ تَبْرِ
 فَرَشَقْتُ الرُّضَابَ أَعَذَبَ رَشْفٍ - وَهَصَرْتُ الْقَضِيبَ الْطَفَ هَصْرِ

(١) عذر - جمع عذرة بالكسر - أى معاذير . (٢) عذر : يضم أوله وثانيه جمع عذار وهو

الحياء ، وخلق العذار أى ترك الحياء .

(٣) يقول لاني إذا خلعت عذارى فى الهوى فان معاذيرى واضحة فقد فنى قوامه المياد الذى يشبه الغصن

ووجهه المضى كالدر . (٤) يقال أقصد فلانا : طعنه فلم يخطئه .

(٥) المسبكر : المسترسل ، والمسبكر كل شئ امتد وطال .

(٦) الورق الحائم الذى يضرب لونها إلى خضرة ، قال جرير العود :

« وكان فؤادى قد صماء ثم هاجنى حاتم ورق بالمدينة هتب . »

(٧) المجاسد - جمع مجسد - وهو الفميس الذى يلى البدن ، قال ابن الأعرابي : « ولا تخرجن إلى

المساجد بالمجاسد » (٨) تقيس .

وَنَعِمْنَا بِلَفٍّ جِسْمٍ بِجِسْمٍ - لِلتَّصَافِي - وَقَرَعِ ثَغْرٍ بِثَغْرٍ
يَا لَهَا ! لَيْسَ لَكَ تَجَلَّى دُجَاهَا - مِنْ سَنَا وَجَنَّتِيهِ - عَنْ ضَوْءِ جَفْرِ
قَصَرَ الْوَصْلُ نَعْمَ رَهَا، وَبُودَى أَنْ يَطُولَ الْقَصِيرُ مِنْهَا بِعُمَرَى

* * *

مَنْ عَذِيرِي مِنْ رَبِّبِ دَهْرٍ خَثُونِ - كُلَّ يَوْمٍ - أُرَاعُ مِنْهُ بِغَدْرِ
كُلَّمَا قُلْتُ : « حَاكَ فِيهِ مَلَامِي » نَهَسْتَنِي مِنْهُ عَقَارِبُ تَسْرِي (١)
وَتَرْتَنِي خُطُوبُهُ فِي صَفِيٍّ فَاضِلٍ نَابِهِ - مِنْ الدَّهْرِ - وَتَرِ (٢)
بَانَ عَنِّي - وَكَانَ رَوْضَةً عَيْنِي - فَعَدَا الْيَوْمَ وَهُوَ رَوْضَةٌ فِكْرِي (٣)
فَكَهْ يُنْهَجُ الْخَلِيلَ بِوَجْهِهِ تَرِدُ الْعَيْنُ مِنْهُ يَنْبُوعَ بَشْرِ
لَوْ ذَعِي - إِنْ يَبْلُهُ الْخُبْرُ يَوْمًا - أُخْجَلَ الْوَرْدَ عَنْ خَلَائِقَ زُهْرٍ
وَإِذَا غَاظَلَتْهُ مُقْلَةٌ طَرَفٍ كَادَ - مِنْ رِقَّةٍ يَذُوبُ - فَيَجْرِي (٤)

* * *

يَا « أَبَا الْقَاسِمِ » الَّذِي كَانَ رِدْثِي وَظَهِيرِي - عَلَى الزَّمَانِ - وَذُخْرِي

(١) حاك : رشح أو أثر فيه ، ونهستني : عصتني ، يقول : « كلما قلت إن زمانى قد ارعوى وأثر فيه صناعي ظهر لي خطئي في ظني وعصتني عقارب لوم تدب إلى وتسرى في الظلام من عقارب دهرى » ولله درّ أبو العلاء إذ يقول في الزمن :

« وَغِيظُ بَنُوهُ هَمْ ، وَغِيظُ مِنْهُمْ فَعَسَى ذَبْ سَاكِنِيهِ وَهَدْبُوه
وَمَا يَخْشَى الْوَعِيدَ فَيُوعِدُوه وَلَا يَرعى الْعَتَابَ فَيَعْتَبُوه
أَسَاءَ - بِجَهْلِهِ - أَدْبَا عَلَيْهِمْ فَوَلَّ مِنْ حِيلَةٍ فَيُؤَدِّبُوه . »

(٢) وتر : فذ . (٣) كنت أراه أُمَامِي فَنَنَعَمُ بِهِ عَيْنَايَ وَالْيَوْمَ لَا أَرَاهُ - بَعْدَ نَابِهِ - فَأَصْبَحَ
يَنَعَمُ خَاطِرِي بِذِكْرَاهُ .

(٤) يقول إنه كاد من رِقَّةٍ يسيل . وقريب من هذا المعنى قول ابن الرومي :
« أَيْضِي مَنِي خَنْثَ الشَّمَائِلِ - لَوْ نَضَا عَنْهُ غَلَاظُهُ - حَسَاءُ الْخَاسِي . »

يَا أَحَقَّ الْوَرَى بِمَمْنُوحٍ إِخْلَا صِي وَأَوْلَاهُمْ بِغَايَةِ شُكْرِي
طَرَقَ الدَّهْرُ سَاحَتِي - مِنْ تَنَائِيكَ - بِجَهْمٍ مِنَ الْحَوَادِثِ نُكْرِي

لَيْتَ شِعْرِي ! وَالنَّفْسُ تَعْلَمُ أَنْ لَيْسَ بِمُجْدٍ عَلَى الْفَتَى : «لَيْتَ شِعْرِي»^(١)
هَلْ لِحَالِي زَمَانًا مِنْ رُجُوعٍ ؟ أَمْ لِمَاضِي زَمَانًا مِنْ مَكْرٍ ؟

أَيْنَ أَيَّامُنَا وَأَيْنَ لَيَالٍ	كَرِيَاضٍ لَيْسَنَ أَفْوَافَ زَهْرٍ
وَزَمَانٌ كَأَنَّمَا دَبَّ فِيهِ	وَسَنٌ أَوْ هَفَا بِهِ فَرَطُ سُكْرٍ
حِينَ نَعْدُو إِلَى جَدَاوِلِ زُرْقٍ	يَتَغَلَّغَلْنَ فِي حَدَائِقِ خُضْرِ
فِي هِضَابٍ - مَجْلُوءَةِ الْحُسْنِ - مُحَرٍّ	وَبَوَادٍ - مَصْقُولَةِ النَّبْتِ - عُمْرٍ
نَتَعَاطَى الشَّمُولَ - مُذْهَبَةَ السَّرِّ	بَالٍ - وَالْجَوُّ فِي مَطَارِفٍ ^(٢) غُبْرِ
فِي فُتُوٍّ ^(٣) تَوْشَّحُوا بِالْمَعَالِي	وَرَدُّوْا بِكُلِّ مُجْدٍ وَفَخْرٍ
وُضِّحَ تَنْجَلِي الْغِيَاهِبِ مِنْهُمْ	عَنْ وَجُوهِ - مِثْلِ الْمَصَائِيحِ - غُرٍّ
كُلُّ خِرْقٍ يَكَادُ يَنْهَلُ ظَرْفًا	زَانَ مَرَأَى بِهِ بِأَكْرَمِ خُبْرٍ ^(٤)

(١) يقول « ليت شعري » ، وإن كنت أعلم أنها غير مجدية ، قال ابن الرومي :

« يا ليت شعري وليت غير مجدية إلا استراحة قلب وهو اسوان . »

وقال الشاعر :

« ليت وهل ينفع شيئا « ليت » ليت شبابا بيع فاشترى . »

(٢) مطارف - جمع مطرف بضم الميم وكسر ها - مع فتح الراء في كليهما - : رداء مريح من خز

ذو أعلام . (٣) فتو - جمع فتى وهو يجمع على فتيان وفتو وفتى بتشديد الواو والياء .

(٤) الحرق : من الفتيان الظريف في ساحة ونجدة ، وينهل : يريد يكاد يسيل رقة وظرفا ، وقد جاء

بعد هذا البيت قوله :

« بحس حال نفع المسك عرفها طيب شعر . »

وقد أثبتناه كما ورد ناصراً بالأصل .

وَسَجَايَا كَأَنَّهُنَّ كُثُوسٌ أَوْ رِيَاضٌ قَدْ جَادَهَا صَوْبُ قَطْرِ
يَتَلَقَّى الْقَبُولَ مِنِّي قُبُولٌ كُلَّمَا رَاحَ نَفْحُهَا أَرْتَاحَ صَدْرِي
فَهُوَ يَسْرِي مُحْمَلًا - مِنْ سَجَايَا لَكِ - نَسِيمًا يُزْهِى بِأَفْوَحِ عِطْرِ

يَا خَلِيلِي وَوَاحِدِي وَالْمَعْلَى مِنْ قِدَاحِي ^(١) وَالْمُسْتَبْدِ بِرِّي
لَا يَضَعُ وَدَّيَ الصَّرِيحِ الَّذِي أُرَى صَاكَ مِنْهُ أَسْتَوَاهُ سِرِّي وَجَهْرِي
وَتَوَالِي أَدِمَّةٍ نَظَمْتَنَا نَظَمَ عَقْدِ الْجَمَانِ فِي نَحْرِ بَكْرِ
لَا يَكُنْ قَصْرُكَ الْجَفَاءَ ، فَإِنَّ الْوُدَّ - إِنْ سَاعَدَتْ حَيَاتِي - قَصْرِي ^(٢)
وَأَعِذْ - بِالْجَوَابِ - دَوْلَةَ أَنْسٍ قَدْ تَقَضَّتْ إِلَّا عُلاَلَةَ ذِكْرِي ^(٣)
وَأَكْسُ مَتْنِ الْقِرْطَاسِ دِيْبَاجَ لَفْظٍ يَبْهَرُ الْفِكْرَ مِنْ نَظِيمٍ وَشَرِّ
غُرُرٍ مِنْ بَدَائِعٍ لَا يَشْكُ الدَّهْرُ فِي أَتَمِّهَا قَلَائِدُ دُرٍّ
تَتَوَالِي عَلَى النُّفُوسِ دِرَاكَا عَنْ فَتَى مُوسِرٍ - مِنَ الطَّبْعِ - مُثَرِّ
شَدَّ فِي حَلَبَةِ الْبَلَاغَةِ حَاشِي بَانَ فِيهَا عَنْ شَأْوٍ سَهْلٍ وَغَمْرٍ
وَإِذَا أَنْتَ لَمْ تُعْجَلْ جَوَابِي كَانَ هَذَا الْكِتَابُ بَيْضَةً عَقْرِ ^(٤)
فَاقْبَلِي - فِي ذِمَّةِ السَّلَامَةِ - مَا أَنْجَا بَ عَنِ الْأَفْقِ عَارِضٌ مُتَسَرِّ
وَعَلَيْكَ السَّلَامُ مَا غَنَّتِ الْوُرُ قُ وَمَالَتْ بِهَا ذَوَائِبُ سِدْرِ ^(٥)

(١) أي الفصح المعلى . (٢) يقول : لا يكن قصارك الجفاء فان قصارى الوداد أى لا تكن
خايتك قطيعتي فان غابني وصلك .

(٣) يقول : أعد عهد الأنس الذى مضى ولم يترك لنا إلا ذكريات تتعل بها .

(٤) إذا لم تعجل بالرد على كتابي كان هذا آخر كتاب أبعت به إليك .

(٥) السدر : شجر البق يقول : « تحبني إليك كلما غنت الحمام ومالت بها أغصان الشجر » .

مدح ابن جهور ورثاء أمه

« كرّر ابن زيدون في هذه القصيدة أكثر
الآيات السابقة التي ذكرناها في ص « ١٤٠ »
من هذا الديوان . »

هو الدهرُ فأصبرَ للذي أحدث الدهرُ	فمن شيم الأبرار - في مثلهما - الصبرُ
ستصبرُ صبرَ اليأسِ أو صبرَ حسبةٍ	فلا ترضَ بالصبرِ الذي معه وزرُ
حذارك من أن يعقبَ الرزءَ فتنةً	يضيّقُ لها - عن مثل أخلاقك - العذرُ
إذا أسفَ النكّلَ اللبيبُ فشفه	رأى أبرحَ الشكّلين أن يحبطَ الأجرُ
مصابُ الذي يأسى يميت ثوابه	هو البرحُ لالميت الذي أحرزَ القبرُ

حياة الورى نهجٌ إلى الموتِ مهج	لهم فيه إيضاعٌ كما يوضع السفرُ
فيا هادى المنهاج جُرتَ فإنما	هو الفجرُ يهديك الصراطُ أو البجرُ
لنا - في سوانا - عبرةٌ غيرَ أننا	نغرُّ بأطماع الأمانى فنغترُّ
إذا الموتُ أضنى قصرَ كلِّ معمرٍ	فإن سواه طال أو قصرَ العمرُ

ألم ترَ أن الدينَ ريعَ ذماره	فلم يُغنِ أنصاره عديده ولا وفرُ
بحيث استقلَّ الملكُ ثاني عطفه	وجرّ من أذياله العسكرُ المجرُ
هو الضيمُ لو غيرَ القضاء يرومه	شأه المرامُ الصعبُ والمسلكُ الوعرُ

إِذَا عَثَرْتَ جُرْدُ السَّوَاخِ فِي الْقَنَا
لَقَدْ بَكَرَ النَّاعِي عَلَيْنَا بِدَعْوَةٍ
بَلِيلِ عَجَاجٍ لَيْسَ يَصْدَعُهُ فَجْرُ
عَوَانٍ أَمْضَتْنَا لَهَا لَوْعَةٌ بِكْرُ

* *

أَنْفَسُ نَفْسٍ - فِي الْوَرَى - أَقْصَدَ الرَّدَى؟
هَنِيئًا لِبَطْنِ الْأَرْضِ أَنْسُ مُجَدِّدُ
وَأَخْطَرُ عِلْقٍ - لِلْهُدَى - أَهْلَكَ الدَّهْرُ؟
بِطَاهِرَةِ الْأَنْوَابِ ، قَاتِمَةِ الضُّحَى
بِشَاوِيَةٍ حَلَّتْهُ فَاسْتَوْحَشَ الظَّهْرُ
قَإِنْ أَتَيْتَ فَالْنَّفْسُ أَتَى نَفِيسَةٌ
مُسَبِّحَةِ الْآثَاءِ ، مِحْرَابُهَا الْخِذْرُ
إِذِ الْجِسْمُ لَا يَسْمُو لَتَذَكِيرِهِ ذِكْرُ
حَصَانٍ - إِنْ الْقَوَى اسْتَبَدَّتْ بِسِرِّهَا -
فَمِنْ صَالِحِ الْأَعْمَالِ يُسْتَوْضَحُ الْجَهْرُ
فَيَرْفَعُ - عَنْ مَثْنَى نَوَافِلِهَا - السِّرُّ
يُطَاطَأُ سِتْرُ الصَّوْنِ دُونَ حِجَابِهَا

* *

لَعَمْرُ الْبُرُودِ الْبَيْضِ فِي ذَلِكَ الثَّرَى
عَلَيْهَا سَلَامُ اللَّهِ تَتَرَى تَحِيَّةَ
لَقَدْ أَذْرَجْتَ - أَثْنَاءَ هَا - النِّعَمِ الْخَضِرُ
يُنَسِّمُهَا الْغُفْرَانُ رِيحَانُهَا النَّضْرُ
إِذَا اسْتَعْبَرْتَ فِي ثُرْبِهَا أَبْتَسَمَ الزَّهْرُ

* *

فَدَيْنَاكَ ، إِنَّ الرُّزْءَ كَانَ غَمَامَةً
أَلَسْتَ الَّذِي - إِنْ ضَاقَ ذَرْعُ بِحَادِثٍ -
طَلَعْتَ لَنَا فِيهَا كَمَا يَطْلُعُ الْبَدْرُ
تَعَزَّ بِحَوَاءٍ - الَّتِي الْخَلْقُ نَسَلُهَا -
تَبْلُجُ مِنْهُ الْوَجْهُ وَاتَّسَعَ الصَّدْرُ
نِسَاءُ النَّبِيِّ الْمُنْطَلِقِ أَهْمَانَا
فَمَنْ دُونَهَا فِي الْعَصْرِ يَتَّبِعُهُ الْعَصْرُ
وَجَازَيْتَهَا الْحُسْنَى ، فَأُمُّ شَفِيقَةٍ
تَوَيْنَ فَعَنَاهُنَّ - مُذْ حُقُبٍ - قَفْرُ
تَحَقَّى بِهَا ابْنُ كُلِّ أَعْمَالٍ بِرُّ

تَمَنَّتْ وَفَاةً - فِي حَيَاتِكَ - بَعْدَ مَا
كَانَ الرَّدَى نَذْرُهَا عَلَيْهَا مُؤَكَّدُ
تَوَلَّتْ فَأَبْقَتْ - مِنْ مُجَابِ دُعَائِهَا -
تِيمٌ بِهِ النُّعْمَى ، وَتَتَسَّقُ الْمُنَى ،
فَلَا تَهْرِصُ الدُّنْيَا جَنَاحَكَ بَعْدَهَا
وَلَا زِلْتَ مَوْفُورَ الْعَدِيدِ بِقُرَّةِ

بَنِي « جَهْوَرِ » أَنْتُمْ سَمَاءُ رِيَاسَةٍ
تَرَى الدَّهْرَ - إِنْ يَبْطِشُ - فَنَكْمُ يَمِينُهُ
لَكُمْ كُلُّ رَقَرَاكِ السَّمَاحِ كَأَنَّهُ
سَحَابٌ نَعْمَى أَبْرَقَتْ وَتَدَفَّقَتْ
إِذَا مَا ذُكِرْتُمْ ، وَأُسْتَشِفَّتْ خِلَالُكُمْ
طَرِيقُكُمْ مُثْلَى ، وَهَدْيُكُمْ رِضَى
وَكَمْ سَائِلٍ - بِالْغَيْبِ عَنْكُمْ - أَجَبْتُهُ
عَطَاءً وَلَا مَنٍّ ، وَحُكْمٌ وَلَا هَوَى
قَدْ اسْتَوْفَتْ النِّعْمَاءُ فِيكُمْ تَمَامَهَا

لِمَافِيكُمْ - فِي أَفْقِهَا - أَنْجُمُ زُهْرُ
وَإِنْ تَضَحَكَ الدُّنْيَا فَأَنْتُمْ لَهَا نَعْرُ
حُسَامٌ عَلَيْهِ - مِنْ طَلَاقَتِهِ - أَثَرُ
فَصِيْبُهَا الْجَدْوَى ، وَبَارِقُهَا الْبَشْرُ
تَضَوَّعَتْ الْأَخْبَارُ ، وَأُسْتَمَجَدَ الْخَبْرُ
وَنَائِلُكُمْ نَعْمَرُ ، وَمَذْهَبُكُمْ قَصْرُ
هُنَاكَ الْأَيْدِي الشَّفْعُ وَالشُّودْدُ الْوِثْرُ
وَحِلْمٌ وَلَا عَجْزٌ ، وَعِزٌّ وَلَا كِبَرُ
عَلَيْنَا ، فِنَا الْحَمْدُ لِلَّهِ وَالشُّكْرُ

في مدح ابن جهور

« قال يمدح أبا الحزم بن جهور . »

أَجَلٌ ، إِنَّ لَيْلَى حَيْثُ أَحْيَاؤُهَا الْأَسْدُ
يَمَانِيَّةٌ تَذْنُو وَيَنَأَى مَزَارُهَا
إِذَا نَحْنُ زُرْنَاهَا تَمَرَّدَ « مَارِدٌ »
تَحْمُولُ رِمَاحِ الْخَطِّ دُونَ أَعْيَادِهَا
لِحَى لِقَاحٍ تَأْتِفُ الضَّيْمَ مِنْهُمْ
أَبٌ ذُو أَعْتِزَامٍ ، أَوْ أَخٌ ذُو تَسْرِعٍ
فَمَا شِيمَ مِنْ ذِي الْهَبَةِ الصَّارِمِ الشَّبَا
مَهَاةٌ سَحَتَهَا - فِي مَرَاتِمِهَا - أُسْدُ (١)
فَسَيَّانٍ مِنْهَا فِي الْهَوَى الْقُرْبُ وَالْبُعْدُ (٢)
وَعَزٌّ - فَلَمْ تَنْظُرْ بِهِ - « الْأَبْلَقُ الْفَرْدُ » (٣)
وَحَيْلٌ تَمَطَّى نَحْوَ غَايَاتِهَا جُرْدُ
جَحَاجِحَةٍ شَيْبُ وَصِيَابَةٍ مُرْدُ (٤)
فَشَيْخَانُ مَاضِي الْهَمِّ ، أَوْ فَاتِكُ جَلْدُ
وَلَا حُطٌّ عَنْ ذِي الْمَيْعَةِ السَّابِحِ اللَّبْدُ

وَفِي الْكِلَّةِ الْحَمْرَاءُ وَسَطَ قِيَابِهِمْ
فَتَاةٌ كَمَثَلِ الْبَذْرِ قَابَلَهُ السَّعْدُ

(١) الأسد : لغة في الأزدي ، والأسد : الأسود ، يقول : نعم إن ليلى من قبيلة الأزدي وهي ظبية تحبها الأسود وتزود عنها .

(٢) يقول إن قربها وبمسدها سيان لأن وصلها - على القرب ، والبعد - بعيد المنال ، وما أجل قول المعري :

« فيادارها بالخيف ، إن مزارها قريب ولكن دون ذلك أحوال . »

(٣) الأباقي الفرد : حسن السموءل بن حاديا بناء أبوه . فلوا بل بناء سليمان - عليه السلام - بأرض نيماء ، وقصدته الزباء فمجزت عنه وعن مارد ، فقالوا : « تمرّد مارد ، وعز الأباقي » . وفي هذا الحسن يقول السموءل - من لاميته الرائعة المشهورة :

« لنا جبل يحتمله من نجيره منيع ، يرد الطرف وهو كليل

هو الأباقي الفرد الذي شاع ذكره - يعز - على من راعه - ويطول . »

(٤) الحى اللقاح : هم الذين لا يبدئون الملوكة ولا يؤدون لهم الاثاوة ، والجحاجحة : جمع جحجج ، وهو السيد السمع أو هو الكريم وهو وصف حامس بالرجال ، قال الشاعر : « يرض قطارقه غلب جحاجحة . » ويجمع أيضاً على جججج ، قال ابن الزبير :

« ماذا يسدر فالعقنقل من سرازية جججج . »

صياغة القوم وصوابتهم : لبابهم .

عَقِيلَةٌ مِرْبٍ لَا الْأَرَاكَ مَرَادُهُ وَلَا قِنٌ مِنْهُ الْبَرِيرُ وَلَا الْمَرْدُ ^(١)
تَهَادَى فَيُضْنِيهَا الْوِشَاحُ غَرِيرَةٌ تَأَوُّهُ مَهْمَا نَاسٌ ^(٢) فِي جِيدِهَا الْعِقْدُ
إِذَا اسْتَحْفِظَتْ سِرَّ السَّرَى جُنَحَ لَيْلِهَا تَنَاسَى النُّمُومَانِ : الْأَلُوءَةُ ، وَالنَّدَى ^(٣)
لَهَا عِدَّةٌ بِالْوَصْلِ ، يُوعِدُ غَيْبَهَا مَصَالِيْتُ، يُنْسَى - فِي وَعِيدِهِمْ - الْوَعْدُ
عَزِيزٌ عَلَيْهِمْ أَنْ يَعُودَ خِيَالُهَا فَيُسْعِفُ مِنْهَا نَائِلٌ فِي الْكَرَى تَمْدٌ ^(٤)
كَفَى لَوَعَةٍ أَنْ الْوِصَالَ نَسِيبَةٌ يُطِيلُ غَنَاءَ الْمُقْتَضَى وَالْهَوَى تَقْدُ ^(٥)
سَتَبْلُغُهَا غَنَا الشَّمَالُ تَحِيَّةٌ نَوَافِحُ أَنْفَاسِ الْجَنُوبِ لَهَا رَدُّ ^(٦)
فَمَا نَسَى الْإِلْفُ الَّذِي كَانَ يَبْنِنَا - إِطُولِ تَنَائِينَا - وَلَا ضِيَعَ الْعَهْدِ



لَنْ قِيلَ : « فِي الْجِدِّ النَّجَاحُ لِطَالِبٍ » لَقَلَّ غَنَاءُ الْجِدِّ مَا لَمْ يَكُنْ جَدُّ ^(٧)

(١) المرء : النعمان من ثمر الأراك أو ضيقه . (٢) ناس : الشيء ينوس نوساً ونوساناً تحرك وتذبذب واضطرب متديلاً ، وسمى ذر نواس - وهو من ملوك - الذين بذلك لذوا بين كائنا نوسان على ظهره .
(٣) الألوة : عود هندي يتجر به ، وقال أعرابي حين مرّ على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو يدفن :

« أَلَا جَعَلْتُمْ رَسُولَ اللَّهِ فِي سَفَطٍ مِنْ الْأَلُوءَةِ أَحْوَى مَلْبَساً ذَهَباً . »

والند : ضرب من الطيب .

(٤) تمّد : قليل ، يقول وهم يستكثرون علينا أن يزورنا خيالها فيسهمفنا بالوصال في فترات الكرى المنقطعة القليلة . (٥) يقول : كفانا ألماً أنها لا تمن علينا بالوصال إلا وعوداً . ووجهه يعطينا افتضاؤها وأداؤها في . واعبدها مع أننا نصفها الهوى طابلاً غير متحملين ولا مؤجلين .

(٦) الشمال : ريح الشمال ، والجوب : ريح الجنوب ، وفي الأصل نوافج ، والنوافج : السحب الكثيرة المطر ، ويقال نفج الندى القيمس أي رقبته ونفجت الريح أي جاءت بقوة ، والنوافج - جمع ثالفة وهي النسيم . (٧) يقول ابن دريد في هذا المعنى :

« لَا يَنْفَعُ الْجِدَّ بِلَا جِدٍّ وَلَا يَحْفَظُ الْجَهْلُ إِذَا الْجِدُّ عَلَا . »

« عَشَّ يَجِدُّ وَلَا يَضُرُّكَ نَوْكُ »

ويقول الشاعر :

وقد أكثر الشعراء من الكلام في الجدود ، ومن أبدع ما قرأناه في ذلك قول ابن الرومي :

« إِنْ لَلْحَفْظُ كَيْعِيَاءَ إِذَا مَا مَسَّ كَلْبًا أَحَالَهُ إِنْسَانًا . »

يَنَالُ الْأَمَانِي بِالْحَظِيرَةِ وَادِعٌ كَمَا أَنَّهُ يُكْدِي الَّذِي شَأْنُهُ الْكَدُ^(١)

* *

هُوَ الدَّهْرُ مَهْمَا أَحْسَنَ الْفِعْلَ مَرَّةً
حِذَارَكَ أَنْ تَغْتَرَّ مِنْهُ بِجَانِبٍ
وَلَوْلَا السَّرَاةُ الصَّيِّدُ مِنْ آلِ «جَهْوَرٍ»
مُلُوكٌ لَبَسْنَا الدَّهْرَ فِي جَنَابَتِهِمْ
بِحَيْثُ مَقِيلُ الْأَمْنِ صَافٍ ظِلَالُهُ
هُمْ النَّفَرُ الْبَيْضُ الَّذِينَ وَجُوهُهُمْ
كَرَامٌ يَمُدُّ الرَّاغِبُونَ أَكْفَهُمْ
فَمَنْ خَطَا ، لَكِنْ إِسَاءَتُهُ عَمْدُ
فَنِي كُلِّ وَادٍ مِنْ نَوَائِيهِ «سَعْدُ»^(٢)
لَا عَوَزَ مَنْ يُعْدِي عَلَيْهِ مَتَى يَعْدُو
رَفِيقَ الْحَوَائِي مِثْلَ مَا قُوفَ الْبُرْدُ
وَفِي مَنَهْلِ الْعَيْشِ الْمُدُوبَةُ وَالْبُرْدُ
تَرُوقُ فَتَسْتَشْفِي بِهَا الْأَعْيُنُ الرَّمْدُ
إِلَى أَبْجَرٍ مِنْهُمْ لَهَا بِاللَّهْمَا^(٣) مَدُّ

وقول المتنبي :

« هو الجد حتى تفضل العين أختها وحتي يصير اليوم لليوم سيديا . »

وقول المعري :

« والجد يدرك أقواما فيرفعهم وقد ينال الى أن يعبد الحجر »

وعرفت ذات أنواط قبائلها ولم تباين على علانها الشجرا . »

وقد ذكرنا طرفا من أقوال الشعراء في هذا المعنى في رسالة الفيران « ج ٢ ص ٩٨ » فارجع إليها من شاء .

(١) الحظيرة : عى بها هنا الأموال المخطورة يقال : احتظر الرجل وحظر اتخذ حظيرة حبس فيها أمواله

من تضيق ، ويقال للرجل الذليل الحير « إنه لنكد الحظيرة » وسببت أمواله حظيرة لأنه حظرها ومنعها

عنده ، والوداع : الذي ينال حظه من العيش من غير كفاة ولا مشقة ، يقول : « كثيرا ما ينال الوداع الذي

هو في خفض ودعة من العيش أمانيه بأمواله المخطورة عنده كما أنه كثيرا ما يخفق ذو السمي والكبد فلا

يحصل من تعبته وكده على طائل » ، ولعل أبرع ما قرأناه في هذا المعنى قول ابن الرومي :

« إذا كان مجرى كوكب سمت هالة عراها وإلا اعتاص ذلك مطلبها . »

وقول الآخر :

« سبحانه ربي يعطى ذا ويحرم ذا هذا يصير ، وهذا يأكل السكك . »

(٢) يقال « بكل واد سعد » أو « بكل واد بنو سعد » يريدون بذلك أن في كل جهة كفاءها من الشر

والأذى . قالوا وأصل المثل أن الأضيظ بن قريظ بن عوف بن كعب بن -عد بن زيد مائة - رأى من أهله وقومه

أمورا كرهها ففارقهم متذلا في القبائل فرأى من غيرهم مثل ما رأى منهم فقال : « في كل أرض سعد بن زيد . »

(٣) الأعطيات والهبات .

فَلَا يُنْعَ مِنْهُمْ هَالِكٌ فَهُوَ خَالِدٌ بِآثَارِهِ ، إِنَّ الشَّاءَ هُوَ الْخَالِدُ
« أَقِلُّوا عَلَيْهِمْ لَأَبَا لَأَيِّكُمْ مِنَ الْلَوْمِ ، أَوْسُدُوا الْمَكَانَ الَّذِي سَدُّوا ^(١) »
أُولَئِكَ إِنْ رَعَيْنَا سَرَى فِي صَلَاحِنَا سِجَاحٌ عَلَيْنَا كُحْلٌ أَجْفَانِهِمْ مُهْنٌ

الْبَسَ « أَبُو الْحَزْمِ » الَّذِي غِيبَ سَعْيِهِ تَبَصَّرَ قَاوِينَا فَبَانَ لَهُ الرُّشْدُ
أَغْرَ تَهْهَدْنَا بِهِ الْخَفْضَ ^(٢) بَعْدَ مَا أَقْضَى عَلَيْنَا مَضْجَعٌ وَنَبَا مَهْدُ ^(٣)
لَشَمَّرَ حَتَّى أَنْجَابَ عَارِضُ فِتْنَةٍ تَأَلَّقَ مِنْهَا الْبَرْقُ وَأَصْطَخَبَ الرَّعْدُ
فَسَاسَمَ مَنْ كَانَتْ لَهُ الْحَرْبُ عَادَةً وَوَافَقَ مَنْ لَاشَكَ فِي أَنَّهُ ضِدُّ ^(٤)
هُوَ الْأَثَرُ الْمَحْمُودُ إِنْ عَادَ ذِكْرُهُ تَطَلَّعَتِ الْعُلَيَاءُ وَأَسْتَشْرَفَ الْمَجْدُ
تَوَلَّى فَلَوْلَا أَنْ تَلَاهُ « مُحَمَّدٌ » لَأَوْطَأَ خَدَّ الْحُرِّ أَنْخَصَهُ الْعَبْدُ ^(٥)

مَلِيكَ يَسُوسُ الْمَلِكَ مِنْهُ مُقَالِدٌ رَوَى عَنْ أَبِيهِ فِيهِ مَا سَنَّهُ الْجَدُّ
سَجِيَّتُهُ الْحُسْنَى ، وَشِيْمَتُهُ الرِّضَى ، وَسِيرَتُهُ الْمُثَلَى ، وَمَذْهَبُهُ الْقَصْدُ

(١) ورد هذا البيت في الأصل :

« عليهم ، لا أبا لأَيِّكُمْ من اللوم ، أوسدوا المكان الذي سدوا. »

وليس هذا البيت لابن زيدون بل هو امتباس ، وأصل البيت كما أبتشاه ، وهو من القصيدة المشهورة
للقى يقول فيها الشاعر :

« وتعدلى أبناء سعد عليهم ومافلت إلا بالذى علمت سعد . »

(٢) الخفض : الدعة . (٣) يقول إنه بدلنا من خوف أمنا ومن سهاد رقادا .

(٤) يقول : وقد سألته أشد الأعداء ولو عا بالهرب ووافقه من لاشك في حصومته ولدده بعد ما رأوا
من شدة بأسه وقوته .

(٥) يقول : لولا أن محمدا قد حلف أبا الحزم لساءت العاقبة ولسادت دولة العبيد على دولة الأحرار
مأدولهم أدللا وداسو خدودهم بأرحلهم .

مُهَامٌ إِذَا زَانَ النَّدَى بِحَبْوَةٍ تَرْجِعَ فِي أَثْنَائِهَا الْحَسْبُ الْعَدُوَّ
 زَعِيمٌ لِأَبْنَاءِ السَّيَادَةِ بَارِعٌ هَلِينِهِمْ بِهِ تُثْنَى الْخَنَاصِرُ إِنْ عُدُّوا
 بَعِيدُ مَنَالِ الْحَالِ ، دَانِي جَنَى النَّدَى إِذَا ذُكِرَتْ أَخْلَاقُهُ خَجَلَ الْوَرْدُ
 تَهْلَلُ فَأَنْهَلَتْ سَمَاءَ يَمِينِهِ عَطَا يَا تَرَى الْأَمَالَ مِنْ صَوْنِهَِا - جَعْدُ (١)
 مُمِرٌّ لِمَنْ عَادَاهُ إِذْ أَوْلِيَاؤُهُ يَلْدُ لَهُمْ كَالْمَاءِ شَيْبَ بِهِ الشُّهُدُ
 إِذَا أُعْتَرِفَ الْجَانِي عَفَا عَفْوٌ قَادِرٌ عَلَا قَدْرُهُ عَنْ أَنْ يَلْبِجَ بِهِ حَقْدُ (٢)
 وَمُسْتَعِدُّ لَوْ زَا حَمَ الطَّوْدَ حِلْمُهُ لِحَاجَزِهِ رُكْنٌ مِنَ الطَّوْدِ مُنْهَدُ
 لَهُ عَزْمَةٌ مَطْوِيَّةٌ فِي سَكِينَةٍ كَمَا لَانَ مَتْنُ السَّيْفِ وَأَخْشَوْشَنَ الْحَدُ (٣)
 يُوَكِّلُ بِالتَّذْيِيرِ خَاطِرَ فِكْرَةٍ إِنْ أُقْتَدَحَتْ فِي خَاطِرٍ أَنْقَبَ الزُّنْدُ (٤)
 ذِرَاعٌ - لِمَا يَأْتِي بِهِ الدَّهْرُ - وَاسِعٌ وَبَاعٌ - إِلَى مَا يُحْرِزُ الْفَخْرَ - مُتَدُّ
 إِذَا أَسْهَبَ الْمُسُونُ فِيهِ شَأْنُهُمْ (٥) مَرَاتِبُ عُلْيَا كُلِّ عَنْ عَفْوِهَا الْجَهْدُ
 هُوَ الْمَلِكُ الْمَشْفُوعُ بِالنَّسِكِ مُلْكُهُ فَيَا فَضْلَ مَا يَخْفَى وَيَا سِرَّ مَا يَبْدُو (٦)
 إِلَى اللَّهِ أَوَّابٌ ، وَلِلَّهِ خَافٍ

(١) حمد : ندى .

(٢) قريب من هذا قول صنفرة :

« لَا يَحْمِلُ الْحَقْدُ مَنْ تَعَلَّوْا بِهِ الرِّبَّ وَلَا يَنَالُ الْعَلَا مِنْ طَعْمِهِ الرِّضْبُ . »

(٣) في هذا المعنى يقول الشاعر :

« وَكَالسَيْفِ - إِنْ لَا يَنْتَه - لَا يَحْدَهُ وَجِدَاهُ - إِنْ خَاشَنَهُ - حَسَانُ . »

(٤) أنقَبَ الزُّنْدُ : أَوْرَى . (٥) شَأْنُهُمْ : فَاتَهُمْ وَفَضَرُوا فِيهَا عَنْ الدَّيَا .

(٦) يقول هو الملك الذي يجمع إلى سطوة الملك نسك ازرعين فما أدب ما يسره في نفسه وما أنبل وأشرف ما يمله ، بمعنى أن سره وإعلانه غاية في النبل والفضل .

لَقَدْ أَوْسَعَ الْإِسْلَامَ بِالْأَمْسِ حِسْبَةً
أَبَاحَ حَتَّى الْخَمْرِ الْخَبِيثَةِ ، حَاطِطًا
فَطَوَّقَ بِأَسْنَنِهَا الْمَصْرَ مَنَةً
هِيَ الرَّجْسُ إِنْ يَذْهَبُ عَنْهُ فَمُحْسِنٌ
مُظْلِمٌ آثَامٍ ، وَأُمُّ كِبَائِرٍ
رَأَى تَقْصَ مَا يَجْبِيهِ مِنْهَا زِيَادَةً

نَحَتَ غَرَضَ الْأَجْرِ الْجَزِيلِ فَلَمْ تَعُدْ
حَتَّى الدِّينِ مِنْ أَنْ يُسْتَبَاحَ لَهُ حَدُّ
يَكَادُ يُودَى شُكْرُهَا الْحَجَرُ الصَّلْدُ
شَهِيرُ الْأَيْدِي مَا لِأَنَّهُ جَعَدُ
يُقَصِّرُ عَنْ أَذْنَى مَعَايِبِهَا الْعَدُّ
إِذِ الْعَوْضُ الْمَرْضِيُّ إِلَّا يَرْخُ يَغْدُو

عَنِّي ، فَحَسَنَ الظَّنَّ بِاللَّهِ مَالَهُ
نَعِمَ حَدِيثُ الْبَرِّ تُودِعُهُ الصَّبَا
تَغْلُغَلُ فِي سَمْعِ الرَّبَابِ وَطَالَعَتْ
سَاعَ أَجَدَّتْ زِينَةَ الْأَرْضِ ، فَالْخَصَى
لَيْ زَهْرَاتِ الرُّوضِ - عَنْهَا - بِشَارَةً

عَزِيزٌ ، فَصَنَعُ اللَّهِ مِنْ حَوْلِهِ جُنْدُ
تَبَتْ نَقَاهُ حَيْثُ لَا تَوْضِعُ الْبُرْدُ (١)
لَهُ صُورَةٌ لَمْ يَنْعَمْ - عَنْ حُسْنِهَا - الْخُلْدُ
لَا لِي نَثْرٌ ، وَالْتَرَى عَنْبَرٌ وَرْدُ
وَفِي نَفَحَاتِ الْمِسْكِ - مِنْ طِيْبِهَا - وَقْدُ

تَدَيْتُكَ ، إِنِّي قَائِلٌ فَمُرَّضٌ
نَحَى كَالشَّجَا دُونَ اللَّاهَةِ (٢) تَعَرَّضْتُ

بِأَوْطَارِ نَفْسٍ مِنْكَ لَمْ تَقْضِهَا بَعْدُ
فَلَمْ يَكُ الْمَصْدُورِ - مِنْ نَفْسِهَا - بُدُّ

(١) يقول : لعم حديث البر أردعته ريح الصبا فحملته وبنت خبره في الجهات النائية حيث لا توضع البرد
ي حيث لا تعدو خيل البريد إليها ولا تصلها الأخبار لبعدها ، وفي الأصل : « توضع »
(٢) اللاهة : اللعنة المشرقة على الخلق ، أو ما بين منقطع أصل اللسان إلى منقطع القلب من أعلى الفم ،
وجمعها لهوات ولهايات ولهى . قال ابن دريد :

« والناس كالبيت ، فنه رائق غضن نصير هوده من الجسى
ومنه ما تفتحهم العين ، فان سفت جناح لإساع عذبا والهمى . »

أَمْثَلِي غُفْلٌ خَامِلٌ الذِّكْرُ ضَائِعٌ ضَيَّاعَ الْحُسَامِ الْعَضْبِ أَصْدَأُهُ الْغِمْدُ
أَبَى ذَاكَ أَنَّ الدَّهْرَ قَدْ ذَلَّ صَعْبُهُ فَسُنِّي مِنْهُ - بِالَّذِي نَشْتَهِي - الْعَقْدُ ^(١)

أَنَا السَّيْفُ لَا يَنْبُو مَعَ الْهَزِّ غَرْبُهُ إِذَا مَا نَبَا السَّيْفُ الَّذِي تَطْبَعُ الْهِنْدُ
بَدَأَتْ بِنُعْمَى غَضَّةٍ إِنْ تَوَالَهَا فَحَسُنُ الْأَلَى ^(٢) فِي أَنْ يُوَالِيَهَا سَرْدُ
لَعَمْرُكَ مَا الْمَالِ أَسْمَى فَإِنَّمَا يَرَى الْمَالَ أَسْنَى حَفْظُهُ الطَّبِيعُ الْوَعْدُ ^(٣)
وَلَكِنْ لِحَالٍ - إِنْ لَبِثْتُ جَمَاهَا - كَسَوْتُكَ ثَوْبَ النُّصْحِ أَغْلَامُهُ الْحَمْدُ

أَتَلَّكَ الْقَوَافِي شَاهِدَاتٍ بِمَا صَفَا مِنْ الْغَيْبِ فَأَقْبَلَهَا فَمَا غَرَّكَ الشَّهْدُ
لِيَحْظَى وَلِيَّ - سِرُّهُ وَفَقُّ جَهْرِهِ - فَظَاهِرُهُ شُكْرُهُ ، وَبَاطِنُهُ وَدُّ
يُمَيِّزُهُ - يَمْنُ سِوَاهُ - وَفَاوُهُ وَإِخْلَاصُهُ ، إِذْ كُلُّ غَانِيَةٍ هِنْدُ ^(٤)

(١) سنى منه العقد ، أى تيسر الصعب وسهل . قال الشاعر :

« وأعلم علما ليس بالظن أنه إذا الله سنى عقد أمر تيسرا . »

(٢) الألى : النعمة جميعها آلاء .

(٣) الطبع : يقال رجل طبع طبع (بكسر ثانيا) متسدين العرض ذو خلق ذى لا يستحي من

سوءة ، والوعد : الحفيظ الأحق الضعيف العقل والبدن الذى الخسيس النذل .

(٤) كل غانية هند : مثل يضرب هند تساوى القوم فى فساد الباطن .

رثاء أم المعتضد

« قال يرثي السيدة الكبرى والدته . »

أَلَا هَلْ دَرَى الدَّاعِي المُنَوَّبُ - إِذْ دَعَا
وَأَنَّ التُّسْقَى قَدْ آذَنَتْنَا بِفُرْقَةٍ
لِرُزْنِكَ تَهْلِكُ الدُّمُوعُ ، فَمَنْ لَهُ
لَقَدْ أَجْهَشَ الإِخْلَاصُ بِأَلْمَسِ بَاكِيًا
بِنَعْيِكَ - أَنْ الدِّينَ مِنْ بَعْضِ مَا نَعَى ؟
وَأَنَّ الهُدَى قَدْ بَانَ مِنْكَ قَوْدَعًا ؟
- إِذَا حَلَّ - وَدَّ القَلْبُ لَوْ كَانَ مَدْمَعًا
عَلَيْكَ ، كَمَا حَنَّ اليَقِينُ فَرَجْمًا

وَدُنْيَا وَجَدْنَا العَيْشَ فِي غَمَلَاتِهَا
نُعَلِّلُ فِيهَا بِالنِّى فَتَعْرِئُنَا
طَرِيقًا - إِلَى وَرْدِ المَنِيَّةِ - مَهِيَعًا ^(١)
بَوَارِقِ لَيْسَ الآلُ مِنْهَا بِأَخْدَعًا ^(٢)

أَصْبْنَا بِمَا لَوْ أَنَّ هَضْبَ مَتَالِيعِ
مَنَارٍ - مِنَ الإِيمَانِ - لَمْ يَعْدُ أَنْ هَوَى ،
وَشَمْسُ هُدَى أَمْسَى لَهَا التُّرْبُ مَغْرِبًا
أُصِيبَ بِهِ لَأَنْهَدَّ أَوْ لَتَضَعُضَعَا
وَحَبْلٌ - مِنَ التَّقْوَى - وَهَى فَتَقَطَّعَا
وَكَانَ لَهَا المِجْرَابُ - فِي الخِذْرِ - مَطْلَعًا ^(٣)

لَنْ أَتْبَعْتَ مِنَّا غَمَامَةً رَحْمَةً
لَقَدْ ظَلَلَتْ ذَاكَ السَّرِيرَ المُرْفَعَا

(١) الموهب : الطريق الواسع الواضح اليق .

(٢) الآل : السراب ، يقول إن الأمانى تمرنا وتخدعنا كما يخدع السراب . ولله در مهيار إذ يقول :

« شد مامى غرورا نفسه تاجر الآمال فى أن يربحا . »

وقوله : « ربما يقرر بالظن الكدوب . » وفى هذا المعنى يقول ابن نباه السعدي :

« وأقسم ما الدنيا بدار إغاة ولاهى إلا مثل بعض المنازل

نسير إلى الآجال حول وجائها ولطوى بها الأيام طوى المراحل . »

(٣) يقول : أنها شمس أشرقت فى خدرها ثم غربت فى قبرها .

سِرِيرٌ بِأَمْلَاكِ وَزُهْرٍ مَلَانِكِ
لَتَبِكَ الْآيَاتِ وَالْيَتَاكِ فَقِيْدَةً
أَصْلَهُمْ فَقْدَانِهَا ، فَكَأَنَّمَا
مُسَبَّحَةُ الْآنَاءِ ، قَانِتَةُ الضُّحَى
تَبَيَّتْ مَعَ الْإِخْبَاتِ ^(١) مُسْمَرَةَ الْحَشَا
إِذَا مَا هِيَ أَسْتَوْفَتْ مِنَ الْبِرِّ غَايَةَ
كَأَنَّ قَضَاءَ الْوَاجِبَاتِ مُخْرَجٌ
أَصْرَفَ الرَّدَى ! لَوْ أَنَّ لِلْسَيْفِ مَضْرِبًا
فَلَوْ كُنْتُ - إِذْ سَا تَرْتُ - رَامَ مُجَاهِرٍ
إِذَا لَنَنَاهُ الْجَيْشُ مِنْ كُلِّ أَلَيْسٍ ^(٢)
« وَمُعْتَصِدٌ بِاللَّهِ » يَحْمِي ذِمَارَهُ
وَلَكِنْ عَرَزْتُ الْمَلِكَ - مِنْ حَيْثُ لَا يَرَى -
إِلَى جَنَّةِ الْفِرْدَوْسِ - رَاحَ مُشِيْعًا
هِيَ الْمُزْنَ أَحْيَا صَوْبُهُ ثُمَّ أَقْسَعَا
أَصْلَتْ سَوَامُ الْوَحْشِ فِي الْجَذْبِ مَرْتَعَا
ثَوَتْ فَتَوَى مَعْنَى التَّأْوِهِ بَلَقْمَا
تَقِيَّةً مَنْ يَحْشَى إِلَى اللَّهِ مَرْجِعَا
تَأْتَتْ لِأُخْرَى لَا تَرَى تِلْكَ مَقْنَعَا
تَقَبَّلُهُ إِلَّا بِأَنْ تَتَطَوَّعَا ^(٣)
لَمَّا رُعْتَنَا ، أَوْ أَنَّ فِي الْقَوَسِ مَنَزَعَا
ذِمَارَ الْهُدَى كَانَ الْمَحُوطَ الْمُنْعَمَا
يُشَايِعُ قَلْبًا فِي الْحِفَاطِ مُشِيْعًا
فَلَا سِرْبَ يُلْفِي - فِي حِمَاهُ - مُرَوَّعَا
فَلَمْ يَسْتَطِعْ لِلْحَادِثِ الْحَتْمَ مَدْفَعَا ^(٤)

(١) الإخبات : القوي والحشوع والقنوت ، يقول : هي البقية الباقية من النساء الصالحات تبث من خشية الله مصلية داعية مسعرة الحشا خوفاً من لقاء الله ، وفراقاً من هول يوم المرحع والمآب .

(٢) يقول : أنها لحرصها على النظر وعزم النوازل إلى الفرائض كأنها تعنف أن في أداء الفرائض وحدها غير مشفوعة بالخلوع حرجاً وإنما لا يحمل عبادتها متقبلة وعملها مثاباً عليه إلا بأن تتطوع ، نهى لذلك تبث ليلها قائمة متبهجة .

(٣) الأليس : الشجاع الذي لا يبالى الحرب ولا يروعه القتال والجمع ليس ، قال الشاعر :

« نَحَالُ نَدِيمِهِمْ مَرْضَى حَيَاءٍ وَتَلْقَاهُمْ غَدَاةَ الرُّوعِ لَيْسًا . »

(٤) حررت : وطئت وتزلت ، عن غير هدى وعلم وبلا تمييز ، وهو من قول الله عز وجل : « ولولا رجال مؤمنون ، لفساد مؤمنات لم نعلموهم أن تطأوهم فنصيبكم منهم معرة بغير علم . » ، وقال عمر رضي الله عنه : « اللهم إني أعوذ بك من معرة الجيش » تبرأ رضي الله عنه من وطأة جيش المسلمين من سرور به بلا تمييز بين مسلم ومعاهد وكافر وإصابتهم بإيهم في حريمهم وأموالهم وزروعهم بما لم يؤذن لهم فيه . من قبل الشرع . يقول : لو كان صرف الدهر شخصاً يواجه مجاهرة لعجز عن غرضه ولشأن المعتصد الشجاع وجيشه اللاسل ولكن صرف الدهر يأتي على غرة بلا يستطاع أحد أن يواجهه ويدفع عائلكه ، والله در القائل :

يَمِيزُ الْعِتَاقَ الْجُرَدَ أَلَّا تَرَى لَهَا
وَتَأْسَفُ بِيضُ الْهِنْدِ أَنْ لَيْسَ تُنْتَضَى،
وَتَمْنُو فِي الْمَرَايِطِ خُشْعًا
وَتُنْمِرُ الْقَنَا أَلَّا تُهَزَّ وَتُشْرَعًا

* *

لَنْ سَاءَ لَكَ الدَّهْرُ الْمُسِيءُ فَلَمْ يَكُنْ
شَهِدًا : لَقَدْ طَرَزْتَ بُرْدَ جَمَالِهِ
وَمَا فَخْرُهُ إِلَّا بِأَنْ كَانَ مُصْنِعِيَا
أَتَى الْعَثْرَةَ الْمُظْمَى ، فَهَلْ أَنْتَ قَائِلٌ
وَهَاهُوَ مُنْقَادٌ لِحُكْمِكَ ، فَأَحْتَكِمْ
لَعَمْرُ اللَّهِ وَدَعْتَ أَمْسٍ - مُفَارِقًا -
تَمَنَّتْ وَفَاةً - فِي حَيَاتِكَ - بَعْدَ مَا
قَوَّيْتَهَا مَا لَمْ يَدْعُ لِضَمِيرِهَا
خَفَضَتْ جَنَاحَ الذَّلِّ فِي الْعِزِّ رَحْمَةً
تَرُوحُ أَمِيرًا فِي الْبِلَادِ مُحْكَمًا
عَزَاهُ فَدَتْكَ النَّفْسُ ، عَزَمَ مُسَلِّمٌ

بِأَوَّلِ عَهْدٍ وَاجِبِ الْحِفْظِ ضَمِيمًا
وَقَلَّدَتْهُ عِقْدَ الْبَهَاءِ مُرَصَّمًا
لِأَمْرِكَ ، إِنْ نَادَيْتَ لِي فَأُشْرَعًا
لَهُ حِينَ أَشْفَى مِنْ كَأَبْتِهِ : « أَلَمَّا » (١)
لِتَبْلُغَ مَا تَهْوَى ، وَمُرُهُ لِيَصْنَدًا
لَقَدْ وَرَدَتْ حَوْضَ السَّعَادَةِ مَشْرَعًا (٢)
حَشَدَتْ لَهَا الْأَمَالَ : مَرَأًى ، وَتَسْمَعًا
إِلَى غَايَةِ مِنْ بَعْدِهِ مُتَطَلِّمًا
لَهَا ، وَعَزِيزٌ أَنْ تَذِلَّ وَتَخْضَعًا (٣)
وَتَعْدُو شَفِيمًا فِي الذُّنُوبِ مُشَفَّعًا
لِمَوْقِعِ أَمْرِ لَمْ يَزَلْ مُتَوَقِّعًا

« اليوم بيني لدويد بينه يارب وجه حسن رأيتُه

ومعصم - ذى برة - لويته لو كان للدمر بلى أبليته

أو كان قرنى واحدا كفيته . »

(١) أشى : من قولهم أشى على الهلاك وأشفى على الموت إذا أشرف عليه ، والكأبة : الحزن ،
ولما : كلمة تقال للعائر وهي فى الانبات دعاء له ، وإذا قيل : لا أَلَمَّا للعائر ، فعناه لا أقال الله عثرته ،
يقول : لقد أساء إليك الدمر فى هذا الخراب فهل أنت صانع عنه ومقبله من عثرته .

(٢) المشرع : كالمشرمة والفريضة المكان الذى ينحدر منه الاسباب والدواب إلى الماء لوروده .

(٣) يشير إلى قوله تعالى فى بر الوالدين :

« واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صنيعا »

مَتَى ظَنَنْتِ الْأَيَّامُ أَنَّكَ جَارِعٌ
فَمَا أَرْبَدَ وَجْهُ الْخَطْبِ إِلَّا لَقِيَّتَهُ
وَمَا كُنْتَ أَهْلًا أَنْ يُصِيبَكَ حَدِثٌ
فَلَوْلَاكَ لَمْ يَسْمَعْ مِنَ الدَّهْرِ جَانِبٌ
فَأَنْتَ الَّذِي لَمْ يَنْتَقِمِ غِبٌّ قُدْرَةً
مَتَى تُسَدِّ نَعْمَى - قِيلَ أَنْعَمَ مِثْلُهَا -
وَإِنْ يَسْلِ الْمَافُونَ جَذْوَاكَ يُعْطِيهِمْ
وَيُغْرِى بِتَوْكِيدِ الْإِسَاءَةِ مُذْنِبٌ
خَلَائِقُ مُمَهَّاةُ الْفَرِيدِ كَأَنَّهَا
تُنَافِحُهَا مِنْهَا أَحَادِيثُ سُودِدِ
تَغْلُغُلُ فِي الْآفَاقِ أُسْرَى مِنَ الصَّبَا
فَلَوْ صَرَفْتَ صَرْفَ الْمَنُونِ جَلَالَةً
فَلَا زِلْتَ بِمَنْزُوعِ الْحِمَى مُسْتَعْفَى الْمُنَى
وَدُمْتَ مُلْكِي أَنْجُمِ السَّعْدِ بَاقِيَا

أَوْ اسْتَشْعَرْتَ فِي قَلِّ صَبْرِكَ مَطْمَعَا
بِصَفْحَةٍ طَلَّقِ الْوَجْهَ أَبْلَجَ أَرْوَعَا
فَتُصْبِحُ عَنْهُ مُقْصَدَ الْقَلْبِ مُوجَعَا
وَلَا أَهْتَزُّ أَعْطَافَا، وَلَا لَانَ أَخْذَعَا
وَلَمْ يُؤْثِرِ الْمَعْرُوفِ إِلَّا لِيَشْفَعَا
يُقَلِّ جَلَلٌ حَتَّى إِذَا قِيلَ أَبْدَعَا (١)
جَوَادٌ إِذَا لَمْ يَسْأَلُوهُ تَبَرَّعَا
فَيَلْقَاكَ بِالْإِحْسَانِ أَغْرَى وَأَوَامَا (٢)
حَدَائِقُ رَوْضِ الْحَزَنِ جِيدَ فَأَيْنَعَا
تَخَالُ فَتَيْتَ الْمِسْكِ عَنْهَا تَضَوَّعَا
وَأَشْهَرَ مِنْ شَمْسِ النَّهَارِ وَأَسْرَعَا
لَكُنْتَ مُحْيَا مِنْ تَوَدُّ مُمْتَعَا
إِذَا كَانَ شَانِيكَ الْمَصَابِ الْمُفْجَعَا (٣)
لِدَيْنٍ وَدُنْيَا أَنْتَ فَخْرُهُمَا مَعَا

(١) يقول كلما أسديت جيلا فال الناس : كم لهذا الجميل من أشباه ونظائر فهو - على غظه - نابه عندهم لكثرة ما ألفوه من صنائك ، ولو أبدعت لم يسترع انظارهم لإبداعك لطول ما ألفوا من روائك وبدائك .
(٢) يقول : ان المسمى يطعمه تفورك عن زلته فهو إذا أولع بتوكيد إساءته وجذك أشد ولو ط بتوكيد إحسانك ودفورك عنه . (٣) يقول : لا زال الزمن يمر من حاك ويسمفك بأمايك على حين يصيب عدوك ويفجعه فيها يجب .

قل للبغاة

« وقال ذو الوزارتين رحمه الله »

الْدَّهْرُ - إِنْ أَمَلَى - فَصَبِيحُ الْعَجْمِ يُعْطَى أَعْتَبَارِي مَا جَهِلْتُ فَأَعْلَمُ ^(١)
 إِنْ الَّذِي قَدَّرَ الْحَوَادِثَ قَدَّرَهَا سَاوَى لَدَيْهِ الشَّهْدَ مِنْهَا الْعَلَمُ ^(٢)
 وَلَقَدْ نَظَرْتُ فَلَا أُغْتَرَابُ يَفْتَضِي كَدَّرَ الْمَالِ وَلَا تَوَقَّ يَعْصِمُ
 كَمْ قَاعِدٍ يَحْظِي فَتُعْجِبُ حَالُهُ مِنْ جَاهِدٍ يَصِلُ الشُّوْبَ فَيُحْرَمُ
 وَأَرَى الْمَسَاعِي كَالسُّيُوفِ تَبَادَرَتْ شَأَوُ الْمَضَاءِ فَتُنْشِئُ وَمُصَمَّمُ
 وَلَكُمْ تَسَاعَى بِالرَّفِيعِ نِصَابُهُ خَطَرُهُ فَنَاصِبُهُ الْوَضِيعُ الْأَلَامُ ^(٣)
 وَأَشَدُّ فَاجِعَةً الدَّوَاهِي مُحْسِنُ يَسْمَى لِئُعْلِقَهُ الْجَرِيمَةُ مُجْرِمُ ^(٤)
 تَلْقَى الْحَسُودَ أَصَمَّ عَنْ جَرَسِ الْوَفَا وَلَقَدْ يُصْبِحُ - إِلَى الرُّقَاةِ - الْأَرْقَمُ ^(٥)

قُلْ لِلْبَغَاةِ الْمُنْبِضِينَ قِسِيَهُمْ سَتَرُونَ مِنْ تَصْنِيهِ تِلْكَ الْأَسْهُمُ
 أَسْرَزْتُمْ فَرَأَى نَجِيَّ عِيُوبِكُمْ شَيْعَانُ مَذْلُولٌ عَلَيْهَا مُلْهُمُ

- (١) يقول إن الدهر إن أملى بلسان الحوادث الفصيح الأعجم يكسب اعتباري وقباصي الحوادث والمربعضها ببعض علم ما جهلت . (٢) إن الذي فاس الحوادث بمقياس صحيح استوى لديه حلول الحيات ومرها . (٣) وكثيرا ما يتساعى بالذي ارتفع منصبه خطره وشرفه فيناصه العناء وينبع لثيم حسدا منه ودنيا . (٤) وأشد ما ينزع الانسان من الدواهي محسن يسمى مجرم ليلصق به إساءة وجريمة . (٥) يصيح مضارع أصاخ له استمع ، والرقاة جمع راق من الرقية وهي ما ينفث فيه من العوذ ، والأرقم ذكر الحيات وهو أخشها وأظلمها للناس ، أو هو ما به يباين وسواد ، يقول : إن الحسود أصم عن سماع صوت الوفاء في حين أن الأرقم وهو أخبث الحيات وأشد ما عداوة للناس يصيح بسامعه للراق الذي يتلو وينفث في العوذ ، وفي الأصل « ولقد يصيح إلى الرقاة الأرقم » .

وَعَبَّائِهِمْ لِلْفِسْقِ ظُفْرَ سِمَايَةٍ لَمْ يَعْنِدْكُمْ أَنْ رُدَّ وَهُوَ مُقَلَّمٌ
وَنَبَذْتُمْ التَّقْوَى وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ فَقَدْ بَغَيْضَكُمْ التَّقِي الْأَكْرَمُ
مَا كَانَ حِلْمٌ « مُحَمَّدٍ » لِيُحْيِلَهُ عَنْ عَهْدِهِ دَغِلُ الضَّمِيرِ ^(١) مُدَمَّمٌ
مَلِكٌ تَطَلَّعَ لِلنَّوَاطِرِ غُرَّةً زَهْرَاءُ يُبْدِيهَا الرِّمَانُ الْأَدْهَمُ
يَغْشَى النَّوَاطِرَ مِنْ جَهْرِ رُؤَايِهِ خَلَقَ - يُرَى مِلَّ الصَّدُورِ - مُطَهَّمٌ ^(٢)
وَسَنَا جَبِينٍ يَسْتَطِيرُ شُعَاعُهُ يُغْنِي - عَنِ الْقَمَرَيْنِ - مَنْ يَتَوَسَّمُ ^(٣)
صَلَتْ تَوَدُّ الشَّمْسُ لَوْ صِغَتْ لَهُ تَاجًا تُرْصَعُ جَانِبَيْهِ الْأَنْجُمُ ^(٤)
فَضَحَتْ مَحَاسِنُهُ الرِّيَاضَ بَكِي الْحَيَا - وَهَنَا عَلَيْنَا - فَأَغْتَدَتْ تَبَسُّمُ
بِالْقَدْرِ يَبْعُدُ وَالتَّوَاضُّعَ يَدِّنُ وَالشَّرَّ يَشْمُسُ وَالنَّدَى يَتَغَيَّمُ ^(٥)
جَذْلَانُ - فِي يَوْمِ الْوَغَى - مُتَطَلِّقُ وَجْهًا إِلَيْهَا وَالرَّدَى مُتَجَهِّمُ ^(٦)
بَاسٌ - كَمَا صَالَ الْهَزْبُ - إِزَاءَهُ جُودٌ كَمَا جَاشَ الْخِصْمُ الْخِضْرُمُ ^(٧)

- (١) بصيره حقد مكتم . (٢) الرواء : الحسن ، وخلق مطهم : تام بارع الجمال .
(٣) يستطير : ينتشر ، من القمرين : الشمس والقمر ، والذى أجاز الثنية مع اختلاف لفظ المررد
العليب كما هو معروف في كتب النحو ، ويتوسم : ينظر إلى وسامة ذلك الجبين المضيء وحسنه .
(٤) الصلت : صفة الجبين ومعناه الواضح البارز المستوى ، أى تود الشمس لوأنها صبت تاجاً مرصعاً
بلاّلى النجوم ، ووضع فوق جبين الممدوح : (٥) فى الأصل :
« بالقدر يبعد والتواضع يدنى » والبشر شمس والندى يتغيم .
والذى أثبتناه هنا هو ما عطيه المعنى .
(٦) يقول : أنه يرى يوم الحرب جذلان فرحا طلق الوجهه باشاً إلى الحرب والردى متجهيم عايس
الوجه كرية النظر ، وفى الأصل : « والروا متجهيم »
(٧) البحر العظمطم العظيم .

❖

نَفْسِي فِدَاؤُكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ الَّذِي
سَدَدْتَ الْجَمِيعَ فَلَيْسَ مِنْهُمْ مُنْكَرٌ
لَا غَرْوٌ أَمْ الْمَجْدُ - فِي بَكْرِ الْحِجَابِ
فَاحْشِمِ دَوَاعِيَ كُلِّ شَرٍّ دُونَهُ
كَمْ سَقَطَ زِينٌ قَدْ نَمَّا حَتَّى غَدَا
وَكَذَلِكَ السَّيْلُ الْجَحَافُ فَإِنَّمَا
وَالْمَالُ يُخْرِجُ أَهْلَهُ عَنْ حَدِّهِمْ
وَإِذَا كَرِهَ صَنِيعَ أَيْكَ أَوَّلَ أَمْرِهِ
لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ مَنْ تَوَقَّعَ شَرَّهُ
فَعَلَامَ تَنْكُلُ عَنْ صَنِيعِ مِثْلِهِ
وَجَنَابُكَ الثَّبَتُ الَّذِي لَا يَنْتَدِي
وَالْحَالُ أَوْسَعُ وَالْمَوَالِي جَمَّةٌ

❖

لَا تَتْرُكَنَّ لِلنَّاسِ مَوْضِعَ شُبُهَةٍ
قَدْ قَالَ شَاعِرٌ كِنْدَقٍ فِيمَا مَضَى
وَأَحْزَمُ ، فِثْلُكَ فِي الْعِظَامِ أَحْزَمُ
يَبْتَغَى عَلَى مَرِّ اللَّيَالِي يُعْلَمُ :

(١) الذي لا يكون له توهم ونظير من الملوك .

(٢) لا غرو فان أم المجد عقيم في بكرها الموسوم بالحجاب والعقل قد يثبت من أن تضيف إليه صنوا .

(٣) الجحاف : كغراب الذي يذهب بكل شيء .

(٤) الصريعة : العزيمة وأصرم أى أقطع ، وفي الأصل : « والصريعة ضيق » .

« لَا يَسْلَمُ الشَّرَفُ الرَّفِيعُ مِنَ الْأَذَى حَتَّى يُرَاقَ عَلَى جَوَانِبِهِ الدَّمُ ^(١) »

* * *

فِرْقٌ عَوَتْ ، فَزَارَتْ زَارَةً زَاجِرٍ	رَاعَ الْكُلَيْبَ بِهَا السَّبْتَى الضَّيْفَمُ ^(٢)
يَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ يَعُودُ سَفِيهِمُ	أَمْ قَدْ سَمَاهُ النَّبُحُ ذَاكَ الْمَكَمُ ؟
لِي مِنْكَ فَلْيَذْبِ الْحَسُودُ تَلْظِيًا	لُطْفُ الْمَكَانَةِ وَالْمَحَلِّ الْأَكْرَمُ
وَشَفُوفٌ حَظٌّ لَيْسَ يَفْتَأُ يُجْتَلَى	غَضَّ الشَّبَابِ وَكُلُّ حَظٍّ يَهْرَمُ
لَمْ تُلَفْ صَاغِبَتِي ^(٣) لَدَيْكَ مُضَاعَةً	كَلًّا وَلَا خَفِيَّ أَصْطِنَاعِي الْأَقْدَمُ
بَلْ أَوْسَعْتَ حِفْظًا وَصِدْقَ رِعَايَةٍ	ذِمَمٌ مُوَهَّغَةُ الْعُرَا لَا تُفْصَمُ
فَلْيَخْرِقَنَّ الْأَرْضَ شُكْرٌ مُنْجِدٌ	مِنِّي تَنَاقُلُهُ الْمَحَافِلُ مُتَهِمُ
عَطِرٌ - هُوَ الْمِسْكُ السَّطُوعُ - يَطِيبُ فِي	شَمِّ الْمَقُولِ أَرِيحُهُ الْمُتَنَسِّمُ
وَإِذَا غُصُونُ الْمَكْرُمَاتِ تَهَدَّلَتْ	كَانَ الشَّاءُ هَدِيلَهَا الْمَتَرَمُّ
الْفَخْرُ تَغَرُّ - عَنْ حِفَاظِكَ - بِاسِمٍ	وَالْمَجْدُ بُرْدٌ - مِنْ وَفَائِكَ - مُعْلَمُ
فَأَسْلَمَ مَدَى الدُّنْيَا فَأَنْتَ جَمَالُهَا	وَتَسْوَعُ النُّعْمَى فَإِنَّكَ مُنْعِمُ

(١) هذا البيت للمثنى وقد انتبسه ابن زيدون في هذه النصيدة .

(٢) الضيفم والضيف من أسماء الأسد .

(٣) صاغية الرجل خاصته : الذين يشون مجلسه .

ذكرى قرطبة

سَقَى اللهُ أَطْلَالَ الْأَحِبَّةِ بِالْحَمَى
وَحَاكَ عَلَيْهَا ثَوْبَ وَشِي مُنَمَّمَا
وَأَطْلَعَ فِيهَا لِلْأَزَاهِيرِ أَنْجُمَا
فَكَمْ رَفَلَتْ فِيهَا الْخَرَائِدُ كَالْدُمَى^(١) إِذِ الْعَيْشُ غَضٌّ وَالزَّمَانُ غُلَامٌ

أَهْمِ بِجَبَّارٍ يَمِزُّ وَأَخْضَعُ^(٢)
شَدَا الْمِسْكِ - مِنْ أَرْذَانِهِ - يَتَضَوَّعُ
إِذَا جِئْتُ - أَشْكُوهُ الْجَوَى - أَيْسَ يَسْمَعُ
فَا أَنَا - فِي شَيْءٍ مِنَ الْوَصْلِ - أَطْمَعُ وَلَا أَنْ يَزُورَ الْمُقْلَتَيْنِ مَنَامُ

قَضِيبٌ - مِنَ الرَّيْحَانِ - أَمَّزَ بِالْبَدْرِ
لَوَاحِظُ عَيْنَيْهِ مُلَائِنٌ مِنَ السَّحَرِ
وَدِيْبَا جُ خَدَّيْهِ حَكَى رَوْنَقَ الْخَمْرِ
وَأَلْفَاظُهُ - فِي النُّطْقِ - كَاللَّوْلُؤِ النَّثْرِ وَرَيْقَتُهُ - فِي الْأَرْتِشَافِ - مُدَامُ

(١) رطل : حر ذيله وتحت ، قال الشاعر : « يرملن في سرق الحرير وفرء » الخرائد - جمع خريدة - وهي المرأة الحية ، وهي أيضاً الأواؤة التي لم تنقب ، فالوا : وكل عذراء خريدة ، والدمى - جمع دمية - وهي الصورة المقلدة المزيّنة فيها حرة كالدّم ، وقيل : هي من الرّحام ، وقيل : هي من العاج ، وهي تقرب مثلاً في الحسن ، يقال « أحسن من الدمية »

(٢) قال الشريف :

« لو حيث يستمع السرار وقفنا ، لعجبنا من عرء وخفوى . »

سَقَى جَنَبَاتِ الْقَصْرِ صَوْبُ النَّمَامِ -
وَعَفَى عَلَى الْأَغْصَانِ وَرَقُ الْحَمَامِ -
« بِقُرْطُبَةٍ » الْفَرَاءُ دَارِ الْأَكَارِمِ -
بِلَادُهَا شَقَى الشَّبَابُ تَمَامِي ^(١) وَأُنْجِبَنِي قَوْمٌ - هُنَاكَ - كِرَامُ

فَكَمَ لِي فِيهَا مِنْ مَسَاءٍ وَإِصْبَاحِ -
بِكُلِّ غَزَالٍ مُشْرِقِ الْوَجْهِ وَضَّاحِ -
يُقَدِّمُ ^(٢) أَفْوَاهَ الْكُؤُسِ بِتُفَّاحِ -
إِذَا طَلَعْتَ فِي رَاحِيهِ أَنْجُمُ الرَّاحِ - فَإِنَّا - لِإِعْظَامِ الْمَدَامِ - قِيَامُ

وَيَوْمَ لَدَى « النَّبِيِّ » فِي شَاطِئِ النَّهْرِ -
تُدَارُ عَلَيْنَا الرَّاحُ فِي فِتْيَةِ زُهْرٍ ^(٣) -
وَلَيْسَ لَنَا فَرْشٌ سِوَى يَانِعِ الزَّهْرِ -
يَدُورُ بِهَا عَذْبُ اللَّمَأِ أَهْيَفُ الْخَصْرِ - بِفِيهِ - مِنَ النَّغْرِ الشَّيْبِ - نِظَامُ ^(٤)

(١) التمام - جمع تميمه - وهي عوذة تعلق على الأطفال بحافة العين ، ومنه قول الغائل : « من علق تيممة فلا أثم الله له » وقول الشاعر :

« وإذا النية أنشبت أطفارها ألقيت كل تيممة لا تنفع . »

(٢) قدم فم الآنية وأقدمها جعل عليها القدم أى الفطاء .

(٣) زهر : معمر في الوحوه ، وقريب من هذا - في باب الخريبات - قول أبي نواس :

« ودار ندأى عطلوها وأدجلوا بها أثر منهم جى ودارس

مساحب من حر الزقاق على الترى وأصغنا ريمان حنى دياس

حبست بها صهي بقدت عدهم وانى على أمثال تلك الحابس

ولم أدر منهم فسير ما شهدت به - بشرق ساباط - الديار البساس

أقا بها يوما ويوما ومثلنا ويوما له يوم الترحل خامس

تدار علينا الراح في عسجدية حتمنا بأنواع التصاير فارس

فرارنا كسرى وفي جنباتها مها تدريها بالقصى الفوارس

فلاخمر ما زرت عليه جيوبها وللماء ما دارت عليه القلائس »

(٤) الشيب - من الشب - وهو رقة أو هو عذوبة في الأسنان ، وقيل فقط بيض فيها .

وَيَوْمَ « بِجُوفِي الرُّصَافَةِ » مُبْهِجٍ
مَرَرْنَا بِرَوْضِ الْأَفْحْوَانِ الْمُدْبِجِ
وَقَابَلْنَا فِيهِ نَسِيمُ الْبَنْفَسِجِ
وَلَا حَ لَنَا وَرَدٌ^(١) كَخَدِّ مُضَرَّجٍ تَرَاهُ أَمَامَ النُّورِ وَهُوَ إِمَامُ

وَأَكْرَمُ بَأْيَامِ « الْعُقَابِ » السَّوَالِفِ^(٢)
وَلَهُوَ أَثَرُ نَاهِ بَتْلِكَ الْمَعَاطِفِ
بِسُودِ أَثِيثِ الشَّعْرِ بِيضِ السَّوَالِفِ
إِذَا رَفَلُوا فِي وَشْيِ تِلْكَ الْمَطَارِفِ^(٣) فَلَيْسَ - عَلَى خَلْعِ الْعِذَارِ - مَلَامُ

وَكَمْ مَشْهَدٍ عِنْدَ « الْعَقِيقِ » وَجْسِرِهِ
قَعَدْنَا عَلَى حُمْرِ النَّبَاتِ وَصُفْرِهِ
وَوَظَنِي يُسْقِينَا سُلَافَةَ خُمْرِهِ
حَكِي جَسَدِي فِي السَّقَمِ - رِقَّةَ خَضْرِهِ لَوَاحِظُهُ - عِنْدَ الرُّثُوءِ - سِهَامُ

فَقُلْ لِرِزْمَائِ قَدْ تَوَلَّى نَعِيمُهُ
وَرَثْتُ - عَلَى مَرِّ اللَّيَالِي - رُسُومُهُ
وَكَمْ رَقٍّ فِيهِ - بِالْعَشِيِّ - نَسِيمُهُ
وَلَا حَتَّ لِسَارِي اللَّيْلِ فِيهِ نُجُومُهُ : « عَلَيْكَ مِنَ الصَّبِّ الْمَشُوقِ سَلَامٌ »

(١) في الأصل : « نجد »

(٢) السوَالِف - جمع سَالَفَة - وهي صفحة العنق ، وقيل : ناحية مقدمة من لدن معاني القُرط إلى الترقوة . وقد تقدم في ص (٥٤) وما يليها شرح أمكنة ومعاهد بقرطة منها (جوف الرصافة) و (العقاب) فارجع إليها إن شئت . (٣) المطارف - جمع مطرف - وهو رداء من خز مربع ذو أعلام .

وَمَا سَاءَ ظَنِّي فِي أَنْ يُسِيءَ بِي الْفِعْلَ حُسْنُكَ حَتَّى فَعَلَ
عَلَى حِينٍ أَصْبَحْتَ حَسْبَ الضَّمِيرِ وَلَمْ تَبْغِ مِنْكَ الْأَمَانِي بَدَلْ
وَصَانَكَ مِنِّي وَفِيَّ أَبِي لِعَلِّي الْعَلَاقَةَ أَنْ يُتَذَلَّ

سَمِعْتَ لِتَكْدِيرِ عَهْدٍ صَفَا ، وَحَاوَلْتَ نَقْصَ وَدَادِ كَمَلْ
فَمَا عُوْفِيَتْ مِقَّتِي ^(١) مِنْ أَدَى وَلَا أُعْفِيَتْ ثِقَتِي مِنْ خَجَلْ
وَمَهْمَا هَزَزْتُ إِلَيْكَ الْعِتَا بَ ظَاهَرَتْ بَيْنَ ضُرُوبِ الْعِلَلِ
كَأَنَّكَ نَظَرْتَ أَهْلَ الْكَلَامِ وَأَوْتَيْتَ فَهْمًا بِعِلْمِ الْجَدَلِ
وَلَوْ شِئْتَ رَاجَعْتَ حُرَّ الْفَعَالِ وَعُدْتَ لَتِلْكَ السَّجَايَا الْأُولِ
فَلَمْ يَكْ حَظِّي مِنْكَ الْأَخْسَ وَلَا عُدَّ سَهْمِي فِيكَ الْأَقْلَ

عَلَيْكَ السَّلَامُ سَلَامَ الْوَدَاعِ وَدَاعَ هَوَى مَاتَ قَبْلَ الْأَجَلِ
وَمَا بِاخْتِيَارٍ تَسَلَّيْتُ عَنْكَ ، وَلَسَكِنِّي : مُكْرَهُ لَا بَطْلَ ^(٢)
وَلَمْ يَذَرِ قَلْبِي كَيْفَ النَّزُوعُ إِلَى أَنْ رَأَى سِيرَةً فَاُمْتَثَلَ
وَلَيْتَ الَّذِي قَادَ عَفْوًا إِلَيْكَ أَبِي الْهَوَى فِي عِبَانِ الْغَزَلِ
يُحِيلُ عَذُوبَةَ ذَاكَ اللَّمَّا وَيَشْنِي مِنَ السُّقْمِ تِلْكَ الْمُقْلَ .

(١) مَفَّتِي : حَمِي .

(٢) يَقُولُ : لَأَنْتِي مَرْغَمٌ عَلَى السَّلْوِ وَلَيْسَ لِي فِيهِ اخْتِيَارٌ وَفِي الْمَثَلِ « مُكْرَهُ أَخُوكَ لَا بَطْلَ » يَضْرِبُ لِمَنْ يَحْدِلُ عَلَى مَا لَيْسَ مِنْ شَأْنِهِ ، وَلَا هُوَ دَاخِلٌ فِي حُدُودِ اسْتِطَاعَتِهِ .

في مدح المعتضد

« وقال أيضا يمدح المعتضد بالله المنصور بفضل

الله أبا عمرو عباد بن محمد بن عباد . »

لِلْحُبِّ - فِي تِلْكَ الْقِيَابِ - مَرَادُ^(١) لَوْ سَاعَفَ الْكَلِيفَ الْمَشُوقَ مُرَادُ
لِيَغُرَّ هَوَاكَ فَقَدْ أَجَدَّ حِمَايَةَ^(٢) لِفَتْكَاهِ نَجْدٍ فِتْيَةٍ أَنْجَادُ^(٣)
كَمْ ذَا التَّجَلُّدُ؟ أَلَنْ يُسَاعِفَكَ الْهُوَى بِالْوَصْلِ إِلَّا أَنْ يَطُولَ نِجَادُ^(٤)
أَعْقِيلَةَ السَّرْبِ ! الْمُبَاحُ لَوْرِدِهَا صَفْوُ الْهُوَى إِذْ حُلِيَ الْوَرَادُ^(٥)
مَا الْمَصَايِدِ لَمْ تَنْلِكَ بِحِمْلَةٍ؟ إِنَّ الظَّبَاءَ أَتَدْرِي^(٦) فَتُصَادُ
إِنْ يَعْدُ عَنْ سَمَرَاتٍ جِزْعِكَ سَامِرُ^(٧) فِي كُلِّ مُطْلَعٍ لَهُمْ إِرْعَادُ^(٨)

(١) مكان ارتياد . (٢) ليغر : لينحدر إلى النور ، والانجاء : جمع نجيد وهو الشجاع ذو النجدة والبأس . (٣) يقول : ما هذا النجلد والصبر / لأنه لن يسعك الهوى بالوصل ما لم تكن شجاعا طويل النجاد بحيث يبابك الأعداء ، وتستطيع زيارة هذه الحبيبة في حي دوما رغم رثيم ووعيدهم . (٤) العقيلة : الكريمة من النساء المخدرة ، وحلي الوراد : منعوا من ورود الهوى صفوا ، أى يا عقيلة بين سرب من النساء مباح لها ورد الهوى صافيا ممنوع غيرها من ورده ، وجواب الداء في البيت بعده . (٥) المصايد : بلا همز جمع مصيده كعبشه ومعايش ، وتدرى : تفعل من ادري الصائد الصيد إذا ختل واحتال له ليصيده ، قال الشاعر :

« وماذا يدري الشعراء مني وقد جاوزت حدَّ الأربعين . »

وقال أبو نواس في وصف كأس :

« قرارتها « كسرى » وفي جنباتها مها تدور بها - بالقي - الفوارس . »

(٦) سمرة : جمع سمرة (بفتح فضم) ضرب من الشجر . قال امرؤ القيس :

« كأنني غداة البين - يوم ترحلوا - لدى سمرة الحى ناف حنظل . »

وجزحك : أراد به جزع الوادي أى منقطعه الذي يقطعه عرضا إذا أراد زيارتها ، والسامر : مجلس السمر يقول : إن يعدني ويمعني عن سمرة جزع واديك سمار من قومك لهم في كل ثنية ومطلع لإرصاد وإبراق وزجر وتخويف ، وجواب الشرط في البيت بعده .

فَبِمَا تَرَقَّرَقَ الْمُتَسِيمُ بَيْنَهَا غَلَلٌ شَفَى حَرَّ الْغَلِيلِ بُرَادُ^(١)
 أَنَا حِينَ أَطْرُقُ لَيْسَ يَفْتَأُ طَارِقِي شَوْقٌ كَمَا طَرَقَ السَّلِيمَ عِدَادُ^(٢)
 يَتَهَيَّ جَفَاؤُكَ عَنْ زِيَارَتِي الْكَرَى كَيْلًا يَزُورُ خِيَالُكَ الْمُعْتَادُ
 لَا تَقْطَعِي صِلَةَ الْخِيَالِ تَجَنُّبًا إِذْ فِيهِ مِنْ عَوَزِ الْوِصَالِ سِدَادُ^(٣)
 مَا ضَرَّ أَنَّكَ بِالسَّلَامِ ضَفِينَةٌ أَيَّامَ طَيْفِكَ بِالْعِنَاقِ جَوَادُ
 هَلَّا سَمَحْتَ الشَّقَمَ عَنْ جِسْمٍ لَهُ فِي كِلَةِ زُرَّتْ عَلَيْكَ فُؤَادُ
 أَوْعَدْتَ مِنْ سَقَمِ الْهَوَى، إِنْ الْهَوَى مِمَّا يُطِيلُ ضَنْيَ الْفَتَى فَيُعَادُ
 إِلَيْهَا ! فَلَوْلَا أَنْ أُرْوَعَكَ بِالشَّرَى لَدَنَا وَسَادُ أَوْ لَطَالِ سِوَادُ^(٤)

(١) ترقرق : تحرك وجاء وذهب كما يرى في ترقرق السراب والماء ودرند السيف ، والصغير في « بينها »
 حائد نلى السمرات ، والغلل : الماء الذي يتدل بين الشجر ، والغليل : العطش ، والبراد : البارد ، يقول :
 إن يمنعني قومك من الوصول إليك فبمسبل الوادي الذي يتغلل ماؤه بين سمرات الحمى ما يشفى غليلي ويبرد
 غلتي ، يريد أن الوصول إلى هذا المكان يدلي^٢ حرارة الشوق عنده ، وقد ورد هذا البيت والذي قبله في
 الأصل على هذه الصورة :

« إن يمدعن ثمرات جردك ساسر في كلّ مطلع لهم إرهاد

فبما ترقرق للمتسيم بينها غلل نوى جر الدليل براد . »

(٢) السليم : اللدوغ ، وعداد السليم : احتياج الوجع عنده ، وذلك إذا تمت له سنة من يوم لدغ حاج
 به الألم ، أو عداؤه أن تمت له سبعة أيام فإن مدت رجوا له البرء ، يقول : أنا حين أطرق برأسي مفكرا
 يطرقني من ألم الشوق ما يطرق اللدغ حاج به الألم المعاد .

(٣) سداد : بالكسر هو كل شيء سدّد به خلا ، ومنه سداد القارورة وهو حياؤها الذي يسدّ به
 رأسها ، ويقال : سداد من عوز وسداد من عيش وهو ما تسد به الحاجة .

(٤) الوساد : الخدة والسواد : السرار مصدر ساودها مساودة وسوادا أى سارها مسارة وسرارا فأدنى
 سواده من سوادها ، وقيل لابنة الحس : « لم زينت وأنت سيدة قومك » ؟ فقالت : « قرب الوساد ،
 وطول السواد . » وأرادت بطول السواد كثرة المسارة عند النوم لأن المسارة يلزمها قرب السواد من السواد ،
 أى دنوّ شخصها من شخصه ، وهو مثل يضرب الأمر يلقى صاحبه فيما يكره .

لَعَشِيتُ سَجْفَكَ فِي مُلَاءَةٍ ثَرَّةٍ
لَأَمِيلَ فِي سُكْرِ اللَّهْمَا فَيَّيْتُ لِي
فَعْدَى الْمُنَى، فَوَعِيدُ قَرْنِكَ لَمْ يَكُنْ
فُضِّلَ سِرْوَى أَنَّ الْعِطَافَ نِجَادُ (١)
— مِمَّا حَوَى ذَلِكَ السَّوَارُ — وَسَادُ
لِيَعُوقَ عَنْ أَنْ يُقْتَضَى الْمِيْعَادُ

أَصْبُو إِلَى وَرْدِ الْخُدُودِ إِذَا عَدَتْ
وَأَرَاخُ لِلْعِطْرِ السَّطُوعِ أَرْيَحُهُ
عَزَمُ إِذَا قَصَدَ الْحِمَى لَمْ يَثْنِهِ
مَنْ كَانَ يَجْهَلُ مَا الْبَلِيدُ، فَإِنَّهُ
وَفَتَى الشَّهَامَةِ مَنْ — إِذَا أَمَلُ سَمَا —
جُرْدُ — تُبْلَغُنِي جَنَاهُ — وَرَادُ
إِنْ شَيْبَ بِالْجَسَدِ الْعَطِيرِ جَسَادُ (٢)
أَنَّ الْقَنَا — مِنْ دُونِهَا — أَقْصَادُ (٣)
مَنْ تَطْبِيهِ — عَنِ الْخُطُوطِ — بِلَادُ (٤)
نَفَذْتُ بِهِ سُورَى أَوْ اسْتَبْدَادُ (٥)

مَنْ مُبْلَغٌ عَنِ الْأَحْبَةِ إِذَا بَتَ
لَا يَأْسَ ، رَبِّ دُنُو دَارِ جَامِعِ
ذِكْرَاهُمْ أَنْ يَطْمئنَّ مِهَادُ
لِلشَّمْلِ قَدْ أَدَّى إِلَيْهِ بَعَادُ (٦)

(١) السجف : الستر ، قالوا : أو هو الستران المقرونان بينهما فرجة ، أو هو كل باب ستر بسترين مقرونين ، فكل شق سجف وسجاف ، ويقال : اسجف الستر أى أرسله ، والملاءة : الربطة ، والثرّة : الدرع المسلحة للملبس أو الواسعة ، واغفل — كالفطلة — : الثياب التي تبتذل للنوم ، ونوب فضل أى واحد أو هو أن يخالف بين طرفيه فيجعلهما على طاقه ويتوشع به ، والنجاد : حائل السيف وضعها على طاقه فكانت بدل العطف ، يقول : لعشيت سجفك ، ودخلت عليك سترك في درع واسعة كالملاءة ، فضل أى خالفت بين طرفيها فجعلتهما على عاتق حين توشعت بها ، أو فضل أى واحدة ليس على غيرها سوى ما وضعته على عاتق كالعطف من نجاد السيف أى حائله .

(٢) الجسد : الثوب المصبوغ بالزعفران أو العنبر ، والجساد : الزعفران ، قالوا : « والجسد والجساد : الزعفران » ويقال : أجسد ثوب فلان إجاداً فهو مجسد . يقول : لاني أرتاح وأنعم بعطرك الساطع إذا امتزج طيب الزعفران بثوبك الأحمر المصبوغ بالزعفران أو الأصفر المصبوغ بالعنبر .

(٣) أقصاد : يقال تقصدت الرماح تكسرت ورمح أقصاد متكسر ، ورماح أقصاد متكسرة يوصف به الواحد والجمع ، يقول : إذا اعتزمت زياوتها ، وقصدت حماها لم يصرفني عن عزمي أن الرماح تكسر دون الوصول إليها ، وفي الأصل : « القنى . » (٤) اطباء : ازدهاء ، وشآء : وأعجبه .

(٥) وفي الأصل : « نفذت به سورى أو استبداد »

(٦) وفي الأصل : « لا يأس »

إِنَّ أَغْتَرِبَ فَمَوَاقِعَ الْكَرَمِ - الَّذِي
 أَوْ أَنَا - عَنْ صَيْدِ الْمُلُوكِ بِجَانِبِي -
 الْمَجْدُ عُدْرُهُ فِي الْفِرَاقِ لِمَنْ نَأَى
 يَا هَلْ أَتَى مَنْ ظَنَّ بِي - فَظَنُّوهُ
 أَنِّي رَأَيْتُ « الْمُنْذِرِينَ » كَلِمَتِهِمَا
 وَبَصُرْتُ بِالْبُرْدَيْنِ إِزْثَ « مُحَرَّقٍ » (٣)
 فِي الْغَرْبِ شَمْتُ بُرُوقَهُ - أُرْتَادُ
 فَهُمْ الْعَبِيدُ مَلِيكُهُمْ « عَبَادُ » (١)
 أَرَى الْمَصَانِعَ مِنْهُ كَيْفَ تُشَادُ (٢)
 شَيْتَى تَرْجُحُ يَتَنَهَا الْأَضْدَادُ -
 فِي كَوْنِ مُلَاكٍ لَمْ يُحِلَّهُ فَسَادُ
 - لَمْ تَخْلُقَا - إِذْ تَخْلُقُ الْأَبْرَادُ

(١) وفي الأصل :

« أو أنا عن صيد الملوك بجانبني فهم العبيد ملوكهم عباد . »

(٢) وفي الأصل : « اشد عذر في العراق لمن نأى »

(٣) محرق

هو - كما في شرح العيون - « عمرو بن المنذر بن ماء - الماء » وهو « عمرو بن هند » وكان يعرف بأمه هند بنت الحرث بن حجر آكل المرار السكدي ، وكان يقال لعمرو مضطرب الحجارة لشدة بأسه ، وسعى محرقاً لقصة استوفى أبو المرح شرحها في كتاب الأغاني ، وقال : كان قد طاق حياطتي على ألا ينزعوا ، ولا يفرخوا ، ولا يفرأ ، ثم أنه غرا اليماة ورجع معتبطاً ومربطاً ، يقال له زرارة بن عدس التميمي ، وكان من خواصه أبيات اللعن أنسب من هذا الحمى شيئاً ، فقال ويلك إن لهم عقداً . قال وإن كان لهم ، فلم يزل به حتى أصاب نسوة وأدوا ، فقال في ذلك قيس بن وجرة الطائي :

« أراك ابن هند لم تعك أمانة وما المرء إلا عهده ومواقفه

فأقسمت جهدي بالأباطيح من مـ وما خب في بطائهن درادته

لئن لم تعير بعض ما قد فعلته لانحين للعظم ذوات طارقه . »

سمى طارفا بهذا البيت وبلغ الشعر عمرو بن هند ، فقال له زرارة بن عدس أبيت الأمن أيتوعدك ؟ فقال عمرو لميلة بن شعار الطائي أبهجوني ابن عمك ويتوعدني . قال لا والله ما هجأك ، ولكنه قال :

« والله لو كان ابن جفنة جاركم ما إن كساكم شبيعة وهو أنا . »

وأراد لميلة أن يسأل سمعته ، فقال والله لأقتلنه ، فبلغ ذلك طارفاً ، فقال لمشدأ :

« أيوعدني والرمل بيني وبينه تبين رويداً ما امامة من هند

غدرت بمهد كنت أنت أخذتنا عليه وشر الشبيمة الدر بالعهد

وقد يترك الدر الفتي وطعامه إذا هو أمسى جلده من دم القصد . »

فبلغ عمرو بن هند قوله ففر طارفاً فأسراً سرى من بني عدي بن أحزم رهط حاتم ، فوفد حاتم عليه وسأله في الأسرى فأطلقهم له ، وكان المنذر بن ماء السماء أبو عمرو قد وضع ابناً له صغيراً يقال له مالك عند زرارة

فقال عمرو: أما والله لولا مخافتى أب تلد مثلك لصرفتكَ عن النار، فقالت: «أما والذي أسأله أن يضع وسادك ويغفص عمادك، ما تقتل إلا نساء أعاليها ثدى»، وأسألهما دى. «قال اقدفوها في النار فالتفت وقالت: ألا تفتي يكون مكان عجوز، فلما أبطلوا عليها قالت: هيهات صار الفيان حمداً وسعى من ذلك اليوم محرقاً، ومن ملوك جفنة أيضاً المحرق لسكنه غير صاحب البردين - فأما أمر البردين فخشي أن الوفود اجتمعت عند محرق فأخرج بردين من لباسه يلبو الوفود وقال ليقم أعز العرب قبيلة فليأخذها، فقام عامر بن أحيمر فأخذها فأنزله بالواحد وارتدى بالآخر، فقال له أنت أعز العرب قبيلة؟ قال لا، فقام في معد والعدد في معد، ثم في نزار، ثم في مضر، ثم في خندف، ثم في تميم، ثم في سعد، ثم في كعب، ثم في بهلة فمن أنكر هذا فليأفرني فسكت الناس، فقال هذه عشيرتك كما تزعم فكيف أنت في نفسك وأدب بيتك؟ قال أما أبو عسرة، وأخو عسرة، وعم عسرة، وخال عسرة، وها أنا في نفسي وشاهد العز شامدى، ثم وضع قدمه على الأرض وقال من أزالها من مكانها فله عسرة من الإبل فم يقيم إليه أحداً، وخرج بالبردين فضربت العرب بعزه المثل ويبرديه -

وَعَرَفْتُ مِنْ ذِي الطُّوقِ عَمْرٍو ^(١) تَأَرَّهُ لِحَذِيْمَةِ الْوَضَّاحِ ^(٢) حِينَ يُكَادُ

(١) عمرو « ذو الطوق »

انظر ص « ١٤٥ » من هذا الديوان .

(٢) جذيمة الوضح أو الأبرص

هو جذيمة بن مالك بن طامر النخعي ، وقيل الأردى أول من فاد العرب ومالك على قضاء ، وكانت مازله الحيرة والانباء وولايته من قبل اردشير بن بابك ، وكان أبرص فعُدل عن هذا الاسم ، فقيل الأبرص والوضح ، وزعم بعضهم أنه كان يأبى من اسم الأبرص ، ولذلك كنى عنه بالأبرص ، وفي العرب من يفتخر بذلك . قال الرازي يمدح أبرص :

« أبرص بياض اليبدين أكلف والبرص أدري باللهما وأعرف . »

وهو أول من صنع له الشمع وأدج من الملوك ، وكان ذا رأى وهمة ونية مفرط ، ويقال له ندم الفرقدين كان إذا شرب قدحاً صب لها قدحين ولا ينادم غسيريها ، وكان سبب ذلك فيما رعموا أنه كان تكهن واتخذ صنم يقال لها العريان يستقي بهما وينتصر على أعدائه ، وكانت اياد قد خرج قوم منهم من الحجارة وانتشروا فيما بين البصرة والكوفة وتمكنوا على ما يلي الحيرة وكثروا بعين أباغ ، فخرج جذيمة غارياً ، وكان في اياد رجل يقال له عدى بن نصر ، وكان له ظرف وجمال ، وإليه تنسب الملوك من آل نصر ، فنزل جذيمة بساحتهم ، فبعثت اياد قوماً منهم إلى صنم جذيمة فسقوا مسدثهم الحجر وسرقوها فأصبحوا بهما في اياد ، فمعت اياد إلى جذيمة تقول : إن مسدثك قد أصبحا عندنا زهداً فيك ورغبة فينا ، فإن طاهدتنا على أن لا نرونا رددناهما إليك ، فقال جذيمة وتعطوني أيضاً عدى بن نصر يكون عندي فنعلموا وانصرف عنهم ، وضم عديا إلى نفسه وولاه شرابه وأمر مجلته ، وكان لجذيمة أخت تسمى رفاش وهي بكر ، فأجبت هديا وأحبها ، فسأله أن يخطبها من جذيمة إذا سكر ففعل ذلك وزوجه بها وأشهد عليه من حضر ، فلما أصبح دخل عليه بقباب العرس ، وكان قد دخل بها تلك الليلة ، فقال جذيمة ما هذه الآثار يا عدى ؟ فقال آثار عرس رفاش ، فقال من زوجكها ويحك ؟ قال ذلك ، فأكب على الأرض مفكراً وهرب عدى فلم يعرف له أثر ولا خبر ، وأرسل جذيمة إلى أخته يقول :

« خبري رفاش لا تكذبي أبجر زينت أم بجين

أم بسد فأنت أهل لعبد أم بدون فأنت أدل لدين . »

فالت بل أنت زوجتي امرأة غريباً ولم تشاوري في فسي ، فكف عنها وآلى أن لا ينادم إلا الفرقدين وحملت رفاش غلاماً وسمته عمرا ، فلما ترعرع ألبسته وطرته ودخلت به على خاله ، فلما رآه أحبه وجده مع ولده وخرج جذيمة متدياً بأهله في سنة خصبة ، فأقام في روضة ذات زهر ونهر ، فخرج ولده وعمرو معهم يجتنون الكماة ، فكانوا إذا أصابوا كمامة جيدة أكلوها ، وإذا أصابها عمرو خبأها وانصرفوا إلى جذيمة يتعادون وعمرو يقول : هذا حناي وخياره فيه ، إذ كلّ جائت يده إلى فيه ، فصبه جذيمة إلى صدره وسرّ بقوله وحلاه بطوق من ذهب ، فكان أول عربي لبس الطوق ، ثم إن الجن استطارته فطلبه جذيمة في الآفاق زماناً فلم يقدر عليه ، ثم أقبل رجلان من قضاء يقال لهما مالك وعقيل ابنا فارح من الشام يريدان جذيمة وأهديا له طرفاً ، فبينما هما يأكلان إذ أقبل فتى تريان قد تلبس شمره فعرفهما نفسه فنهضا وغسلا

وَأَتَى بِي النُّعْمَانُ ^(١) - يَوْمَ نَعِيمِهِ - نَجْمٌ تَلَقَّى سَمْعَهُ الْمِيلَادُ
قَدْ أَلْفَتْ أَشْتَائُهُمْ فِي وَاحِدٍ إِلَّا يَكُنُّهُمْ أُمَّةٌ فَيَكَادُ ^(٢)

رأسه وأصلحاً أمره وألبساً ثياباً ، وقالاً ما كنا لنهدى جذية أنفس من ابن أخته ، وخرجاً به إلى جذية
فسرّ به ورأى الطوق ، فقال شب عمرو عن الطوق فذهبت مثلاً ، وقال لذلك وعقيل حكمكما قالاً
مناديتك ما بقينا وبقيت فكنتما من ذلك وهما نديما جذية اللذان يضرب بهذا المثل وإياهما عن متم بن
نوبة بقوله في رثاء أخيه :

« وكنا كندمان جذية حقة من الدهر حتى قيل إن يتصدنا . »

وقيل إنما عن الفرقدن ، ويحكى أن جذية سكر مرة أخرى فقتلها ، فلما أصبح ندم ، ونى عليهما النريين
ونادم الفرقدن وقيل إن صاحب النريين المنذر الأكبر ، ثم إن جذية أرسل يخطب الزباء ملكة الحضرم الحاجر
بين الفرس والروم ، وكألفها وترعده فأجابته واستدعته إليها ، فاستشار أصحابه فأشاروا عليه بالمضى فخالفهم تصير
ابن سعد ، وكان لبياً ، وقال : إن النساء يهدين إلى الأزواج فعضاه وسار حتى إذا كان بمكان يدعى بقة
استشارهم فأشاروا عليه لما يمامون من رأيه فيها ، فقال قصير انصرف ودمك في وجهك فأبى ، وظن
جذية حتى إذا طين السكتائب قد استقبلته . قال قصير ما الرأي ؟ قال تركت الرأي بقة ، ثم ركب قصير
فرساً لجذية نسي العصا فتجا وأخذ جذية ، فلما أدخل على الزباء أمرت برواحشها فقطعت والرواحش
عروق اليد واستنزفته حتى مات في خير طويل مشهور ، وكان مدة ملكه ستين سنة ، وله أشعار حسنة
مشهورة فمنها :

« أضحى جذية في يبرين منزله قد حاز ما جمعت من قبله طاد

مستعمل الخير لا تفي زيادته في كل يوم وأهل الخير تزداد . »

(١) النعمان

قالوا إن النعمان كان له نديمان فغضب عليهما فقتلها ، فلما أصبح ندم على ذلك أشدّ الندم ، فبنى على
قبريهما ضريحين ، وجعل لنفسه يومين في كل عام يجلس فيهما بجوار القبرين أحدهما يوم نعيم ، والآخر
يوم يؤس . فأول من يطلع عليه في يوم النعيم يعطيه مائة من الابل ، وأول من يطلع عليه في يوم يؤس
يقتله ويطلق بدمه ضريحى نديبيه .

وقد ذكروا مثل ذلك عن المنذر بن ماء السماء ، وقالوا إنه لقي «عبيد بن الأبرص» في يوم يؤس فقتله .
فقال له جلته التي صارت مثلاً فيما بعد وهي قوله : « حال المريض دون القريض » .

(٢) يقول : قد اجتمع هؤلاء الأعلام الذين أزدانت بهم السير في شخص واحد هو المدوح ، فإذا لم
يكن أمة مجتمعة فيه صفاتهم ومزاياهم فهو يكاد أن يكون .

وقديماً قال الفائل :

« ليس على الله بمستحكر أن يجمع العالم في واحد . »

فَكَأَنِّي طَالَمْتُهُمْ بِوِفَادَةٍ لَمْ يَسْتَطِعْهَا «عُرْوَةُ» الْوَفَادُ^(١)

(١) عروة الوفاء

نلخص هنا طرما من أخباره عن كتاب الأغاني فنقول :

هو عروة بن الورد بن زيد ، وقيل : ابن عمرو بن زيد بن عبد الله بن ناشب بن هرم بن لديم بن عوذ بن ظالب بن قطيعة بن عيس بن نبض بن الريث بن غطفان بن سعد بن ويس بن عيلان بن مضر بن نزار ، شاعر من شعراء الجاهلية ، وفارس من فرسانها ، وجواد من أحوادها المتقدمين ، وكان يجمع الصعاليك ويقوم بأمرهم إذا أخفقوا في غزواتهم ولم يصيبوا معاشا ، ولذلك سمي عروة الصعاليك ورووا عن عبيد الملك بن مروان أنه قال : ما يسرنى أن أحدا من العرب ولدني ممن لم يلدني إلا عروة ابن الورد لقوله :

« إني امرؤ طاق لثاني شركة وأنت امرؤ طاق لإنائك واحد
أترأى مني أن سنب وأن ترى بجسدي من الحق والحق جاهد
أغرق جسمي في جحوم كثيرة وأحسو مراح الماء وللاء بارد . »

ويقال أيضا : إن عبيد الملك قال : من رعم أن حائما أسح الناس فقد ظلم عروة بن الورد . قالوا : وكان إذا أصابت الناس سنة شديدة تركوا في دارهم للرئيس والكبير والضعيف ، وكان عروة يجمع هؤلاء وأشباهم ثم يحرق لهم الأسراب ، ويتعد لهم حظائر يكفهمها عليهم وقودهم إليها ، ومن قوى منهم بأن يرى من ماله أو ثابته إليه قوته خرج به معه فأغار ، وجعل لأهل الضعف من أصحابه النافذ نصيبا ، وعن ابن الأعرابي قال : أجذب ناس من بني عيس في سنة أصابهم فأهلك أموالهم وأصابهم جوع شديدا وبؤس ، فأتوا عروة بن الورد فجلسوا أمام بيته ، فلما بصروا به صرخوا ودلوا : يا أبا الصعاليك ، أغشنا ، فرق لهم وخرج ليؤزيم ويصيب معاشا فنهته امرأته عن ذلك لحودها عليه من الهلاك ، فعضاها وخرج عاريا ، فربح مالك بن حمار الفراري فنحله جرورا فأكل منها هو وأصحابه ، وأشار عليه مالك أن يرجع فعصاه ، ومضى حتى انتهى إلى بلاد الدين فأغار عليهم فأصاب هجمة طاد بها على نفسه وأصحابه وقال في ذلك :

« أرى أم حسان المداة تلومي تحومني الأعداء والفس أخوف
تقول سايبي لو أقبل لسننا ولم تدر أنني للمقام أطرف
لعل الذي خوتنا من أماننا يصادفه في أهله المحلف . »

وقال في ذلك أيضا :

« أليس ورائي أن أدب على العصا فيشت أعدائي ويسأمني أهلي
رهينة قمر البيت كل عشية ياف في الولدان أهدج كالرأل
أقيموا بني أمي صدور ركابكم فكل مايا النفس خير من الخزل
فانكموا لن تلدوا كل هقي ولا أربي حتى تروا منبت الأثل
لعل ارتبادي في البلاد وحيلتي وشدي حيازيم الطية بالرحل
سيدفعني يوما إلى رب هجمة يدافع عنها بالعقوق وبالبل . »

في قصر ملك كالسدير^(١) أو الذي ناطت به شرفاتها سنداد^(٢)

(١) السدير

« السدير » قصر — وهو معرب — قالوا « وأصله بالفارسية « سه دل » أى قبة فيها ثلاث قباب متداخلة » فعرّبه العرب ، وقالوا : « سدير » قالوا : « وهو موضع معروف بالحيرة » وقالوا : « هو قصر قريب من « الخورنق » كان النعمان الأكبر اتخذ له بعض ملوك العجم .
وسياتى ذكره فى شعر الأسود بن يعفر عند الكلام على « سنداد » فى شرح هذه القصيدة .
وقد ذكره « عبد المسيح بن عمرو » عند غلبة « خالد بن الوليد » والمسلمين على « الحيرة » فى خلافة أبى بكر فقال :

« أبعد المنذرين أرى سواما تروح بالخورنق والسدير
تحماء فوارس كل حى مخافة أغلب على الزئير
صرتا بعد ملك « أبى قبيس » كمثل الشاء فى اليوم المطير
تقسمنا القبايل من « معد » كأننا بعض أعصاء الجزور »

وفال المخبل فى قصيدته المشهورة :

« فإذا سكرت ، فانى رب الخورنق والسدير
وإذا صحت ، فانى رب الشوية والبعير . »

(٢) سنداد

« سنداد » قصر بالمذيب وهو المقصود هنا ، وسنداد — فى رواية أبى الحسين الأديب : نهر ، وقد استدلت على ذلك بقول أبى دؤاد الأيادى :

« أقفر الدير فالأجارع من قو مى ، فروق ، فرامح ، تخفيه
فتلاع للملا إلى جرف سنداد د ، فقو ، إلى تعاف طفيه
موحشات من الأنيس — بها الوح ش خناطيل موطن أو بنه . »

قالوا : وسئل عنه « أبو عمرو » أهو بفتح السين أو كسرهما ، فقال : « بفتح السين » وعن صاحب التكملة : بفتح السين وسامى بالكسر .

وفى رواية « الكونى » : « سنداد منازل لا ياد تراثها لما قاربت الريف ، بعد لصف وشرح وناظرة ، وهو أسفل سواد الكوفة ، وراء نجران الكوفة .

قال حمزة فى تاريخه : « وكان قد تملك فى القديم من الفرس على مواضع متفرقة من أرض العرب ستة عشر مرزباناً ، وقد ذكرهم صاحب معجم البلدان « ج ٥ ص ١٥٠ » إلى أن قال : « ثم تملك سنداد على عمل سخت ، وطال مكثه فى الريف حتى بنى فيه أبنية : وهو صاحب اقصر ذى الشرفات من « سنداد » الذى يقول فيه « الأسود بن يعفر » « والقصر ذى الشرفات من سنداد »

تَوَهُمُ الشَّهْبَاءُ فِيهِ كَسِيبَةً يَفْنَاءُ ، الِيَحْمُومُ فِيهِ جَوَادُ
يَخْتَالُ مِنْ سَيْرِ الْأَشَاهِبِ وَسَطُهُ يَبِضُّ كَمُرْهَفَةِ السُّيُوفِ جِمَادُ^(١)

فِي «آلِ عِبَادٍ» حَطَّطْتُ فَأَعْصَمْتُ هَمِي بِحَيْثُ أَنْفَتِ الْأَطْوَادُ
أَهْلُ الْمَنَازِرَةِ الَّذِينَ هُمُ الرُّبَا فَوْقَ الْمُلُوكِ إِذِ الْمُلُوكُ وَهَادُ^(٢)
قَوْمٌ إِذَا عَدَّتْ مَعْدُ عَقِيلَةَ مَاءَ السَّمَاءِ ، فَهَمُّ لَهَا أَوْلَادُ
يَبْتَ تَوَدُّ الشَّهْبُ فِي أَفْلَاكِهَا لَوْ أَنَّهَا - لِيَبْنَاهُ - أُوتَادُ

قال ابن السكبي :

وكانت «إباد» تنزل سنداد - وهو نهر فيما بين «الحيرة» إلى «الابلة» وكان عليه قصر تبحر العرب إليه ، وهو القصر الذي ذكره الأسرود بن يعفر .
قالوا : وسموا «عمر بن عبد العزيز» بقصر لآل حفنة فتدعى «مزاحم» مولاه بقول «الأسود بن يعفر النهشلي :

«ومن الحوادث - لأبلك - أتى ضربت على الأرض بالأسداد
لا أمتدى فيها المدفع تلعة بين العراق وبين أرض مراد
ماذا أوذل - بعد آل محرق - تركوا منازلهم وبعث إباد
أهل الخورنق والسدير وبارق والفقر - ذى الشرفات - من سنداد
حلوا بأنقرة يسيل عليهم ماء الفرات يحيى من أطواد
أرض تخيرها - لطيب مقلها - كعب بن مامة وابن أم دؤاد
جرت الرياح على عراس ديارهم فكأنما كانوا على ميعاد
واقعد غنوا فيها بأفضل عيشة في ظل ملك ثابت الأوتاد
فاذا النعيم وكل ما يلهى به يوماً يصير إلى بلى وتقاد .

فقال له عمر : ألا قرأت : «كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ، ونعمة كانوا فيها فاكهين كذلك وأورثناها قوماً آخرين»

(١) يقول يخال القصر من سير الجداول وسطه متعددة كبعض السيوف المرفعة ، وفي الأصل :

«يخال من سر الأشاهب وسطه يبيض كمرهفة السيوف جعاد .»

(٢) قريب من هذا المعنى قول ابن دريد :

«هم العمارج المنيغات الذرى والناس ضحاح ثياب وأنى .»

تَمْدُودَةٌ يُلْهَى^(١) النَّدَى أَطْنَابُهُ
مُتَقَادِمٌ إِلَّا تَكُنْ شَمْسُ الضُّحَا
نَيْطَتْ «بِعَبَّادٍ» لَآئِي مَجْدِهِمْ
مَلِكٌ إِذَا أَفْتَتَتْ صِفَاتُ جَلَالِهِ
نَسِيَتْ زَيْدَهُ^(٢) عَمْرَهَا بَلْ أَعْرَضَتْ
مَرْفُوعَةٌ - بِالْبَيْضِ - مِنْهُ عِمَادُ
لِدَةٍ لَهُ ، فَتُجْوِمُهَا أَرْآدُ^(٣)
فَتَلَأَلَّتْ - فِي تَوْمِهَا^(٤) - الْأَفْرَادُ
فَتَقَاصَرَتْ عَنْ بَعْضِهَا الْأَعْدَادُ
.....

(١) الالهى : العطايا :

(٢) أَرَادَ - جمع رَادَ - يقال رَادَ الضحى : أى ارتفاعه ورَادَ الأرض : خلاؤها ، قال الطغرائى :

« مجدى أخيرا ومجدى أولا شرع والشمس رادالضحى كالشمس فى الطفل. »

(٣) التوم : جمع تومة وهى اللؤلؤة ، وسميت تومة لأنها تومة فطيرتها فى المقد أو فى الأذن ، والافراد : جمع فرد وهو ما لا نظيره فى المقد يقال : فرد وفريد ، ويقال : تاهم أخاه أى ولد معه ، وهو تشبة ، وتومعه .

(٤) عمرو بن معديكرب الزبيدى

ويضرب المثل باقدامه وشجاعته .

اقسام عمر فى سباحة حاتم فى حلم أحنف فى ذكاء إياس .

هو - كما فى سرح العميون - عمرو بن معديكرب بن عبد الله الزبيدى ، وكنيته « أبو ثور » الفارس المشهور صاحب الفارات والوفائع المذكورة فى الجاهلية والاسلام ، ورد على رسول - صلى الله عليه وسلم - فى السنة العاشرة من الهجرة .

قال عمرو :

قدمت المدينة ، فرأيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فافلا من « تبوك » فأردت أن أدنو إليه ، فنعنى من حوله .

فقال : « دعوه » فدئوت منه ، فقلت :

« أنعم صباحا أبيت اللعن »

فقال : « يا عمرو أسلم تسلم ويؤمك الله من الفرع الأكبر » فأسلت

وحاش « عمرو » إلى أيام عثمان ، وأبلى فى وقائع الاسلام بلاه حسنا مثل وقعة القادسية ، وهو الذى ضرب خطم الفيل بالسيف فأنزله وانزمت الأعاجم ، وكان سبب الفتح ومثل وقعة اليرموك وغيرها ، قال الحشمى ما رأيت أشرف من رجل يوم اليرموك خرج له حليج فقتله ، ثم آخر فقتله ثم أنزمو فنبعهم وتبعته ، ثم انصرف إلى خباء له أسود فنزل فدعا بالجلفان ودعا من حوله ، قلت من هذا ؟ قالوا عمرو بن معديكرب ، وحدث بن أبى حاتم . قال سررتنا يوم القادسية بعرو بن معديكرب وهو يحض اللاس بين الصميين ويقول : أيا اللاس كونوا أشد مناشأ إن هذا الرجل من الأعاجم إذا اقى مزارعا فأنما هو نس ، فبينما هو كذلك يحرضنا إذ خرج رجل من الأعاجم فوقف بين الصميين فرماه بنشابة ، فها أخطأت سية قوس كان متنكبها فالتفت ، ثم حمل عليه فاعتقه ، ثم أخذ بمنطقته فاحتله فوضعه بين يديه وجاء حتى إذا دنا منا كسر عقه ،

ثم أمر الصمصامة على حلقه فذبحه ونزع سواريه ومنذقته وألقاه، وقال : « هكذا فاصنعوا بهم » فقلنا : « من يستطيع يا أبا ثور أن يصنع كما تصنع ؟ » وحكى أبو عبيدة قال : لما كان فتح القادسية أصاب المسلمون أموالاً عظيمة فنزل سعد بن أبي وقاص الجلس ثم قسم البقية فأصاب العارس ستة آلاف وبقي مال دثر ، فكتب إلى عمر بما فعل فكتب إليه أن رد على المسلمين الجلس وأنظ من لحق بك ممن لم يشهد الواقعة ففعل ذلك ، ثم كتب إليه أن أعط ما بقي حلة القرآن ، وأناه عمرو بن معديكرب ، فقال ما معك من حفظ القرآن ؟ قال : لاني أسلمت ، ثم شعلت بالدرو عن حفظ القرآن ، وقيل أناه بشر بن ربيعة ، فقال له ما معك من حفظ القرآن ؟ قال معي اسم الله الرحمن الرحيم ، فضحك القوم ، فقال سعد مالك في هذا المال من شيء ولا من نصيب ؟ فقال عمرو مشدداً :

« إذا قتلنا ولا يكي لنا أحد قالت قريش ألا تلك المقادير

تعطى السوية من طعن له نقد ولا سوية إذ تعطى الدنانير . »

وقال بشر أبياتا، وكتب سعد إلى عمر بما قال ، فكتب إليه : « أعطهما على بلائهما » فأعطاهما أربعة آلاف درهم ، وحكى المدائني قال : كان عمرو بن معديكرب في سرية أميرها سلمان بن ربيعة فعرض الخيل ، فقرأ عمرو على فرس له ، فقال هذا هجين ، فقال عمرو عتيق . قال دأمر به دعاش ، ثم دعا بقرس ، فقلب فيه ماء فدعا بخيل عتاق فشربت فجاء فرس عمرو ، ففى يديه وشرب وهكذا يعنع الهجين ، فقال له ألا ترى ؟ فقال عمرو أحل الهجين يعرف الهجين ، فبلغ عمر ، فكتب إليه قد بلاني ما قالت لأميرك ، وبلاني أن لك سيفاً تسميه الصمصامة . وعندى سيف مصعوم بالله من رصعته على هامك لا أنزع حتى أبلغ به شراسيفك فان سرك أن تعلم أحق ما أقول فقد ، ويروى أن عمر رضى الله عنه سأله يوماً ، فقال ما تقول في الحرب ؟ قال مرة المذاق إذا كدفت من ساق ، ففى صبر عرف ، ومن ضمف تاف . قال فما تقول في الرمح ؟ قال خيلك وربما خارك . قال فالبل ؟ قال منايا تخلى وتصيب . قال فالقرس ؟ قال عليه تدور الدوائر . قال فالسيف ؟ قال عبدك تملكك أمك . قال عمر بل أمك ، فقال الجى أصرعنى ، فأناظ له عمر فى الكلام ، فقال :

« أنوندى كمالك ذو ردين بأنقم عيشة أو ذر نواس

فلا تفدر بملكك كل ملك يصبر لدلة بعد الشماس . »

فقال عمر صدقت فافتس منى قال يا أمير المؤمنين لولا آية سمعتها لك لملكك بالسيف أخذ منك أم ترك ، قال وما هى ؟ قال سمعتك تقرأ أنه من يأت ربه مجرمًا فان له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى ، والله لو علمت انى إذا دخلتها مت لملك ، وحكى أن عيينة بن حصن لما قدم الكوفة أمام أياماً ، ثم قال : والله مالى بأبي ثور عهد ، ثم ركب فرساً وسأل عن حلة بنى زبيد فأرشد إليها وسأل عن عمرو فوقف ببابه ، ثم قال : يا أبا ثور اخرج إلينا فخرج مؤثراً كأنما كسر وجبر ، فقال له انعم صباحاً أبا مالك ؟ فقال أو ليس قد بدلنا الله تعالى بهذا السلام عليكم ، فقال دعنا مما لا نعرف انزل فان هندی كبشاً سيدنا فنزل فعبد إلى الكباش فذبحه ثم ألقاه فى قدر وطبخه ، وجلس يتحدث إلى أن أدرك فزرد فى جفنة عظيمة وألقى الفدر عليها وقعداً فأكل منها ثم قال : أى الشراب أحب إليك اللبن أم ما كنا نتنادم عليه فى الجاهلية ، فقال أو ليس حرمها الله تعالى فى

الاسلام ، فقال : أنت أقدم إسلاماً أم أنا ؟ قال : أنت ، قال : فاني قد سمعت ما بين دفتي المصحف فوالله ما وجدت لها تحريماً إلا انه قال : هل أنتم منتهون . قلت : « لا » ثم جاء بنيذ وجلسا يشربان ويتحدثان ويذكران أيام الجاهلية حتى أمسيا ، فلما أراد عيينة الانصراف ، قال عمرو إن انصرف أبو مالك بدير حياء إنها توصية فأمره بنافه أرحية وحمله عليها ثم أتى بمزود فيه أربعة آلاف درهم فوضعه بين يديه ، فقال أما المال فوالله لا آخذه ولا ألمسه ، فاصرف وهو يقول :

« جريت أبا ثور جزاء كرامة فنعم الفتى أنت المزور المضيف . »

وقيل انه لم يكن في عمرو خصلة رديئة إلا الكذب ، حكى أبو عمرو بن العلاء ، قال : وقف عمرو يوماً بالمريد يتحدث — على عادتهم — فقال : « غزوت في الجاهلية على بني مالك فخرجوا مستدعين بخالد بن الصقبة فحملت عليه بالصمصامة فأخذت رأسه » وكان خالد بن الصقبة حاضراً ، فقال بعض الجماعة : « مهلاً أبا ثور قتيلك يسبح كلاك » وأشار إليه ، فقال اسكت إنما أنت محدث فاسمع أرقم ، ثم التفت إلى خالد وقال : « إنما نرهب هذه المدينة بهذه الأخبار » وذهى في حديثه فلم يقطعه ، فقال له رجل : « انك لشجاع في الحرب والكذب » فقال : « إني كذلك » وحكى أبو عمرو بن العلاء قال : جاء رجل إلى عمرو وهو واقف بالمريد على فرس له وقد أسن فقال لا تظن ما بقي من قوة أبي ثور فأدخل يده بين سانه وجنب الفرس ففطن عمرو لذلك فضم رجليه وحرك الفرس فجعل الرجل يعدو مع الفرس لا يقدر أن يتزع يده حتى إذا بلغ منه صاح به فقال : « يا ابن أخي مالك ؟ » قال : « يدي تحت سارك » فغلى عنه وقال : « إن في عمك بقية بعد » ومن كلامه حكى أنه أتى بجاشع بن مسعود فقال : أسألك حملان مثلي وسلاح مثلي فأمر له بفرس جواد وسيف صارم وعشرين ألف درهم فربى حنظلة فقالوا : « يا أبا ثور كيف رأيت صاحبك ؟ » فقال : « لله بنو بجاشع ما أشد في الحروب لقاءها ، وأجزل في الارباب عطاءها ، وأحسن في المكرمات بناءها ، والله لقد قاتلتها فما أجبتني وسألتها فما أبجلتني ، وهاجبتني فما أخفمتني » ومن حيد شعره :

« ولما رأيت الحيل زوراً كأنها حداول ماء أرسلت فأسبطرت
لجاشت إلى النفس أول مرة مردت على مكروهاها فاستقرت
ظلك كأنى للرماح دريشة أقاتل عن أحساب جرم ومرت
ولو أن قومي أنطقني ومأجهم نطقت ولكن الرماح أجرت . »

قوله أقاتل عن أحساب حرم من الهعاء الممس ، وذلك أنه ذكر أن قوما دروا وليس هو منهم غير أنه يقاتل غصباً لهم وعصبية ، وقوله ولو أن قومي أنطقني ، يعني لو قاتلوا وطاعوا لفظت بمدحهم ، ولكنهم دروا ، فأسكتوني عن المدح ، والأصل في الاجرار أن الفصيل إذا أرادوا فطامه شقوا لسانه فلم يقدر على الرضام وقى الفصيدة التي أولها : « أمن ربحانة الداعي السبيح » يقول :

« وقد عجبت أمانة أن رأيتني نفع لمي شيب طبع
أشاب الرأس أيام طوال وهم ما تبلغه الصلوع
وزحف كتيبة لقاء أخرى كان زهاءها رأس صليح

ولساد الأسنة نحو نحري وهرّ المشرفة والوقوع
فان تنب النوائ آل نهم تجد حكاهم فيها رفوع
إذا لم تستطع شيئاً فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع
وصله بالنزوع فكل شيء سمالك أو سوت له نزوع .
وقوله أيضاً :

« يا أيها الغنابتا — جهلا بنا وولدت عبدا
ليس الجمل بمنزور — فاعلم — وإن رديت بردا
إنّ الجمل معادى — ومناقب أورثت مجدا
أعددت للحدثات سا — نفة وعداء علة دى
نهدا — وإذا شطب يقدر اليبس والأبدان قدا
كل امرئ يجرى إلى يوم الهياج بما استعدا

لما رأيت نساءنا يفصحن بالمعزاة شدا
وبدت محاسنها التي تخفى ، وطاد الأمر حدا
فارت كبشهم ، ولم أر من نزال الكش — بدا
هم يندرون دى وانذر إذ لقيت بأن أشدا
كم من أخ لي صالح بوأنه يبدى لحدا
ذهب الذين أحبههم وبهيت — مثل السيف — دردا .

قلت : « لو لم يكن له إلا هذه القصيدة لاستحق بها التقدّم على شرك كثير » وأما الحمصامة فهي سيفه
المشهور . قال عبد الملك بن عمير أهدت بلقيس إلى سليمان حمسة أسياف ، وهي : ذو الفقار ، وذو النون ،
ومجنوب ، ورسوب ، والحمصامة . وأما ذو الفقار : فكان لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — أخذه
من منبه بن الحجاج يوم بدر ، ومجنوب ورسوب : للحرث بن حبة الساسي ، وذو النون والحمصامة :
لعمر بن معديكرب ، وحكى أن عمر بن الخطاب قال لعمر بن عبد الله بن الخطاب : أهدت لك باليد التي قضر به ، وحكى أبو عبيدة
أن الحمصامة انتقلت إلى سعيد بن العاص ، وذلك أن خالد بن الوليد لما غزا بني زيد ، وكان خالد بن
سعيد من جملة أسرائه أرقع بهم وأسر رجلاً أخت عمرو بن معديكرب فداها خالد وأتابه عمرو الحمصامة ،
ثم فقد يوم الدار في مقتل عثمان ووجد ، ولم يزل إلى أن صعد المهدي البصرة ، فلما كان بواسطة أرسل
إلى بني العاص يطلب الحمصامة ، فقالوا إنه في السبيل محبوس ، فقال حمسون سيفاً فاطعاً في السبيل أغنى من
سيف واحد وأعطاهم خمسين سبيلاً وأحذه ، فلما صار إلى الهادي أحضره وأسر الشمره بوصفه ، فقال
بعضهم من أبيات :

« حاز حمصامة الزبيدي عمرو من جميع الأمام موسى الأمين
ما يبالي من انتضاء اضرب أنيما سقطت به أم يمين . »

ثم وصل إلى التوكل فدفعه إلى غلامه « باغزا » التركي فقتله به ، ومن عند « باغزا » تقطع خبره .

عَنْ وَصِيفٍ « كَعْبٌ » ^(١) بِالسَّمَاكِ إِيَادُ
فَضَحَ الدُّهَاءَةَ فَلَوْ تَقَدَّمَ عَهْدُهُ لَعَنَّا « الْمُغِيرَةَ » أَوْ أَقَرَّ « زِيَادُ » ^(٢)

(١) كعب بن مامة

هو كعب بن مامة الايادي ، وكان أحد أجواد العرب يضرب به المثل في الوفاء ، آثر على نفسه وكان مسافراً مع رفيقه فقل عليها الماء فتصافناه ، والتصافن أن يوضع في الماء مقلة أى حجر صغير يغمر بالماء اثلاً يتغابنوا في القسمة ، فجعل رفيقه يشرب نصيبه ، فاذا جاء دور كعب . دل له رفيقه وقد جهده الم ش : « أسق أخاك » فيؤثره على نفسه حتى جهد كعب من العطش وأشرف على الهلاك ، ورمعت له أعلام الماء ، وقيل له رد كعب ولا ورود به فبات عطشاً ، وفي ذلك يقول أبو دود الايادي :

« أرفى على الماء كعب ثم قيل له رد كعب إنك وراذ فما وردا . »

ارجع إلى الكامل للبهرد « ص ١٢٦ »

(٢) زياد بن أبيه والمغيرة بن شعبة

كانا من أممذاد العرب وساستهم ودهاتهم وأخبارهما مستفيضة في كتب التاريخ ، ولكننا نجتزئ القول اجتزاء فيما يلي :

قالوا :

وسمى « زياد ابن أبيه » أو « زياد بن سمية » لأن أمه كانت جارية للحارث بن كلدة الثقفي ، فزوجها بعبد له روى يقال له : « عبيد » فولدت « سمية » زيادا على فراشه ، فهو ولد « عبيد » شرعا . قالوا : وكان « أبو سفيان » قد سار في الجاهلية إلى « الغائب » فنزل على بائع خر يقال له : « أبو صريم » — وقد أسلم — فلما بعد — فقال له « أبو سفيان » : « قد اشتهيت النساء » فقال أبو صريم : « هل لك في سمية ؟ »

فقال أبو سفيان :

« هاتها على طول ثديها وذفر بطنها »

فأتاه بها ، فوقع عليها ، فيقال إنها علقت منه زياد ، ثم وضعت في السلة التي هاجر فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم — ونشأ « زياد » فصيحاً .

وحضر « زياد » يوماً بمحضر جنازة من الصحابة في خلافة « عمر » فقال « عمرو بن العاص » : لو كان أبو هذا الملام من قريش ، لساق العرب بعصاه .

فقال أبو سفيان لعلي بن أبي طالب :

« إني لأعرف من وضعه في رحم أمه »

فقال علي :

« فما يمنعك من استلحاقه »

قال :

« أخاف الأصابع (بمعنى عمر) أن يقطع إهابي بالدرّة »

لَا يَأْمَنُ الْأَعْدَاءُ رَجْمَ ظُنُونِهِ إِنَّ الْغُيُوبَ وَرَاءَهَا إِمْدَادُ
مَلِكٌ - إِذَا مَا اخْتَالَ - غُرَّةٌ فَيَنْلَقِ قَدْ أُمْطِيتَ عِقْبَانَهُ الْآسَادُ (١)
أَسَدٌ، قَرَأَتْهَا الْفَوَارِسُ فِي الْوَعْيِ، لَكِنْ بَرَأَتْهَا - هُنَاكَ - صِعَادُ (٢)

فلما كانت قضية شهادة الشهود على المعيرة بالرنا وجلدهم لعدم ثبوت الرنا عليه - ومنهم أبو بكره أخو زياد لأمه - وامتناع « زياد » حين كان يؤدى الشهادة عن التصريح ، وكان أحد الأربعة الذين شهدوا عليه - اتخذ المعيرة لذلك لرياد بدا .

ثم لما ولى « علي بن أبي طالب » الخلافة ، استعمل « زيادا » على فارس ، فقام بولايتها أحسن قيام ، ولما سلم « الحسن » الأمر إلى « معاوية » امتنع « زياد » بفارس ، ولم يدخل في طاعة « معاوية » واهتم معاوية بالأمر ، وحاف أن يدعو إلى أحد من بني هاشم ويعيد الحرب ، وكان معاوية قد ولى « المعيرة بن شعبة » الكوفة ، فقدم « المعيرة » على « معاوية » سنة ٤٢ هـ فشكا إليه « معاوية » امتناع « زياد » بفارس ، فقال « المعيرة » :

« أتأذن لى فى المسير إليه ؟ »

فأذن له ، وكتب « معاوية » لرياد أماناً ، فتوجه « المعيرة » إليه - لما بينهما من المودة - ومازال به حتى أحضره إلى « معاوية » وبايعه .

وفى سنة ٤٤ هـ استلحق « معاوية » « زياداً » فأحضر الناس ، وحضر من يشهد زياد بالنسب ، وكان ممن حضر لذلك « أبو مریم » نافع الحر الذى أسلفا ذكره - وهو الذى أحضر « سمية » أم « زياد » إلى « أبي سفيان » بالطائف - فشهد بنسب « زياد » من « أبي سفيان » .

قالوا : « فاستلحقه معاوية » وقد أعظم الناس ذلك وأمكروه لاسيما بو أمية لأن زيادا ابن عبيد الرومى قد ألحق به بنى أمية بن عبد شمس ، وقد قال « عبد الرحمن الحكم » أخو « مروان » فى ذلك :

« ألا أبلغ « معاوية بن صحر » : « لقد ضاقت بما تأتى أيدان »

أتعصب أن يقال : « أبوك عصف ؟ » وترضى أن يقال : « أبوك زانى ؟ »

وأشهد أن رحلك - من زياد - كرحم النبل من ولد الأنان . »

ثم ولى « معاوية » « زياداً » البصرة ، وأضاف إليه « حراسان » و « سحستان » ثم جمع له الهند والبحرين وعمان .

(١) نفاذ - جمع نفاذ - وهو من سماع النطير التى تصيد . قال المتنبي :

« شكوى الحريخ إلى العقبان والرخم »

وقال العنبري :

« ضاقت بسعد أرضها لما رمى ساحاتها بالنجيل والفرسان »

بفوارس - مثل الصقور - وضمير مجذولة ، ككواسر العقبان . »

(٢) صعاد - جمع صعدة - وهى القاة التى تبت مستقيمة لا تحتاج إلى التنفيف ، والصعدة - من

النساء - المستقيمة القائمة - على التشبيه - قال « كمب بن حميل » بصف امرأة شبه قداما بالفناء :

« فإذا قامت إلى جاراتها لاحت الساق بخلخال زجل »

صعدة نابتة فى حائر أينما الريح تميلها تمل . »

خِلْتَ اللّوَاءَ نَحْمَامَةً فِي ظِلِّهَا قَرَرْتُ ، بِغُرَّتِهِ السَّنَا الْوَقَادُ

شَيْخَانُ مُنْعَمِسُ السَّنَانِ مِنَ الْعِدَا - فِي النَّقْعِ - حَيْثُ تَغْلَغَلُ الْأَحْقَادُ
تَشْكُو إِلَيْهِ الشَّمْسُ نَقْعَ كَتِيبَةٍ مَا زَالَ مِنْهُ لِعَيْنِهَا إِرْمَادُ (١)
جَبَّشُ - إِذَا مَا الْأَفْقُ سَافَرَ طَيْرُهُ مَعَهُ - فَنِي ذِمَمِ الصَّوَارِمِ زَادُ (٢)
مُسْتَطْرِفٌ لِلْمَجْدِ لَمْ يَكُ حَسْبُهُ مَجْدٌ - يَدُورُ مَعَ الزَّمَانِ - تِلَادُ (٣)
مَا كَانَ مِنْهُ إِلَى رِفَاهَةٍ رَاحَةٍ حَتَّى يُخَلِّدَ مِثْلَهُ إِخْلَادُ
أَرْجُ النَّدَى ، مَتَى تَقْزُ بِجَوَارِهِ يَطِيبُ الْحَدِيثُ وَيَعْبِقُ «الْإِنْشَادُ» (٤)
لَوْ أَنَّ خَاطِرَهُ الْجَمِيعَ مَفْرَقٌ فِي الْخَلْقِ أَوْشَكَ أَنْ يُحْسَ جَهَادُ

نَفْسِي فِدَاؤُكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ الَّذِي زُهِرُ النُّجُومِ - لَوَجْهِهِ - حُسَادُ
تَبَدُّو عَلَيْكَ - مِنَ الْوَسَامَةِ - حُلَّةٌ يَهْفُو إِلَيْهَا - بِالنَّفُوسِ - وَدَادُ
لَمْ يَشْفِ مِنْكَ الْعَيْنُ أَوَّلُ نَظَرَةٍ لَوْلَا الْمَهَابَةُ رَاجَعَتِ تَرْدَادُ

(١) النقع : العبار ، والكتيبة : الجيش ، يقول : « تشكو إليه الشمس سطاوع الببار ، والنقع النار لأنه أومد عينها فأغمضتها ولم تبصر . »

(٢) يقول : إن هذا الجيش إذا سافره في الأفق عقبان الجوّ وحوارح الطير ، في ذمة الصوارم من السيوف أن تضمن لها الزاد من قتلى الأعداء .

(٣) مستطرف : أي مستحدث لنفسه مجدا طريقا أي حديدا مكسوبا غير موروث ، والخب : بحركة وقد يسكن كما هنا مايعده الانسان من مآخره ، والتلاد : القديم الموروث عن الآباء .

(٤) الندى : المجلس ، يقول : هو أرج الندى أي عطر ماينبعث عن مجلسه من طيب انقول وعاطر الثناء ، إذا فزت بغيره ودنوت من مجلسه ، يطيب الحديث ، ويعبق في أرواح المجلس غير الاشاد ، وقد ورد هذا البيت في الأصل هكذا :

« أرج الندى ، متى تقز بجواره بطب الحديث ويعبق . . . »

والتكلمة يعطيها السياق .

مَا كَانَ مِنْ خَلَلٍ فَأَنْتَ سِدَادُهُ فِي الدَّهْرِ - أَوْ أَوْدٍ فَأَنْتَ سِدَادُ^(١)
 الدِّينِ وَجْهُهُ أَنْتَ فِيهِ غُرَّةٌ وَالْمُلْكُ جَفْنُهُ أَنْتَ فِيهِ سَوَادُ
 اللَّهُ مِنْكَ يَدٌ عَلَتْ ، تُؤَلِّي بِهَا صَفْدًا فَيُحْمَدُ ، أَوْ يُفَكُّ صِفَادُ^(٢)
 لَوْ أَنَّ أَقْوَامَ الْمُلُوكِ تَوَافَقَتْ فِيهَا لَوَافِقَ حَظْهَا الْإِنْسَانُ عَادُ
 نَفَعَ الْعُدَاةَ الْيَأْسُ^(٣) مِنْكَ ، لِأَنَّهُ بَرَدَتْ عَلَيْهِ مِنْهُمْ الْأَكْبَادُ
 يَنْصَاعُ مَنْ جَارَاكَ مَقْبُوضَ الْخَطَا فَكَأَنَّمَا عَضَّتْ بِهِ الْأَقْيَادُ^(٤)

قَدْ قُلْتُ لِلتَّالِي ثَنَاءَكَ سُورَةٌ مَا لِلْوَرَى فِي نَصِّهَا إِنْ خَادُ[✱]
 « أَعِدِ الْحَدِيثَ عَنِ السِّيَادَةِ ، إِنَّهُ لَيْسَ الْحَدِيثُ يُمَلُّ حِينَ يُعَادُ . »
 كَرَّمَ كَمَاءَ الْمُزْنِ رَاقٍ خِلَالَهُ أَدَبُ كَرَوْضِ الْحَزْنِ بَاتَ يُجَادُ^(٥)
 وَمَحَاسِنُ زَهَرَ الزَّمَانُ زُهْرَهَا فَكَأَنَّمَا أَيَّامُهُ أَغْيَادُ^(٦)

(١) يقول : ما كان من خلل في الرمان فأنت سداده الذي يسد به ، أو كان من أود به واهوجاج
 مات سداد ، أي بك سدادته وصلاحه وتقويته .
 (٢) الصغد المطاء ، والصفاد : ما يوثق به المقيد من قيد ونحوه ، يقول : لله ملك يد تولى الجليل وتهب
 المطاء ، لانزال نحمدها ونشكرها لك إلى أن يفك ما قيدتنا به من أصفاد العم ، وقد جانس بين الصغد بمعنى
 المطاء ، والصفاد بمعنى القيد ، وحمل الاحسان صفادا وقيدا مستفيض في كلام الشعراء ، قال الشاعر :
 « ومن وجد الاحسان قيد تقيدا . » ، وقال ابن الرومي :
 « ما على الأحرار من رق إذا تقعدوا شكرهم مولى أيادي
 إنما النعمى صـ صفاد فاذا لقيت شكرا فليست بصفاد . »
 : قال ابن حيوس :

« عقلتهم بالجليل فالعقلا رب عناة أصفادها الصغد . »

أي قيودها المطاء ، وفي الأصل : « تولى بها » صفد .

(٣) في الأصل : « البأس »

(٤) يقول : ينصاع ويرجع عن مجارته في المجد كل من جاره ، ويقف حيث ابتداء مقبوض الخطا كأنما
 عضت بسيقانه القيود فنمته من المضي .

(٥) المرن : السحاب ويمجد يعطر بالحدود (بفتح فكون) وهو المطر الزير .

(٦) يقول : ويضاف إلى هذا السكرم الذي وصفه في البيت السابق محاسن أضاء الزمان بزهر نجومها ،
 مكأنما كل يوم من أيامها عيد .

* * *

يَأْتِيهَا الْمَلِكُ الَّذِي - فِي ظِلِّهِ -
يَا خَيْرَ « مُعْتَصِدٍ » يَمْنُ أَقْدَارُهُ
لَمَّا وَرَدْتُ - بِوَرْدِ حَضْرَتِكَ - الْمُنَى
فَأَسْتَقْبِلْتَنِي الشَّمْسُ تَبْسُطُ رَاحَةً
فَلَمَنْ فَخَرْتُ - بِمَا بَلَغْتُ - لَقَلَّ لِي
مَعَهَا أَمْتَدَحْتُ سِوَاكَ - قَبْلُ - فَلِئَمَّا
يَغْشَى الْمِيَادِينَ الْفَوَارِسُ - حِقْبَةً -
فَلَأَسْحَبَنَ ذَيْلَ الْمُنَى فِي سَاحَةِ
وَلَيْسْتَ تَفِيدَنَ السَّنَاءَ مَعَ الْغِنَى
وَلَأَنْتَ أَنْفَسُ شَيْعَةٍ مِنْ أَنْ يُرَى
هَيْهَاتَ قَدْ ضَمِنَ الصَّبَاحُ لِمَنْ سَرَى
لَا تَعْدَمَنَّ - مِنَ الْخُطُوطِ - ذَخِيرَةٌ

رِيضَ الزَّمَانِ فَذَلَّ مِنْهُ قِيَادُ
- فِي كُلِّ مُعْضِلَةٍ - لَهُ أَعْضَادُ
فَهَمَّتْ لَدَى جَاهِهَا الْأَعْدَادُ (١)
لِلْبَحْرِ - مِنْ نَفَحَاتِهَا - أَسْتِمْدَادُ
أَلَّا يَكُونَ مِنَ النُّجُومِ عِتَادُ
مَذْحِي - إِلَى مَذْحِي - لَكَ أَسْتَطْرَادُ
كَيْمَا يُعَلِّمَهَا النَّزَالَ طِرَادُ (٢)
- إِلَّا أَوْفَ بِهَا الْمُنَى - فَأَزَادُ (٣)
عَبْدٌ يُفِيدُ النُّصْحَ حِينَ يُفَادُ
- لَنَفِيسِ أَعْلَاقِي لَدَيْكَ - كَسَادُ
أَنْ يَسْتَتِبَّ لِسَعْيِهِ الْإِنْحَادُ (٤)
تَبْقَى فَلَا يَثْلُو الْبَقَاءُ نَفَادُ

(١) فهمت : جواب لما أى سالت ، وجاها : جمع جم (بالفتح) وجة (بالضم) وهو الماء الكثير والأعداد : جمع عد (بالكسر) ، وهو الماء الدائم الذى له مادة لا انقطاع لها كماء العيون ، يقول : حين وردت فى حضرتك ورد المنى ، همت جامها ، وسالت مياهها الأعداد ، يريد أنه رأى فىض المنى ينبثق من راحتيه ، وفى الأصل :

« لما وردت بورد حضرتك المنى فهمت لدى جامها الأعداد . »

(٢) هو مطاردة الفرسان بعضهم بعضاً للفران على الحرب .
(٣) فلاسحبن من المنى ذيلها فى ساحة جواد إن لم أوف بها ما لطمح لآليه نفسى من الأمانى فأما سآزد عليها ، يقول : إن أمره دائر بين أن يبق له بما تسو إليه نفسه من الأمانى ، أو يزيده عليها فوق ما يريد ويتخى .

(٤) يشير إلى المثل المشهور : « عند الصبح يحمد القوم السرى . » وسببر بك شرحه فى ص (٢١٧) من هذا الديوان .

في مدح المعتضد

« قال يمدح المعتضد بالله المنصور بفضل الله
أبا عمرو عاد بن محمد بن عاد ، ويذكر
بعض مواقف له مع خاصته من أصفائه ،
والمناوئين له من أعدائه . »

لِيَهِنِ الْهُدَىٰ إِنْجَاحُ سَعْيِكَ فِي الْعِدَا	وَأَنْ رَّاحَ صُنْعُ اللَّهِ نَحْوَكَ وَأُغْتَدَى ^(١)
وَنَهْجُكَ سُبُلَ الرُّشْدِ فِي قَمْعِ مَنْ غَوَى	وَعَدْلُكَ فِي اسْتِصْالِ مَنْ جَارَ وَاعْتَدَى ^(٢)
وَأَنْ بَاتَ مَنْ وَالَاكَ فِي نَشْوَةِ الْغِنَى	وَأَصْبَحَ مَنْ عَادَاكَ فِي غَمْرَةِ الرَّدَى ^(٣)
وَبُشْرَاكَ دُنْيَا غَضَّةُ الْعَهْدِ طَلْقَةٌ	كَمَا ابْتَسَمَ النُّوَارُ عَنْ أَدْمَعِ النَّدَى ^(٤)
وَدَوَاةَ سَعْدٍ لَا أَنْتِهَاءَ لِحَدِّهِ	إِذَا قِيلَ فِيهِ قَدْ تَنَاهَى تَوْلَدًا
دَعَوَتْ ، فَقَالَ النَّصْرُ : لَبَّيْكَ مَائِلًا	وَلَمْ تَكُ كَالِدَّاعِي يُجَاوِبُهُ الصَّدَى

(١) السعى : التصرف في كل عمل من خير أو شر ، أي أن سبيل الهدى وسبيل المؤمنين جديران بكل تهينة وبشرى حيث أنجح الله سعيك في مناجرة أعدائك ولم يزل يتعهدك بمجيب صنعه ولطيف إحسانه في الرواح والغدو ، والمصباح والعشى .

(٢) وليهن الهدى أيضا سلوكك مناهج الرشد ، وإجراؤك سنة العدل في قمع العابثين المفسدين ، واستئصال شأفة الجائرين المندين ، واقتلاعهم من أصولهم ، وإظهار المملوك من مفاسدهم وشرورهم .

(٣) والى : الموالاة ضد المعاداة ، وقد طابق في البيت بين « بات » و « أصبح » و « والى » و « عادى » و « نشوة الغنى » و « غمرة الردى »

(٤) النوار : بضم أوله وتشديد ثانيه النور ، واحده نواره وقد نور الشجر والنبات أي أزهر ، وفي البيت تشبيه النوار بالنور الباسم عن لؤلؤ العلى .

وَأُنْجَدْتُ عَقْبِي الصَّبْرِ فِي دَرَكِ الْمُنَى كَمَا بَلَغَ السَّارِي الصَّبَاحَ فَأُنْجَدَا ^(١)

« أَعْبَادُ » يَا أَوْفَى الْمُلُوكِ بِذِمَّةِ ^{**} وَأَرْعَاهُمْ عَهْدًا وَأَطَوْهُمْ يَدًا
تَبَايَنْتَ فِي حَالِيكَ : غُرْتَ تَوَاضَعًا لِنَسْتَوْفِي الْعَلْيَا ، وَأُنْجَدْتُ سُودَدَا ^(٢)

(١) الدرك : محركا اللعاق والوصول إلى الشيء . يقال أدركته إدراكا ودركا ومثله الدرك بالسكون . قال
حيدر بنطاط الأسد :

« لَيْثٌ وَلَيْثٌ فِي مَكَانٍ ضَنْكٌ كَلَامُهُمَا ذُو أَنْفٍ وَحَكٌ
وَبَطْشَةٌ وَصَوْلَةٌ وَفَنَكٌ إِنْ يَكْشِفُ اللَّهُ قَنَاعَ الشَّكِّ
بِظْفَرٍ مِنْ حَاجَتِي وَدَرَكٌ فَلَمَّا أَحَقَّ مَنْزِلَ بَرَكِ
الذَّبِّ يَمُودِي وَالْغَرَابِ يَكِي »

والساري : اسم فاعل من السرى وهو سير الليل وأصل المثل « عند الصباح يحمد القوم السرى » وأول من
قال ذلك كما في مجمع الأمثال عن « المفضل » الصبي هو « خالد بن الوليد » لما بعث إليه أبو بكر رضي الله عنهما
وهو « بالهامة » أن سر إلى « المراق » فأراد سلوك المفارقة ، فقال له « رافع » الطائي : قد سلكتها في
الجاهلية ، هي خسر للابل الواردة ، ولا أظنك تقدر عليها إلا أن تحمل من الماء . فاشتري مائة شارب
صطفيها ، ثم سقاها الماء حتى رويت ، ثم كتبها وكم أفواهاها ، ثم سلك المفارقة حتى إذا مضى يومان وخاف
المطش على الناس والخليل وخشى أن يذهب ما في بطون الابل ، نحر الابل ، واستخرج ما في بطونها من الماء
وسقى الناس والخليل ومضى لما كان في الليلة الرابعة ، قال « رافع » : انظروا هل ترون سهدرا نظاما ؟ فان
رأيتوها وإلا فهو الهلاك . فظفر الناس قرأوا السهدر فأخبروه مسكبر وكمر الناس ثم هجموا على الماء ،
قال خالد :

« اللَّهُ دَرِ رَافِعٍ أَنِي أَمْتَدِي فَوْزٌ مِنْ قَرَأْتِ إِلَى سَوِي
حَسَا إِذَا سَارَ بِهِ الْجَيْشُ بَكِي مَاسَارَهَا مِنْ قَبْلِهِ لَأَنْسَ يَرِي
عِنْدَ الصَّبَاحِ يَحْمَدُ الْقَوْمَ السَّرِي وَتَنْحَلِي عَنْهُمْ غِيَابَاتِ الْكَرَى . »

يضرب للرجل يحمّل المشقة رجاء الراحة .

(٢) غرت : من غار غوراً فهو غائر إذا أتى النور وهو ما انحدر مسيله ، ويقابله النجد : يقال : غار
وانجد وأغار وانجد ، قال جرير .

« يَا أُمَّ حَزْرَةَ مَا رَأَيْنَا مِثْلَكُم فِي الْمُنْجِدِينَ وَلَا بِنُورِ الدَّائِرِ . »

وقال الأعشى :

« نَبِيٌّ يَرَى مَا لَا تَرُونَ وَذَكَرَهُ أَغَارَ لِعَمْرِي فِي الْبِلَادِ وَأُنْجَدَا . »

وأنكر الجوهري أعار ، وقاله الأصمعي : أغار وانجد في بيت الأعشى بمعنى أسرع وارتفع ، على أن النصف
الثاني من البيت روى مخزوما هكذا : « غار لعمرى في البلاد وانجد » ، يقول : بين حالك من التواضع
والسمو إلى مراتب السيادة بون شامع ، فقد انحدرت إلى غور التواضع فكانت عاقبة ذلك أن استوفيت حظك
من العلباء وبلت أسنى مراتب السوء والرفعة .

وَلَمَّا اعْتَصَذْتَ اللَّهَ كُنْتَ مُوَهَّلًا
وَجَدْنَاكَ إِنِ الْقَحْتَ سَمِيًّا تَجْتَهُ
وَكَمْ سَاعِدَ الْأَعْدَاءِ أَوَّلَ مُطْمَعٍ
فَلَا ظَافِرٌ إِلَّا - إِلَى سَعْدِكَ - اَعْتَزَى
لَدَيْهِ لِأَن تَحْمِي وَتُسْكِنِي وَتُمْضِدَا
وَعَزِيكَ شَاوٍ حِينَ أَنْضَجَ رَمْدًا (١)
رَأُوكَ بِعِقْبَاهُ أَحَقَّ وَأَسْمَدَا
وَلَا سَائِسٌ إِلَّا بِتَذْيِيرِكَ اِقْتَدَى

ضَالًّا لِمَفْثُونِ سَمَوْتَ بِمَجَالِهِ
رَأَى حَطًّا أَوْلَى بِهِ ، فَأَحْلَاهَا
وَمَا زَادَ - لَمَّا لَجَّ فِي الْبَغْيِ - أَنَّهُ
فَزَلَ وَقَدْ أَمْطَيْتَهُ ثَبَجَ الشَّهَا
طَوِيلُ عِثَارِ الْجُرْمِ قُلْتُ لَهُ: «لَمَّا» (١)

(١) أَلْفَعْتُ مِنَ الْفَعِ الْفَعْلَ الدَّافِعَ ، وَلَفَعْتُ هِيَ ، قَالَ الْحَرِثُ بْنُ عِيَادٍ :

(١) قريبا مربط النعامة منى لقاءت حرب وائل من حبال .»

والسعي : التصرف في الأمور ، ونتجته : من قولهم نتج فلان الناقة إذا ولي نناحها وهي ماخص حتى تضع ، وفي المثل : « هل تنزع الناقة إلا لمن لفتحت له » ، وكتب عليه صاحب مجمع الأمثال ما نسخته : يقال نتجت الناقة على ما لم يسم فإله ، وأنتجتها إذا أفسها على ذلك ، والسائج للوق كالقابلة للأسان ، ولفحت تلتج لقا ولقحا والناقة لاقع وانقوح ، ومعنى المثل : هل يكون الولد إلا لمن يكون له الماء ؟ يضرب في التشبيه ، ويروى « لما لفتحت له » أي لقاحها أي لقبول رحما ماء الفحل ، يشير إلى صدق الشبه ، و « ما » مع « لفتحت » للمصدر ، وغيرك شاور : أصل المثل « شوى أخوك حتى إذا أنضج رمد » والرميد القاء الشواء في الرماد ، يضرب - كما في مجمع الأمثال للبدياني - لمن يقصد اصطباعه بالخن ، ويردف صلاحه بما يورث سوء الظن ، وبروي عن أمير المؤمنين « عمر بن الخطاب » رضي الله عنه : أنه مرّ بدار رجل عرف بالصلاح فسبح من داره صوت بعض الملاهي فقال : شوى أخوك حتى إذا أنضج رمد .

(٢) الحضيض : القراء من الأرض المنخفض عن سفح الجبل ، وأوهد : أفلت تفضيل من الوعدة وهي الهوة ، يقول : رأى ذلك الممتون انحطاط حاله أولى به وأنزل الممدوح من مستوى الفرائد إلى أحط قراء من الأرض بسبب كفران النعمة وفكران الجبل .

(۳) ثیج السہا : اعلیٰ ، والسہا : نچم صغیر فی بنات نعش الکبریٰ یمتحنون بہ أبصارہم خلفائہ ، وفق المثل « أریہا السہا وترینی القمر »

(٤) دعوت له بأن يقيم الله من سقطته . (٥) غطى على جهله وسيره .

تَجَنَّى فَأَهْدَيْتَ النَّصِيحَةَ مُحَضَّةً ، وَلَمْ تَأْلُهُ بُقِيًّا عَلَيْهِ تَنْظُرًا
فَمَا آثَرَ الْأُولَى ، وَلَا قَلَدَ الْحِجْبَى ، كَأَنَّكَ أَهْدَيْتَ السَّوَابِحَ ضُرًّا
وَأَجْرَ زَوْجَتِهِ ذَيْلَ الْحَبِيرِ (١) تَأْلَفًا
سَلَّ الْحَائِنُ الْمُعْتَرَّ : كَيْفَ اخْتِفَاؤُهُ
رَأَى أَنَّهُ أَضْحَى هَزَبًا مُصَمَّمًا ،
دَهَاهُ - إِذَا مَا جَنَّتْهُ اللَّيْلُ - أَنَّهُ
وَلَجَّ فَوَالَيْتَ الْعِقَابُ مُرَدَّدًا (٢)
لِفَيْئَةٍ مِنْ أَكْرَمَتِهِ فَتَمَرَّدَا
وَلَا شَكَرَ النُّعْمَى ، وَلَا حَفِظَ الْيَدَا
لِيَرْكُضَهَا - فِيمَا كَرِهْتَ - فَيُجْهِدَا (٣)
لِيَخْلُقَ - فِيمَا جَرَّ - حِقْدًا مُجَدَّدًا (٤)
- مَعَ الدَّهْرِ - عَارًا بِالْعِرَارِ مُخْلَدًا ؟ (٥)
فَلَمْ يَمُدُّ أَنْ أُمْنَى ظَلِيمًا مُشَرَّدًا (٦)
أَقَامَ عَلَيْهِ - آخِرَ الدَّهْرِ - سَرْمَدًا (٧)

(١) يقول بدأ يتجنى عليك الذنوب ويحقنها خلقا ، وكان جراؤه منك أن تحضه الصبح خالصا بريئا ، فلما لج في غروره وعصيانه صبت عليه عقابك المتوالى لتزجره - على أسأته وتؤدبه .

(٢) كأنما أهديته الجياد الضمر ليجاربك بها ويجهد نفسه في توخي أعدائك وتلب ما تكره .

كأن هذا الحائن ظن أنك أهديته الجياد الضمر السوايح ليجهدا ركضا فيما تكره من مناصرة أعدائك .
(٣) أحررت ذيل الحبير : جعلته يجر ذيل العمة .

وكأنه ظن أنك تتألمه بما تخلع عليه من جبر أجزرته دله ليعلم لك مشاكل ويجدد أحقادا بسبب ما حرمه من حرائر وجرائم . (٤) وفي الأصل : « للحدد مجددا »

(٥) الحائن : الأحمق ، والمعتز الفقير للمعتز المعروف من غير أن يسأل ، والاحتقاب الادخار ، يقال : احتقب الشيء : ادخره ، واحتقب خسيرا أو شرًّا واحتقبه : احتمله وجعله خلفه ، واحتقب الاثم : جمعه ، والعرار - جمع عرة وهي الحلة القبيحة .

(٦) المصمم : الماضي في الأمر معتزما ، والظلم : الذكر من النعام ، قال تأبط شرا :

« أنا الذي نكح العيلان في بلد ما طل فيه سماكي ولا جادا

في حيث لا يعمت العادي عمايته ولا الظلم به يبغي تهاديا

وقد لهوت - بمصقول عوارضها - بكر تنازتي ككأسا وعناقدا

ثم انتفى عصرها عني ، وأعقبه - عصر المشيب ، قتل في صالح يادا .

أي نكح العيلان في بلد لم يظفر بالطل وهو الرذاذ « المطر الخفيف » ولم يظفر فيه الظلم - « فرخ النعام » - بالهبيد - وهو الخنظل - ليأكله ، وقد لها بفتاة من الأبقار مصقولة العارضين تنازعه كشوش الحر وعناقيد اللعن ، ثم انتفى ذلك العصر الصالح وأعقبه عصر المشيب .

(٧) يقول : وقد أصبح يترقب جزأ أن يكون حينه مرتبعا بيومه وصار يتوجس الضر خوفا من أن يكون ليله سمردا إذا قتلته .

يُحَاذِرُ أَنْ يُلْقَى قَتِيلًا مُعَفَّرًا - إِذَا الصَّبْحُ وَافَى - أَوْ أُسِيرًا مُقَيَّدًا

* *

لَبِئْسَ الْوَفَاءَ أُسْتَنَّ فِي «أَبْنِ عَقِيدَةٍ»
قَرِينٌ لَهُ أَغْوَاهُ حَتَّى - إِذَا هَوَى -
فَأُصْبَحَ يَتَكَبَّرُ الْمُصَابُ بِشُكْلِهِ ،
فِدَاهُ لِإِسْمَاعِيلَ كُلُّ مُرْشَحٍ - إِذَا جُشِمَ الْأَمْرَ الْجَسِيمَ تَبَلَّدًا (١)

* *

أَفَادَ مِنَ الْأَمْثَلِكِ حَدَثَانٍ فَشَلِهِمْ
أَعَادَ الصَّبَّاحَ الطَّلُقَ لَيْلًا عَلَيْهِمْ
فَحَلَّ هِلَالًا - فِي ظَلَامٍ عَجَاجَةٍ -
يُرَاجِمُ مِنْ «صِنْهَاجَةٍ» وَ «زَنَاتَةٍ»
مَوَالِي ، لَمْ يَشْكُ الصَّدَى مِنْهُمْ الصَّدَا (٢)
فَجَاءَ وَأَتْنَى نَظَرَ الشَّمْسِ أَرْمَدَا
تُلَاحِظُهُ الْأَقْمَارُ - فِي الْأَفْقِ - حُسَدَا
- عِثْلُ نُجُومِ الْقَذْفِ - مَثْنَى وَمَوْحَدًا (٣)

(١) يقول : أن قرينه زين له الصلال حتى إذا تردى في سوء عمله تبرأ قرينه من عمله ورأى في التحلى عنه وسيلة إلى نجاته .

(٢) المرشح : المؤهل .

(٣) يقول : إن توالى الأحداث والحداب التي أنزلها حبشه بالملوك قد أفادته موالى غاية في البسالة لا يشكو العطشان منهم عطشاً أشد ما أوتيه من صبر وحلد .

(٤) راحم عنه : ناضل ، وراحم في الكلام والحرب بالغ بأشد مساحلة ، ونجوم القذف ، أو شهب القذف هي الرحوم ، قال الشاعر :

« كَشَاهِبِ الْقَذْفِ يَرْمِيكُمْ بِهِ فَارِسٌ فِي كَفِّهِ لِلْحَرْبِ نَارُ . »

يقول : لأنه يساحل بنصرة أهل زناته وصنْهَاجَةٍ ويقذف بهم الأعداء كما يقذف بالشهب ويرحم بها شائتيه ، وقد اشتهرت صنْهَاجَةُ ب تلك المذبحة الكبرى التي حدثت في القرن الخامس من الهجرة سنة ٤٥٩ هـ وقد ثارت صنْهَاجَةُ على اليهود وقتلوا منهم مقتلة عظيمة وفيهم الوزير يوسف بن نازلة اليهودي ، وكان سبب هذه المذبحة أن ذلك الوزير - وكان قد استوزره باديس صاحب فرناطة - قد وثى بأبي إسحق الفقيه زاهد البيرة فأقصاه السلطان عن بلاده .

قالوا : « وكان ذلك الوزير قد تعرض لتسفيه بعض الآراء الدينية الإسلامية ، وكان عظيم الخطر واسع

هُمْ الْأَوْلِيَاءَ الْمَانِحُونَ صَفَاءَهُمْ إِذَا أُمْتَارَ مُصْنِي الْوُدِّ مِمَّنْ تَوَدَّدَا

النفوذ — فوجد أبو إسحق من ذلك حافرا إلى إنشاء قصيدته البليغة التي دفعه إلى قولها غيظه من عدوه —
 ذلك الوزير الخطير — فلأما تحريضها وأفعمها حجباً وبراهاً، أفلح في التأثير بها على العامة وحلهم على
 إنفاذ رغباته — وما زال يفتن في ضروب الاحتشاك والنهييج حتى اشتمل الجمهور حاسه وهجم على ذلك
 الوزير فقتله — في قصر السلطان نفسه — وليس من شك في أن أبا إسحق بدل كل مواهبه في الضرب على
 النعمة الدينية وإظهار الفجع الشديد على ما انتاب الدين من التهاون به وعرف كيف يوالى فيها اطراد الأدلة
 واتساقها وتدقيق المعاني وغرارتها مع دقة عجيبة في التعبير عن أغراضه وخوالجه بكلام نظم ، يتطير حاسه
 ويتأجج ناراً ، وسعر صارخ

« خارج من قلب فائله مثلما يزمر بركان . »

وبهذا استطاع أن يوهم سامعيها أن قتل أولئك اليهود — أخصامه — فرض لا مناص من أدائه وواجب
 حتم لا يصح السكوت عنه وأنهم — إن كانوا غفلوا عن القيام به فيما مضى — فهم حليقون أن يتداركوه في
 الحال ، حتى لا تصب عليهم لعنة الله ، أو يحق بهم غضبه ، فيحسف بهم الأرض ، أو ينزل عليهم السماء ،
 وكذلك لم يترك ناطما وسيلة من الوسائل التي تستقر أحق العواطف الدينية السكائمة إلا استعملها ،
 ولا نعمة من نعمات منصبه للعقيدة الدينية إلا ضرب على وتيراتها . كل ذلك بأسلوب سهل رشيق كاد
 يصل — لسهوانته — إلى حد الركافة في بعض الأبيات مع أنه من أجل الشعر وأبدعه ، وإن شئت نقل
 وأروجه ، وإليك هذه القصيدة العريضة في بابها :

« ألا قل لصنحة أجمين بدور الزمان وأسد العرب
 مقالة ذي مفة مشفق يعد الصيحة زلى ودين
 لقد دلّ سـيدكم ذلة نقر بها أعيى الثامنين
 تحير كائب كافرا ولو شاء كان من المؤمنين
 فمر اليهود به وانتوا وتاهوا، وكانوا من الأردنين »
 ومنها :

« فكم مسلم راغب راهب لأردل فرد من المشركين
 وما كان ذلك من سعيهم ولكن منا يقوم المعين
 فهلا اقتدى بهم بالألى من القادة الخيرة المنقذين »
 في هذا البيت شيء كثير من الركافة في قوله « بالألى من القادة الخيرة المنقذين » ولكننا ستفرها لما في
 إيبه من تعة تلك الصورة الشعرية المنطقية البديعة .

« وأنزلهم حيث يسألون وردهم أسفل السافلين
 فلم يستمعوا بأعلامنا ولم يستطيعوا على الصالحين »
 ومنها يخاطب السلطان باديس :

« أبا ديس ! أنت امرؤ حاذق تصيب بطك نفس اليقين
 فكيف خي لك ما يعشون وفي الأرض تضرب منها القرون
 وكيف تحب فراخ الزنا وقد بغضوك إلى العالمين »

لَهُمْ كُلُّ مَيِّمُونَ النَّقِيبَةِ بَارِلٍ ^(١) كَفِيلٍ بِأَنْ يَسْتَهْزِمَ الْجَمْعَ مُفْرَدًا
يَسْرُوكَ فِي الْهَيْجَا إِذَا جَرَّ لَامَةً وَيُرْضِيكَ فِي النَّادَى إِذَا أَعْتَمَّ وَأَرْتَدَى ^(٢)

كَرِهْتَ - لِسَيْفِ الْمَلِكِ - أُلْفَةً غَمْدِهِ
وَلَمْ تَرَ لِلشَّبْلِ الْإِقَامَةَ فِي الشَّرَى
مُهَامٌ - إِذَا حَارَبْتَ - فَأَرْفَعِ لَوَاءَهُ ،
وَيَأْتِي مِنْ بَيْنِ الْمِهَادِ تَعَوُّضًا
وَقَدْ مَا شَكَا حَبْلَ التَّمَاهِمِ يَافِعًا
وَلَمْ تَرَ سَيْفًا - بِأَتِكَ ^(٣) الْحَدَّ قَبْلَهُ -
وَقَلَّ غَنَاهُ السَّيْفِ مَا كَانَ مَغْمَدًا
فَجَدَّ أَفْتِرَاسًا حِينَ أَصْحَرَ لِلْعِدَا
فَمَا زَالَ مَنْصُورَ اللُّوَاءِ مُوَيَّدًا
بِصَهْوَةِ طَيَّارٍ - إِلَى الرُّوْعِ - أَجْرَدًا
لِيَحْمِلَ رَقْرَاقَ الْفَرِيدِ مُهْنَدًا
تَنَاولَ سَيْفًا - دُونَهُ - فَتَقَلَّدَا

وكيف يتم لك المرتقى
وكيف استنمت إلى فاسق
ومنها :

« واني حلت بفرناطة
وقد نسـمـوها وأعمالها
ومنها :

« وهم أما كم على سركم
ويأكل عـيرهم درهم
وقد نهضـوكم إلى ربكم
ومنها :

« ورخم قردمـم داره
وصارت حوائجنا عنسده
ويضحك منا ومن دينا
فانا إلى ربه راجعون »

(١) البارل : الرجل الكامل ، والبارل أيضا الناقة في طمها التاسع ، قال الشاعر :

« عذرت البزل إن هي غالبتني فما يال وبال ابني لبون »

(٢) أي تعجب بشجاعته إذا لبس لامة الحرب كما تعجب بسجاحته التحف رواه وليس عمامته في السلم .

(٣) باتك الحد : فاحمة مرهفة .



لَبْنٌ أَنْجَزَتْ مِنْهُ الشَّمَائِلُ آخِرًا لَقَدْ قَدَّمَتْ مِنْهُ الْمَخَائِلُ ^(١) مَوْعِدًا
قَرَرْتَ بِهِ عَيْنَا، فَكَمْ سَادَ عِثْرَةٌ وَكَمْ سَاسَ سُلْطَانَا، وَكَمْ زَانَ مَشْهَدًا
وَأَعْطَيْتُمَا - فِيمَا تُرِيدَانِهِ ^(٢) - الرِّضَى، وَبَلَّغْتُمَا - مِمَّا تُرِيدَانِهِ - الْمَدَى

دولة عباد

كَمْ لِرِيحِ الْغَرْبِ مِنْ عَرَفٍ نَدَى كَأَشْرَابِ الْعَذْبِ فِي نَفْسِ الصَّدَى ^(٣)
حَيْثُ «عَبَادٌ» فَتَى الْمَجْدِ الَّذِي نَصَّتِ الدُّنْيَا بِهِ نَصَّ الْهَدَى
مَلِكُ رَاحَتِهِ بِحَرْزِ النَّدَى مِثْلَمَا غُرَّتُهُ بِذُرِّ النَّدَى
أَضْبَحَتْ دَوْلَتُهُ فِي عَصْرِنَا كَفَرْنَا عَادَ فِي سَيْفِ صَدَى ^(٤)

إلى حبيب

يَا ظَبِيَّةَ لَطُفْتَ مِنِّي مَنَازِلَهَا فَأَلْقَبْتُ مِنْهُنَّ وَالْأَخْدَاقُ وَالْكَبِيدُ
حُبِّي لَكَ النَّاسُ طُرَا يَشْهَدُونَ بِهِ وَأَنْتِ شَاهِدَةٌ إِنْ يَتَنَبَّهُمْ حَسَدُ
لَمْ يَعْرِبِ الْوَضْلُ فِيمَا يَبْنِنَا أَبَدًا لَوْ كُنْتُ وَاجِدَةً مِثْلَ الَّذِي أَجِدُ

(١) الخليل من السحب : المندرة بالمطر . قال مروان ابن أبي حفصية :

« إِنْ أَخْلَبَ الْغَيْثُ لَمْ تَخْلَفْ مَحَابِلَهُ »

وهي هنا بمعنى الدلائل التي تتوهم بها الشيء ، والشمائيل : الصفات ، قال أبو تمام يرثي ضليخ :

« لَهْفِي عَلَى تِلْكَ الْخَالِيلِ مِنْهُمَا لَوْ أَمَهَكَ حَتَّى تَكُونَ شَمَائِلًا »

لعدا سكونيهما حبا ، وصباهما عزما ، وتلك الأريحية نائلا .

(٢) تريفانه : تطلبانه ، تقول : أراغ الشيء أى أراده وطلبه ، وقد جاء في الأصل :

« وَأَعْطَيْتُمَا - فِيمَا تُرِيدَانِهِ - الرِّضَى »

(٣) الصدى : الظلمان .

(٤) أعادت دولته إلى زماننا روثقه وبهائه فصار كالسيف عارده الصقل والروث بعد أن علاه الصدا .

في مدح أبي المظفر

« وقال يمدح أبا المظفر سيف الدولة أبا بكر محمد

ابن مسلم صاحب بطليوس . »

هِيَ الشَّمْسُ مَغْرِبُهَا فِي الْكِلَلِ وَمَطْلَعُهَا مِنْ جُيُوبِ الْحُلَلِ (١)
وَعُصْنُ تَرَشَّفَ مَاءِ الشَّبَابِ تَرَاهُ الْهَوَى وَجَنَاهُ الْأَمَلِ (٢)
تَهَادَى لَطِيفَةً طَى الْوِشَاحِ وَتَرْنُو ضَعِيفَةً كَرَّ الْمُقَلِ (٣)
وَتَبْرُزُ خَلْفَ حِجَابِ الْعَفَافِ وَتَسْفِرُ تَحْتَ ثِقَابِ الْحَجَلِ (٤)
بَدَتْ فِي لِدَاتِ - كَزُهِرِ النُّجُومِ - حِسَانِ التَّحَلَّى مِلَاحِ الْعَطَلِ
مَشَيْنَ يَهَادِينَ رَوْضَ الرُّثَا يَبَانِعِ رَوْضِ الصَّبَا الْمُقْتَبَلِ
فَرْنَ قُضْبٍ تَتَنَّى بِرِيحِ وَمِنْ قُضْبٍ تَتَنَّى بِدَلْ
وَمِنْ زَهْرَاتٍ تُنْدَى بِمِنْكَ وَمِنْ زَهْرَاتٍ تُنْدَى بِطَلْ
تَعَاهَدَ صَوْبُ الْعِهَادِ الْحَمَى وَلَا زَالَ مَرْبَعُهَا فِي مَلَلِ (٥)

(١) الكل : جمع كلة ، وهي ستر رقيق صريح يتوق به من البعوض ونحوه ، والجيوب : جمع جيب ، وهو من القميص طوقه ، والحلل : جمع حلة بالصم وهي إزار وراية (برد أو غيره) ولا تكون حلة إلا من ثوبين أو ثوب له بطانة ، والمعنى أن هذه الحساء شمس تعرب في الكل كما تقيب الشمس في مربها ، وتشرق من جيوب الحلل كما تطلع الشمس من مشرقها .

(٢) وهي عصن غرس في أرض الهوى وارتوى بماء الشباب لاماء السحاب فأجنانا ثمرة الأدل .

(٣) تهادى : تمتشى مشية في مهمل وتناقل ، وترنو : نظرت وأخر عينها ، يعنى أنها تهادى بين أثريها يكاد ينعدم ما انطوى عليه الوشاح من الحصر ، وتكرر بسيف لحظها من جفون فائرة مريضة .

(٤) تسفر : مضارع سفرت المرأة سفورا كشفت الثياب عن وجهها ، يقول : إذا برزت للرجال برزت وراء حجاب يصونها من عفتها وإذا بدت لهم ساهرة ستر وجهها ثياب من الحياء والحجل .

(٥) العهد : المطر ، وصوبه نزوله ، والريع : الموضع الذي ينزلون فيه أيام الربيع ، ولا زال مريعها في ملل : أى ولا زال المطر يصوب في مريعها حتى يميل لكثرة نزوله ، وفي الأصل :

« ولا مل مريعها في ملل » وجاء في ابن الأثير : في حديث الاستسقاء فألف الله السحاب وملتنا ، كذا في رواية مسلم ، قبل من الملل أى كثر مطرها حتى ملتنا . انظر ج ٤ ص ١٠٩ من النهاية لابن الأثير .

مَرَادُ - مِنْ الْحُبِّ - غَضُّ الْجَنَى ،
 لِيَاكِي مَا أَنْفَكَ يُهْدِي الشُّرُورَ
 زَمَانٌ كَأَنَّ الْفَتَى الْمَسْلَمِيَّ
 تَدَارَكَ ^(١) مِنْ حُكْمِهِ أَنْ يُعِيدَ
 وَيُوضِحَ رَسْمَ الثَّقَى - إِذْ عَفَا -
 لَدَيْنِهِ - مِنْ الْوَصْلِ - وَرِزْدٌ عُلَّنْ
 حَبِيبٌ سَرَى ، وَرَقِيبٌ غَفَلَنْ
 تَكْنَفُهُ عَدْلُهُ فَاعْتَدَلَنْ
 بِهِ عِزَّةَ الدِّينِ أَيَّامَ ذَلْ
 وَيُطْلِعَ نَجْمَ الْهُدَى إِذْ أَفَلَنْ

حَدَّثَنَا « الْمُظَفَّرُ » لَمَّا رَأَى
 مَلِيكَ تَجَلَّى لَهُ غُرَّةٌ
 أَشْفَى الْوَرَى - فِي النَّهْيِ - رُتْبَةً ،
 وَأَحْرَى الْأَنَامِ بِأَمْرِ وَنَهْيِ
 يَمَافٍ لَهُ التَّاجُ مِنْ بَيْنِهِمْ
 سَنَامٌ - مِنَ الْمَجْدِ - عَلَى الدُّرَا
 تَقِيلَ - فِي الْمَهْدِ - ظِلُّ الْوَاءِ
 وَنِيطَتْ حَمَائِلُهُ الْوَافِيَاتُ
 وَمَا بَلَّتِ الْبُرْدَ تِلْكَ الدُّمُوءُ
 *
 « لِنَصُورِنَا » سِيرَةٌ فَاُمْتَثَلَنْ
 تَأْمَلَهَا غُرَّةٌ شُهْبَلَنْ
 وَأَشْهَرُهُمْ - فِي الْمَعَالِي - مَثَلَنْ ^(٢)
 وَأَذْرَى الْمُلُوكِ بِعَقْدٍ وَحَلْ
 بِمَا أَوْرَثَ التَّبَعُونَ الْأُولَى
 يَظَلُّ الْعِدَامَةُ تَحْتَ الْأَظْلَ ^(٣)
 وَسِيمَ النَّهْوَضِ بِهِ فَاسْتَقَلَّ ^(٤)
 - مَكَانَ تَمَائِمِهِ - فَاحْتَمَلَنْ
 عِ إِلَّا وَفَى الْبُرْدِ لَيْثٌ أَبْلُ ^(٥)

(١) في الأصل : « تبارك »

(٢) وقف على « مثل » بالسكون مع أنه منصوب لوقوعه تمييزاً ، وريضة يحبرون المنسوب في الوقف
 يجري المرفوع والجور فيقفون عليه بالسكون ، وقد اضطرت القافية - في غير ما موضع - أن يترك
 الاستعمال العاشق من لغة العرب ويلجأ إلى هذه اللغة القليلة .

(٣) باطن منم البعير .

(٤) تقيل : استظل ، وسيم : كلف ، بالغ إلى حد الأغراق فجعل المدوح وهو في المهد يقود الجيوش
 ويتقيل ظل اللواء ويكلف النهوض بهذا العبء ليستدل بحمل اللواء وحده .

(٥) الليث الأبل : الأسد الشديد الحصومة .

عَهْدَنَا الْمَكَارِمَ فِيهِ مَعَانِ تَبَشَّرْنَا فِيهِ مِنْهَا الْجَمَلِ
تَرَى بَعْدَ بَشِيرِ يُرِيكَ الْغَمَامَ تَهْلَلُ بَارِقُهُ فَاَمْسَتْ هَلْ
يُصَدِّقُ مَا حَدَّثْنَا « عَسَى » بِهِ عَنْهُ ، أَوْ أَتَبَأْنَا « لَعَلَّ »
فَمَا وَعَدَ الظَّنُّ إِلَّا وَفَى وَلَا قَالَتِ النَّفْسُ إِلَّا فَعَلْ
فَلَقَى مُنَاوِئَةً مَا أَتَى وَأَعْطَى مُؤَمِّلَهُ مَا سَأَلَ

كَمْ اسْتَوْفَتِ الشُّكْرَ نَعْمَاوُهُ فَأَقْبَلَ يُنْعِمُ مِنْ ذِي قَبْلِ^(١)
غَمَامٌ يُظِلُّ ، وَشَمْسٌ تُنِيرُ ، وَبَحْرٌ يَفِيضُ ، وَسَيْفٌ يُسَلُّ^{##}
قَسِيمُ الْمُحْيَا ، ضَحْوُكُ السَّمَاحِ ، لَطِيفُ الْخَوَارِ ، أَدِيبُ الْجَدَلِ
تَوْشَى الْبَلَاغَةَ أَقْلَامُهُ إِذَا مَا الضَّمِيرُ عَلَيْهَا أَمَلُ^(٢)
يَبَانُ يُبَيِّنُ - لِلْسَّامِعِينَ - أَنَّ مِنَ السَّحْرِ مَا يُسْتَحَلُّ^(٣)
أَلَا هَلْ سَبِيلٌ إِلَى الْعَيْبِ فِيهِ فَكَمْ عَيْنٍ مِنْ قَبْلِهِ - مَنْ كَمَلُ^(٤)

- (١) يقال : لقيته من ذى قبل (بفتحين وبكسر وفتح) أى فيها :- قبل .
(٢) يقال أمل عليه الكتاب أى أملاه ليكتبه ، وفي الكتاب الموزن : (فليكتب وليمل الذى عليه الحق) وفيه أيضا : (وقالوا أساطير الأولين اكتبها فهي تملى عليه)
(٣) السحر الذى يستحل هو سحر البيان ، وفيه الإشارة إلى النمل المشهور : إن من البيان لسحرا ، قاله النبي - صلى الله عليه وسلم - حين وفد عليه ، عمرو بن الأهتم ، والزبرقان بن بدر ، وقيس ابن ماص ، فسأل عليه الصلاة والسلام عمرو بن الأهتم عن الزبرقان . فقال عمرو : « مطاع فى أدنيه ، شديد المعارضة ، مانع لما وراء ظهره » . فقال الزبرقان : « يا رسول الله ! إنه ليعلم منى أكثر من هذا ، ولكنه حسدى » . فقال عمرو : « أما والله ! إنه لزمى للرومة ، ذيق العطن ، أحرق الوالد ، لئيم الحال ، والله يا رسول الله ما كذبت فى الأولى ، ولقد صدقت فى الأخرى ، ولكى رجل رضيت فقلت أحسن ما علمت ، وسحطت فقلت أفجح ما وجدت » . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « إن من البيان لسحرا » ، وإنما سعى البيان سحرا لتأثيره فى سامعه ، وسرعة قبول القلب له .
(٤) هين : أصيب بالعين ، من كان المحسود بعينه فهو طائن والمحسود ممين أصابه بالعين ، يقول : هل من سبيل إلى وجود عيب واحد فيه يقيه شر أعين الحاسدين ، فكثيرا ما أصيب بالعين الكامل الذى لا نقص فيه ولا عيب . وهذا قريب من قول القائل :
« ما كان أحوج ذا الكمال إلى عيب يوقيه من العين . »

لَنْ لَيْسَ الْمَلِكُ رَحْبَ الْمَلَأِ • فَاخْتَالَ مِنْهُ بِذَيْلِ رَقْلٍ
فَإِنْ تَزَوَّدَهُ لِلْمَعَالِي وَإِنْ تَأَهَّبَهُ لِلْجَلِّ
فَأَخْبِرْ سُؤاسِ هَذِي الْأُمُورِ وَنَاسِكَ أَرْبَابِ هَذِي الدُّوَلِ

وَلَيْتَ الشُّعُورَ فَلَمْ تَعُدْ أَنْ رَأَيْتَ الثَّأْيَ (١) وَسَدَدْتَ الْخَلَلَ
سِوَاكَ - إِذَا قُلِّدَ الْأَمْرَ - جَارَ، وَغَيْرُكَ - إِنْ مُلِكَ الْيَوْمُ - غَلَّ (٢)
حَتَّى لَا يَزَالَ لِمَنْ حَلَّهُ أَمَانَانِ : مِنْ عَدَمٍ ، أَوْ وَجَلٍ (٣)
فَأَنْجِمُ دَهْرِهِمْ سَعْدَةً وَشَمْسُ زَمَانِهِمْ فِي الْحَمَلِ (٤)

« أَبَا بَكْرٍ » اسْمَعِ أَحَادِيثَ لَوْ ثَبَتَ بِسَمْعٍ عَلِيلٍ أَبْلٌ (٥)
سَأَشْكُرُ أَنَّكَ أَغْلَيْتَنِي بِأَحْظَى مَكَانٍ وَأَذِنَ عَمَلٌ
وَأَنْتَ إِنْ زُرْتُ لَمْ تَحْتَجِبْ وَإِنْ طَالَ بِي تَجَلَّسْتُ لَمْ تَمَلْ

(١) الثأْي : الفساد ، ورأبته أصلحته .

(٢) الي : ما حصل للمسلمين من أموال الكفار عفواً بلا قتال ، وتقسيبه غير تقسيم الفنائم ، وغل : خاف ، وخصه بعضهم بالغلول (أى الحياة) فى الي والغنم ، وهو من قول الله عز وجل : « وما كان لنى أن ينل . »

(٣) عدم أو وجل : أى فقراً وخوف .

(٤) سعد : صفة للأنجيم ، يقال : يوم سعد ليلة سعد ، وفى الأصل : « وأنجم دهرهم أسعد » وأسعد وصف للمذكر ، ولا يصح وصف الأنجم به ، وفى السماء كواكب يقال لكل منها : « سعد » وسعد النجوم عشرة وهى : « سعد الذابح ، وسعد بلع ، وسعد السمود ، وسعد الأحيية ، وسعد ناضرة ، وسعد الملك ، وسعد البهام ، وسعد الحمام ، وسعد البارخ ، وسعد مطر . »

(٥) صبح من مرضه .

تَبَسَّمتَ ثُمَّ ثَنَيْتَ الْوِسَادَ فَحَسْبِي مِنْ خَطَرٍ مَا أَجَلُ^(١)
 فَلَوْ صَافَحَ الثَّبَرُ خَدِّي لَهَانَ وَلَوْ كَاثَرَ الْقَطَرُ شُكْرِي لَقَلُّ
 بِأَمْثَالِهَا يُسْتَرَقُّ الْكَرِيمُ إِذَا مَطْمَعٌ بِسِوَاهُ أَخْلُ

فَلَا تَعْدَمَنَّكَ الْمَسَاعِي الَّتِي لِأَمِّ الْمُنَاوِيكَ فِيهَا الْهَبَلُ^(٢)
 وَأَنْتَ الْجَرِيُّ - إِذَا الشَّبْلُ هَابَ - وَأَنْتَ الدَّلِيلُ، إِذَا النَّجْمُ ضَلَّ
 وَمَا أَبْنُكَ إِلَّا جِلَاءَ الْعُبُونِ إِذَا نَظَرْتُ - بِسِوَاهُ - أَكْتَحَلَنْ
 رَيْبُ السَّيَادَةِ - فِي حَجْرِيهَا - تُدِرُّ لَهُ تَذْيِهَا إِذْ حَقَلَنْ^(٣)
 تَمَكَّنَ يَتْلُوكَ - فِي الصَّالِحَاتِ - فَلَمَّا تَفَقَّهَ ، وَلَمَّا يَنْلَ

(١) ثنيت الوساد : الوساد المتكاثر ، وثنيت أى رددت بعده على بعض ، وذلك للينه ، أو ثنيته جعلت له ثانيا وصعته عليه ليحصل الارتفاق ، والاتكاء عليه عند الجلوس ، وهذه الحفاوة إما أن تكون حصلت بفعل مباشر من الملك تواضعا منه ومباغة في إكرام دى الورارتين (ابن زيدون) ، وإما أن تكون حصلت من الخدم والاتباع بناء على أمر الملك ، يقول في هذا البيت والبيتين قبله : سأشكر لك إلك أعليت مكانى ، وأدريت على ، وإلى إن رددتك لم تحتجب وإن طال بى الجلوس فى مجلسك لم تسأم ولم تل ، وأنى إن جئت زائرا تبسمت وثنيت الوساد احتفاء بى ، لحسبى هذا من خطر عظيم وشرف ما أجله وما أعظمه .

(٢) يقال : هلته أمه تكلته ، ولأمه الهبل أى التكل . قال الشاعر :

« والناس من يلقى خيرا ، قائلون له ما يشتهى ، ولأم المخطى الهبل . »

وقال البحتري :

« ولاكم البغى ، ثم الساب نحوكم بالشرية فيها التكل والهبل . »

وقال المعري :

« دع آدماء - لاشغاه الله من مل - يكنى على ولده المقتول هايبلا . »

(٣) حفل : ابتلا ، حفل اللين فى الضرع يحفل حفلا وحفولا ، وتحفل واحتفل : اجتمع وهذا ضرع

حفيل أى مملوه لنا .

ذكرى قرطبة وإيام الصبا

تَنَشَّقُ - مِنْ عَرَفِ الصَّبَا ^(١) - مَا تَنَشَّقَا

وَعَاوَدَهُ ذِكْرُ الصَّبَا فَتَشَوَّقَا

وَمَا زَالَ لَمْعُ الْبَرْقِ - لَمَّا تَأَلَّقَا -

يُحِيبُ بِدَمْعِ الْعَيْنِ حَتَّى تَدَفَّقَا ، وَهَلْ يَمْلِكُ الدَّمْعُ الْمَشُوقُ الْمَصْبَا ^(٢) ؟

* * *

خَلِيلِي - إِنْ أَجْزَعُ - فَقَدْ وَضَحَ الْعُذْرُ

وَإِنْ أَسْتَطِيعُ صَبْرًا فَمِنْ شِيَعَتِي الصَّبْرُ

وَإِنْ يَكُ رُزْءًا مَا أَصَابَ بِهِ الدَّهْرُ

فِي يَوْمِنَا خَيْرٌ ، وَفِي غَدِهِ أَمْرٌ ^(٣) وَلَا عَجَبٌ ، إِنْ الْكَرِيمُ مُرَرًّا

(١) الصبا : ريح الصبا أى ريح الشمال . والعرف : الطيب .

(٢) يهيب : مضارع أهاب بصاحبه دحاه ، أى يدعو الدمع ليتدفق ، والصبا : ذو الصبوة ، والصبوة : جهلة الفتوة يقال صبا صبوا وصبا وصباء . وصبي إليها - كرضى - حن ، وأصبته المرأة وتصبته : شاقته ودعته إلى الصبا فحن إليها .

(٣) فى المثل : « اليوم خير وغدا أمر » وقد قاله امرؤ القيس - بن بلخه قتل أبيه ، ومعناه : اليوم نأمر وننعم تاركين إلى المدأداء ما علينا من الواجبات والفروض . ويروى ، ودو أبعداً لامرئ القيس : « اليوم قحاف ، وغدا ثقاف » والقحاف جمع تحف ، وهو إناء يشرب فيه ، والثقاف : المداقة من ثقف الهامة شقها عن الدماغ .

* * *

رَمَتْنِي اللَّيَالِي عَنْ قِسْيِ النَّوَائِبِ
فَمَا أَخْطَأْتُنِي مُرْسَلَاتُ الْمَصَائِبِ
أَقْضَى نَهَارِي بِالْأَمَانِي الْكَوَاذِبِ
وَأَوْرَى إِلَى لَيْلٍ بَطِيءِ الْكَوَاكِبِ^(١) وَأَبْطَأُ سَارِ كَوْكَبٍ بَاتَ يُكْثَلُ

* * *

أَقْرَبُ طَبَّةَ الْغُرَاءِ أَهْلَ فَيْكِ مَطْمَعُ ؟
وَهَلْ كَبِدُ حَرَّى لَيْبِنِكَ تَنْقَعُ ؟
وَهَلْ لِلْيَالِيكِ الْحَمِيدَةِ مَرْجِعُ ؟
إِذِ الْحُسْنُ مَرَأَى فَيْكِ وَاللَّهُ وَمُسْمَعُ وَإِذْ كُنْتُ الدُّنْيَا لَدَيْكِ مُوَطَّأً^(٢)

(١) إشارة إلى البيت المشهور في قصيدة النابغة الذبياني :

« كايـنـي لـهـم يا أمية ناصب وليل أفاـسـه بطيء الكواكب
تطاول حتى قلت ليس ينقضى وليس الذي يرعى النجوم بأثـب
وصدر أراح الليل طازب هم تضاعف فيه الحزن من كل جانب . »

حمل صدره مألفاً للهموم وجعل الهموم كالإبل العازبة بالنهار حتى إذا أتى الليل أراحها الرعاة في أماكنها
والنابغة أول من حمل الهموم تعرب بالنهار وتزايد بالليل ، وتبعه الشعراء في ذلك ، فقال مجنون لبلى :

« يغم إلى الليل أطفال حبكم كما ضم أضرار القيس البناتى . »

وقال ابن الدمينة :

« نهاري نهار الناس حتى إذا بدا لي الليل هرتني إليك المضاجع

أقضى نهاري بالحديث وبالملى ويجمعني والهم بالليل جامع . »

ولهذا السبب نبرم الشعراء بطول الليل فقال :

« كواكب ليلة طالت ونمت وهذا الصبح راحة فحورى »

وقال امرؤ القيس :

« فيا لك من ليل كأن نجومه بكل منار الفتل شدت يذبل »

وقد أكثر الشعراء من أمثال هذه المعاني فلنجتزئ بهذه الأبيات .

(٢) موطأ : ميسر مدلل .

الْإِنْسَ عَجِيئًا أَنْ تَشُطَّ النُّوَى بِكَ
فَأَحْيَا كَأَنْ لَمْ أُنْسَ نَفْحَ جَنَابِكَ
وَلَمْ يَلْتَمِمْ شَعْبِي خِلَالَ شِعَابِكَ
وَلَمْ يَكْ خَلْقِي بَدْوُهُ مِنْ تُرَابِكَ وَلَمْ يَكْتَنِفْنِي مِنْ نَوَاحِيكَ مَنَشَأُ

نَهَارُكَ وَصَاحُ ، وَلَيْسُكَ صَحِيَّانُ
وَتُرْبُكَ مَصْبُوحُ ، وَغُضُنُكَ نَشْوَانُ
وَأَرْضُكَ تُكْسِي ، حِينَ جَوْكَ عُرْيَانُ
وَرِيَّاتُكَ رَوْحُ - لِلنَّفُوسِ - وَرَيْنَحَانُ وَحَسْبُ الْأَمَانِي ظِلُّكَ الْمُتَفَيُّ (١)

أَلْأَنَسَى زَمَانًا « بِالْعُقَابِ » مُرَفَّلًا
وَعَيْشًا بِأَكْنَافِ « الرُّصَافَةِ » دَغْفَلًا (٢)
وَمَنْعَى - إِزَاءَ « الْجَعْفَرِيَّةِ » - أَقْبَلًا
لَنِعْمَ مَرَادُ النَّفْسِ رَوْضًا وَجَدَوْلًا وَنِعْمَ مَحَلُّ الصَّابِغَةِ الْمُتَبَوِّأُ

وَيَارُبُّ مَلَهَى « بِالْعَقِيقِ » وَتَجَلِّسِ
لَدَى تُرْعَةٍ ، تَرْنُو بِأَحْدَاقِ نَرْجِسِ
بِطَاحِ هَوَاءِ مُطْمِعِ الْحَالِ مُؤَيِّسِ
مَنْعِمٍ وَلَكِنْ مِنْ سَنَا الرِّاحِ - مُشْمِسِ إِذَا مَا بَدَتْ - فِي كَأْسِهَا - تَتَلَأَلُ

(١) فحيان : أى بارز ظاهر لا يسره ظلام ، وذلك لكثرة ما يضاء فى قرطبة من المصابيح والسرر
بالليل . وعريان : محو يريد أن أرضها مكسوة بالنبات وجوها محو صافى الأديم ، المتفيا : الذى يستظل به
ويستريح فيه المقيل . (٢) الدغفل : العيش الواسع المخصب .

وَقَدْ ضَمَّنَا مِنْ «عَيْنِ شُهَدَاةٍ» — مَشْهَدُ
 بَدَأْنَا وَعُدْنَا فِيهِ ، وَالْعَوْدُ أَحْمَدُ
 يَرْفُ عَرُوسَ اللَّهِوِ أَحْوَرُ أَغْيَدُ
 لَهُ مَبْنَسِمٌ عَذْبٌ ، وَخَدٌّ مُورَّدٌ ، وَكَفٌّ — بِحِجَاءِ الْمُدَامِ — تُقْنَأُ ^(١)

وَكَأَنَّ عَدَوْنَا — مُصْعِدِينَ — عَلَى الْجِسْرِ ^(٢)
 إِلَى الْجَوْسِقِ ^(٣) النَّصْرِيِّ بَيْنَ الرُّبَا الْعُفْرِ
 وَرُخْنَا إِلَى الْوَعْسَاءِ ^(٤) مِنْ شَاطِئِ النَّهْرِ
 بِحَيْثُ هُبُوبُ الرِّيحِ عَاطِرَةِ النَّشْرِ عِلَا قُضْبِ النُّوَارِ ، فَهِيَ تُكَفَّأُ

وَأَحْسِنِ بِأَيَّامٍ — خَلَوْنَ — صَوَالِحِ
 بِمَضْمِنَةِ الدُّوَلَابِ ، أَوْ قَصْرِ نَاصِحِ
 تَهْزُ الصَّبَا — أَثْنَاءَ تِلْكَ الْأَبَاطِحِ —
 صَفِيحَةَ سَلْسَالِ الْمَوَارِدِ سَاحِحِ تَرَى الشَّمْسَ تَجْلُو وَتَصْلَاهَا حِينَ يَصْدَأُ ^(٥)

(١) تقنأ : تصنع باللون الأحمر القاني ، وذلك حين تمسك بالكأس فينعكس عليها من لون الراح ما يشبه الحضاب بالحناء . (٢) وكم حربنا صاعدين على الجسر .

(٣) الجوسق : القصر ، والربا : جمع ربوة ، وهي ما ارتفع من الأرض والعمر جمع نعراء — وهي أرض بيضاء لم توطأ .

(٤) الوعساء : رابية من رمل لينة تنبت أحرار البقول .

(٥) يقول : إن ربح الصبا تهز خلال تلك الأباطح صفيحة جدول سلسال الموارد سائح في الأباطح ، والشمس تجلو نصل هذا الجدول الشبيه بصفيحة السيف حين يصدأ من الطل .

* * *

وَيَا حَبْدَا « الزَّهْرَاءُ » بَهْجَةً مَنْظَرِ
وَرِقَّةَ أَنْفَاسٍ ، وَصَحْفَةَ جَوْهَرِ
وَنَاهِيكَ مِنْ مَبْدَأِ جَمَالٍ وَمُخْضَرِ
وَجَنَّةِ عَذْبٍ تَطْيِيكَ وَكَوْثَرِ عِمْرَانِي يَزِيدُ الْعُمُرَ - طَيِّبًا - وَيَنْسَأُ^(١)

* * *

مَعَاهِدُ - أَبْكِهَا - لِعَهْدٍ تَصَرَّمَا^(٢)
أَغْضَ - مِنْ - الْوَرْدِ الْجَنِيِّ - وَأَنْعَمَا
لَبَسْنَا الصَّبَا فِيهَا حَبِيرًا مُنْتَمَا^(٣)
وَقَدْ نَأَى - إِلَى اللَّذَاتِ - جَيْشًا عَرَمَرَمَا لَهُ الْأَمْنُ رِذْوً^(٤) وَالْعَدَاوَةُ مَرْبَأُ

* * *

كَسَاهَا الرَّيِّعُ الطَّلُقُ وَشَى الْحَمَائِلِ^(٥)
وَرَأَحَتْ لَهَا مَرْضَى الرِّيَّاحِ الْبَلَائِلِ
وَعَادَى بَنُوها الْعَيْشَ حُلُوَ الشَّمَائِلِ
وَلَا زَالَ مِنَّا بِالضُّحَا وَالْأَصَائِلِ سَلَامٌ - عَلَى تِلْكَ الْمَيَادِينِ - يُقْرَأُ

(١) تطييك : تعجبك وتزدهيك ، ينسأ : يؤخر ، أى يطيل العمر ، وقد مرّ التعريف بأزهارها وغيرها من آثار « قرطبة » فى الحاشية ص (٥٤ - ٥٦) فارجع إليها إن شئت .

(٢) تصرم : انتفضى وفات :

(٣) الحبير : الناعم الجديد ، وضرب من برود الين والمشم : المنفوش الموشى .

(٤) رده : ظهير أو معين .

(٥) الحمايل - جمع خيلة - وهى الموضع الكثير الشجر .

أَخْوَانَنَا ! لِلْوَارِدِينَ مَصَادِرُ
وَلَا أَوَّلَ إِلَّا سَيَتَلَوُهُ آخِرُ
وَإِنِّي - لِإِغْتَابٍ ^(١) الزَّمانِ - لَنَاطِرُ
فَقَدْ يَسْتَقِيلُ الْجَدُّ - وَالْجَدُّ عَائِرُ - وَتُحَمَّدُ عُقْبَى الْأَمْرِ مَا زَالَ يُشْنَأُ ^(٢)

* * *

ظَمَنْتُ ، فَكَانَ الْحُرُّ يُخْنِي فَيَظْمَنُ ^(٣)
وَأَصْبَحْتُ أَسْلُو بِالْأَسَى ^(٤) حِينَ أَحْزَنُ
وَقَرَّ - عَلَى الْيَأْسِ - الْفُؤَادُ الْمُوَطَّنُ
وَإِنْ بِلَادًا - هُنْتُ فِيهَا - لَأَهْوَنُ وَمَنْ رَامَ مِثْلِي بِالْذَّنِيَّةِ أَذْنَأُ

* * *

وَلَا يُغْبِطُ الْأَعْدَاءُ كَوْنِي فِي السَّجْنِ
فَإِن رَأَيْتُ الشَّمْسَ تَحْصَنُ بِالْذَّجْنِ ^(٥)
وَمَا كُنْتُ إِلَّا الصَّارِمَ الْمَضْبِ فِي جَفْنِ ^(٦)
أَوِ اللَّيْثِ فِي غَابٍ ، أَوِ الصَّعْقَرِ فِي وَكْنٍ ^(٧) أَوِ الْعَلِقِ يُخْنِي - فِي الصَّوَارِ - وَيُخْبَأُ ^(٨)

(١) الإغتاب : إرضاء العاتب .

(٢) يستقيل : ينهض ، والجد : الحظ . ويشنأ : يعض .

(٣) أى رحلت فكان رحبلى هذا لأبى اقيت جهاء فترحلت عن مكان الجفوة والحر إذا ثبت به أرضه

هاجر إلى غيرها . (٤) الأسى : جمع أسوة ، وهى التأسى والتجمل ، قال ابن دريد :

« فان عثر بعدها - إن وألت - ففى من هاتما - فزولا : لالعا . »

وإن تكن مدتها - موصولة - بالختف سلطت الأسى على الأسى . »

أى سلطت الصبر والتجمل على الحزن .

(٥) الذجن : الغيم . (٦) جفن : غمد (٧) الوكن : عش الطائر ، لوكنة مثله .

(٨) الصوار : وماء المسك .

* * *

يَضِيقُ - بِأَنْوَاعِ الصَّبَابَةِ - مَذْهَبِي
إِلَى كُلِّ رَحْبِ الصَّدْرِ - مِنْكُمْ - مُهَذَّبِ
مَفْضُضٍ لَأَلَاءِ الْأَسَارِيرِ مُذْهَبِ (١)
يُنَافِسُ مِنْهُ الْبَذْرُ - غُرَّةَ كَوْكَبٍ دَرَى أَنَّهَا أَبْغَى سَنَاءٍ وَأَضْوَأُ

* * *

أَسِفْتُ ، فَمَا أَرْتَاحُ - وَالرَّاحُ تُشْمِلُ -
وَلَا أَسْعِفُ الْأَوْتَارَ - وَهِيَ تَرَسَّلُ -
وَلَا أَرْعَوِي عَنْ زَفْرِقَةٍ - حِينَ أُعْذَلُ -
وَلَا لِي - مُذْ قَارَعْتُكُمْ - مُتَعَلِّلُ سِوَى خَبَرٍ مِنْكُمْ - عَلَى النَّأْيِ - يَطْرَأُ

* * *

حَدَّثْتُمْ - مِنْ الْأَيَّامِ - لَيْنَ خِلَالِهَا
وَسَرَّتْكُمْ الدُّنْيَا بِحُسْنٍ دَلَالِهَا
مُؤَمَّنَةً مِنْ عَثْبِهَا وَمَلَالِهَا
وَلَا زَالَ مِنْكُمْ لَابِسٌ مِنْ ظِلَالِهَا يُسَوِّغُ أَبْكَارَ الْمُنَى وَيُهْنَأُ

(١) أسارير الوجه : محاسنه ، والأسارير - جمع أسرار والأسرار جمع سرار وهي خطوط الكف .

إلى ابن عبدوس^(١)

« وكتب إلى الوزير الكاتب أبي عليّ

ابن عبدوس معاتباً . »

(١) كان بين ابن زيدون وابن عبدوس صداقة أصيلة - بعد صداقة أكيدة - وكان من أكبر أسباب تلك الصداقة تنازعهما على «ولادة بنت المستكفي» وقد كانت هذه الصداقة حافزاً لابن زيدون على إنشاء هذه القصيدة ، كما كانت حافزاً له على إنشاء رسالته الهجرية المشهورة التي ستمر بك في هذا الكتاب . وقد كتب ابن نباتة في مقدمة الرسالة كلمة تمهيدية علل بها أسباب هذه الصداقة كما كتب صاحب نفح الطيب وغيره ونحن نجتزئ بما يلي :

كانت بقرطبة امرأة ظريفة من بنات خنساء الدرب الأمويين المنسويين إلى عبد الرحمن بن الحكم المعروف بالفاخل - من بني عبد الملك بن مروان تسمى : «ولادة بنت المستكفي بالله محمد بن المستظهر بالله عبد الرحمن» ابتذل حجابها - بعد نكبة أبيها وقته وتعلت ملوك الطوائف - في خير طويل - ثم صارت تجلس للشعراء والكتاب وتماثرهم وتحاضرهم ويتمتعون بكبرياء منهم ، وكانت ذات خلق جميل وأدب غرض ونوادر عجيبة ، ونظم جيد فمن ذلك ما كتبت به لابن زيدون وهي راضية عنه تقول :

«تروى - إذا جى العلام - زيارتي فاني رأيت الليل أكرم للسر

وبني منك ما لو كان باليد لم ينر ، وبالليل لم يظلم ، وبالجم لم يسر . »

وقولها فيه وهي عليه غصبي :

«إن ابن زيدون - على فضله - يلجح بي شتما ولا ذنب لي

يلحطني شزرا إذا حشني كأنما جئت لأحصى علي . »

تعني غلاماً له يسمى علياً . وكان سبب قولها فيه هذا الشعر أنه اتهمها بمواصلة الوزير «أبي طاهر بن عبدوس» وكان يلقب بالفار ، فقال فيه وفيها :

« غيرتمونا بأن قد صار يخلفنا - فبين نحب - وما في ذاك من طار

أكل شهى ، أصبنا من أطايبه بعضاً ، ومعضاً صفحاً عنه للفار . »

ومن شعرها ما كتبت به على كنها وقيل : على تاجها :

« أنا والله أصلح للمعالي وأشقى مشققي وأتبه تيبها

وأكن طاشقي من لثم ثرى وأعطي قبلي من يشتهيها . »

ومما ينسب إليها وهو عندي كثير على شعر امرأة :

« لحاظكم تخرجنا في الحصى ولحظنا يجرحكم في الحدود

جرح ينجح ، فاجعلوا ذا بذاً فما الذي أوجب جرح الصدود . »

وكان ابن زيدون كثير الشغف بها ، والميل إليها ، وأكثر غزل شعره فيها وفي اسمها ، ثم إن الوزير «أبا طاهر بن عبدوس» أيضاً هام بها وكاتب بعشرتها ، وكان تصدم الظرف والأدب ، وكانت «ولادة» كثيرة الحبث به ، ولها معه نوادر ظريفة ، ومن نوادرها الطريفة أنها مرت يوماً بدار «ابن عبدوس» وهو جالس بالباب وحوله جماعة من أصحابه - وأمامه بركة تولد من سراحيض وأقذار - فوقفت عليه وقالت يا أبا طاهر :

« أنت الخصيب وهذه مصر فتدفقا فكلا كما بحر . »

أَثَرْتَ هَزَبَ الشَّرَى - إِذْ رَبَضَ - وَنَبَّهَتْهُ إِذْ هَدَا فَأَغْتَمَضَ ^(١)
وَمَارِلْتَ تَبْسُطُ ^(٢) - مُشْتَرِ سِلَا - إِلَيْهِ يَدَ الْبَغَى لَمَّا انْقَبَضَ

حَذَارِ حَذَارٍ فَإِنَّ الْكَرِيمَ - إِذَا سِيمَ خَسْفًا - أَبِي فَأَمْتَعَضَ
فَإِنَّ سُكُونَ الشَّجَاعِ النَّهْوُ سِ ^(٣) لَيْسَ بِمَانِعٍ أَنْ يَعْضَ
وَإِنَّ الْكَوَاكِبَ لَا تُسْتَزَلُّ وَإِنَّ الْمَقَادِيرَ لَا تُعْتَرَضُ
إِذَا رِيغَ فَلْيَقْتَصِدْ مُشْرِفٌ مَسَاعٍ يُقَصِّرُ عَنْهَا الْخَفَضُ ^(٤)
وَهَلْ وَارِدُ الْغَمْرِ مِنْ عِدِهِ يُقَاسُ بِهِ مُسْتَشْفٍ الْبَرَضُ ^(٥)

لم يخرجوا، فاضت وحفظت هذه النادرة، واشتغل بها الناس، وهذا البيت لأبي نواس تمثلت به ونقلته هذا
القل الحسن من - المدح إلى الهجاء - وكان كثيرا ما يخدمها ويغنى التمرد بها ، وفي ذلك يقول ابن زيدون :
« وفرك من عهد ولادة سراب تراءى وبرق ومض
في الماء بأبي على قابض ويمنع زبدته من محض . »

وكان أول أمرها معه والباعث لابن زيدون على إنشاء هذه الرسالة : أن «ابن عبدوس» لما سمع بها أرسل
إليها امرأة من جهته تستميلها إليه وتذكر لها حاسنه ومناقبه وترغبها في التفرد بمواصلته ، فبلغ ابن زيدون
ذلك ، فكتب هذه الرسالة البديعة جوابا له عن لسانها تتضمن هذه الفرائب من سب أبي عامر والتهكم له
والهجاء له وجعلها جوابا له على لسان ولادة ، وأرسلها إليه عقيب رجوع المرأة - بلغت منه كل مبلغ ، واشتهر
ذكرها في الآفاق ، وأمسك «ابن عبدوس» عن التعرض لولادة إلى أن انتقل «ابن زيدون» إلى «أشبيلية» وتوفي بها
تسبحة الله برحمته ، وغفر لنا ولهم بمنه وكرمه . هذا معنى ما ذكره ابن حبان وابن بسام وغيرهما من المؤرخين .
(١) أثرت : هجت ، والهزبر : من أسماء الأسود ، والشرى : موضع فكثرت فيه الأسود ، وربض :
آوى إلى عرينه ، وهدا : نام .

(٢) يقول : وما رلت تبسط يد البطش والبغى على ذلك الأسد الرابض في مجتمه على حين أمت يده
المنقبضة منك .

(٣) النهوس : العضوض ، والشجاع الذكر من الحيات ، قال القائل :

« أتبيح له - وكان أخا عيال - شجاع - في الحماطة - مستكن . »

(٤) الخفض : الجمل الضعيف .

(٥) العد : أراد به هنا معين الماء الذي له مادة لا تنقطع ، يقال ماء عد أى كثير دائم لا ينقطع ،

البرض : القليل . قال ابن دريد :

« أرمق العيش على برض فان رمت ارتشافا رمت صعب المنسى »

يقال ماء برض (بالسكون) أى قليل وهو خلاف الغمر ، والمستشف : الذى يأتى على آخر ما فى الأثناء عند القرب .

إِذَا الشَّمْسُ قَابَلَتْهَا - أَرْمَدًا - فَحَظُّ جُفُونِكَ فِي أَنْ تُقَمَّصَ^(١)

أَرَى كُلَّ مُجَرٍّ « أَبَا عَامِرٍ »
أَعِيدُكَ مِنْ أَنْ تَرَى مِنْزَعِي^(٢)
فَإِنِّي أَلِيْنُ لِمَنْ لَانَ لِي
وَكَمْ حَرَّكَ الْعُجْبُ مِنْ حَائِنٍ
يُسْرُهُ إِذَا فِي خَلَاءٍ رَكُضُ
إِذَا وَتَرَى بِالْمَنَآيَا أَنْقَبَضُ
وَأَتْرُكُ مَنْ رَامَ قَدْرِي حَرَضُ^(٣)
فَقَادَرْتَهُ ، مَا بِهِ مِنْ حَبَضُ^(٤)

« أَبَا عَامِرٍ » أَيْنَ ذَلِكَ الْوَفَاءُ
وَأَيْنَ الَّذِي كُنْتَ تَعْتَدُ مِنْ
تَشُوبُ وَأُنْحَضُ^(٥) مُسْتَبْقِيَا
إِذَا الدَّهْرُ وَسْنَانُ ، وَالْعَيْشُ غَضُ؟
مُصَادَقَتِي الْوَاجِبَ الْمُفْتَرَضُ؟
وَهَيْهَاتَ مَنْ شَابَ يَمُنُّ مَحْضُ!

أَبْنِ لِي ، أَلَمْ أَصْطَلِمَعْ نَاهِيضًا^(٦)
أَلَمْ تَنْشَ مِنْ أَدْبِي نَفْحَةً
بِأَعْبَاءِ بَرِّكَ ، فَيَمَنْ نَهَضُ؟
حَسِبْتَ بِهَا الْمِسْكَ طِيْبًا يُفَضُّ؟

(١) قال المتنبي :

« قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد وينكر الفم طعم الماء من سقم . »

(٢) المنزع : السهم الذي يرمى به أبعد ما يقدر عليه لتقدر به النلوة قال الأعمش :

فهو كالمنزع المريش من الشو حط عالت به عين المغالي

(٣) حرَض : ساقط لا يقوى على النهوض .

(٤) الحبض : التحرك والصوت ، والقوة وبقية الحياة ، يقول : كم دفع النور من قرب حينه إلى ..

وأنى فكرته ميتا لاجراك به .

(٥) أى تخرج الصافي بالكدر وأصفبك الهوى خالصا من كل شائبة .

(٦) وفي رواية : « عاديا »

أَلَمْ تَكْ مِنْ شَيْعَتِي غَادِيَا إِلَى ثَرْعِ ضَاكَّتْهَا فُرَضٌ^(١) ؟
وَلَوْلَا اخْتِصَاصُكَ لَمْ أَلْتَفِتْ لِحَالِكَ مِنْ صِحَّةٍ أَوْ مَرَضٍ
وَلَا عَادَتِي - مِنْ وَفَاءٍ - سُورُ وَلَا نَالَتِي - لِحَفَاءٍ - مَضَضٍ
يَعِزُّ اُعْتِصَارُ الْفَتَى وَارِدَا إِذَا الْبَارِدُ الْمَذْبُ أَهْدَى الْجَرَضِ^(٢)

* * *

عَمَدَتِ لِسْعِرِي وَلَمْ تَتَّعِبْ^(٣) تُعَارِضُ جَوْهَرَهُ بِالْعَرَضِ
أَضَاقَتْ أَسَايِبُ هَذَا الْقَرِيضِ ؟ أَمْ قَدْ عَفَا رَشْمُهُ فَأَنْقَرَضُ ؟

* * *

لَعَمْرِي لَفَوْقَتْ سَهْمَ النُّضَالِ وَأَرْسَلْتَهُ، لَوْ أَصَيْتَ الْفَرَضِ^(٤)
وَشَمَّرْتَ لِلْخَوْضِ فِي جُلَّةٍ - هِيَ الْبَحْرُ - سَاكِحًا لَمْ يُخَضِّ
وَعَرَّكَ مِنْ عَهْدٍ « وَلَادَةٍ »^(٥) سَرَابُ تَرَايَ وَبَرَقَ وَمَضَّ
تَظُنُّ الْوَفَاءَ بِهَا وَالظَّنُّ نُ فِيهَا تَقُولُ عَلَى مَنْ فَرَضَ :
« هِيَ الْمَاءُ يَأْبَى عَلَى قَابِضٍ »^(٦) وَيَمْنَعُ زُبْدَتَهُ مَنْ مَخَضَّ

(١) الفرض - جمع فرضة ، والفرضة من النهر ثلثة يستقى منها ومن البحر محط السفن .
(٢) وفي الأصل : « والكن يعز اغتصار الفتى واردا » ، والجرض معناه المصص بالريق ، يقال حرض بريقه : ابتلعه بالجهد . والاعتصار : أن يفص الانسان بالطعام فيعتصر بالماء ، وهو أن يصر به قليلا قليلا ، قال عدى بن زيد :

« لو بغير الماء خلقي شرق كنت - كالغصان - بالماء اعتصاري . »

(٣) ولم نأل جهدا . (٤) الفرض : الهدف .

(٥) وفي الأصل : « وفرك من عهد فعالة » ولكنه في بقية الروايات : « ولادة »

(٦) وفي رواية : « هي الماء يعز على قابض » .

وَبُنَيْتُهَا بَعْدِي أَسْتُحْمِدَتِ بِسِرِّي إِلَيْكَ لِمَعْنَى غَمَضُ

* *

« أبا عامِر » عَثْرَةٌ فَاسْتَقِلْ لِتُبْرِمَ مِنْ وَدْنَا مَا أَنْتَقَضَ

وَلَا تَعْتَصِمُ ضَلَّةً بِالْحِجَابِ ^(١) وَسَيِّمُ قَرُبًا احْتِجَابٍ دُحِضَ

وَالَا أَنْتَحَتِكَ جُيُوشُ الْعِتَابِ مُنَاجَزَةً فِي قَضِيضٍ وَقَضُ

* *

وَأُنْذِرُ خَلِيلَكَ مِنْ مَاهِرٍ بِطِبِّ الْجُنُونِ إِذَا مَا عَرَضَ

كَفِيلٌ يَبِطُّ خِرَاجٍ قَسَا ^(٢) جَرَى عَلَى شَقِّ عِرْقٍ نَبَضَ

يُبَادِرُ بِالْكِيِّ قَبْلَ الضَّمَادِ وَيُسْعِطُ بِالسَّمِّ لَا بِالْحَضَضِ

وَأَعْلِمُهُ أَنِّي أَسْتَجَدْتُ الْعَوْضَ وَأَشْعِرُهُ أَنِّي أُنْتَخَبْتُ الْبَدِيلَ

فَلَا مَشْرَبِي - لِقِلَافِهِ - أَمْرٌ وَلَا مَضْجَعِي - لِنَوَاهِ - أَقْضُ

وَإِنْ يَدَ الْيَمِينِ مَشْكُورَةٌ لِعَارِ أَمَاطٍ وَوَضْمٍ رَحَضَ ^(٣)

وَحَسْبِي أَنِّي أَطَبْتُ الْجَنَى لِإِبَانِهِ ، وَأَبْجَحْتُ النَّفْضَ ^(٤)

وَيَهْنِيكَ أَنْكَ يَا سَيِّدِي غَدَوْتَ مُقَارِنَ ذَاكَ الرَّبَضِ ^(٥)

(١) الحجاج : الحاجة والجدل .

(٢) وفي الأصل : « خراج حرى . »

(٣) رضى : غسل .

(٤) النفض : ماسقط من الورق والثر وحب العنب حين يوجد بعضه في بعض .

(٥) الرضى : الأمعاء ، أو ما في البطن سوى القلب ، وماوى الغنم ، وفونك الذى يكفيك من اللين .

مدح ابن جهور وشكر باديس^(١)

« وقال من قصيدة طويلة يمدح بها الوزير

الأجل محمد بن جهور . »

سَلِ الْمَعَشَرَ الْأَعْدَاءَ - إِنْ رُمِيتَ صَرَفَهُمْ - عَنِ الْقَصْدِ إِنْ أَعْيَاكَ مِنْهُ مَرَامُ
أَتَوَكَّ كَأَسَادِ الشَّرِّى فَرَدَدَتْهُمْ كَمَا أَجْفَلْتَ وَسَطَ الْفَلَاةِ نَعَامُ
مَضَوْا يَسْأَلُونَ النَّاسَ عَمَّا وَرَاءَهُمْ فَيُخْبِرُهُمْ - بِالْمُبْكَيَاتِ - عِصَامُ^(٢)

(١) سبق الكلام عن « باديس » وعن « صنهاجة » في ص (٢٢٠ و ٢٢١) من هذا الديوان ، فليرجع إليها من شاء .

(٢) يقول المثل : « ما وراءك يا عصام ؟ » وجاء في مجمع الأمثال عن المفضل الضبي أن أول من قال ذلك الحرث بن عمرو ملك كندة ، وذلك أنه لما بلده جبال ابنة عوف بن سلم الشيداني وكلها وقوة عقلها ، دعا امرأة من كندة يقال لها « عصام » ذات عقل ولسان ، وأدب وبيان ، وقال لها : ادعني حتى تعلمي لي علم ابنة عوف ، فمدت حتى انتهت إلى أمها ، وهي « أمامة » بنت الحرث ، فأعلمتها ما قدمت له ، فأرسلت « أمامة » إلى ابنها وقالت : أي بنية ! هذه خالك أنت لتنظر إليك فلا تستري عنها شيئا إن أرادت النظر ، من دح أو خلق ، وناطقيها إن استغفرتك ، فدخلت إليها ، فظفرت إلى مالم تر قط مثله ، فخرجت من عندها وهي تقول : « ترك الخداع ، من كشف الخداع . » فأرسلتها مثلاً ، ثم انطقت إلى الحرث فلما رآها ملة ، قال لها : « ما وراءك يا عصام . » قالت : « صرح الخفض عن الربد . » رأيت حبة كالمرأة المصقولة ، يزينها شمر حالك كأذ ناب الحيل ، إن أرسلته خلته السلاسل ، وإن مشطته قلت هنا قيد جلاها الوائل ، وحاجين كأنما خطا بقلم ، أو سودا بحمم ، تقوسا على مثل عين طيبة صبرة ، بينهما ألف كدر السيف الصنيع ، حفت به وجنتان ، كالأرجوان ، في بياض كالجبان ، شق فيه فم كالحاتم لقيد المبسم ، فيه ننايا غر ذات أشر ، تقلب فيه لسان ، ذو فصاحة وبيان ، بغل وافر ، وحواب حاضر ، تلتقي فيه شفتان حمراوان ، في رقبة بيضاء كالفضة ، ركبت في صدر كصدر تمثال دمية ، وعصدان مندجان ، يتصل بهما دراعان ، ليس فيهما عظم يمس ، ولا عرق يحس ، ركبت فيهما كفان دقيق قصبهما ، أين عصبهما ، تعقد إن شئت منهما الأنامل ، نأى في ذلك الصدر ثديان كالزمانتين بخرقان عليهما ثيابها ، تحت ذلك بطن طوى طوى القباطى المدججة ، كسر عكنا كالقراطيس المدرجة ، تحيط بذلك العكن سرة كالمدهن الجلو ، خلف ذلك ظهر فيه كالجدول ، ينتهى إلى خصر لولا رحمة الله لا يتر ، لها كف يقدما إذا نهضت ، وبينهما إذا قعدت ، كأنه دعص الرمل ، لبده سقوط الدال ، يحمله ثغدان افراوان ، تحتهما ساقان خدجتان ،

وَمَا ضَاقَ عَنْهُمْ جَانِبُ الْعُذْرِ إِنَّهُمْ كَمِثْلِ الْقَطَا لَوْ مَيَّرَ كَوْنٌ لَنَامُوا^(١)

يحمل ذلك قدمان ، كحذو اللسان ، فبإذن الله مع صفرهما ، كيف تطيقان حمل ما فوقهما ؟ . فارسل الملك إلى أبيها فخطبها فزوجها بإياه وبمت إصدافها فجهازها إليه ، فلما أرادوا أن يحملوها إلى زوجها قالت لها أمها : أى بنية ! إن الوصية لو تركت لفضل أدب لترك ذلك منك ، ولكنها تذكرة للنافل ، ومعونة للعاقل ، ولو أن امرأة استعنت عن الزوج لى أبيها ، وشدة حاجتهما إليها ، لكنت أغنى الناس عنه ، ولكن النساء للرجال خلقن ، ولهن خلق الرجال ، أى بنية ! إنك إن فارت الجوى الذى منه خرجت ، وخافت العشى الذى فيه درجت ، إلى وكر لم تعرفيه ، وقرين لم تألفيه ، فأصبح بملكك عليك رقيقاً ومليكاً ، فكونى له أمة يكن لك عبداً وشيكاً ، إلى آخر ما جاء فى هذا الخبر ، قال فى مجمع الأمثال بعد سياقة هذا الخبر : وروى أبو عبيد ، ما وراءك على التذكير ، وقال : يقال إن المتكلم به النامة الديباني قاله لعصام بن شهر حاجب النعمان وكان النعمان مريضاً ، وقد أرجف بموته ، فسأله النامة عن حال النعمان ، فقال : « ما وراءك يا عصام . » ومعناه : اخلقت من أمر العليل ، أو ما أمامك من حاله ، ووراء من الأضداد . (١) يشير إلى النمل المشهور : « لو ترك القطا ليلاً لنام » بضرب لمن حمل على مكروه من غير إرادته .

وقد تمثل به الحسين بن على (رضى الله عنه) فى الليلة الأخيرة التى تلاها مصرعه ، قال على ابنه :
لانى لحالس فى تلك العتبية — التى قتل أبى فى صبيحتها — وعنى « زينب » عندى تمرضنى ، إذا اعتزل أبى بأصحابه — فى خباء له — وعنده « حوى » مولى « أبى ذر » — وهو يمالج سيفه وبصلحه — وأبى يقول :

« يادهر : أف لك من خليل
كم لك — بالاشراق والأصيل —
من صاحب ، أو طال فتيل
والدهر لا يقنع بالسديل
وانما الأمر إلى الجليل
وكل حى سالك السيل . »

قال على بن الحسين :

فأحادهما أبى مرتين أو ثلاثاً — حتى فهمتها — فمرفت ما أراد ، فنفقتنى عبرتى ، فرددت دمنى ولزمت السكوت ، وطلعت أن البلاء قد نزل ، فأما عمى فأنها سمعت ما سمعت — وهى امرأة ، وفى النساء الرقة والجزع — فلم تملك نفسها أن وثبت تحير ثوبها — وإنما الحاسرة — حتى انتهت إليه ، فمات :

« وانكلاء ! ليت اليوم أعدمنى الحياة ! اليوم ماتت « فاطمة » أمى و « على » أبى و « حسن »

أخى . يا خليفة الماضى ، وثمال الباقي . » فظفر الحسين ، وقال :

« يا أخيه ! لا يذهبن حلك الشيطان ! »

قالت : « بأبى أنت وأبى ، يا أباً عبيد الله استقتلت ، نفسى فذاك ! » فردت فمصته ، وترقرقت

هيناء ، وقال :

« لو ترك القطا ليلاً لنام ! »

* * *

فِدَاءُ « لِبَادِيسَ » النُّفُوسُ ، وَجَادُهُ مِنْ الشُّكْرِ - فِي أَفْقِ الْوَفَاءِ - غَمَامُ
فَمَا لَحِقَتْ تِلْكَ الْعُهُودَ مَلَامَةٌ وَلَا ذُمَّ - مِنْ ذَاكَ الْحِفَافِ - ذِمَامُ ^(١)
وَمِثْلَكَ وَالِي مِثْلَهُ فَتَصَافِيَا كَمَا صَافَتْ - الْمَاءَ الْقَرَّاحَ - مُدَامُ
رَسِيْلَكَ - فِي شَأْوِ الْمَعَالِي - كِلَا كَمَا بَعِيدُ الْمَدَى صَعْبُ الْهُمُومِ هُمَامُ

* * *

لَعَمْرِي لَقَدْ أَحْضَيْتَهُ بِوِفَادَةٍ لِأَسْنَى كَرِيمٍ أَنْجَبْتَهُ كِرَامُ
فَمَا أَنْفَكَ إِلَّا عَدَلَ نَفْسِكَ إِنْ يَسِرْ فَلِلْجِسْمِ لَا لِلنَّفْسِ مِنْكَ مُقَامُ ^(٢)
حُسَامُكَ مَهْمَا تَخْتَرِطُهُ لِيْلَهَا فَقَلَّ غَنَاءُ السَّيْفِ حِينَ يُشَامُ

اسم من أحب

« وقال في معشوقة يؤخذ اسمها بالتوالي من أرض

وسماء وماء ، فيتكوّن من مجموعها « أسماء . » »

إِنَّ لِلْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ وَالْمَاءِ عَلَيْنَا أَذِمَّةً لَا تُذَمُّ
هِيَ بَعْضُ أَسْمٍ مِنْ أَحَبِّ وَلَاءِ وَبِتَكَرُّرِ بَعْضِهَا يَسْتَتِمُّ

قالت :

« يا ويلتنا ! أفتنصب نفسك اختصاباً ؟ فذلك أفرح قلبي ، وأشد على نفسي ! » ولطفت وجهها ، وأمرت إلى جيبها وشقته ، وخرت مغشياً عليها .

فقام إليها الحسين فصبّ على وجهها الماء ، وعزّاها بكلام طويل يرجع إليه القارىء - إذا شاء في كتابنا

« مصارع الأعيان » من ص « ٢٥ إلى ٥٦ »

(١) تهد . (٢) وفي الأصل :

« فَمَا ابْنُكَ إِلَّا عَدَلَ نَفْسِكَ ، إِنْ يَسِرْ فَلِلْجِسْمِ - لَا لِلنَّفْسِ مِنْكَ - مُقَامُ . »

وقال

« كان أبو العطف بن حي إذ ورد إشبيلية
رسولا قد سأله أن يريه من شعره ، فطله
حتى كتب إليه شعرا يستطه فيه ، فجاء به
عليه في عروضه وفافيته . »

أَفَذَنِي مِنْ نَفَائِسِ الدَّرَرِ مَا أُبْرِزْتُهُ غَرَائِرُ الْفِكْرِ ^(١)
مِنْ لَفْظَةٍ قَارَنْتُ نَظِيرَتَهَا قَرَانَ سَقَمِ الْجُفُونِ لِلْحَوَرِ ^(٢)
أَبْدَعَهَا خَاطِرٌ ، بَدَائِئُهُ فِي النَّظْمِ - حَازَتْ جَلَالََةَ الْخَطَرِ
الْعِطْرِ مِنْهَا سَرَى لَهُ نَفْسٌ ، مِنْ نَفْسِ الرَّوْضِ رَقٌّ فِي السَّحَرِ ^(٣)

يَا رَاقِمَ الْوَشْيِ - زَانَهُ ذَهَبٌ - رَقْرَقَ إِذْ رَفَّ مِنْهُ فِي الطَّرَرِ ^(٤)

(١) يقول : أدنى من نفائس تلك الشبهة بالدر اشقت عنه الأسلاف ما أبرزته غرائر فسررك من
مكتون روائع السكك ، وبدائع الحكم .

(٢) سقم الجفون : فتورها ، والحور : في العين شدة سواد المقلة في شدة بياضها في شدة بياض لون
الجلد ، وقيل الحور أن تسود العين كلها كما في عين الطباء والبقر ، وهذا ليس بموجود في الأدبيين ،
يقول : أكتبتني من نفائس دررك كل لفظة وافقت قريبتها ، وقارنت نظيرتها ، قران سقم الجفون ،
لحور العيون .

(٣) يقول : أظفر من هذه السكك البديعة التي أبدعها خادرك سرى له نفس يحكى في الأريج والركة
نفس الروض العطر ، سرى به النسيم وقت السحر ، وفي الأصل : « أظفر مهما سرى له نفس . » ،
وما أثبتناه هنا هو ما يرشد إليه السياق .

(٤) الوشي : النقش ، ورقرق : تحرك ولجج وصار له بصيص وتلاؤ ، ورف يقال : رف اللون
والذهب والبرق يرف ، (بالكسر) رفيفا برق وتلاؤ ، ورمت الأسنان كذلك ، وفي الحديث أن
« الناسة » الحمدي أشد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - :

« ولا خير في حلم إذا لم تكن له بواذر تحمي صفوه أن يكدرها »

ولاخير في جهل إذا لم يكن له حليم إذا ما أورد الأمر أصدرها .

فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : لا يفضض الله فاك . « فبقيت أسنانه ترف حتى مات ، يقول :
يا كاتبنا يرقم في الكتاب ما يحكى البرد الموشى المذهب الطرر والمواشي ، والذي للونه رقرق وبصيص ، وفي
الأصل « رقرق » وقد وضعنا بدلها « رفرق » ليستقيم المعنى والوزن .

- وَنَاطِمَ الْعِقْدِ - نَظَمَ مُقْتَدِرٍ - يَفْصِلُ بَيْنَ الْعُيُونِ بِالْعُرَرِ (١)
 لِي بِالنِّصَالِ الَّذِي نَشِطَتْ لَهُ عَهْدٌ قَدِيمٌ مُعْجَمُ الْأَثَرِ (٢)
 هَلْ أُنْبِلَ السَّهْمَ فِي الْجَفِيرِ وَقَدْ تَعَطَّلَتْ فَوْقَهُ مِنَ الْوَتَرِ ؟ (٣)

* * *

- مَا الشَّعْرُ إِلَّا لِمَنْ قَرِيحَتُهُ غَرِيضَةُ النُّورِ غَضَّةُ الثَّمَرِ (٤)
 تَبَسُّمٌ عَنْ كُلِّ زَاهِرٍ أَرَجَ مِثْلَ الْكِيَامِ ابْتَسَمَنَ عَنْ زَهَرٍ
 إِنَّ الشَّفِيعَ الْهُمَامَ سَوَّغَهُ اللَّهُ اتِّصَالَ التَّائِيْدِ بِالظَّفَرِ
 الْفَاضِلُ الْخُبْرُ فِي الْمُلُوكِ إِذَا أَقْصَرَ خُبْرُهُ عَنْ غَايَةِ الْخَبَرِ (٥)
 نَجَلُ الَّذِي نَصَحَهُ وَطَاعَتُهُ كَالْحَبِجِّ تَتْلُوهُ بَرَّةُ الْعُمَرِ (٦)

(١) العيون : الحيار المنتعب من حبات العقد ، والعرر البيض ، يقول : ويا ناظم الشعر نظم قدير يفصل بين أجزائه ، ويؤلف بين مواقع كلامه ، كما يؤلف ناظم العقد بين خرزه وحبائه ، ويفصل بين الحيار المنتخب منها برر الآلى .

(٢) النصال : المرامء بالسهم وأراد به هنا المساجلة والمساابقة في مجل القول ، ومعجم الأثر : مهمم مشكل قد انماست معالمة وآثاره ، يقول : بعثت إلى بهذه الكلام الثمينة ، والدظم الرائع تريد بذلك أن تجدده عهد النصال الذى نشطت له أنت الآن بعد أن طال بى عهده ، وأهم على أمره ، واستمعهم أثره .

(٣) أنصل . مضارع أصل السهم جعل له نصلا ، والجفير : جعبة السهام ، والفوق : موضع الوتر من السهم ، يقول : هل أجعل للسهم الذى فى الجفير نصلا ، وقد تعطلت فوقه أى مشى رأسه فلم تعد صالحة لأن يوضع الوتر فى موضعه منها ، يريد أن آلة النصال بطلت عنده وتعطلت أسبابها لطول العهد .

(٤) غريضة النور : الفريضة ، والغرض : كلامهما اللين الطرى الناضر من الزهر والنبات وغيرها .

(٥) الخبر : (بضم وكسر أوله وسكون ثانيه) العلم بالشىء ، عن عيان وخبرة ، والخبر : البأ الذى يأتىك عن طريق السماع ، يقول : عو الملك الذى يفصل ويزيد الخبر والعلم بصفاته وأحواله عن الخبر الذى يبانك عنه فى حين أن غيره من الملوك يقتصر الخبر والعلم بأحوالهم عن الخبر الذى يأتىك عنهم .

(٦) برة العمر : أى العمر المبرورة المقبولة جمع عمرة ، وهى فى الأصل الريارة ، وتتحقق شرعا بالطواف بالبيت والسمى بن السفا والمروة ، والفرق بينها وبين الحج أن العمرة تطوع وأنه يجوز للإنسان أن يعتمر فى السنة كلها بخلاف الحج فإنه لا يجوز الإحرام به وأداء مناسكه إلا فى أشهر الحج المعروفة وهى شوال ، وذو القعدة ، وعشر ذى الحجة ، يعنى أن نصحه وطاعته من أعمال البر التى تقابل من الله بالثواب ، وهى لكونها من الطاعة والبر بمثابة الحج الذى تتلوه العمر المبرورة .

شَاهِدُ عَهْدِي لَكَ الصَّحِيحُ بِإِخْلَاصٍ نَأَى صَفْوُهُ عَنِ الْكَدَرِ

* * *

مَشَيْتُ فِي عَذْلِي الْبَرَّازَ لِمَنْ لَمْ يَرْضَ فِي الْعُذْرِ مِشْيَةَ الْحَمْرِ^(١)
وَقُلْتُ : مَطْلُ الْغَنِيِّ وَرَدُّ مِنَ الظُّلْمِ ، يُبَلِّغُ مَلَاوِمَ الصَّدْرِ^(٢)
وَلِي مَعَاذِيرُ لَوْ تَطَلَّعُ فِي لَيْلِ سِرَارٍ أَغْنَتْ عَنِ الْقَمَرِ
مِنْهَا اتَّقَائِي لِأَنِّ أَكُونُ أَنَا الْجَالِبَ مَا قُلْتُهُ إِلَى هَجَرٍ^(٣)
لَكِنْ سَيَأْتِيكَ مَا يُجَوِّزُهُ سَرُّوكَ دَابَّ الْمُسَامِحِ الْيَسْرِ
فَا كَتَفٍ مِنْهُ بِنَظَرَةٍ عَنِّي^(٤) لَا حَظَّ فِيهِ لِكِرَّةِ النَّظَرِ

(١) البراز : من الأرض الفضاء الواسع الذي ليس به حر يستتره من شجر أو غيره ، والحر : ما يستتر
الشيء ويوارى الصبغ من شجر أو جرف أو جبل من حال الرمل أو غير ذلك ، يقول : هناك ولك
لوما صريحاً لا مواربة فيه ، فكنت فيه كن يعني البراز لا يواريه حر ، ولا يستتره ساتر من مرتفع أو شجر ،
وهو هذا أعلنه لمن لم يرض قبول حذر أستر وراه عجزى عن مجاراته ، وأخفى في التماسه ضغنى عن مباراته
وفي المثل : « مشى إليه البراز » و « مشى إليه الملا والبراح » أى مشى إليه ظاهراً غير مستتر ، وجاء
في حد هذا المثل مثل آخر وهو : « مشى إليه الحر ، ودب له الضراء . »

(٢) المثل : المثل يقال مظل الجبل وغيره يظله مدلاً ، وفي الحديث : « مظل الغنى ظلم . » والملاوم :
جمع الملامة ، والمصدر : الانصراف والرجوع عن الشيء .

(٣) في المثل : « كستبضع الثمر إلى هجر . » و « ناقل الثمر إلى هجر » وهو مثل قديم متداول :
بضرب في الخطأ لأن ناقل الشيء إلى معدنه مخطئ ، ويقال أيضاً كستبضع الثمر إلى خبير . قال اللابغة الجعدي :
« وإن اسراً أهدى إليك قصيدة كستبضع تمراً إلى أرض خبيرا . »

وقد ورد هذا المثل في كتاب لسيدنا علي كرم الله وجهه ورضي عنه بعث به جواباً إلى معاوية رضى الله عنه
وهو من محاسن كتبه ، وذلك حيث يقول عليه السلام في صدر هذا الكتاب : —

« أما بعد » فقد أتاني كتابك تذكر فيه اصطفا الله محمداً صلى الله عليه وآله لدينه ، وتأييده إياه بمن
أيده من أصحابه ، فاقد خبا لنا الدهر منك عجبا إذ طفت تخبرنا ببلاء الله عندنا واعمته علينا في نبينا ،
فكنت في ذلك : « كناقل الثمر إلى هجر ، أو داعي مسدده إلى النضال . » إلى آخر ما جاء في هذا الكتاب
المتبع ، فارجع إليه في نهج البلاغة إن شئت .

(٤) أى تعرض لك من غير تسمل ولا قصد ، يقول : سيأتيك نظى هذا الذى يجبهه سروك وإغضاؤك
عما فيه أعضاء المسامح السهل ، فاكتف منه بنظرة عجلي ، فإنه لاحظ فيه لماودة النظر ككرة بعد كرة .

بين ابن زيدون والمعتمد

« وكتب إليه المعتمد على الله المؤيد
بنصر الله وهو جالس في فصيل من القصر
تحت غرفة لزومه :

أيها المنحط عني مجلسا
وله في القلب أعلى مجلس
بفؤادي لك حب يقتضى
أن ترى تحمل فوق الأرواس
جأوبه ابن زيدون . »

أَسْقِطُ الطَّلَّ فَوْقَ النَّرْجِسِ	أَمْ نَسِيمُ الرَّوْضِ تَحْتَ الْحِنْدِسِ
أَمْ نِظَامٌ لِلَّالِ نَسَقِ	جَامِعِ كُلِّ خَطِيرٍ مُنْفِسِ ^(١)
أَمْ قَرِيضٌ جَاءَ نِي عَن مَلِكِ	مَالِكٍ بِالْبِرِّ رِقَّ الْأَنْفُسِ
دَلَّهْتُ فِكْرِي مِنْ إِبْدَاعِهِ	حَايِرَةٌ فِي مَنْطِقِي لِي مُخْرِسِ
بِتُّ مِنْهُ يَنْ سَهْلٍ مُطْمَعِ	خَادِجٍ يُتْلَى بِحَزَنِ مُؤَيِّسِ

* *

يَا نَدَى يُعْنَى « أَبِي الْقَاسِمِ » غِمِّ	يَا سَنَا شَمْسِ الْمَحْيَا أَشْمِسِ
يَا بَهِيَجَ الْخُلُقِ الْعَذْبِ ابْتَسِمِ	يَا مُهَيِّجَ الْأَنْفِ الصَّعْبِ أَعْبِسِ
يَا جَمَالَ الْمَوْكِبِ الْغَادِي - إِذَا	سَارَ فِيهِ - يَا بَهَاءَ الْمَجْلِسِ
أَنْتَ لَمْ يُقْنِعْكَ أَنْ أَلْبَسْتَنِي	نِعْمَةً تُذَكِّرُ عَهْدَ السُّتْدُسِ
فَتَلَطَّفْتَ لِأَنْ حَلَّيْتَنِي	مَوْلِيَا طُوْنِي مُحَلَّى مَلْبَسِ

(١) يقول : أم هي لآلى متدقة في نظام جامع أنفس الأعلاق وأجلها خطرا .

ذَلِكَ تَنْوِيهِهُ ثَنَانِي فَخَرُهُ سَامِي اللَّحْظِ أَشَمُّ الْمَغْطِسِ
شَرَّفَتْ بِكَرِّ الْمَعَالِي خِطْبَتُهُ مِنْكَ ، فَانْعَمَ بِسُرُورِ الْمُعْزِسِ
تُمْنَحُ التَّائِيدَ يُجَلِّي لَكَ عَنْ ظَفَرِ حُلُوٍ وَعِزِّ أَقْعَسِ
وَأَرْتَشِفُ مَعْسُولَ نَضْرِ أَشْنَبِ تَجَنَّدِيهِ مِنْ عَجَاجِ الْعَسِ
وَأَرْتَفِقُ بِالسَّعْدِ فِي دَسْتِ الْمُنَى تُصْبِحُ الصَّنْعَ دِهَاقِ الْأَكْوَثِ
فَاعْتَزِضْ الدَّهْرَ - فِيمَا شِدَّتُهُ - مُرْتَقَى فِي صَدْرِهِ لَمْ يَهْجِسْ

وقال

« وقد أمره بدخول حمام القصر وبعث إليه بسخور وطيب . »

رِضَاكَ لَنَا - قَبْلَ الطَّهُّورِ - مُطَهَّرُ وَقُرْبُكَ مِنْ دُونِ الْبَخُورِ - مُعَطَّرُ
قَلَوِ عَزَّ حَمَامُ لَأَذْفَانَا ذَرَى يَفِيضُ بِهِ مَاءُ الذِّدَى الْمُتَفَجَّرُ
وَلَوْ لَمْ يَكُنْ طِيبٌ لَأَغْنَتْ حَفَاوَةُ تَمَسِّكَ مِنْهَا حَالِنَا وَتَعْنِبُ (١)
فَلَا فَارَقَ الدُّنْيَا سَنَاءُ مُقَدَّسُ بِمِشْكٍ فِيهَا أَوْ ثَنَاءُ مُجَمَّرُ (٢)
وَدُمْتَ مُلْقَى - كُلَّ يَوْمٍ - صَبِيحَةَ يُغَادِيكَ فِيهَا - بِالْفُتُوحِ - مَبَشَّرُ

وقال

« مجاوباً له عن شعر خاطبه به . »

أَوْ لَأَيَّ بُلَّغْتَ أَفْضَى الْأَمَلِ وَسَوَّغْتَ دَأْبَ نِسَاءِ الْأَجَلِ (٣)

(١) لو لم نجد الطيب لأغتنا عنه حفاوتك التي نعطرنا بالمسك والعنبر .
(٢) السناء : الرعة ، والثناء : المدح ، والمجرم العبق ، يقال : حمر ثوبه : بخره ، وجر النار : هياها .
(٣) نساء الأجل : طول العمر .

وَعُمِّرْتَ مَا شِئْتَ فِي دَوْلَةٍ تَقْصُرُ عَنْهَا طَوَالُ الدُّوَلِ
فَأَنْتَ الَّذِي غُرُّ أَعْمَالِهِ تَحَلَّى بِهَا الدَّهْرُ بَعْدَ الْعَطَلِ
يُشْرِفُ تَمْلُوكَكَ الْمُسْتَرَقَّ نَظْمٌ مِنَ الْكَلِمِ الْمُتَنَخِّلِ (١)
وَرَاحُ تَعِيدُ إِلَى مَنْ أَسَّسَ طَيْبَ زَمَانِ الصَّبَا الْمُقْتَبِلِ (٢)
فَأَخْجَلَنِي الْبِرُّ مِنْ قَرَطِهِ وَإِنْ الْجَوَابَ لِيُبْدِيَ الْحَجَلَ
وَقَدْ يَقْبَلُ الدَّهْرَ - مَوْلَى الْأَنَا - مِنْ جُهْدِ الْعَبِيدِ إِذَا مَا أَقْلَ
سَعِدْتَ كَمَا سَعِدَ الْمُشْتَرَى وَنِلْتَ غَلَا لَمْ يَنْلَهَا زُحَلُ (٣)

جواب

« وقال مجابا له أيضا . »

هَلْ يَشْكُرُنَّ «أَبُو الْوَلِيدِ» (٤) إِذْنًا كَ الْأَمَلِ الْبَعِيدِ
أَوْ أَنْ تُسَوِّغَ نِعْمَةً لِلدَّهْرِ أَشْهَرْتَ الْحُسُودَ
إِنْ لَمْ يَدِنْ بِنَصِيحَةٍ تَرْضِيكَ فَهُوَ مِنَ الْيَهُودِ
لَا زِلْتَ رَافِعَ رَايَةٍ تُضْجِي، السُّعُودُ لَهَا جُنُودُ

وقال يستهديه خمرأ

يَا بَانِيًا كُلَّ مَجْدٍ وَهَادِمًا كُلَّ وَجْدٍ
جِسْمُ الشُّرُورِ سَوِيٌّ مِنْ صَوْنِغِ نِعْمَاكَ عِنْدِي
فَهَبْ لَهُ رُوحَ رَاحٍ يَنْطِقُ بِأَحْفَلِ تَحْمَدٍ

(١) المتنخل : المنقى المتخير . (٢) وقد جاء بعد هذا البيت قوله :

« أنت مع اسراء ما يقندى وأغرب باكورة تنقل . »

(٣) المشتري وزحل كوكبان معروفان . قال أبو الملاء :

« زحل أشرف الكواكب دارا من لقاء الردى على ميعاد . »

(٤) يعنى نفسه .

وقال مجاباً المعتمد

أَفَاضَ سَمَاحُكَ بِحَرَ النَّدى وَأَقْبَسَ هَدْيُكَ نُورَ الْهُدى
وَرَدَّ الشَّبَابَ أَعْتِلَاقَكَ بَعْدَ مُفَارَقَتِي ظِلَّهُ الْأَبْرَدَا ^(١)
وَمَا زَالَ رَأْيُكَ فِي الْجَمِيلِ يَفْتَحُ لِي الْأَمَلَ الْمُوصَدَا ^(٢)
وَحَسْبِي مِنْ خَالِدِ الْفَخْرِ أَنْ رَضِيتَ قَبُولِي مُسْتَعْبِدَا ^(٣)
وَيَا فَرَطَ مَا بَى ^(٤) إِذَا مَا طَلَعْتَ فَقُمْتُ أَقْبَلُ تِلْكَ الْيَدَا
وَرَدَّدْتُ لَحْظِي فِي غُرَّةِ إِذَا اجْتَلَيْتَ شَفَتِ الْأَرْمَدَا
وَطَاعَةُ أَمْرِكَ فَرَضٌ أَرَا هُ مِنْ كُلِّ مُفْتَرَضٍ أَوْ كَدَا
هِيَ الشَّرْعُ أَصْبَحَ دِينَ الضَّمِيرِ فَلَوْ قَدْ عَصَاكَ لَقَدْ أَلْخَدَا
وَحَاشَى مَنْ أَنْ أَصِلَ الصَّرَاطَ فَيَعْدُونِي الْكُفْرُ عَمَّا بَدَا ^(٥)
وَأُخْلِفَ مَوْعِدَ مَنْ لَا أَرَى لِدَهْرِي إِلَّا بِهِ مَوْعِدَا ^(٦)

- (١) يقول : رد على شبابي بعد أن فارقت ظله الأبرد فارتقت ظله الأبرد اعتلاقي بأسبابك واتصال بدولتك .
(٢) وما زال جميل رأيك في يفتح لي من الآمال كل باب مطلق .
(٣) وكفاني غمرا خالداً ألك رضى قبولى ضمن من استعبدتهم بأحسانك ، ومسدوت عليهم ظل نعمتك الوارف . (٤) فى الأصل : « يا فرط باوى . »
(٥) يقول : حاشى أن أصل الصراط وأرفض أول فرض على من طاعتك التى هى الشرع ، ومعتقد الصير ، فيبعدنى الكفر عما بدالى من صحة الايمان .
(٦) فى الأصل : « وأخلف بالوعد » وهو لا يعتمدى بالباء ، فأبدلناه بالموعد ليصح اللفظ ، والسبب فى أنه يتصل هنا من خلف الموعد أن « المعتمد » كان قد عرض له سفر فجأة فكتب إلى « ابن زيدون » :
« العين بمدك تهذى بكل شىء تراه
فليجل شخصك عنها ما بالغيب جاء . »
معاقب « ابن زيدون » عن الجواب أشغال توات عليه ، ثم استبطأه « المعتمد » فبعث إليه بالقصيدة التالية معاندا :

وعدت وأخلفتى الموعدا وخالفت بالمتنهي المبتدا

أَتَانِي عِتَابُهُ مَتَى أَدْكُرُ فِي نَشَوَاتِ الْكَرَى أَسْهَدَا^(١)
وَأِنْ كَانَ أَغْقَبَهُ مَا أَقْتَضِي شِفَاءَ السَّقَامِ وَتَقَعِ الصَّدَى^(٢)
ثَنَاءُ نَنَى فِي سَنَاءِ الْمَحَلِّ زُهْرًا لَكُوا كِبَالِي حُسْدَا^(٣)
قَرِيضٌ مَتَى أَبْغِ لِلْقَرَضِ مِنْهُ أَدَاءُ أَجِدْ شَأْوُهُ أَبْعَدَا
لَوْ الشَّمْسُ مِنْ نَظْمِهِ حُلِيَّتْ أَوْ الْبَذَرُ قَامَ لَهُ مُنْشِدَا
لَضَاعَفَ مِنْ شَرَفِ النَّيِّرَيْنِ حَظًّا بِهِ قَارَنَ الْأَسْعَدَا

وأطمعني ثم أيلسني ويعنني الود أن أحفدا
وأضعفت بالمطل جل الرجا فرت وأهدمه محصدا
وعاد نسياء ارتقاني ظلاما وأصبح مصباحه أرمدا
وكان فمالك قبل المقال فإذا عدا الآن فيما بدا
وقد كان ظي بها رأيت به أنه النوى بل اليدا
وكم قد توكتفها روضة تقرب لي الأمل الأبعدا
ينور هلك أرجاءها ويقطر طبعك فيها ندا
توكتفها زمنا ناظري إذا سر يوم تهادى غدا
على ذاك أمديك من ماجد تشبث بالطرف فيه الهدى
لغينا أزور به روضة وحينما أحبي به مسجدا
لك العلم .هما أرد بحره لأروى به أحد الموردا
وفيك تجتمعت المآثرا ت طرا قصرت بها مفردا
شماثل تنثر شل الهدو م نترك بالرأى شل العدا
فتعني الله بالخط منك ولا زالت لي .وئسا سرمدا
ودمت ودمت على حالنا كما يصحب الفرقد الفرقدا
فلولاك كانت ربوع السرو رمي تجاوب فيها الصدى

(١) أتاني من قبل المدوح عتاب أسبب لي ذكره الأرق والسهد كل رنحتي نشوات الكرى وغشيتي أوائل النوم .

(٢) يقول : أسهدي وأرتني اذكار هذا العتاب ، وإن كان أغقبه ما اقتضى شفاء القلوب ، وإطفاء وحر الصدور .

(٣) ثناء ومدح رفعت به محلي ، فأثنت زهر النجوم تحمدني عليه .

فَدَيْتَكَ مَوْلَى : إِذَا مَا عَثَرْتُ أَقَالَ ، وَمَهْمَا أَرِغْ أَرْشَدَا
رَكَنتُ^(١) إِلَى كَرَمِ الصَّفْحِ مِنْهُ فَأَمَنَنِي ذَلِكَ أَنْ يَحْقِدَا
وَأَنْتَ سُوقَ اخْتِمَالٍ أَبَى لِمُسْتَبْضِعِ الْعُذْرِ أَنْ يَكْسِدَا^(٢)
شَفِيفِي إِلَيْهِ هَوَى مُخْلِصٍ كَمَا أَخْلَصَ السَّابِكُ الْعَسْجَدَا
وَمِنْ وَصَلِي هِجْرَةٍ لَا أَعُدُّ لِحَالِي سِوَى يَوْمِهَا مَوْلِدَا^(٣)
وَنُعْمَى تَقَيُّأَتِهَا أَيْكَةً فَشُكْرِي حَمَامٍ بِهَا غَرَّدَا
تَبَارَكَ مَنْ جَمَعَ الْخَيْرَ فِيكَ وَأَشْعَرَكَ الْخُلُقَ الْأَعْجَدَا
مَضَاهِ الْجَنَانِ وَظَرْفِ اللِّسَانِ وَجُودُ الْبَنَاتِ بِسَكَبِ الْجَدَا
رَأَى شَيْمَتَيْكَ لَمَّا تَسْتَحِقُّ وَقَفَى فَأَظْفَرَ إِذْ أُيِّدَا
لِيَهْنِكَ أَنْتَ أَزْكَى الْمُلُوكِ بِنَى وَأَشْرَفُهُمْ سُودَدَا
سِوَى نَاجِلٍ لَكَ سَايَ الْهُمُومِ مَرَدَانِي الْفَوَاضِلِ نَائِي الْمَدَى^(٤)
مُهَامٌ أَعْرُ رَوَيْتَ الْفَخَارَ حَدِيثًا إِلَى سَرُوهِ مُسْنَدَا^(٥)

- (١) في الأصل « وكنت » وقد وضعنا بدلها « ركنت » التي هي كمورتها في الخط ليستقيم المعنى .
(٢) المستبضع : اسم فاعل من استبضع الشيء ، جملة بساعة ، والبساعة طائفة من المال ترسل إلى الأسواق للتجارة ، يقول : إن احتمله وإغصاه عن الهوات بمثابة سوق تأتي لمن استبضع إليها الأعداء أن تكسد بساعته ، وهو مأخوذ من المثل : « كستبضع التمر إلى حجر . »
(٣) الوصل : جمع وصلة بمعنى الاتصال والاسباب والدرائع ، يقول : ومن أسباب اتصالى به وذرائعى إليه هجرة فارقت فيها موطنى ، وانصت على أثرها بدولته ، واعتلقت بحمله وذمته ، تلك الهجرة التي لأعد أن حال استقرت وولدت ، إلا يوم أن حصلت وتمت .
(٤) الناجل : الكريم العال ، يقول : ليس في الملوك أزكى منك سوى والدك الذي نجلك وأنجيك .
(٥) يقول : إن أباك هم أعر مشرق الوجه ، رويت عنه الفخار حديثاً مسنداً إلى سروره ومجده ونبله .

سَلَكَتَ إِلَى الْمَجْدِ مِنْهَاجَهُ فَقَدْ طَابَقَ الْأَطْرَفُ الْأَتْلَدَا (١)
هُوَ اللَّيْتُ قَلَدَ مِنْكَ النَّجَادَ لِيَوْمِ الْوَغَى شِبْلَهُ الْأَنْجَدَا (٢)
يُعِدُّكَ صَارِمَ عَزَمٍ وَرَأَى فَتُرْضِيهِ جُرْدَ أَوْ أُغْمِدَا (٣)
وَمَا اسْتَبَنَّهُمُ الْقُفْلُ فِي الْحَادِثَا تِ إِلَّا رَاكَ لَهُ مِقْلَدَا (٤)
فَأَمْطَاكَ مِنْكَ كِبَ طَرَفِ النُّجُومِ وَأَوْطَا إِنْخَصَاكَ الْفَرْقَدَا
فَلَا زِلْمًا يَرْفَعُ الْأَوْلِيَا مُلْكُكُمْ وَيَحْطُ الْعِدَا
وَنَفْسِي لِنَفْسَيْكُمْ الْبَرَّاتَيْنِ مِنْ كُلِّ مَا يُتَوَقَّى الْفِدَا
فَنَ قَالَ : أَنْ لَسْتُمَا أَوْحَدَيْنِ فِي الصَّالِحَاتِ فَمَا وَحَدَا (٥)

وقال

لَعَمْرِي لَنْ قُلْتُ إِلَيْكَ رَسَائِلِي لَأَنْتَ الَّذِي نَفْسِي عَلَيْهِ تَذُوبُ
فَلَا تَحْسَبُوا أَنِّي تَبَدَّلْتُ غَيْرَكُمْ وَلَا أَنَّ قَلْبِي مِنْ هَوَاكِ يَتُوبُ

وقال

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَصَادِفُ خُلُوءَ لَدَيْكَ ، فَأَشْكُو بَعْضَ مَا أَنَا وَاجِدُ
رَعَى اللَّهُ يَوْمًا فِيهِ أَشْكُو صَبَابِي وَأَجْفَانُ عَيْنِي - بِالْذُمُوعِ - شَوَاهِدُ

- (١) الأطراف : الحديث ، والأتلد : القديم .
(٢) النجاد : حائل السيف ، والأنجد : الشجاع ذو النجدة والبأس ، يقول : هو أي والدك الملك ليت قلد شبه الأنجد الشجاع ليوم الوغى والحرب .
(٣) يعذك صارم عزم وحزم في الحرب والسياسة ، فترضيه في الحايين : جرد السيف ، أو أغمد .
(٤) استقيمهم : استماتى ، والقفل : ما يلقى به الباب ، والمقلد : المفتاح ، يقول : لاستستملق الحادثات إلا رآك مفتاحاً لأقفالها المغلقة ، وفي الأصل : « الفعل » فوضعنا مكانها « القفل » ليناسب الاستبهاام والمقلد .
(٥) يقول : أن من ينكر أنكما في البر والصالحات أو حدين قد بلغ في الجحد والانكار مبلغ من ينكر التوحيد ولا يقول بوحداية الله .

تهنئة

« وقال رجه الله يهيه أيده الله بالقدوم من سفر . »

أَيُّهَا الظَّافِرُ أَبْشِرْ بِالظَّفَرِ وَاجْتَلِ التَّأْيِيدَ فِي أَبْهَى الصُّورِ
وَأَقْيَأُ ظِلٍّ سَعْدٍ تَجْتَنِي فِيهِ مِنْ غَرَمِ الْمُنَى أَحْلَى الثَّمَرِ
وَرِدِ الصُّبْحَ فَكَمْ مُسْتَوْحِشٍ غَرَضٍ ^(١) مِنْكَ إِلَى أُنْسِ الصَّدَرِ
كَانَ مِنْ قُرْبِكَ فِي عَيْشٍ نَدٍ عَطِرِ الْأَصَالِ وَصَّاحِ الْبُكْرِ
كُلَّمَا شَاءَ تَأْتَى أَنْ يَرَى خُلُقَ الْبَرْجِيسِ ^(٢) فِي خَلْقِ الْقَمَرِ

(١) غرض : يصف من الغرض (شركة) وهو شدة النزاع نحو الشيء ، والشوق إليه يقال : غرض إلى لقائه فهو غرض اشتاق ، ومنه قول الشاعر :

فمن بك لم يفرض فاني وماقتي بمجير إلى أهل الحمى غرضان
بحن فبهدي ما بها من صباة وأخى الذي لولا الأسي اقضاني

وفي الأصل : « عرض » .

(٢) البرجيس

البرجيس : المشتري وهو أحد الداراري الخمسة : المشتري ، وزحل ، والمريخ ، وعطارد ، والزهرة ، وهذه الكواكب الخمسة هي الجنس الكنسي المذكورة في قوله تعالى : « فلا أقسم بالجنس الجوار الكنسي . » قالوا : وإنما وصفت بما ذكر في الآية لأنها من الكواكب السيارة التي تجري مع الشمس والقمر ، وخنوسها رجوعها مزمرة بعد اختفائها في ضوء الشمس ، ولذلك تسمى الرواجع ، وكنوسها اختفاؤها تحت ضوء الشمس من كنس الظبي والوحش إذا دخل كناسه ، وفي النهاية لابن الأثير من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ، « أن النبي — صلى الله عليه وسلم — سئل عن الكواكب الجنس فقال هي البرجيس وزحل وعطارد وبهرام والزهرة ، البرجيس : المشتري ، وبهرام : المريخ . »
والبرجيس : لفظة فارسية تدل على « المشتري » وهو كوكب معروف لطاق عليه القرنحة اسم « جوبيتر » Jupiter وهو — في أساطير قدماء الرومان واليونان ، اله الآلهة ، المهيمن على كل الكائنات العلوية والسفلية ، قالوا : « وإنما سمي المشتري — من الفراء ، وهو الوضوح لضياء لونه وصفائه . » قال الشاعر :

« يا ربَّ ليل بت أرمي نجمه — حق الصباح — بزفرة وعويل
والمشتري — في الأفق — يخفق لأمما كغم الحبيب يشير بالتقبيل . »

فَتَوَى دُونَكَ مَشْوَى قَلَقٍ يَشْتَكِي مِنْ لَيْلِهِ مَطْلَ السَّحَرِ
 قُلْ لِسَاقِينَا : « يَحْزُ أَوْ كَوْسُهُ » وَلِشَادِينَا : « يَصِلُ قَطْعَ الْوَتَرِ »
 حَسْبُنَا سُكْرُ جَنَّتِهِ ذِكْرُ دُونَهُ الشُّكْرُ الَّذِي يَحْنِي السُّكْرُ (١)
 لَمْ يُغَادِرْ لِي سَقَامِي جَلَدًا مَعَ أَنِّي لَمْ أَزَلْ ثَبِتَ الْمِرْرَ (٢)
 أَيُّهَا الْمَاشِي الْبَرَّازَ الْمُنْبَرِي لَزَمَانِي إِنْ مَشَى نَحْوِي الْخَمَرُ (٣)
 وَالَّذِي إِنْ سِيمَ مَا فَوْقَ الرِّضَى وَجِدَ الْأَلْوَى الْبَعِيدَ الْمُسْتَمِرَّ (٤)
 وَإِذَا أُغْتَبَ فِي مَعْتَبَةٍ لَأَنَّ مِنْهُ جَانِبُ السَّمْعِ الْبَسَرُ
 تَغْمِي الْمُهْدَى إِلَى أُبْرَجَ مَنْ نَظَمَ السَّخَّرَ بَيَانًا أَوْ نَثَرَ

(١) السكر : النىء غير الملوخ من ماء التمر المشد ، والشراب المتخذ من التمر نوطان : ما يسبل من التمر حين يكون رطباً فاذا اشد سمي سكراً ، وما يفصح أى يشق من التمر ثم يقع فى الماء ليستخرج الماء حلاوته ثم يترك حتى يشتد وتذهب حلاوته ويسمى فضيخاً وكلاهما مسكر . وقد ورد ذكر السكر فى قوله تعالى : « ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً . » ، ومعنى هذا البيت الذى قبله : قل لساقينا : نَحْ كَوْسِكَ عَنَا فَقَدْ أَغْنَانَا السَّكْرَ الَّذِي تَحْدِثُهُ الذِّكْرُ ، عن السكر الذى يحنيه السكر ، وقل لشادينا : صل قطع الوتر والعناء ، فهما حلا فى السمع من ذكره الكفاية والدناء .

(٢) ثبت : ثابت ، والمرر : جمع مره (بالسكر) وهى القوة والشدة أى لم يغادر لى السقام جلداً وصبراً مع أنى لم أزل ذا مرة قويا ، وورد هذا البيت فى الأصل هكذا :

لم يغادر لى شفا من جلد مع أنى لم أزل ثبت الغرر

وما أثبتناه من الاصلاح هو ما يرشد اليه السياق .

(٣) البراز : المنسج من الأرض الذى ليس به ما يشتره من شجر أو غيره ، والخمر : ما يشتر الماشى أو الصيد من شجر أو جرف أو جبل رمل أو غير ذلك ، يقول : يا من يدافع عني إذا رأى زمانى مشى إلى مبتكرى يريد ختلى وأخذنى على غره . (٤) الألوى : الشديد المحصورة الجدل السليط ، والمستمر : من استمر استحك مصدر ميمى يعنى أنه بعيد شأوا المحصورة ، وفى المثل : « لتجدن فلانا ألوى بعيد المستمر . » وقد جاء هذا المثل فى قول الراجز :

« إذا تحازرت وما بى من خزر ثم كسرت الطرف من غير عور

وجدتنى ألوى بعيد المستمر أحمل ما حملت من خير وشر . »

أى وجدتنى خصماً سليطاً للسان بعيد شأوا المحصورة .

لِي فِيهِ الْمَثَلُ السَّائِرُ عَنْ جَالِبِ التَّعْرِ إِلَى أَرْضِ هَجَرَ
غَيْرَ أَنَّ الْعُدْرَ رَسْمٌ وَاضِحٌ تُنْفَتِ الشُّكُورَى إِذَا الشُّوقُ صَدَرَ^(١)
ثُمَّ قَدْ وَفَّقَ عَبْدٌ عَظُمْتَ نِعْمَةُ الْمَوْلَى عَلَيْهِ فَشَكَرَ
لَا عَدَا حَظَّكَ إِقْبَالَ تَرَى قَاضِيًا أَثْنَاءَهُ كُلَّ وَطَرَ
وَأَصْطَبِخْ كَأْسَ الرِّضَى مِنْ مَلِكٍ سِرَّتَ فِي إِرْضَائِهِ أَزْكَى السَّيَرِ
حِينَ صَمَمْتَ إِلَى أَعْدَائِهِ فَأَنْتَحَتَهُمْ مِنْكَ صَمَاءُ الْغَيْرِ
فَاضَ غَمْرٌ لِلنَّدَى مِنْ فَوْقِهِمْ كَانَ يُرْوَى شُرْبُهُمْ مِنْهُ الْغَمْرُ^(٢)
سَبَقَ النَّاسَ فَصَلَّى مِنْكَ مَنْ إِنْ رَأَى آثَارَهُ الزَّهْرَ اقْتَفَرَ^(٣)
زُنْثَا الْأَيَّامِ إِذْ مُلْكُكُمْ سَالَ فِي أَوْجُهِهَا سَيْلَ الْغُرَرِ
فَابْقِيَا فِي دَوْلَةٍ قَادِرَةٍ بَعْضُ خُرَاسٍ نَوَاحِيهَا الْقَدَرُ
مُسْتَدِلِّي مَنْ طَغَى مُسْتَأْصِلِي شَافَةَ الْبَاغِي مُقِيلِي مَنْ عَثَرَ
عَامِي مَنْ ضَلَّ مُزْنِي مَنْ شَكَ خَلَّةَ الْإِمْحَالِ بَدْرِي مَنْ نَظَرَ
تَضَحَّكَ الْأَزْمُنُ عَنْ عَلِيَا كَمَا ضَحِكَ الرَّوْضَةُ عَنْ تَغْرِ الزَّهَرِ

(١) صدر : أسباب الصدر ، يقال : صدر فلان فلانا يصدره صدرا (من باب نصر) أصاب صدره .

(٢) الغمر : تدح صغير يتصافن به القوم في السفر إذا قل الماء ولم يكن معهم منه إلا اليسير ، والتصافن أن يلقوا فيه حصاة ثم يصب فيه من الماء قدر ما يغمر الحصاة ، ثم يعطى الاناء كل رجل منهم بحسب دوره وجاء في شعر أعرشي بأهله : -

« يكفيه حزة فلذ إن ألم بها من الشواء ويروى شربه الغمر »

(٣) اقتفر - من اقتدر الأثر - اقتفاه وتبعه ، والمعنى : « سبق أبوك لجملك مصلياً وتالياً بعده أنت يامن يفتي آثار أبيه الزهر .

ذكرى ولادة

« كان يكلف بولادة بنت المهدي هذه ويهيم ،
ويستضيء بسورتخيلها في الليل البهيم ، وكانت من
الأدب والظرف ، وتتييم المسمع والظرف ، بحيث تختلس
القلوب والألباب ، وتعيد الشيب إلى أخلاق الشباب ،
فلما حل بذلك القرب ، وانحل عقد صبره بيد الكرب ،
كر إلى الزهراء ليتوارى في نواحيها ، ويتسلى برؤية
مافيه ، فوافاهما والربيع قد خلع عليها برده ، ونثر
سوسنه وورده ، وأترع جداولها ، وأنطق بلابلها ، فارتاح
ارتياح جيل بوادي القرى ، وراح بين روض يانع
وريح طيبة السرى ، فنشوق إلى لقاء ولادة وحن ،
وخاف تلك النوائب والمحن ، فكتب إليها يصف فرط
قلقه ، وضيق أمده إليها وطلقه ، ويعاتبها على إغفال
تعهدده ، ويصف حسن محضره بها ومشهده (١) : »

وَإِنِّي ذَكَرْتُكَ « بِالزَّهْرَاءِ » مُشْتَقًا	وَالْأَفْقُ طَلَّقُ ، وَمِنْ أَيْ الْأَرْضِ قَدْ رَاقَا ^(٢)
وَاللَّيْسِمِ أَعْتَلَالٌ - فِي أَصَائِلِهِ -	كَأَنَّهُ رَقَّ لِي ، فَأَعْتَلَّ إِشْشَفَا
وَالرَّوْضُ - عَنِ مَائِهِ الْفِضَى - مُبْتَسِمٌ ،	كَمَا شَقَقْتُ - عَنِ اللَّبَاتِ - أَطْوَا ^(٣)
يَوْمٌ ، كَأَيَّامِ لَدَاتٍ لَنَا أَنْصَرَمَتْ ،	بِتَنَاهَا - حِينَ نَامَ الدَّهْرُ - سُرَا
نَلْهُو بِمَا يَسْتَمِيلُ الْعَيْنُ مِنْ زَهَرٍ	- جَالَ النَّدَى فِيهِ - حَتَّى مَالَ أَعْنَاقَا

(١) قلائد المعيان . (٢) وفي بعض الروايات : « ووجه الأرض قد راقا » .

(٣) اللبات : جمع لبة ، وهي موضع القلادة من الصدر ، ولأطواق : جمع طوق ، وأراد به ما يطيف بالعنق من الثوب ، ولا شك أن الهيئة الحاصلة من اسيااب الماء الفضي في الروض تشبه الهيئة الحاصلة من انشفاق طوق الثوب عند ترائب النحر والصدر ، وجاء في بعض الروايات : « كما حلت عن اللبات أطواقا . »

كَأَنَّ أَعْيُنَهُ - إِذْ عَايَنْتَ أَرْقَى -
 وَرَدُّ تَأَلَّقَ - فِي صَاحِي مَنَابِتِهِ -
 سَرَى يُنَافِضُهُ تَلُوفَرُ عَبَقُ
 كُلُّ يَبْجُ لَنَا ذِكْرَى تَشَوَّقُنَا
 لَا مَسْكَنَ اللَّهُ قَلْبًا ، عَنْ ذِكْرِكُمْ
 لَوْ شَاءَ حَمَلِي نَسِيمُ الصَّبْحِ - حِينَ سَرَى -
 لَوْ كَانَ وَفَى الْمَنَى - فِي جَمْعِنَا بِكُمْ -
 بَكَتَ لِمَا بِي ، فَجَالَ الدَّمْعُ رَقْرَاقًا
 فَأَزْدَادَ مِنْهُ الضُّحَى - فِي الْعَيْنِ - إِشْرَاقًا
 وَسَنَانُ ، نَبَّهَ مِنْهُ الصَّبْحُ أَحْدَاقًا
 إِلَيْكَ ، لَمْ يَعُدْ عَنْهَا الصَّدْرُ إِنْ صَاقَا
 فَلَمْ يَطِرْ - بِجَنَاحِ الشَّوْقِ - خَفَاقًا
 وَافَاكُمْ بِفَتَى أَضْنَاهُ مَا لَاقَى
 لَكَ كَانَ مِنْ أَكْرَمِ الْأَيَّامِ أَخْلَاقًا

يَا عَلِيَّ الْأَخْطَرَ الْأَسْنَى الْحَبِيبَ إِلَى
 كَانَ التَّجَارِي بِمَخْضِ الْوُدِّ - مُذْزَمِينَ -
 فَالَازَ - أَمَحَدَ مَا كُنَّا لِعَهْدِكُمْ -
 نَفْسِي ، إِذَا مَا أَقْتَنَى الْأَخْبَابُ أَغْلَاقًا
 مَيْدَانِ أَنْسٍ ، جَرَيْنَا فِيهِ أَطْلَاقًا
 سَلَوْنُكُمْ ، وَبَقِينَا نَحْنُ عُشَّاقًا ١

إلى ولادة

يَا نَارِحًا - وَضَعِيرُ الْقَلْبِ مَثْوَاهُ -
 أَلْهَتَكَ عَنْهُ فُكَاهَاتُ تَلَذُّ بِهَا
 أَنْسَتَكَ دُنْيَاكَ عَبْدًا أَنْتَ دُنْيَاهُ
 فَلَيْسَ يَجْرِي - بِبَالٍ مِنْكَ - ذِكْرَاهُ
 الدَّهْرُ يَعْلَمُ وَالْأَيَّامُ مَعْنَاهُ
 عَلَّ اللَّيَالِي تُبْقِيَنِي إِلَى أَمَلٍ ،

إلى أبي حفص بن برد

قُلْ لِأَبِي حَفْصٍ - وَلَمْ تَكْذِبْ - يَا قَمَرَ الدِّيَّوَانِ وَالْمَوْكِبِ :
مَا لِأَبِي صَفْوَانَ - مَا لَوْفِنَا - أَبْرَقَ فِي الْأُلْفَةِ عَنْ خُلْبٍ ؟
وَلَمْ يَعُدْ إِلَّا كَمَا يَتَّقِي مُسْتَرَقَّ السَّمْعِ مِنَ الْكُفْرِ كَبِ ؟

* *

عَفْهٌ بِاللَّهِ عَلَى فِعْلِهِ ، وَأَشْتَمُ - وَإِنْ لَمْ يَسْتَقِمْ - فَأَضْرِبْ
وَعَاطِيهِ صَهْبَاءَ مَشْ-مُولَةٍ يَرَى لَهَا الْمَشْرِقَ فِي الْمَغْرِبِ
وَلَيْشَرَبِ إِلَّا كَثْرَ مِنْ كَأْسِهِ وَأَنْعِمْدُ - إِلَى فَضْلَتِهِ - فَأَشْرَبِ
عُقُوبَةً ، أَحْسِنَ بِهَا سُوءَةً - فِي مِثْلِهِ - مِنْ حَسَنِ مُذْنِبِ
وَبَاكِرِ الطَّيِّبِ ، وَرُوحَالَهُ ، فَأَنْتُمَا فِي زَمَنِ طَيِّبِ

ليل انس

« وبات ليلة باحدى جنات اشبيلية فقال : »

وَلَيْلٍ أَدْمَنَّا فِيهِ شُرْبَ مُدَامَةٍ إِلَى أَنْ بَدَا لِلصَّبْحِ - فِي اللَّيْلِ - تَأْمِيرُ
وَجَاءَتْ نُجُومُ الصَّبْحِ - تَضْرِبُ فِي الدُّجَا - فَوَلَّتْ نُجُومُ اللَّيْلِ ، وَاللَّيْلُ مَقْهُورُ
فَحَزْنَا مِنْ اللَّذَاتِ أَطْيَبَ طَيْبِهَا ، وَلَمْ يَعْرِضْنَا هَمٌّ وَلَا عَاقَ تَكْذِيرُ
خَلَا أَنَّهُ - لَوْ طَالَ - دَامَتْ مَسَرَّتِي ، وَلَكِنْ لِيَالِي الْوَصْلِ فِيهِمْ تَقْصِيرُ

دواء

« وقد أهدى دواء »

قَدْ بَعَثْنَاهُ يَنْفَعُ الْأَعْضَاءَ حِينَ يَجْلُو - يُلْطِفُهُ - السَّخْنَاءُ^(١)
جَاءَ يُرْهِى بِمُسْتَشْفٍ رَقِيقٍ يَخْدَعُ الْعَيْنَ رَقَّةً وَصَفَاءً^(٢)
تَنْقُذُ الْعَيْنَ مِنْهُ فِي ظَرْفِ نُورٍ مَلَأَتْهُ أَيْدِي الشُّمُوسِ ضِيَاءَ
أَكْسَبَتْهُ الْأَيَّامُ بَرْدَ هَوَاءٍ فَهَوَ جِسْمٌ قَدْ صِغَ نَارًا وَمَاءَ
مَنْظَرٌ يُبْهِجُ الْقُلُوبَ ، وَطَعْمٌ تَشْكُرُ النَّفْسُ عَهْدَهُ أُسْتِمْرَاءَ
لَذَّةُ الْوَصْلِ نَالَهُ - بَعْدَ يَأْسٍ - كَلِفٌ طَالَمَا تَشْكِي الْجَفَاءَ^(٣)
يَفْضَحُ الشَّهْدَ طَعْمُهُ - كُلَّمَا قِيدَ - سِ - إِلَيْهِ وَيُخْجِلُ الصَّهْبَاءَ
فَضَلَ السَّابِقَ الْمُقَدَّمَ - فِي النُّضْجِ - فَأَزْرَى بِطَعْمِهِ إِزْرَاءَ
غَيْرَ أَنِّي بَعَثْتُ هَذَا غِذَاءَ - يَشْتَهِيهِ الْفَتَى - وَذَاكَ دَوَاءَ
مُلْطَفٌ يُبْرِدُ الْمِزَاجَ إِذَا جَا شَ التَّهَابَا ، وَيَقْمَعُ الصَّفْرَاءَ

(١) بعثناه : أى الدواء المعهود بينه وبين مخاطبه ، ومعلوم أن الطب وعلم الكيمياء وتركيب الأدوية والصيدلة والجراحة تقدمت في الأندلس وبخاصة في القرون الوسطى وعند علماء الأندلس كابن رشد ، وأبي القاسم الزهراوى ، وابن زهر ، وأضرابهم من علماء المشرق بمقداد : كان سينا والرازى ، وعلى ابن العباس أخذ علماء أوروبا علومهم الطبية وغيرها ، وقد مرّ بك كثير من قصائد ابن زيدون التى تتعرض لذكر الطب والعلاج ، وأنت إذا تأملت فيما يمر بك من هذا النوع وأشباعه تقرأ فيه آيات الحضارة ، وتشعر بأثر المدنية ، والسخناء : من قولهم : لى لأحد فى نفسى سخناء - بالمد - وسجونة أى حرارة جديدة من وجع أو حمى .

(٢) يقول : لأن هذا الدواء قد جاءك يزهى فى رفته وسيولته بواء رقيق تستشف العين ماى داخله ، ويخدع الناظر فلا يكاد يراه لشدة رفته وصفائه .

(٣) يقول : إن متعاطيه يسمره ويجد فيه لذة كالذة السكاف المشوق ، ظفر بوصل الحبيب بعد يأس وطول جفاء .

وَمُعِينٌ لِّوَاصِلِ الصَّوْمِ، يَسْرِي بَرْدُهُ فِي الْحَشَاءِ - فَيُزَوِّي الظَّمَاءَ
(فَتَقَبَّلَهُ) شَافِعًا لِأَيَادِيكَ الَّتِي بَعْضُهَا يَفُوتُ الثَّنَاءَ ^(١)

حسي رضاك

إِلَيْكَ - مِنْ الْأَنَامِ - غَدَا أَرْتِيحِي ، وَأَنْتِ - عَلَى الزَّمَانِ - مَدَى أَقْدِيرِ رَاحِي
وَمَا أَعْتَرَضَتْ مُهُومُ النَّفْسِ إِلَّا - وَمِنْ ذِكْرِكَ - وَنَحَانِي وَرَاحِي
فَدَيْتُكَ : إِنَّ صَبْرِي عَنْكَ صَبْرِي - لَدَى عَطَشِي - عَلَى الْمَاءِ الْقَرَّاحِ ^(٢)
وَلِي أَمَلٌ - لَوِ الْوَاشُونَ كَفَّوْا - لَا طَلَعَ غَرْسُهُ ثَمَرَ النَّجَّاحِ
وَأَعْجَبُ كَيْفَ يَغْلِبُنِي عَدُوٌّ - رِضَاكَ عَلَيْهِ مِنْ أَمْضَى سِلَاحِ
وَلَمَّا أَنْ جَلَّتْكَ لِي - اخْتِلَاسًا - أَكْفُ الدَّهْرِ لِلْحَيْنِ الْمُتَّاحِ ^(٣)
رَأَيْتُ الشَّمْسَ تَطْلُعُ مِنْ نِقَابِ ، وَغُصْنُ الْبَانِ يَرْفُلُ فِي وَشَاحِ
فَلَوْ أَسْطِيعُ طَرْتُ إِلَيْكَ - شَوْقًا - وَكَيْفَ يَطِيرُ مَقْصُوصُ الْجَنَاحِ
عَلَى حَالِي وَصَالٍ وَأَجْتِنَابِ ، وَفِي يَوْمِي ذُنُوبِي وَأَنْتِزَاحِ
وَحَسَنِي أَنْ تَطَالِمَكَ الْأَمَانِي بِأَفْقِكَ - فِي مَسَاءٍ أَوْ صَبَاحِ

(١) وجد هذا البيت في الأصل ناقصاً هكذا :

« شافعا لأيديك التي بعضها يفوت الثناء . »

والنكدة لا ياباها السباق .

(٢) يقول : إن صبري عنك كصبري على الماء القراح لدى عطشي وشدة ظمئي .

(٣) يقول في هذا البيت والذي بعده : ولما أن جلتك وأبرزتك يد الدهر خلسة لحبي وهلاكي الذئ

أبيع وقدر لي ، طلعت سافرة كما تطلع الشمس من نقاب ، وخطرت مائة كما يرغل غصن البان في وشاح

وَأَنْ تُهْدِيَ السَّلَامَ إِلَيَّ - غِيًّا - وَلَوْ فِي بَعْضِ أَنْفَاسِ الرِّيحِ (١)
قُوَادِي - مِنْ أَسَى بِكَ - غَيْرُ خَالٍ وَقَلْبِي - عَنْ هَوَى لَكَ - غَيْرُ صَاحٍ

عودى إلى الوصال

بَاعَدْتَ - بِالْإِعْرَاضِ - غَيْرَ مُبَاعِدٍ وَزَهَدْتَ فِيمَنْ لَيْسَ فَيْكَ بِزَاهِدٍ (٢)
وَسَقَيْتَنِي - مِنْ مَاءِ هَجْرِكَ - مَالَهُ أَصْبَحْتُ أَشْرَقُ بِالزُّلَالِ الْبَارِدِ
هَلَّا جَعَلْتِ - قَدْتُكَ نَفْسِي - غَايَةً لِلْعُتْبِ ، أَبْلَغُهَا بِجَهْدِ الْجَاهِدِ (٣)
لَا تُفْسِدَنَّ - مَا وَدَّ تَأْكُودَ يَدِنَا مِنْ صَالِحٍ - خَطَرَاتُ ظَنِّ فَاسِدٍ
حَاشَاكَ مِنْ تَضْيِيعِ أَلْفِ وَسِيلَةٍ - شَجَى الْعَدُوِّ لَهَا - بِذَنْبٍ وَاحِدٍ (٤)
إِنْ أَجْنِهَ خَطَأً ، فَقَدْ عَاقَبْتَنِي ظُلْمًا ، بِأَبْلَغَ مِنْ عِقَابِ الْعَامِدِ (٥)

* *

عُودِي لِمَا أَصْفَيْتَنِيهِ مِنَ الْهُوَى بَذْنًا ، فَلَسْتُ لِمَا كَرِهْتِ - بِعَائِدٍ
وَضَعِي قِنَاعَ السُّخْطِ عَنْ وَجْهِ الرِّضَا كَيْمَا أُخِرَّ إِلَيْهِ أَوَّلَ سَاجِدٍ (٦)

(١) وحسبى أن تمشى السَّلام غيا أى يوما بعد يوم ولو مع أنفاس الرياح التى تهب من ناحيتك ، وفى الأصل « وأن تبنى » وقد وضعنا بدلها « تهدي » التى هى كصورتها حتى لا تكون نائية فى موضعها ، وقد وجد هذا البيت بعد تأليه ، ولكننا آثرنا تقديمه عليه بحكم المعطف على قوله :

« وحسبى أن تطالعك الأمانى . »

(٢) باعدت فتى غير ماعد وذاك باعرامك عه ، وزهدت فى محب ليس فيك بزاهد .

(٣) يقول كان ينبغي أن تجعلى بنى وبينك نهاية للعتب وغاية أبلىغ فيها رضاك بجهد الجاهد وشقى النفس .

(٤) يقول : حاشاك أن تضيع ألف وسيلة توسلت بها إلى رضاك يراها عدوى كالتسبب بمعتز فى

حلقه بذنب واحد .

(٥) إن أجن ذلك الذنب خطأ فقد ظلمتني بأن عاقبتني عليه بأشد من عقوبة من أتى بالذنب عمدا .

(٦) أزيل من وجه الرضا ما يسترته من قناع السخط كما أكون أول ساجد على نعمة رضاك عني .

أبو القاسم

« وأمره المعتضد أن يعارض قطعا من أشعار كان
يستحسن ألحانها فعارضها رحمه الله بقطع وهي : »

يُقَصِّرُ قُرْبُكَ لَيْلِي ^(١) الطويلَ وَيَشْفِي وَصَالُكَ قَلْبِي العائلا
وَإِنْ عَصَفَتْ مِنْكَ رِيحُ الصَّدُودِ فَقَدْتُ نَسِيمَ الْحَيَاةِ الْبَلِيلَا
كَمَا أَنَّنِي ^(٢) إِنْ أَطَلْتُ الْعِشَارَ وَلَمْ يُبْدِ عُذْرِي وَجْهَهَا جَمِيلَا
وَجَدْتُ « أبا القاسم الظافر المؤيد بالله » مَوْلى مُقِيلَا
إِذَا مَا نَدَاهُ هَمِي وَالْحَيَا شَاهُ ، وَعُدَّ الْجَوَادُ الْبَحِيلَا
وَأَقْلَامُهُ وَفَقُّ أَسْيَافِهِ يَظَلُّ الصَّرِيرُ يُبَارِي الصَّلِيلَا

وقال

أَنْتَ الْمُسَبَّبُ لِلْوُلُوعِ وَمُثِيرُ كَامِنَةِ الدُّمُوعِ
يَتَمَنِّيَانِ لَوْ أَعْفِيَا مَهْمَا طَلَعَتْ مِنَ الطَّلُوعِ
وَالظَّافِرُ الْمَلِكُ الْمُؤَيَّدُ وَاحِدُ عَدْلُ الْجُمُوعِ
الْبَذْرُ فِي سَحْبِ الْبُرِّ وَدِ الْلَيْثُ فِي لَبَدِ الدَّرُوعِ
عَنْتِ الْأُصُولُ لِأَصْلِهِ وَتَقَاصَرَتْ عَنْهُ الْفُرُوعُ

(١) في الأصل : « الليل »

(٢) في الأصل : « أني »

آلام المحب

مَتَى أَبْثُكَ ^(١) مَا بِي ؟ يَا رَاحَتِي وَعَذَابِي
مَتَى يَنْثُوبُ لِسَانِي - فِي شَرْحِهِ - عَنْ كِتَابِي ؟
اللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي أَصْبَحْتُ فِيكَ لِمَا بِي
فَلَا يَطِيبُ ^(٢) مَنَايِي وَلَا يَسُوعُ شَرَابِي

* *

يَا فِتْنَةَ الْمُتَعَرِّى ^(٣) وَحُجَّةَ الْمُتَصَانِي :
الشَّمْسُ أَنْتِ، تَوَارَتْ - عَنْ نَظَرِي - بِالْحِجَابِ

* *

مَا الْبَدْرُ - شَفَّ سَنَاهُ عَلَى رَقِيقِ السَّحَابِ -
إِلَّا كَوَجْهِكَ ، لَمَّا أَضَاءَ تَحْتَ النُّقَابِ

كيف السلو ؟

كَمْ ذَا أُرِيدُ وَلَا أُرَادُ ؟ يَا سَوْءَ مَا لَقِيَ الْفُؤَادُ !
أَضْفِي الْوِدَادَ مُدَلَّلًا ، لَمْ يَصْنَفْ لِي مِنْهُ الْوِدَادُ
يَقْضِي عَلَى دَلَالَةٍ - فِي كُلِّ حِينٍ - أَوْ يَكَادُ
كَيْفَ السُّلُو عَنْ الَّذِي مَثْوَاهُ - مِنْ قَلْبِي - السَّوَادُ ؟

(١) وفي بعض الروايات : « متى أتيتك . »

(٢) وفي بعض الروايات : « لم يلك مناي »

(٣) وفي الاصل : « يا فتنة المقرى »

مَلَكَ الْقُلُوبَ بِحُسْنِهِ ، فَلَهَا - إِذَا أَمَرَ - انْقِيَادُ

يَا هَاجِرِي كَمْ أَسْتَفِيدُ الصَّبْرَ عَنْكَ ، فَلَا أَفَادُ
 إِلَّا ^(١) رَمَيْتَ لِمَنْ يَبِيتُ وَحَشَوُ مُقْلَتِهِ الشَّهَادُ؟
 إِنْ أَجْنَى ذَنْبًا فِي الْهَوَى - خَطَأً - فَقَدْ يَكْبُو الْجَوَادُ
 كَانَ الرِّضَى - وَأَعِيدُهُ - أَنْ يُعْقِبَ الْكَوْنُ الْفَسَادُ

قسم

أَسْتَوْدِعُ اللَّهَ مَنْ أَضْنَى الْوَدَادَ لَهُ
 الْفُؤَادُ غُرُورَ الْوَعْدِ، يَصْفَحُ لِي
 تَجَلَّوْا لِمَنْ شَخَصَهُ لِي - وَهُوَ مُخْتَجِبُ
 يَا بَدْرَ تِمِّ بَدَا فِي أَفْقٍ مَمْلُوكَةٍ،
 أَفْدَى بَدَائِعَ شَكْلِ مِنْكَ مُضْمِرَةً
 مَحْضًا ، وَلَامَ بِهِ الْوَائِي فَلَمْ أَطِعْ -
 عَنْهُ ، وَيُقْنِمُنِي التَّعْلِيلُ بِالْخُدَعِ
 عَنِّي - فَمَا شِدْتُ مِنْ مَرَأَى وَمُسْتَمَعِ
 فَرَّاقَ مُطْلِعًا مِنْ خَيْرِ مُطْلَعِ
 لِقَتْلِ نَفْسِي - عَمْدًا - أَشْنَعَ الْبِدَعِ

تَاللَّهِ - أَكْرَمَ مَا أَمْضَى الْيَمِينَ بِهِ
 مَا لَدَّ لِي قُرْبُ أَنْسٍ أَنْتِ نَارِحَةٌ
 مَنْ دَانَ فِي حُبِّهِ بِالصَّدْقِ وَالْوَرَعِ -
 عَنْهُ ، وَلَا سَاغَ عَيْشٌ لَسْتُ فِيهِ مَعِي

خداع الأمانى

وَلَقَدْ شَكَوْتُكَ بِالضَّمِيرِ إِلَى
 مَنِيتُ نَفْسِي - مِنْ صَفَائِكَ - ضَلَّةً
 وَدَعَوْتُ - مِنْ حَنَقٍ - عَلَيْكَ فَأَمَّنَّا
 وَلَقَدْ تَغَرُّ الْمَرْءَ بَارِقَةُ الْمُنَى

في الغزل

« وله يتغزل ويعاتب من يستعطفه ويتنزل . »

يا مُسْتَخِفًّا بِعَاشِقِيهِ وَمُسْتَفْهِشًا لِنَاصِيهِ
وَمَنْ أَطَاعَ الْوُشَاةَ فِينَا حَتَّى أَطَعْنَا السُّلُوءَ فِيهِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ إِذْ أَرَانِي تَكْذِيبَ مَا كُنْتُ تَدَّعِيهِ
مِنْ قَبْلِ أَنْ يُهْزِمَ التَّسْلَى وَيَغَابَ الشُّوقُ مَا يَلْدِيهِ

إلى هاجر

أَوْسَلَبُ مِنْ وَصَالِكَ مَا كُسِبَتْ ؟ وَأَعَزَلُ - عَنْ رِضَاكَ - وَقَدْ وَلِيتُ ؟
وَكَيْفَ - وَفِي سَبِيلِ هَوَاكَ طَوْعًا - لَقِيتُ مِنَ الْمَكَارِهِ مَا لَقِيتُ !
أَسِرُّ عَلَيْكَ عَتَبًا لَيْسَ يَبْقَى ، وَأُضْمِرُ فِيكَ غَيْظًا لَا يَبِيتُ
وَمَا رَدَّى عَلَى الْوَاشِينَ ، إِلَّا : « رَضِيتُ بِجَوْرِ مَا لِكُنِّي رَضِيتُ . »

دعاء محب

أَنْنِي أَضِيعُ عَهْدَكَ ؟ أَمْ كَيْفَ أَخْلِفْتُ وَعْدَكَ
وَقَدْ رَأَيْتُكَ الْأَمَانِي رِضَى ، فَلَمْ تَتَّعِدْكَ

يَا لَيْتَ مَالِكَ عِنْدِي ! - مِنَ الْهَوَى - لِي عِنْدَكَ ^(١)

(٢) وفي بعض الروايات :

« يا ليت شعري ، وعندي ما ليس - في الحب - عندك
هل طال ليك بعدي ؟ كطول ليلى بعدك ؟ . »

فَطَالَ أَيْلُكَ بَعْدِي كَطُولُ لَيْلِي بَعْدَكَ
سَلَنِي حَيَاتِي أَهْبَهَا ، فَلَسْتُ أَمْلِكُ رَدَّكَ
الَّذِي عُنْدِي ، لَمَّا أَصْبَحْتُ فِي الْحُبِّ عَبْدَكَ

أنت حسبي

يَا مَنْ غَدَوْتُ بِهِ - فِي النَّاسِ - مُشْتَهَرًا قَانِي عَلَيْكَ يُقَاسِي الْهَمَّ وَالْفِكْرَا
إِنْ غِبْتَ لَمْ أَلْقَ إِنْسَانًا يُؤْتِسِّي (١) وَإِنْ حَضَرْتُ ، فَكُلُّ النَّاسِ قَدْ حَضَرَا

ما الذي أنكروه ؟

قَالَ لِي : « أَعْتَلَّ مَنْ هَوَيْتَ » حَسُودٌ قُلْتُ : « أَنْتَ الْعَمَلِيلُ وَنَحْكَ لَاهُو »
مَا الَّذِي أَنْكَرُوهُ مِنْ بَهْرَاتٍ (٢) ضَاعَفَتْ حُسْنَهُ وَزَادَتْ حُلَاهُ
جِسْمُهُ - فِي الصَّافَاءِ وَالرَّقَّةِ - الْمَا ، فَلَا غَرَوَ أَنْ حُبَابُ عِلَاهُ

شوق بعد سلوان

عَاوَدْتُ ذِكْرِي الْهَوَى - مِنْ بَعْدِ نِسْيَانٍ وَأَسْتَحَدْتُ الْقَلْبُ شَوْقًا بَعْدَ سُلُوفَانٍ
مِنْ حُبِّ جَارِيَةٍ ، يَبْدُو بِهَا صَمٌّ مِنَ اللَّجَيْنِ ، عَلَيْهِ تَاجُ عَقِيَانٍ
غَرِيرَةٌ - لَمْ تُفَارِقْهَا تَمَاطُهَا - تَسْبِي الْعُقُولِ بِسَاجِي الطَّرْفِ وَسَنَانٍ
لَا سَتَجِدَنَّ - فِي عِشْقِي لَهَا - زَمَنًا يُنْسِي سَوَافٍ أَيْامِي وَأَزْمَانِي
حَتَّى تَكُونِ لِمَنْ أَحْبَبْتُ خَاتِمَةً ، نَسَخْتُ - فِي حُبِّهَا - كُفْرًا بِإِيمَانٍ

(١) في الأصل « يونسى » بإبدال الهمزة واوا وهو إبدال مقبوس كما يعلم من علم الصرف ، وهو مضارع أنسى (بالضعف) أى أزال وحش كآسى ، وجاء في كلامهم :
« إِذَا جَاءَ اللَّيْلُ اسْتَأْنَسَ كُلُّ وَحْشٍ ، وَاسْتَوْحِشَ كُلُّ إِنْسَى » .

(٢) البهرات : واحدتها بهرة كسجدة وسجدة ، وهي خراج صفار تظهر على الوجه ، تنطف جلدته ، وأهلب ما يكون ذلك في أوان الشباب ، ولذلك يعرف عند العامة في بلادنا (بحب الشباب) ، وقد هله في البيت التالي تعليلًا حسنًا ، حيث شبهه بالحباب يطفو على وجه الماء الشبيه ببشرة وجه الحبيب في الرقة والصفاء .

أسر الهوى

يَا سُوَّالَ نَفْسِي - إِنَّ أَحَكَّمْ - وَاخْتِيَارِي إِنَّ أَحْيَرُ
كَمْ لَأَمَنِي فِيكَ الْحَسُو دُ، وَفَنَدَّ الْوَاشِي فَأَكْثَرُ
قَالُوا : « تَغَيَّرَ بِالسُّلُوِّ وَبِالْمَلَامَةِ قَدْ تَعَيَّرَ »
وَتَوَهَّمُوكَ جَنَيْتَ ذَنْبًا بِالتَّجَنَّى لَيْسَ يُغْفَرُ
وَبِرَّعْمِهِمْ أَنْ لَيْسَ مِثْلِي فِي الرَّضَى بِالذُّونِ يُعَذَّرُ
لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ الْهَوَى رِقٌّ، وَأَنَّ الْحُسْنَ أَجْمَرُ^(١)

معذرة

إِنْ تَكُنْ نَالَتُكَ - بِالضَّرْبِ يَدِي - وَأَصَابَتْكَ بِمَا لَمْ أُرِدِ
فَلَقَدْ كُنْتُ - لَعَمْرِي - لَكَ بِالْمَالِ وَبِالنَّصِ الْوَالِدِ
فَتَقِي مِنِّي بِعَهْدٍ ثَابِتٍ وَضَمِيرٍ خَالِصٍ الْمُعْتَقِدِ
وَلَيْتَ سَاءَكَ يَوْمٌ فَأَعْلَمِي أَنْ سَيَتْلُوهُ سُرُورٌ يَغْدِ

وصف الكأس

أَنَا ظَرْفٌ لِلْهَوَى كُلِّ ظَرِيفٍ أَنَا مُسْتَوْدَعٌ لِعِلْقِ شَرِيفٍ
أَنَا كَالصَّدْرِ فِي الْإِحَاطَةِ بِالرَّاحِ إِذَا الرَّاحُ كَالضَّمِيرِ اللَّاطِيفِ
سَلَّ عَنِ الطِّيَّبَاتِ فَهِيَ فُنُونُ أَلْفَتْ فِي أَحْسَنِ التَّأْلِيفِ
أَيْ حُسْنِ يَنِي بِحُسْنِي مَحْمُو لَا يَكْفِي وَصِيفَةً أَوْ وَصِيفِ

(١) من قولهم « الحسن أجمر » أي ذو مشقة وبلاء يريدون أن من تمسق الحسن والجمال تحمل و
سبيله المشقة وصبر على الأذى ، وإنما يقال ذلك لأن يستقره الهوى ، وبغلبه الحسن على أمره في سبيله
الموت الأجمر .

غاية المحبين

لئن كُنتَ في السَّنِّ - تَرَبُّبَ الْهَلَالِ ، لَقَدْ فُتِّتَ - فِي الْحُسْنِ - بِذَرِّ الْكَمَالِ
أَمَّا وَالَّذِي نَكَّدَ الْحَظَّ فِي دُنُوِّ الْمَكَانِ يُبْعِدُ الْمَنَالِ
لَقَدْ بَلَغْتَنِي دَوَاعِي هَوَاكَ إِلَى غَايَةِ مَا جَرَتْ لِي بِبَالِ
فَقُلْ لِلْهَوَى : « يَحْزِرُ مِلُّ الْعِنَانِ » فَيَذَانُ قَلْبِي رَحِيبُ الْمَجَالِ

صفح المذنب

يَا قَمَرًا مَطْلَعُهُ الْمَغْرِبُ قَدْ ضَاقَ بِي - فِي حُبِّكَ - الْمَذْهَبُ
أَعْتَبُ - مِنْ ظُلُمِكَ لِي - جَاهِدًا ، وَيَغْلِبُ الشَّوْقُ فَأَسْتَعِيبُ
أَلْزَمْتَنِي الذَّنْبَ الَّذِي جِئْتَهُ ، صَدَقْتَ ، فَاصْفَحْ أَيُّهَا الْمَذْنِبُ

لا يأس

أَيُّهَا الْبَذْرُ الَّذِي يَمْلَأُ عَيْنِي مَنْ تَأْمَلُ
مُحَمَّلَ الْقَلْبُ تَبَارِيحَ التَّجَنُّي فَتَحَمَلْ
لَيْسَ لِي صَبْرٌ جَمِيلٌ ، غَيْرَ أَنَّي أَنْجَمَلُ
نَمْ لَا يَأْسَ ، فَكَمْ قَدْ نِيلَ أَمْرٌ لَمْ يُؤْمَلْ

عتب

أَوْجَنِي - بِلَا جُرْمٍ - وَأُقْصِي بِلَا ذَنْبٍ ، سِوَى أَنَّنِي مُحَضُّ الْهَوَى صَادِقُ الْحُبِّ
أُغَادِيكَ بِالشُّكْوَى ، فَأُضْحِي عَلَى الْقَلِي وَأَرْجُوكَ لِلْعُتْبَى ، فَأُظْفِرُ بِالْعُتْبِ
فَدَيْتُكَ ، مَا لِلْمَاءِ - عَذْبًا عَلَى الصَّدَى - وَإِنْ مُنَمَّتِي خَسَفًا ، تَحَلَّكَ مِنْ قَلْبِي
وَلَوْ لَأَكَ ، مَا ضَاقَتْ حَشَايَ - صَبَابَةً - جَعَلْتُ قِرَاهَا الدَّمْعَ سَكْبًا عَلَى سَكْبِ

تجنى الحبيب

ثَبِّحِي بِي - يَا مُعَذِّبَتِي - فَإِنِّي
وَأِنْ أَصْبَحْتَ قَدْ أَرْضَيْتِ قَوْمًا
وَهَلْ قَلْبُكَ كَقَلْبِكَ فِي ضُلُوعِي ،
تَمَنَّتْ - أَنْ تَنَالَ رِضَاكَ - نَفْسِي ،
وَلَمْ أَجْنِ^(١) الذُّنُوبَ فَتَحْقِدِيهَا ،
سَأَحْفَظُ فِيكَ مَا ضَيَّعْتِ مِنِّي
بِسُخْطِي ، لَمْ يَكُنْ ذَا فِيكَ ظَنِّي
فَأَسْأَلُو عَنْكَ حِينَ سَلَوْتَ عَنِّي
فَكَانَ مَنِيَّةً ذَلِكَ التَّعَنِّي
وَلَكِنْ عَادَةٌ مِنْكَ التَّجَنِّي .

لا يأس في الحب

أَنْتِ مَعْنَى الضَّنَى وَسِرُّ الدُّمُوعِ ،
أَنْتِ وَالشَّمْسُ ضَرَّتَانِ ، وَالْكِنْ
لَيْسَ بِالْمَوْئِسِي تَكَلُّفُكَ الْعَتَبِ - دَلَالًا - مِنْ الرِّضَى الْمَطْبُوعِ
إِنَّمَا أَنْتِ - وَالْحَسُودُ مَعْنَى -
وَسَبِيلُ الْهَوَى ، وَقَصْدُ الْوَلُوعِ
لَكَ - عِنْدَ الْغُرُوبِ - فَضْلُ الطَّلُوعِ

بقية المسوأك

أَهْدِي إِلَى بَقِيَّةِ الْمِسْوَاكِ
فَلَمَعَلَّ نَفْسِي ، أَنْ يُنْفَسَ سَاعَةً
يَا كَوْكَبًا - بَارِئَ سَنَاهُ سَنَاءَهُ -
قَرَّتْ وَفَارَتْ - بِالْخَطِيرِ مِنَ الْمَنَى -
لَا تُظْهِرِي بُخْلًا بِعُودِ أَرَاكِ
عَنْهَا بِتَقْبِيلِ الْمُقْبَلِ فَالِكِ
تُرْهِى الْقُصُورُ بِهِ عَلَى الْأَفْلَاكِ
عَيْنُ ثَقَلْبُ لَحْظَهَا فَتَرَاكِ

غرور المنى

إِنْ سَاءَ فِعْلُكَ بِي ، فَادَّعِنِي أَنَا ؟
لَمْ أَسْأَلْ حَتَّى كَانَ عُدْرُكَ - فِي الذِّى
وَلَقَدْ شَكَّوْتُكَ - بِالضَّمِيرِ - إِلَى الْهَوَى ،
مَنَيْتُ نَفْسِي - مِنْ وَفَائِكَ - ضَلَّةً ،
حَسَبُ الْمُنِيمِ أَنَّهُ قَدْ أَحْسَنَا
أَبْدَيْتِهِ - أَخْفَى ، وَعُدْرِي أُيِّنَا
وَدَعَوْتُ - مِنْ حَنَقٍ - عَلَيْكَ فَأَمَّنَا
وَلَقَدْ تَغَرُّ الْمَرْءَ بَارِقَةُ الْمُنَى

صلينى

أَغَابَتَا عَنِّي ، وَحَاضِرَةٌ مَعِي ،
أَفِي الْحَقِّ أَنْ أَشَقَى بِحُبِّكَ ، أَوْ أَرَى
أَلَّا عَظْفَهُ تَحْيَا بِهَا نَفْسُ عَاشِقٍ ؟
صَلِينِي - بَعْضُ الْوَصْلِ - حَتَّى تَبَيَّنِي
أُنَادِيكَ - لَمَّا عَمِلَ صَبْرِي - فَأَسْمَعِي
حَرِيْقًا بِأَنْفَاسِي ، غَرِيْقًا بِأَذْمُعِي
جَعَلْتَ الرَّدَى مِنْهُ بِرَأْيٍ وَمَسْمَعٍ
حَقِيقَةً حَالِي ، ثُمَّ مَا شِدْتُ فَأَصْنَعِي

شكوى ضائعة

سَاحِبُ أَعْدَائِي لِأَنَّكَ مِنْهُمْ (١)
أَصْبَحْتَ تُسَخِّطُنِي فَأَمْنَحُكَ الرِّضَى
يَا مَنْ تَأَلَّفَ لَيْلُهُ وَنَهَارُهُ ،
قَدْ كَانَ فِي شَكْوَى الصَّبَابَةِ رَاحَةً ،
يَا مَنْ يُصِحُّ - بِمُقْلَتَيْهِ - وَيُسْقِمُ
- مَحْضًا - وَتَظْلِمُنِي فَلَا أَتَظْلَمُ
فَالْحُسْنُ يَنْتَهَمَا مُضَى مُظْلِمُ
لَوْ أَنَّي أَشْكُو إِلَى مَنْ يَرْحَمُ

وفاء المحب

لَمَّا اتَّصَلْتَ اتِّصَالَ الْحُبِّ (٢) بِالْكَبِدِ
ثُمَّ أَمْتَزَجْتَ أَمْتَزَاجَ الرُّوحِ بِالْجَسَدِ

(١) وهذا قريب من قول الفائل :

« شابهت أعدائي فصرت أحبهم إذ كان حظي منك حظي منهم . »

(٢) وفي الأصل : « الحب »

سَاءَ الْوُشَاةَ مَكَانِي مِنْكَ ، وَاتَّقَدْتُ - فِي صَدْرٍ كُلِّ عَدُوٍّ - جَمْرَةُ الْحَسَدِ
فَلَيْسَ خَطِ النَّاسِ لَا أَهْدِي الرِّضَى لَهُمْ ، وَلَا يَضِيعُ لَكَ عَهْدُ آخِرِ الْأَبَدِ
لَوْ اسْتَطَعْتُ - إِذَا مَا كُنْتُ غَائِبَةً - غَضَضْتُ طَرْفِي ، فَلَمْ أَنْظُرْ إِلَى أَحَدٍ

غدر الحبيب

يَا لَيْلُ طُلُ ، لَا أَشْتَهِي - إِلَّا بِوَصْلٍ - قِصْرَكَ
لَوْ بَاتَ عِنْدِي قَمَرِي ، مَا بَتُّ أَرْغَى قَمَرِكَ
يَا لَيْلُ خَبِّرْ : أَنِّي أَلْتَدُّ عَنْهُ خَبْرَكَ
بِاللَّهِ قُلْ لِي : هَلْ وَفَا ؟ فَقَالَ : « لَا ، بَلْ غَدَرَكَ »

حذر العاشق

لَنْ فَاتَنِي مِنْكَ حَظُّ النَّظَرِ لَا كَتِفَيْنِ بِسَمَاعِ الْخَبَرِ
وَإِنْ عَرَضَتْ غَفْلَةٌ لِلرَّقِيبِ ، فَحَسْبِي تَسْلِيمَةٌ تُخْتَصَرُ
أَحْذِرُ أَنْ تَتَطَنَّى الْوُشَاةُ ، وَقَدْ يُسْتَدَامُ الْهَوَى بِالْحَذَرِ
وَأَصْبِرُ مُسْتَيْقِنًا : أَنَّهُ سَيَحْظِي - بِنَيْلِ الْمُنَى - مَنْ صَبَرَ

قناعة المحب

سَأَفْنَعُ مِنْكَ بِلَحْظِ الْبَصَرِ ، وَأَرْضِي بِتَسْلِيمِكَ الْمُخْتَصَرِ
وَلَا أَتَخَطَّى النَّاسَ الْمُنَى ، وَلَا أَتَعَدَّى اخْتِلَاسَ النَّظَرِ
أَصُونُكَ - مِنْ لَحْظَاتِ الظُّنُونِ - وَأَعْلِيكَ عَنْ خَطَرَاتِ الْفِكْرِ
وَأَحْذِرُ - مِنْ لَحْظَاتِ الرَّقِيبِ - وَقَدْ يُسْتَدَامُ الْهَوَى بِالْحَذَرِ

كيف السلو ؟

هَلْ لِدَاعِيكَ مُجِيبٌ ؟ أَمْ لِشَاكِكَ طَيبٌ ؟
يَا قَرِيبًا - حِينَ يَتَأَى - حَاضِرًا - حِينَ يَغِيبُ - !
كَيْفَ يَسْأَلُكَ مُجِيبٌ ؟ زَانَهُ مِنْكَ حَيِّبٌ ؟
إِنَّمَا أَنْتَ نَسِيمٌ تَتَلَقَّاهُ الْقُلُوبُ
قَدْ عَلِمْنَا عِلْمَ ظَنٍّ ، هُوَ - لَا شَكَّ - مُصِيبٌ
أَنْ سِرَّ الْحُسْنِ مِمَّا أَضْمَرْتَ تِلْكَ الْجُيُوبُ

أنت المنى

أَرْخَصْتَنِي - مِنْ بَعْدِ مَا أَعْلَيْتَنِي -
بَادَرْتَنِي بِالْعَزْلِ عَنْ خُطَطِ الرِّضَى ،
هَلَّا - وَقَدْ أَعْلَقْتَنِي شَرَكَ الْهَوَى -
الصَّبْرُ شُهُدٌ - عِنْدَ مَا جَرَّعْتَنِي -
كُنْتَ الْمَنَى ، فَأَذَقْتَنِي غُصَصَ الْأَذَى ،
وَحَطَطْتَنِي ، وَلَطَأَ مَا أَعْلَيْتَنِي
وَلَقَدْ مَحَضْتُ النُّصْحَ إِذْ وَلَّيْتَنِي
عَلَّيْتَنِي بِالْوَصْلِ ، أَوْ سَلَّيْتَنِي
وَالنَّارُ بَرْدٌ ، عِنْدَ مَا أَصْلَيْتَنِي
يَا لَيْتَنِي مَا فُوتَ فَيْكَ : يَلِيْتَنِي

بقاء على العهد

جَازَيْتَنِي - عَنْ تَمَادِي الْوَصْلِ - هِجْرَانًا
بِاللَّهِ هَلْ كَانَ قَتْلِي فِي الْهَوَى خَطَاً
عَهْدِي كَعَهْدِكَ ، مَا الدُّنْيَا تُغَيِّرُهُ
مَا صَحَّ وَدَّى إِلَّا أَعْتَلَّ وَدُّكَ لِي ،
يَا أَلَيْنَ النَّاسَ أَعْطَافًا ، وَأَفْتَنَهُمْ
حَسَنْتَ خَلْقًا ، فَأَحْسِنِ لَا تَسُوْ خُلُقًا ،
وَعَنْ تَمَادِي الْأَمْنَى وَالشَّوْقِ سُلُوفَانَا
أَمْ جِئْتَهُ عَامِدًا ظُلُمًا وَعُدُوانًا ؟
وَإِنْ تَغَيَّرَ مِنْكَ الْعَهْدُ أَلُوفَانَا
وَلَا أَطْعَمُكَ إِلَّا زِدْتَ عَصِيَانَا
لَحْظًا ، وَأَعْطَرَ أَنْفَاسَنَا وَأَرْذَانَا
مَا خَيْرُ ذِي الْحُسْنِ إِنْ لَمْ يُؤَلِّ إِحْسَانًا ؟

أين وفاؤك؟

أَشْمَتَ بِي فِيكَ الْعِدَا وَبَلَغْتَ مِنْ ظُلْمِي الْمَدَى
لَوْ كَانَ يَمْلِكُ فِدْيَةَ مِنْ حُبِّكَ الْقَلْبُ أَفْتَدَى
كُنْتَ الْحَيَاةَ لِمَاشِقٍ مُذْ حُلْتُ أَيْقَنَ بِالرَّدَى
لَمْ يَسْلُ عَنْكَ ، وَلَوْ سَلَا لَمَذَرْتُهُ ، فَبِكَ أَفْتَدَى
ضَيَّعْتَ عَهْدَ مَحَبَّةٍ كَالْوَرْدِ سَامَرُهُ النَّدَى
أَيْنَ ادَّعَاؤُكَ لِلْوَفَا ، وَمَا عَدَا مِمَّا بَدَا ^(١)

صريع الحب

لَوْ كَانَ قَوْلُكَ «مُتٌ» مَا كَانَ رَدْدِي «لَا»
أَبْدَيْتَ لِي - مِنْ أَفَانِيَنِ الْقَلْبِ - عِبْرًا ،
لَمْ تُبْقِ جَارِحَةً بِالْهَجْرِ مِنْ جَسَدِي
فَلْيُغْنِ كَفِّكَ أَتَى بَعْضُ مَنْ مَلَكَتْ ،
وَلْتَقْضِ مَا شِئْتُ - مِنْ هَجْرٍ وَمِنْ صِلَةٍ -
سَقِيًا لِعَهْدِكَ وَالْأَيَّامُ تُقْبِلُنِي
إِذِ الزَّمَانُ بَلِيغٌ فِي مُسَاعَدَتِي
إِنْ كَانَ لِي أَمَلٌ إِلَّا رِضَاكَ ، فَلَا
يَا جَائِرَ الْحُكْمِ ، أَفْدِيهِ رَيْنَ عَدَلَا
أُرْسَلْتَنِي - فِي أَحَادِيثِ الْهَوَى - مَثَلَا
إِلَّا خَلَعْتَ عَلَيْنَهَا - بِالضَّنَى - حُلَلَا
وَلَيْكَفِ طَرْفَكَ أَتَى بَعْضُ مَنْ قَتَلَا
لَا أَقْضِ مَا عِشْتُ سُلُوءًا وَلَا مَلَلَا
وَجْهَ الشَّرُورِ بِهِ جَذَلَانٌ مُقْتَبِلَا
يُهْدِي إِلَيَّ - تَفَارِيقُ الْمُنَى - مُجَلَا
بُنَاغَتْ - يَا أَمَلِي - مِنْ دَهْرِي الْأَمَلَا

(١) في الأصل : « وما عدا فيما بدا . » وأصل المثل كما في مجمع الأمثال للبيدائي : « ما بدا مما بدا . » أي ما منعك مما ظهر لك أولا ، قاله علي بن أبي طالب للزبير بن العوام رضى الله عنهما يوم الجمل يريد ما الذي صرفك عما كنت عليه من البيعة ، وهذا متصل بقوله : « مررتني بالحجاز ، وأنكرتني بالمرافق ، فما عدا مما بدا . »

وفاء المحب

مَنْ مَبْلُغٌ عَنِّي الْبَذَرُ الَّذِي كَمَلَا
أَنَّ الزَّمَانَ الَّذِي أَهْدَى مَوَدَّتَهُ
أَمَّا الْحَبِيبُ الَّذِي أَبْدَى الْجَفَاءَ لَنَا،
وَلَمْ تَرِدْ أَنْ ظَفِرْنَا مِنْهُ أَعْيُنَنَا
أَنْتَ الْحَبِيبُ الَّذِي مَا زِلْتَ تُخْفِئُ
هَذِي الْحَقِيقَةَ ، لَا قَوْلِي مُخَافَةً :
فِي مَطْلَعِ الْحُسْنِ وَالْعُضْنِ الَّذِي أَعْتَدَلَا
إِلَى مُرْتَهِنٍ شُكْرِي بِمَا فَعَلَا
فَمَا رَأَيْنَا قِلَاهُ حَادِثًا جَلَلَا
بِالْمُشْتَرَى ، فَتَجَبَّنَا لَهُ زَحَلَا
ظِلَّ الْهَوَى ، وَأَسْقِيَهُ الرِّضَا عَمَلَا
لَوْ كَانَ قَوْلُكَ «مُت» مَا كَانَ رَدِّي «لَا»

انت حسبي

لَمْ يَكُنْ هَجْرِي حَبِيبِي عَنْ قَلِي
سَرُّهُ شُكْرِي - إِذْ عَافَى - وَلَمْ
أَنَا رَاضٍ بِالَّذِي يَرْضَى بِهِ
مَثَلُهُ فِي كُلِّ حُسْنٍ مِثْلُ مَا
يَافَقَتِ الْمِسْكُ يَا شَمْسُ الضُّحَا
إِنْ يَكُنْ لِي أَمَلٌ غَيْرَ الرِّضَا
لَا وَلَا ذَاكَ التَّجَنِّي مَدَلَا
يَدُرُ مَا غَايَةُ صَبْرِي فَأَبْتَلَى
لِي مَنْ لَوْ قَالَ «مُت» مَا قُلْتُ : «لَا»
صَارَ ذُلِّي - فِي هَوَاهُ - مَثَلَا
يَا قَضِيبَ الْبَكَانِ يَا رِيمَ الْفَلَا
مِنْكَ ، لَا بُلَّغْتُ ذَاكَ الْأَمَلَا

إلى هاجر

أَتَهْجُرُنِي وَتَغْصِبُنِي كِتَابِي ؟
أَيَحْمِلُ أَنْ أَيْحَكَ نَحْضُ وَدِّي ؟
فَدَيْتُكَ ، كَمْ تَمُضُّ الطَّرْفَ دُونِي
وَكَمْ لِي مِنْ فُؤَادِكَ - بَعْدَ قُرْبِ -
وَمَا فِي الْحَقِّ غَضَبِي وَأَجْتَنَابِي
وَأَنْتَ تَسُومُنِي سُوءَ الْعَذَابِ
وَكَمْ أَدْعُوكَ مِنْ خَلْفِ الْحِجَابِ
مَكَانَ الشَّيْثِ فِي نَفْسِ الْكَهْمَابِ

أَعِذْ - فِي عَبْدِكَ الْمَظْلُومِ - رَأْيَا تَنَالُ بِهِ الْجَزِيلَ مِنَ الثَّوَابِ (١)
وَإِنْ تَبَخَّلَ عَلَيْهِ قَرُبٌ دَهْرٍ وَهَبْتَ لَهُ رِضَاكَ بِلاَ حِسَابٍ

لا سبيل إلى السلو

أَذْكَرَ تَنِي سَالِفَ الْعَيْشِ الَّذِي طَابَا يَا لَيْتَ غَائِبَ ذَلِكَ الْعَهْدِ قَدْ آتَا
إِذْ نَحْنُ فِي رَوْضَةٍ لِلْوَصْلِ - نَعْمَهَا مِنَ الشَّرُورِ غَمَامٌ فَوْقَهَا صَابَا
إِنِّي لِأَعْجَبُ مِنْ شَوْقِي يُطَاوِلُنِي فَكُلَّمَا قِيلَ فِيهِ: «قَدْ قَضَى»، تَابَا
كَمْ نَظْرَةً لَكَ فِي عَيْنِي عَلِمْتَ بِهَا - يَوْمَ الزِّيَارَةِ - أَنَّ الْقَلْبَ قَدْ ذَابَا
قَلْبٌ يُطِيلُ مَقَامَاتِي إِطَاعَتِكُمْ، فَإِنْ أَكَلَفَهُ عَنْكُمْ سَلْوَةً يَابَا
مَاتُوا بَنِي بَنُصُوحٍ - مِنْ مَحَبَّتِكُمْ - لَا عَذَبَ اللَّهُ إِلَّا حَاشِقًا تَابَا

انت الحياة

أَمَّا رِضَاكَ فَعِدَقُ مَا لَهُ ثَمَنُ لَوْ كَارَ سَامِحِي فِي وَصْلِهِ الزَّمَنُ
تَبَكِّي فِرَاقَكَ عَيْنُ أَنْتَ نَاطِرُهَا قَدْ لَجَّ فِي هَجْرِهَا عَنْ هَجْرِكَ الْوَسَنُ
إِنَّ الزَّمَانَ الَّذِي عَهْدِي بِهِ حَسَنُ قَدْ حَالَ مُذْ غَابَ عَنِّي وَجْهُكَ الْحَسَنُ
أَنْتَ الْحَيَاءُ فَإِنْ يُقْدَرُ فِرَاقُكَ لِي فَلْيُخْفِرِ الْقَبْرُ أَوْ فَلْيُخْضِرِ الْكَفَنُ
وَاللَّهُ مَا سَاءَ فِيَّ أَنِّي جُفِيتُ ضَنَى بَلْ سَاءَ لِي أَنْ سِرِّي - بِالضَّنَى - عَلَنُ
لَوْ كَانَ أَمْرِي - فِي كَثْمِ الْهَوَى - بِيَدِي مَا كَانَ يَعْلَمُ - مَا فِي قَلْبِي - الْبَدَنُ

ذكرى معاهد قرطبة

عَلَى الثَّغْبِ الشَّهِيدِي مَنِي تَحِيَّةٌ زَكَّتْ، وَعَلَى وَادِي الْعَمِيقِ سَلَامٌ
وَلَا زَالَ نَوْرِي فِي الرُّصَافَةِ ضَاحِكٌ بِأَرْجَائِهَا يَبْشِكِي عَلَيْهِ غَمَامٌ

(١) - قريب من هذا قول البعري :

« أَعِذْ فِي نَظْرَةِ مُسْتَتِيبٍ تَوَخَّى الْأَجْرَ أَوْ كَرِهَ الْأَنَامَا »

مَعَاهِدُ لَهْوٍ لَمْ تَزَلْ فِي ظِلَالِهَا
زَمَانُ رِيَاضِ الْعَيْشِ خُضْرٌ نَوَاضِرٌ
فَإِنْ بَانَ مِنِّي عَهْدُهَا ، فَبَلَوْنِي
تَذَكَّرْتُ أَيَّامِي بِهَا ، فَتَبَادَرَتْ
وَصُحْبَةُ قَوْمٍ كَالْمَصَابِيحِ ، كُلُّهُمْ
إِذَا طَافَ بِالرَّاحِ الْمُدِيرُ عَلَيْهِمْ
وَأَحْوَرُ سَاجِي الطَّرْفِ حَشْوُ جُفُونِهِ
تَخَالُ قَضِيبَ الْبَاكِ - فِي طَيِّ بُرْدِهِ -
يُدِيرُ - عَلَى رَغَمِ الْعِدَا - مِنْ وَدَادِهِ
فِنْ أَجْلِهِ أَدْعُو لِقُرْطَبَةَ الْمُنَى
مَحَلَّ غَنِينَا بِالتَّصَابِي خِلَالَهُ
فَمَا لِحَقَّتْ تِلْكَ اللَّيَالِي مَلَامَةً ،

تُدَارُ عَلَيْنَا - الْمُجُونِ - مُدَامُ
تَرْفٍ ، وَأَمْوَاهُ الشَّرُورِ جَهَامُ
يَشُبُّ لَهَا - بَيْنَ الضَّلُوعِ - ضِرَامُ
دُمُوعٍ ، كَمَا خَانَ الْفَرِيدَ نِظَامُ
- إِذَا هَزَّ لِلْخَطْبِ الْمِلْمِ - حُسَامُ
أَطَافَ بِهِ بِيضُ الْوُجُوهِ ، كِرَامُ
سِقَامٍ بَرَى الْأَجْسَامَ مِنْهُ سِقَامُ
إِذَا أَهْتَزَّ مِنْهُ مَعْطِفٌ وَقَوَامُ
سَلَافًا ، كَأَنَّ الْمِسْكَ مِنْهُ خِتَامُ
بِسْقِيَا ضَعِيفِ الطَّلِّ وَهُوَ رِهَامُ ^(١)
فَأَسْعَدَنَا ، وَالْحَادِثَاتُ نِيَامُ
وَلَا ذُمَّ - مِنْ ذَلِكَ الْحَبِيبِ - ذِمَامُ

غدر الحبيب

أَجِدُ ، وَمَنْ أَهْوَاهُ - فِي الْحُبِّ - عَابِثُ
حَبِيبٌ نَأَى عَنِّي - مَعَ الْقُرْبِ وَالْأَسَى -
جَفَانِي بِالْإِطَافِ الْعِدَا ، وَأَزَالَهُ
تَغَيَّرْتُ عَنْ عَهْدِي ، وَمَا زِلْتُ وَائِقًا
وَمَا كُنْتُ - إِذْ مَلَكَتْكَ الْقَلْبَ - عَالِمًا
فَدَيْتُكَ ، إِنْ الشَّوْقُ لِي - مَذْهَجَ تَنِي -
وَأَوْفَى لَهُ بِالْعَهْدِ ، إِذْ هُوَ نَاكِثُ
مُقِيمٌ لَهُ - فِي مُضْمَرِ الْقَلْبِ - مَا كِثُ
- عَنِ الْوَصْلِ - رَأَى فِي الْقَطِيعَةِ حَادِثُ
بِعَهْدِكَ ، لَكِنْ غَيَّرْتَكَ الْحَوَادِثُ
بِأَنِّي - عَنْ حَقِّي - بِكَفِّي بِأَحِثُ
مُيِّتٌ فَهَلْ لِي - مِنْ وَصَالِكَ - بَاعِثُ ؟

سَتَّبَلَى الْيَاكِلِي - وَالْوِدَادُ بِحَالِهِ - جَدِيدٌ ، وَتَفَنَى وَهُوَ الْأَرْضِ وَارِثُ
وَلَوْ أَنَّنِي أَقْسَمْتُ : أَنَّكَ قَاتِلِي وَأَنْنِي مَقْتُولٌ ، لَمَا قِيلَ : « حَانِثٌ . »

اصنع ماشئت

يَا نَاسِيَا لِي - عَلَى عِرْفَانِهِ - تَلْفِي ذِكْرُكَ مِنِّي بِالْأَنْفَاسِ مَوْصُولُ
وَقَاطِعًا صِلَتِي - مِنْ غَيْرِ مَا سَبَبٍ - تَأَلَّهَ : إِنَّكَ - عَنْ رُوحِي - لَمَسْتُوْلُ
مَاشِئْتَ فَأَصْنَعُهُ ، كُلُّ مِنْكَ مُحْتَمَلُ ، وَالذَّنْبُ مُغْتَفَرٌ ، وَالْعُذْرُ مَقْبُولُ
لَوْ كُنْتُ حَظِّي ، لَمْ أَطْلُبْ بِهِ بَدَلًا ، أَوْ نِلْتُ مِنْكَ الرِّضَا ، لَمْ يَبْقَ مَأْمُولُ

أمنية

يَا قَاطِعًا حَبْلَ وُدِّي وَوَاصِلًا حَبْلَ صَدِّي
وَسَالِيَا ، لَيْسَ يَذَرِي بِطُولِ بَنِي وَوَجْدِي
لَوْ كَانَتْ عِنْدَكَ مِنِّي مِثْلُ الَّذِي مِنْكَ عِنْدِي
لَبِتَّ - بَعْدِي - مِثْلِي ، وَبِتَّ - مِثْلَكَ - بَعْدِي

نفسى فداؤك

لَوْ تَرَكْنَا بِأَنْ نَعُودَكَ عُدْنَا وَقَضَيْنَا الَّذِي عَلَيْنَا وَزِدْنَا
غَيْرَ أَنْ الْهَوَى اسْتَطَارَ حَدِيثًا ، فَأَنْتَحَتْنَا الْعُيُونُ لَمَّا حُسِدْنَا
فَلَوْ أَنَّ النُّفُوسَ تُقْبَلُ مِنَّا ، لَسَمَحْنَا بِهَا - فِدَاءً - وَجُدْنَا

دين الحب

يَا غَزَا لَا جُمِعَتْ فِيهِ - مِنَ الْحُسْنِ - فُتُونُ
أَنْتَ فِي الْقُرْبِ وَفِي الْبُعْدِ - مِنَ النَّفْسِ - مَكِينُ
بِهَوَاكَ - الدَّهْرَ - أَلْهَوُ ، وَبِحُبِّيكَ أَدِينُ

مُنِيَّة الصَّبِّ : أَغْنِي ، قَدْ دَنَتْ مِنِّي الْمُنُونُ
وَأَحْفَظِ الْعَهْدَ ، فَإِنِّي لَسْتُ - وَاللَّهِ - أَخُونُ
وَأَرْحَمَن صَبًا شَجِيًّا قَدْ أَذَابَتْهُ الشُّجُونُ
لَيْلُهُ هَمٌّ وَغَمٌّ ، وَسَقَامٌ ، وَأَنِينُ
شَفَةُ الْحُبِّ ، فَأَمْسِي - سَقَمًا - لَا يَسْتَقْبِلُنِي
صَارَ - لِلْأَشْوَاقِ - نَهْبًا ، فَتَبَّتْ عَنْهُ الْعُيُونُ

وفاء

يَبْنِي وَيَبْنِيكَ مَا لَوْ شِئْتَ لَمْ يَضِعْ سِرٌّ إِذَا ذَاعَتْ الْأَسْرَارُ - لَمْ يَذْجِ
يَا بَاتِمًا حَظَّهُ مِنِّي ، وَلَوْ بُذِلَتْ لِي الْحَيَاةُ - بِحَظِّي مِنْهُ - لَمْ أُبِيعْ
يَكْفِيكَ أَنْتَ - إِنْ حَمَلْتَ قَلْبِي مَا لَمْ تَسْتَطِعْهُ قُلُوبُ النَّاسِ - يَسْتَطِيعُ
تِهَ أَحْتَمِلُ ، وَاسْتَطِلْ أَصْبِرْ ، وَعِزَّ أَهْمُنْ ، وَلَوْ أَقْبِلْ ، وَقُلْ أَسْتَمِعْ ، وَمَنْ أَطِيعْ

في سبيل الهوى

قَدْ نَأَى بِي مِنْكَ مَا حَسَنِي بِهِ وَكَفَى يَا مَنْ تَنَاهَيْتُ - فِي الْطَافَةِ - فَجَعَا
عَلَّلْتَنِي بِالْمُنَى - حَتَّى إِذَا عَلِقَتْ بِالنَّفْسِ - لَمْ أُعْطَ مِنْ أَسْبَابِهَا طَرْفَا
غَيَّرْتَ عَنْ خُلُقِي - قَدْ لَانَ لِي زَمَنُكَ - لَيْنَ النَّسِيمِ ، فَلَمَّا لَدَّ لِي عَصْفَا
لَا يَحْبِطُنْ عَمَلٌ - أَرْضَاكَ صَالِحُهُ - فَنِي سَبِيلِكَ أَنْفَقْتُ الْهَوَى سَرَفَا

صلة المحب

سِرِّي وَجَهْرِي أَنَّنِي هَامٌّ ، قَامَ بِكَ الْعُذْرُ ، فَلَا لَأْتُمْ
لَا يَنْهَمِ الْوَأَشِي الَّذِي غَرَّنِي هَا أَنَا - فِي ظِلِّ الرِّضَى - نَأْتُمْ
عُدْتُ إِلَى الْوَصْلِ - كَمَا أَسْتَهِي - قَالَهُ جُرْ بَالِكُ ، وَالرِّضَى بَالِسِمُ

حَسْبِي - ، أَنَا الْمَظْلُومُ - فِيمَا جَرَى ،
يَا سَائِلًا عَمَّا بِنَفْسِي لَهُ
مَعْنَى الْهَوَى أَنْتَ وَشَخْصُ الْمُنَى ،
وَأِنْ تَشَأْ قُلْتَ : « أَنَا الظَّالِمُ »
- تَجَنَّبًا - وَهُوَ بِهِ عَالِمٌ
دَغْنِي مِمَّا يَزْعُمُ الزَّاعِمُ

مقيم على العهد

عَذِيرِي مِنْ خَلِيلٍ يَسْتَطِيلُ
وَيَرْضَى أَنْ تَضِيعَ سُدَى^(١) حُقُوقِي ،
أَشْمَسًا أَشْرَقَتْ مِنْ عَبْدٍ شَمْسٍ
أَمَّا يُمَحِّى عِتَابُكَ كُلَّ يَوْمٍ ؟
يَمِيلُ - مَعَ الزَّمَانِ - كَمَا يَمِيلُ
وَبَاعِي فِي الْهَوَى بَاعٌ طَوِيلُ
أَمَّا لَكَ - فِي سِوَى قَلْبِي - أَقُولُ ؟
أَمَّا يُرْجَى - إِلَى وَصِيلٍ - وَصُولُ ؟
وَلَوْ أَجِدُ السَّبِيلَ لَطَرْتُ وَجَدًا ،
وَأَمَّا لَكَ - عَنِ وَدَادِكَ - لَا يَزُولُ ،
وَعَهْدِي - مِثْلَ عَهْدِكَ - لَا يَحُولُ

آلام المحب

يَا مُعْطِشِي - مِنْ وَصَالٍ كُنْتُ وَارِدَهُ -
كَسَوْتَنِي - مِنْ ثِيَابِ السَّقَمِ أَسْبَغَهَا -
إِنِّي بَصُرْتُ الْهَوَى ، عَنْ مُقْلَةٍ كَجِلَّتْ
لَمَّا بَدَا الصَّدْعُ مُسْوَدًا بِأَحْمَرِهِ
أَوْفَى إِلَى الْخَدِّ ، ثُمَّ أَنْصَاعَ مُنْعَطِفًا
لَوْ شِئْتُ زُرْتُ وَسِلِكَ النَّجْمِ مُنْتَظِمٌ ،
صَبًّا - إِذَا التَّدَّتِ الْأَجْفَانُ طَعْمَ كَرَى
هَذَا وَإِنْ تَلِفَتْ نَفْسِي ، فَلَا عَجَبٌ ،
هَلْ مِنْكَ لِي غُلَّةٌ إِنْ صَحْتُ : « وَاعْطَشِي »
ظُلْمًا - وَصِيرَتْ مِنْ لُحْفِ الضَّنَى فُرْشِي
بِالسَّحْرِ مِنْكَ ، وَخَدَّيْ بِالْجَمَالِ وَشِي
أَرَى النَّسَائِمَ بَيْنَ الرُّومِ وَالْحَبَشِ
كَالْمَقْرُوبَانِ أَنْتَنِي مِنْ خَوْفٍ مُحْتَرِشِ
وَالْأَفَقُ يُحْتَالُ فِي ثَوْبٍ مِنَ الْغَبَشِ -
جَفَا الْمَنَامَ ، وَصَاحَ اللَّيْلُ : « يَا قُرْشِي »
قَدْ كَانَ مَوْتِي - مِنْ تِلْكَ الْجُفُونِ - خُشِي

(١) وفي الأصل : « كذا » .

إلى المعتمد

أَيُّهَا الظَّافِرُ لَا زِلْتُ مَدَى الدُّنْيَا مُظْفَرُ

(١) الأحاجي والأعار والمعميات

افتن كثير من النظامين والكتاب في طرق الألفاظ والتعمية ليمتحنوا بها الدكاء والقسورة على مك الطلاس والمعميات ، ويزجوا بها أوقات فراغهم الطويلة ، وهو عمل شاق مضمّن لا يقدم عليه إلا من فرغ باله من مشكلات الحياة وجدها . وأكثر أنواعه تافه لا خطر له ، وسنلم بطائفة كبيرة منها . وثمة أنواع من التعمية تقوم عند الملوك والأسراء إلى ذلك العهد مقام الشجرة ، وقطير الخاتم الزاجل وما إلى ذلك من وسائل المخابرة السرية ، ومن يدري ؟ فربما كان مادار بين (ابن زيدون) و (المعتمد) من هذا النوع لم يكن يقصد به قتل الوقت والتسلية أو امتحان الدكاء لحسب ، وإنما كان يقصد به فوق ذلك المران على بعض ضروب المخابرة السرية التي كانت تمس إليها حاجة الدولة ، ويستعملها أنصارها السياسيون للتعمية على غيرهم من خصومهم . وربما كان للتسلية وحدها وترجية أوقات الفراغ الطويلة أيضا .

والطريقة التي تبعها المعتمد وابن زيدون هي إحدى هذه الطرق العديدة ، ولم نثر عليها — فيما قرأناه من كتب الألفاظ على كثرتها — ولم نشر إليها المعاجم العربية ، ولسكننا استنتاجنا من الأشعار التي دارت بينهما ، ومن قول « المقرئ » صاحب « نفع الطيب » الذي عزز ما ذهبنا إليه . وخلاصة هذه الطريقة أن يطير أحد المتراسلين إلى الآخر بيتا شائعا في قصيدة أو بيتين ويرسل لكل حرف من حروفهما باسم طائر بعينه .

قال المقرئ :

« وكتب ابن زيدون إلى المعتمد :

« وأفاك نظم لي في طيه معنى معنى اللفظ مستور

سرامه يصعب ما لم يح بالسر - قرى وشحرور .»

قال : « ثم ذكر أبياتا ، فيها أسماء طيور ، عمى بها عن بيت طيره فيها ، والبيت المطير هو :

« أت - إن نر - ظافر - فليطع من بنافر . »

ففسكه « المعتمد » وجاربه :

« جاءني الطير التي سرما نظم به قلبي سرور » . اه .

ومتم بك هذه القصيدة في « ص ٢٩٩ » من هذا الديوان .

ويؤيد هذا الاستنتاج قول المعتمد :

« أرسل طيور الشعر نحوى فقد بث وؤادى شرك الفهم . »

وقول ابن زيدون للمعتمد :

« وأفاك للطير سرب لديه سر مكنم . »

ولا تكاد تخلو قصيدة — من هذا النوع — من ذكر الطيور كما يرى القارئ في القصائد التالية ، وسنثبت القصيدة التي نحن بصدها في المرح ونقبعها بمجدول نرد فيه على الترتيب أسماء الطيور التي ذكرها فيها ، وتقرن كل طائر بحرف هجائه ليتسنى للقارئ استخراج البيت المطير بنفسه ، وهامى الأبيات :

« فاسأل الشاهين ، والصقرين ، والعتقاء تحبير

أَنْتَ أَسْتَنِي ابْنَ لِأَسْمَى وَالِدِي فِي أَمْدَهْرِ فَاخْزَنَ
إِنْ تُرِدْ شَرْحَ مُعْمَى هُوَ فِي نَظْمِي مُضْمَرٌ

ثم زال النسر ، والفـ سياد ، والنسر المعمر
ثم بعد الديك عد للذـ سر ، والزال المنفر
ثم عد للنسر والرا ل ، فكل قد تكرر
والجباري ، والسماي والشقراق المحير
ثم سائل بعدها البا زى - إن حل فصرصر
معها الطاوس والديك ك إذا بالصبح بشر
تسلوه القمري مهما ردد السجع فقرفر
ثم نادى الهيق والرا ل ، لعل السر يظهر
ونعيف ما لدى القبـ جين من خاف سيظهر
ثم عد للنسر والرا ل، هما - في الأسر - أكثر
وازجر العمق حق الزجـ ر ، إن الطير يزجر
وليل الزال سماي وشقراق تأخر . «

فليس فيها إلا أسماء طيور بعينها ترمز إلى حروف بعينها ، ونحن نبينها للقارىء لتكون نموذجاً - لمن
يعنيه حل أمثال هذه المعميات ، والبيت المعنى الذى يستخرج من هذه الأبيات هو :
« صدق لنا قال السهم تظهر على السكامة . »

وأنت إذا تقيمت ما فيها من أسماء الطيور تجد أن كل طائر في مقابلة حرف من حروف هجاء البيت ونحن
نضع حروف البيت وأمام كل حرف طائره الذى يدل عليه فى الجدول الآتى لبتين للقارىء طريقة الحل ،
وهذا هو الجدول :

الحرف	الطائر	الحرف	الطائر	الحرف	الطائر
ص	شاهين	ا	نسر	ع	هـ بق
د	صقرين	ل	رأل	ل	رأل
ق	عنقاء	س	جباري	ى	قبيجين
ل	رأل	م	سماي	ا	نسر
ن	فياد	هـ	شقراق	ل	رأل
ا	نسر	ت	بازي	ك	عققق
ف	ديك	ظ	طارس	ل	رأل
ا	نسر	ف	ديك	م	سماي
ل	رأل	ر	قرى	هـ	شقراق

فَأَسْأَلُ - الشَّاهِينَ ، وَالصَّقْرَيْنِ ، وَالْعَنْقَاءَ - تُخْبِرُنِي ثُمَّ رَأَى الْقَفَرَ ، وَالْفَيَّادَ ، وَالنَّسْرَ الْمَعْمَرُ

والى القارىء معاني هذه السكيات :

الشاهين : ضرب من الصقور أكدر أبنت أى رمادى اللون .

العنقاء : طائر خرافى لا وجود له إلا فى شعر الشعراء .

رأى : ولد النعام ، وسير بك فى « ص ٢٨٤ »

الفياد : ذكر البوم .

نسر : النسر طائر عظيم من جوارح الطير سمي بذلك لأنه ينسر الشيء ويقتله ويقتنصه والكثير الريش

منه يسمى الغداف .

ديك - الديك : ذكر الدجاج .

رأى : ولد النعام .

جبارى - الجبارى : طائر فى حجم الديك الهذلى كثيرة الريش ، ومنها بيضاء وكدراء .

مباني : طائر معروف فوق العصفور ، ويجمع على مبانيات .

قالوا : وهو ينص فى البحر بأحد جناحيه ويقم الآخر كالقلاع للسفينة ، فتدفعه الريح إلى ساحل البحر .

وكثيراً ما يوجد ببلاد السواحل ، وله صوت حسن ومن شأنه أنه يسكت فى الشتاء ، فإذا أقبل الربيع صاح .

شقراق : طائر صغير بقدر الحمام أخضر مشع الخضرة ، حسن المنظر ، فى جناحيه سواد وعده الجاحظ نوعاً من الغربان . يألف الروابى ورووس الجبال . وله مشى ومصيف ، قال الجاحظ وهو كثير الاستغاثه ، إذا

سره به طائر ضربه بجناحيه وهاج كأنه هو المضروب .

بازى - البازى : من الصقور الأزرق الأحوى ، والأرقط القصير الجناحين الغليظ .

طاوس : طائر فى نحو قدر الاوزة ، حسن اللون ، والذكر منه غاية فى الحسن له فى رأسه ذؤابة قائمة

كالشربوش ، وفى ذنبه ريش أخضر طويل فى أحسن منظر ، وليس للأنثى مثل ذلك وفى طبعه الزهو

بنفسه والاعجاب بريشه ، وفى الحريف يلقى ريشه كما يلقى الشجر ورقه ، فإذا بدا طالع أوراق الأشجار

طلع ريشه .

قرى سير بك فى « ص ٣٠٤ »

هيق : ذكر النعام ، قال أبو العلاء على لسان جنى فى رسالة العفران :

« وأركب الهيق - فى الظلماء - معتسفاً أو لا ، فذهب ريادات مرورا . »

قبجين : مشى قبيح وهو السكروان وسير بك فى « ص ٣٠٤ »

عمق - العمق طائر كالنراب ضخيم طويل المنقار يحجل حجلاً ، وهو يدجن ولونه أبيض وبياض وسواد .

شقراق - الشقراق : طائر مرقط بخضرة وحمرة وبيض ويكون بأرض الحرم .

ثُمَّ - بَعْدَ الدَّيْكِ - عُنْدَ النَّسْرِ وَالرَّأْلِ الْمَنْقَرِ

أصل اشتقاق اللغز

وأصل اشتقاق اللغز - كما يروى النويرى - من الأمر اليربوع ولر ، إذا حفر لنفسه مستقيماً ثم أخذ يمتد ويسرة لبوارى بذلك ويعمى على طالبه .

وللغز أسماء ، فمنها : المعايمة ، والمعويس ، والرمز ، والحاجاة ، وأبيات المعاني ، والملاحن ، والمرموس ، والتأويل ، والسكاية ، والتبريس ، والاشارة ، والتوجيه ، والمعنى ، والمثل ، ومعنى الجميع واحد ، واختلافها بحسب اختلاف وجوه اعتباراته .

فالك إذا اعتبرته من حيث إن واضحه كأنه يعاينك - أى يظهر لإعياءك ودو التبع - سميته : «معايمة» وإذا اعتبرته - من حيث صعوبة فهمه واعتباس استخراجها - سميته : «عوياً» .

وإذا اعتبرته - من حيث إنه قد عمل على وجوه وأبواب - سميته : «لغزاً» . وفلك له : «إلغاراً» . وإذا اعتبرته - من حيث إن واضحه لم يفصح عنه - قلت : «رمز» . وقرب منه الاشارة .

وإذا اعتبرته - من حيث إن غيرك حاكك - أى استخراج مقدار عقبك - سميته : «محاجاة» . وإذا اعتبرته - من حيث إنه استخراج كثرة معانيه - سميته : «أبيات المعاني» .

وإذا اعتبرته - من حيث إن قائله قد يوهمك شيئاً ويريد غيره - سميته : «الحاج» . وسميت فلك : «الملاحن» . وإذا اعتبرته - من حيث إنه ستر عنك ورهس - فهو «المرموس» ، وارموس القبر .

وإذا اعتبرته - من حيث أن معناه يؤول إليك - سميته : «مؤولاً» . وسميت فلك : «تأويلاً» . وإذا اعتبرته - من حيث إن صاحبه لم يصرح بفرسه - سميته «فريصاً» ، و «كناية» .

وإذا اعتبرته - من حيث إنه ذو وجوه - سميته : «الموجه» . وسميت فلك : «التوجيه» . وإذا اعتبرته - من حيث إنه معطى عليك - سميته : «معطى» .

طرق التعمية

ومن ضروب التعمية - ما ذكره العلقشندى - وهو أن يصطاح الانسان على إبدال حرف معين بحرف اخر معين - حيث وقع في القلم المعروف بالعمى - وهو أن جعلوا مكان كل حرف من حروف العربية حرفاً آخر من حروفها ، فجعلوا الكاف مباءة وبالعكس ، والألف واوا وبالعكس ، والدال راء وبالعكس ، والسين صباء وبالعكس ، والفاء ياء وبالعكس .

فيكتب «محمد» «كطكر» ، و «على» «سهب» ، و «مسعود» «كسار» . وقس على ذلك .

وقد نظم بعضهم ذلك في بيت واحد ذكر فيه كل حرف تلو ما يبدل به ، وهو :

«كم أو حط صلالة در سب» في بز خش عض ش تدفق .

ومنهم من يكس حروف الكلمة، فيكتب «محمد» «دعم» ، و «على» «يلع» . ومنهم من يبدل الحرف الأول من الكلمة بثانيه مطلقاً في سائر الكلام ، فيكتب : «محمد أخو على» : حدم خاعوبل . إلى غير ذلك من التميزات .

ثُمَّ عُدْ - لِلنَّشْرِ وَالرَّأْيِ - لِكُلِّ قَدْ تَكَرَّرَ

ونهم من يبدل الحروف بأعدادها في الجمل فيكتب « محمد » « ٤٠ و ٨ و ٤٠ و ٤ » وتعمل التعمية صفة عاسية .

ومنهم من يكتب - عوض عدد الحروف - حروفا ، وهو أبلغ في التعمية ، فيكتب « محمد » « لى ، بو ، لى ، اج » لأن اللام والياء بأربعين ، وهى عدد مائة الميم الأولى ، والباء والواو بثمانية ، وهى عدد مائة الهاء ، واللام والياء أيضا بأربعين ، وهى عدد مائة الميم الثانية ، والألف والجيم بأربعة ، وهى عدد مائة الدال ، فكانه قال : « م ح م د . » وإن شاء أتى بهذه الحروف مما يتضمن غير هذه الأعداد .

ومنهم من يجعل لكل حرف اسم رجل أو غيره . ومنهم من يضع الحروف على منازل القمر الثمانية والعشرين ، على ترتيبها على حروف « أبجد » :
فيجعل الألف للشرطين ، والباء للبطين ، والجيم للثريا ، وهكذا إلى آخرها : فيكون بطن الحوت للغيث من « صغ » .

وربما اصطلح على الترتيب على أسماء البلدان أو الفواكه أو الأشجار ، أو غير ذلك ، أو صور الطير وغيره من الحيوانات ، إلى غير ذلك من ضروب التمامى التى لا يأخذها حصر .
وأكثر أهل هذا الفن على أن يرسم الحروف أشكالا يخترعها فلما له مقبلة على ترتيب حروف المعجم ، والطريق فى ذلك أن يثبت حروف المعجم ، ثم يرتب تحت كل واحد شكلا لا يماثل الآخر ، فكما جاءه فى المعنى ذلك الحرف بحيث لا يقع عليه غلط . ثم يفصل بين كل كلمتين ، إما بخط أو بنقط ، أو بياض ، أو دائرة ، أو غير ذلك .

وأكثر المتقدمين يحملون الحرف المشدد بحروفي ، وللتأخرون يحملونه حرفا واحدا .
وقد ذكر الفلقشندي - فى ذلك - فصلا طويلا فى الجزء التاسع من صبح الأعشى ، فليرجع إليه القارىء « من ص ٢٢٩ إلى ٢٤٩ » إذا شاء .

أمثلة من التعمية

ومن الأمثلة التى ذكرها النويرى قول الحكيم أمير الدولة - للمروى بابن التليذ - ملعرا فى الميزان :
« ما واحد مختلف الأسماء يبدل فى الأرض وفى السماء
يحكم بالقسط بلا رياء أعشى يرى الرشاد كل رافى
أخرس - لا من علة وداء - ينهى عن التصريح بالأيما ،
يجيب - إن ناداه ذوامتراء - بالرفع والحفض عن النداء
يفصح إن علق فى الهواء . »

وهو بقوله : « مختلف الأسماء » يعنى : « ميزان » الشمس ، والاصططالات ، وسائر آلات الرصد وهو معنى قوله : « يحكم فى السماء . » وميزان الكلام : « النحو » وميزان الشعر : « العروض » وميزان الماء : « المنطق » وهذه الميزان والدراع والمكيال .

وقول آخر فى الميزان :

« ما تقولون : فيما نزل من السماء ، وعلق فى الهواء ، له عين عمياء ، وكف شلاء ، ليس له - إذ عدل -

وَالْحَبَّارِى وَالسَّمَانِى وَالشَّقَرِاقِ الْمُحَبَّرِ

ثواب ، ولا عليه — إن جار — عقاب . خلق من ثلاثة أجناس ، تضعفصه الأنفاس . جسده طار من غير لباس ، أخرس اللسان ، فى أذنه خرصان ، مكرر الذكر فى القرآن ، ينطوى — إذا نام — كالصل ، وفعله المستقبل . مثل ، وله فى الآخرة أكبر محل . «

وقول ابن الرومى فى فتيلة السراج :

« ماحية فى رأسها درة تسبح فى بحر قليل المدى ؟
إن غيبت كان المعنى حاضراً وإن بدت للاح طريق الهدى ! »

وقول السرى الرفاء فى شبكة الصياد :

« وكثيرة الأحداق ، إلا أنها صمياء ، ما لم تنمى فى ماء
ولذا هى انقسمت أفادت ربها ما لا يتال بأعين البصراء . »

وقول آخر فى النوم :

« وحامل يحملى وما له شخص يرى !
إذا حصلت فوقه وهو لذيذ للمتطلى
سريت لا أدرى أفى أرض سريت ؟ أم منها ؟ »

وقول الممرى فى ركابى السرج :

« خليلان نيطا فى جوانب مجلس جسدداراه فسداه له ووراه
مى يصع الرجلين ماش عليهما يزل عنه — فى وشك — حفا وحفاء . »

قوله : « خليلان » لتشابههما ، والجلس : « السرج » ، وجداراه : « قروبوسه » و « رادفته »
والحفا متصور : « وجع الرجل » وممدود ، من مشى الرجل حافياً بغير نعل .
وقوله فى الملح :

« وبصاء — من سر للملاح — ملكنها فلما قضت لارى جوت بها صهي
فباتوا بها مستمتعين ، ولم تزل نخثهم — بعد الطعام — على الشرب . »
قوله : سرأى : « حاصة » والملاح : جمع ملح ، والارب : الحاجة . وقول آخر فى الحرب .
« ما ذات شوكة لها جناح يختطف الناس عن قريب
ومى عقيم ، ترى بنينا من بين مرد ، وبين شبيب
ياكل بعض البنين بعضاً طلوع شمس إلى غروب
تصغيفها الداء — غير شك — قد يحسم الداء بالطبيب
والدواء منكوسه مكان يصلح للطائر النجيب
برفها من يكون طبا بالشعر والنحو والريب . »

فهذا لفر مسمى فى الحرب ، وشوكها : « السلاح » ، وجناحها : « جابها » ، ونقيم لأنها لا تلد ،
وبنوها : « رجالها . » وأكلهم : « قتلهم . » ، وتصغيفها : « الجرب » وعكسه : « برج »
وقول آخر فى التدى :

« وما أخوان مشتهيان جدا كما اشتبه التراب والفراب »

ثُمَّ سَأَلْنَ بَعْدَهَا الْبَا زِيَّ إِنْ حَلَّ فَصَرَّصَرَّ

يضــــمهما على سر الليالي - وما اجتماع ، ولا افتراق - إهاب
لذاك وذا ، دموع هاملات ، ولكن كل دمعهما شراب
يصونهما عن الأبصار - دين - ويضرب - دون نيلهما - حجاب .
وهما ثديا المرأة ، ويضمهما إهاب ، وهو : « الجلد »
وقول آخر في الفخ :

« وما ميت كفتته ودفتته مقام إلى حي صحيح فأوثقه . »

وقول آخر في الصدى :

« وساكن يسكن في الغلاة ليس من الوحش ولا النبات
ولا من الجن ، ولا الحيات ، ولا الحيام الشمر والأبيات
ولا يذى جسم ولا حياة كلا ، ولا يدرك بالصفات
بلى ، له صوت من الأصوات يسمع في الأحيان والأوقات . »
وقد ذكر النويرى أمثلة كثيرة من هذه الأنواع وأشباهاها ، ثم قال :

مسائل العويص

ومما يتصل بهذا الباب مسائل العويص .

فمن ذلك قولهم :

« امرأتان التقتا برجلين ، قالتا لهما : « مرحبا بابنينا وزوجينا ، وابنى زوجينا . »

وذلك أن كل واحد منهما تزوج بأمر الآخر ، فهما ابناهما وزوجاهما وابنوا زوجيهما
وقولهم :

« رجلان كل واحد منهما عم الآخر وابن أخيه . »

وذلك أن كل واحد من أبويهما تزوج بأمر الآخر ، ففرزق كل واحد منهما ولدا ، فشكل من الولدين عم
الآخر وابن أخيه .

وقولهم :

« رجلان كل واحد منهما خال الآخر وابن أخته »

وذلك أن كل واحد من أبويهما تزوج بابنة الآخر ، ففرزق كل واحد منهما ولدا ، فشكل من ولديهما خال
الآخر وابن أخته .

وقولهم :

« رجل وامرأتان ، هو خال إحداهما وهي خالته ، وعم الأخرى وهي عمته . »

وذلك : أن جدته أم أبيه تزوجت بأخيه لأمه ، وأخته لأبيه تزوجت بأب أمه ، فولدتا بدين ، فبنت أخته
خالته ، وهو خالها ، وبنت جدته عمته وهو عمها .

وهذا أصل الأبيات المنظومة في ذلك :

« ولي خالة وأنا خالها ، ولي عمه وأنا عمها . »

مَعَهُ الطَّائِسُ وَالَّذِي إِذَا بِالصَّبْحِ بَشَّرَ

وقوله :

« رجلان كل واحد منهما ابن خال الآخر وابن عمته »
وذلك أن كل واحد من أبويهما تزوج بأخت الآخر ، فزوّج كل منهما ولدا ، فكل من ولديهما ابن خال الآخر وابن عمته .

وقوله :

« رجلان كل واحد منهما عم والد الآخر . »
وذلك أن كل واحد من أبويهما تزوج بأم أب الآخر ، فكل من أولادهما عم أب الآخر .

وقوله :

« رجلان كل واحد منهما عم أم الآخر . »
وذلك : أن كل واحد من أبويهما تزوج بابنة ابن الآخر ، فكل من أولادهما عم أم الآخر .

وقوله :

« رجلان ، كل واحد منهما خال أم الآخر . »
وذلك أن كل واحد من أبويهما تزوج بابنة بنت الآخر فكل من أولادهما خال أم الآخر .

وقوله :

« رجلان أحدهما عم الآخر ، والآخر حله » وذلك أن رجلاين تزوج أحدهما امرأة ، وتزوج الآخر ابنة ابنها ، فولد لكل منهما ولد فابن الأب عم ابن الابن ، وابن الابن من أم امرأة الأب هو أخوها وخال ابنها .

وقوله :

« رجلان ، أحدهما عم الآخر وخاله ، والآخر ابن أخيه وابن أخته »
وذلك : أن رجلا له أخ لأب ، وأخت لأم ، تزوج أخاه لأبيه ، فأولدها ولدا ، فهذا كذلك .
وقد طلب الهمداني من الخوارزمي — أثناء مناظرته المشهورة — أن يكتب كتابا خاليا من الحروف العواطل ، وآخر أوائل سطورها كلها ميم وآخرها كلها هم الخ » فسمى الخوارزمي ذلك شعبية . وصدق في تسميته كل الصدق .

وما أحدر هذا الوصف بأمثال هذه الألعاب الكلامية .

ألفاز الحريري

ومن ألباز الحريري الذي اقتبى أثر الخوارزمي في مقاماته قوله في المقامة الفرضية — وهي مقامته الخامسة عشرة :

« أيها العالم العتيق الذي قاذم ذكاه ، فماله من شبيه
أدنا في قضية ، حاد عنها كل قاض ، وحار كل ققيه :
رجل مات عن أخ مسلم حرّ نقي من أمه وأبيه
وله زوجة ، لها — أيها الجبر — أخ خالس بلامويه
فخوت فرضها ، وحاز أخوها مانتقي بالارث دون أخيه
فأشفنا بالحواب عما سألنا فهو ليس ، لا خلف يوجد فيه . »

ثم حل هذا اللز بقلوه :

« قل لمن يافز المسائل : إني كاشف سرّها الذي تخفيه
إن ذا الميت الذي قدم السر ع أخا صرّسه عن ابن أبيه »

تَلُوهُ الْقُمْرِيُّ مَهْمَا رَدَّدَ السَّجْعَ فَقَرَّرَ

رجل زوج ابنة — عن رساء — بحمالة له ، ولا فرو فيه
ثم مات ابنة ، وقد علق منسه ، لجاءت بابتن يسر ذويه
مهر ابن ابنة — ينير مرء — وأخو مرسه ، بلا تمويه
وابن الابن الصريح أدنى إلى الجسد ، وأولى بارته من أخيه
لذا — حين مات — أوجب لازو حة ، ثمن التراث تستوفيه
وحوى ابن ابنة — الذى هو فى الأصل أخوها — من أمها باقية
وتغلى الأخ الشقيق ، من الارث ، وقلنا : يكفك أن تبكيه
هاك مى الفتيا التى يعتذرها كل قاض يقضى ، وكل فقيه .
المقامة الشتوية

وقوله فى المقامة الشتوية .

« عدى أطجيب أرويا — بلا كذب — عن العيان — فكنونى : أبا العجب
رأيت يا قوم ، أقواما غداؤهم بول المجوز ، وما أعنى ابنة العنب . »
« بول المجوز » لبن البقرة ، والمجوز أيضاً من أسماء الحر .

« ومسنين من الأعراب قوتهم أن يشتروا خرقة نعى من السغب . »
« الخرقة » القطعة من الجراد .

« وفادرين — نى ما ساء صنعهم ، أوقصروا فيه — قالوا : الدنب للعطب . »
« القادر » الطامخ فى القدر والقدير المطبوع فيها .

« وككاتين وما خطت أناملهم حرفا ولا قرؤا ما خط فى الكتب . »
« الكاتبون » الحرازون يقال كتب السقاء والمزادة إذا حرزها وكتب البعلة أو الناقة إذا جم شفرها
وخطهما . قال الشاعر :

« لا تأمن فراريا حلوت به على قلوصلك واكتبها بأسيار . »

« وتابعين عقابا فى مسيرهم على تكليمهم فى البيض والياب . »
« العقاب » الراية وكانت راية النبي صلى الله عليه وسلم تسمى العقاب .

« ومتندين ذوى نسل بدت لهم نبيلة فانشوا منها إلى الحرب . »
« النبيلة » الجيفة ومه نبل البعير إذا مات وأروح يعنى تن .

« وعصبة لم تر البيت المتيق وقد حجت جتيا بلا شك على الركب . »
معنى « حجت جتيا » أى غلبت بالحنة مجادين جاتين على الركب وجنى جمع جات .

« ونسوة بعد ما أدجن من حلب صبحن كاظمة من غير ما تعب . »
« كاظمة » فى هذا الموضع من كظم الغيظ .

« ومدلين سروا من أرض كاظمة فأصبحوا حين لاح الصبح فى حلب . »
« فى حلب » أى أصبحوا يحملون اللبن .

« ويافماً لم يلامس قط فانيسة شاهده وله لسل من العقب . »

« الذل » مهنا العدو . قال تعالى — وهم من كل حذب ينسلون — « والعقب » مؤخر القدم .

ثُمَّ نَادِ الْهَيْقَ وَالرَّا لَ ، لَعَلَّ السَّرَّ يَظْهَرُ

- « وشائبا غير محف للشب بدا في البدو وهو فنى السن لم يشب . »
 « الشائب » ههنا مازج اللبن و « الشيب » اللبن المزوج ويقال فيه مشيب ومشوب .
 « وصرصمأ بلبات لم يفه فقه رأيته في شجار بين السب . »
 « الشجار » المحمة ما لم تكن مظلة ، فان ظلت فهو الهودج ، والسب ههنا الحل ، ومنه قوله تعالى
 — فليمدد بسبب إلى السماء —
 « وزارعا ذرة حتى إذا حصدت صارت غيراء يهواها أخوال الطرب . »
 « البيراء » المسكر المتخذ من الذرة يسمى أيضا الكركة ، وفي الحديث : إياهم والتبيراء فانبا خر العالم .
 « وراكأ وهو مفلول على مرس قد غل أيضا وماينفك من خيب . »
 « المفلول » ههنا العطشان ، وغل أى عطش .
 « ودأ يد طلق بقتاد راحلة — منمجلال وهو مأسور أحو كرب . »
 « المأسور » الذى يحد الأسر وهو احتباس البول .
 « وجالسا ماشيا تموى مطيشه به ، وما فى الذى أوردت من ريب . »
 « الحالس » الآلى تحداً والماشى الذى كثرت ماشيته ، وعليه صر بعضهم قوله تعالى — أن امشوا كأن
 دعاء لهم بكثرة المشاية والنماء والبركة .
 « وحائكا أحدم الكفين ذا خرس فان يحتم فكم فى الخلق من يحج . »
 « الحائك » ههنا الذى إذا مشى حرك منكبيه وفتح بين ركبيه .
 « ودأ شطاط — كصدر الرمح فامته — صادفته بجى يشكر من الحدب . »
 « الحدب » ما ارتفع من الأرض .
 « وساعيا فى ممرات الأنام يرى إمرأهم مأثم ، كالظلم والكذب . »
 « إمرأهم » يتقالم بالدين ، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام : « لا يترك فى الاسلام مفرح أى متقل من الدين
 أو يقضى منه دينه » .
 « ومنمرما ممحاة الرجال له وماله فى حديث الخلق من أرب . »
 « الخلق » ههنا الكذب ، ومنه قوله تعالى — إن هذا إلا خلق الأولين .
 « وذا دمام وقت دلمهد مته ولادمام له فى مذهب العرب . »
 « الدمام » الثانى جمع ذمة ، وهى البئر القليلة الماء وعنى بالمذهب المسلك أى ماله آبار قليلة الماء فى البدو .
 « وذا قوى ما استبان قط لبته وابنه مدين غير شجب . »
 « الابن » نخيل الدقل ، ومنه قوله تعالى — ما قتلتهم من لبنة —
 « وساجداً فوق لخل غير مكثرت بما أنى ، لى يراه أفد ل القرب . »
 « الفحل » الحصير المتخذ من لخل النخل .
 « وعازرا مؤلما من ظل يعذره — مع الناطف — بالمعذور وصحب . »
 « العاذر » الخاتى « والمعذور » المحتون .
 « وبلدة ما بها ماء لمترف ، والماء يجرى عليها جرى منسرب . »

وَتَعَيَّفُ مَا لَدَى الْقَبْرِ حِينَ مِنْ خَافِ سَيَظْهَرُ

- « البلدة » القرية بين الحادين ونسب أيضاً البلدة .
 « وقرية - دون الخوص القطا - شحت يدلم عيشهم من حلة السلب . »
 « القرية » بيت النمل « والدلم » النمل الكثير « وخلة السلب » حلة الشجر .
 « وكوكبا يتوارى عند رؤيته الانسان حتى يرى في أجمع الحب . »
 « الكوكب » الكنة البيضاء التي تحدث في العين « والاسان » ههنا إنسان الذين .
 « وروثة قوت مالاسه حطرت - ونفس صاحبها بالماء لم تطاب . »
 « الروثة » مقدم الأنث .
 « وصحفة من صار حائس ، شريت - عد المكاس - بغير اطم من الذهب . »
 « النصر » هاهنا شجر السبع ، ومنه قول بعض الناصيين : « لا بأس أن يشرب في قدح النصر » عني به هذا .
 « ومستحيشاً بحش - عاش ليدع ما أظله من أعاديه فلم يحب . »
 « الحشعاش » الجماعة عليهم دروع وأسلحة .
 « وما لما سر في كتاب وفي فقه نور ، ولكنه نور بلا ذب »
 « التور » القطعة من الانط (وهو نوع من الجبن)
 « وكم رأى ناظرى فيلا على حمل وقد تورك فوق الرجل والقلب . »
 « الفيل » الرجل الفاتل الراى .
 « وكم لميت - مرض اليد - مشتكياً وما شتكي قط في حد ولا ام . »
 « المشتكى » المخذ شكوة وهي القرية الصغيرة .
 « وكنت أجبرت كرازا راعية - لدو - ينذر من عيبين كاشهم . »
 « الكرازا » كبش يحمل عليه الراعي أذانه .
 « وكم رأت مقلق عيين - ماؤهما يحمرى من الرب والعينان في حلب . »
 « الغرب » مجرى الدمع « والعينان » الفلتان .
 « وصادعا بالفا من غير أن علفت كفاه يوما برمج لا ولم يثب . »
 « الفنا » ارتفاع الأنث وتحدب وسطه « وصدع به » أى كذفه .
 « وكم نزلت بأرض - لانخيل بها - وبعد يوم رأيت البسر في القلب . »
 « البسر » جمع بيرة وهو الماء الحديث المهد بالمطر « وانقلب » جمع قلب .
 « وكم رأيت - بأقطار الفلا - طبقا يطير في الجور منعبا إلى صيب . »
 « الطبق » القطعة من الجراد .
 « وكم مشاخ - في الدنيا - رأيتم محلدين ، ومن ينحو من العطب ؛ »
 « المحلد » الذى أبطأ شيبه .
 « وكم بدالى وحش - يشتكى سفا - بمنطق ذلق أمضى من القصب . »
 « الوحش » الرجل الجائع .
 « وكم دعانى مستنج لحادثى وما أخل - ولا أحت - بالأدب . »

ثُمَّ عُدَّ لِلنَّسْرِ وَالرَّاءِ لِحُمَا فِي الْأَمْرِ أَكْثَرُ

« المستنحي » الحائس على نخوة وهو المكان المرتفع .
 « وكم أنحت فلوصى - تحت جنبذة - تطلّ ماشئت من عجم ومن عرب . »
 « الحنبذة » القمة « والعرب » جمع عروب وهي التحببة إلى زوجها من قوله تعالى - عرباً أتراباً -
 « وكم طرث إلى من سرّ ساعته - ودمعه مستهلّ الفطر كالسحب . »
 « سرّ » أى قطع سرره ويصمى ما يقي بعد القطع السرّة .
 « وكم رأيت قيصاً ضرّاً صاحبه - حتى انتهى واهى الأعصاء والعصب . »
 « القميص » الدابة الكثيرة القموص وهو الوثوب والقفز .
 « وكم إزار لو أن الدهر ألقفه - لجفّ لبد حثيث السير مضطرب . »
 « الازار » المرأة ، ومنه قول الشاعر : * مدى لك من أنى ثقة إزارى *
 ثم يقول في ختام قصيدته :
 « هذا وكم من أغانيب موحدة - عندي ، ومن ملح تلهي ومن نخب
 فان قطعت لاجن الفول بان لكم - صدق ودلكم ظمى على رطبي
 بان شدهتم ، فان المار - فيه - على - من لا يميز بين النع والغرب . »
 المقامة النجراية

وقوله - في المقامة النجراية - في مروحة الخيش ، وهي ثياب خشنة من الكتان تستعمل في العراق تكون شبه شراع السفينة ، تملق في سقف البيت ، ويعمل لها حبل منها - تجر به - وتل بالماء ، وترش بماء الورد ، إذا أراد الرجل النوم ، حصد جلها ، فيهب منها نسيم بارد طيب يذهب أذى الحر ، ويستطاب معها النوم ، وقد ألز فيها الحريري بقوله :

« وجاريه في سيرها - مشمعه - ولكن - على إثر المسير - قفوها
 لها سائق - من حسنها - يستحياها - على أنه - في الاحتاث - رسيها
 ترى - في أوان القيط - تنطف بالندي ، ويدو - إذا زل المصيف - قفوها . »

وقوله لما زل في حابل النحل ، وهو الحبل الذي يصعد به النحل ، ويتخذ من اللحاء أى ليف النحل .

« ومنسب إلى أم - تنشأ أصله منها
 يعاقها ، وقد كانت - عنه - برهة - عنها
 به يتوصل الجاني ، ولا يلحى ، ولا ينهى . »

وقوله - ملء في القلم : -

« ومأموم ، به عرف الامام - كما باحت بصحبته الكرام
 له - إذ يرتوى - طيشان صاد ، ويسكن حين يعروه الأوام
 ويدرى - حين يستقي - دموا - يرقن ، كما يروق الابنسام . »

وقوله ملء في المروء الذي يكتمل به :

« وما ناكح أختين جهراً وخفية ، وليس عليه - في النكاح - سبيل ؟
 متى يشأ هذى يفتش - في الحال - هذه ، وإن مال به لم تجده - يعيل
 ريدها - عند المشيب - تمهدا - وبرأ ، وهذا - في البعول - قليل . »

وَأَزْجُرِ الْعَقَقَ - حَقُّ الزَّجْرِ - إِنَّ الطَّيْرَ تُزْجَرُ

وقوله - ملفزاً في الدولاب : -

« وجاف ، وهو موصول ووصول ليس بالجاف
غريق بارز ، فاعجب له ، من راسب طافي
يسبح دموع مضموم ويضم مضم متلاف
وتخشى منه حذته ولكن قلبه صافي . »

إلى آخر هذه الأهاز التي تراها في هذه المقامة .

المقامة الملطية

وانظر قوله - في مقامته الملطية :

« يامن - إدا - أشكل المعنى جلته - أفكاره الطليقة

إن قال يوماً لك المحاجي : « خذ تلك » مأملة حقيقة . »

وهو يعنى بذلك كلمة : « هاتيك » وها للتذية ويعنى خذ ، وتيك أى تلك .

وقوله : ماذا مثال قولهم : « حمار وحش زبنا . »

يعنى كلمة « فرازين » والفرا حمار الوحش .

وقوله : ما مثل قولك للذى حاكك : « أنفق تقمع »

يعنى كلمة « منتقم » من : الأمر من مان يعون ، تقم مصارع وقم ، من الوق . وهو الاذلال .

وقوله : مامثل قولك للذى أضفى يحاحي : « فطط ملكي »

ومثله : « صنبور » صن الأمر من الصون ، والبور : الهلكي .

وقوله : ماذا يمثّل قولي : « استنش ربح مدامه »

ومثله : « رحراح » رح استنشق الرائحة ، والراح : الحر .

وقوله : « سار بالليل مدة » أى شئ . مثله ؟

ومثله : « سراحين » سرى سار ليلاً ، وحين : مدة .

وقوله : لك البيان ، فين ، مائل : « أحب فروقة »

ومثله : « مقلع » من : الأمر من وسق : أى أحب ، واللاع : الجبان .

وقوله : مامثل قولك « أعط أب - ريقا يلوح بنير عروة »

ومثله : « أسكوب » أس : الأمر من الأوس ، وهو الاعطاء ، والـكوب : الابريق بغير عروة .

وقوله : ما مثل قولك للمعا جى ذى الذكاء : « الثور ملكي »

ومثله « اللآلى » واللآلى : نور الوحش .

وقوله : ماذا مثال : « صغير جعلة » بينه قديماً يتم به .

ومثله « مكاشفة » والمكاشفة : الصغير .

وقوله « ماذا يمثّل قولي : جوع أمد بزاد ؟ »

يعنى « طوامير » ، طوى : جوع ومير : من ما ربه الطعام ، وهو مثل قوله : أمد بزاد .

وقوله : ما مثل قول المحاجي : « ظهر أصابته عين ؟ »

يعنى : « مطاهين » جمع مطعون ، ومطا مثل ظهر ، وعين - من طاه أى أصابه بالعين .

وَلَيْلِ الرَّالِ مُمَانِي وَشِقِرَاقٍ تَأْخِرُ

- وقوله : ما مثل قولك للذي حاجيت : صادف جائره ؟
ومثله « الفاصلة » وهي الخاتمة بين الشيتين مد الواصلة وكله ألى مثل صادف وتكتب بالياء إذا انفردت ، وصلة : جائرة أو عطية .
وقوله : ألا اكتش لي مامثل : « تامل ألف دينار »
ومثله : « هادنة » تأييد الهادي ، والحق أيدا ، ومعنى ما : حذ وتناول ، وديه هي ما يعطى لأهل القتل ، وهي من الذهب ألف دينار .
وتوله : مامثل : « أمهل حلية » بين هريب — رجل .
ومثله : « الماشقة » وهي اسم لمن يشي الرجل من الأضياف ، غاشية السرج ما يعطى به ومعنى التي أعدل وشية : حلية .
وتوله : مامثل تولت — للذي أضحي بحاجيك : « اكفف اكفف . »
ومثله : « مهمه » وهو الصغراء ، ومعنى مه : اكفف وتكررها للأكيد .
وتوله : رات دا بيان — مامثل تولى : « الشقيق أفلت »
ومثله : « أخطار » — جمع خطر ، وهو ما يؤدي إلى الهلاك ، وإذا فسكته كان : « أخ » من معانيه الشقيق ، وطار . أمز .
وتوله : مامثل قولك للمعا — هي دي الحمى : « ما اختار فقه »
ومثله « أنزله » — جمع إبريق ، وإذا فسدت كالب أي ما اختار ، ورقة : اسم من أسماء الفضة .
وتوله : أوصح إذا ما مثل قير — لك المعاشي : « دس جماعه »
ومثله : « حادية » وهي ما يطفو على الماء ، وطأ : أسر من ودلي ، والعنة : الحانة .
وتوله أرت الين ، نقل لنا — ما مثل قولي : « حلى اسكت . »
ومثله : « حاصة » أي خل صه ، ومماها خل اسكت .
وقوله في منامه الدية في حوار طويل بين فتبين .
— ما تقول ميس توصاً ثم لمس طهر نمله ؟
— انقص — صوء — بعله .
— ميس من لمس زوجته .
— فان توصاً ثم أنكاه ابعد ؟
— تحدد الوصوء من صد ؟
— ميس بالبرد : اليوم
— أيمسح المتوصى أنفيه ؟
— قد تدب إليه ، ولم يوحى عليه .
— ميس : الأدنين .
— أيجوز الوصوء مما يقده اثمان
— وهل أنظف منه للمريان

لَكَ ذِهْنٌ - بِالَّذِي فِي الشَّعْرِ مِنْ خَبءٍ - سَيَشْعُرُ

يعنى : جمع ثعب ، وهو مسيل الوادى .

— أليست باح ماء الضرر ؟

— نعم ، ويحجب ماء البصير .

يعنى بالضرير : حرف الوادى ، وبالبصير : الكلب

— أيجل التطوف فى الربيع ؟

— يكره ذاك لاجدث الشديع

يعنى بالتطوف : التطوط ، وبالربيع : النهر الصغير

— أيجب العسل على من أمى ؟

— لا ، ولو نى .

يعنى : من نزل « مى »

— فهل يجب على الحب غسل فروته ؟

— أحل ، وغسل ابرته .

يعنى بالعمرة : ملدة الرأس ، وبالبرة : عظم المرق .

وهكذا إلى أن اسوى مائة مسألة من هذا النوع .

المقامة النحوية

وقوله فى المقامة الزامة والمشرين :

فما كمة هى — إن شئتم — حرف شوب ، أو اسم لما فيه حرف حلوب ، وأى اسم يتردد بين مرد حازم وجمع ملازم ، وأية هاء — إذا التقت أماطت اشل ، وأطقت المعقل ، وأين تدخل السين فتعمل العامل من غير أن تحامل ، وما منصوب أبداً على الظرف ، لا يحفصه سوى حرف ، وأى مضاف أهل من عرى الاضادة بعروة ، واختلف حكمه بين مساء وغدوة ، وما العامل الذى يتصل آخره بأوله ، ويعمل مكموسه مثل عمله ، وأى عامل نائه أرحب منه وكراً ، وأظلم مكرراً ، وأكثر لله — تعالى — ذكراً ؟ وفى أى موطن تلبس الدكران ، براعم السوان ؟ وتهر ربات الحمال ، معائم الرجل ؟ وأين يحب حفظ المراتب ، على المضروب والضارب ؟ وما اسم لا يعرف إلا باستضافة كلمتين ، أو لاتصاف منه على حدين ، وفى وضعه التزام ، وفى الثانى إلام ؟ وما وصف — إذا أردت باليون — نفس صاحبه فى العيون ، وقوم بالدون ، وخرج من الزبون وتعرض للهون .

وقد سره بقوله :

« أما الكمة التى هى حرف شوب ، أو اسم لما فيه حرف حلوب » هى نعم . إن .

(وأما الكمة التى هى حرف شوب أو اسم لما فيه حرف حلوب) فهى نعم إن أردت بها تصديق الأخبار أو العدة عند السؤال فهى حرف وإن عنت بها الابل فهى اسم والتعم تذكر ونؤن ، وتطلق على الابل وعلى كل ماشية فيها إبل ، وفى الابل الحرف وهى الناة الصامرة سميت حرفاً تشبيهاً لها بحرف السيف ، وقيل أنها الصامة تشبيهاً لها بحرف الحبل (وأما الاسم المتردد بين مرد حازم وجمع ملازم) فهو سراويل . قال بعضهم هو واحد وجمعه سراويلات ، على هذا القول هو مردد وكفى عن ضمه الحصر بأنه حازم ، وقال آخرون بل هو جمع واحده سراويل مثل شمال وشماليل ، وسرايل وسرايل ، فهو على

فَتَامِلْ مَا أَنْتَبَرِي فِكْرِي لَهُ ، ثُمَّ تَدَبَّرْ

هذا القول جمع ، ومعنى قوله ملازم أى لا ينصرف وإنما لم ينصرف هذا النوع من الجمع وهو كل جمع تاليف ألف وبسدها حرف مشدد أو حرفان أو ثلاثة أوسطها ساكن لثقله وتفرد دون غيره من الجوع بأن لا نظير له فى الأسماء الآحاد ، وقد كنى فى هذه الأحجية عما لا ينصرف بالملازم كما كنى فى التى قبلها عما ينصرف بالملازم (وأما الهاء التى إذا التحقت أضافت الثقل وأطلقت المعتقل) فهى الهاء اللاحقة بالجمع المقدم ذكره كقولك صياغة وصياغة فينصرف هذا الجمع عند الحاق الهاء به لأنها قد أصارته إلى أمثال الآحاد نحو رفاهية وكراهية لحذف بهذا السبب وصرف هذه الة ، وقد كنى هذه الأحجية عما لا ينصرف بالمعتقل كما كنى فى التى قبلها عما لا ينصرف بالملازم (وأما السبب الذى تعزل العامل من غير أن تجامل) فهى التى تدخل على الفعل المستقبل وتفصل بينه وبين أن التى كانت قبل دخولها من أدوات الصب فيرتفع حينئذ الفعل وتنتقل أن عن كونها الناصبة للفعل إلى أن تصير الخففة من الثقل ، وذلك كقوله تعالى - علم أن سيكون منكم مرضى وتقديره علم أنه سيكون (وأما المنصوب على الظرف الذى لا يجمعه سوى حرف) فهو عند إذ لا يجزئه غير من خاصة وقول العامة ذهبت إلى عنده لحن (وأما المضاف الذى أدخل من صرى الانضافة بمرور واختلاف حكمه بين مساء وغدوة) فهو لدن ولدن من الأسماء الملازمة للانضافة وكل ما يأتى بعدها بمرور بها إلا غدوة ، فإن العرب صبتها بلدن لكثرة استعمالهم لها فى الكلام ، ثم نوتها أيضا لينبى بذلك أنها منصوبة لأنها من نوع المجزورات التى لا تنصرف ، وعند بعض النحويين أن لدن معنى عند والصحيح أن بينهما فرقا لطيفا وهو أن عند يشتمل معناها على مامو فى ملكك وممكنك مما دنا منك وبعد عنك ولدن يختص معناها بما حضرك وقرب منك (وأما العامل الذى يتصل آخره بأوله ويعمل معكوسه مثل عمله) فهو يا ومعكوسها أى وكلتاها من حروف النداء وعملها ما فى الاسم المادى بيان وإن كانت يا أجول فى الكلام وأكثر فى الاستعمال وقد احتار بعضهم أن ينادى بأى الغرب فقط كالمهزة (وأما العامل الذى نأثبه أرحب منه وكرا ، وأعظم مكرأ ، وأكثر لله تعالى ذكرا) فهو ماء القسم وهذه الباء هى أصل حروف القسم بدلالة استعمالها مع ظهور فعل القسم فى قولك : أقسم بالله ، ولدخلها أيضا على المضمر كقولك بك لأفلن ، وإنما أبدلت الواو منها فى القسم لأنها من حروف الشف ، ثم لتقارب معانيها لأن الواو تفيد الجمع والباء تفيد الالتصاق ، وكلاهما متفق والمعتبان متقاربان ، ثم صارت الواو المسدلة من الباء أدور فى الكلام وأعلى بالأقسام ، ولهذا ألزمت بأنها أكثر لله تعالى ذكرا . ثم إن الواو أكثر موطأ من الباء لأن الباء لا تدخل إلا على الاسم ولا تعمل غير الجر والوار تدخل على الاسم والفعل والحرف وتجر تارة بالقسم وتارة باضمار رب وتنظم أيضا مع نواصب الفعل وأدوات العطف ، ولهذا وصفها برحب الوكر وعظم المكر (وأما الموطن الذى يلبس به الذكر أن براغ النسوان وتبرز فيه وبات الحجال نعمائم الرجال) فهو مراتب العدد المضاف ، وذلك ما بين الثلاثة إلى العشرة فإنه يكون مع المذكر بالهاء ومع المؤنث بحذفتها كقوله تعالى - سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام - والهاء فى غير هذا الموطن من خصائص المؤنث كقولك قائم وقائمة ، وطالم وطالمة ، وقد رأيت كيف انعكس فى هذا الموطن حكم المذكر والمؤنث حتى انقلب كل منهما فى ضد قاله وبرز فى بزة صاحبه (وأما الموضع الذى يجب فيه حفظ المراتب على المصروب والضارب) فهو حيث يشبه الفاعل بالفعل لظهور علامة الاعراب فيهما أو فى إحداها ، وذلك إذا كانا منصوبين مثل موسى وهابى أو من أسماء الإشارة نحو ذاك ، وهذا فيجب حينئذ لازالة اللبس لإقرار

وَأَعْتَقِدْ أَنِّي فِي «نَمِّ» كَمَنْ خَطَّ فَسَطْرَ

كل منهما في رتبته ليعرف الفاعل منهما بتقديمه والمفعول بتأخره (وأما الاسم الذي لا يفهم إلا باستضافة كلمتين أو بالاختصار منه على حرفين) فهو مهمما وفيها قولان أحدهما أنها مركبة من مه التي هي بمعنى أكفف ومن ما ، والقول الثاني وهو الصحيح أن الأصل فيها ما فزيدت عليها ما أخرى كما ترداد ما على أن ، فصار لفظهما ما ما ، فتقل عليهم توالي كلمتين بلفظ واحد فأبدلوا من ألف ما الأولى هاء فصارتا مهما ، ومهما من أدوات الشرط والجزاء ومقي لعظمتي بها لم يتم الكلام ولا عقل المعنى إلا بإيراد كلمتين بعدهما كقولك مهما تفعل أفعال وتكون حينئذ ملتزما للفعل ، وإن اقتصرتم منها على حرفين وهما مه التي بمعنى أكفف فهم المعنى وكنت ملتزما من خاطبته أن يكف (وأما الوصف الذي أردف بالنون نفس صاحبه في العيون وغوم بالدون وخرج من الزبون وتعرض للهون) فهو ضيف إذا لحقته النون استحالة إلى ضمين وهو الذي يتبع الصيف وينزل في النقد منزلة الزيف .

ومن ألا عيب الحريري قوله في مقامة أخرى - مما يقرأ طردا وعكسا في مقامته المغربية :

« لم أحامل ، كبر رجاء أجر ربك ، من يرب إذا بر ينم ، سكت كل من نم لك تكس » وقوله :

« أس أرملأ إذا عرا وارغ إذا المرء أما
أسسند أها نباهة أبين أخاء دنسا
أسل حناب عاشم مشاغب إن جلسا
أسر إذا هب مرا وارم به ، إذا رسا
اسكن تقو ، فمسي يسف وقت نكسا . »

المقامة القهقرية

وقوله في مقامته القهقرية :

« أتعرفون رسالة أرضها سهاؤها ، وصبحها مساؤها ، نسجت على منوالين ، وتحلت في لونين ، ووصلت إلى جهتين ، وبدت ذات وجهين .

إن بزغت من مشرقها ، فهايك برونقها ، وإن طلعت من مغربها ، فيا لمعجها »

وهذه الرسالة التي تقرأ من أولها كما تقرأ من آخرها هي :

« الإنسان صنعة الأحسان ، ورب الجبل فعل الندب ، وشيبة الحر ذخيرة الحد ، وكسب الشكر استثمار السعادة ، وعنوان الكرم تبشير البشر ، واستعمال الإدارة يوجب المصافاة ، وعقد المحبة يقتضى النصح وصدق الحديث حلية اللسان ، ومصاحبة المنطق سحر الأبواب ، وشرك الهوى آفة النفوس ، وملل الحلائق شين الحلائق ، وسوء الطمع يابن الورع ، والتزام الحزامة زمام السلامة ، وتطلب المثالب شر المعائب ، وتنبع المثرات يدحض المودات ، وخلوص النية خلاصة العطية ، وتهبئة النوال ثمن السؤال ، وتكلف الكلف يسهل الخلف ، وتيقن المعونة يسهل المؤونة ، وفضل الصدر ، سعة الصدر ، وزينة الرعاة مقت السعاة ، وجزاء المدائح يث المناخ ، زهر الوسائل ، تشفيق المسائل ، ومجلبة الفوايا استغراق العاية ، وتجاوز الحد ، يكل الحد ، وتمدى الأدب ، يحبط القرب ، وتناسى الحقوق ، ينشئ المقوق ، وتحاشى الريب ، يرفع الرتب ، وارتفاع الأخطار ، لاقتحام الأخطار ، وتنوء الأقدار بمواتاة الأقدار ، وشرف الأعمال ، في تقصير الآمال ، وإطالة الفكرة ، تنفيج الحكمة ، ورأس الرياسة ، تهذيب السياسة ، ومع اللجاجة ، تلتفى الحاجة ، وبعد الأوجال تنفاضل الرجال ، ويتفاضل المهم تنفاوت القيم ، وبتزيد المسفير ، بين التديير ، وبجمل الأحوال تنبين الأهوال ، وبموجب الصبر ثمرة النصر ، واستحقاقه الاحقاد بحسب الاجتهاد ، ووجوب الملاحظة ، كفاء الملاحظة ،

وَتَيَقِّنَنَّ أَنَّ مَا يَنْفَكُ أَبْرَسَوْفَ يَقْدَرُ

وصفاء الموالى ، بتمهد الموالى ، وتحلى المروءات بحفظ الأمانات ، واختبار الاخوان بتصفيف الأحزان ، ووقع الأعداء بكف الأوداء ، وامتنحان العتلاء بفقارة الجهلاء ، وتبصر العواقب يؤذن المعاطب ، واتقاء الشنعة ينشر السمعة ، وفتح السمعة ، وفتح الجفاء ينافى الوفاء ، وجوهر الأحرار عند الأسرار .

وقوله من خطبة لا يقط فيها ولا يغام - في مقامته السمرقندية : -

« الحمد لله المدوح الأسماء ، الخمود الآلاء ، الواسع العطاء المدعو لحسم اللاؤاء ، مالك الأمم ، ومصور الرمم ، وأهل السباح والكرم ، ومهلك عاد وإرم ، أدرك كل سر علمه ، ووسع كل مصر حلمه ، وعم كل عالم طوله ، وهد كل مازد حوله ، أحده حمد موحد مسلم ، وأدوه دهاء مؤمل مسلم ، وهو الله لا إله إلا هو الواحد الأحد ، العادل العدل ، لا ولد له ولا والد ، ولا رد معه ولا مساعد ، أرسل محمداً للسلام بهذا الخ »

وفي مقامته المراثية - رسالة ، « حروف إحدى كتبها يعبرها البقط وحروف الأخرى - كما يقول - لم يعبر من قط » وهي :

« الكرم - ثبت الله حبش سمودك - يزين ، والاثوم - غنى الله جفن حسودك - يشين . والأدوع يثيب ، والمعمور يحيب ، والخلال يصيب ، والمأجل يخيف ، والسامع يندى ، والملك يقدي ، والعطاء ينجي ، والمطال يشجي ، والدعاء تقي ، والمدح يقي ، والحر بحري ، والاطاط يخري ، وأطراح ذى الحرمة غنى ، وبحرمة بنى الآمال غنى ، وما ضل إلا صين ، ولا نين إلا ضنين ، ولا خرن إلا شق ، ولا قبض راحه اتقى ، وما مئى وعدك بنى ، وآراؤك نشى ، وهلاك بنى ، وحلك ينفى ، وآلاؤك نهي ، وأندائك تنى ، وحسامك بنى الخ . »

وله رسالة سينية كتبها - على لسان بعض الأمراء - إلى بعض أصدقائه كتاباً :

باسم السميع القدوس المستمع ، وباسماده أستعج ، سيرة سيدنا الأسفهملآر ، السيد الفيس ، سيد الرؤساء ، سيف السلاطين ، حرست نفسه ، واستنارت شمسه ، وانفق أسفه ، وبقى غرسه . إلى أن يقول :

« وسيف السلاطين مسأثر بأس السماء وحسو الكؤوس
سلافي ، وليس لبأس السلاطين يناسب حسن سمات الفيس
وسن تناني حلاسه وأسوا السجايا تناني الحليس
وسر حسودى نظم الرسوم ، ونظم الرسوم كرمس النفوس
وساقى الحسام بكأس السلاف ، وأسهمى بموس وموس . »

إلى آخر القصيدة .

ورسالة شبيهة ، وهي التي كتبها لأحد أصدقائه يمدحه فيها ، وفيها يقول :

« بارشاد المثنى أنثى ، شمع بالشبح شمس الشعراء ، ريش معاشه ، ومشا ريشه ، وأشرق شهابه ، واعشوشبت شعابه ، بشاكل شمع المثنى بالنشوى ، والرائشى بلرشوى ، والشادن شرح الشباب ، والمعطشان إلى شيم الشراب ، وشكرى لتجشمة ومشفقة ، وشواهد شمه ، بشاكل شكر الناشد للمنشد ، والمستشهد للمرشد ، والمستشر المبشر ، والمستجيش للجيش الشمر ، وشعارى إنشاد شعره ، وإشجاء الكاشح والمكاشح بنشره »

ومكدا إلى أن قال :

« فأشعاره مشهورة ، ومشاعره وعشرته مشكورة ، وعشائره
شأى الشعراء المشعماين شعره مشانيه مشجوا الحشا ، ومشاعره
وشوه ترقيش المرتش رقصه ، فأشباعه يشكونه ، ومعافره »

إلى المعتمد على الله

« وكتب أيضا رحمه الله إليه أيده الله . »

يَأْتِيهَا الظَّافِرُ نِلْتَ الْمَنَى وَلَا يَنْلِنَا فِيكَ مَحْذُورُ
إِنَّ الْخِلَالَ الزُّهْرَ قَدْ ضَمَّهَا تَوْبُ عَلَيَّكَ الدَّهْرُ - مَزْرُورُ
لَا زَالَ الْمَجْدِ الَّذِي شِدَّتْهُ رُبْعٌ - بِتَغْمِيرِكَ - مَعْمُورُ
حَتَّى يُوفَى فِيكَ مَا يَبْتَغِي مُعْتَضِدٌ بِاللَّهِ مَنْصُورُ

وَأَفَاكَ نَظْمٌ - لِي فِي طَيِّهِ - مَعْنَى مُعَمَّى الْاَلْفَظِ مَسْثُورُ
مَرَامُهُ يَصْعَبُ ، مَا لَمْ يَبْخُ - بِالسَّرِّ - قُمْرِي^(١) وَعُصْفُورُ
وَبُلْبُلٌ ، ثُمَّ يَكْرُ اللِّذَا تَقَدَّمَا ، فَالْاَلْفَظُ مَكْرُورُ
ثُمَّ تَرَى الْبُلْبُلَ قَدْ حَمَّه نَسْرٌ ، بِهِ الشَّفَقَيْنِ^(٢) مَنَسُورُ
ثُمَّ الْغُرَابُ الْجَوْنُ ، يَتْلُوهُ قُمْرِيٌّ وَدَرَّاجٌ وَزَرَزُورُ

وشاق الشباب الشم والشم وشبه ، فثشوره بشرى المشوق ، وناشره

شمائله معشونه - كششوله - وشريه مستبشره ، ومعاشره . «

إلى آخر القصيدة .

(١) القمرى : طائر حسن الصوت - ويجمع على قمارى - ويقال للذكر منه : الورشان .

قال ابن سيده : « القمرى طير صغير » وعده - فى الحكم - من الام .

وقد زعموا أن القمارى - إذا ماتت ذكرورها - لم تتزوج لثائها .

والورشان - الذى هو ذكر القمرى - يوصف بالحنو على أولاده ، حتى أنه ربما قتل نفسه إذا رآها فى يد القانس ، وقد سرب بك فى « ص ١٠٧ » قول ابن زيدون :

« إن أتى البلبل اهنا ج غناء الورشان »

(٢) الشفقين - كما فى حياة الحيوان وابن البيطار - نوع من الحمام ، ولوا : « وهو الذى تسميه العامة

باليمام » وجمعه شفانين .

ثُمَّ يَلِي الدَّرَاجُ^(١) - مِنْ بَعْدُ غِرٌّ^(٢) نِيقٌ^(٣) - وَمُكَّاءٌ^(٤) وَشُرْشُورٌ^(٥)
وَبَاشِقٌ، ثُمَّ إِذَا حَلَقَ الشَّاهِينُ - وَالْمُصْفُورُ مَذْعُورٌ -
ثُمَّ سَلِ الْمُكَّاءَ يَصْدُقُكَ، وَالْمُصْفُورَ، وَالْقُمْرِيُّ مَزْجُورٌ
وَإِنْ جَرَى الدَّرَاجُ - فِي إِنْزَالِهِ - زَرْزُورٌ - فَلَمَطُورٌ مَذْشُورٌ
وَمُثْمٌ فَأَعْلَمَ أَنَّ مَوْضُوعَهَا حَرْفٌ، لِفَصْلِ اللَّفْظِ مَقْدُورٌ
وَفِي الَّذِي عَمَّسَتْ تُصْنَعُ، لِمَنْ جَدَّ - مِنَ الْأَعْدَاءِ - مَشْكُورٌ^(٥)

(١) الدراج - يضم الدال - طائر ظاهر جناحيه أغبر ، وباطنها أسود - في حجم الفطا إلا أنه ألطف .
والجاحظ بعده من جنس الحمام ، لأنه يجمع بيضه تحت جناحه كما يفعل الحمام .
قالوا : وهو كثير الناج يبشر ، بقدم الربيع ، وهو يصلح بهبوب الشمال وصفاء الهواء ، ويسوق حله
بهبوب الجنوب ، حتى لا يقدر على الطيران .

(٢) الفرنيق أو الفرنوق : طائر مائي ، وقيل هو الكركي أو طائر يشبهه .
قالوا :

وهو دون الحمام - في القدار - ولونه الحمرة مع كورة ، وفي صوته ترجيع ونحرن .
ومن شأنها أنها تحسن أصواتها - إذا اختلطت - ومن طبعه أنه إذا فقد أناه لم يزل - فيما يزعمون -
أعزب إلى أن يموت ، وكذلك الأبي إذا فقدت ذكرها .
قالوا :

وهو شديد الاحتراس ، وفيه أعة للبيوت .

(٣) المكاء : طائر . (٤) الشرشور : طائر يسمى : « البرفش » وجمعه شرشير .
(٥) والبيت المطير في هذه القصيدة هو :

« أنت - إن تمر - ظافر فليطع من ينافر . »

ولصع في الجدول التالي أمام كل حرف طائفة على الترتيب الذي ذكره في القصيدة هكذا : -

الحرف	الطائر	الحرف	الطائر	الحرف	الطائر	الحرف	الطائر
أ	قرى	غ	نسر	ف	دراج	ن	عصفور
ن	عصفور	ز	شفنين	ل	غرينق	ي	مكا
ت	بلبل	ط	غراب	ي	مكاء	ن	عصفور
ا	قرى	ا	قرى	ط	شرشور	ا	قرى
ن	عصفور	ف	دراج	ع	باشق	ف	دراج
ت	بلبل	ر	زرزور	م	شاهين	ر	زرزور

جواب^(١)

« جأوبه ذو الوزارتين رحمه الله . »

حَظِّي - مِنْ تُعْمَاكَ - مَوْفُورٌ وَذَنْبُ دَهْرِي بِكَ مَعْفُورٌ
وَجَانِبِي - إِنْ زَمَنِي رَامَهُ - حَجْرٌ^(٢) لَدَى ظِلِّكَ مَحْجُورٌ

يَا ابْنَ الَّذِي سَرَبُ الْهُدَى آمِنٌ مُنْذُ أَنْبَرَى يَحْمِيهِ مَوْفُورٌ

وليعلم القارئ أن الشاهين في قوله : « ثم إذا خلق الشاهين . » ساقط ليس له حرف هاء كعبده من طيور القصيدة ، وقد أشار إليه بقوله :

« و ثم فاعلم أن موضوعها حرف لفصل اللفظ مقدور . »

وقد فكك المعتمد ، وجأوبه بالقصيدة التالية :

« يا خير من يلحظه فاطرى ، شهادة ما شأبها زور
ومن إذا ما ليل خطب دجا لاح به - من رأيه - نور
رأبك - إما شته - صارم عصب على الأعداء معهور
جاءتني الطير التي سرّما نظم به قلبي مسرور
شعر هو السحر فلا تنكروا أنى به - ماعشت - مسحور
الافط والقرطاس - إن شها - قيل لها مسك وكافور
ولانه لما اعندى خاطرى مسائلأ جأوب عصفور
هوى لجيش الطير من فكرتى صقر فولى وهو مقهور
ولاح لى بيت فؤادى له دأبا على ودك مقصور
حتاك من شكرى يا سيدى بما بدا لى منك موفور
تصرت فى نظمى فاعذر فن صاماك فى التقصير معذور
فأنت إن تنظم وتثر نة أعوز مظلوم ومشرور
لا يمدكم روض من الحظ فى ال إكرام والتزيع محطور . »

(١) بحث ابن زيدون بهذه القصيدة للمعتمد ردا على قصيدته التي ذكرناها في هذه الصفحة .

(٢) الحجر السكف أو الحرام ، يقال : « هذا حجر عليك » أى حرام و « نشأت فى حجر ملان »

أى فى كنفه ومنعته وحفظه وستره .

أَجَبْتُ أَمْرِي بِاللَّيْلِ لَمْ يَزَلْ يُصْنَعِي إِلَيْهِ مِنْهُ مَأْمُورُ
الْبَيْسَ مِنْكَ الْمَلِكُ أَسْنَى الْحَلَى بِظَافِرٍ يَنْمِيهِ مَنْصُورُ

يَا مُرَوِّى الْمَأْثُورِ ، يَا بَنَ لَهْ تَجِدُ - مَعَ الْأَيَّامِ - مَأْثُورُ
عَبْدَكَ - إِنْ أَكْثَرَ مِنْ شُكْرِهِ - فَهُوَ بِمَا تُؤَلِّيه مَشْكُورُ
إِنْ تَعَفَّ عَنْ تَقْصِيرِهِ مُنْعِمًا فَالَسَّرُو^(١) أَنْ يُقْبَلَ مَيَسُورُ
إِنْ حَالَ السَّحْرِ - إِنْ صُنْعَتُهُ - فِي صُحُفِ الْأَنْفُسِ مَسْطُورُ
نَظْمٌ زَهَّابٌ مِنْهُ إِذْ جَاءَ نِي عِلْقَ عَظِيمِ الْقَدْرِ مَذْخُورُ
هُوَ إِلَيْهِ طَرَبًا خَاطِرِي كَمَا تَلَقَّى الْوَصْلَ مَهْجُورُ
لَا غَرَوْ أَنْ أُفْتِنَ إِذْ لَاحَظْتَ فِكْرِي مِنْهُ أَعْيُنُ حُورُ
تَشِفَّ عَنْ مَعْنَاهُ الْفَاطَةُ كَمَا وَشَى بِالرَّاحِ بَلُورُ
جَهَلْتُ - إِذْ غَارَ صُنْعُهُ - غَيْرَ أَنْ لَا بُدَّ أَنْ يَنْقُثَ مَصْدُورُ

يَا آلَ «عَبَادٍ» مَوَالَاتِكُمْ ، زَائِلٌ - مِنَ الْأَعْمَالِ - مَبْرُورُ
إِنَّ الَّذِي يَرْجُو مَوَادَاتِكُمْ - مِنَ الْمُنَاوِينَ - لَمَغْرُورُ
مَكَانَهُمْ مِنْكُمْ كَمَا أَلْحَظْتُ - مَنَزَلَةَ الْمَرْفُوعِ - مَجْرُورُ
يَذْنُو إِلَيْكُمْ مَا نَأَى عَنْكُمْ إِنَّ الْعُلَى مِنْ أَنْسِهِ نُورُ
لَا زَأْتُمْ تَشَاوَنَهُمْ مَا أُنْجَلَى - عَنْ فَلَقِ الْإِصْبَاحِ - دَيْجُورُ
وَلَا يَزَلْ يَجْرِي - بِإِبْرَائِكُمْ أَعْمَارُهُمْ - لِلَّهِ مَقْدُورُ

إلى المعتمد

« وكتب أيضا رجه الله إليه أيده الله . »

يَا مُرْضِيَا كُلَّ مَخْدَمٍ وَمُرْوِيَا كُلَّ لَهْذَمٍ
وَيَا سَمِيَّ الْمَصَلَّى عَلَى أَسْمِهِ وَالْمُسَلَّمِ
وَيَا ابْنَ أَعْظَمَ مَنْ هَا بِهِ الْمُلُوكُ وَأَكْرَمُ
وَأَفَاكُ - لِطَيْرٍ - سِرْبٍ لَدَيْهِ سِرٌّ مُسَكَّمِ
إِنْ تَسْأَلِ الطَّيْرَ عَنْهَا مُسْتَعْلِمًا مِنْهُ تَعْلَمُ
وَالْقَمَرُ وَالرَّهْوُ ^(١) يُذَيِّبُكَ وَالظَّلِيمُ ^(٢) الْمَصْلَمُ

(١) الرهو : السركي ، وهو - كما جاء في صبح الأعشى - طائر أعبر طويل الساقين في قدر الأوزة ، ويجمع على كراكي ، وفي طعمه خور يحمله على التحارس ، حتى لأنه إذا - احتنع حماية من الكراكي - يحرسها بالنوبة بيثها ، ومن شأن الذي يحرس منها ، أن يرفف بصوت حر ، كما أنه يندبر بأنه حارس . فإذا قضى نوبته قام واحد من كان نائما يحرس مكانه حتى يقضى كل منها نوبته من الحراسة ، ولا تطير متفرقة بل صفا واحدا يقدمها واحد منها - كثرئيس لها - وهي تنبهه ، يكون ذلك حيا ، ثم يخلقه آخر منها مقدما حتى يصير الذي كان مقدما مؤخرا ، وفي طبعها التناصر والعاصد ، ومن خاصتها أن أنها لا تقعد للسفاد بل يسعدا - وهي قائمة - ويكون سفاده مربعا كالصفرور .

وقال القزويني - في عجائب المخلوقات :

والسركي لا يمشي على الأرض إلا باحدى رجليه ، ويعلى الأخرى ، أو يسعدا وضعا خفيما محاذة أن تخسف به الأرض .

قال - في « المصايد والمطارد » :

وهو من أئمة الطير صرنا يسمع على أميال .

قالوا : وكانت السركاكي تأتي إلى مصر من بلاد الترك ، وفي طلبها وصيدها كانت تنال ملوك مصر تنالها لا يدرك حده ، وتنفق في ذلك الأموال الجمة .

(٢) الظليم - ذكر النعام - وقد جاء في صبح الأعشى - في مفروض الكلام عن النعام - قوله :

« هو طائر معروف ، مركب من صورتين جل وطائر ، ولذلك تسميه الترك « دواش » بمعنى « طير

جل » وتسميه الفرس « اشتر مرك » ومعناه « جل طائر » ويسمى ذكر النعام : الظليم . قالوا :

ومساكنها الرمل ، وتضع بيضها سطرأ مستطيلا ، بحيث لو مد عليها خيط لم تخرج واحدة منها عن

الأخرى ، ثم تغطي كل بيضة منها نصيبها من الحصن ، لأنها لا تستطيع ضم جميع البيض تحتها .

ثُمَّ الْهَدِيلُ ^(١) تَلِيهِ حَمَامَةٌ تَتَرْتَّمُ
إِلَى عُقَّائِينَ تَدْعُوهُمَا الظَّلِيمَ فَيَفْقَهُنَّ
ثُمَّ الْعُقَابُ ^(٢) مَعَ الصَّقْرِ، فَهُوَ بِالْشَّرْحِ أَنْعَمَ
وَالرَّألُ ^(٣) وَالرَّهْوُ وَالْقَبْجُ ^(٤) فَالثَّلَاثَةُ حَوْمٌ
ثُمَّ الْعُقَابُ فَسَلَهُ وَالصَّقْرُ لَا يَتَلَعَّمُ

ولإذا خرجت للطعم ، فوجدت بيض نعامة أخرى حضنته ونسيت بيضها فربما حضنت هذه بيض هذه .
ولذلك توصف - في الطير - بالحمى .

ويقال : إنها تقسم بيضها أثلاثا ، فنه ماتحضنه ، ومنه ماتحمله غذاء لها ، ومنه ماتفتحه وتحمله في الهواء حتى يتولد فيه الدود فتغدى به أمراخها إذا خرجت . قالوا :

« وليس للنعام حاسة سمع ، ولكنه قوى الشم ، يستغنى بشمه عن سماعه . حتى يقال : أنه يشم رائحة القاس من بعد . وفي أساطير العرب :

أن النعامة ذهبت تطلب قرنين فتقطعوا أذنيها .

ومن خصائصها أنها تبتلع العظم الصلب والمحر فتغذيه معدتها .

(١) الهديل ذكر الحمام ، قال أبو العلاء في داليته المشهورة :

« يا بنات الهديل : أسعدن أوعدن قبل البكاء بالاسعاد . »

(٢) العقاب : طائر من الجوارح تسميها العرب بالسكاس ، فيل العقاب سيد الطيور والنسر عريفها «

وتقول العرب : « أبصر من عقاب » قال ابن دريد في مقصورته الرائعة :

« فاستنزل الرياء - قسرا - وهي من عقاب لوح الجو أعلى منى . »

وقد جاء في صبح الأعشى : أن العقاب مؤنثة لا تذكر ، وتجمع على عقبان وأعتب .

وجاء في « المصايد والمطارد » قوله :

« وهي من أعظم الجوارح ، وليس بعد النسر في الطير - أعظم منها وأصل لونها السواد . »

فنها سوداء دحرجية ، وخدارية - وهي التي لا يبيض فيها - ومنها البقعاء - وهي التي يخالط سوادها

بياض - ، ومنها الشقراء وهي التي في رأسها نقط بياض - قال « أبو عبيدة » و « يونس » :

« ويقال لذكر العقاب « الفرن » ويقال إن ذكور العقبان من طير آخر لطاف الجرم لاتساوى شيئا ،

تلب بها الصبيان » والعقاب من أسرع الطير طيراما . (ارجع إلى صبح الأعشى - ٢ ص ٥٣)

(٣) الرأل : ولد النعام ، قال أبو العلاء :

« قد كنت قلت - في كلام لي قديم - إنني قد هجرت الشعر هجر الرأل تركته . »

(٤) الفيج : والسكروان ، معرب « كيج » بالعامرية وهو طائر في قدر الدحاجة طويل الرحلين

حسن الصوت لا ينم الليل .

إِلَى حُبَارَى ^(١) وَبَارِ وَحَالِكِ اللَّوْنِ أَغْصَمَ ^(٢)
ثُمَّ السَّمَامُ ^(٣) مَعَ الرَّاءِ لِي كَيَّ يَبُوحَ الْمُجَنِّجِ ^(٤)
إِلَى عُقَابٍ وَرَهْوٍ يُفْصِخُ بِمَا شِئْتَ أَسْنَمَ
وَمَا الظَّلِيمُ بِآلٍ قَلَوْ زَجَرْتَ كَتَرَجَمَ
ثُمَّ الْعُقَابُ سَيُوحِي لِلصَّقْرِ لَا تَتَكَلَّمُ
وَعَقَمْتُ وَهَدَيْتُ وَالْقَبِيحُ فِي ذَاكَ مُثْنَمُ
وَتُتَمُّ فَضْلُ كَمَا قَدْ عَمِدْتَ فِيمَا تَقْدَمُ
يَا مُلْبِسَ الدَّهْرِ وَشَيَا مِنْ الْجَمَالِ مُنْتَمِ
إِسْلَمَ سَنِي الْأَمَانِي مُوَزَّرَ النَّصْرِ مُطْعَمَ ^(٥)

- (١) الحبارى : طائر - يقع على الذكر والأنثى - قالوا : « ويصرب به المثل - في البلاهة والحق يقال :
« هو أبله من الحبارى » قبل ذلك لأنها إذا غيرت عشمها ذهلت وحضنت بيض غيرها .
(٢) الأعصم : الغلي . قال ابن دريد :
« لو ناجت الأعصم لانحط لها - طوع القياد في شوارع الذرى . »
وجمعه عصم ، قال الشاعر :
« واديتني حتى - إذا ما فتنتني بقول يحل العصم سهل الأباطح
تأويت عني حين - لالى حيلة - وعادرت ما عادت بين الجوانح . »
(٣) السمام : ضرب من الطير ، واحدته سمامة .
(٤) المجنجم : الذي لا يفهم ، قال امرئ :
« ججم هذا الزمان قولا وكلنا يرتجى بيانه . »
(٥) « بيت المطير - في هذا الشعر - هو :
« أهلك عدوك ، واسلم ، واظفر بيدوك - وانعم . »
وقد فكه المعتد .

بيت مطير

« وكتب اليه المعتمد أبده الله
يا سيدي يا معدن العلم
يا آله للحرب والسلام
وجه طيور الشعر نحوى فقد
بث فؤادي شرك الفهم
فبعث اليه بيت مطير وجاوبه رحمه الله . »

أَلْحَقَنِي بِرُكِّ النَّجْمِ	يَا ابْنَ الْبُدُورِ الزُّهْرِ مِنْ لَحْمِ
يَا لَابِسَ الْمَجْدِ الَّذِي زَانَهُ	يَا لِمِ لَمْ زَيْنَ الْبُرْدِ بِالرَّقَمِ
قَدْ لَثِمْتَ كَفِّي الدَّرَارِيَّ مَذْ	شَافَهْتُ تِلْكَ الْكَفَّ بِاللَّئِمِ
فُلَدَّ مِنْكَ الْمُلْكُ عَضْبَ الظُّبَا	يَمْضِي مَضَاءَ الْقَدَرِ الْحَسَمِ
فِرْنْدُهُ الرَّقْرَاقُ مِنْ بَشْرِهِ	وَحَدُّهُ مِنْ نَافِذِ الْعَزَمِ

* * *

قَدْ جَاءَنِي النِّظَامُ الَّذِي خَلِئُهُ	مُؤَلَّفَ الْأَوْثُلُوْ فِي النِّظَمِ
خَلِّئَنِي مِنْهُ بِفَخْرٍ يُرَى	فِي غُفْلٍ حَالِي رَاقٍ الْوَسْمِ
مُسْتَذْعِيَا طَيْرَ الْمُعْتَى لِكَيْ	يَصْرِيدَهَا فِي شَرْكِ الْفَهْمِ
فَمَا كَمَا تُهْدَى إِلَى خَاطِرِ	يَسْتَخْرِجُ الْإِفْصَاحَ مِنْ عَجْمِ ^(١)

(١) البيت للمطير في هذه القصيدة هو :

« أنت - إن تفر ظافر - يطبع من ينافر . »

والبيت المطير

إِظْفَرُ كَمَا أَنْتَ ظَافِرٌ بِكُلِّ غَاوٍ مُنَافِرٍ

وطير له أيدى الله يبتين وهما

«شعر من محض وده»

لك فى علم طيره

فهى مهمما زجرتها

لم تخبر بغيره . «

ففكهما وجاوبه رحمه الله

أَيُّهَا الْمَاجِدُ الَّذِي خَيْرُهُ وَفَقُّ خَيْرِهِ

وَالَّذِي سَيْرٌ مُشْتَرَى أَفْقًا دُونَ سَيْرِهِ

مَلِكٌ صَحَّحَ - مِنْ أَدِيمِ الْهُدَى - قَدْ سَيْرِهِ

فَهُوَ - الدَّهْرَ - نَقْمُهُ حَاضِرٌ ، دُونَ ضَيْرِهِ

* * *

يَا لِلَّيْلِ سَمِئْتُ مِنْ سَهَرِي فِي قَيْرِهِ ؟

عَزَّ - فِي وَهْنِهِ - مَرَا مُمْ عَتَا فِي سُحَيْرِهِ

«شعر من محض وده» لك فى علم صَيْرِهِ

فهى - مهمما زجرتها - لم تخبر بغيره

جواب على بيت مطير

« قال يمدح المعتمد على الله أبا القاسم محمد بن
المعتضد بالله وعباد بن محمد بن عباد ، أدام الله
تأييده ، في حياة أبيه - وكان قد عمي له بيتا :
« الحاجب الأعلى العضد قرّة عين المعتمد »
ففكّه - أيده الله - وجاوبه بأربعة أبيات ، وهي :

يا سيدي ، الأعلى ومن
أعدده أقوى العدد
حلت طيورك بي ، وقد
قرّبت منها ما بعد
كاشفتنا عن سرّها
فوشى إلى بها الصرد
بيتا يدلّ على اعتقا
دك يا جيل المعتقد
الحاجب الأعلى العضد
قرّة عين المعتضد
ججاوبه ذو الوزارتين بقصيدة ، وهي :

لَوْ أَنَّ مَنْ جَارَ قَصَدَ	لَمْ يَجْزِ - عَنْ وَصَلِي - بِصَدِّ
سَيِّئٍ عَهْدٍ - أَرْخَصَتْ	عَيْنَاهُ فِي قَتْلِي الْعَمَدِ
مَالِكُ سُلْطَانِ الْهَوَى	أَمْنَهُ مِنْ الْقَوْدِ (١)
مُخَلَّدٌ خَلَّدَ - بَرَّ	حَ الشَّوْقِ - فِي كُلِّ خَلَّدِ
وَعُرِّ الرِّضَى ، لِحُبِّهِ	نَهْنَجٌ - إِلَى قَلْبٍ - جَدَدِ

قاس إذا ما قيل : « أبلى حلة الهجر » أجد
أو قلت : « قد هب نسيم الوصل لي منه » ركذ
ما كنت أبى صده لو أن سلواني صد

فتنة وجد ، هي كالفتنة في العجل الجسد
غير مبين ، طرفة يعصف بالخضم الألد
عصف « أبي القاسم » بالقتل إذا القتل مرذ
الحاجب الأعلى الذي لو ماجد الشمس مجد
مخض الثقي ، عث الهوى غمر الندى ، صدق الجلد
ركن طود الحلم إن حباه في النادی عقذ
موفق الأنحاء ما د في أساليب الرشذ
لو قص كنه جوده للبحر وافي ، فاستمد
مؤمل - مع الرضا - يهاب في حين البعد
إن قلد الأمر كفي وإن تولى الثغر سد
ماء سماح فاض في بحر ذكاء فاتقد
يا عضد الدولة ، يا مؤلى يباريه اعتضد^(١)
ومن - بفضل الله - ز النصر في جد وجد

(١) وفي الأصل :

يا عضد الدولة يا مؤلى يباريه اعتضد .

أَصْبَحَ أَعْلَى وَالِدٍ فَأَوْقَهُ أَسْنَى وَلَدٍ
حَدَّثَنَا عَنْ سُرُوهِ (١) نَاهِيكَ مِنْ قُرْبِ سَنَدٍ

* * *

مَلَكٌ - إِذَا نَحْنُ اعْتَمَدْنَا مِنْهُ أَوْفَى مُعْتَمَدٍ -
تَهَلَّلَتْ شَمْسُ جَبِينٍ وَأَسْتَهَلَّتْ مُزْنُ يَدٍ
مُحَصَّنُ الدَّهْرِ الَّذِي أَصْلَحَ مِنْهُ مَا فَسَدَ
وَعَاضِدُ الدِّينِ الَّذِي قَدْ كَانَ - قَبْلُ - يُضْطَهَدُ
وَنَاصِرُ الْعِلْمِ الَّذِي تَفَقَّهُ لَمَّا كَسَدَ
مَنْ لَمْ يَعِزْ إِلَّا وَفَى، وَلَا وَفَى إِلَّا وَعَدَ
شَاوَرِي - فِي أَمْرِهِ - شَيْعَانُ لَوْ شَاءَ اسْتَبَدَّ
يَخْشَى الْعَدُوَّ مِنْهُ عَزَّ مَقَامُهُ شَاكِي الْأَبَدِ
سَمَّحٌ لَهُ - مَهْمَا عَنَّا - فَظٌّ عَلَيْهِ إِنْ عَنَدَ
كَالسَّيْفِ - فِي حَالِيهِ - إِنْ رَاقَ فَرِيْدُهُ رَاعَ حَدُّهُ
يَا مُهْدِي السَّمُطِ الَّذِي قُلَّدْتُهُ فَخْرَ الْأَبَدِ
أَحْسَنُ مِنْ رَقْمِ عِذَا رِ سَائِلٍ فِي وَشِي خَدِّهِ
أَوْ مَبْنِيهِمْ حُلُوِ اللَّمَّا يَفْتَرُّ عَنْ عَذْبِ بَرْدِ

(١) السُّرُو : المروءة : والعرف ، وفي الأصل : « حدثنا عن سُرُوهِ »

إلى المعتمد

قَدْ قُلْتُ - لَمَّا هَزَّنِي مِنْهُ الْبَدِيعُ الْمُفْتَقِدُ -
« نَسِيمُ أَيْلُولٍ سَرَى
خَاطِرِي السَّهْمُ وَشَى
وَفِطْنَةُ تَأَلَّفَتْ - مِنْ الْمُعْتَى - مَا شَرَدَ
شِنْشِنَةُ أَعْرِفُهَا فِي سَبِيلِ مَلِكٍ مِنْ أَسَدَ

يَا آلَ « عَبَّادٍ » مِثَا لُ لَيْسَ يَعْدُوهُ السَّدَدُ
مَنْ لِي بِشُكْرِ نِعْمَةٍ ، الْحُرُّ عَنْهَا مُعْتَبَدُ
سُوِّغْتُ مِنْهَا الْعِزَّةَ الْقَعَسَاءَ فِي الْعَيْشِ الرَّغْدُ
حَيْثُ اسْتُضِيفَ مَنَهْلُ صَفَا إِلَى ظِلِّ بَرْدُ
كَأَنَّهَا لِي جَنَّةُ حَفَّتْ بِمَكْرُوهِ الْحَسَدُ
يَحْمِلُهَا مِنِّي وَافِي الشُّكْرِ صَافِي الْمُعْتَقَدُ
كَمْ قَامَ بِالشُّكْرِ إِلَى أَنْ أَثْقَلْتُهُ فَقَعَدُ
قَصَّرَ ، لَكِنْ لَمْ يُقْصَرَ مُبْلِغُ الْعُذْرِ اجْتَهَدُ
وُقِيْتُ بَطْشَ الْعَيْنِ فِيكُمْ بِالْعَمَى لَا بِالرَّمَدُ

صرعى الحب (١)

أَخَذْتُ ثُلُثَ الْهَوَى غَضَبًا ، وَلِي ثُلُثُ ، وَالْمُحِبِّينَ - فِيمَا يَنْتَهُمُ - ثُلُثُ
تَاللهِ ، لَوْ حَلَفَ الْعُشَّاقُ : أَنَّهُمْ مَوْتَى مِنَ الْوَجْدِ - يَوْمَ الْبَيْنِ - مَا حَتُّوا

(١) من شعر ابن زيدون الذي قاله في مدة صباه ، وقد أورده المراكشي صاحب كتاب المعجب في تاريخ أخبار المغرب ، ولم يرد في ديوان ابن زيدون .

قَوْمٌ - إِذَا هُجِرُوا مِنْ بَعْدِ مَا وُصِّلُوا - مَاتُوا ، فَإِنْ عَادَ مَنْ يَهْوَوْنَهُ بُعِثُوا
تَرَى الْمُجِبِّينَ صَرَعَى - فِي عِرَاصِهِمْ - كَفْتِيَةِ الْكَهْفِ ، مَا يَذْرُونَ مَالِبُشُوا

ذكرى قرطبة

« ومما قاله يشوق ابنة المهدي ومعهده بقرطبة ، وضمنها

بيت أبي الطيب - في أول قصيدته الكافورية :

« بم التعلل ؟ لا أهل ، ولا وطن ،

ولا نديم ، ولا كأس ، ولا سكن ؟ »

قصيدة أولها (١) :

هَلْ تَذْكُرُونَ غَرِيبًا عَادَهُ شَجَنُ - مِنْ ذِكْرِكُمْ - وَجَفَاءَ أَجْفَانَهُ الْوَسَنُ
يَخْفَى لَوَاعِجُهُ - وَالشَّوْقُ يَفْضَحُهُ - فَقَدْ تَسَاوَى - لَدَيْهِ - السَّرُّ وَالْعَلَنُ
يَا وَيْلَتَاهُ ، أَيَّتُهَا - فِي جَوَانِحِهِ - فُؤَادُهُ ، وَهُوَ بِالْأُطْلَالِ مُرْتَهَنُ
وَأَرَقَ الْعَيْنَ - وَالظَّلَامَاءَ عَاكِفَهُ - وَرَقَاهُ قَدْ شَفَّهَا - إِذْ شَفَّيْنِي - حَزَنُ
فَبِتْ أَشْكُو وَتَشْكُو - فَوْقَ أَيْكَتَيْهَا - وَبَاتَ يَهْفُو أَرْتِيَا حَا يَنْتَنَا الْغُصْنُ

* * *

يَا هَلْ أَجَالِسُ أَقْوَامًا أَحِبُّهُمْ - كُنَّا وَكَانُوا - عَلَى عَهْدٍ - فَقَدْ ظَلَمْتُمَا
أَوْ تَحْفَظُونَ عُهُودًا لَا أَضِيْعُهَا - إِنَّ الْكِرَامَ - بِحِفْظِ الْعَهْدِ - تَمْتَحَنُ
وَمِنْهَا :

إِنْ كَانَ عَادَكُمْ عِيدٌ ، قَرُبَ رَفَتِي - بِالشَّوْقِ قَدْ عَادَهُ - مِنْ ذِكْرِكُمْ - حَزَنُ
وَأَفْرَدَتْهُ اللَّيَالِي - مِنْ أَحَبَّتِهِ - فَبَاتَ يُنْشِدُهَا - مِمَّا جَنَى الزَّمَنُ - :
« بِمِ التَّعَلُّلِ ؟ لَا أَهْلٌ ، وَلَا وَطَنٌ ؟ وَلَا نَدِيمٌ ، وَلَا كَأْسٌ ، وَلَا سَكَنٌ ؟ »

(١) ذكرها كتاب المعجب في تاريخ أخبار المغرب ، ولم ترد في ديوان ابن زيدون .

رَسَائِلُ ابْنِ بُدْوَانَ فِي أَخْبَارِهِ

وَشِعْرِ الْمُلُوكِ

وَأَخْبَارِهِمَا

الرسالة الهزلية (١)

أَمَّا بَعْدُ أَيُّهَا الْمَصَابُ بِعَقْلِهِ ، الْمُورِّطُ بِجَهْلِهِ ، الْبَيِّنُ سَقَطُهُ ، الْفَاحِشُ
غَلَطُهُ ، الْعَاثِرُ فِي ذَيْلِ اغْتِرَارِهِ ، الْأَعْمَى عَنْ شَمْسِ نَهَارِهِ ، السَّاقِطُ - سُقُوطُ
الذُّبَابِ - عَلَى الشَّرَابِ ، الْمُتَهَابِتُ - تَهَابَتِ الْفَرَاشِ (٢) - فِي الشَّهَابِ ، فَإِنَّ الْمُجِبَّ
أَكْذَبُ ، وَمَعْرِفَةَ الْمَرْءِ نَفْسَهُ أَصَوْبُ ، وَإِنَّكَ رَأْسَتَنِي مُسْتَهْدِيًا - مِنْ صِلَتِي -
مَا صَفَرْتَ مِنْهُ أَيْدِي أَمْثَالِكَ ، مَتَّصِدِيًا - مِنْ خُلَّتِي - لِمَا قُرِعَتْ دُونَهُ أُنُوفُ (٣)
أَشْكَالِكَ ، مُرْسِلًا خَلِيلَتِكَ مُرْتَادَةً ، مُسْتَعْمِلًا عَشِيقَتِكَ قَوَادَةً ، كَاذِبًا نَفْسَكَ
أَنَّكَ سَتَنْزِلُ عَنْهَا إِلَيَّ ، وَتَخْلُفُ - بَعْدَهَا - عَلَيَّ :

« وَلَسْتُ بِأَوَّلِ ذِي هِمَّةٍ دَعَتْهُ لِمَا لَيْسَ بِالنَّائِلِ (٤) »

وَلَا شَكَّ أَنَّهَا قَلَمَتُكَ إِذْ لَمْ تَضَنْ بِكَ ، وَمَلَمَتُكَ إِذْ لَمْ تَعْرِ عَلَيْكَ ، فَإِنَّهَا
أَعْذَرَتْ فِي السَّفَارَةِ لَكَ ، وَمَا قَصَّرَتْ فِي النِّيَابَةِ عَنْكَ ، زَائِمَةٌ أَنَّ الْمَرْوَةَ لَفْظُ
أَنْتَ مَعْنَاهُ ، وَالْإِنْسَانِيَّةُ أَمُّ أَنْتَ جِسْمُهُ وَهَيْوَلَاهُ (٥) ، قَاطِعَةٌ أَنَّكَ أَنْفَرَدْتَ

(١) انظر ص « ٢٣٧ »

(٢) الفراش مشهور بأنه يطرح نفسه في النار فيحترق ، قال الشاعر :

« هل أتم إلا الفراش رأى الشهاب وقد توقد »

فدنا ، فأحرق نفسه ولواهتدى برشد الأمد .

(٣) قرع الأنف أى العجز والدلة ، والعرب تقول للكفاءة : « هو الفحل لا يقرع أنفه » وقد قال

ابن زيدون فى إحدى قصائده فى « ص ٦٧ » : « وأنف الفحل لا يقرع . »

(٤) البيت المتنبي ، وهو من قصيدته المشهورة :

« إلام طماعيسة العاذل ولا رأى فى الحب للعاقل »

يراد من القلب نسيانكم وتأبى الطباع على الناقل .

والقصيدة مشهورة فليرجع إليها القارىء فى ديوانه إن شاء .

(٥) أصله وحقيقته .

بِالْجَمَالِ ، وَأُسْتَأْثَرْتُ بِالْكَمَالِ ، وَأُسْتَعْلَيْتَ فِي مَرَاتِبِ الْجَلَالِ ، وَأُسْتَوْلَيْتَ
عَلَى مَحَاسِنِ الْخِلَالِ ، حَتَّى خَيَّلْتَ أَنَّ يُوسُفَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - حَاسَنَكَ فَغَضَضْتَ
مِنْهُ ، وَأَنَّ امْرَأَةَ الْعَزِيزِ ^(١) رَأَتْكَ فَسَلَتْ عَنْهُ ، وَأَنَّ قَارُونَ ^(٢) أَصَابَ بَعْضَ
مَا كُنَزْتَ ، وَالنَّظْفَ ^(٣) عَثَرَ عَلَى فَضْلِ مَا رَكَنْتَ ، وَكِسْرَى ^(٤) نَحَلَ غَاشِيَتَكَ ،
وَقَيْصَرَ ^(٥) رَغَى مَاشِيَتَكَ ، وَالْإِسْكَندَرَ قَتَلَ دَارَا ^(٦) فِي طَاعَتِكَ ، وَأَرْذَشِيرَ ^(٧) جَاهَدَ
مُلُوكَ الطُّوَائِفِ بِخُرُوجِهِمْ عَنْ جَمَاعَتِكَ ، وَالضَّحَّاكَ ^(٨) أَسْتَدْعَى مُسَالَمَتَكَ ، وَجَذِيْعَةَ

(١) امرأة العزيز مشهورة بحبها يوسف الصديق ونصتها معروفة .

(٢) قارون : يضرب به المثل في الثراء والذي ، وقد جاء في الكتاب الكريم : « وآتينا من الكنوز ما إن معاتجه لتوه بالمعصية أولى القوة . »

(٣) قالوا : إنما عني النظف بن حنظلة اليربوعي ، وقد كان مقما بالبادية مع بني تميم ، وقد نهب أوالا كان أرسلها كسرى إلى عامله وذهباً ومسكاً ولآلى ، فصرّب به المثل بما أصاب من ثروة طائلة ، قال بعض ولده :

«أبي النظف المباري الشمس، إني عريق في السباحة والمعالى .»

(٤) كسرى : اسم يطلق على كل ملك من ملوك الفرس .

(٥) قيصر : اسم يطلق على كل ملك من ملوك الروم .

(٦) يعني الاسكندر الأكبر المقدوني وتاريخه مشهور ، و « دارا » هو ملك الفرس الذي انتصر

عليه الاسكندر وقتله . (٧) اسم ملك من ملوك الفرس .

(٨) الضحّاك يزعمون أنه قتل « جشيد » - سيد الشعاع ، وملك الأقاليم السبعة وأول من عمل السلاح واستخرج الابرسم ، والفقر ، وألزم أهل الفساد الأعمال الشاقة في قطع الصخور ، واستخراج المادن . قالوا : وطال عمر « جشيد » وتجبر ، وادّعى الربوبية ، فخرج عليه الضحّاك ، وتبعه خلق كثير من أعداء « جشيد » فظفر به الضحّاك ، فهرب « جشيد » بين يديه فظفر به الضحّاك وأمر بنشره بمنشار ، وقال له : « إن كنت إلهاً فادفع عن نفسك »

ثم ملك الضحّاك - فيما يزعمون - وضمي وتجبر ولجّر ودان بدين البراهمة ، وكان - فيما يقولون - أول من غنى له ، وضرب الدنانير والدراهم ، ولبس التاج ، ووضع المشور ، إلى آخر ما زعموه له .

الأبرش^(١) تَمَتَّى مُنَادِمَتَكَ ، وَشِيرِينَ قَدْ نَافَسَتْ بُورَانَ فَيْكَ^(٢) ، وَبَلْقَيْسَ^(٣)
فَايَرَتِ الزَّبَاءَ عَلَيْكَ ، وَأَنَّ مَالِكَ بْنِ نُورَةَ^(٤) إِنَّمَا أَرْدَفَ لَكَ ، وَعُرْوَةَ بْنَ جَعْفَرٍ^(٥) إِنَّمَا
رَحَلَ إِلَيْكَ ، وَكُلَيْبَ^(٦) بْنَ رَيْبَعَةَ إِنَّمَا حَتَّى الْمَرْعَى بِعِزَّتِكَ ، وَجَسَّاسًا إِنَّمَا قَتَلَهُ

(١) جذيمة الأبرش ، قد سبق الإشارة إليه في « ص ٢٠٢ » فليرجع إليها من شاء .
(٢) شيرين : هي زوجة كسرى أبرويز ، وبوران هي ابنته ، وقد أشار الممرى إلى شيرين إشارة ظريفة
في رسالة المفران فقال :
ولو قالت شيرين للملكة لكسرى : « حملني الله مداءك » لحالبتني في ذلك — ونافقتني ، وإن رافقتني ووافقتني ،
على أنه أخذها من حال دينية ، لجمعها في النعمة السنية ، وعتيه — في ذلك — الأحياء ، وجزت لهم — في
ذلك — قصص وأنباء ، وقيل له — فيما ذكر — :
« كيف قطيب نفس الملك لهذه المومس ؟ »
فصرت لهم المثل بالفتح ، جعل في الأناء الشعر والدم ، وقال للحاضر :
« تحيب نفسك لشرب ما فيه ؟ » فقال : « إنما لانطيط وهي بالأنحاس قطيب . »
فأراق ذلك النبي ، وغسله وهدب وطأه ، وجعل فيه — من بعد — مداً . وعرضه على الزندامي ، فسكاهم
بش أن يشرب ، فقال : « هذا مثل شيرين » .
(٣) بلقيس هي ملك بلاد سبأ ، والزباء هي التي قتلها عمرو بن عدي وقتل أباهما جذيمة بن الأبرش ،
وقد مر ذكره .

(٤) مالك بن نورة : من مشهورى مرسان العرب وشحناتهم في الجاهلية ، وقد أدرك الإسلام . قالوا
وارتد وبعت أبو بكر خالد بن الوليد لقتال أهل الردة ، فكان إذا صبح قوماً تسبح الآذان فإن سبهم كف
عنهم ، وإن لم يسبهم قاتلهم إلى أن مرّ بالبطاح وبه مالك وأصحابه ، فقبل إنهم لم يستمعوا أذاناً فقاتلهم ،
وأتى بمالك بن نورة أسيراً فأمر حاد بقتله . قالوا : واحتج قوم لخالد في قتله ، وطعن عليه آخرون في
كلام طويل مشهور ، وقد رثاه أخوه متم رثاء الرائع ، وقد سمعه صر فقال له زوددت لو رثيت أخى
زيداً بمثل ما رثيت به أهلك ، فقال له متم : والله لو طلب أن أخى صار إلى ما صار إليه أخوك لم أرته ولم
أحزن عليه ، ومن أبيات متم التي سارت في رثائه مسير الأمثال قوله :

« وقالوا أتبكي كل قبر رأيت له قبر ثوى بين اللوى ، فالدكادك

فقل لهم : « إن الأسى يمت الأسى دعوني فهذا كله قبر مالك »

(٥) عروة بن جعفر — كان ينتسب إلى جعفر هو وأهل بيته ، وكان يعرف بعروة الرحال لرحلته إلى
الملك ، وكان هو السبب في حرب الفجار المشهورة .

(٦) كليب بن ربيعة — هو رئيس الحيين من بكر وتقلب ، وقد بلغ من جبروته ونفيه أنه كان يحصى
مواقع السحاب فلا يرعى حماء وينزل وحش كذا وكذا في جوارى ولا تهاج ولا يورد أحد مع أهله ولا توقد
نار مع ناره ، ولا يجتبي في مجلسه ، ولا يتكلم إلا بأذنه كما يدلك على ذلك قول أخيه مهلهل في رثائه :

« نبئت أن النار — بعدك — أوقدت — واستب — بعدك — يا كليب المجلس

بِأَنْفَتِكَ، وَمُتْلِهِلَا^(١) إِنَّمَا طَلَبَ ثَأْرَهُ بِهِمَّتِكَ، وَالسَّمْوَل^(٢) إِنَّمَا وَفَى عَنْ عَهْدِكَ،
وَالْأَخْنَف^(٣) إِنَّمَا أَحْتَبَى فِي بُرْدَتِكَ، وَحَاتِمًا^(٤) إِنَّمَا جَادَ بِوَفْرِكَ، وَآقَى الْأَضْيَافَ

وَنَكَلَمُوا فِي - أَمْرِكَلْ عَظِيمَةٌ - لَوْ كُنْتُ حَاضِرَ أَمْرِهِمْ لَمْ يَنْبَسُوا.

وقد قتل جساس بن مرة زوج أخت كليب، وكان ذلك سبباً في حرب البسوس.

(١) مَاهِلُ بْنُ رَبِيعَةَ - هُوَ أَخُو كَلِيبَ وَالْأَخْذُ بِثَأْرِهِ فِي حَرْبٍ طَوِيلَةٍ تَقْنِينًا شَهْرَتَا عَنْ ذِكْرِهِمَا.

(٢) السَّمْوَلُ - هُوَ السَّمْوَلُ بْنُ قَادِيَا، وَهُوَ مِنْ يَهُودَى يَثُوبَ، وَيَضْرِبُ بِهِ الْمَثَلَ فِي الْوَفَاءِ - بَعْدَ حَادِثَتِهِ الْمَشْهُورَةِ مَعَ أَمْرِئِ الْقَيْسِ الَّذِي أَوْدَعَ عِنْدَهُ وَدِيعَةً وَمَضَى، وَحَاطِلُ الْحَارِثِ بْنِ ظَالِمٍ أَنْ يَأْخُذَهَا مِنَ السَّمْوَلِ مَا لِي، ثُمَّ ظَمِرَ الْحَارِثُ بِابْنِهِ، فَقَالَ لِلسَّمْوَلِ: إِنْ لَمْ تَعْطِنِي وَدِيعَةَ أَمْرِئِ الْقَيْسِ قَتَلْتُ ابْنَكَ فَأَبَى. فَقَتَلَ الْحَارِثُ ابْنَ السَّمْوَلِ وَانْصَرَفَ، وَالسَّمْوَلُ هُوَ صَاحِبُ اللَّامِيَةِ الْمَشْهُورَةِ الَّتِي يَقُولُ فِي أَرْهَاقِ:

«إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَدْنَسْ - مِنَ اللَّؤْمِ - عَرْضُهُ وَكُلَّ رِذَاءٍ يَرْتَدِيهِ جَيْلٌ

وَلِنْ هُوَ لَمْ يَحْمَلْ - عَلَى النَّفْسِ - ضِيْعَهَا، فَلَيْسَ - إِلَّا حَسَنُ الشَّاءِ - سَبِيلٌ.»

(٣) الْأَخْنَفُ - هُوَ الْأَخْنَفُ بْنُ قَيْسٍ وَيَضْرِبُ بِهِ الْمَثَلَ فِي الْحِلْمِ.

(٤) حَاتِمٌ - هُوَ حَاتِمُ الطَّائِي وَهُوَ أَشْهُرُ مَنْ ضَرَبَ بِهِ الْمَثَلَ فِي الْجُودِ.

قَالُوا: - «وَأَجْوَادُ الْعَرَبِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ثَلَاثَةٌ:

«حَاتِمُ الطَّائِي، هَرَمُ بْنُ سَنَانٍ، كَعْبُ بْنُ مَامَةَ»

قَالُوا: «وَحَاتِمُ أَشْهُرِهِمْ ذَكَرْنَا».

وقد أدرك مولد النبي - صلى الله عليه وسلم - ومات قبل بعثته، ومن مختار شعره قوله: -

«أَحَادِلُ إِنْ الْمَالُ غَمٌّ - بِرِجْلِهِ - وَإِنْ الْبَيْتُ طَارِيَةٌ - فَزُودْ

وَكَمْ مِنْ جَوَادٍ يَفْسُدُ الْيَوْمَ جُودُهُ وَسَاوَى قَدْ ذَكَرْنَاهُ الْفَقْرُ فِي غَدٍ

وَكَمْ لِي آتَاءٍ، فَمَا كَفَّ جُودَهُمْ مَلَامٌ، وَمَنْ أَيْدِيَهُمْ خَلَقَتْ يَدِي.»

وقوله:

«لَخَا اللَّهُ صَعْلُوكَا مَنَاةَ وَهَمَّهُ مِنَ الْعَبَسِ - أَنْ يَلْقَى لِبُوسًا وَمَطْعَمًا

وَلِلَّهِ صَعْلُوكَا يَسَاوِرُهُمْ وَيَغْضَى عَلَى الْأَحْدَاثِ - وَالْهَوْلُ مَقْرَمًا

إِذَا مَا رَأَى يَوْمًا مَكَارِمَ أَعْرَضَ نَيْمٌ كَبْرَاهِنَ، ثُمَّتَ صَدَا.»

وقوله:

«أَمَاوَى إِنْ الْمَالُ غَادَ وَرَانَحَ وَبَقِيَ - مِنَ الْمَالِ - الْأَحَادِيثُ وَالذِّكْرُ

أَمَاوَى مَا يَنْبَغِي التَّرَاثُ عَنْ الْفَتَى إِذَا حَشَرْتَ يَوْمًا وَضَاقَ بِهِ الصَّدْرُ

أَمَاوَى إِنْ يَصْبَحُ صَدَائِي بِقَفْرَةٍ - مِنَ الْأَرْضِ - لِأَمَاءٍ لَدَى وَلَا حَرَّ

تَرَى أَنْ مَا أَهْلَكَتَ لَمْ يَكْ ضَرْنِي وَأَنْ يَدِي - مِمَّا تَمَلَّكَ - بِهِ صَفَرُ

وَقَدْ عَلِمَ الْأَقْوَامُ لَوْ أَنَّ حَاتِمًا أَرَادَ ثَرَاءَ الْمَالِ كَانَ لَهُ وَفَرُ

وَأَنْ لَا آلُو - بِمَالِي - صَنِيعَةٍ وَأَوَّلُهُ زَادَ وَآخِرُهُ دَخَرُ

غَنِينَا زَمَانًا بِالنَّصِصِ وَالْغَنَى وَكَلَّا سَقَانَاهُ - بِكَأٍ - يَهْمَا - الدَّهْرُ

فَمَا زَادَنَا بَغْيًا - عَلَى ذِي قَرَابَةٍ غَنَانًا، وَلَا أَزْدَى بِأَحْسَابِنَا الْفَقْرُ.»

يَبْشِرُكَ ، وَزَيْدٌ^(١) بَنَ مُهْلَهْلٍ إِنَّمَا رَكِبَ بِفَخَذَيْكَ ، وَالسُّلَيْكُ^(٢) بَنَ السُّلَكَةَ إِنَّمَا
عَدَا عَلَى رَجُلَيْكَ ، وَعَامِرُ بْنُ مَالِكٍ^(٣) إِنَّمَا لَاعَبَ الْأُسْتَةَ بِيَدَيْكَ ، وَقَيْسٌ^(٤) بَنَ زُهَيْرٍ
إِنَّمَا اسْتَعَانَ بِدَهَائِكَ ، وَإِيَّاسُ بْنُ مُعَاوِيَةَ^(٥) إِنَّمَا اسْتَضَاءَ بِمِصْبَاحِ ذَكَائِكَ ،

(١) زيد بن مهلهل — أدرك الاسلام ، وكان فارساً مشهوراً ، يعيشد البيت ، وشاعراً نابغاً ، وكان
يسمى زيد الخيل لكثرة ما عنده من الخيل ، ولما أسلم سماه النبي — صلى الله عليه وسلم — زيد الخير .
(٢) السليك بن السلكة جاهلي تميم ، وهو أحد صناديد العرب وأحد لصوهم العدائين الذين كانوا
لا يلقون ، قال ابن الرومي في وصف شهر رمضان :

« يمشي الهولاء ، فأما حين يظلموا فلا السليك يدانيه ولا السلكة . »

(٣) عامر بن مالك — المشهور بللاع الأُسنة ، وأمه أم البنين المشهورة التي اختربها ليبد عند النعمان
في قوله :

« نحن بي أم البنين الأربعة . »

(٤) قيس بن زهير — هو صاحب الحروب المشهورة بين عبس وذبيان بسبب الفرسين (داحس والغبراء)
وكان يضرب به المثل في الدماء ، ويقال : « أدهى من قيس . »

(٥) إياس بن معاوية — هو صاحب العراسة والأجوبة السديدة الرائعة ، وكان قاضي البصرة ، ويضرب
به المثل في الذكاء . قال أبو تمام :

« أقدام عمرو في ساحة حاتم في حلم أحنف في ذكاء إياس . »

قالوا : وكان سبب ولايته القضاء أن عمر بن عبد العزيز أرسل رجلاً من أهل الشام وأمره أن يجمع
بين إياس والقاسم بن أبي ربيعة ويولي القضاء أفضلهما ، فجمع بينهما ، فكان كل منهما يمتنع من الولاية ،
فقال إياس للشأمي : « سل الحسن البصري عني وعن القاسم ، وسل بن سيرين . » فعلم القاسم أنه إن
سأل عنهما أشارا به ، فقال للشأمي : « لا تسأل عنه ، فوالله الذي لا إله إلا هو إن إياساً لأفصل مني
وأعلم بالقضاء ، فإن كنت ممن يصدق ، فينبغي لك أن تصدق قولي ، وإن كنت كاذباً فما يحل لك أن
أن تولى القضاء وأنا كذاب » ، فقال إياس للشأمي : « إنك جئت برجل فأقنته على شفير جهنم فافتدى
نفسه من النار بيمين كاذبة يستنصر الله منها وينجو من النار » فقال الشأمي : « أما إذ فطنت لها فاني
أريدك » فاستقضاءه ، فلم يزل على القضاء مدة ثم هرب ، قالوا : « ولما ولي القضاء دخل عليه الحسن
البصري فبكى إياس وقال له : « بلغني أن القضاء ثلاثة : رجل مال به الهوى فهو في النار ، ورجل اجتهد
فأخطأ فهو في النار ، ورجل اجتهد فأصاب فهو في الجنة » فقال الحسن : « إن فيما قضى الله تعالى في النبي
داود ما يرد قول مولاي . » ثم قرأ قوله تعالى « ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكماً وعلماً »

لحمد سليمان ولم يذم داود ، وأخباره كثيرة مشهورة في كتب الأدب ، فلا حاجة بنا إلى الإفاضة .

وَسَحْبَانَ^(١) إِنَّمَا تَكَلَّمَ بِلِسَانِكَ ، وَعَمَرَوْ^(٢) بِنِ الْأَهْتَمِ إِنَّمَا سَحَرَ بِبَيَانِكَ ، وَأَنَّ الصُّلَحَ - يَنْ بَكَرٍ وَتَغْلِبَ - تَمَّ بِرِسَالَتِكَ^(٣) ، وَالْحِمَالَاتِ - يَنْ عَبَسٍ وَذِيَّانَ - أَسْنَدَتْ إِلَى كَفَالَتِكَ ، وَأَنَّ اخْتِيَالَ هَرِمٍ - لِمَلَقَمَةٍ وَعَامِرٍ حَتَّى رَضِيَا - كَانَ ذَاكَ عَنْ

(١) سحبان وائل - يضرب به المثل في الفصاحة والبيان والقدرة على الخطابة ، أدرك الاسلام ومات سنة أربع وخمسين . قال الأصمعي « وكان إذا خطب يسيل عرفاً ، ولا يمد كلمة ، ولا يتوقف ، ولا يقعد حتى يفرغ » قالوا : « وقدم على معاوية وفد من خراسان فيهم - سعيد بن عثمان - مطلب سحبان فلم يوجد في منزله فاقصص - من ناحيته - اقتصاباً وأدخل عليه فقال : « تكلم » فقال : « انظروا لي عصا تقوم من أودي . » قالوا : « وما تصنع بها وأنت بحضرة أمير المؤمنين . » قال : « ما كان يصنع بها موسى وهو يحاط ربه وعصاه في يده . » فضحك معاوية وقال : « هاتوا عصا تجاءوا بها إليه فركلها برجله ولم يرضها . » وقال : « هاتوا عصاى » فأتوا بها فأخذها ، ثم قام وتكلم منذ صلاة الظهر إلى أن قامت صلاة العصر ما تنجح ، ولا سئل ، ولا توقف ، ولا ابتدأ في معنى نخرج منه وقد بقي عليه منه شيء ، فما زالت تلك حاله حتى أشار معاوية بيده ، فأشار إليه سحبان : ألا نطع على كلامي ، فقال معاوية « الصلاة » قال : « هي أمملك ، ونحن في صلاة وتحميد ، ووعده ووعيد » ، فقال معاوية : « أنت أخطب العرب . » فقال سحبان : « والمعجم والجن والاس »

(٢) عمرو بن الأهتم - من سادات بني تميم وخطبائهم في الجاهلية والاسلام ، وكان - لجماله - يدعونه : « المكحل » قالوا : « وورد على النبي - صلى الله عليه وسلم - هو والزبرقان بن بدر فأسلموا وأكرهما النبي - صلى الله عليه وسلم - » « سألت النبي - صلى الله عليه وسلم - عمرو بن الأهتم عن الزبرقان بن بدر بحضوره فقال عمرو : « مطاع في أدنيه ، شديد العارضة في قومه ، مانع لما وراء ظهره » . فقال الزبرقان : « يا رسول الله إنه ليعلم مني أكثر مما قال ، ولكنه حسدني . » فقال عمرو : « أما والله لئن علمت ما قد علمت ، إنه لزم من المروءة ، أحق الأب ، لئيم الحال ، ضيق العطن ، حديث الفنى . » فرأى تغير النبي - صلى الله عليه وسلم - لما اختلف قوله ، فقال : « يا رسول الله لا تمضب ، لما رضيت قلت أحسن ما علمت ، ولما غضبت قلت أقبح ما علمت ، فوالله ما كذبت في الأولى ، ولقد صدقت في الثانية . » فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - : « إن من البيان لسحرا . » وتوفي سنة ٥٧ هـ - ومن ما تروى حكاية قوله :

« أشجع الناس من رد جهله بجهله . » وقوله « أف لا تخذرو لو كان شيء يشتري ما كان نبي ، أنف من القتل ، فالمعجب لمن يشتري الحق بجماله فيدخله في رأسه فيقي في جيبه ويسلح في ذيله . » وكان ممن حرّم الخمر - على نفسه - في الجاهلية .

(٣) بكر وتغلب ابنا وائل - هم الذين أشعلوا حرب البسوس ، وقد دامت سنين طويلة قتل فيها عطاء الحيين وأخبارها مشهورة .

إِشَارَتِكَ، وَجَوَابُهُ لِعُمَرَ - وَقَدْ سَأَلَهُ عَنْ أَيِّمَا كَانَ يَنْفِرُ - وَقَعَ عَنْ إِرَادَتِكَ^(١)، وَأَنَّ
الْحَجَّاجَ^(٢) تَقَلَّدَ لَيَاةَ الْعِرَاقِ بِجَدِّكَ وَفَتِيْبَةً^(٣) فَتَحَ مَآوِزَ النَّهْرِ بِسَعْدِكَ، وَالْمُهَلَّبَ^(٤)
أَوْ هَنَ شَوْكَةَ الْأَزَارِقَةِ بِيَدِكَ، وَفَرَّقَ ذَاتَ يَنْبِهِمْ بِكَيْدِكَ، وَأَنَّ هَرْمُسَ^(٥)
أَعْطَى بَلِينُوسَ^(٦) مَا أَخَذَ مِنْكَ، وَأَفْلَاطُونَ^(٧) أَوْزَدَ عَلَى إِرْسَاطِ الْبَيْسِ^(٨) مَا نَقَلَ عَنْكَ،
وَيَطْلِمُ مِثْلُ مِثْلِ^(٩) سَوَى الْإِصْطِرْلَابِ بِتَذْيِيرِكَ، وَصَوَّرَ الْكُرَّةَ عَلَى تَقْدِيرِكَ،

(١) يشير بذلك إلى عمر بن الخطاب حين قال لهرم بن قطبة بعد أن أسلم: «أيها كان الأفضل عندك
يعني عامراً وعلقة» فقال: «لو قلت الآن فيها كلمة لامدت الحرب بين الحيين» فأعجب بذلك القول
عمر وسر من سياسته وبعد ظره وقال له: «بحق حكمتك العرب»

(٢) الحجاج - هو الحجاج بن يوسف الثقفي ولد سنة ٤١ ونشأ بالطائف، وولى الكوفة، واشتهر
بسفك الدماء، وهو الذي حاصر مكة وفيها عبد الله بن الزبير وضربها بالمجنق (انظر ص ١٦ من كتاب
مصارع الأعيان) وحروبه مع شبيب، وعبد الرحمن بن الأشعث مشهورة، وقد ذكرناها في مصارع
الأعيان من «ص ٥٧ إلى ص ١١٥» فليرجع إليها من شاء، وكان يعجب بسرعة الجواب، وله نوادر كثيرة
في ذلك، قالوا: إنه قال ذات يوم لأحمد بن يونس «فكرت في أمرك فوجدت دمك ومالك حلالا» فقال:
«أيها الأمير أشد ما في القصة أن هذا الرأي بعد الفكر» فضحك وعفا عنه، وقالوا إنه أتى بقوم
من أصحاب بن الأشعث فأمر بضرب أعناقهم، فقام رجل فقال: «أيها الأمير إن لي عندك يدا» فقال
«وما هي؟» قال «شئت رجل محصرة ابن الأشعث فرددت عنك» فقال: «من يشهد لك؟» وأشار:
«هذا» وأشار بيده إلى رجل منهم، فقال: «صدق أيها الأمير» فقال «مامنك أن تفعل كما فعل؟» قال
«بغضى لك»، فقال الحجاج «أطلقوا هذا ليده عندما، وهذا لصدقه في مثل هذا الوقت» قال مالك
ابن دينار: «والله لربما رأيت الحجاج يتكلم على المنبر ويذكر حسن صنعه إلى العراق وسوء صنعه له
حتى يجيل إلى أنه مظلوم» وقال الحسن البصري «لقد وقذتني كلمة سمعتها من الحجاج «إن امرأ دهب
ساعة من عمره في غير ما خلق له لجدير أن تطول حسرته»

(٣) فتية - هو فتية بن مسلم الناهلي نشأ في المروانية وولى الأمانة، وكان شجاعاً طناً .

(٤) المهلب - هو المهلب بن أبي صفرة وهو الذي يعزى إليه الفضل في القضاء على الحوارج (انظر
ص ٩٢ : ٩٧ من كتاب مصارع الأعيان)

(٥) هرمس - هو الذي يزعم نفر من الصابئة أنه نبي مرسل وأنه إدريس عليه السلام ويسندون إليه
شرائعهم في تعظيم الكواكب السبعة والبروج الاثني عشر والغرب إليها بالذبايح وغيرها .

(٦) بلبينوس - هو الذي تزعم الصابئة أن رسالة هرمس انتقلت من بعده إليه .

(٧ ، ٨) أفلاطون وإرسطاطاليس - عالمان من أعلام فلاسفة اليونان وقادة الفكر المتأخرين .

(٩) بطليموس - هو صاحب كتاب المجسطى، والجغرافيا، والاسطرلاب وغير ذلك، وهو أول من

أعرض للفلك والهندسة .

وَبَقْرَاطَ^(١) عِلْمَ الْعِلَلِ وَالْأَمْرَاضِ بِلُطْفِ حِسِّكَ ، وَجَالِينُوسَ^(٢) عَرَفَ طِبَائِعَ
الْحَشَائِشِ بِدِقَّةِ حَدْسِكَ ، وَكِلَاهُمَا قَلَدَكَ فِي الْعِلَاجِ ، وَسَأَلَكَ عَنِ الْمِزَاجِ ،
وَأَسْتَوْصَفَكَ تَرْكِيبَ الْأَعْضَاءِ ، وَأَسْتَشَارَكَ فِي الدَّاءِ وَالِدَّوَاءِ ، وَأَنْتَ نَهَجْتَ
لِأَبِي مَعْشَرٍ^(٣) طَرِيقَ الْقَضَاءِ ، وَأَظْهَرْتَ جَابِرَ بْنَ حَيَّانَ^(٤) عَلَى سِرِّ الْكِيمِيَاءِ ،
وَأَعْظَيْتَ النِّظَامَ^(٥) أَضْلًا أَذْرَكَ بِهِ الْحَقَائِقَ ، وَجَعَلْتَ لِلْكِنْدِيِّ^(٦) رَشْمًا اسْتَفْرَجَ

(١) بقراط — علم من أعلام الطب واليونان .

(٢) جالينوس — من العلماء المتأخرين الذين كان لهم الفضل في ترقية فن الطب ، وقد صرف خواص
الحشائش ، وقاس أضرجتها وطبائنها ، وشرح الأعضاء ، ووضع الكتب القيمة في الطب .

(٣) أبو معشر : كان في أول أمره من أصحاب الحديث ببغداد ، وكان يشجع على الكندي الفيلسوف
المعروف ويفرى العامة به — قالوا « قدس له الكندي من حسن له النظر في علم الحساب والهندسة فأحبهما
ثم عدل إلى أحكام النجوم بفتن ومهر وانقطع بذلك شراً عن الكندي لأنه من جنس علومه .

(٤) جابر بن حيان — من أعلام العلماء العرب في الكيمياء .

(٥) النظام — إمام من أئمة المعتزلة ، وكان آية في الدكا ، من صغره . قالوا : إنه جاء إلى الخليل بن
أحمد ليملكه ، فقال له الخليل يمتحنه وفي يده قدح زجاج : « يا بني صف لي هذه الزجاجة » فقال : « أبعده
أم يدم » قال « يمدح » قال « تريك الفدى ، ولا تقبل الأذى ، ولا تستر ما وراءها » قال « فذمها » قال
« يسرع إليها الكسر ، ولا تقبل الخبر » قال « فصف لي هذه النخلة » وأوماً إلى نخلة في داره . قال
« يمدح أم ذم ؟ » قال « يمدح » قال « حلو جناها ، باسق منتهاء ، ناخر أعلاها » قال « فذمها » قال
« صبة المرتقى ، بعيدة المجتنى ، مخوفة بالأذى » فقال الخليل « يا بني نحن إلى التلم منك أحوج » ثم اشتد
على أبي الهذيل الملاف بمذهب الكلام إلى أن برع وظهر في أيام المعتصم وتبعه خلق كثير — وحكي عنه قال
« مات لصالح بن عبيد القدوس ولد ، فعفى إليه أبو الهذيل والنظام معه وهو غلام حدث كالشيخ له مראה
محترفاً ، فقال أبو الهذيل « لا أعرف لجرعك وجهاً إذا كان الناس عندك كالزروع » فقال صالح « يا أبا الهذيل
إنما أجزع عليه لأنه لم يقرأ كتاب الشكوك » فقال أبو الهذيل « وما كتاب الشكوك ؟ » قال « كتاب
وضمته من قرأه شكاً دما كان حتى ينوهم أنه لم يكن ، وفيما لم يكن حتى يظن أنه قد كان » فقال له النظام
« فشك أنت في موت ابنك ، واعمل على أنه لم يمت وإن مات ، وشك أيضاً في أنه قد قرأ هذا الكتاب
وإن لم يكن قرأه » فحضر صالح وكان مذهبه مذهب السوسطائية فأنهم يزعمون أن الأشياء لاحقيقة لها ،
وإن ما تتبعه يجوز أن يكون على ما شاهدته ، ويجوز أن يكون على غير ما شاهدته ، وأن حل الیقضان كحل

النائم ، وتوفي سنة ٢٢١ هـ وسنه ست وثلاثون سنة .

(٦) الكندي — يعقوب الكندي من كبار فلاسفة الاسلام — انتقل إلى بغداد واشتد بفن الأدب ،
ثم بعلوم الفلسفة — وحل مشكلات الأوائل وله مؤلفات دارة — وهو مشهور بالبطل ، وكان يقول : من
شرف البطل أنك تقول للسائل « لا » ورأسك مرفوع إلى فوق ، ومن ذل العطاء أنك تقول « نعم »

بِهِ الدَّقَائِقَ ، وَأَنَّ صِنَاعَةَ الْأَلْحَانِ اخْتِرَاعُكَ ، وَتَأْلِيفُ الْأَوْتَارِ وَالْأَنْقَارِ تَوَلِيدُكَ
وَابْتِدَاعُكَ ، وَأَنَّ عَبْدَ الْحَمِيدِ بْنِ يَحْيَى ^(١) بَارِئُ أَقْلَامِكَ ، وَسَهْلُ ^(٢) بْنُ هَارُونَ مُدَوِّنُ
كَلَامِكَ ، وَعَمْرَوُ بْنُ بَحْرٍ ^(٣) مُسْتَمْلِكُكَ ، وَمَالِكُ بْنُ أَنَسٍ ^(٤) مُسْتَفْتِيكَ ، وَأَنْتَ الَّذِي
أَقَامَ الْبَرَاهِينَ ، وَوَضَعَ الْقَوَانِينَ ، وَحَدَّدَ الْمَاهِيَةَ ، وَبَيَّنَّ الْكَيْفِيَّةَ وَالْكَمِّيَّةَ ^(٥) ،

وَأَنْتَ مُشِيرُ بَرَأْسِكَ إِلَى أَسْفَلَ ، وَمُؤَنِّمَاتُهُ كَثِيرَةٌ مِنْهَا (أَنْسَامُ الْعَمَلِ الْإِنْسِي) وَكِتَابُ (الْجَوَامِعُ الْفَكْرِيَّةُ)
وَكِتَابُ (الْفَلَسَفَةُ الْأُولَى) وَغَيْرُهَا .

(١) عبد الحميد بن يحيى - هو عبد الحميد بن سعيد الكاتب المشهور ، وكان يقال « بدأت الكتابة بعبد
الحميد ، وختمت بابن العبيد » ، وكان في أول نشأته معلماً صديان بالكوفة ، فلما اتصل بعروان الجعدي قبل أن
يصل إلى الخلافة صحبه وانقطع إليه فلما جاء الأمر بالخلافة سجد مروان وأصحابه إلا عبد الحميد ، فقال له مروان
« لم لم تسجد ؟ » فقال « ولم أسجد على أن كنت معنًا فطرت عنا يعنى بالخلافة » فقال « إذن تطير معي »
قال « الآن طاب السجود » وسجد وظل كاتب مروان طول خلافته .

(٢) سهل بن هارون - من أهل نيسابور - رحل إلى البصرة فندب إليها وكان شعوياً ، واشتهر
بالبلبل . قال الجاحظ : أتى رحل سهل بن هارون فقال : « هب لي ما لا ضرر به عليك » فقال : « وما
هو يا أخي ؟ » قال : « درهم » قال : « لقد هوأ ب الدرهم وهو طائع الله في أرضه لا يعضى ، وهو
عشر العشرة ، والعشرة عشر المائة ، والمائة عشر الألف ، والألف عشر دية المسلم ، ألا ترى إلى أين
انتهى الدرهم الذي ومنه ، وهل بيوت الأموال إلا درهم على درهم » قال : « فاحرص الرجل ولولا
انصرافه لم يسكت » وحكى دعبل الخراساني قال : « أقبل يوماً عند سهل بن هارون وأظلمنا الحديث حتى أضرب
به الجوع فعدنا بعدائه دأني بصحفة فيها مرقق نخبه ديك هرم فأخذ كسرة وتعمد ما في الصحفة فلم يجد
رأس الديك فبقي مطرفاً ثم قال لاملأه : « أين الرأس ؟ » قال : « رميت به » قال : « ولم ؟ » قال :
« لم أطاك تأكله » قال : « ولم طادت ذلك ، فوالله إني لأمقت من يرمى برحله ، فكيف برأسه ؟ والرأس
رئيس يتفاد به ، وفيه الخواص الحقة ، ومنه يصيح الديك ، ولولا صوته ما أريد ، وفيه مرقق الذي
يتحرك به ، وعينه التي يعرب سمعاً للثل ، ودماغه عجيب لوجع السكية ، ولم أر عظمًا قط أهش من رأسه
فإن كان بلغ من خبثك أن لا تأكله فعدنا من يأكله ، أما علمت أنه خير من طرف الخماح والساق ،
انظر أين رميته فقال : « والله ما أدري » قال : « لكى أدري أنك رميته في بطك » .

(٣) عمر بن بحر - ذو الكاتب المشهور ويكنى بأبي عثمان ويعرف بالجاحظ وهو من يفخر به البيان
الدرى حتى قيل : « مما فضل الله به أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - على غيرها من الأمم : عمر بن الخطاب
في سياسته ، والحسن البصري في علمه ، والجاحظ في بيانه » - نشأ ببغداد وتلمذ على الزناتم وانفرد
بحسن البيان والفصاحة ، وأخباره مشهورة في كتب الأدب فلا داعي للإفاضة فيها .

(٤) مالك بن أنس - هو صاحب المذهب المشهور .

(٥) الماهية - ماهية الشيء ، ما يحصل في الذهن من صورة كلية مطابقة له بعد حذف الشخصيات عنه إن
كان حزبياً . قالوا : « هو أحد حدود العلم عند الحكماء . فإن العلم ينقسم إلى ثلاثة أقسام . علم (ما) وعلم

وَنَظَرَ فِي الْجَوْهَرِ وَالْعَرَضِ^(١)، وَمَيَّزَ الصَّحَّةَ مِنَ الْمَرَضِ، وَفَكَ الْمَعْمَى^(٢)، وَفَصَلَ
بَيْنَ الْأَسْمِ وَالْمُسَمَّى، وَصَرَفَ وَقَسَمَ، وَعَدَّلَ وَقَوَّمَ، وَصَنَّفَ الْأَسْمَاءَ وَالْأَفْعَالَ،
وَبَوَّبَ الظَّرْفَ وَالْحَالَ، وَبَنَى وَأَعْرَبَ، وَتَنَّى وَتَعَجَّبَ، وَوَصَلَ وَقَطَعَ،
وَتَنَّى وَجَمَعَ، وَأَظْهَرَ وَأَضْمَرَ، وَاسْتَفْهَمَ وَأَخْبَرَ، وَأَهْمَلَ وَقَيَّدَ، وَأَرْسَلَ وَأَسْنَدَ،
وَبَحَثَ وَنَظَرَ، وَتَصَفَّحَ الْأَدْيَانَ، وَرَجَّحَ بَيْنَ مَذْهَبَيْ مَانِي وَغِيلَانَ^(٣)، وَأَشَارَ
بِذَنْجِ الْجَمْعِ^(٤)، وَقَتَلَ بَشَّارَ بْنَ بُرْدٍ، وَأَنكَ لَوْ شِئْتَ خَرَقْتَ الْعَادَاتِ، وَخَالَفْتَ
الْمَعْتُودَاتِ، فَأَحْلَمْتَ الْبِحَارَ عَذَبَةً، وَأَعَدْتَ السَّلَامَ رَطْبَةً^(٥)، وَتَقَلَّتْ غَدَاً فَصَارَ

(كيف) وعلم (كم). فالعلم الذي طلب منه ماهيات الأشياء هو العلم الالهي، والذي يطلب منه كفيات
الأشياء هو الطبيعي، والذي يطلب منه كليات الأشياء هو الرياضي.

(١) الجوهر والعرض: الجوهر — فيما يقولون — هو الجسم، كالإنسان والفرس والحجر ونحو ذلك.
والعرض الحال والنسب المتعاقب عليه كالألوان من بياض، وسواد وحمر، والحركات المختلفة من قيام وقعود
وانضطجاع، وجميع ما عدا الجوهر فاسم العرض واقع عليه.

(٢) ولك المعمي — وهو اللعز، ارجع إلى « ص ٢٨٤ »

وكان الجاحظ يقول « ليس المعمي شيء قد كان كيسان مستملي أبي عبيدة يسمع خلاف ما يقال، ويكتب
خلاف ما يسمع، ويقرأ خلاف ما يكتب، وكان أعلم الناس باستخراج المعمي — قالوا: « وكان النظام — على
قدرته على أوصاف العلوم — لا يقدر على استخراج أحف ما يكون من المعمي ».

(٣) ماني وغيلان — ماني هو الذي نسب إليه المانوية وهو ثوي — نسبة إلى الاثنين — لزمه أن صانع العالم
اثنان، أحدهما فاعل الخير وهو النور، والآخر فاعل الشر وهو الظلمة، وهما قديمان لم يزلوا ولن يزالا
حساسين سعيين بصيرين وهما مختلفان في النفس والصورة، متصادمان في الفعل والديور، فجوهر النور فاعل
حسن نير ونفسه خيرة قديمة نفاعه. منها الخير والسرور والصلاح وليس منها من الشر شيء، وجوهر الظلمة
على ضد ذلك جميعه، وقد أشار المتنبي إلى هذا المذهب بقوله:

« وكم لطام الليل عندك من يد تخبر أن المانوية تكذب. »

وكان ماني راهباً بنجران. قالوا: « وكان مؤمناً بالمسيح معظماً من أساقفة الصاري، ثم وثى به حاسدوه
فأحدث ديناً ودماً لإيه وتبعه كثير من الجوس. »

وغيلان هو ابن يونس القندري الدمشقي. قالوا كان أبوه. ولي لعثمان بن عفان، وكان غيلان أول من تكلم
في القدر، وخلق القرآن في الاسلام في رأي بعض المؤرخين.

(٤) الجعد — هو مولى بني الحكم وكان يعلم مروان بن محمد الجعدي ويقطن دمشق ويسب إليه بعض
المؤرخين أنه أول من تكلم بخلاف القرآن.

(٥) السلام: الحجارة الصلبة.

أَمْسَا ، وَزِدْتَ فِي الْعُنَاصِرِ فَكَانَتْ خَمْسًا ^(١) ، وَأَنْتَ الْمَقُولُ فِيهِ :

« كُلُّ الصَّيْدِ ^(٢) فِي جَوْفِ الْفَرَا . » وَ

« لَيْسَ عَلَى اللَّهِ بِمُسْتَنْكَرٍ أَنْ يَجْمَعَ الْعَالَمُ فِي وَاحِدٍ ^(٣) . »

وَالْمَعْنَى بِقَوْلِ أَبِي تَمَّام :

« قَلَوْ صَوَّرْتَ نَفْسَكَ لَمْ تَرِدْهَا — عَلَى مَا فِيكَ — مِنْ كَرَمِ الطَّبَّاعِ . »

وَالْمُرَادُ بِقَوْلِ أَبِي الطَّيِّب :

« ذُكِرَ الْأَنَامُ لَنَا فَكَانَ قَصِيدَةً كُنْتَ الْبَدِيعَ الْفَرْدَ مِنْ أَيْيَاتِهَا . »

فَكَدَمْتَ فِي غَيْرِ مَكْدَمٍ ^(٤) ، وَاسْتَسَمَنْتَ ذَا وَرَمٍ ^(٥) ، وَتَفَخَّتَ فِي غَيْرِ ضَرَمٍ ^(٦) ،

وَلَمْ تَجِدْ لِرِيحٍ مَهْزًا ، وَلَا إِشْفَرَةً مَحْزًا ، بَلْ رَضِيتَ مِنَ الْغَنِيمَةِ بِالْإِيَابِ ،

(١) العناصر : هي في رأى القدماء أربعة : النار ، والهواء ، والماء ، والتراب .

(٢) كل الصيد في جوف الفرا — مثل يضرب في وصف الشيء المرئى على غيره قالوا : « وأصله أن قومًا خرجوا للصيد فعاد أحدهم طليًا وآخر أرنبًا وآخر فرا ، وهو الحمار الوحشى ، فقال لأصحابه : كل الصيد في جوف الفرا — يعنى أن جميع صيدكم يسير في جيب ما صدته ، ورغم بعضهم أن الفرا اسم واد كثير الصيد وهو قول مردود ، وأما قول الشاعر :

« وواد كجوف العير قعر قطعته »

فليس من هذا وإنما أراد الوادى المعروف بجوف حمار ، وحمار اسم رجل قديم كان في واد خصيب فظلم عشيرته ، وأرسل الله عليه ناراً فأحرقت ، وأحرقت الوادى فظلموا وسكتة الجن فظلم : أحلى من جوف حمار ، وحجب يوماً أبو سفيان بن حرب عن النبي — صلى الله عليه وسلم — ثم أذن له فقال : « يا رسول الله ما كنت تأذن لى حتى تأذن لحجارة الجاهليين » فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « يا أبا سفيان

كل الصيد في جوف الفرا » . (٣) هذا البيت من قصيدة لأبى نواس في مدح الفصل بن يحيى .

(٤) كدمت في غير مكدم — عصمت في غير موضع للعص ، وهذا المثل يضرب لمن يطلب ما يعجز عنه .

(٥) في هذا إشارة إلى قول الشاعر :

« نالو ناراً نفخت بها أضواءت ولوكن أنت تنفخ في رماد

أفد أسمع — لو راديت حيا — ولوكن لا حياة لمن تنادى . »

(٦) يشير إلى قوله المنبى لسيف الدولة -مرضاً بأبى دراس :

« أعيذها نظرات منك صادقة أن تحسب الشحم فيمن لمه ورم . »

وَتَمَنَيْتَ الرُّجُوعَ بِخُفْيِ حُنَيْنٍ^(١) ، لِأَنِّي قُلْتُ :

« لَقَدْ هَانَ^(٢) مَنْ بَالَتْ عَلَيْهِ الثَّعَالِبُ . » وَأُنْشَدْتُ :

« عَلَى أَنِّهَا الْأَيَّامُ قَدْ صِرْنَ كُلُّهَا عَجَائِبَ ، حَتَّى لَيْسَ فِيهَا عَجَائِبُ^(٣) »

وَنَخَرْتُ^(٤) وَبَسَرْتُ^(٥) ، وَعَبَسْتُ فَكَفَرْتُ ، وَأَبْدَأْتُ وَأَعَدْتُ ، وَأَبْرَقْتُ

وَأَرَعَدْتُ^(٦) وَهَمَمْتُ وَلَمْ أَفْعَلْ وَكِدْتُ وَلَيْتَنِي ، وَلَوْلَا أَنَّ لِلْجَوَارِ ذِمَّةً ،

وَلِلضِّيَافَةِ حُرْمَةً ، لَكَانَ الْجَوَابُ فِي قَذَالٍ^(٧) الدُّمُسْتَقِ ، وَالنَّعْلُ^(٨)

(١) خفي حنين — مثل يضرب لمن يرجع بالحيلة — وكان حين دما يقولون إسكافا من أهل الحيرة ساومه أعرابي بخفين ولم يشد منه شيئاً فماظه ذلك فخرج عليه وعلق أحد الحفين على شجرة في طريقه وتقدم قليلاً وطرح الآخر وكن ، فجاء الأعرابي فرأى أحد الحفين فوق الشجرة ، فقال « ما أشبه هذا بخفي حنين لو كان معه آخر لتكلفت أخذه » ثم تقدم قليلاً فرأى الحف الآخر مطروحاً فزله وعقل بعيره فأخذه ورجع ليأخذ الأول فخرج حنين من المسكن وأخذ بعيره وذهب ورجع الأعرابي إلى أخيه بخفي حنين .

(٢) لقد هان من بالت عليه الثعالب — شطر بيت هو :

« أرب يقول الثعلبان برأسه لقد هان من بالت عليه الثعالب . »

قاله رجل من بني سليم كان يعبد صنماً ، فرأى ذات يوم ثعلباً يقول على الصنم مكسره وأنشد هذا البيت وذهب إلى النبي — صلى الله عليه وسلم — فأسلم .

(٣) البيت لأبي تمام من قصيدة رثاء ، منها قوله :

وقلت : « أخى » قالوا « أخ ذو قرابة » ؟ فقلت لهم : « إن الشكول أقارب »

صديقي في رأي وعزى ومذهبي وإن باعدتنا في الأصول المناسب

عجبت لصبري بعه — وهوميت — وكنت اسرءأ أبكى دماً وهو غائب

على أنها الأيام قد صرن كلها عجائب حتى ليس فيها عجائب . »

(٤) نخرت — النخير صوت الأنف عند الغضب .

(٥) والبسر — الاستعداد بالشئ ، قبل أوامره . وهو في قوله تعالى : « عيس وبسر » معناه أظهر

المبوس قبل أوامره . (٦) الأبراق والأرصاد — كناية عن التمهيد وأصلها من البرق والرعد . قال الشاعر :

« فقل للسما : ارفعدى وابرق فانا وصلنا إلى المنزل . »

(٧) أى لفعلت بهذه المرأة التي أرسلتها رسولاً من قبلك — لولا حرمة الصباغة — فمل سيف الدولة بالدمستق ،

وهو لقب يطلق على كل قائد من قواد جيش الروم ، وقد هزمه سيف الدولة وأشار المتنبى إلى ذلك بقوله :

« وكنت إذا كاتبته قبل هذه كُتبت إليه في قذال الدمستق . »

(٨) مثل تضربه العرب وقد ضمنه أحد الشعراء قوله :

« إن عادت العقرب عدنا لها وكانت النمل لها حاضرة . »

حَاضِرَةٌ إِنْ قَادَتِ الْعَقْرَبُ ، وَالْعُقُوبَةُ مُمَكِّنَةٌ إِنْ أَصَرَ الْمَذْنِبُ ، وَهَبَهَا لَمْ
تَلَا حِظَّكَ بِعَيْنِ كَلِيلَةٍ عَنْ عُيُوبِكَ ، مَلَأَهَا حَبِيبُهَا ^(١) ، حَسَنٌ فِيهَا ^(٢) مَنْ تَوَدَّ
وَكَانَتْ إِمَامًا حَلَّتْكَ بِحُلَاكَ ، وَوَسَمَتْكَ بِسِيمَاكَ ، وَلَمْ تُعْرِكَ شَهَادَةً ، وَلَا
تَكَلَّفَتْ لَكَ زِيَادَةً ، بَلْ صَدَقَتْ سِنَّ بِكْرِهَا فِيمَا ذَكَرْتَهُ عَنْكَ ، وَوَضَعَتْ
الْهَنَاءَ مَوَاضِعَ النُّقَبِ ^(٣) بِمَا نَسَبْتَهُ إِلَيْكَ ، وَلَمْ تَكُنْ كَاذِبَةً فِيمَا أَثْنَتَ بِهِ
عَلَيْكَ ، فَلَا مَعْيِدِي ^(٤) تَسْمَعُ بِهِ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَرَاهُ :

هَجَيْنُ الْقَذَالِ ^(٥) ، أُرْعَنُ ^(٦) السَّبَالِ ، طَوِيلُ الْعُنُقِ وَالْعِمْلَاوَةِ ^(٧) ، مُفْرِطُ الْحُمُقِ
وَالْعَبَاوَةِ ، جَافِي الطَّبْعِ ، سَيِّئُ الْجَابَةِ وَالسَّمْعِ ، بَغِيضُ الْهَيْئَةِ ، سَخِيفُ الذَّهَابِ
وَالْجَيْئَةِ ، ظَاهِرُ الْوَسْوَاسِ ، مُذْنِبُ الْأَنْفَاسِ ، كَثِيرُ الْمَعَايِبِ ، مَشْهُورُ الْمَثَالِبِ :

(١) إشارة إلى قول المتن :

« أهابك إحلالاً ، ومابك قدرة على ، ولكن ملء عين حبيبها . »

(٢) في هذا إشارة إلى قول عمر بن أبي ربيعة :

ولقد قال الجارات لها وتمرت - ذات يوم - تبرد
أكما يعني تبصري - عمر كل الله - أم لم يقتصد؟
فتباحكن وقد قلن لها : « حسن في كل دين من تود . »

(٣) الهناء : القطران ، واللق : الجرب ، وهذا المثل يضرب لمن يضع الأمور في مواضعها ، وهو نصف

بيت لأبي زيد بن العمة في الخساء وهو :

« متدلاً تبدو محاسنه يصم الهناء مواضع النقاب . »

(٤) مثل يضرب لمن يكون شبيه خبيراً من منظره . قال النعمان لشقة بن سبرة ، وكان يعجبه ما يسمع

عنه ، فلما رآه استرعى منظره ، فقال النعمان : لأن تسمع بالمعدي خير من أن تراه .

فقال له : « أشرت ألعن إن الرجال ليسوا بحُرر ، وإنما يعيش المرء بأصديه قلبه ولسانه . »

(٥) القذال - جماع مؤخر الرأس ، وهجين القذال : أي خسيس الأصل . ولوا : « لأن الذي يعرف

لؤم نسبه إذا ولي طأطأ رأسه حياء ودلاً ، فكأن اللؤم يتبين من قتاله » وقيل « بل لكثرة انهزامه

في الحروب . »

(٦) أرعن : أحمق ، والسال : جمع سبلة وهي شعرة الشفة العليا وخصلت الرعونة بها لأنها علامة الرجل .

(٧) العلاوة - الرأس مادام على العنق ، وفي المراساة أن طول العنق والرأس من دلائل الجمالة .

كَلَامُكَ تَمْتَمَةٌ ، وَحَدِيثُكَ غَمْغَمَةٌ ، وَيَا أَيْكَ فَهْفَهَةٌ ، وَضَحِكُكَ قَهْقَهَةٌ ^(١) ،
وَمَشْيُكَ هَرَوَلَةٌ ، وَغِنَاكَ مَسْأَلَةٌ ، وَدَيْنُكَ زَنْدَقَةٌ ، وَعِلْمُكَ مَخْرَقَةٌ ^(٢) :
« مَسَاوٍ - لَوْ قَسِمْنَا عَلَى الْغَوَانِي - لَمَّا أَتَيْنَا إِلَّا بِالْإِطْلَاقِ ^(٣) »

حَتَّى إِنْ بَافِلًا ^(٤) مَوْصُوفٌ بِالْبَلَغَةِ إِذَا قُرِنَ بِكَ ، وَهَبَنَقَةٌ ^(٥) مُسْتَوْجِبٌ لِأَنْتُمْ
الْعَقْلِ إِذَا أُضِيفَ إِلَيْكَ ، وَطَوَيْسًا ^(٦) ، مَا تُورِثُهُ مِنْ الطَّائِرِ إِذَا قِيسَ عَلَيْكَ ،
فَوُجُودُكَ عَدَمٌ ، وَالْإِغْتِيَابُ بِكَ نَدَمٌ ، وَالْخَيْبَةُ مِنْكَ ظَفَرٌ ، وَالْجَنَّةُ مَمْلَكَةٌ
سَقَرٌ ، كَيْفَ رَأَيْتَ لَوْثُكَ لِكَرَمِي كِفَاءً ، وَضَعْتِكَ إِشْرَافِي وَفَاءً ، وَأَنْتِ
جَهَلْتِ أَنَّ الْأَشْيَاءَ إِنَّمَا تَنْجَذِبُ إِلَى أَشْكَالِهَا ، وَالطَّيْرُ إِنَّمَا تَقَعُّ عَلَى الْأَفْهَاءِ ،
وَهَلَّا عَلِمْتَ أَنَّ الشَّرْقَ وَالْغَرْبَ لَا يَجْتَمِعَانِ ، وَشَعَرْتَ أَنَّ الْمُؤْمِنَ وَالْكَافِرَ

(١) ذال الحاحط - التمه : التردد في الاء ، وانماأناه : التردد في الفاء ، والعتلة : الدواء اللسان عند
إرادة الكلام ، والحسنة تندر الكلام ، واللفف : لإدخال حرف في حرف ، والرتة تتبع الكلام ، فإذا
حاء منه بشيء اتصل ، وقبل المعجمة به ، والتمة أذ بعدل من حرف إلى حرف ، والغنة أن يشرب الحرف
صوت الحيشوم والحنة أشد منها ، واللكة أن يعترض الكلام حرف أعجمي ، والطمطمة أن يكون
الكلام شبيها بالمعجمي .

وأما الغممة فهي أن يسمع الصوت ولا يبين تقطيع الحروف - المهمة : التي في المطلق ، والقهقهة :
الضحك الشديد يستدلون به على قلة العقل .

(٢) الهرولة : بين المشي والعدو ، والمسألة : المقر ، والمحربة : نوع من الحرق ، الذي هو ضد الرق ،
ومنه يقال : المحراق وهو شيء يلبس به كأنه يخرج لأطهار الشيء بخلافه .
(٣) البيت لأنى تمام . (٤) باقل : مضرب المثل في العي .

(٥) هبة : مضرب المثل في الخلل وضعف العقل - قلوا : هو وضع دقدا في عقه علامة لعمه ثلثا يضع
قالوا : وراقه أخوه إلى أن نام ، فأخذ المقعد من عقه وجعل في عقه نفسه ، فلما انذه هبة ورأى أخاه ،
قال « أنت أنا ، وأنا ياترى ، من هو أنا » وهو جاهلي .

(٦) المعنى المالح المشهور ، وكان يسكن المدينة ، وهو أول من غي بها على الدف بالعربية ، وبضرب به
المثل في الشؤم ، لأنه ولد يوم مات النبي - صلى الله عليه وسلم - ، وودع يوم مات أبو بكر ، وحق يوم
فل عمر ، وتزوج يوم قتل عثمان ، وكانت أمه تسمى بالنخبة بين نساء الأنصار ، ونوادر شؤمه كثيرة
مشهورة في كتب الأدب .

لَا يَتَقَارَبَانِ ، وَقُلْتَ : « الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ لَا يَسْتَوِيَانِ » وَتَحَمَّلْتَ ^(١) :
« أَيُّهَا الْمُنْكَحُ الثَّرِيَا سُهَيْلًا عَمْرُكَ اللَّهُ كَيْفَ يَلْتَقِيَانِ ؟ »

وَذَكَرْتَ أَنِّي عَلِقْتُ لَأَيُّبَاعٍ ^(٢) مِمَّنْ زَادَ ، وَطَائُرٌ لَا يَصِيدُهُ مَنُ ارَادَ ، وَغَرَضٌ لَا يُصِيبُهُ إِلَّا مَنُ أَجَادَ . مَا أَحْسَبُكَ إِلَّا كُنْتَ قَدْ تَهَيَّأْتَ لِلتَّهْنِيَةِ ، وَتَرَشَّخْتَ لِلتَّرْفِيَةِ ! وَلَوْلَا أَنَّ جُرْحَ الْمَجْمَاءِ جُبَارٌ ^(٣) ، لَلَقَيْتَ مِنَ الْكَوَاعِبِ مَا لَاقَى يَسَارٌ ^(٤) ، فَهَاهُمْ إِلَّا بِبَعْضِ مَا بِهِ هَمَمْتَ ، وَلَا تَعَرَّضْ إِلَّا لِأَيْسَرِ مَا لَهُ تَعَرَّضْتَ ، أَيْنَ ادْعَاؤُكَ رَوَايَةَ الْأَشْعَارِ ، وَتَعَاطِيكَ حِفْظَ السَّيْرِ وَالْأَخْبَارِ ؟ أَمَا ثَابَ إِلَيْكَ قَوْلُ الشَّاعِرِ :

« بَنُو دَارِمٍ أَكْفَاؤُهُمْ آلٌ مِسْمَعٍ وَتُنْكَحُ فِي أَكْفَاهَا الْحَبَطَاتُ ؟ »

(١) البيت لعمر بن أبي ربيعة ، وعمرك الله بالصب بهما لأنه لم يرد القسم ، وإنما أراد سألت الله أن يطيل عمرك (بالفتح) أي حياتك ، وبعده قوله :

« هي شامية إذا ما استقلت وسهيل إذا استقل يمانى . »

(٢) الملقى : النفيس وهو من قصيدة للحريث بن قحطان التميمي كانت له فرس اسمها — سكاب — فأراد بعض ملوك اليمن أخذها منه فهرب بها وقال :

« أبيت اللعن إن سكاب علق نفيس لا تمار ولا تباع »

مفسدة مكرمة عاينا تجاع لها العيال ، ولا تجاع

فلا تطعم أبيت اللعن فيها ومنعكها شيء يستطاع . »

(٣) المجماء : البهيمة ، والحبار : الهدر ، والمعى : أن البهيمة إذا جرحت لادية لها ولا قصاص ، وهو مثل يضرب ، لمن يستهان به .

(٤) يسار : اسم عبد دميم أسود كان النساء يرينه فيضحكن منه لقبحه ويعسبن لشفته معجبات به حتى نظرت إليه بنت مولاة فضحكت فظن أنها رضيت له ، فقال لصاحب له أسود : « قد والله عفتني مولاتي » فلازرونها الليلة » فقال له صاحبه « يا يسار ، اشرب لبن العشار ، وكل لحم الحوار وإياك وبنات الأحرار » فقال له « والله مارأيتني حرّة إلا عفتني » فلما أمسى قال لصاحبه « احفظ على الأبل حتى أنصرف ، وأهود إليك » فهاه فلم ينته حتى دخل على بنت مولاة يراودها عن نفسها ، فقالت له « مكالك فان للحرائر طيباً ، أشمك إياه » فقال لها « هاتيه » فأتته بطيب وموسى قاطعة ، فأشمت الطيب ، ثم أنحت بالموسى على منه فقطعته ، فخرج هارباً حتى أتى صاحبه ودمه يسيل ، فضرب به المثل .

وَهَلَّا عَشِيتَ وَلَمْ تَعْتَرَّ ؟ وَمَا أَشْكُ أَنَّكَ تَسْكُونُ وَافِدَ الْبَرَاكِيمِ ^(١) ، أَوْ
تَرْجِعُ بِصَحِيفَةِ الْمُتَلَمِّسِ ^(٢) ، أَوْ أَفْعَلُ بِكَ مَا فَعَلَهُ عَقِيلُ بْنُ عُلْفَةَ بِالْجُهَنِيِّ ،
إِذَا جَاءَهُ خَاطِبًا فَدَهَنَ أَسْتَهُ بِزَيْتٍ وَأَذْنَاهُ مِنْ قَرِيَةِ النَّمْلِ ، وَمَتَّى كَثُرَ تَلَاَقِينَا
وَاتَّصَلَ تَرَاثِينَا ، فَيَدْعُونِي إِلَيْكَ مَادَعًا ابْنَةَ الْخَسِّ إِلَى عَبْدِهَا - مِنْ طَوْلِ السَّوَادِ ^(٣) ،
وَقُرْبِ الْوَسَادِ ؟ وَهَلْ فَقَدْتُ الْأَرَاقِمَ ^(٤) ؟ فَأَنْكِحْ فِي جَنْبِ ^(٥) ؟ أَوْ عَضَلَنِي
مَهْمَامُ بْنُ مُرَّةَ فَأَقُولَ : « زَوْجٌ مِنْ عَوْدٍ ، خَيْرٌ مِنْ قُعُودٍ ؟ »
وَلَعَمْرِي لَوْ بَلَغْتُ هَذَا الْمَبْلَغَ لَأَرْتَفَعْتُ عَنْ هَذِهِ الْحِطَّةِ ، وَلَأَرْضَيْتُ بِهِذِهِ الْحِطَّةِ ،
قَالَ النَّارُ ، وَلَا الْعَارُ ، وَالْمَنِيَّةُ ، وَلَا الدَّيْنَةُ ، وَالْحُرَّةُ تَجُوعُ وَلَا تَأْكُلُ بِشَدَائِنَا ^(٦) :

- (١) وافد البراجيم : هو رجل من بني تميم - والبراجيم حسنة من أولاد حنظلة - والعرب تصرب المثل بوافد
البراجيم لأن عمرو بن هند أحرق تسعة وتسعين رجلاً من بني تميم لثأر له عندهم ، وكان قد آلى أن يحرق
منهم مائة فبينما هو يلتمس بقية المائة إذ مرَّ رجل اسمه عمار فاشتتم رائحة القنار فظن أن الملك اتخذ طعاماً
فدخل إليه فقبل له « من أنت » فقال : « أنا وافد البراجيم » فألقى في النار .
- (٢) شاعر جاملي وفد هو وابن أخيه طرفة بن العبد على عمرو بن هند أحد ملوك الحيرة فنادماه وبينما طرفة
يعرب يوماً معه وفي يده جام من ذهب فيه شراب أشرفت أخت عمرو ، فراها طرفة فقال : « ألا بأبي الظبي
الذي تشرق شفتاه ، ولولا الملك القاعد أُلْهِمِي فاه » فسمعها عمرو فأسرهما في نفسه وهم يقتله ، ولكنه خاف
من هجاء التلمس ، فكتب لهما كتابين إلى حامل البحرين ، وقال : « إني كتبت لكما بصلة فاقبضاها
من حامل البحرين » فخرجا من عنده بالكتابين ، ومرت التلمس بفلام من أهل الحيرة ، فطلب إليه أن يقرأ
كتابيه فإذا فيه « إذا أتاك التلمس فاقطع يديه ورجليه واصلبه » فأقبل على طرفة فقال « والله لقد كتب لك
بمثل هذا ، فادفع كتابك إلى الفلام بقرؤه » فقال : « كلا ما كان لي جترى على قومي بمثل هذا » فألقى
التلمس صحيفته في نهر الحيرة وذهب طرفة فقتل .
- (٣) ابنة الخس امرأة جاهلية زنت بعبد لها ، فلما قرعوها وعيروها بفعلتها ولاموها عليها قالت لهم معشورة :
« لقد حملني على ذلك قرب الوساد ، وطول السواد » وهي تعني بطول السواد : طول السرار ، وفي الحديث :
« السواد من السحر » تقول : ساودته أي ساررتة ، أنظر « ص ١٩٨ » (٤) حتى من تغلب .
- (٥) حتى من اليمن ، وهو من شعر مهلهل التغلبي حين هرب وطالت عليه حرب اليبوس فزل في طريقه
على حتى من اليمن فخطبوا إليه ابنته فساقوا المهر وهو جلود من آدم وغصبوه على الزواج فقال :
- « أهزز على تغلب بما أقيت أخت بني الأكرمين من جشم
أنكحها فقدما الأرقام من جن ب وكان الحياء من آدم
لوباً بأباين جاء خاطبها ضرج ما أنف خاطب بدم . »
- (٦) هذه أمثلة لمن يفضل الهلاك على قبح الاحدوته .

فَكَيْفَ وَفِي أُنْبَاءِ قَوْمِي مَنَكْحٌ وَفَتَيَانِ هَزَّانِ الطَّوَالِ الْغَرَانِقَةِ^(١)

مَا كُنْتُ لَا تَخْطِي الْمِسْكَ إِلَى الرَّمَادِ ، وَلَا أَمْتَطِي الثَّوَرَ بَعْدَ الْجَوَادِ ، فَلَمَّا
يَتَيَّمُ مَنْ لَمْ يَحِدْ مَاءً ، وَيَرْعَى الْهَشِيمَ ، مَنْ عَدِمَ الْجَمِيمَ ، وَيَرْكَبُ الصَّغْبَ
مَنْ لَا ذُلُولَ لَهُ ، وَلَعَلَّكَ إِنَّمَا غَرَّكَ مَنْ عَلِمْتَ صَبَوْتِي إِلَيْهِ ، وَشَهِدْتَ
مُسَاعَفَتِي لَهُ ، مِنْ أَقْمَارِ الْعَصْرِ ، وَرِيحَانِ الْمَصْرِ ، الَّذِينَ هُمُ الْكُوكِبُ غُلُوْهُمُ
هِمُ ، وَالرِّيَاضُ طَيْبُ شَيْمِ :

«مَنْ تَلَقَّ مِنْهُمْ تَقُلْ لَا قِيَتُ سَيِّدَهُمْ مِثْلَ النُّجُومِ الَّتِي يَسْرِى بِهَا السَّارِي^(٢)»
حَنَّ قِدْحٌ لَيْسَ مِنْهَا ، مَا أَنْتَ وَهُمْ ، وَأَنْتَى تَقَعُ مِنْهُمْ ، وَهَلْ أَنْتَ إِلَّا وَאוُ
عَمْرٍو فِيهِمْ ، وَكَالْوَشِيظَةِ^(٣) فِي الْعَظَمِ يَنْتَهُمُ ، وَإِنْ كُنْتُ إِنَّمَا بَلَغْتَ قَعْرَ
تَابُوتِكَ ، وَتَجَافَيْتَ عَنْ بَعْضِ قُوَّتِكَ ، وَعَطَّرْتَ أَرْضَانِكَ ، وَجَرَرْتَ هِمْيَانَكَ ،
وَاخْتَلَّتْ فِي مِشْيَتِكَ ، وَحَذَفْتَ فُضُولَ لِحْيَتِكَ ، وَأَصْلَحْتَ شَارِبَكَ ،
وَمَطَطْتَ حَاجِبَكَ ، وَرَقَّقْتَ خَطَّ عَذَارِكَ ، وَاسْتَأْنَفْتَ عَقْدَ إِزَارِكَ ، رَجَاءُ
الْأَكْتِنَانِ فِيهِمْ ، وَطَمَعًا فِي الْأَعْتِدَادِ مِنْهُمْ ، فَظَنَنْتَ عَجْزًا ، وَأَخْطَأْتَ
اسْتِكَ الْحَفْرَةِ^(٤) ، وَاللَّهْلُو كَسَاكَ مُحَرَّقُ الْبُرْدَيْنِ^(٥) ، وَحَلَّتْكَ مَارِيَةٌ^(٦) بِالْقُرْطَيْنِ
وَقَلَّدَكَ عَمْرٍو وَالصَّمْصَامَةَ^(٧) ، وَحَمَلَكَ الْحَارِثُ عَلَى النَّعَامَةِ^(٨) ، مَا شَكَكَتُ فَيْكَ ،

(١) اسم قبيلة — والعراصة الشباب ، واللب للأعشى .

(٢) البيت للأرنؤس أحد بنى بكر بن كلاب .

(٣) قطعة العظم تكون زيادة في العظم الصميم — يقال ملان وشيطة في قومه أى حشو فيهم .

(٤) مثل يصرب لمن يطلب أسرا فيحطه ولا يناله . (٥) انظر ص « ٢٠٠ »

(٦) ابنة ظالم زوج الحارث الأكبر الساسى — وقد أهدت قرطها إلى الكعبة .

(٧) انظر ص « ٢٠٧ — ٢١٠ »

(٨) فرس الحارث بن عباد التغلبى من سادات بنى وائل .

وَلَا سَتَرْتَ أَبَاكَ، وَلَا كُنْتَ إِلَّا ذَاكَ، وَهَبَكَ سَامِعِيَّتَهُمْ فِي ذِرْوَةِ الْمَجْدِ
وَالْحَسْبِ، وَجَارِيَّتَهُمْ فِي غَايَةِ الظَّرْفِ وَالْأَدَبِ، أَلَسْتَ تَأْوِي إِلَى يَنْتِ
قَعِيدَتُهُ لِكَاعٍ ^(١)؟ إِذْ كُلُّهُمْ عَزَبٌ خَالِي الذَّرَاعِ، وَأَيْنَ مَنْ أَنْقَرِدُ بِهِ يَمْنُ
لَا غَلَبَ إِلَّا عَلَى الْأَقْلِ الْأَخْسِ مِنْهُ، وَكَمْ بَيْنَ مَنْ يَعْتَمِدُنِي بِالْقُوَّةِ الظَّاهِرَةِ،
وَالشَّهْوَةِ الْوَافِرَةِ، وَالنَّفْسِ الْمَصْرُوفَةِ إِلَى، وَاللَّذَّةِ الْمَوْقُوفَةِ عَلَى، وَبَيْنَ آخِرِ
قَدْ نَضَبَ غَدِيرُهُ، وَتَرَحَّتْ بِيرُهُ، وَذَهَبَ نَشَاطُهُ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا ضُرَاطُهُ،
وَهَلْ يَجْتَمِعُ لِي فِيكَ إِلَّا الْحَشْفُ وَسُوءُ الْكَيْلَةِ ^(٢)، وَيَقْتَرِنُ عَلَى بَيْتِكَ إِلَّا
الْغُدَّةُ وَالْمَوْتُ فِي يَنْتِ سَلُولِيَةٍ ^(٣) :

تَعَالَى اللَّهُ يَا سَلَمُ بْنُ عَمْرٍو أَذَلَّ الْحِرْصُ أَعْنَاقَ الرَّجَالِ ^(٤)
مَا كَانَ أَخْلَقَكَ بِأَنْ تَقْدِرَ بِذِرْعِكَ، وَتَرْبَعَ بِذَلِكَ عَلَى ظَلَمِكَ، وَلَا تَكُنْ
بِرَاقِشٍ ^(٥) الدَّالَّةَ عَلَى أَهْلِهَا، وَعَنْزَ السُّوءِ الْمُسْتَشِيرَةَ لِحَتْفِهَا، فَمَا أَرَاكَ إِلَّا سَقَطَ
بَيْتِ الْعِشَاءِ عَلَى سِرْحَانٍ ^(٦)، وَبَيْتِكَ لَا بَطْئِي أَغْفَرَ ^(٧)، أَعْذَرْتَ إِنْ أَغْنَيْتَ شَيْئًا،
وَأَسْمَعْتَ لَوْ نَادَيْتَ حَيًّا ^(٨) .

(١) القعيدة : الروحة ، والكاع : الشيعة ، واليب للطيقة يقول :

« أَطْرَفَ مَا أَطْرَفَ ثُمَّ آوَى إِلَى بَيْتِ قَعِيدَتِهِ لِكَاعٍ . »

(٢) مثل يصرب في الحامين السيئين يجتمعان . قالوا أنه لعمر بن مديكرب ، والحشف أردأ التمر ،
والكيلة مصدر يدل على الهيئة .

(٣) وهي امرأة من سلول ، وهو مثل فله عامر بن الخليل عبد ماثوند النبي - صلى الله عليه وسلم -
فدعا عليه وقال : اللهم اكفني عامرا بما شئت ، فظهر في رقبته غدة مات منها وجعل يقول : « غدة كغدة
البعير ، وموت في بيت سلولية . » (٤) الدب لأبي العباسية . (٥) يشير إلى المثل (جنت
على أهلها براقش) (٦) الدب . (٧) مثل يصرب لاشمالة بالزل - أي نزل بك المكروه ولا
نزل بطي ، والأعفر الذي لونه لون الدباب . (٨) يشير إلى قول المعري :

« لَعْدَ أَسْمَعْتَ لَوْ نَادَيْتَ حَيًّا وَلَكِنْ لَا حَيَاةَ لِمَنْ تَنَادَى

وَنَارَ لَوْ سَمِعْتَ بِهَا أَصْأَاتٍ وَلَكِنْ أَنْتَ تَفْتَحُ فِي رَمَادٍ »

ولعله اقتبسها في قصيدته من شعر عمرو بن مديكرب .

إِنَّ الْمَصَا قُرِعَتْ لَدَى الْحِلْمِ وَالشَّيْءُ تَحْقِرُهُ وَقَدْ يَنْبَغِي^(١)
وَإِنْ بَادَرْتَ بِالنَّدَامَةِ ، وَرَجَعْتَ عَلَى نَفْسِكَ بِالْمَلَامَةِ ، كُنْتَ قَدْ اشْتَرَيْتَ
الْعَافِيَةَ لَكَ بِالْعَافِيَةِ مِنْكَ ، وَإِنْ قُلْتَ جَمْعَةً وَلَا طِخْنَ ، وَرُبَّ صَلَفٍ تَحْتَ^(٢)
الرَّاعِدَةِ ، وَأَنْشَدَتْ :

« لَا يُؤْيِسُنَا مِنْ مُخَذَّرَةٍ قَوْلُ تَغْلِظُهُ وَإِنْ جَرَحَا^(٣) . »

فَعُدْتُ لِمَا نُهَيْتَ عَنْهُ ، وَرَاجَعْتُ مَا اسْتَعْفَيْتَ مِنْهُ ، بَعَثْتُ مَنْ يُزْجِيكَ إِلَى
الْخَضِرَاءِ^(٤) دَفْعًا ، وَيَسْتَجِثُّكَ نَحْوَهَا وَكَزًّا وَصَفْعًا ، فَإِذَا صِرْتَ إِلَيْهَا عَبَثَ
أَكْغَارُهَا^(٥) بِكَ ، وَتَسَلَّطَ نَوَاطِيرُهَا عَلَيْكَ ، فَمِنْ قَرَعَةٍ مُعْوَجَةٍ تُقَوِّمُ فِي قَفَاكَ ،
وَمِنْ فُجْلَةٍ مُنْتَنَةٍ يُرْمَى بِهَا تَحْتَ خُصَاكَ ، ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ ، لِتَذُوقَ وَبَالَ
أَمْرِكَ ، وَتَرَى مِيزَانَ قَدْرِكَ :

فَمَنْ جَهَلَتْ نَفْسُهُ قَدْرَهُ رَأَى غَيْرَهُ مِنْهُ مَا لَا يَرَى^(٦)

(١) وهما مثلان يضربان في التحذير، وقد نظمهما الحارث بن ودة اليشكري ، وقد قتل بعض سادات قومه أخاه فقال :

« أفنك سادتنا - بلا ترقة -
ووطننا وطنا على جنف
وزعمت أنا لا حلوم لنا
لا تأمن قوماً ظلمتهم
ان يأبروا نخلا لميرهم
الآن لما ايمى مسريق
ترحو الأعداى أن أصلحها
قوى هم قتلوا أميم أخى
فلئن عفوت لأهفون جللا
إلا لنومن قوة العظم
وطه القبيد ثابت الهرم
ان المصا ترعت لدى الحلم
وبدأتهم بالشر والغشم
والشيء تحقره وقد ينمى
وعضمت من نابى على جذم
جهلا توهم صاحب الحكم
فاذا دميت يصيبنى سهمى
ولئن أصبت لأوهن عظمى . »

(٢) الجمجمة : صوت الرمح ، والطحن : الدقيق ، والصلف : قلة الخير والبركة ، وسحاب صلف : أى قليل الماء كثير
الرد ، وهما مثلان يضربان لمن يتوعد من غير أن يعمل . (٣) هذا البيت لبشار بن برد - وبعده قوله :
« عسر النساء إلى مياسرة - والصعب يركب بهما جحلا . »

(٤) الناحية : الزروعة من البلد ، والوكز : ضرب الظهر مع الدفع أو الضرب بمجتمع اليد على الذن .
(٥) الأكارون : الزارعون . (٦) البيت للمتنبي - من قصيدة في ذم كافور الاخشيدى وهجائه ، ومنها قوله :

« وقد كنت أحسب قبل الحظ
فلمّا نظرت إلى عقله
وجدت النهى كلها فى الخصى
فلمّا بزل قوم بأصنامهم
ي أن الرؤوس محل النهى
فلمّا بزل قوم بأصنامهم
فلمّا بزل قوم بأصنامهم
فلمّا بزل قوم بأصنامهم »

الرسالة الجدية لابن زيدون^(١)

« كتبها لابن جهور »

يَا مَوْلَايَ وَسَيِّدِي الَّذِي وَدَادِي لَهُ ، وَأَعْتَدَادِي عَلَيْهِ ، وَأَعْتِدَادِي بِهِ ،
وَأُمْتِدَادِي مِنْهُ ، وَمَنْ أَبْقَاهُ اللَّهُ مَاضِيَ حَدِّ الْعَزْمِ ، وَارِي زَنْدِ^(٢) الْأَمَلِ ، ثَابِتَ
عَهْدِ النِّعْمَةِ ، إِنْ سَلَبْتَنِي - أَعَزَّكَ اللَّهُ - لِبَاسِ نِعْمَاتِكَ ، وَعَظَّمْتَنِي مِنْ حُلَى
إِيْنَاسِكَ ، وَأَظْمَأْتَنِي إِلَى بَرُودِ^(٣) إِسْمَافِكَ ، وَنَفَضْتَ بِي كَفَّ حِيَاطَتِكَ ،
وَعَضَضْتَ^(٤) عَنِّي طَرَفَ^(٥) حِمَايَتِكَ ، بَعْدَ أَنْ نَظَرَ الْأَعْمَى إِلَى تَأْمِيْلِي لَكَ ،
وَسَمِعَ الْأَصَمُّ ثَنَائِي عَلَيْكَ^(٦) ، وَأَحَسَّ الْجَمَادُ بِأَسْتِحْمَادِي إِلَيْكَ - فَلَا غَرَوْ
قَدْ يَغْصُ بِالْمَاءِ شَارِبُهُ ، وَيَقْتُلُ الدَّوَاهُ الْمُسْتَشْفَى بِهِ ، وَيُوْتِي الْحَذِرُ مِنْ
مَأْمَنِهِ ، وَتَكُونُ مَنِيَّةُ الْمُتَمَنَّى فِي أُمْنِيَّتِهِ^(٧) ، وَالْحَيْنُ قَدْ يَسْبِقُ جَهْدَ
الْحَرِيصِ^(٨) :

كُلُّ الْمَصَائِبِ قَدْ تَمُرُّ عَلَى الْفَتَى وَتَهْوُنُ غَيْرَ شِمَاتَةِ الْحَسَادِ
وَإِنِّي لَا تَجَلَّدُ ، وَارِي الشَّامِتِينَ أَنِّي لِرَيْبِ الدَّهْرِ لَا أَتَضَمُّعُ^(٩) ، فَأَقُولُ :

(١) ارجع إلى « ص ٤٩ » (٢) الزند : الزناد ، ووري الزند هو اقتداحه وحروج النار منه .

(٣) برود : بارد . (٤) عضضت : حففت .

(٥) طرف : عين . (٦) يشير إلى قول المتنبي :

« أنا الذي نظر الأعشى إلى أدنى وأسمعت كلماتي من به صمم . »

(٧) فيما يؤمله ويتمناه .

(٨) الحين : الهلاك ، والجهد : الطاقة ، وهذا مثل من أمثال العرب مشهور . قال عدي بن زيد :

« قد يدرك المطى من حظه - والحين قد يسبق جهد الحريص . »

(٩) يشير إلى قول أبي ذؤيب الهذلي :

« وتجلدى للشامتين أريهم - أنى - لرب الدهر - لا أتضعع . »

وقد تمثل به معاوية قبيل وفاته .

هَلْ أَنَا إِلَّا يَدُ أَدَمَاهَا سِوَارُهَا ^(١) ، وَجَبَيْنِ عَضَّ بِهِ إِكْلِيلُهُ ^(٢) ، وَمَشْرِفِي ^(٣)
الْصَقَّةُ بِالْأَرْضِ صَاقِلُهُ ، وَسَمَهْرِي ^(٤) عَرَضُهُ عَلَى النَّارِ مُثَقَّفُهُ ، وَعَبْدُهُ ذَهَبَ
بِهِ سَيِّدُهُ مَذْهَبَ الَّذِي يَقُولُ :

« فَقَسَا لِيَزْدَجِرُوا وَمَنْ يَكُ حَازِمًا فَلْيَقْسُ أَحْيَانًا عَلَى مَنْ يَرْحَمُ ^(٥) »
هَذَا الْعَتَبُ مُحَمَّدٌ عَوَاقِبُهُ ، وَهَذِهِ النَّبُوءَةُ ^(٦) غَمْرَةٌ ^(٧) ثُمَّ تَنْجَلِي ، وَهَذِهِ
النَّكْبَةُ سَحَابَةٌ صَيِّفٌ عَنْ قَلِيلٍ تَقْشَعُ ^(٨) ، وَلَنْ يَرِيْبَنِي مِنْ سَيِّدِي أَنْ
أَبْطَأَ سَيِّبُهُ ^(٩) ، أَوْ تَأَخَّرَ - غَيْرَ صَنِينَ - غَنَاؤُهُ ^(١٠) ، فَأَبْطَأُ الدَّلَاءُ فَيَضَا
أَمْلُوْهَا ^(١١) ، وَأَثْقَلُ السَّحَابُ مَشِيًّا أَحْفَلُهَا ^(١٢) ، وَأَنْفَعُ الْحَيَا مَا صَادَفَ ^(١٣)
جَذْبًا ، وَالَّذُ الشَّرَابِ مَا أَصَابَ غَدِيلًا ^(١٤) ، وَمَعَ الْيَوْمِ غَدٌ ، وَلِكُلِّ أَجَلٍ

(١) السوار : نوع من الخيل يلبس في الساعد ، وقريب من هذا قول المتنبي :

« يو كعب - وما أثرت فيهم - يد - لم يدمها إلا السوار
لها - من قطعه - ألم ونفس ، وفيها - من جلالته - افتحار . »

(٢) الأكليل : التاج . (٣) المشرفي : السبب .

(٤) السمهري : الرمح .

(٥) البيت لأني تمام ، وقريب من هذا المعنى قول المعري :

« اضرب وايدك - تأدياً على رث - ولا نقل هو طبل عسير ستعلم
درب شق برأس جر منفعة ، وقس على شق رأس السيف والقلم . »

(٦) النبوة : الجفوة . (٧) الغمرة : الشدة . قال الشاعر :

« وما هي إلا غمرة ثم تنجلي سريعاً وإلا نبوة تنصرم . »

(٨) مثل عربي : يشير إلى أن العسر سيقع به اليسر بعد قليل .

(٩) سيبه : جوده أو عطاؤه . (١٠) غناؤه : خيره أو نفعه .

(١١) مثل عربي ، يقولون : « لعل أبطأ الدلاء أملؤها » وقد اشتق هذا المعنى في إحدى

مقاماته ، ومعناه إن أبطأ الدلاء في العمود هي الدلاء المثلثة بالماء .

(١٢) أحفلها : أكثرها ماء .

(١٣) الحيا : الغيث أو المطر .

(١٤) الغليل : شدة العطش .

كِتَابٌ ، لَهُ الْحَمْدُ عَلَى اهْتِبَالِهِ ^(١) ، وَلَا عَتَبَ عَلَيْهِ فِي إِغْفَالِهِ ^(٢) :
« فَإِنْ يَكُنِ الْفِعْلُ - الَّذِي سَاءَ - وَاحِدًا ، فَأَفْعَالُهُ - اللَّاتِي سَرَرْنَ - الْوُف . »

وَأَعُودُ فَأَقُولُ :

« مَا هَذَا الذَّنْبُ الَّذِي لَمْ يَسْعُهُ عَفْوُكَ ، وَالْجَهْلُ الَّذِي لَمْ يَأْتِ مِنْ وَرَائِهِ حِلْمُكَ ،
وَالْتَّطَاوُلُ ^(٣) الَّذِي لَمْ يَسْتَغْرِقْهُ تَطَوُّلُكَ ، وَالتَّحَامُلُ الَّذِي لَمْ يَفِ بِهِ أَحْتِمَالُكَ ،
وَلَا أَخْلُو مِنْ أَنْ أَكُونَ بَرِيثًا ، فَأَيْنَ الْعَدْلُ ؟ أَوْ مُسِيئًا ، فَأَيْنَ الْفَضْلُ ؟ »
إِلَّا يَكُنْ ذَنْبٌ فَعَمَلُكَ وَاسِعٌ أَوْ كَانَ لِي ذَنْبٌ فَفَضْلُكَ أَوْسَعُ ^(٤)
حَنَانِيكَ ^(٥) قَدْ بَلَغَ السَّيْلُ الزُّبْيَ ^(٦) ، وَنَالَني مَا حَسَنِي بِهِ وَكَفَى ، وَمَا أَرَانِي
إِلَّا أُمِرْتُ بِالسَّجُودِ لِآدَمَ ^(٧) فَأَبَيْتُ وَأُسْتُكْبِرْتُ ، وَقَالَ لِي نُوحٌ ^(٨) :
« أَرْكَبْ مَعَنَا » فَقُلْتُ : « سَأَوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِيُنِي مِنَ الْمَاءِ » وَأُمِرْتُ

(١) اهْتِبَالُهُ : اغْتِنَامُهُ .

(٢) إِغْفَالُهُ : قَنَاضِيهِ وَتَعَادُلُهُ .

(٣) التَّطَاوُلُ : التَّكْبِيرُ ، وَالطَّوْلُ : التَّمْضِيلُ ، وَالتَّحَامُلُ : السَّكَيْفُ بِمَا لَا يَطَاقُ ، وَالْإِحْتِمَالُ : هُوَ الْقُدْرَةُ عَلَى الْجَلِّ .

(٤) الْبَيْتُ الْأَوَّلُ لَا تَرَى ، وَالثَّانِي مَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِ الشَّاعِرِ :

« هَبْنِي طُلُومًا بِنُفْسِهِ بِمَسَامَةٍ قَصَاصًا وَأَيْنَ الْأَحْذِيَاغِزِ بِالْفِصْلِ ؟ » .

(٥) حَنَانِيكَ : رَحْمَتُكَ وَهُوَ مَثْنَى كَلِمَةِ حَنَانٍ .

(٦) الزُّبْيُ : جَمْعُ زُبْيَةٍ وَهِيَ الْحَفْرَةُ فِي مَكَانٍ مَرْتَفِعٍ لَا يَمْلُوهُ الْمَاءُ تَحْفَرُ لاصِيدِ الْأَسَدِ ، فَإِذَا وَصَلَ إِلَيْهَا السَّيْلُ كَانَ سَيْلًا عَظِيمًا لَا عَهْدَ لِلنَّاسِ بِهِ ، وَهُوَ مِثْلُ يَضْرِبُ لِلشَّيْءِ بِرَبِي عَلَى عَايِهِ .

(٧) يُشِيرُ إِلَى اسْتِكْبَارِ الْإِبْلِيسِ عَنِ السَّجُودِ لِآدَمَ حِينَ أَمَرَهُ اللَّهُ بِذَلِكَ مَعَمَّاهُ وَحَقَّتْ عَلَيْهِ الْعَنَةُ ، وَفَضَّلَ نَفْسَهُ عَلَيْهِ لِأَنَّهُ مِنْ نَارٍ وَآدَمُ مِنْ طِينٍ ، وَتَمَّ أَشَارُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ إِلَى ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : « مَسْحَدُوا إِلَّا لِبَيْتِ أَبِي وَاسْتَكْبَرُ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ » .

(٨) يُشِيرُ إِلَى قِصَّةِ نُوحٍ حِينَ فَاضَ الطَّرْقَانُ ، وَرَكِبَ السَّفِينَةَ هُوَ وَمِنْ مَعَهُ وَحَالَتُهُ ابْنُهُ وَعَصَاهُ فَهَلَكَ ، وَتَمَّ أَشَارُ الْكِتَابِ الْكَرِيمِ إِلَى ذَلِكَ فِي قَوْلِ نُوحٍ : « يَا بَنِيَّ أَرْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مِنَ الْكَافِرِينَ » وَقَوْلِ ابْنِهِ : « سَأَوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِيُنِي مِنَ الْمَاءِ » .

بِنَاءِ الصَّرْحِ ^(١) لَعَلِّي أُطْلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى ، وَعَكَفْتُ عَلَى الْعِجْلِ ^(٢) ، وَأَعْتَدْتُ فِي السَّبْتِ ^(٣) ، وَتَعَايَيْتُ ^(٤) فَمَقَرْتُ ^(٥) ، وَشَرَبْتُ مِنَ النَّهْرِ الَّذِي أَبْتُلِي بِهِ جُيُوشُ « طَالُوت » ^(٦) ، وَقَذْتُ الْفِيلَ لِأَبْرَهَةَ ^(٧) ، وَعَاهَدْتُ قُرَيْشًا عَلَى مَا فِي الصَّحِيفَةِ ^(٨) ، وَتَأَوَّلْتُ فِي بَيْعَةِ الْعُقْبَةِ ^(٩) ، وَتَفَرْتُ إِلَى الْعَيْرِ بِمَذَرٍ ، وَأُنْخَذْتُ بِثَلَاثِ النَّاسِ يَوْمَ أُحُدٍ ^(١٠) ، وَتَخَلَّفْتُ عَنْ صَلَاةِ الْمَصْرِ فِي

(١) الصرح : القصر - يشير إلى قصة فرعون وهي مدكورة في الكتاب الكريم حين قال : « يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحاً » .

(٢) يشير إلى عجل بني إسرائيل الذي عبده .

(٣) يشير إلى قصة بني إسرائيل حين نبوا عن الصيد في يوم السبت فخالفوا ما نبوا عنه ، لحق بهم العذاب

(٤) تعاييت : أي قتت على أطراف أصابع رجلي ورفعت يدي وضربت .

(٥) عقرت : قتلت يقال عقر العير بالسيف أي ضربت قوائمها به وهو يشير بذلك إلى ناقة صالح وذنبت

من عقرها ، وإلى الآية الكريمة : « فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها »

(٦) يشير إلى الذنب الذي اقترفه حيش « طالوت » عليه السلام ، وإلى الآية : « إن الله مبتليكم بنهر

فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فانه مني إلا من اغترف غرفة بيده » ولكن أكثرهم خالفه وشرب

منه فوقعوا في الاثم ، قال أبو العلاء :

« سقيا لدحلة والدنيا مفرقة حتى يعود اجتماع النجم تشقينا

وبعدها لا أريد الشرب من نهر كأنما أنا من أصحاب طالوتا »

(٧) يشير إلى قصة أبرهة عامل اليمن من قبل النجاشي حين ذهب لهدم الكعبة ومعه الفيلة لمضيه عليها

إذ بي كيسة في صنعاء اليمن ليحج إليها الناس بدل الكعبة فلم يمتوا بها وتوطر رجل فيها وأحرقها بمص نجار

اليمن ، وغضب النجاشي من ذلك ، وأمر أبرهة عامل اليمن بدمها واقعة مدكورة في الكتاب الكريم

« ألم تر إلى ربك كيف جعل بأصحاب الفيل * ألم تركبهم في تصليل * وأرسل عليهم طيراً أبابيل * تردهم

بحجارة من سجيل * فجعلهم كعصف مأكول . » وقد أشار للمعنى إلى هذه القصة في لزومياته بقوله :

« حديث جاء عن قايي - ل - في الدهر - وهابيل

وطير عكفت يوماً على الجيش أبابيل

مضى نرحل عن دنيا تزيد العقل تخيلاً . »

(٨) يشير إلى الصحيفة التي كتبها قريش وعلقوها في الكعبة يقررون فيها مقاطعة النبي - صلى الله

عليه وسلم - وشارية الاسلام بعد أن رأوا إسلام عمر وحزرة الذي اعتز بها الدين .

(٩) نقض بيعة العقبة : مخالفة الاجماع والشذوذ عن :جة الصواب .

(١٠) يشير إلى واقعة « أحد » حين انخذل ابن سلول هو ومن معه من المنافقين ورجعوا

بثلاث الجيش .

بَنِي قُرَيْظَةَ ^(١) ، وَجِئْتُ بِالْإِفْكِ ^(٢) عَلَى عَائِشَةَ الصَّدِيقَةِ ، وَأَنْفَتُ مِنْ
إِمَارَةِ أُسَامَةَ ^(٣) ، وَزَعَمْتُ أَنَّ بَيْعَةَ أَبِي بَكْرٍ ^(٤) كَانَتْ فُلْتَةً ، وَرَوَيْتُ
رُحْيِي مِنْ كَتِيبَةِ خَالِدٍ ^(٥) ، وَمَزَّقْتُ الْأَدِيمَ ^(٦) الَّذِي بَارَكْتَ يَدُ اللَّهِ عَلَيْهِ ،
وَضَحَّيْتُ بِالْأَشْمَطِ ^(٧) الَّذِي عُنُوَانُ السُّجُودِ بِهِ ، وَبَذَلْتُ لِقَطَامٍ ^(٨) .
« ثَلَاثَةَ آلَافٍ وَعَبْدًا وَقَيْنَةً وَضَرْبَ عَلِيٍّ بِالْحُسَامِ الْمُسَمَّمِ »

(١) بنو قريظة : طائفة من اليهود وقد أسر النبي — صلى الله عليه وسلم — أصحابه بعد عودته من غزوة الحديق أن يصلوا المعبر في بني قريظة يعني بذلك أن يسرعوا في الذهاب إليهم .

(٢) تشير إلى جريمة مسطح وحسان في حادثة الإفك ، وهي اتهام عائشة زوج النبي — صلى الله عليه وسلم — حين كانت عائدة من غزوة بني المصطلق ونزات من اليهود لقصاء حاجتها وسار أصحاب الرسول — صلى الله عليه وسلم — من غير أن يتفقوا عائشة ، وكانت قد تخلعت عن الركب ، ومرت بها صفوان وكان متحلفاً عن الركب فأركبها على جله ، ولما وصلا أشاع أعوان السوء عنها ما أشاعوه ، ثم برأها القرآن ، وأظهر طهارتها ، وألجم أهل الإفك والبهتان .

(٣) يشير إلى تولية النبي — صلى الله عليه وسلم — أسامة بن حارثة قيادة الجيش الذي ذهب إلى الشام وإلى تعالى بعض المهاجرين ، وأنفتم من إمارته ، وغضب الرسول — صلى الله عليه وسلم — عليهم وتقربهم إليهم ، وصعدوه المنبر وهو طاسب رأسه لمرضه .

(٤) يشير إلى رأى الشيعة في أن علي بن أبي طالب كان أجدر بالخلافة من أبي بكر وعمر ، وأن أبا بكر قد اختلسها لنفسه اختلاساً .

(٥) يشير إلى ملك أبي شجرة السامي في بعض حروب الردة بجيش خالد بن الوليد .

(٦) يشير إلى أديم «عمر» أي حبله الذي مرّقه أبو لؤلؤة الخوصي حين قتله ، ويشير إلى قول الشاعر في رثائه :
« جزى الله خيراً من إمام ، وباركت يد الله في ذاك الأديم المذرق . »

(٧) يعني بالأشمت : عثمان بن عفان ، وهو يشير إلى قول حسان بن ثابت في رثائه :

« ضحوا بأشمت ، عنوان السجود به ، يقطع الليل تسبيحاً وقرآناً . »

(٨) قطام : اسم امرأة أغرت عبد الرحمن بن ملجم قتل علي ومرضته ، هراً لها ، فأجابه إلى ما طلبت ، وبلى هذا البيت قوله :

« ملامهر أغلى من علي — وإن علا — ولا فك إلا دون فك ابن ملجم . »

وقد أشار البعثرى إلى ذلك أبدع إشارة حين قال :

« ولا عجب للأسد إن طفرت بها كلاب الأعادي من فصيح وأعجم »

خربة وحشى سقت حمزة الردى ، وموت علي من حسام ابن ملجم .

وَكَتَبْتُ إِلَى عَمْرِو بْنِ سَعْدٍ : « أَنْ جَمَعِجِ^(١) بِالْحُسَيْنِ » وَتَمَثَّلْتُ عِنْدَ مَا بَلَغَنِي مِنْ وَقْعَةِ الْحَرَّةِ^(٢) :

« لَيْتَ أَشْيَاخِي - بِيَذِرَ - عَلِمُوا جَزَعَ الْخَزَرَجِ مِنْ وَقْعِ الْأَسْلِ »
وَرَجَعْتُ الْكُعْبَةَ ، وَصَلَبْتُ الْعَائِذَ عَلَى الثَّنِيَّةِ^(٣) ، لَكَانَ - فِيمَا جَرَى عَلَى -
مَا يَحْتَمِلُ أَنْ يَسْمَى نَكَالًا ، وَيُدْعَى - وَلَوْ عَلَى الْمَجَازِ - عِقَابًا .
« وَحَسْبُكَ مِنْ حَادِثٍ بِأَمْرِي تَرَى حَاسِدِيهِ لَهُ رَاحِمِينَ ! »

فَكَيْفَ وَلَا ذَنْبَ إِلَّا نَعِيمَةً أَهْدَاهَا كَاشِحُ^(٤) ، وَنَبَأُ جَاءَ بِهِ فَاسِقُ .
وَهُمُ الْهَمَّازُونَ الْمَشَاءُونَ^(٥) بِنَعِيمٍ ، وَالْوَاشُونَ الَّذِينَ لَا يَلْبَثُونَ أَنْ يَصْدَعُوا
الْعَصَا ، وَالْفَوَاةُ^(٦) الَّذِينَ لَا يَتْرُكُونَ أَدِيمًا^(٧) صَحِيحًا ، وَالسَّعَاةُ^(٨) الَّذِينَ
ذَكَرَهُمُ الْأَخْنَفُ بْنُ قَبَسٍ فَقَالَ : « مَا ظَنُّكَ بِقَوْمٍ ، الصَّدَقُ مَحْمُودٌ إِلَّا مِنْهُمْ »
« حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيبةً ، وَلَيْسَ - وَرَاءَ اللَّهِ - الْمَرْءُ مَذْهَبُ »
وَاللَّهِ ، مَا غَشَشْتُكَ بَعْدَ النَّصِيحَةِ ، وَلَا أَخْرَفْتُ عَنْكَ بَعْدَ الصَّاعِغَةِ^(٩) ، وَلَا
نَصَبْتُ لَكَ^(١٠) بَعْدَ التَّشْيِيعِ ، وَلَا أَزْمَعْتُ يَأْسًا مِنْكَ مَعَ ضَمَانٍ تَسْكُفَلْتُ بِهِ

(١) يشير إلى تحرير عبيد الله بن زياد على قتل الحسين حين أرسل عمر بن سعد لقتله وأتبعه شمر وأمر عبيد الله عمرو بن سعد أن يجمع الحين أي يسيق عليه الخناق .

(٢) وقعة الحرّة — يشير إلى موقعة يزيد بن معاوية حين أرسل عقبة بن مسلم لمحاربة أهل المدينة وإباحتها ثلاثة أيام ، ولما تمّ إبعاد ذلك تمثّل بقول ابن الربري : « ليت أشياخي الخ . »

(٣) يشير إلى دحر الحاج الكعبة بالمنجنيق وصلبه عند الله بن الربيع وهو يعنيه بالعائد أي المنجنيق ، والثنية : طريق العقبة . (٤) الكاشح : العدو .

(٥) الهمازون : الذين يكترون الهمر وهو العيبة ، والمشاءون : الذين يكترون السمي بين الناس بالنعيمة . (٦) الفواة : جمع فار وهو المسلول . (٧) الأديم الجلد .

(٨) السعاة : الذين يسعون بين الناس بالفساد . (٩) الصاعغة : صاعغة الرجل خاصته الدين صفون إليه ويفشون مجلسه . (١٠) ولا نصبت لك : عاديتك .

الثَّقةُ عَنْكَ ، وَعَهْدٌ أَخَذَهُ حُسْنُ الظَّنِّ عَلَيْكَ . فَفِيمَ عَبَثَ الْجَفَاءِ بِأَذِمَّتِي ^(١) ،
وَعَلَتْ الْعُقُوقُ فِي مَوَاتَانِي ، وَتَمَكَّنَ الضِّيَاعُ مِنْ وَسَائِلِي ؟ وَلِمَ ضَاقَتْ
مَذَاهِبِي ، وَأَكْدَتْ مَطَالِبِي ؟ وَعَلَامَ رَضِيتُ مِنَ الْمَرْكَبِ بِالتَّعْلِيقِ . بَلْ
مِنَ الْغَنِيمَةِ بِالْإِيَابِ ^(٢) ؟ وَبِأَنْ غَلَبَنِي الْمُغْلَبُ ^(٣) ، وَفَخَرَ عَلَى الْعَاجِزِ الضَّعِيفُ ،
وَلَطَمَنِي غَيْرُ ذَاتِ سِوَارٍ ^(٤) ؟ وَمَا لَكَ لَمْ تَمْنَعْ مِنْ قَبْلِ أَنْ أُفْتَرَسَ ، وَتُذْرِكُنِي
وَلَمَّا أُمِرْتُ ^(٥) ؟ أَمْ كَيْفَ لَا تَتَضَرَّمُ جَوَانِحُ الْأَكْفَاءِ ^(٦) حَسَدًا لِي عَلَى الْخُصُوصِ
بِكَ ؟ وَتَتَقَطَّعُ أَنْفَاسُ النُّظَرَاءِ مُنَافَسَةً فِي الْكَرَامَةِ عَلَيْكَ ، فَكَيْفَ وَقَدْ
زَانِي قَدِيمُ خَدَمَتِكَ ، وَزَهَانِي وَسْمُ نِعْمَتِكَ ، وَأَبْلَيْتُ الْبَلَاءَ الْجَمِيلَ فِي
سِمَاطِكَ ^(٧) ، وَقُمْتُ الْمَقَامَ الْمَحْمُودَ عَلَى بِسَاطِكَ ؟

« أَلَسْتُ الْمُوَالِي فِيكَ غُرَّةً وَقَسَائِدِ هِيَ الْأَنْجُمُ اقْتَادَتْ - مَعَ اللَّيْلِ - أَجْمَا
ثَنَاهُ يَخَالُ الرُّوضُ مِنْهُ مَنُورًا ضَمًّا ، وَيُخَالُ الْوَشْيُ فِيهِ مُنَمَّنَا »

(١) الأداة : العهد والحرمان . (٢) ربيت من الغيمة بالاياب : مثل ضرب في القناعة بالسلامة
قال اسرو القيس :

« لقد طرقت في - الآفاق - حتى ربيت من الغيمة بالاياب . »

(٣) الملب : أي الضعيف . قال الشاعر :

« فإني لم يفتخر عليك كفاخر - ضعيف ولم يظك مثل • ملب . »

(٤) في المثل « لو ذات سوار لطمتي » ، يشير إلى ضعف المعتدي وحفارته والعادة أن السوار
لا تلبسه إلا الحرّة . قال الشاعر :

« بلاء ليس يعدله بلاء - عداوة غير ذي حسب ودين »

يبيحك منه عرساً لم يهره - وبرقع ملك في عرض • مدون . »

وقال المعري : « خف يا كريم على عرض نعره - لعائب ، فلتيم لا يقاس بك »

إن الزجاجة - لما حطمت - سبكت - وكم تحطم من در فا سبكا . »

(٥) وتذكرني ولما أمرت : يشير إلى قول المتنبي العدي ، وقد اشتهد به عثمان بن عفان في كتابه إلى علي :

« فإن كنت ما كولا فكن أنت آكلي - وإلا فأدركني ولما أمرت . »

(٦) الأكفاء : جمع كفاء وهو الذئب أي المثل .

(٧) السباط : الصف ، وقد مر بك قول ابن زيدون في ص « ١٤٤ »

« إذا ما استوى في الدست طاد حعوة ، وقام سباطا حقله على الصدر . »

أي صفا حقله .

وَهَلْ لَيْسَ الصَّبَاحُ إِلَّا بُرْداً طَرَزْتَهُ بِفَضَائِلِكَ ، وَتَقَلَّدْتَ الْجُوزَاءِ إِلَّا عِقْداً
فَصَلَّتُهُ بِمَآثِرِكَ ، وَأَسْتَمَلَى الرَّيِّعُ إِلَّا ثَنَاءَ مَلَأْتَهُ بِمَحَاسِنِكَ ، وَبَتَّ ^(١) الْمِسْكُ
الْأَحْدِيثَا أَدْعَتُهُ فِي مَحَامِدِكَ ؟ مَا يَوْمُ « حَلِيمَةَ » بِسَرٍّ ، وَإِنْ كُنْتُ لَمْ أَكُسْكَ
سَلِيماً ^(٢) ، وَلَا حَلِيَّتُكَ عَطْلاً ^(٣) ، وَلَا وَسَمْتُكَ غُفْلاً ، بَلْ وَجَدْتُ أَجْراً وَجِصاً ^(٤)
فَبَنَيْتُ ، وَمَكَانَ الْقَوْلِ ذَا سَعَةٍ فَقُلْتُ ، حَاشَ لَكَ أَنْ أُعَدَّ مِنَ الْعَامِلَةِ النَّاصِبَةِ ^(٥)
وَأَكُونَ كَالذُّبَالَةِ ^(٦) الْمَنْصُوبَةِ تُضِيءُ لِلنَّاسِ وَتَحْتَرِقُ ، فَلَكَ الْمَثَلُ الْأَعْلَى ، وَهُوَ
- بِكَ وَبِي - فِيكَ أَوْلَى ، وَلَعَنَرِي إِنْ صَرِيحَ الرَّأْيِ أَنْ أَتَحَوَّلَ ^(٧) إِذَا بَلَغْتَنِي
الشَّمْسُ وَنَبَا بِي الْمَنْزِلُ ، وَأَصْفَحَ عَنِ الْمَطَامِعِ الَّتِي تَقْطَعُ أَغْنَاكَ الرَّجَالِ .
فَلَا أَسْتَوْطِنُ الْعَجْزَ ، وَلَا أَطْمَئِنُّ إِلَى الْغُرُورِ . وَمِنْ الْأَمْثَالِ الْمَضْرُوبَةِ :
« حَامِرِي أُمَّ عَامِرٍ ^(٨) » وَإِنِّي مَعَ الْمَعْرِفَةِ أَنْ الْجَلَاءَ ^(٩) سِبَاهُ ^(١٠) وَالنُّقْلَةَ مُثَلَّةً ^(١١) :

(١) بَتَّ : بشر ، وقوله « ما يوم حليلة بسر » مثل يعسر - في كل أمر - تعال منهور ، وأصله أن
الحارث بن أبي شمر وحده حيثما إلى المنذر بن ماء السماء في العروة التي قتل فيها ، وأمر ابنته حليلة فأخرجت
لهم مركبا فيه خلق أي طيب ، فقال حلقهم نظروا إليهم ، فجعلت تحفه . وهي من أجل ساء عصرها ،
ومعنى القوم حتى أتوا المنذر ، فقالوا أنيناك من عند صاحبنا وهو يدين لك بالطاعة ويعطيك حاجتك ، فتباشر
المنذر بذلك ، وغفل المنذر وعسكره - مع الغفلة - فقتلوه ، وكان الحارث قد أوصاهم بذلك قبل أن
يوجههم إليه ، فعيل : ما يوم حليلة بسر - دعت مثلا .

(٢) السليبي : السلوب . (٣) العطل : العاطل . قال الطبراني :

« أصالة الرأي صانعي عن الخطل - وحليلة الغفل زانتي لدى العطل . »

(٤) الآخر : الطيب ، والحس : الخير . وقد تناول الكتاب والشعراء هذا المعنى ، ولكننا لم نقرأ أبداً
من قول أمير الشعراء في قصة قبيل على لسان وصيفة ملكة فارس :

« إني وسمعت ذها في بونقه ولم أصف - بالطيب - إلا زبقه »

وقلت عن شمس النهار : مشرقه .

(٥) يشير إلى قوله تعالى : « وحوه يومئذ حاشعة عاملة ناصية تصلي ناراً حامية . »

(٦) يشير إلى قول عباس بن الأحنف :

« صرت كائن ذبالة نصبت نضوء للناس وهي تحترق . »

(٧) في المثل « إذا بلغك الشمس فتحول » (٨) حامري أم طامر : مثل يضرب لمن عرف

الدنيا وتقلباتها ولم تمنحه معرفته أن يميل إليها ويفتر بها . قال البهاء زمير :

« حذعوك بالقول المحال ل نصح أمك أم طامر . »

(٩) الجلاء : الزوج عن الوطن . (١٠) السباه : الأسر . (١١) والنقطة : الكال .

«وَمَنْ يَغْتَرِبْ - عَنْ قَوْمِهِ - لَمْ يَزَلْ يَرَى مَصَارِعَ مَظْلُومٍ مَجْرًا وَمَسْجِدًا
وَتُدْفَنُ مِنْهُ الصَّالِحَاتُ، وَإِنْ يُسَىَّ يَكُنْ مَا أَسَاءَ النَّارُ فِي رَأْسِ كَبْكَبَا^(١)»
عَارِفٌ أَنَّ الْأَدَبَ الْوَطَنُ لَا يُخْشَى فِرَاقُهُ، وَالْخَلِيطُ لَا يُتَوَقَّعُ زِيَالُهُ^(٢)،
وَالنَّسِيبُ لَا يُخْفَى، وَالْجَمَالُ لَا يُخْفَى، ثُمَّ مَا قِرَانُ السَّعْدِ بِالْكَوَاكِبِ أَهْلَى
أَثَرًا، وَلَا أَسْنَى خَطَرًا، مِنْ أَقْبَرَانِ غَنَى النَّفْسِ بِهِ، وَأَنْتِظَامِهَا نَسَقًا^(٣) مَعَهُ،
فَإِنَّ الْحَاضِرَ لَهُمَا، الضَّارِبَ بِسَهْمِهِ فِيهِمَا - وَقَلِيلٌ مَا هُمْ - أَيْنَمَا تَوَجَّهَ وَرَدَ
مَنْهَلٍ بَرٍّ، وَحَطَّ فِي جَنَابِ قَبُولٍ، وَضَوَّجِكَ قَبْلَ إِزَالِ رَحْلِهِ، وَأُعْطِيَ
حُكْمَ الصَّبِيِّ عَلَى أَهْلِهِ.

وَقِيلَ لَهُ: «أَهْلًا وَسَهْلًا وَمَرْحَبًا فَهَذَا مَبِيتٌ صَالِحٌ وَمَقِيلٌ»
غَيْرَ أَنَّ الْوَطَنَ مَحْبُوبٌ، وَالْمَنْشَأُ مَأْلُوفٌ، وَاللَّيْبُ يَحِنُّ إِلَى وَطَنِهِ، حَنِينَ
النَّجِيبِ^(٤) إِلَى عَطَنِهِ^(٥)، وَالْكَرِيمُ لَا يَخْشَوُ أَرْضًا فِيهَا قَوَائِلُهُ^(٦)، وَلَا
يَنْسَى بِلَادًا فِيهَا مَرَاضِعُهُ، قَالَ الْأَوَّلُ :

«أَحَبُّ بِلَادٍ لِلَّهِ مَا بَيْنَ مَنَعِجٍ - إِلَى وَسْطَى - أَنْ يَصُوبَ سَحَابُهَا
بِلَادَ بِهَا حَلَّ الشَّبَابِ تَمَائِي^(٧) وَأَوَّلُ أَرْضٍ مَسَّ جِلْدِي تُرَابُهَا»
هَذَا إِلَى مُنَآلَاتِي بِعَقْدِ جَوَارِكِ، وَمُنَافَسَتِي بِلَحْظَةٍ مِنْ قُرْبِكَ، وَأَعْتِقَادِي

(١) كَبْكَب : الحبل . (٢) الزِيَال : المفارقة .

(٣) النَّسَق : ما كان على نظام واحد . (٤) النَّجِيب : الفحل الكريم من الإبل .

(٥) الْعَطْن : مورك الإبل حول الماء .

(٦) الْقَوَائِل : جمع قابلة وهي التي تتلقى المولود عند خروجه (الداية) .

(٧) وفي رواية : « عن الباب . » وفي أخرى : « شق الشاب » وفي رواية النحاس :

« نبطت على تَمَائِي » والتَمَائِي : ما يعلق للطفل ليقبه شر الخسد . قال الشاعر :

« وإذا المنية أُنشبت أظفارها أُلصقت كل قتيبة لا تنفع . »

أَنَّ الطَّمَعَ - فِي غَيْرِكَ - طَبَعَ ، وَالْغِنَى - مِنْ سِوَاكَ - عَنَاءٌ ، وَالْبَدَلُ مِنْكَ أَعْوَرُ ،
وَالْعَوَضُ لَفَاءً ^(١) :

« وَإِذَا نَظَرْتُ إِلَى أَمِيرِي زَادَنِي ضَنْناً بِهِ - نَظَرِي إِلَى الْأَمْرَاءِ »
وَكُلُّ الصَّيْدِ فِي جَوْفِ الْفَرَا ^(٢) ، وَفِي كُلِّ شَجَرَةٍ نَارٌ ، وَأَسْتَمَجِدَ الْمَرْخَ
وَالْعَفَارُ ^(٣) ، فَمَا هَذِهِ الْبَرَاءَةُ يَمْنُ يَتَوَلَّاكَ ، وَالْمَيْلُ عَمَّنْ لَا يَمِيلُ عَنْكَ ، وَهَلَّا
كَانَ هَوَاكَ فَيَسَنَ هَوَاهُ فَيْكَ ، وَرِضَاكَ لِمَنْ رِضَاهُ لَكَ :

« يَا مَنْ يَعِزُّ عَلَيْنَا أَنْ نُفَارِقَهُمْ وَجَدْنَا كُلَّ شَيْءٍ بَعْدَكُمْ عَدَمٌ »
أَعِيذُكَ وَنَفْسِي مِنْ أَنْ أَشِيمَ ^(٤) خُلْبًا ^(٥) ، وَأَسْتَمْطِرُ جَهَامًا ^(٦) ، وَأُكْدِمُ ^(٧)
فِي غَيْرِ مَكْدَمٍ ، وَأَشْكُو شَكْوَى الْجَرِيحِ إِلَى الْعُقْبَانِ ^(٨) وَالرَّحِمِ ، فَمَا
أَبْسَسْتُ ^(٩) لَكَ إِلَّا اتَدِرَّ ، وَمَا حَرَكْتُ لَكَ الْخُورَ ^(١٠) إِلَّا لَتَجِنَّ ، وَمَا
نَبَّهْتُكَ إِلَّا لِأَتَامَ ^(١١) ، وَمَا سَرَيْتُ إِلَيْكَ ، لِأَلِئْتُمَدَّ الشَّرَى ^(١٢) لَدَيْكَ . وَإِنَّكَ

(١) لفاء : حيس . قال الشاعر :

« وما أنا بالصعب وظلموني ولا حطى اللقاء ولا الحيس »

(٢) كل الصيد في جوف الفرا : انظر « ص »

(٣) المرخ والعفار : نوطان من الشجر سريعا الاتعاد ، وقريب من هذا قول المعري :

« وأمعنت بك النخل والنحل مشر - وأعجني من حاك الدالغ والصال . »

(٤) أشيم : أراقب السحاب لأرى أين يطار . (٥) الخلب : البرق الذي لا يصحبه غيث .

(٦) الجهام : السحاب الذي لا ماء فيه .

(٧) أكدم : أعس - والمثل العربي : « كدمت في غير مكدم » - وهو يضرب لمن يريد الشيء من غير أهله .

(٨) يشير إلى قول المتنبي :

« ولا تشك إلى قوم منعتهم شكوى الجريح إلى العقبان والرحم . »

(٩) أبست : رفقت من الرفق . (١٠) الخوار : ولد الناقة . (١١) يشير إلى قول بشار بن برد :

« إذا أيقظتك حروب العدا فنبه لها عمراً ، ثم نم »

ومنى لا ينام على غيرة - ولا يشرب الماء إلا بدم .

(١٢) يشير إلى المثل المشهور : « عند الصباح يحمد القوم السرى » يشير إلى قرب الفرج بعد الصيق .

إِنْ سَنَيْتَ ^(١) عَقْدَ أَنْزَى تَيْسَرَ ، وَمَتَى أَعْذَرْتَ ^(٢) فِي فَكِّ أَنْزَى لَمْ يَتَعَذَّرْ ،
وَعِلْمُكَ مُحِيطٌ بِأَنَّ الْمَعْرُوفَ ثَمَرَةُ النِّعْمَةِ ، وَالشَّفَاعَةُ زَكَاةُ الْمَرْوَةِ ، وَفَضْلُ
الْجَاهِ - تَعُودُ بِهِ - صَدَقَةٌ :

« وَإِذَا أَمَرُوا أَهْدَى إِلَيْكَ صَنِيعَةً - مِنْ جَاهِهِ - فَكَأَنَّهُمَا مِنْ مَالِهِ ^(٣) »
لَعَلِّي أَلْقَى الْعَصَا بِذَرَاكَ ^(٤) ، وَتَسْتَقِرُّ بِنِي النَّوَى فِي ظِلِّكَ ، وَأُسْتَأْنَفُ التَّأْدِبَ
بِأَدَبِكَ ، وَالْإِخْتِمَالَ عَلَى مَذْهَبِكَ ، فَلَا أُوجِدُ لِلْحَاسِدِ مَجَالَ لِحَظَةٍ ^(٥) ، وَلَا أُدَعِّ
لِلْقَادِحِ مَسَاحَ لِفُظَةٍ ، وَاللَّهُ مُبَشِّرُكَ مِنْ إِطْلَاقِي بِهِذِهِ الطَّلِبَةِ ^(٦) ، وَإِسْكَائِي ^(٧)
مِنْ هَذِهِ الشُّكُوكَى ، بِصَنِيعَةٍ تُصِيبُ مِنْهَا مَكَانَ الْمَصْنَعِ ، وَتَسْتَوْدِعُهَا أَحْفَظَ
مُسْتَوْدِعٍ ، حَسْبَمَا أَنْتَ خَلِيقٌ لَهُ ، وَأَنَا مِنْكَ حَرِيٌّ بِهِ ، وَذَلِكَ بِيَدِهِ وَهَيْئُ عَلَيْهِ .

وَلَمَّا تَوَالَتْ عِذْرُ هَذَا النَّثْرِ ، وَأَتَسَقَّتْ دَرَرُهُ ، فَهَزَّ عِطْفَ غُلُوَائِهِ ،
وَجَرَّ ذَيْلَ خِيَلَانِهِ ، عَارِضَهُ النِّظْمُ مُبَاهِيًا ، بَلَنَ كَايِدُهُ مُدَاهِيًا ، حِينَ أَشْفَقَ
أَنْ يَسْتَعْطِفَكَ أَسْتِعْطَافُهُ ، وَتَمِيلَ بِنَفْسِكَ أَلْطَافُهُ ^(٨) : فَاسْتَحْسَنَ الْعَائِدَةَ ^(٩)
مِنْهُ ، وَأَعْتَدَ بِالْفَائِدَةِ لَهُ ، فَزَالَ يَسْتَكِدُّ الذَّهْنَ الْعَمِيلَ ، وَالْخَاطِرَ الْكَفِيلَ ،
حَتَّى زَفَّ إِلَيْكَ عَرُوسًا مَجْلُوءَةً ، فِي أَثْوَابِهَا ، مَنْصُوصَةٌ ^(١٠) ، بِحُلِيِّهَا وَمَلَابِهَا ^(١١) :

(١) سَنَيْتَ : بَسَرْتُ وَسَهَلْتُ .

(٢) أَعْذَرْتُ : طَلَبْتُ الْعُذْرَ .

(٣) الْبَيْتَ لِأَبِي تَمَامٍ . (٤) ذَرَاكَ : كِفْكَ وَظَلُّكَ .

(٥) لِحَظَةٍ : نَظَرُهُ .

(٦) الطَّلِبَةُ : الْمَطْلُوبُ . (٧) إِسْكَائِي : إِزَالَةَ شُكُوكِي .

(٨) أَلْطَافُهُ : حَبْرُهُ وَبِرُّهُ .

(٩) الْعَائِدَةُ : الْجَمِيلُ أَوْ الصَّبِيحُ .

(١٠) مَنْصُوصَةٌ : مَرْفُوعَةٌ عَلَى الْمَنْصَةِ لَيْلَةَ الرِّقَابِ . (١١) الْمَلَابُ : الرِّعْرَعَانُ .

الهُوَى فِي طُلُوعِ تِلْكَ النُّجُومِ وَالْمَنَى فِي هُبُوبِ ذَاكَ الذَّنِيمِ^(١)
 سَرَّنا عَيْشُنَا الرَّقِيقُ الْخَوَاتِي لَوْ يَدُومُ الشَّرُورُ لِلْمَسْتَدِيمِ
 وَطَرَهُ مَا أَنْقَضَى إِلَى أَنْ تَقْضَى زَمَنٌ ، مَا ذِمَامُهُ بِالذَّمِيمِ
 إِذْ خَتَامُ الرِّضَا الْمُسَوِّغِ مِسْكُ وَمِزَاجُ الْوِصَالِ مِنْ تَسْنِيمِ
 وَغَرِيضُ الدَّلَالِ غَضُّ جَنَى الصَّبِّ وَهْ ، نَشْوَانُ مِنْ سُلَافِ الذَّمِيمِ
 طَالَمَا نَافَرَ الْهُوَى - مِنْهُ - غِرَّةٌ لَمْ يَطْلُ عَهْدُ جِيْدِهِ بِالتَّعِيمِ

أَيُّهَا الْمَوْذِنِي بِظُلْمِ اللَّيَالِي أَيْسَ يَوْمِي بِوَاجِدٍ مِنْ ظُلُومِ
 قَمَرُ الْأَفْقِ - إِنْ تَأَمَّلْتَ - وَالشَّمْسُ هُمَا يُكْسِفَانِ دُونَ النُّجُومِ
 وَهُوَ الدَّهْرُ أَيْسَ يَنْفَكُ يَنْحُو - بِالْمَصَابِ الْعَظِيمِ - نَحْوُ الْعَظِيمِ

بَوَّأَ اللَّهُ « جَهْوَرًا » شَرَفَ السُّو دَدٍ فِي السَّرْوِ وَاللُّبَابِ الصَّمِيمِ
 وَاحِدٌ سَلَّمَ الْجَمِيعُ لَهُ الْأَمْنُ ، فَكَانَ الْخُصُوصُ وَفَقَ الْعُمُومِ
 قَلَدَ الْعُمُرُ ذَا التَّجَارِبِ فِيهِ ، وَأَكْتَفَى جَاهِلٌ بِعِلْمِ الْعَلِيمِ
 خَطَرُهُ يَقْتَضِي الْكَمَالَ ، بِنَوْعِي خُلُقٍ تَارِعٍ وَخُلُقٍ وَسِيمِ

أَيُّهَا ذَا الْوَزِيرُ: هَا أَنَا أَشْكُو، وَالْعَصَا بَدَاهُ قَرْعُهَا لِلْحَلِيمِ
 مَا عَنَانَا أَنْ يَأْتِيَ السَّابِقُ الْمَرْ بَطَ فِي الْعِتْقِ مِنْهُ وَالتَّطْهِيمِ
 وَبَقَاءُ الْحَسَامِ - فِي الْجَفْنِ - يَنْثِي مِنْهُ بَعْدَ الْمَضَاءِ وَالتَّصْنِيمِ

أَفَصَبْرٌ مِّثْلَ خَمْسٍ مِنَ الْآثِمَاتِ مَهْ؟ نَاهِيكَ مِنْ عَذَابِ الْيَمِّ
وَمُعْنَى - مِنَ الضَّيِّقِ - بَهَنَاتٍ نَكَاتٍ بِالْكُلُومِ قَرْحِ الْكُلُومِ
سَقَمٌ لَا أَعَادُ فِيهِ، وَفِي الْعَا يَدِ الْإِنْسِ يَنْفِي بَرْءِ السَّقِيمِ
نَارُ بَغْيٍ، سَرَى - إِلَى جَنَّةِ الْأَمْنِ - لَطَاهَا، فَأَصْبَحَتْ كَالْعَصْرِ
بِأَبِي أَنْتَ - إِنْ تَشَأْ - تَكُ بَرْدًا وَسَلَامًا، كَنَارِ إِبْرَاهِيمِ
لِلشَّفِيعِ الشَّاهِدِ، وَالْحَمْدُ فِي صَوْرٍ بِ الْحَيَا - لِلرَّيَّاحِ ، لَا لِلْغُيُومِ
وَزَعِيمٌ بِأَنْ يُذَلَّلَ - لِي الصَّنْعُ - مَثَابِي إِلَى الْهُمَامِ الزَّعِيمِ
وَوِدَادٌ - يُغَيِّرُ الدَّهْرُ مَا شَاءَ - وَيَبْقَى بَقَاءَ عَهْدِ الْكَرِيمِ
وَنَبَاهٍ أَرْسَلْتُهُ سَلَوَةَ الظَّاهِرِ عَنِ عَنِ شَوْقِهِ ، وَلَهْوِ الْمُقِيمِ
فَهْوِ رِيحَانَةِ الْجَلِيسِ - وَلَا فَخْرَ - وَفِيهِ مِزَاجُ كَأْسِ النَّدِيمِ
لَمْ يَزَلْ مُغْضِيًا - عَلَى هَفْوَةِ الْجَا نِي - مُصِيبًا إِلَى أَعْتِدَارِ الْكَرِيمِ
وَمَتَى تَبَدَّ الصَّنِيعَةُ يُورِنُكَ تَمَامُ الْخِصَالِ بِالشَّمِيمِ
وَقَالَ الْأَخْنَفُ بْنُ قَيْسٍ :

« لَيْسَ دَهْرِي بِوَاجِدٍ مِنْ ظُلُومٍ وَبَلَاءٍ مِنْ حَادِثٍ وَقَدِيمِ
لَيْسَ يُسْتَنْكَرُ النُّحُولُ لِمِثْلِي ، جَسَدِي مُبْتَلَى بِقَلْبٍ مَشُومِ . »

هَا كَمَا - أَعَزَّكَ اللَّهُ - يَنْسُطُهَا الْأَمَلُ ، وَيَقْبِضُهَا الْحَجَلُ ، لَهَا ذَنْبُ التَّقْصِيرِ ،
وَحَرَمَةُ الْإِخْلَاصِ ، فَهَبْ ذَنْبًا لِحَرَمَةٍ ، وَأَشْفَعْ نِعْمَةً بِنِعْمَةٍ ، لِيَتَأَنَّى لَكَ
الْإِحْسَانُ مِنْ جِهَاتِهِ ، وَتَسْلُكَ إِلَى الْفَضْلِ مِنْ طُرُقَاتِهِ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

إلى المظفر^(١)

« وكتب إلى المظفر سيف الدولة أبي بكر بن الأقطس،

صاحب بطليوس ، وضمها قصيدة أولها .

ليص الطلي ، ولسود الملم

بمقل — مد بن شى — لم »

لَمَّا لَبَسَ الْحَاجِبُ — أَعَزَّهُ اللَّهُ — رِدَاءَ الْمَجْدِ مُعَلِّمًا ، وَحَمَلَ لِوَاءَ الْحَمْدِ

(١) كان المظفر من أعظم ملوك الطوائف . وكان أحرم الناس — كما يقولون — على جمع علوم الأدب ونوادير الأحبار وعيون التاريخ ، وقد ألب كتاباً كبيراً — في الأدب — في عشرة أحرار ضخمة ، وقد ولى « بطليوس » بعد موت أبيه « عبد الله بن مسالمة » المعروف بابن الأقطس وقد استبد « عبد الله » هذا بالملك سنة ٤٣١ هـ — بعد فتنة بني أمية بالأندلس — فلما مات أخوه ابنه « أبو بكر المظفر » وعظم أمره ونبه شأنه ، ومارالها حتى مات سنة ٤٦١ هـ . وحلفه عليها ابنه المتوكل حتى دله يوسف بن تاشفين سنة ٤٨٥ هـ وقد كان ابن عباد يرميه بقتله — فيما يقولون — وكان المتوكل قدم راسخة في صناعة النظم والنثر مع شجاعة مفرطة ومروية تامة ، وقد رثاه ابن عمه بقميدته المشهورة ، وهي :

« الدهر يجمع — له — العين — والآثر
أنهاك أنهاك لا آلودك موعظة
فالدهر حرب — وإن أبدى مسالمة —
ولا هوادة بين الرأس — تأخذهم
فلا تمر نك — من ديباك — نومتها ،
ما لا يلى — أقال الله عثرنا
في كل حين لها — في كل جارة
تسر بالشيء ، لكن كي تمر به
كم دولة — قدمصت والنصر يخدمها —
هوت بدارا ، وفك غرب قاتله ،
واسترجعت — من بي ساسان — ما وهبت ،
وأبعت أحتها طسما ، وطاد على
وما أقال ذوى الهات — من يمن —
ومرقت سبأ — في كل قاصية — ،
وأغذت في كليب — حكما ، وورمت

فما البكاء على الأشباح والصور
عن نومة بين ناب الليث والمظفر
والبيص والسود مثل البيص والسمر
يد العراب — وبين الصارم الذكر
فما ساعة عينها سوى السهر
من الليلي ، وحانت يد العسير —
مناب جراح ، وإن زاعج عن الصر
كلايم نار إلى الحاني من الزهر
لم تبق منها ، وسل ذكراك من خبر
وكان عصباً — على الأملاك — ذا أثر
ولم تدع — لبي يونان — من أثر
عاد وجرحهم منها ناقض المرر
ولا أجارت ذوى الغايات من مضر
فما النقي رائح منهم ببتكر
مهلهلا بين سبع الأرض والبصر

مُتَلَنَّا ، فَاسْتَطَارَ بَارِقُ فَخْرِهِ ، وَأَسْتَضَاءَ فَائِخُ ذِكْرِهِ ، وَشُهِرَتْ مَحَاسِنُهُ عَلَى
كُلِّ لِسَانٍ ، وَسَارَتْ مَأْتِرُهُ مَسِيرَ الشَّمْسِ بِكُلِّ مَكَانٍ ، لِمَا سَوَّغَ مِنْ كَرَمِهِ ،

ولم ترد — على الصليل — صحنه
ودوخت آل ديبان وإحوتهم
وألحقت بمدى — بالعراق — على
وأهلك «أبرويزا» بابه، ورم
ولم «يزد حرد» الصين واختلت
ولم ترد مواضى «رسم» وقا
يوم القليب بنو بدر فموا وسعى
ومررت «جعفراً» باليمن، واختلست
وأشرقت بحبيب — فوق فارعة —
وحصد — لب عثمان دما ، وحط
ومارعت — لأبي اليفطان — صحنه
وأجبرت سيف أشقادا أما حسن ،
وليتها — إاد مدت عمراً بحارحة —
وفي ابن هند وفي ابن المصطفى «حسن»
فبعضا فائل : «ما اغتاله أحد»
وأردت ابن رباد بالحسين ، ولم
وصمم — بالخطي — فودي إلى أس،
وأزلت معصما — من رأس شاهقة —
ولم تراقب مكان ابن الربير ، ولا
وأعملت — في لطيم الحن — حيلتها ،
ولم تدع — لأبي الدنان — قابسه ،
وأحرق شلو «زيد» بعدما احترقت
وأظمرت بالوليد — بن اليريد — ولم
«حباية» حب رمان أتيح لها ،
ولم تعد قصب السفاح ثانية
وأسبلت دمة الروح الأمين على
وأشرقت جعفرأ — والفصل بظاره —
وأخمرت في الأمين — العهد، وانتدبت
وماوتت بعهود المستعين ، ولا
وأوتت في — عراها — كل معتمد ،

ولا ثلث أسداً عن ربا حجر
عبساً ، وغصت بي بدر على النهر
يد ابنة أحر العين والشعر
يزد حرد إلى «مرز» فلم يحمر
عنه — سوى العرس — جمع الترك والحرر
«دى حاب» — عه سعداً وابنة العير
قليب بدر — بمن فيه — إلى سقر
— من خيله — «حزة» الظلام للجرر
وألحقت «طلعة» الفياض بالعفر
إلى الربير ، ولم تستجى من عمر
ولم تزوده إلا الصبح في العمر
وأمكن — من حسين — راحتي شمر
مدت علياً بمن شاءت من البشر
أنت بمعضلة الأمان والفكر
ومعصنا ساكت لم يوت من حصر
يؤ شمع له — قد طاح — أو ظفر
ولم ترد الردي عنه فنا «زمر»
كانت بها مهجة المختار في وزر
راعت عيادته ناليت والحجر
واستوسقت لأبي الدنان ذي البحر
ليس العظيم لها «عمرو» بمشعر
— عليه وحداً — قلوب الآي والسور
تبق الخلافة بين الكأس والوتر
و «أحمد» قطرته نفحة القطر
عن رأس مروان أو أشيائه الحجر
دم بفتح لآل المصطفى هدر
والشيخ يحيى بريق الصارم الذكر
لجمر بابنه والأعبد القدر
بما تأكد المعتر من مرر
وأشرقت — بقذاها — كل مقتدر

وَأُسْبِغَ مِنْ نِعَمِهِ ، وَوَطْأَ — لِلْأَمِلِينَ — مِنْ أَكْنَفِهِ ، وَهَزَّ — إِلَى الرَّاعِبِينَ — مِنْ
أَعْطَافِهِ ، وَرَفَرَفَتِ أَجْنِحَةُ الْأَهْوَاءِ إِلَيْهِ ، وَاهْتَزَّتْ جَوَانِحُ الْأَمَالِ إِلَيْهِ ،

ودرعت كل مأمون ومؤتمن ، وأسـلت كل منصور ومنتصر
وأعـثرت آل عباد — لعالمهم — بذيل زباه لم تنفر من الدهر



بى الظفر — والأيام ما برحت — وراحلا — والورى منها على سر
سحقا ليومكم يوما ، ولا حلت — بثـله — ليلة فى مقل العمر
من للأسرة ؟ أو من الأعنة ؟ أو — من للأسنة ؟ يهديها إلى الثغر
من للظي ؟ وعوالى الخط قد عقدت — أطراف ألسنها — بالى والحصر
وطوقت — بالنايا السود — ببعضهم — فاعجب بذاك ، وما منها سوى الذكر
من للبراعة ؟ أو من للبراعة ؟ أو — من للبراعة ؟ أو للنفـع والضرر ؟
أو دفع كارثة ؟ أو ردع آفة ؟ أو وقع حادثـة تعي على القدر ؟
ويج السـماح ويـج الباس — لو سـلم — وحسرة الدين والدنيا على عمر
سـقت ثرى الفصل والعـاس حامية — نرى إليهم — سماحا — لا إلى المطر
ثلاثة ما رأى العـصرات مثلهم — ولا ولو عززا بالشمس والقمـر
ثلاثة ما ارتقى النـيران حيث رقوا — وكل ما طار — من نـر — ولم يطر
ثلاثة كـدوات الدهر — منذ نأوا — عى — مضى الدهر لم يـرع ولم يـجر
وسر — من كل شىء — فيه أطيـه — حتى التـنع بالأصـال والمـكر
أين الجلال الذى غـضت مهابـته — قـلوبا وعيـون الأنـعم الزهر ؟
أين الـاباء الذى أرسـوا قواعده — على دحائم من عزّ ومن طفر
أين الوفاء الذى أصـفوا اشـرائعه — فلم يرد أحد منها على كـدر
كانوا رواسى أرض الله — منذ نأوا — عنها — استـطارت بمن ديهـا لم تـقر
كانوا مصايـحما ، فد خـبوا عـثرت — هدى الخـليقة — يا الله — فى سـدر
كانوا شـحى الدهر ، فاستـهوتهم خـدع — منه بأحلام عاد فى خطى الحـصر
ويل امه من طلـوب التـأر مدركه — منهم بأسـد سـراة فى الوغى صـبر
من لى — ولا من بهم — إن أظلمت نوب — ولم يكن ليلها يفضى إلى سـهر ؟
من لى ومن بهم — إن عطـلت سـفن — وأخفت ألسـن الآثار والسـير ؟
من لى ومن بهم — إن طبقت بحـن — ولم يكن وردـها يفضى إلى صـدر ؟
على الفضائل — إلا الصبر — سـلام مرثـب الأجر — منتظر
يرجو عسى ، وله — فى أخـتها — أمل — والدهر ذو عـقب شتى وذو غير
قرطت اذات من مـيها ، ماضية — على الحسان حصى اليافوت والدرر . «

وَكَثُرَ التَّغَايُرُ عَلَى تَفَيُّؤِ ظِلِّهِ ، وَالتَّنَافُسُ فِي الْأَعْتِلَاقِ بِحَبْلِهِ ، وَكُلُّ اسْتَفْرَغٍ جُهْدُهُ ، وَتَرْسُلٍ عَلَى حَسَبِ مَا عِنْدَهُ ، وَلَا غَرَوَ أَنَّ يُسْتَمَطَّرَ الْعَمَامُ ، وَيَكْثُرُ - فِي الْمَشْرَبِ الْعَذْبِ - الرَّحَامُ ^(١) .

وَمَا زِلْتُ - أَبْقَى اللَّهَ الْحَاجِبَ - أَتَلَقَّى مِنْ مَسَاعِيهِ الْمَشْكُورَةِ ، وَيَقْرَعُ سَمْعِي بِمَآثِرِهِ الْمَآثُورَةِ ، مَا هُوَ أُنْدَى مِنْ مُبْلُوغِ الْأَمَلِ ، وَأَشْهَى مِنْ أُخْتِلَاسِ الْقُبُلِ ، وَأَغْضُ مِنْ جَنَى الزَّهَرِ ، وَمَا هُوَ الْطَفُّ مِنْ نَسِيمِ السَّحَرِ ، حَتَّى انْقَادَتْ نَفْسِي فِي زِمَامِ التَّأْمِيلِ وَالْمَوَدَّةِ ، وَنَازَعَتْ إِلَى الْأَخْذِ بِحِظٍّ مِنَ الْأَعْتِلَاقِ وَالْمَمَازِجَةِ ، وَنَظَرْتُ إِلَى مَا دُونَ ذَلِكَ مِنْ أَسْبَابِ الْبُعْدِ الْمَانِعَةِ ، وَأُمْتِدَادِ الثَّأْنِ الْمُعْتَرِضَةِ ، فَغَضَضْتُ طَرْفَ الْخَيْبَةِ ، وَطَوَيْتُ كَشْحًا عَلَى الْيَأْسِ مِنْ دَرَكِ الْأُمْنِيِّ ، إِلَى أَنْ نَدَبَنِي الْأَدِيبُ « أَبُو فُلَانٍ » إِلَى مُخَاطَبَتِهِ ، وَحَرَّضَنِي عَلَى مُكَاتَبَتِهِ ، وَنَبَّهَنِي عَلَى مَا فِي التَّنَاقُلِ - عَنْ مُدَاخَلَتِهِ - مِنَ التَّضْيِيعِ الصَّرِيحِ ، وَالتَّقْصِيرِ الْبَيْنِ الصَّحِيحِ ، إِذْ هُوَ أَسْنَى عِلْقٍ غُولِي فِيهِ ، وَأَنْفَسُ ذُخْرِ نُوفَسٍ فِيهِ ، فَطَرَبْتُ - إِلَى ذَلِكَ - كَمَا طَرَبَ النَّشْوَانُ مَالَتْ بِهِ الْخَمْرُ ، وَاهْتَزَزْتُ كَمَا اهْتَزَّ - تَحْتَ الْبَارِحِ ^(٢) - الْفُصْنُ الرُّطْبُ ، وَرَأَيْتُ شُكْرَ يَدِ الْعَلِيَاءِ فِيمَا حَثَّنِي إِلَيْهِ ، وَحَضَّنِي عَلَيْهِ ، مِمَّا فِيهِ حِلْيَةُ الْفَخْرِ ، وَمَكْرَمَةُ الدَّهْرِ ، أَنْ اسْتَفْتَحَ بَابَ الْمَكَاتَبَةِ بِالشَّفَاعَةِ ، وَأَنْهَجَ طَرِيقَ الْمُخَاطَبَةِ فِي الْعِنَايَةِ بِهِ ، وَتَبَيَّنْتُ - بَعْدَ ذِمَامِ الطَّلَبِ ، وَحُرْمَةِ الْوُدِّ وَالْأَدَبِ - مَا اسْتَقْصِرُ نَفْسِي مَعَهُ أَنْ أَتَقَدَّمَ فِي

(١) يشير إلى المثل المشهور : « المورد العذب كثير الرحام » .

(٢) ربح بارح - ربح شديدة .

خِدْمَةِ رَغْبَتِهِ قَلَمِي ، وَقَدْ تَأَخَّرَ قَدَمِي ، وَبَعْدَ الْأَقْصَارِ بِغَيْبَةِ كِتَابِي ، دُونَ
 أَنْ أَرْمَ إِلَيْهِ رِكَابِي ، وَهُوَ فَتَى نَامَ جَدُّهُ ، وَأُسْتَيْقَظَ حَدُّهُ ، فَتَنَكَّرَ الزَّمَانُ لَهُ ،
 وَأُعْتَرَتْ الْأَيَّامُ لَهُ ، بَيْنَ ذُنَابِ سِمَايَةِ عَوَتْ عَلَيْهِ ، وَعَقَارِبِ وَشَايَةِ دَبَّتْ
 إِلَيْهِ ، وَأَصْلَى بِنَارِ حَرْبٍ لَمْ يَجْنِهَا ، وَآلَ بِهِ الْأَمْرُ إِلَى فِرَاقِ أَحِبَّتِهِ ، وَالْبُعْدِ
 عَنْ مَسْقَطِ رَأْسِهِ ، وَمَمْلَقِ تَمَاعِهِ ، عَلَى ضَيْقِ حَالِهِ ، وَضَعْفِ إِحْسَانِهِ ،
 وَأَشْهَدُ أَنَّ ذَلِكَ لَمْ يَزِدِ الْحَاجِبَ إِلَّا وِلَاةً ، وَعَلَيْهِ إِلَّا تَنَاءً ، وَأَنَّهُ لَا يَزَالُ
 يُعِيدُ شُكْرَهُ وَيُبْدِيهِ ، وَيَنْشُرُ نَحْمَهُ وَيَطْوِيهِ ، وَالْحَاجِبُ - أَدَامَ اللَّهُ إِعْزَازَهُ -
 وَلِيَ بِأَعْدَائِهِ عَلَى زَمَانِهِ الْغُشُومَ ، وَأَمَلِي بِإِنْصَافِهِ مِنْ دَهْرِهِ الظُّلُومَ ، بِإِلْبَاسِهِ
 مِنْ جَمِيلِ رَأْيِهِ مَا عَرَى مِنْهُ ، وَإِيزَادِهِ مِنْ شَرِيعَةِ رِضَاةٍ مَا حُلِيَ عَنْهُ ،
 وَالتَّخْلِيَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْأَفْقِ الَّذِي لَمْ يَرَ كَوْكَبَ سَعْدٍ إِلَّا فِيهِ ، وَلَا تَلَقَى
 نَسِيمَ حَيَاةٍ إِلَّا مِنْهُ ، فَإِنَّهُ مِمَّا يُؤَلِّفُهُ مِنْ إِحْسَانِهِ ، وَيَأْتِيهِ مِنَ الْفَضْلِ فِي شَانِهِ ،
 مُسْتَجْزِلَ شُكْرِ مَنْ أَنْهَضَهُ لِسَانٌ ، وَأَسْتَقْلَّ بِهِ بَيَانٌ ، وَهُوَ أَهْلُ الْفَضْلِ ،
 وَالْمَعْهُودُ مِنْهُ كَرَمُ الْعَمَلِ ، وَاللَّهُ يُبْقِيهِ وَيُعْلِيهِ ، وَهُوَ حَسْبُهُ وَحَسْبِي فِيهِ .

وَلَمَّا أَطْرَدَ هَذَا النَّثْرُ بِحُسْنِ اتِّسَاقِهِ ، وَلَذِيذِ مَذَاقِهِ ، هَزَّتِ النُّظُمُ أَرْيَحِيَّةً
 جَدِبَ لَهَا بِعَيْنَانِهِ ، وَعَارِضَةً بِهَا فِي مِيدَانِهِ ، وَأَبَتْ أَنْ يَنْفَرِدَ النَّثْرُ بِمِلْقَاءِ
 الْحَاجِبِ وَمُشَافَهَتِهِ ، وَلَتَسْتَبِدَّ بِأَنْ تُلَمَّحَ غَرَّتُهُ ، وَتُخْدَمَ بِالْحُضُورِ حُضْرَتُهُ ،
 فَأَثْبَتَتْ مِنْهُ مَا إِنْ أَنْعَمَ عِنْدَ تَصَفُّحِهِ بِالصَّفْحِ عَنِ الزَّالِ الَّذِي يَعْزِضُ فِيهِ ،
 وَالْحَلَمَلِ الَّذِي يَبْدُو مِنْهُ ، وَصَلَ النِّعْمَةُ بِعَمَلِهَا ، وَفَرَنَ الْعَارِفَةُ بِشِكْلِهَا .

لَبِيبُ الطَّلَى وَلِسُودِ اللَّمَمِ بِعَقْلِي - مُذُنْ عَنِّي - لَمْ^(١)

فَفِي نَاطِرِي - عَنْ رَشَادِي - عَمِي ،
قَضَتْ بِشِمَاسِي - عَلَى الْعَازِلِينَ -
فَمَا سَقَمْتُ لِحَظَاتِ الْمَيُوءِ
يَلُومُ الْخَلِيَّ عَلَى أَنْ أُجَنِّ
وَمَا ذُو التَّدَكُّرِ يَمُنُّ يُلَامُ

وَإِنِّي أَرَاكِ إِذَا مَا الْجَنُوءِ
وَأَصْبُو لِعِرْفَانٍ عَرَفِ الصَّبَا
وَمِنْ طَرَبٍ عَادَ نَحْوُ « الْبُرُوءِ »
أَمَّا وَزَمَانٍ - مَضَى عَهْدُهُ
قَضَى بِالصَّبَا بَابَهُ ثُمَّ اتَّقَضَى
لِيَالِي نَامَتْ عُيُونُ الْوُشَا
وَمَالَتْ عَلَيْنَا غُصُونُ الْهَوَى
وَأَيَّامُنَا مَذْهَبَاتُ الْبُرُوءِ
كَأَنَّ « أَبَا بَكْرٍ » الْأَسْلَمِيَّ
وَوَشَّحَ زَهْرَةَ ذَاكَ الزَّمَانِ
هُوَ الْحَاجِبُ الْمُعْتَلِي لِلْعُمَلَا
مَلِكٌ - إِذَا سَابَقَتْهُ الْمُلُوكُ -
فَأَطُولُهُمْ - بِالْأَيَادِي - يَدَا ،

وَفِي أُذُنِي - عَنْ مَلَامٍ - صَمَمٌ ^(١)
شُمُوسٌ مُكَلَّلَةٌ بِالْغُلَمِ
نِ إِلَّا لِتُغْرِينِي بِالسَّقَمِ
وَقَدْ مَزَجَ الشَّوْقُ دَمْعِي بِدَمِ
وَلَا كَرَمُ الْعَهْدِ مِمَّا يُدَمِّ

بُ رَاحَتِ بَرِيًّا جَنُوبِ الْعَلَمِ
وَأَهْدِي السَّلَامَ إِلَى « ذِي سَلَمِ »
قِ « أَجْهَشْتُ لِلْبَرْقِ حِينَ ابْتَسَمِ »
حَمِيداً - لَقَدْ جَارَ لَمَّا حَكَمِ
وَمَا اتَّصَلَ الْأَنْسُ حَتَّى أَنْصَرَمِ
ةِ عَنَّا ، وَعَيْنُ الرِّضَى لَمْ تَنَمِ
فَأَجْنَتْ ثَمَارَ الْمَنَى مِنْ أُمَمِ
رِقَاقُ الْحَوَاشِي صَوَافِي الْأَدَمِ
بِمَا حَارَ مِنْ زُهْرِ تِلْكَ الشِّيمِ
شَمَارِيخَ كُلِّ مُنِيفِ أَشَمِ
حَوَى الْخَصْلَ أَوْ سَاهَمَتْهُ مَهَمِ
وَأَثْبَتَهُمْ - فِي الْمَعَالِي - قَدَمِ

(١) قَالَ ابْنُ مَانٍ الْأَنْدَلُسِيُّ :

« وَفِي بَصْرَى - عَنْ سَوَاكِمَ - عَمِي ، وَفِي أُذُنِي - عَنْ سَوَاكِمَ - صَمَمٌ . »

* * *

وَأَرْوَعَ ، لَا مُتَّعِنِي رِفْدِهِ
ذُلُولُ الدَّمَائَةِ صَعْبُ الْإِبَاءِ
سَمَا لِلْمَجَرَّةِ - فِي أَقْفِهَا -
وَنَاصَتْ مَسَاعِيهِ زُهْرَ النُّجُومِ
نَهَيْكَ - إِذَا جَنَّ لَيْلُ الْعَجَاجِ -
فَشَامَ السُّيُوفَ بِهَامِ الْكُؤَامَةِ
جَوَادُ ذَرَاهُ مَطَافِ الْعَفَاةِ
يَهِيْجُ النَّزَالُ بِهِ وَالسُّوَا
شَهِدْنَا ، لَأَوْقِيْ فَضْلَ الْخُطَابِ
وَهَلْ فَاتَتْ شَيْءًا مِنَ الْمَكْرُمَاتِ
يَحْيِيْ ، وَلَا جَارُهُ يُهْتَضَمُ
ثَقِيْفُ الْعَزِيْمِ - إِذَا مَا أَعْتَزَمُ
فَجَبْرٌ عَلَيْهَا ذُيُولُ الْهِمَمِ
وَبَارَتْ عَطَايَاهُ وَطَفَ الدَّيْمِ
سَرَى مِنْهُ فِي جُنْحِهِ بَدْرُ تَيْمِ
وَرَوَى الْقَنَّا فِي نُحُورِ الْبُهِمِ
وَيُعْنَاهُ رُكْنُ الذِّدَى الْمُسْتَلَمِ
لِ لَيْثًا هَمُورًا وَبَحْرًا خِضَمِ
وَحُصَّ بِفَضْلِ النُّهَى وَالْحِكَمِ
جَرَى اسِّيفُ يَطْلُبُهُ وَالْقَلَمِ

* * *

وَمُسْتَحْمَدٍ بِكَرِيمِ الْفَعَا
شَمَائِلُ تُهْجَرُ عَنْهَا الشُّمُولُ
عَلَى الرُّوْضِ مِنْهَا رُؤَاةُ يَرْوِقُ
لِ - عَفْوًا - إِذَا مَا اللَّيْمُ أُسْتَدَمُ
وَتَجْنِيْ لَهَا مُشْجِيَاتُ النَّعَمِ
وَفِي الْمِسْكَ طِيبُ أَرِيحِ يُشَمُ

* * *

أَبُوهُ الَّذِي فَلَّ غَرْبَ الضَّلَالِ
وَلَاذَ بِهِ الدِّينُ مُسْتَعْصِمًا
وَجَاهَدَ - فِي اللَّهِ - حَقُّ الْجَمَا
وَلَاءُ مَ شَعَبَ الْهُدَى فَالْتَأَمُ
بِذِمَّةِ أَبْلَجِ وَافِي الذَّمِّ
دِ مَنْ دَانَ - مِنْ دُونِهِ - بِالصَّنَمِ

فَلَا سَامِيَ الطَّرْفِ إِلَّا أَذَلَّ وَلَا شَامِخَ الْأَنْفِ إِلَّا رَغَمَ
تَقِيلَ فِي الْعِزِّ - مِنْ جَمِيرٍ - مَقَاوِلَ عَزُّوا جَمِيعَ الْأُمَمِ
هُمْ نَمَشُوا الْمُلْكَ حَتَّى اسْتَقَلَّ وَهُمْ أَظْلَمُوا الْخَطْبَ حَتَّى أَظْلَمَ
نُجُومُ هُدًى - وَالْمَعَالِي بُرُوجُ - وَأَسْدُ وَغَى وَالْعَوَالِي أَجَمَ

« أبا بَكْرٍ » أَسْلَمَ عَلَى الْحَادِثَاتِ ، وَلَا زِلْتَ - مِنْ رَيْنِهَا - فِي حَرَمِ
أُنَادِيكَ - عَنْ مِقَّةٍ - عَهْدُهَا كَمَا وَشَتِ الرُّوضُ أَيْدِي الرَّهَمِ
وَإِنْ يَمُدُّنِي عَنْكَ شَحَطُ النَّوَى فَحَظُّيْ أَخْسَ وَنَفْسِي ظَلَمَ
وَإِنِّي لِأَصْفِيكَ مَحْضَ الْهَوَى وَأَخْنِي - ابْنُكَ - بَرْحَ الْأَلَمِ
وَعَيْرُكَ أَخْفَرَ عَهْدَ الدَّمَامِ إِذَا حُسْنٌ ظَنَّنِي عَلَيْهِ أَذَمَ

وَمُسْتَشْفِعِ بَنِي ، بِشَرِّتِهِ - عَلَى ثِقَةٍ - بِالنَّجَاحِ الْآئِ
وَقَدِّمًا أَقْلَتِ الْمُسَيَّءِ الْعِثَارَ وَأَحْسَنْتَ - بِالصَّفْحِ - عَمَّا أَجْتَرُ
وَعِنْدِي - لِشُكْرِكَ - نَظْمُ الْعُقُودِ تَنَاسَقُ فِيهَا اللَّالِي الثُّومُ
تُجِدُ لِفَخْرِكَ بُرْدَ الشَّبَابِ إِذَا لَبَسَ الدَّهْرُ بُرْدَ الْهَرَمِ
فَمِنْ مَعْصَمٍ يِفْقَاجِ السُّمُودِ وَدُمُ نَاعِمًا فِي ظِلَالِ النِّعَمِ
وَلَا يَزَلِ الدَّهْرُ ، أَيَّامُهُ لَكُمْ حَشَمٌ ، وَالْآيَالِي خَدَمُ

* * *

هَذَا أَعَزَّ اللَّهُ الْحَاجِبَ مَا اقْتَنَصَتْهُ الْقَرِيحَةُ مَعَ اقْتِضَائِهَا ، وَأَجَابَتْهَا بِهِ
الْبَدِيهَةُ عِنْدَ اسْتِدْعَائِهَا ، وَالذَّهْنُ ^(١) عَلِيلٌ ، وَالطَّبْعُ كَلِيلٌ ، وَالرَّوْيَةُ فَاسِدَةٌ ،
وَسُوقُ الْأَدَبِ - إِلَّا عِنْدَهُ - كَاسِدَةٌ ، وَلَوْ أَنِّي أُوتَيْتُ - فِي النَّثْرِ - غَزَارَةَ عَمْرِو ،
وَبِرَاعَةَ ابْنِ سَهْلٍ ، وَأُمِدِدْتُ - فِي النَّظْمِ - بِنَظْمِ الْبُحْثَرِيِّ ، وَصِنَاعَةِ الطَّائِي ^(٢)
لَمَا رَدَدْتُ - إِلَى الْحَاجِبِ - إِلَّا مَا أَخَذْتُ مِنْهُ ، وَلَا أَوْرَدْتُ عَلَيْهِ غَيْرَ مَا صَدَرَ عَنْهُ ،
وَلَا أَنْقَذْتُ مَا أَنْقَذْتُ إِلَّا بَيْنَ أَمَلٍ يَنْسُطُ ، وَخَجَلٍ يَقْبِضُ ، فَرَأَيْتُهُ مُوَفَّقٌ فِي
أَنْ يَمْنَحَ مَا بَعَثَ الْأَمَلُ إِسْعَافًا ، وَمَا أَوْجَبَ الْحَجَلُ إِغْضَاءً ، لِيَأْتِيَ الْإِحْسَانُ مِنْ
جِهَاتِهِ ، وَيَسْلُكَ - إِلَى الْفَضْلِ - طُرُقَاتِهِ . وَمَرَّاجَعْتُهُ لِي عَنْ كِتَابِي بِعَهْدٍ كَرِيمٍ يَكُونُ
كُفْلًا لِعَيْنِ الرَّضَا بِوَحْيَةِ الْقَوْلِ ، أَقِفْ بِهِ مِنْ تَوَالِي النِّعَمِ عَلَيْهِ ، وَأَنْتِظَامِ
الْأَحْوَالِ - بِالصَّلَاحِ لَدَيْهِ - عَلَى مَا تَبْتَهِجُ لَهُ نَفْسِي ، وَيَنْتَظِمُ مَعَهُ عَقْدُ أُنْسِي ،
يَدُهُ عِنْدِي جَنَاهَا شَهْدٌ ، وَشَدَاهَا عَنَبٌ وَوَرْدٌ ، وَرِدَاؤُهَا الشُّكْرُ الْجَزِيلُ ،
وَأَتْبِعُهَا التَّنَاءَ الْجَمِيلَ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ .
وَلِيُبْلَغْ مِنِّي سَلَامًا يُهْدِي إِلَيْهِ نَدَاهُ ^(٣) ، وَتَحِيَّةً أَوْهَاهَا عِنْدِي وَآخِرُهَا عِنْدَهُ .

(١) وفي الأصل : « والدهر » .

(٢) يعني أبا تمام .

(٣) الند (بالفتح) وبكسر : الطيب أو العنبر ، وفي الأصل : « يهدي إليه نفسه » .

إلى ابن مسleme

« وكتب من قرطبة إلى ابن مسleme باشيلية
قبل تحوله إليها : »

يَا سَيِّدِي وَأَرْفَعُ عُدَدِي ، وَأَوَّلُ الذَّخَائِرِ فِي عُدَدِي ، وَأَخْطَرُ عِلْقٍ مَلَأْتُ مِنْ
أَقْتِنَائِهِ يَدِي ، وَمَنْ أَبْقَاهُ اللَّهُ فِي عَيْشَةٍ بَارِدَةٍ الظَّلَالِ ، وَنِعْمَةٍ سَابِغَةِ الْأَذْيَالِ ،
قَدْ تَقَاصَرَ الثَّنَاءُ عَلَيْكَ ، وَتَوَالَى الْحَدِيثُ الْحَسَنُ عَنْكَ ، حَتَّى حَلَلْتَ مَحَلَّ الْأَمَانَةِ ،
وَكَنتَ مَوْضِعَ تَقْلِيدِ الْوَطَنِ ، وَثَبَاتِ الطَّوَيَّةِ ، وَاللَّهُ يُمَتِّعُكَ بِمَا حَازَهُ لَكَ مِنَ
الْخَيْرِ ، وَوَفَّرَهُ عَلَيْكَ مِنْ طِيبِ الذِّكْرِ .

فِي عِلْمِكَ - أَعَزَّكَ اللَّهُ - مَا تَقْتَضِيهِ الْمُطْلَعَةُ مِنْ إِظْلَامِ الْخَاطِرِ ، وَصَدَأِ النَّفْسِ ،
وَيَجْنِيهِ طَوْلُ الْمَقَامِ مِنْ إِخْلَاقِ الدِّيَابِجَةِ وَإِرْخَاصِ الْقَدْرِ ، وَقَدْ آتَى أَنْ أُجْتَنِيَ
مَمَرَةٌ مِنْ آدَابِ أَطْلُتِ الْأَعْتِنَاءَ بِهَا ، وَأَخْلَاقٍ أَدْمَتِ رِيَاضَةَ النَّفْسِ عَلَيْهَا ، وَلَمَّا
مَخْضَتْ الْمُلُوكُ وَجَدْتُ عَبِيرَهُمُ الَّذِي أَنْسَى^(١) السَّالِفَ قَبْلَهُ ، وَتَقَدَّمَ الدَّاهِرَ مَعَهُ ،
وَأَتَعَبَ الْغَايِرَ بَعْدَهُ ، الْحَاجِبَ فُخْرَ الدَّوْلَةِ مَوْلَايَ أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَهُ ، وَكَبَّتْ
أَعْدَاءُهُ ، مَا خَصَّهُ اللَّهُ بِهِ مِنْ سَنَى الْهَمَمِ ، وَسَمَاحَةِ الشِّيمِ ، وَأَنْتِظَامِ أَسْبَابِ
الرِّيَاسَةِ ، وَكَمَالِ آلَاتِ السِّيَاسَةِ ، وَاجْتِمَاعِ الْمَنَاقِبِ الَّتِي أَفْرَدَتْهُ عَنِ النَّظَرَاءِ ،
وَأَعْلَتْهُ عَنِ مَرَاتِبِ الْأَكْفَاءِ ، فَرَأَيْتُ - قَبْلَ أَنْ أَحْتَمِلَ لَغْوَهُ نِعْمَةً ، أَوْ أَوْسَمَ
يَمِّنَ سِوَاهُ بِصَنِيعَةٍ - أَنْ أَعْرِضَ نَفْسِي مَمْلُوكَةً عَلَيْهِ ، عَرِضَ مَنْ لَا يَوْمَ لَهَا
- لِإِجَارَتِهِ - إِلَّا بِالْأَسْتِجَارَةِ ، وَلَا يَطْمَعُ لَهَا - فِي قُبُولِهِ - إِلَّا بِالْمُسَاحَةِ ، فَلَوْ
كُنْتُ الْوَلِيدَ بْنَ عُبَيْدٍ بَرَاعَةً نَظُمَ ، وَجَعْفَرَ بْنَ يَحْيَى بِلَاغَةً نَشْرَ ، وَإِبْرَاهِيمَ

أَبْنِ مَهْدَى طِيبَ مُجَالَسَةٍ ، وَإِمْتَاعَ مُشَاهَدَةٍ ، ثُمَّ حَضَرْتُ مَجْلِسَهُ الْعَالِي ، لَمَّا كُنْتُ - بِسَعَةِ إِحَاطَتِهِ - الْآفِي جَانِبِ التَّقْصِيرِ ، وَتَحْتِ غَمْرَةِ النُّقْصَانِ ، غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَعُدَّ فِي نَجَابَةِ غَرَسِ الْيَدِ ، وَإِصَابَةِ طَرِيقِ الْمَصْنَعِ ، مِنْ وَلَايَةِ أُخْلِصُهَا وَنَصِيحَةِ أَنْحَضُهَا ، وَشُكْرِ أَجْنِيهِ الْغَضِّ مِنْ زَهْرَاتِهِ ، وَتَنَاهِ أَهْدَى إِلَيْهِ الْعَطْرِ مِنْ تَفَحَّاتِهِ ، مِنْهَا مَا سَوَّغَكَ اللَّهُ مِنَ الْمَوْهِبَةِ فِي ذَلِكَ ، وَأَنْهَضَكَ بِأَعْبَاءِ الشُّكْرِ لَهَا ، وَمِنْهَا شَرَفَ مَذْهَبِكَ ، وَكَرَّمَ سَجِيَّتِكَ ، وَصَحَّحَ مُشَارَكَتِكَ لِمَنْ لَمْ يَسْتَوْجِبْهَا اسْتِجَابِي ، وَلَا اسْتَدْعَاهَا بِعَثَلِ أُسْبَابِي ، مِنْ تَدَانِي الْجِدَارِ وَتَصَافِي السَّلَفِ ، وَالْإِتِّجَاءِ إِلَى أَسْرَةِ الْأَدَبِ ، فَإِنْ وَافَقَتِ الْمُسَاعَفَةُ الْإِرَادَةَ فَحَظُّ أَقْبَلٍ ، وَعَبْدٌ بَلَغَ مِنْ قَبُولِ سَيِّدِهِ مَا أَمَلَ

وَلَمْ أَقُلْ - عَمْرُكَ اللَّهُ - كَمَا قِيلَ فِي النَّجْمَيْنِ ، بَلْ قُلْتُ : « وَقَدْ يَجْمَعُ اللَّهُ الشَّيْئَيْنِ » وَإِنْ عَاقَ حَرِّمَا نْ حَادَثُهُ أَنْ يُعَوَّقَ عَنِ الظَّفَرِ ، وَيَعْتَرِضَ دُونَ الْأَمَلِ ، فَأَغْلِبُهُ - أَيْدَهُ اللَّهُ - أَتَى فِي حَالِي الْمُطَالَةِ مَعَ غَيْرِهِ وَالتَّصَرُّفِ - وَيَوْعَى الْإِتْقَاعَ وَالتَّصَوُّفَ ^(١) ، كَأَلْمُهُتَدَى بِالنَّجْمِ حِينَ عَدِمَ ذُكَاؤُهُ ، وَمُتَيَمِّمِ الصَّعِيدِ حِينَ لَمْ يَجِدِ الْمَاءَ .

فَإِنْ أَغْشَى قَوْمًا غَيْرُهُ أَوْ أَرْزَهُمْ فَكَأَلَوْحَشٍ يُذْنِبُهُ مِنَ الْأَنْسِ الْمَحَلُّ وَاللَّهُ يَتَوَلَّاهُ بِالْفُسْحَةِ فِي عُمْرِهِ ، وَالْإِغْلَاءِ لِأَمْرِهِ ، وَيَصْرِفُ الْأَقْدَارَ مَعَ إِشَارِهِ ، وَيُصْرِفُ وَجُوهَ التَّوْفِيقِ إِلَى اخْتِيَارِهِ ، وَلَكَ - يَا سَيِّدِي - فِي اتِّدَابِكَ مَا أَنْتَدَبْتُكَ لَهُ مَا لِلْسَّاعِي الْمُنْجِحِ مِنَ الشُّكْرِ ، وَلِلْمُجْتَهِدِ الْبَالِغِ مِنَ الْعُذْرِ ، مِلَاكُ الْأَمْرِ بِتَقْدِيمِ الْمُرَاجَعَةِ بِالْجَوَابِ ، فَأَسْكُنْ إِلَيْهِ ، وَالْجَنَابِ فَأَعْتَمِدْ عَلَيْهِ ، وَأَهْدِي إِلَيْكَ نَدَى الْغَضِّ النَّاصِرِ مِنْ سَلَامِي ، وَالْأَرِجِ الْعَاطِرِ مِنْ تَحِيَّتِي .

رسالة إلى المعتضد

« وكتب إثر ذلك إلى المعتضد رقعة يقول فيها : »

أَطَالَ اللَّهُ بِقَاءِ الْحَاجِبِ فَخْرِ الدَّوْلَةِ - مَوْلَايَ وَسَيِّدِي وَمَوْلَى الْمَنَاقِبِ
الْجَلِيلَةِ ، وَالضَّرَائِبِ النَّفِيسَةِ - فِي أَكْمَلِ مَا تَكْفَّلَ لَهُ بِهِ مِنْ غُلُوِّ الْقَدْرِ ،
وَنَفَازِ الْأَمْرِ ، وَأَحْظَاهُ مِنَ النِّعَمِ بِأَسْبَغِهَا سِرًّا بِالًا ، وَأَبْرَدَهَا ظِلَالًا ، وَأَحْمَدَهَا مَالًا .
كُنْتُ - أَعَزَّ اللَّهُ الْحَاجِبَ - مَوْلَايَ قَدْ كَتَبْتُ إِلَى الْوَزِيرِ أَبِي عَامِرٍ
عَبْدِهِ بِمَا أَيْقَنْتُ أَنَّهُ أَتَّهَى إِلَيْهِ ، وَأَشْتَمَلَ عَلَيْهِ ، فَكَتَبَ الْوَزِيرُ إِلَى بَعْضِ
أَسْبَابِهِ بِمَا يَقُومُ مَقَامَ الْمُرَاجَعَةِ لِي بِمَا يَرْتَفِعُ عَنْ قَدْرِي ، وَلَا تَتَّسِعُ لَهُ سَاحَةٌ
شُكْرِي ، لِعِلْمِي أَنَّهُ مِنَ الْحَاجِبِ - أَيَّدَهُ اللَّهُ - صَدَرَ ، وَبَعْدَ إِذْنِهِ ^(١) نَفَذَ ،
وَالَّذِي عَدَانِي عَنْ أَنْ يَكُونَ الْكِتَابُ فِي ذَلِكَ إِلَى الْحَاجِبِ - أَبْقَاهُ اللَّهُ -
التَّادِبُ بِآدَابِ خِصْيَانِ الْعَبِيدِ فِي الْإِجْلَالِ وَالْإِعْظَامِ ، وَتَرِكَ التَّبَسُّطَ وَالْإِقْدَامَ ،
وَقَلَمًا أَسْتَفْنَتْ أَوَائِلُ مَطَالِبِ الْآتِبَاعِ لِحَضْرَةِ الْمُلُوكِ عَنْ وَسَائِطِ تَهْدُ لَهَا
وَتَعْتَمِدُ أَوْقَاتَ الْإِمْكَانِ بِهَا ، لِأَنِّي مَا اتَّخَذْتُ إِلَى الْحَاجِبِ - أَدَامَ اللَّهُ غُلُوهُ -
غَيْرَ سِيَادَتِهِ ذَرِيعَةً ، أَوْ التَّمَسُّتُ إِلَيْهِ إِلَّا مِنْ نِقَاسَةِ نَفْسِهِ شَفَاعَةً ، وَأَيُّ
مَعْدَى لِمَثَلِي عَنْ تَفْيُوثِ ظِلَالِهِ ، وَالْأَعْتِصَامِ بِحَبْلِهِ . وَصِنَاعَةُ الْآدَابِ كَاسِدَةٌ إِلَّا
عَلَيْهِ ، وَطَرِيقُ الْأَمَلِ مُوَحِّشَةٌ إِلَّا إِلَيْهِ ، وَلَا يَدْعُنِي إِلَى اسْتِطْلَاعِ مَا قَبْلَهُ
شَكٌّ فِي كَرَمِهِ ، وَلَا سُوءُ ظَنٍّ بِسَمَاحَةِ شَيْمِهِ ، بَلْ أُرُومُ الطَّرِيقَةِ فِي التَّوْطِئَةِ
لِلْمَطْلَبِ ، وَالتَّدْرِجِ إِلَى إِحْرَازِ الْأَدَبِ ، وَحَسْبِي أَنْ أَمْلِيَ قَدْ أَرْتَادَ الْجَنَابَ

الرَّحْبَ ، وَالْمَشْرَبَ الْعَذْبَ ، وَلَعَلَّ الْحُظُوظَ سَتُكْشَفُ ، وَالنَّوَائِبَ سَتُصْرَفُ ،
إِلَى أَنْ أُبْعَدَ إِلَى أُبْعَدِ غَايَاتِ الْأَمَلِ مِنْ مُشَاهَدَةِ حَضْرَتِهِ الْعَلِيَاءِ ، وَالنَّظَرَ إِلَى
غُرَّتِهِ الزَّهْرَاءِ ، فَوَاللَّهِ مَا يَنْصَرِفُ فِكْرِي ، وَلَا يَنْصَرِمُ حِينٌ مِنْ عُمْرِي ، إِلَّا
فِي الذِّكْرِ لَهُ ، وَالشَّوْقِ إِلَيْهِ ، وَالْمُثُولِ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَأَنَا أَقْدَمُ الْأَعْتِدَارِ مِنْ
مَهَابَةِ تَتَمَلَّكُ جَنَانِي ، وَحَصَرِ يَكَادُ يَقْطَعُ فِي أَوَّلِ الْمُشَافَهَةِ لِسَانِي ، فَإِنْ
حَدَّثَ ذَلِكَ فَعُذْرِي عُذْرٌ ^(١) الْفَضْلِ بْنِ سَهْلٍ وَقَدْ انْقَطَعَ بَيْنَ يَدَيِ الرَّشِيدِ ،
فَقَالَ : « يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ! مِنْ فَرَاهَةِ الْعَبْدِ أَنْ تَمْلِكَ قَلْبَهُ هَيْبَةً سَيِّدِهِ » .

وَسَيُفْضَى - بِمَشِيئَةِ اللَّهِ - إِلَى مَا يَسْتَجِيزُهُ الْحَاجِبُ مَوْلَايَ مِنْ إِمْتِنَاعٍ مِنْ
شَاهِدٍ ، وَيَسْتَطْرِفُهُ مِنْ أَدَبٍ يَسْتَطْلِعُهُ مِنْ إِجْمَالِ طَلَبٍ ، وَجَمَالِ مَذْهَبٍ ،
كَمَا أَنِّي أَعْلَمُ أَنِّي سَأَصِلُ إِلَى مَا لَمْ أَعْهَدْ مِثْلَهُ مِنْ بَهَاءِ مَنْظَرٍ ، وَسَنَاةِ مَخْبَرٍ ،
وَرِفْعَةِ شَأْنٍ . وَعِظَامِ سُلْطَانٍ ، وَأَعْلَى السَّعَادَةِ تُهَيِّي لِي مِنَ الْحِظِّ مَا أَثْبَتُ بِهِ
مَا أَدْعِيْتُهُ لِنَفْسِي مِنْ هَذِهِ الصِّفَاتِ ، وَأُنْجِزُ مَعَهُ مَا قَدَّمْتُ عَنْهَا مِنْ هَذِهِ
الْعِدَاتِ ، فَحَوْلُ اللَّهِ فِي ذَلِكَ كَفِيلٌ ، وَهُوَ حَسْبِي وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ، زَادَ اللَّهُ
الْحَاجِبَ مَوْلَايَ مِنْ سَنِي قِسْمِهِ ، وَهَنِي نِعَمِهِ ، وَبَلَغَهُ النَّهَايَةَ مِنْ آمَالِهِ .

رسالة من قرطبة

« وكتب إليه بعد أن صدر من حضرته إلى قرطبة

رسالة يقول فيها :

أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَ مَوْلَايَ لِلنِّعَمِ يُطَوَّقُهَا ، وَالْأَمَالِ يُصَرِّفُهَا ^(٢) ، وَالْمِنَنِ يُقَلِّدُهَا
وَالْأَحْرَارِ يَسْتَعْبِدُهَا .

(١) في الأصل : « فعذري عند الفضل . »

(٢) وفي نسخة الدخيرة المنقولة من النسخة المنقولة من النسخة المغربية : « يصدقها »

يَعْلَمُ الَّذِي أَسْأَلُهُ إِعْزَازَ مَوْلَايَ وَإِغْلَاءَ أَمْرِهِ ، وَصِلَةَ تَأْيِيدِهِ ، وَتَمَكِينَ
نَصْرِهِ ، أَنِّي - لَمْ أَزَلْ مُنْذُ فَارَقْتُ حَضْرَتَهُ الْجَلِيلَةَ حَضْرَةَ الْمَجْدِ وَالسِّيَادَةِ ، وَمَحَلِّ
الْإِقْبَالِ وَالسَّعَادَةِ - لِهَجِّ اللِّسَانِ بِمَا حَبَانِي مِنْ ثَمَارِ الْحِكْمَةِ وَالنَّعْمَةِ ، وَأَفَادَنِي
مِنْ عَقْدِ الْأَدَبِ وَالْفَسَبِ ، فَمِنْ كَبِيدِ حَاسِدٍ تَصَدَّعَتْ ، وَأَنْفَاسٍ مُنَافِسٍ
تَقَطَّعَتْ ، وَنَاعِمِ الْبَالِ أَكْشَفْتُ بَالَهُ ، وَمُتَمِّنٍ لِحَالِي طَالَمَا تَمَنَيْتُ حَالَهُ ، وَقَلَمًا
أَنَالَ أَذَنِي مَكَانَةً مِنْهُ ، وَأَرْقَى أَوَّلَ دَرَجَةٍ مِنَ الْخُصُوصِ بِهِ ، تَحْسُدُهُ
الْكَوَاكِبُ فِي إِشْرَاقِهَا ، وَتَنْحَشِدُ إِلَيْهِ الْأَمَانِي مِنْ أَطْرَافِهَا ، لِعَبِيدِهِ الَّذِينَ
أَنَا آخِرُهُمْ فِي الْخِدْمَةِ ، وَأَوَّلُهُمْ فِي شُكْرِ النِّعْمَةِ ، وَيَرْفَعُ مِنْ هَمَمِهِمْ مَا
أُنْخَفِضُ ، وَيَنْسُطُ مِنْ آمَالِهِمْ مَا أَنْقَبِضُ ، وَلَا يُعْدِمُهُمُ التَّقَلُّبُ فِي نِعْمَتِهِ ،
وَالْإِعْتِلَاقُ بِأَسْبَابِ ذِمَّتِهِ ، بِمَجْدِهِ وَكَرَمِهِ ، وَكَانَتْ مِنْ مَوْلَايَ - أَعَزُّهُ اللَّهُ -
إِشَارَةٌ بَلَّ عِبَارَةً أَعْدَدْتُهَا طَلِيعَةَ لِسْعُودٍ تَتَوَافَى طَلَقًا ، وَمُقَدِّمَاتٍ لِمَسَرَّاتٍ
تَتَوَالِي نَسَقًا ، فَلَمَّا لَحِقَ الْجِسْمُ بَعْدَ تَرْكِهِ النَّفْسَ لَدَيْهِ ، وَالْبَرَاءَةَ مِنْهَا إِلَيْهِ ،
بِالْوَطَنِ الَّذِي أَسْلَانِي عَنْهُ ، وَأَسْنَى لِي الْعَوَاضَ مِنْهُ ، تَأَيَّنْتُ مِنْ طَاعَتِهِ
الْمُقْتَرِنَةِ بِطَاعَةِ اللَّهِ فِي نَفْسِي مَمْلُوكَتِهِ لِمَا أَنَا مُهْتَأٌ بِهِ مُنَافِسٌ فِيهِ ، فَسَاعَفْتُ
الْمَآرِبَ ، وَأَشْمَحَتِ الْمَطَالِبُ ، وَلَمْ يَرِنِّي تَعَذُّرُ وَجْهِ حَاوِلَتِهِ ، وَلَا عِدَانِي تَيْسُرُ
أَمْرِ تَنَاوُلَتِهِ ، وَلَمْ تَبْقَ عِلَّةٌ تُسَوِّغُ بِاعْتِرَاضِهَا الْإِعْتِذَارَ إِلَّا مَا يَتَرَاخَى مَا يُعَاوَدُ
أَمْرُهُ ، وَيَتَجَدَّدُ فِي الْحَرَكَةِ إِذْنُهُ ، وَلَمْ أَسْتَأْذِنْ لِأَنَّ الْإِذْنَ بَعْدَ عَهْدِهِ ، وَلِأَنَّ
الْمِيعَادَ لَمْ يُحْكَمْ عَقْدُهُ ، بَلْ تَجَنَّبْتُ أَنْ أُدِلَّ بِتَرْكِ الْمُشَاوَرَةِ ، أَوْ أُخِلَّ بِرِسْمِ
الْمُؤَامَرَةِ ، فَلِمَوْلَايَ الطَّوْلُ فِي أَمْرِ الْوَسَاطَةِ عِنْدَهُ بِمُرَاجَعَةِ أُعْتِمِدُ عَلَيْهَا ، وَاجْتِهَدُ
فِي الْإِتِّهَاءِ إِلَيْهَا ، وَاللَّهُ يُبَلِّغُنِي الْأَمَالَ مِنْ وَفْقَةِ بِحَضْرَتِهِ ، وَنَظَرَةٍ إِلَى غُرَّتِهِ ،
وَتَقْبِيلِ لِرَاحَتِهِ ، وَتَصَرُّفٍ فِي سَاحَتِهِ ، فَهُوَ الْمَالِكُ لِذَلِكَ ، الْقَادِرُ عَلَيْهِ .

من رسالة

« وله من رسالة حذف أبو الحسن هنا أكثرها
ولم يذ كر إلا قطرة من وابل ، أو نفثة من سحر
بابل ، وها أنا مثبتها على تواليها ، إشارة لحسن
معانيها ، واستفادة من سني أدبه فيها ، وهي (١) : »

يَا سَيِّدِي الَّذِي كُنْتُ أَرَاهُ أَعَدَّ عُدْدِي ، وَأَخْصَّ جُنِّي ، مِنْ زَمَنِي ، وَمَنْ
أَبْقَاهُ اللَّهُ فِي أَصْلَحِ الْأَحْوَالِ ، وَأَفْسَحِ الْأَمَالِ .
أُبَدِي جَرَى كِتَابِي إِلَيْكَ بِشَرْحِ الضَّرُورَةِ الْخَافِزَةِ إِلَى مَا صَنَعْتَ مِمَّا
بَلَّغَنِي أَنَّكَ صَدَقَ اللَّائِمَانِ بِنِ عَلَيْهِ ، وَأَوَّلَ السَّفِيهَانِ الرَّأْيَ فِيهِ ، وَمِنْ أَمْثَالِهِمْ
وَيْلُ الشَّجِيِّ مِنَ الْخَلِيِّ ، وَهَانَ عَلَى الْأَمْلَسِ مَا لَاقَى الدَّيْرُ .
وَأَوْسَطُهُ بِمُعَاتِبَتِكَ عَلَى مَا كَانَ مِنْ أَنْفِصَالِكَ عَنِّي ، وَبِرَاءَتِكَ مِنْ آكِدِ الْمُحَنَّةِ
مِنِّي ، وَأَنَّكَ لَمْ تَكُنْ فِي وَرْدٍ وَلَا سَدَرٍ مِنْ مُشَارَكَتِي فِيهَا ، وَلَا كَانَتْ لَكَ
نَاقَةُ وَلَا جَمَلٌ فِي مُظَاهَرَتِكَ لِي عَلَيْهَا ، مَعَ الْقُدْرَةِ لَكَ عَلَى تَهْوِينِ خَطْبِهَا ،
وَتَذْلِيلِ صَعْبِهَا ، وَتَذْلِيلِ شَدِيدِهَا ، وَتَقْرِيبِ بَعِيدِهَا ، فَأَرَى صِدْقَكَ الْحَدِيثَ
وَمَا ذَاكَ بُخْلًا مِنِّي لِبُخْلِي عَلَيْكَ بِالْإِغْضَاءِ أَنْتَ عَيْنِي (وَلَيْسَ مِنْ حَقِّ عَيْنِي)
غَضُّ أَجْفَانِي عَلَى الْقَذَى (٢) وَإِنَّمَا يُعَاتَبُ الْأَدِيمُ ذُو الْبَشَرَةِ (٣) ، وَالْمَثَلُ السَّائِرُ :
يَبْقَى الْوُدُّ مَا بَقِيَ الْعِتَابُ ، وَقَالَ الْآخَرُ :

(١) ابن بسام . (٢) جملة «وليس من حق عيني» ساقطة من الأصل ، وقد أثبتناها لأن السياق يقتضيها ، وهو يشير إلى قول ابن الرومي :

« أنت عيني ، وليس من حق عيني غرض أجفانها على الأفذا . »

(٣) المعاتبسة : المعاودة وبشرة الأديم : ظاهره الذي عليه الشعر ، أي إنما يعاد إلى الدافع من الأديم ما سلمت بشرته ، وهو مثل يضرب في إمكان المراجعة والاستعتاب ، وفي الأصل «ولما يعاتب الأديم على البشرة . »

أَبْلَغُ أَبَا مِسْمَعٍ عَنِّي مُغْلَغَلَةٌ وَفِي الْعِتَابِ حَيَاةٌ بَيْنَ أَقْوَامٍ
وَأَخْتِمُهُ بِتَكْلِيفِكَ مَا كَانَ سَبَبَ الْكِتَابِ ، وَالذَّاعِي إِلَى الْخِطَابِ ، عَسَاكَ أَنْ
تَتَلَا فِي عَوْدًا ، مَا ضَيَّعْتَ بَدْءًا ، وَتَهْتَبِلَ آخِرًا ، مَا أَغْفَلْتَ أَوَّلًا ، فَيَعُودَ عَيْنُ
مَا أَفْسَدْتَ ، وَإِنْ كُنْتَ فِي ذَلِكَ : « كَذَابِنَا وَقَدْ حَلِمَ الْأَدِيمُ » ^(١) فَفَنَعْتَهُ
الْفَوْتَ قَبْلَ الْعَطَبِ .

وَخَيْرُ الْأَمْرِ مَا اسْتَقْبَلْتَ مِنْهُ وَلَيْسَ بِأَنْ تَتَّبِعَهُ اتِّبَاعًا
فِي عِلْمِكَ أُنِّي سُجِنْتُ مُعَالِبَةً بِالْهَوَى ، وَهُوَ أَخُو الْعَمَى ، وَقَدْ نَهَى اللَّهُ عَنْ
اتِّبَاعِهِ ، وَذَكَرَ أَنَّهُ يُضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ إِذَا يَقُولُ : « وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ
عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ . » وَقَالَ الشَّاعِرُ :

« إِذَا أَنْتَ لَمْ تَمُصِ الْهَوَى قَادَكَ الْهَوَى إِلَى بَعْضِ مَا فِيهِ عَلَيْكَ مَقَالُ . »
دُونَ تَأَنٍّ تَذَرُكَ بَعْضُ الْحَاجَةِ بِهِ ، أَوْ اسْتِثْنَاتٍ تُؤَمِّنُ مُوَاقِعَةَ الزَّلَلِ مَعَهُ ،
بَلْ : « أَوْرَدَهَا سَعْدٌ وَسَعْدٌ مُشْتَمِلٌ . » وَشَهِدَ ابْنُ الْعَشَارِ الْعَارِي عَنِ النِّقَةِ
وَالْأَمَانَةِ ، الْبَعِيدُ مِنَ الرَّعِيَةِ وَالصِّيَانَةِ ، النَّاشِرُ لِأُذُنَيْهِ طَمَعًا ، الْآكِلُ
بِيَدَيْهِ جَشَعًا ، فَكَانَ : « الْقَوْلُ مَا قَالَتْ حَذَامُ » . وَلَمْ يَقْتَصِرْ عَلَى أَنَّ الْحَقَّ
بِالشُّهُودِ ، وَهُوَ وَائِزٌ عَنْهُمْ ، وَنُونُ الْجَمْعِ الْمُضَافِ مَعَهُمْ ، دُونَ أَنْ يُلْحَقَ
بِحَزْمَةِ ذِي الشَّهَادَتَيْنِ ، وَيَتُوبَ مُنْفَرِدًا عَنْ أَثْنَيْنِ .

« لَيْسَ عَلَى اللَّهِ بِمُسْتَنْكَرٍ أَنْ يَجْمَعَ الْعَالَمُ فِي وَاحِدٍ . »

(١) اضرب للأمر الذي انتهى مساده ، وذلك أن الجلد إذا حلم أي فسد لإمانه ويقع فيه دود فننقب
لم يرج له لإصلاح ، ويروى عن الوليد بن عتبة أنه كتب إلى معاوية :
« لا يملك والكتاب إلى على كذابة وقد حلم الأديم . »

وَلَيْتَنِي مَعَ مَنْ لَا يَحِلُّ قَوْلُهُ عَلَيَّ ، أُعْذَرُ فِي شَهَادَتِهِ إِلَيَّ ، وَلَمْ يَقْتَرِنْ الْحَشَفُ
مَعَ سُوءِ الْكَيْلَةِ ، وَيَسْتَضِيفَ لِي الْغُدَّةُ إِلَى الْمَوْتِ فِي يَنْتِ سَلْوَايَةِ ، خُطَّتَا
خَسَفٍ لَمْ أَرِ النِّجَاءَ مِنْهُمَا إِلَّا أَنْ رَكِبْتُ الْحَوْلِي الْأَشْهَبَ ، وَرَأَيْتُ خُرَاسَانَ
مَكَانَ السُّوقِ أَوْ هِيَ أَقْرَبُ ، وَكَانَ الْمُتَوَلَّى سِجْنِي بَعْدَ شَهْرٍ مِنْ إِنْقَاذِهِ ، لَهُ
مَجْلِسٌ حَضَرَهُ فُقَهَاءُ الْحَضَرَةِ وَمَنْ أُعْلِمَ بِسِيَاهُمْ ، وَجَرَى فِي غِشْيَانِ الْحُكَّامِ
مَجْرَاهُمْ ، فَذَكَرَ لَهُ أَنَّهُ اتَّهَمَنِي بِالْمَغِيبِ عَلَى عَهْدِ الْمُتَوَلَّى مَوْلَايَ - كَانَ - نَقَعَ
اللَّهُ صَدَاهُ ، وَبَلَّ ثَرَاهُ ، وَتَبَّتْ عِنْدَهُ مَعَ ذَلِكَ أَنِّي مِمَّنْ تُعَامِلُهُ الْهِمَمُ ، وَلَا
تَرْتَفِعُ عَنْهُ الظَّنُّ ، فَكَأَنَّهُمْ أَفْتَى بِالْإِعْذَارِ إِلَيَّ ، فِيمَا شَهِدَ بِهِ مِنْ ذَلِكَ عَلَيَّ ،
ثُمَّ سَجَنَنِي أَنْ لَمْ آتِ بِمَدْفَعٍ ، أَوْ أَصْدَعَ مِنَ الْحُجَّةِ بِمَقْنَعٍ ، فَاحْتَاطَ وَاجْتَهَدَ ،
وَتَحَرَّى وَاقْتَصَدَ ، وَصَالَحَنِي مِنْ هَذِهِ الْفُتْيَا عَلَى النِّصْفِ بِتَأْخِيرِ الْإِعْذَارِ ،
وَتَقْدِيمِ الصَّلَاحِ ، وَالصَّلَاحُ جَائِزٌ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ ^(١) ، ثُمَّ أَظْهَرْتُ إِلَيْهِ عَقْدًا كَانَ
الْمُتَوَلَّى قَدَسَ اللَّهُ رُوحَهُ ، وَنَوَّرَ ضَرِيحَهُ ، قَدْ أَشْهَدَ فِيهِ أَنْ لَا مَالَ لَهُ ، وَأَنَّ
جَمِيعَ مَا تُحِيطُ بِهِ الدَّارُ الَّتِي تُؤْفَى بَعْدَ هَذَا الْإِشْهَادِ فِيهَا ، إِنَّمَا هُوَ لِلْغَانِيَةِ الَّتِي
فِي عِصْمَتِهِ ، حَاشَا دَقَائِقَ يَدَيَّهَا ، وَمُحَقَّرَاتِ عَيْنَيْهَا ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ مَنْ أَشْهَدَ بِهَذَا عَلَى
نَفْسِهِ ، وَتَقَيَّدَ مِثْلَهُ مِنْ لَفْظِهِ ، فَحَالَ أَنْ يُخْلَفَ عَهْدًا ، وَيَهْلِكَ مِنْ وَصِيَّةٍ ،
وَسَأَلْتُهُ الشُّورَى فِيمَا أَثْبَتَهُ مِنْ هَذَا الْعَهْدِ ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى ذَلِكَ ، وَلَوْ لَمْ
تَكُنِ الشُّورَى مِنْ أَدَبِ اللَّهِ إِذْ يَقُولُ : « وَشَاوَرَهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا

(١) جاء في رسالة عمر بن الخطاب رضي الله عنه الجامعة لأحكام القضاء التي أرسلها إلى أبي موسى الأشعري
قوله : « والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحل حراماً أو حرم حلالاً . » وفي الأصل : « والسجن
جائز بين المسلمين »

عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ . لَوْ جَبَّ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهَا لِقَاحُ الْعَقْلِ ، وَرَأَيْدُ الصَّوَابِ ، وَأَنَّ لِلْمُشَاوِرِ إِحْدَى الْحُسْنَيْنِ ، صَوَابًا يَفُوزُ بِمَحْمَدَتِهِ ، أَوْ خَطَأً يُشَارِكُ فِي مَذَمَّتِهِ ، قَالَ الشَّاعِرُ :

« وَلَا تَجْعَلِ الشُّورَى عَلَيْكَ غَضَاظَةً مَكَانُ الْخَوَافِ عُدَّةٌ لِلْقَوَادِمِ ^(١) . »
قَدْ قَرَعْتُ لَهُ الْعَصَا وَنَبَّهْتُهُ عَلَى أَنَّ الَّذِي دَعَوْتُهُ إِلَيْهِ ، لَا يَسُوعُ دَفْعِي عَنْهُ ،
وَلَا يَجُوزُ مَنَعِي مِنْهُ ^(٢) ، فَحِينَئِذٍ عَلَّلَنِي بِمَوَاعِيدٍ : كَانَتْ مَوَاعِيدُ عُرُقٍ لَهَا مَثَلًا ،
إِذَا قَطَعْنَا مِنْهُ عِلْمًا بَدَأَ عِلْمٌ ، وَكَانَ آخِرُهَا - الَّذِي نَسَخَ بِهِ مَا قَبْلَهُ - أَنْ تُذَرَجَ
الشُّورَى إِلَى أَبْنَاءِ الشُّورَى لِلْوَرَثَةِ ، فَتَوَيْتُ أَرْقُبُ هَذَا الْحَيْنَ ، وَأَرْجُو أَنْ
يَحِينَ ، كَمَا يَرْجُو أَخُو السَّنَةِ الرَّبِيعَ : وَكَمَا فِي بُطُونِ الْحَامِلَاتِ رَجَاءٌ .
« فَكُنْتُ وَإِيَّاهُ سَحَابَةً مُمَجِّلٍ رَجَاهَا ، فَلَمَّا جَاوَزَتْهُ أُسْتَهْلَتْ »

و في فصل منها :

وَلَمْ أَقْصَ عَلَيْكَ يَا سَيِّدِي مِمَّا أَجْلَبَتْهُ إِلَّا مَا شَهَرَ شُهْرَةً الْأَسْمِ ،
وَعُرِفَ مَعْرِفَةً النَّسَبِ ، وَمَا يَوْمُ حَلِيمَةَ بِسِرٍّ ، وَكُنْتُ أَوَّلَ حَبْسِي قَدْ
وُضِعْتُ مِنَ السَّجْنِ فِي مَوْضِعٍ قَدْ جَرَتْ الْعَادَةُ بِوَضْعِ مَسْثُورِي النَّاسِ ،
وَذَوِي الْهَيْئَاتِ مِنْهُمْ فِيهِ ، وَفِي الشَّرِّ خِيَارٌ ، وَبَعْضُهُ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضٍ ،
فَنُيْتُ - مِنْ مُطَالَبَةِ بَعْضِ مَا يَهْتَمُّ النَّاطِرُونَ فِي السَّجْنِ لَهُ وَيَسْعَوْنَ إِلَيْهِ - بِمَا
أَقْتَضَى نَقْلِي إِلَى حَيْثُ الْجُنَاةُ الْمُفْسِدُونَ ، وَالْأُصُوصُ الْمُقَيِّدُونَ ، وَشَكَوْتُ
ذَلِكَ إِلَى الْحَكَمِ الْحَابِسِ لِي فِي الْيَوْمِ الَّذِي مَضَى ذِكْرُهُ بِمَشْهَدٍ مَنْ تَقَدَّمَ

(١) البيت لبشار بن برد . (٢) في الأصل : « وبه على الذي دعوته إليه ، لا يسوع لي دفعه

صه ، ولا يجوز معنى منه . » وما أثبتناه هنا هو ما يمكن أن يستقيم به المعنى .

وَصَفُّهُ ، فَأَتَتْهُ مِنَ الرِّضَا بِهِ ، وَأَظْهَرَ الْأُمْتِعَاضَ مِنْهُ ، وَتَقَدَّمَ إِلَى الْمُوَكَّلِ
بِالسَّجْنِ فِي اخْتِيَارِ مَجْلِسِ أَتَابِنُ فِيهِ مَنْ لَا تَلِيْقُ بِي مُلَابَسَتُهُ ، وَأَنْتَبِذُ عَنْ
لَا تُرْضَى لِي مُجَالَسَتُهُ ، ثُمَّ لَمْ أَلْبَثْ أَنْ أَحْضَرَهُ مَجْلِسَ نَظَرِهِ ، وَأَمَرَ بِتَأْذِيْبِهِ ،
عَلَى أُمْتِثَالِهِ فِيمَا أَمَرَهُ بِهِ ، وَأَنْتَهَائِهِ إِلَى مَا حَدَّ لَهُ ، وَأُسْتَأْنَفَ الْعَهْدَ فِي
التَّضْيِيقِ عَلَى ، وَمَنْعَ مَنْ أَعْتَادَ صِلَتِي مِنَ الْوُصُولِ إِلَيَّ ، فَأَصْعِدْتُ إِلَى غُرْفَةٍ
فِي السَّجْنِ أَقْنَعَنِي بِهَا مَعَ خَسَاسَتِهَا ، وَأَسْلَانِي عَنِ الْمُصِيبَةِ بِالسُّكُونِ فِيهَا
- عَلَى مَضَاضَتِهَا - أَنْفِرَادِي مِنْ لَفِيفِ الْأَخْلَاطِ ، وَمَنْ ضَمَّهُ السَّجْنُ مِنَ السَّفَلَةِ
وَالسُّقَاطِ ، فَحِينَ أُسْتِوَاثِي إِلَيْهَا عَهْدَ بِحَطِّي إِلَيْهِمْ ، وَخَلَطِي بِهِمْ ، وَوَضَعِي
بَيْنَهُمْ ، فَتَقَلْتُ وَدَخَلَ إِلَيَّ فِي هَذِهِ الْحَالِ مَنْ أَبْلَغَ إِلَيَّ عَنْ ابْنِ أُخِي الْحَكَمِ
رِسَالَةً جَامِعَةً مِنَ السَّبِّ الْفَاحِشِ فُؤُونُهُ ، مُشْتَمِلَةً مِنَ الْوَعِيدِ الْمُرْهَبِ عَلَى
ضُرُوبِهِ . فَلَوْ ذَاتُ سِوَارٍ لَطَمَتْنِي .

« وَإِنَّكَ لَمْ يَفْخَرْ عَلَيْكَ كَفَاخِرٍ ضَعِيفٍ ، وَلَمْ يَغْلِبِكَ مِثْلُ مُغْلَبٍ »
فَلَمْ أَسْتَطِعْ صَبْرًا ، وَعَلِمْتُ أَنِّي قَدْ أَبْلَيْتُ عُذْرًا ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ يُعْذَرَ لِي لَبِيدٌ
وَكَادَ^(١) ، وَرَأَيْتُ أَنَّ الْعَاجِزَ مَنْ لَا يَسْتَبِيدُ . فَأَلَمَرُّهُ يَعْجِزُ لَا مَحَالَهُ ، وَلَمْ أَسْتَجِزْ
أَنْ أَكُونَ ثَالِثَ الْأَذَلَّيْنِ الْعَيْرِ وَالْوَتِدِ ، وَذَكَرْتُ أَنَّ الْفِرَارَ مِنَ الظُّلْمِ

(١) يشير إلى قول لبيد يحاطب لنتيبه :

فَقُومَا فَقُولَا بِالَّذِي قَدْ عَلِمْتُمَا وَلَا تَخْشَا وَجْهَاءَ وَلَا تَحْلُقَا الشَّعْرَ

وَقُولَا : « هُوَ الْمَرْءُ الَّذِي لَا خَلِيلَ لَهُ أَضَاعَ وَلَا خَالَ الصَّدِيقَ وَلَا غَدَرَ »

إِلَى الْحَوْلِ ، ثُمَّ اسْمُ السَّلَامِ عَلَيْكُمَا وَمَنْ يَكُ حَوْلًا كَمَا لَا فَقَدْ اعْتَذَرَ

وَاعْتَذَرَ كَأَعْدَرَ أَنِّي بِعُذْرٍ ، فَهَمَّا بَعْدَ تَحَامِ الْحَوْلِ إِذَا أَمَسَّ كُنَّا عَنِ النُّوحِ وَالْبُكَاءِ عَلَى أَيْهَمَا فَلَهُمَا الْعُذْرُ .

وَالْهَرَبَ مِمَّا لَا يُطَاقُ مِنْ سُنَنِ الْمُرْسَلِينَ . قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى لِسَانِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ : « فَفَرَزْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ » . وَقَالَ الشَّاعِرُ :

« لَا عَارَ لَا عَارَ فِي الْفِرَارِ ، فَقَدْ فَرَّ نَبِيُّ الْهُدَى إِلَى الْغَارِ »

وَنَظَرْتُ فِي مُفَارَقَةِ الْوَطَنِ ، وَالْبَيْنِ عَنِ الْأَحِبَّةِ . فَتَبَيَّنَ لِي أَنَّ إِحَاشَ نَفْسِي بِإِيْنَاسِ أَهْلِي ، وَقَطْعَهَا فِي مُوَاصَلَةِ وَطَنِي ، غَبْنٌ فِي الرَّأْيِ ، وَخَوَرٌ فِي الْعَزْمِ ، وَوَجَدْتُ الْحَرَ يَنَامُ عَلَى الشُّكْلِ ، وَلَا يَنَامُ عَلَى الذَّلِّ ، وَأَذِنْتُ إِلَى قَوْلِهِمْ : لَيْسَ يَنَافُكَ وَبَيْنَ الْبِلَادِ نَسَبٌ ، وَإِذَا نَبَا بِكَ مَنَزِلٌ فَتَحَوَّلَ ، وَقَالَ بَعْضُ الْمُخَدِّثِينَ :

« أَرَى النَّاسَ أُحْدُوْثَةً فَكُونِي حَدِيثًا حَسَنًا

كَأَنَّ لَمْ يَزَلْ مَا أَتَى وَمَا قَدْ مَضَى لَمْ يَكُنْ

إِذَا وَطَنٌ رَأَيْتُ رَأَيْتُ فَكُلُّ مَكَانٍ وَطَنٌ »

وَلَمْ أَسْتَقْرِبْ أَنْ أُسَامَ بِمَثَلِ هَذَا الْخَسْفِ فِي مَسْقَطِ رَأْسِي ، وَمَعَقُ^(١) تَمَائِي ، وَأَوَّلِ أَرْضٍ مَسَّ ثُرَابُهَا جِلْدِي ، فَقَدِيمًا ضَاعَ الْمَرْءُ الْفَاضِلُ فِي وَطَنِهِ ، وَكَسَدَ الْعَلِيقُ الْغَبِيْطُ فِي مَعْدِنِهِ . قَالَ بَعْضُهُمْ :

« أَضِيعُ فِي مَعْشَرِي ، وَكَمْ بَلَدٍ يَعُودُ عُودُ الْكِبَاءِ مِنْ حَطْبَةٍ »

فَأَسْتَخَرْتُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَاصْصَحَّ وَجْهَ الْمُدْرِ ، ثَابِتَ قَائِمِ الْحِجَّةِ ، عِنْدَ مَنْ غَضَّ عَيْنَ الْهَوَى ، وَخَزَنَ لِسَانَ التَّعَسُّفِ ، وَاللَّهُ يُصِيبُ غَرَضَ الصَّوَابِ بِرَأْيٍ ، وَيُقَرِّبُ غَايَةَ النِّجَاحِ عَلَى سَعْيٍ ، حَسْبَمَا ذَلِكَ فِي عِلْمِهِ أَنِّي مَظْلُومٌ مَبْنِيٌّ

(١) للمع : الموضع الذي لمع أى تشق فيه عن الصبي التمام ، ومنه قوله :

« بلاد بها عى الشباب تَمَائِي وأول أرض مس جلدى ثرابها . »

عَلَى، مَنسُوبٌ مَّا لَمْ آتِهِ إِلَى، فَهُوَ الْمُؤَمَّلُ لِذَلِكَ، وَالْمَرْجُوءُ لَهُ، وَلَعَزَمَكَ يَاسِيدِي
 إِنَّ سَاحَةَ^(١) الْعُذْرِ لَتَضِيقُ عَنْكَ، وَمَا تَكَادُ تَتَّسِعُ لَكَ، فِي إِسْلَامِكَ تَلْمِيزَكَ
 وَابْنَ جَارِكَ وَشَيْخِكَ الَّذِي لَمْ تَزَلْ مُتَابِرًا عَلَيْهِ آخِذَا عَنْهُ مُقْتَبِسًا مِنْهُ مَعَ
 إِكْتَارِكَ مِنْ ذِكْرِ هَذَا، وَالْأَعْتِدَادِ بِهِ، وَأَدْعَاءِ الْحِفْظِ لَهُ، وَقَدْ رَوَيْتَ أَنَّ
 حَسَنَ الْعَهْدِ مِنَ الْإِيمَانِ، وَسَمِعْتَ الْمَثَلَ: « أَنْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا . »
 قَالَمَ كَثِيرٌ بِأَخِيهِ، وَلَا أَقَلٌّ مِنْ أَسْتَعْمَالِ الْجِدِّ، وَأُسْتِغْرَاقِ الْجَهْدِ، فَيُبْلَغُ
 نَفْسٍ عُذْرَهَا مِثْلُ مُنْجِحٍ، وَلَا لَوْمْ فِي أَمْرٍ يُبْلَغُ الْعُذْرُ، وَلَكِنْ مَنْ لَكَ
 بِأَخِيكَ كُلِّهِ، وَمَا حُمَّ وَقَعٌ، وَلَا حَذَرٌ مِنْ قَدَرٍ، وَقَدْ سَبَقَ السَّيْفُ الْعَدْلَ،
 وَتَقَدَّمَ مِنْ فِعْلِي مَا جَفَّ بِهِ الْقَلَمُ، وَأَنَا الْآنَ بِحَيْثُ أَمِنْتُ بَعْضَ الْأَمَنِ، إِلَّا
 أَنْ رَزَا^(٢) مِنْ وَعِيدِ سَقَطَ إِلَى بَأْنِ السَّعَى لَمْ يَرْتَفِعْ، وَأَنْ مَادَّةَ الْبَغْيِ لَمْ تَنْقَطِعْ،
 وَأَنْ الْبَصِيرَةَ مُسْتَحْكِمَةً فِي اسْتِرْجَاعِي مِنَ الْأَفْقِ الَّذِي أَحُلُّ بِهِ، وَالْجَنَابِ الَّذِي
 أَحْطُ فِيهِ، وَأَكْدَ ذَلِكَ فِي ظَنِّي مَا كَانَ أَشَارَ لِي إِلَيْهِ بَعْضُ مَنْ كُنْتُ آوِي
 إِلَى الثِّقَةِ بِعَهْدِهِ، وَأَبْنَى عَلَى الْوَثَاقَةِ مِنْ عَقْدِهِ، مِنَ الْفُقَهَاءِ الْمَوْسُومِينَ بِالْآثَرَةِ
 عِنْدَ الْحَكَمِ الْمَذْكُورِ وَالْمَكَانَةِ مِنْهُ، وَقَدْ عَاتَبْتُهُ عَلَى تَأْخِيرِهِ عَنِّي مُظَافَرَتِي
 وَتَقْصِيرِهِ فِي مُوَازَرَتِي، فَأَعْتَذَرَ بِأَنْ ذَلِكَ لَا سَبِيلَ إِلَيْهِ، وَلَا مَنَفَذَ لِلْحِيلَةِ فِيهِ، إِذِ
 الْمُحَرِّضُ عَلَى لَا تَتَأْتِي مُعَارَضَتُهُ، وَلَا يَتَهَيَّأُ الْإِسْتِئْذَادُ عَلَيْهِ، وَأَنَّهُ وَصَفَنِي
 بِالْبَدَاءِ وَهَابِنِي بِالتَّسْلُطِ عَلَى الْأَعْرَاضِ، وَوَاللَّهِ مَا أُسْتَجَزْتُ هَذَا بِمَدَّ أَنْ هَتَكَ

(١) في الأصل: « ان ساعة العذر . » وفي هامش الأصل « اعلمها سه » وقد أئمتنا مكانها « ساحة »

التي هي على صورتها في الخط ليستقيم المعنى . (٢) الرز والركر الصوت الحقي تسمعه من بعيد .

مِنْ سِتْرِي مَا هَتَكَ ، وَأَنْتَهَكَ مَا أَنْتَهَكَ ، إِنْ كُنْتُ أَقُولُ مَعْدُورًا ، وَأَنْقُتُ
مَعْدُورًا ، فَكَيْفَ قَبْلَ ذَلِكَ إِذْ لَمْ يَحْدُثْ سَبَبٌ ، وَلَا غَرَضٌ مُوجِبٌ ، وَمَالِي
وَهَذَا الْمَجْتَنِّي ثُمَّ مَالِيَا ، وَ « سَتُكْتُبُ شَهَادَتَهُمْ وَيُسْأَلُونَ » وَلَيْسَتْ هَذِهِ
بِيَكْرٍ مِنَ النَّهْمِ الَّتِي دَخَلَ بِهَا بَيْنَ الْعَصَا وَحِلَاهَا :

« فَإِنِّي رَأَيْتُ غَوَاةَ الرَّجَا لِي لَا يَثْرُ كُونَ أَدِيمًا صَحِيحًا »

وَمَنْ يَأْذَنُ إِلَى الْوَاشِينَ تَسْلَقُ ^{***} مَسَامِعُهُ بِالسِّنَةِ حِدَادٍ

وَيَا سَيِّدِي :

لَوْ بَغَيْرِ الْمَاءِ حَلَقِي شَرِيقُ كُنْتُ كَالظُّلْمَانِ بِالْمَاءِ أَعْتَصَارِي
وَوَاللَّهِ مَا تَوَهَّمْتُ أَنِّي أُوتِي مِمَّنْ أُوتِيَتْ مِنْهُ مَعَ اتِّصَالِي بِهِ ، وَأَنْقِطَاعِي إِلَيْهِ ،
وَأَتَسَامِي بِالتَّأْمِيلِ لَهُ ، وَالتَّعْوِيلِ عَلَيْهِ . إِنْ الْمَعَارِفَ فِي أَهْلِ التُّهْلِي ذِمِّمْ .
وَلَكِنْ :

إِذَا كَانَ غَيْرُ اللَّهِ - لِلْمَرْءِ - عُدَّةً أَتَتْهُ الرِّزَايَا مِنْ وَجْهِهِ الْفَوَائِدِ
لَقَدْ كَانَ مِنْ مَحَاسِنِ الشَّيْمِ ، وَشُرُوطِ الْمَرْوَةِ وَالْكَرَمِ ، أَنْ يَهَبَ لِي مَا أَنْكَرَ
لِمَا عَرَفَ ، وَيَعْفِرَ مَا سَخِطَ لِمَا رَضِيَ ، وَيَدْفَعَ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، وَيُؤْثِرَ
الَّذِي هُوَ أَجْمَلُ وَأَرْفَقُ ، وَيَتَوَقَّفَ عِنْدَ مَا نُصِّ لَهُ مِنْ سِعَايَةٍ ، وَزُفِّ إِلَيْهِ مِنْ
وِشَايَةٍ ، فَإِنْ كَانَ بَاطِلًا أَلْقَاهُ ، وَفَضَحَ الْمُخْبِرَ الْمُتَقَرَّبَ بِهِ وَأَقْصَاهُ ، وَإِنْ كَانَ
حَقًّا صَبَرَ الْحَلِيمِ ، وَأَغْضَى إِنْغِصَاءَ الْكَرِيمِ ، وَقَبِلَ إِنَابَةَ الْمُعْتِيبِ ، وَأَقْتَصَدَ
فِي مُوَاخَذَةِ الْمُذْنِبِ ، فَقَدَّمَ التَّوْقِيفَ ، قَبْلَ التَّقْطِيفِ ، وَالتَّأْنِيبَ ، قَبْلَ التَّأْدِيبِ
فَإِنَّ الرَّفْقَ بِالْجَانِي عِتَابٌ ، وَالْحُرُّ يُلْجِي وَالْعَصَا لِلْعَبْدِ :

وَلَسْتُ بِمُسْتَبَقٍ أَخَا لَا تَلْمُهُ عَلَى شَعَثٍ، أَيُّ الرِّجَالِ الْمَهْذَبُ؟
وَهُوَ يَرَى وَيَسْمَعُ أَنَّ بِالْخَضِرَةِ قَوْمًا لَا يَحْصُرُهُمُ الْعَدُوُّ تُحْتَمِلُ سَقَطَاتِهِمْ ،
وَتُغْتَفَرُ هَفَوَاتِهِمْ ، وَتُقَالُ عَثَرَاتُهُمْ :

وَمَا شَرُّ الثَّلَاثَةِ أُمُّ عَمْرٍو بِصَاحِبِكَ الَّذِي لَا تَصْبَحِينَ^(١)
وَمَا أَعْلَمُ أَنَّهُمْ يُدْلُونَ بِوَسِيلَةٍ إِلَّا شَارَكَهُمْ فِيهَا ، وَلَا يَمُتُونَ بِذَرِيعَةٍ يَنْفَرِدُونَ
دُونِهَا :

هُوَ الْجَدُّ حَتَّى تَفْضَلَ الْعَيْنُ أُخْتَهَا وَحَتَّى يَصِيرَ الْيَوْمُ لِلْيَوْمِ سَيِّدًا
فَإِنْ كَانَتْ مُسَامَحَتُهُمْ لِسَابِقَةٍ سَلَفَتْ فَقَدْ أَحْرَزْتُ مِنْهَا الْحِظَّ الْأَعْلَى ، أَوْ لِكَمَالِ
أَدَبٍ فَقَدْ ضَرَبْتُ فِيهِ بِالْقِدْحِ الْعَلِيِّ ، أَوْ لِلطُّفْلِ تَوَدُّدٍ فَمَا قَصَّرْتُ فِي الْإِجْتِهَادِ
غَيْرَ أَنِّي حُرِمْتُ التَّوْفِيقَ ، وَالْأَمْرُ لِلَّهِ ، رَبِّ مُجْتَهِدٍ مَا خَابَ إِلَّا لِأَنَّهُ جَاهِدَ .
فَإِنْ كَانَ ذَنْبِي أَنْ أَحْسَنَ مَطْلَبِي أَسَاءَ فِي سِوَةِ الْقَضَاءِ لِي الْعُذْرُ
وَاللَّهِ لَقَدْ أَظْهَرْتُ مَذْحَجَهُ ، وَأَضْمَرْتُ نُصْحَهُ ، وَتَمَمْتُ عَلَى الصَّاعِيَةِ لَهُ ، وَجَرَيْتُ
مِلءَ الْعِنَانِ إِلَى الْأَعْتِلَاقِ بِهِ ، أَسْقِيهِ السَّائِغَ مِنْ مِيَاهِ وَدِّي ، وَأَكْسِيهِ السَّابِغَ
مِنْ بُرُودِ خَمْدِي ، وَأُجْنِيهِ النِّعْصَ مِنْ ثَمَرَاتِ شُكْرِي ، وَأُهْدِي إِلَيْهِ الْعِطَرَ
مِنْ نَفَحَاتِ ذِكْرِي لَا يُفِيدُنِي التَّحَبُّبُ إِلَيْهِ ، إِلَّا ضِيَاقًا لَدَيْهِ ، وَلَا يَزِيدُنِي
النَّقْرَبُ مِنْهُ ، إِلَّا بُعْدًا عَنْهُ :

كَأَنِّي أَسْتَدْنِي بِهِ إِنْ حَنِيتُ إِذَا النَّزْعُ أَذْنَاهُ مِنَ الصَّدْرِ أَبْعَدَا
وَالَّذِي أَحْبَبُهُ مِنْكَ ، وَائْتِقُ فِي الْمَسَارَعَةِ إِلَيْهِ بِكَ لِقَاءَهُ مُجَارِيَا ذِكْرِي ، مُفَاوِضًا

(١) أى ليس شرّ الثلاثة يا أم عمر الذى لا تسعينه الصبوح بصاحبك ، وى الأصل :

« وما شرّ الثلاثة — أم عمرو — لصاحبك الذى لا تصبحينا . »

فِي أَمْرِي ، مُعْلِمًا لَهُ بِالَّذِي لَا يَذْهَبُ عَنْهُ - مِنْ أَنَّ الَّذِي اخْتَرْتُهُ لِنَفْسِي غَايَةُ مَا يُسِيءُ الْمَدْوُ بِهِ ، وَيُسَاءُ الْمَوْلَى مِنْهُ - فَالْجَلَاءُ أَخُو الْقَتْلِ ، وَالْغُرْبَةُ أَحَدُ السَّبَاءِ مِنْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ . » وَقَالَ الشَّاعِرُ :

« وَمَنْ يَغْتَرِبَ عَنْ قَوْمِهِ لَا يَزَلْ يَرَى مَصَارِعَ مَظْلُومٍ حَجْرًا وَمَسْجَبًا
وَتَذَقْنُ مِنْهُ الصَّالِحَاتُ ، وَإِنْ يُسِيئُ يَكُنْ مَا أَسَاءَ النَّارُ فِي رَأْسِ كَبْكَبَا »
وَقَدْ هَجَرْتُ الْأَرْضَ الَّتِي هِيَ ظِرِّي ، وَالْدَارَ الَّتِي كَانَتْ مِهَادِي ، وَغَبْتُ عَنْ أُمِّ
أَنَا وَاحِدُهَا ، تَمْتَدُّ أَنْفَاسُهَا شَوْقًا إِلَيَّ ، وَتَغْضُ أَجْفَانُهَا حُزْنًا عَلَيَّ ، وَاللَّهُ يَرَى
بُكَاءَهَا ، وَيَسْمَعُ لِي - عَلَى مَنْ ظَلَمَنِي - نِدَاءَهَا ، فَلَا سِتْجَابَةَ مَضْمُونَةَ لِلْمُخْلِصِ
وَالْمَظْلُومِ ، وَقَدْ حَمَلْتُ السَّمْتَيْنِ ، وَأُسْتُوجِبْتُ الصَّفَتَيْنِ ، وَلَتَكُنْ بُغْيَتُكَ الَّتِي
تَدْخِرُهَا عَلَيْهَا كَلِمَةً تَأْمِينٍ ، وَإِشَارَةً إِلَى تَأْنِيسٍ وَتَسْكِينٍ ، تُرَاجِعُنِي بِهَا
فَاطْهَرُ بِحَيْثُ أَنَا آمِنًا ، وَأَتَقِي الْعَصَا مُطْمَئِنًّا ، فَإِنْ وَجَدْتَ عَحْزَ الشُّفْرَةِ ،
فَالْعَوَانُ لَا تُعَلِّمُ الْحِمْرَةَ ^(١) ، فَإِنْ أَشْبَهْتَ اللَّيْلَةَ الْبَارِحَةَ ، أَعْلَمْتَنِي بِذَلِكَ ، فَطَلَبْتُ
الْأَمْنُ فِي مَظَانِّهِ ، وَتَقَرَّرْتُ السَّلَامَةَ فِي مَوَاطِنِهَا ، وَصَبَرْتُ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ لِي
وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ، كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ، وَمَعَ الْيَوْمِ غَدٌ ، وَلِكُلِّ حَالٍ
مُعَقَّبٌ ، وَلَرُبَّمَا أَجَلِي لَكَ الْمَكْرُوهُ عَمَّا تَحْمَدُ ، وَلَكَ يَا سَيِّدِي فِي أَنْتِدَابِكَ لِمَا
نَدَبْتُكَ إِلَيْهِ الْفَضْلُ ، وَالْأَيَادِي قُرُوضٌ ، وَالصَّنَائِعُ وَدَائِعُ :

« لَا يَذْهَبُ الْعُرْفُ بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ . »

وَالْتَّحِيَّةُ الطَّيِّبَةُ وَالسَّلَامُ الْمُرَدَّدُ عَلَى سَيِّدِي .

(١) الحمرة : اسم للهيئة من الاختمار أى وضع الحمار على الرأس ، وهو مثل يضرب ان حذق الأشياء

وجرب الأمور .

شعر الملكين

(١)

شعر المعتضد

« قال المعتضد بالله المنصور بفضل الله أبو عمرو

عباد بن محمد بن عباد رحمه الله . »

إذا نام أقوام عن المجد - صلة -
أسعد عبي أنت تنام في الحال
وإن راق أقواماً - من الناس - منطق
يروق ، بدا من مقال وأفعال . «
(وقال)

« أقوم - على الأيام - خير مقام ،
وأوقد في الأعداء - شر ضرام
وأثقف في كسب الحامد - مهجتي ،
ولو كان - في الدكر الجليل - حامى
وأبلغ - من دنياي - مسمى مؤلفها ،
وأضرب - في كل الملا - بسهام
إذا مصحح الأملاك تقص ، فانه
يبينه - عند الأنام - تمامي . «
(وقال)

« من كان يسأل عن نوال فأنا الذي لست يسأل
البحل عين تقيصة ، والجود عين للكمال
أبصرت رشدي في الندي ، فالبحل - عندي - كالضلال
هذا زفاف طعمه ، والجود حلوا كالزلال . «
(وقال)

« لو كان قلبي - من الاشغال - متزحاً ،
نادى لفقد حبيب النفس : واحرباً
لكنها شغل بالجد - مجتهداً -
يلهبه من حبه إن بان أو قرباً . «

« لقد بسط الله المسكارم من كفى
فلست - على العلات منها - أذا كف
تتادى بيوت المال - من فرط بذلها -
يمى : « قد أسرفت ظالمى كفى »
أقرى يمي بالسباح فتنهى
ولا ترقضى خلا يقول لها : يكي
لعمرك ، ما الاسراف في طيبة ،
ولكن طبع البجل عندي كالخنف . «
(وقال)

« من لشجاعة والكرم إلا الظالم - لوم الظلم
من لست تعدم عنده غير التبذل والمدم
أحيا المسكارم والملا وأقام ما آد المهم
يلقى العداة ، وسيفه قد قط هامات البهم . «
(وقال)

« لعمرك إني - بالمدامة - قوال ،
وإني - لما يهوى الندامى - لفعال
وإني - للخل الخليل - لتناش ،
وإني - للقتل المناوى - لقتال
قسمت زمانى - بين كد وراحة -
فلترأى أسعدار ، ولطبيب آصال
فأمسى على الذات واللهو - ما كفا
وأضحى - بساحات الرياسة - أختال
ولست - على الإدمان - أغفل بفتى
من المجد ، إني - في المعالي - لختال

(وقال)

« هذى السعادة قد قامت على قدم
وقد خلفت لها في مجلس الكرم
فان أردت - إلهي - بالورى حسناً
فلصكني زمام الدهر والأمر
فاني لا عدك الدهر عن حسن ،
ولا عدك بهم عن أكرم الشيم
أفارع - الدهر - عنهم كل ذي طلب
وأطرد - الدهر - عنهم كل ذي عدم . »

(وقال)

« عن الفصد قد جأروا ، وما جرت عن تصد
إذا خفيت طرق العرائس عن أسد
إذا اعترضوا للبحل أعرضت عنهم ،
وإن من أقوام كتمت الذي أسدى
فله ما أخفى من المدل والندى ،
ولله ما أبدى من الفضل والمجد
ولا ألتقي سبى بغير بشاشة
إذن فيحدث الله معروفه عندي . »

(وقال)

« ألام ، ومالوى - على الحب - واحد ،
وقد صادني طرف كليل وحاجب
أنحجب عني - والفؤاد يحجبها -
لفقد عز محجوب تمامه حاجب
أروم فؤادي - في العرام - لينتني
وكيف وما دون الأبية حاجب . »

(وقال)

« زهر الأسنه في الهيجا - فدت زهري
غرس أشجارها مستجول المر
ما إن ذكرت لها من ممرك جلل
إلا تحللت به بالصارم الذكر
حق غدوت وأعدائي تغاطيني
يا مانل الناس بالأجناد والفكر . »

(وقال)

« وإذا توعدت المسالك لم أرد
فيها السرى إلا برأى مقمر

وإذا طلبت عزيمة ففاتي
فيها العزيمة والسان السهرى . »
(وقال)

« كلام - كمثل الدر - تنثره نثرأ
ووصل - كظل الروض - تعطيك نثرأ
ولو لم تشب وصلي بهجر خلتي
أشابه منها الشس أو الهم البدر . »
(وقال)

« أنك الليل معتكراً يافقه سنا البدر
ذر الساعات تبسطه ستقبضه يد الفجر . »
(وقال في القاضي أبي القاسم أبيه)

« ألا يا مليكا يرغى ويهاب
وبجراً له - في المكارمات - عباب
ومولى عدتي - مذنبات - مكارم ،
يصوب بها - من راحتيه - سحاب
أطعتك - في سري وجهري - جهاد ،
فلم يك لي - إلا اللام - ثواب
وأعملت جهدي في رضاك مشراً

ومن دون أن أضعي إليه حجاب
ولما كبا حدى إليك ولم يسع
لنفسى - على سوء المقام - شراب
وقل أصطباري ، حين لالى عندكم
- من العطف - لإفسوة وتباب
مررت بنفسي أبتغى فرجة لها
على أن حلو العيش بعدك صاب
وما هزنى إلا رسولك أن جرت

إلى به صم الحضاب وكاب
فقال مقالا لم أحد عن مقاله
مناباً ، وعن بعض الأمور مناب
دعاك أمير المؤمنين مثوباً
فقلت : « أمير المؤمنين نجاب »
فجئت أغذ السير ، حتى كأنما

يطير بسيرى - في الغلاق - عقاب
وما كنت - بعد الدين - إلا موطأ
بعضى على ألا يكون إياب

ولكنك الدنيا إلى حبيبة
فما عنك لي - إلا إليك - ذهاب
وفضلك في ترك اللام ، فانه
- وحقت - في قلبي ظلاً وحراب
إذا كانت النعمى تكدر بالأذى
فما هي إلا عمة وعذاب
ولا تقبض بالنع كفى فانه
- وحدك - تقص للملا وخراب
فوالله ما أبى بذلك غير أن
تحلى بمحدوى راحتك رقاب
ويهدى إليك الناس دون تصع
شبه صدق لم يشبه كذاب
مسكل نوال لي ، إليك انقباضه ،
وأنت عليه - بالشاء - مثاب
بقيت مكيب الأسر ، ما ذر شارق ،
وما لاح في أفق السماء شهاب .

(وقال)

« يا قاتل العيب ولا واق
لا ترس بالله بانفاقي
عينك قد قادت إلى الردى
فالقلب جناح إلى راق
لولاك والرحمن ما كنت من
يحب في حمة عشاق
قد لدغت صدفاك قلبي فغل
تعم للذغ بدرياق . »

(وقال)

« رعى الله من يصلى مؤادى بحبه
سميراً ، وعيى منه في جنة الخلد
غزالية العيين شعبة السن
كثيية الردي غصنية القد
شكوت إليها حبها بمسدامى
وأعلنتها ما قد لقيت من الوجد
فصادف قلبي قلبها - وهو سالم -
فأعدى ، ودو الشوق للمبح قد يمدى

فجادت - وما كادت - على بخدما
وقد ينفع الماء النير من الصلد
فقلت لها : « هاتى ثيابك لاني
أفضل نوار الأفاقي على الورد
وميل على جسمي بجسدك » فاشت
نعيد الذي أملت منها كما تبدي
صناقاً ولثماً أرويا الشوق بيتنا
- فرادى ومتنى - كالشرار من الزند
فياساعة - ما كان أقصر وقتها
لدى - تقضت غير مذمومة المهده .
(وقال)

« ينادون قلبي ، والعرام يحجب ،
والقلب - في حين النداء - وجيب
شوق دماء الشوق والوجد والهوى
يجيب نداء الحب وهو يحجب
يقاسى فؤادى الوجد والحب واصل -
وكيف تراه إن جفاه حبيب ؟
إذا أخطأ الأحباب ترتيب حالهم
فانت فؤادى - دائماً - ليصيب
علم بأسرار الغرام ، لأنه
نصير - بأدواء الحسان - طيب
يواصلنى سرّاً ، ويصرم ظاهراً ،
وذلك - من أمه الهن - عجيب . »
(وقال)

« ببيض الهند والأسل الحداد
أرجى أنت يتم لي مرادى
فأبلغ بغيتي ، وأريج نفسي ،
وتحمد حالتي في كل نادى
ففى الدهر في قتل الأفادي ،
وحسم رقابهم في كل وادى
فذاك الفرض - والرحمن - عندي
كثل الفرض في حال الجهاد . »
(وقال)

« وليل ظللنا فيه نمل كأسنا
إلى أن بدت للمصبح في الليل أعمال

(وقال)

« ذكراك في في قد شئت بتسبيحي
أفديك يا فتنة الجثمان والروح
الله يعلم أنى لست أمحركم
دهرى ولا تنقضى فيكم تباريحى
إن كنت أشرح معنى حيكم شعفاً
فإن سرك عندى غير مشروح . »

(وقال)

« يا جاهل الحب إن الحب ذو سند
مهما أجزعته يوماً سوف أعتد
أبجمل الحب من أضحى به حرق
تكاد من حرها الأحشاء تنقد
الله يعلم أنى شقيق أبدا
لا يقضى الشوق حتى ينقضى الأبد
إن يشرب الجسم برد الوصل منتعشاً
يهدى إليه وادى حر ما يحمد . »

(وقال)

« لله درّ الحب ماذا يصنع
يعنو له ملك الرمان ويخضع
للحب سلطات عظيم شأنه
مهما يقل قولاً فقلبي يسع
إن يفر بالهجران مالك مهجتي
أقل إليه بحالتي أنفرت
ماذا انتفعت بحالتي عند الهوى
حال الهوى أبداً أجل وأرفع . »

(وقال)

« لله ما خلد الأحاسى في خلدى
لمن غدا والدى كالروح والجسد
للاوحدى أبى الحيش الذى ظفرت
منه بأفئس علق في الأمام يدي
وفقى الرأى في الرايات لدته
في الجد والجود لافى العيشة الرغد
إذا رآته الملا نادته منصحة
يا قرّة العين بل يا فلذة الكبد . »

وولت نجوم الليل تجرى هزيمة

وجاء مع الاصيل - نصروا إقبال
نقضت - من هذا وذاك - ليانة
وتمّ لنا فتح مبین وآمال .
(وقال)

« وليل آدمنا فيه شرب مدامة
إلى أن بدا للصبح في الليل تأمير (١)
وجاءت نجوم الصبح تضرب في الدجى
فولت نجوم الليل والليل مقهور
لحرنا - من اللذات - أطيب طيبها
ولم يمدنا هم ولا طاق تكدير
خلا أنه - لو طال - دامت مسرة
والكن ليالى الوصل فيهنّ قصير . »

(وقال)

« أتعلم أن قلبي غير صاح ؟
وأنى من سلوكك في اقتراح
وكنت الدهر - أستاذ للمال
وقد أصبحت من صيد الملاح
تسقى البجيلة كأس صد
وتزجها - لتعليق - براح
ولو شاءت حياتي - الدهر - سقت
حرور القلب من شيم قراح
وكانت تصنع الحسنى جيلا
ولسكن ليس تلقى غير لاح
فسقيني - فديتك - من عقار
ونادى بهلم إلى اصطباح . »

(وقال)

« بطول على الدهر إن لم ألقها ،
وبقصر - إن لاقيتها - أطول الدهر
لها غرة كالبدر - عند تمامه -
وصدغا غير نحا صفحة البدر
وقد كثل الصن - مالت به الصبا -
ولفظ كما انحلت الظلام من الدرّ

(١) هذه المقطوعة أدرجت سهواً ضمن شعر

ابن زيدون .

(وقال)

« أترى اللقاء كما نحى يوفق
فظلّ صباح بالسرور ونعيق
حتام تطلعي الأيالي قرب من
قلبي له متشوق متشوق
ملك أغرّ أعار أن تحظى به
أسواي ألحاط ولحظي مملق
أودى أبا الجيش الموفق أنه
للحكومات ميسر وموفق
بأمر به الزمن البهي كأنه
نشر على وجه الزمان وروني
ملك إذا هبنا بطيب ثمانه
طلت به أرواهنا تنطق
حسب الرياضة أن غدت مرادنة
ببناء فهو الناح وهي المفرق »

(وقال)

« عرفت عرف العسا إدهم عاظره
من أدق من أنا في قلبي أشاطره
أراد تجديد ذكره على شحط
وما تيقن أني الدهر ذاكره
بنأي المرار به والدار دايمة
يا حبذا العال لو صحت زواجه
دخري أبا الجيش هل يقضي اللقاء لنا
ويشمتني ملك حفي أنت ناظره
فصاره قبصر إن قام منجراً
لله أوله مجيد وآخره »

(وقال)

« كأنما ياسينتنا العس
كواكب في السماء تبيض
والطرف الحمر في حواسه
تخذ عذراء ناله العس »

(وقال)

« تنام ومدنها يسهر وتبصر عنه ولا يصبر
لئن دام هذا وهذا به سيهلك وجداً ولا يشمر »

(وقال)

« أنا وما قلبي من المجد نائم
وإن فتوى فؤادي بالعالى هائم
وإن قدمت بي حلة من طلابها
فانت اجتهدى في الطلاب نائم
يعزّ على نفسي إذا رمت راحة
براح ودينني الطباع الكرام
وأسهر ليلى مفكراً غير طاعم
وغيري على العلات شعبان نائم
ينادي اجتهدى إن أحس بفترة
ألا أين يا عباد تلك العزائم
قهتر آمل وتقوى عرائمي
وتذكرني لدائم الهرائم »

(وقال)

« أنا في الحب مغرم مستنيل
كل نيل أنا له لي قليل
لي جثمان من يطن صحياً
وفؤادي من الغرام عليل
(١) أعطى بحقي
إن صبري - على النجى - جميل
لي ذهن - مثل الحسام - صقيل
هو من كثرة النجى قليل »

(وقال)

« إني على ألقى بالسهد والكمد
أدعوك يا معسى الأجسام بالسهد
قطعت قلبي الذي أعطاك جوهره
إني وهبتك محض النفس والكيد
يا درة لم تاج في كف غائصها
إلا أهل إليها آخر الأبد
قلبي بكفك لا أرجو الفكك له
مثل الفرسة حلت في يدى أسد »

(١) هكذا وجد ناقصاً بالأصل

(وقال)

« يا فرّة تسخر بالبدن
ومقلة تنفت بالبحر
ومبسا نظم من جوهر
وماؤه من أعطر الحر
ومنطقاً أوتيت من سحره
أحرّ في قلبي من الجمر
وشادنا تبنى شـخصه
ووكّل الأجفان بالسهر
تاجر بي الله تفرّ بالرضى
وتريح الجنة في التجر . »

(وقال)

« يا درّة قلبي بها مفتون
يسلّو، وإن سئل السلّوضنين
الله يصلم أن قلبي معرم
من كان ذا صبر فليس يكون
أو أن من يشري رضاك بفوزه
بالخلد قلنا: إنه المغبون . »

(وقال)

« يا قرا أصبح لي مالكا
لا تتركني مكّذا هالكا
وفلذة الكبد التي ضمها
مبيتها الدمر بأوجالكا
رق على قلب العميد الذي
يود أن يجري على بالك
حسنت في خلق وخلق فلم
رضيت بالقبح لأفعالكا . »

(وقال)

« بصبرني أهل المودة دائماً
وإن فؤادي والاله صبور
أعار على معنى الرئاسة لمني
على كل حسن في الزمان غيور
أصرف ذهني في أمور كثيرة
وأعلم أن الدائرات تدور . »

(وقال)

« غصن من التبر موقه ورق
كأنه الصبح تحت شفق
يا أبدع الناس في عاينته
رق على من أذابه الأرق
مددت كفى رجاء رأفتكم
لا تتركوني بنائي الفرق
بحر دموعي مفرق جسدي
تداركوا مهجتي وبني رمق . »

(وقال)

« رعي الله حالينا حديثاً وماضيا
وإن كنت قد جردت عزمي ماضيا
فما للبال لا تزال تروم—ني
ويرمين مني صائب السهم قاضيا
وقد علمت أن الخطوب قطيعي
وما زلت— من لبس الدنيا طاريا
أجدد في الدنيا ثيابا جديدة
يجدد منها الجود ما كان باليا
فما سرّ لي بخل بخاطر مهجتي
ولا سرّ بخل الناس قط بياليا
ألا حبذا في الجدد إتلاف طارفي
وبذلي عند الحمد نقي وماليا . »

(وقال)

« يحجور على قلبي هوى ويحجّر
ويأسرني إن الحبيب أمير
أطوع لأمر الحب طوع مسلم
وإن كان من شأني لمأباً ونفور
أغار عليه من لحاظي صيانة
وأكرمه إن الحب غبور
أخف إلى لقيا الحبيب ولانني
—لعمرك في كل الأمور وقور . »

(وقال)

« أطلت ثنار المجيد بالبيض والسر
وقصرت أحمار العداة على قصر
ودست سبل الجود طبعاً وصنعة
لأشياء - في العلياء - صابرها صدرى
فلا يجد للانسان ما كان ضده
يشاركه في الدهر بالنهي والأمر . »

(وقال)

« كان عشي القطر في شاطئ النهر
وقد وهرت فيه الأراهر كالزهر
ترش بماء الورد رشا وتنتفى
لتغليف أفواء بطييسة الحجر . »

(وقال حين دخل على المعتمد ماله)

« أرى أنت فائدة الزمان

فقد ققت الممالك في ممان

وقد رمناك من بلد بعيد

فأدناك الاله بلا توات

بذلنا جهدنا عزما وحزما

ووطنا الكرامة على الطمان

وأجهدنا المزائم والمسامي

وأصلنا الحسام مع السنان

ليهنأ أمل ماله انتصارى

وإعزازى لهم بعد الهوان

سسينقذهم وينسيهم جيما

رضاع الخير إن درت لباني

وأرقهم ذرا درج المالى

كما أجنيهم عر الأمانى

وأضعاف الذى يبدى لسانى

إليهم ما يمن لهم جنانى

فحق عليهم شكر امتعاضى

وما خلقى امتنان بامتنان

ولكن الحقائق مخبرات

وكم خبر ينوب عن العيان

ألم أعتقهم من ذل كفر

جرى في ضيهم ملء العنان

وتوراة محسرة أمرت

فطالت ذلة السبع المثاني

إلى أن ثار بي عزم يمان

فأدرك سؤله العضب اليماني

وأفضيت الصوارم خاطبات

فكان قضاؤهما سحر البيان

فعاد البرّ معبور المانى

وآب الفسق مهدوم الماني

وقام إمام جامعهم بصلى

وآنتت المسامع بالأذان

وكان ذوو الهدى ما بين ثاو

قتيل أو فقيد العقل فاني

مذا اقترنت ببربرهم يهود

أباح حسامهم حسن القران

هناد جر ما أوليت فيهم

من الفتكات بكر أو عوان

وحسي في سبيل الله موت

يكون ثوابه خلد الجنان . »

(٢)

شعر المعتمد

(قال رحمه الله حين خرج من مائة مستعتباً لأبيه :)

« سكن فؤادك لا تذهب به الفكر
ماذا يصيد عليك البث والحذر
وازجر جفونك لا ترضى البكاء لها
واصبر فقد كنت عند الخطب تصطب
وإن يكن قدر قد عاق عن وطر
فلا مردّ لما يأتي به القدر
وإن تكن خيبة في الدهر واحدة
فكم غدوت ومن أشياحك الطفر
إن كنت في حيرة من حرم محترم
فإن عذرك - في ظلماتها - قر
كم زمرة - في شفاف القلب - صاعده
وعبرة من شئون العين تنحدر
فوض إلى الله مما أنت خائفه
وثق بتمتصده بالله يفتقر
ولا ترعك خطوب إن عدا زمن
فالله يدفع والمنصور ينتصر
واصبر ، فإنك من قوم أولى جلد
- إذا أصابهم مكروهة - صبروا
من مثل قومك - والملك الهمام أبو
عمرو أبوك - له مجد ومفتخر
سميدع يهب الآلاف مقتدرأ
ويستقل عطاياه ويحتقر
له يد كل جبار يقبلها
لولا نداء لقلنا إنها « الحجر »
يا ضيفاً يقتل الأبطال مفترساً
لا توهنتي هاني الناب والظفر
وفارساً تحذر الأقران صوته
من عبدك القن فهو الصارم الذكر

هو الذي لم تشم بمنك صفحته
إلا تأتي مراد وانقضى وطر
قد أخلقتني صروف - أنت تعلمها -
وقال موردها: « مالي بها صدر »
فالنفس جازعة ، والعين دامة ،
والصوت مرتفع ، والسر منتشر
وزاد همي ما بالجسم من سقم
وشبت رأساً ، ولم يبلغني الكبر
وذبت إلا دماء في يدي
أني عهدتك تفوق حين تقتدر
لم يأت صيدك ذنباً يستحق به
عتباً ، وها هو قد ناداك بعنود
ما الذنب إلا على قوم دوى دغل
وفي لهم عهدك المهود إذ غدروا
قوم نصيحتهم غش ، وصدقهم
مين ، ونهيمهم إن صرفوا ضرر
يميز البنفس في الألفاظ إن نطقوا
ويمرف الحقد في الألفاظ إن نظروا
إن يحرق القلب نفت من مقالهم
فإنما ذاك من نار القلي شرور
مولاي دعوة مملوك به ظمأ
برح وفي راحتك السلسل الحصر
أجب نداء أخى قلب تملكه
أسي وذى مقلة أودى بها السهر
لم أوت من زمني شيئاً أسر به
فلست أعهد ما كاس ولا وتر
ولا تملكى دل ولا خمر
ولا سي خلدي غنج ولا حور

بقيت مؤيدا ما لاح برق
وماغنى الحمام على قضيب .

(وله إليه)

« ألا يأمليكا ظل في الخطب مفزعا
ويا واحداً فاق الخلائق أجما
ترفق بعبد وده لك شيمة
إذا كان ذو ودّ سواء تصنعا
لئن كنت عن جهل - فديتك - غافرا
فسكم عاتر قالت هلاك له : « لعنا »
أقلّي قل عبدا شكورا وصارماً
يجر من الأعداء لينا وأخذنا
علتي من السخط الأليم سحابة
فأغر بهاريج الرضى كي تقشعنا . »
(وله إليه)

« مولاي أشكو إليك داء أصبح قلبي به قريحاً
إن لم توجه رساك عني فليست أدري له مريحاً
سحطك قد زادني سقاماً
فابعت إلى الرضى مسيحاً . »
(وله إليه)

« ياليت حرب ذاق الأعداء
طمعين منه أرباً وسماً
هذا إذا ناشبوه حرباً
وذا إذا استوهبوه سلماً
لا غرو أن حم منك جسم
فعادة الأسد أن تحما
وليمنني أن طلعت بدراناً
لأعين الخلق مستهما
لا زلت تلقى العداة بؤسى
مك وتلقى الولاة نعى
ولتجز من قال من حسود
إن يكن الحق قد ألما . »
(وله)

« يا بدر تم تجلى للأرض تشرق منه
العجز خلق ذميم فلا تحدث عنه . »

رضاك راحة نفسي لا لجمت به
فهو العتاد الذي للدهر أدر
هو المدام التي أسلو بها فإدا
هدمتها عبت في قلبي الفسكر
ما تركي الحمر من زهد ولا ورع
فلم يفارق لعمرى سسى الصغر
وإنما أنا ساع في رضاك فإن
أخفقت فيه فلا يفسح لي العمر
ما سرني وأحاشى عصر عطفكم
يوم أخل به في عيني القصر
أجل ولي راحة أخرى هلقت بها
نظم الكلى في القنا والهلم تفتن
كم راحة لي في الأعداء واضحة
تفى الليالي وما يفنى لها الحبر
سارت بها العيس في الآفاق فانتشرت
فليس في كل حي غيرها سر
لا زلت ذا عزة قصاء شاحنة
لا يبلغ الوهم أدناها ولا البصر
ولا يزل وزر من حسن رأيك لي
أوى إليه فعم الكهف والوزر
أليك روضة فذكرى جاء منبتها
ندى يميني لا طل ولا مطر
حملت ذكراك في أرجائها شجراً
وكل أوقاتها للمحتنى ثمر . »
(وله إليه)

« أيا ملوكا يحل عن الضرب
ومن يلتذ غفران الذنوب
ومن في كفه بؤسى ونعى
تصرف في العدو والحبيب
تسحطك المنى أعل نعى
ومالى غير غفوك من طيب
ولست بمنكر ذنبى والكد
ننى قد جئت في حال المريب
فان عاقبتني فجاء مثلى
وإن تصفح فليس من القريب

ابن عمار^(١)

« وكتب ذو الوزارتين أبو بكر بن عمار
إلى المعتمد على الله حين تقبض النصراني
على الرشيد ابنه إذ حاول أمر مرسيه . »

« أصدق ظلى أم أصبح إلى صبي مأمضى عرمى أم أعوج مع الركب

(١) ابن عمار

الوزير أبو بكر « محمد بن عمار » ذو النفس العصامية — كما يقول المراكشي — كان أحد الشعراء
المجيدين على طريقة أبي القاسم « محمد بن هانيء الأندلسي » وربما كان أحلى منظما منه — في كثير من شعره .
ولشعره ديوان يدور بين أبدى أهل الأندلس ولم أر أحدا من أدركته سى من أهل الآداب الذين أخذت عنهم
إلا رأيته مقدما له مؤثرا لشعره ، وربما تقال بعضهم فشبهه بأبي الغيب وهيبات . فن قصائده المشهورة التي
أجاد فيها ما أراد ، قصيدته التي كتب بها من سرقة حين فرق المعتضد بالله بينه وبين المعتضد لأنه شمله عن
كثير من أمره ففاه وهي : —

« على والا ما بكاء العمائم وى وإلا ما نواح الخائم

وعى أنار الرعد صرخة طالب لثأر، وهز البرق صفعة صارم

ومالبست زهر النجوم حدادها لغيرى، ولا قامت له فى مآتم . »

وفى هذه القصيدة يقول يمدح المعتضد بالله :

« أبى أن يراه الله إلا مقلدا حيلة (١) سيف أو حمالة عارم . »

ومن جيد نسيبه قوله فى قصيدة يمدح بها المعتضد بالله :

« جاء الهوى فاستشعره طاره ونعيمه فاستمذبه أواره

لا تظلسوا فى الحب — عزاء، وإنما عبدانه فى حكمه أحراره

قالوا أضربك الهوى فأجبتهم : يا حبذا وحبذا أضراره

قلبي هو احتار السقام لجسمه زيا ، فخلوه وما يختاره

عيتموني بالنحول ، وإنما شرف المهند أن ترق شفاره

وشتم لمرأى من آفته ولربما حجب الهلال سراره

أحسبم السلوان هب نسيبه ؟ أو انذاك النوم ماد غراره ؟

إن كان أعيا القلب من حرب الجوى خذلته من دمي إذ أنصاره . »

ولابن عمار هذا مع المعتمد أخبار عجيبة عنى بجمعها أهل الأندلس ، وأنا — إن شاء الله — مورد منها ما لا يخل
بالشرط الذى التزمته ، ولا يخرج عن الحد الذى رسمته ، حسب ما بقى على خاطرى من ذلك ، لأنى كنت فى

ولمّا تهو بنى إليك مودة يعثرها ما قد تعرض من ذني
إذا اتقدت في رأى مشيت مع الهوى وإن أتعقه تكصت على عقي

حدثنا سفي قد صرفت عنايتي الى أخبار ابن عمار هذا مع المعتمد لما تضمنته من الآداب . وقد فتشت خزانة
حفظي فلم ألق فيها إلا نبذة يسيرة وأنا موددها إن شاء الله عز وجل :
فابن عمار هذا هو محمد بن عمار يكنى أبا بكر أصله من « شلب » من قرية من أعمالها يقال لها : « شنبوس »
مولده ومولد آبائه بها ، كان حامل البيت ليس له ولا لأسلافه والرياسة في قديم الدهر ولا حديثه - حفظ - ولا زكا
منهم بها أحد . ورد مدينة شلب طفلا فنشأ بها وتعلم علم الأدب على جماعة منهم أبو الحجاج يوسف بن عيسى
الأعلم ، ثم رحل الى قرطبة فتأدب بها ومهر في صناعة الشعر فكان قصاراه التمسك به فلم يزل يحول
الأندلس مسترفدا لا ينحصر بمدح الملوك دون غيرهم بل لا يبالى ممن أخذ ولا من استعطف من ملك أو سوقة ،
وله في ذلك خبر ظريف ، وذلك أنه ورد في بعض سفراته شلب لا يملك إلا دابة لا يجد علفها فكتب يشمر
الى رجل من وجوه أهل السوق وكان قدسره عند ذلك الرجل أن ملأ له الخلة شعيرا ووجه بها إليه ، فرآها
ابن عمار من أجل الصلات وأسنى الجوائز - ثم اتفق أن علت حال ابن عمار وساعده الجدد ونهض به البخت
وانتهى أمره أن ولاء المعتمد على الله مدينة شلب وأعمالها أول ما أمضى الأمر إليه فدخلها ابن عمار في
موك ضخمة وجملة عبيد وحشم وأطهر نخوة لم يظهروا المعتمد على الله حين ولها أيام أبيه المعتمد بالله ،
فكان أول شيء سأل عنه الرجل صاحبه صاحب الشعير ، فقال : ما صنع فلان أموحي ؟ قالوا : نعم
فأرسل إليه بمحلته بعينها بعد أن ملأها دراهم وقال لرسوله : « قل له لو ملأناها برا لملأناها تبرا » ولم يزل
ابن عمار على الحال التي ذكرناها من التقلب في بلاد الأندلس الاستجداء والاستعطاف إلى أن ورد على
المعتضد بالله أبي عمرو فامتدحه بقصيدته المشهورة التي أولها :

« أدر الزجاجة فالنجم قد انبرى والنجم قد صرف العنان عن السرى
والصبح قد أهدى لنا كافوره لما استرد الليل منا العنبرا

وفيها يقول بمدح المعتضد :

« عباد المحصر تائل كفه والحو قد لبس الرداء الأغبر
قداح زند اخذ ، لا ينك من نار الوغى إلا إلى نار القرى
يحترق أنت يهب الحريدة كاعاء والطرف أجرد ، والحسام مجورا

وفي هذه القصيدة يقول في وصف وقعة أوقعها المعتضد بالبربر :

« شقيب سيفك أمة لم تمتد إلا لليهود ، وإن سموا بربرا
أثرت رمحك من رؤوس كائنهم لما رأيت العصف مشق مشورا
وخضبت سيفك من دماء نخورهم لما عهدت الحس يلبس أحرا

ومن أبيات هذه القصيدة بيت لم أسمع لم تقدم ولا متأخر بمثله وهو قوله :

« السيف أفصح من « زياد » خطبة في الحرب إن كانت - عيبك منبرا . »

ولما أئند المعتضد هذه القصيدة استحسناها ، وأمر له ببال وثياب ومركب ، وأمر أن يكتب في ديوان الشراء
فكان كذلك ، ثم لماق بالمعتمد على الله - وهو إذ ذاك شاب - فلم تزل حاله معه تزيد وموات خدمته له تقوى

وما أغرب الأيام فيما قضت به ترى بمدى عنك آس من قربى
أما بك للحق الذى لك فى دى وأرجوك للحب الذى لك فى قلبى

وتأكد إلى أن صار ابن عمار ألقى بالمعتمد من شمرات صه (١) ، وأدنى إليه من حل وريده. كان المعتمد لا يستغنى عنه ساعة من ليل ولا نهار ، ثم اتفق أن ولي المعتمد على الله شاب من قبل أبيه فاستوزر بن عمار هذا فى تلك الولاية وسلم إليه جميع أموره فغلب عليه ابن عمار غلبة شديدة ، وساءت السمعة عنهما ، فانفضى نظر المعتضد التفريق بينهما ونفى ابن عمار عن بلاده حسب ما تقدم الإيعاء إليه ، فلم يزل ابن عمار مقترباً فى أقاصى بلاد الأندلس إلى أن توفى المعتضد بالله ، فاستدعاه المعتمد وقربه أشد تقرب حتى كان يشاركه فيما لا يشارك الرجل فيه أخاه ولا أباه . وله معه أيام كونها بشلبيخبر عجيب ، وذلك أن المعتمد استدعاه ليلة إلى مجلس أنسه على ما كانت العادة جارية به إلا أنه فى تلك الليلة زاد فى التحنى به والبر له على المعتاد ، فلما جاء وقت النوم أقسم المعتمد عليه : « لتضعن رأسك معى على وساد واحد » فكان ذلك . قال ابن عمار : فهتف بنى هانف فى النوم يقول : « لائتمتر أيها المسكين إنه سيقنتك ولو بعد حين » قال : « فانتبهت من نومي فرعاً وتعوذت ثم عدت » فهتف بنى الهانف على حاله الأولى فانتبهت ، ثم عدت فسمعت ثالثة فانتبهت فتجردت من أثوابي ، والتفتت فى بعض الحصر وقصدت دهليز القصر مستخفياً به ، وقد أزمعت على أنى إذا أصبحت مستخفياً حتى آتى البحر فأركبه وأقصد بلاد المدرة فأكون فى بعض حبال البربر حتى أموت ، فانقبه المعتمد فانتقدنى فلم يجدنى فأمر بطايبى فطلبت له فى نواحي القصر وخرج هو نفسه يتوكأ على سيفه والشمعة تحمل بين يديه ، وكان هو الذى وقع على فكانت منى حركة فأحس بنى وقال : « ما هذا يتحرك فى هذا الحصر ؟ » ثم أمر به بنفض ، فخرجت عرياً ما ليس على الا السراويل . فلما رآنى فاضت عيناه دموعاً وقال : « يا أبا بكر ما الذى حملك على هذا ؟ » فلم أر بدا من أن صدقته ، فقصصت عليه قصتى من أولها إلى آخرها ، فصحك وقال : « يا أبا بكر ، أصامت أحلام هذه آثار الخمار » ثم قال لى « وكيف أتتلك ، أرايت أحداً يقتل نفسه ؟ ما أنت إلا كفى » فمشكر له ابن عمار ودعا له بطول البقاء ، وتناسى الأمر نفسه ، وسرت على ذلك الأيام والليالى إلى أن كان من أمره ما سيأتى الإيعاء إليه ، فصدقت رؤيا ابن عمار وقتل المعتمد نفسه كما قال .

ولما أبعث الأمر إلى المعتمد سأل ابن عمار ولاية شلب وهى كانت بلده ومنشأه كما تقدم ، فأجابته المعتمد إلى ذلك وولاه إياها أئبه ولاية جعل إليه جميع أمورها خارجها وداخلها ، فاستمرت ولاية ابن عمار عليها إلى أن اشتد شوق المعتمد إليه وضعف عن احتمال العسر عنه ، فاستدعاه وعزله عنها واستوزره ، فكانت حاله معه شبيهة بحال جعفر بن يحيى مع الرشيد ولم يزل المعتمد يعمده لكل أمر جليل وبؤمله اسكل وربة عالية ، وكان ابن عمار مع هذا لا يئط به أمر إلا اصطلع به ، وكان فيه كالمسكة المحلاة ، واشتهر أمره ببلاد الأندلس حتى كان ملك الأذفش إذا ذكر عنده ابن عمار . قال هو رجل الجريرة ، وكان ابن عمار هو الذى رده عن قصد اشبيلية وقرطبة وأعمالها ، وذلك أنه خرج فى جيوش ضخمة يقصد بلاد المعتمد طامعاً فيها ، فخافه الناس ، وامتلأت صدور أهل تلك الجهات رعباً منه ، وتيقنوا ضعفهم عن دفاعه. فتولى ابن عمار رده بألطف حيلة وأيسر تدبير ، وذلك أنه قام سفرة شطرنج فى غاية الإتقان والابداع لم يكن عند ملك مثله ، جعل صورها من الأبوس والعود الرطب والصندل ، وحلها بالذهب ، وحمل أرضها غاية فى الاتقان فخرج من عند المعتمد رسولاً إلى الأذفش فلقبه فى أول بلاد المسلمين فأعظم الأذفش قدره وبالع

(١) القس : بفتح أوله وتشديد ثانيه أراد به رأس الصدر وهى العظام التى تتلاقى فى وسط الصدر حيث ينبت الشعر.

ولي حسنت لوأمت ببعضها إلى الدهر لم يرتفع لثابتة سربي

في إكرامه وأمر وجوه دولته بالتردد إلى خبائه والمسارة في حوائجه فأظهر ابن عمار تلك السفارة فرآها بعض خواص الأذفنش فنقل خبرها إليه وكان العليج (الأذفنش) مولما بالشرنج فلما لقي ابن عمار سأله « كيف أنت في الشرنج ؟ » وكان ابن عمار فيه طبقة طالية فأخبره بكانه منه ، فقال له بلى أن عندك سفرة في غاية الاتقان ، قال ابن عمار نعم ، فقال كيف السبيل إلى رؤيتها ؟ فقال ابن عمار لترجانه قل له أنا أتيتك بها على أن ألب معك عليها ، فإن غلبتني فهي لك ، وإن غلبتك فلي حكمي ، فقال له الأذفنش هلمها لتتظر إليها ، فأمر ابن عمار من جاء بها ، فلما وضعت بين يدي العليج صاب وقال ماظنت أن اتقان الشرنج يبلغ إلى هذا الحد ، ثم قال لابن عمار كيف قلت فأعاد عليه الكلام الأول ، فقال له الأذفنش لا ألب معك على حكم مجهول لا أدرى ماهو ، ولعله شيء لا يمكنني ، فقال ابن عمار لا ألب إلا على هذا الوجه وأمر بالسمة فطويت وكشف ابن عمار سر ما أراد له رجاله وتيق بهم من وجوه دولة الأذفنش وجعل لهم أموالا عظيمة على أن يوازروه على أمره ففعلوه فتملقت نفس العليج بالسفرة وشاور خاصته فيما رسمه ابن عمار فعمروا عليه ، فقالوا له : « إن غلبته كان عندك سفرة ليس عند ملك مثلها وإن غلبك فما صاه أن يحتكم وقبحوا عسده إظهار الملك العجز عن شيء يطلب منه ، وقالوا إن طلب ابن عمار ما لم يمكن فتحن لك برده عن ذلك ، ولم يزالوا به حتى أحاب ، وأرسل إلى ابن عمار ، فجاء ومعه السفرة ، فقال له : « قد قبلت ما رسمته . » فقال له ابن عمار : « فأجعل بيني وبينك شهوداً سيأهم له ، فأمر الأذفنش بهم فحضرُوا وافتتحا يلعبان ، وكان ابن عمار كما ذكرنا طقة في الأندلس لا يقوم له أحد فيها ، فغلب الأذفنش غلبة ظاهرة لجميع الحاضرين لم يكن للعليج فيها مطع . فلما حقت اللعبة . قال له ابن عمار : « هل صح أن لي حكى ؟ » قال « نعم » قال : « أن ترجع من هاهنا إلى بلادك » فأسود وجه العليج وقام وقعد وقال لحواصه « قد كنت أخاف من هذا حتى هو تنموه على في أمثال لهذا القول » وهم بالنكت والتمادي لوجهه . فقبحوا ذلك عليه وقالوا له : « كيف يحمل بك القدر وأت ملك ملوك النصارى في وقتك » فلم يزالوا به حتى سكن وقال : « لا أرفع حتى آخذ أتاوة طامب خلاف هذه السنة ، فقال ابن عمار « هذا كله لك » وجاءه بما أراد فرجع ، وكف الله بأسه ، ودعاه بحوله وحسن دفاعه عن المسلمين ، ورجع ابن عمار إلى إشبيلية ، وقد امتلأت نفس المعتمد سروراً به ، ثم إن المعتمد حدث له أمل في التفتل على مرسية وأعمالها ، وهي التي تعرف بتدمير ، وكانت بيد أبي عبد الرحمن محمد بن طاهر كان هو المنتلب عليها والمدير لأمرها ، فجهر المعتمد جيوشا عظيمة ، وتكفل له ابن عمار بأخذها وإخراج ابن طاهر عنها فلحق ابن طاهر حين خرج من مرسية ببني عبد العزيز بالنسية ، وكان بها إلى أن مات رحمه الله ، ولما تلب ابن عمار على مرسية دار ملك بني طاهر كما ذكرنا حديثه نفسه ، وسؤل له سوء رأيه أن يستد بأمره ، وأن يضبط تلك البلاد لنفسه ، فلم يزل يصرف الحيلة في ذلك إلى أن تم له بعضه ، ودانت له مرسية وأعمالها ، وطمع في ملك بلنسية إلى أن قام عليه رجل من أهل مرسية ، يقال له ابن رشيق كان أبوه من من حرفاء الجند بها ، وكان ابن عمار قد خرج لبعض أمره فدعا ابن رشيق هبتا إلى نفسه ، وقامت معه العامة ومن الجند ، فجاء يركض حتى المدينة وقد غلقت أبوابها دونه فحاصروها بمن معه أياماً ، فاستنعت

وكم قد فرت يمثالا بي من صربية فلا غرو يوما أن تنزل من غربي

عليه ولم يقدر على دخولها ، فبقى حائرا لا يدري ما يصنع ولا أين يتوجه ، وقد كان بلغ المتمد قيامه عليه وخلع يده من طاعته ، فلم ير إلا الهروب ملجأ فهرب حتى لحق ببني هود بسرقة فأقام عندهم حتى ثقل عليهم وخافوا غائلته ، وبنضه في عيونهم ما فعل مع صاحبه وولى نعمته ، فأخرجوه عن بلادهم ولم تزل البلاد تتعاقفه وملوكها تشناه ، إلى أن وقع في حصن من حصون الأندلس في غاية المنعة يدعى شقورة ، كان المتغلب عليه رجلا يقال له ابن مبارك فأكرم وقادته ، وأحسن نزله ، ثم بداله بعد أيام فقبض عليه وقيده وجعله في سجنه . فلما رأى ابن عمار ذلك منه قال له لا عليك أن تكتب إلى ملوك الأندلس بكوني عندك ، وتعرضني عليهم فما منهم إلا من يرغب في ، فمن كان أشدهم رغبة جعل لك مالا ووجه بي إليه ، ففعل ابن مبارك ذلك فما عرضته على أحد من ملوك الأندلس إلا رغب فيه ، وكتب فين كتب إلى المتمد ، وفي ذلك يقول ابن عمار :

« أصبحت في السوق ينادي على رأسي بأنواع من المال
والله ما جار على ماله من ضمي بالثمن الغالي . »

وفي هذا السجن يقول ابن عمار وقد استدعي نورة يستنظف بها فتعذرت عليه فاستدعي موسى فأتى بها ، فقال في ذلك :

« بوسي شقورة عندي أربت على كل بوسي
فقدت هارون فيها فظلت أطلب موسى . »

وبعث المتمد على الله من رجاله من تسلّم ابن عمار من يد ابن مبارك بعد أن بعث إليه بمال وخيل ، وأمر المتمد الذين تسلّموا ابن عمار أن يزيدوا في الاحتياط عليه وتقيده ، فخرجوا به حتى وافوا قرطبة ، ووافق ذلك كون المتمد بها ، فدخلها ابن عمار أشنع دخول وأسوأه على بفل بين عدلى تن وقيوده ظاهرة للناس ، وقد كان المتمد أمر بإخراج الناس خاصتهم وعامتهم حتى ينظروا إليه على تلك الحال ، وقد كان قبل هذا إذا دخل قرطبة اهتزت له وخرج إليه وجوه أهلها وأعيانهم ورؤساؤهم ، فالتسعيد منهم من يصل إلى تقبيل يده أو يرد عليه ابن عمار السلام وغيرهم ، لا يصل إلى تقبيل ركبته أو طرف ثوبه ، ومنهم من ينظر إليه على بعد لا يستطيع الوصول إليه ، فسبحان محيل الأحوال ، ومديل الدول ، فدخل ابن عمار قرطبة كما ذكرنا بعد المزة القمساء ، والملك الشامخ ، والرياسة الفارعة ، ذليلا ، خائفا فقيرا ، لا يملك إلا ثوبه الذي عليه ، فسبحان من سلبه ما وهبه ، ومنعه ما كان به أتمعه ، وأخبر بعض الموكلين به ما اتفق لهم معه من فرط ذكائه وسرعة فطنته قال : « لما قربنا من قرطبة بحيث يرانا الناس ، خرج فارس من البلد يركض يقصدنا ، فلما رآه ابن عمار وكان معهما أزال العمامة عن رأسه ، فجاء الفارس حتى وصل إلينا ، فنظر إلى ابن عمار ودخل معنا في الصف فثنى ، فسألناه فيم جاء فقال « الذي جئت فيه صنعه هذا الرجل قبل أن أصل إليه » فعلمنا أنه أرسل ليزيل عمامته ، فأدخل على المتمد على الله على الحالة التي ذكرت يرسف في قيوده ، فجعل المتمد يعدد عليه أياديه ونعمه ، وابن عمار في ذلك كله طرق الرأس لا ينبس إلى أن انقضى كلام المتمد ، فكان من جواب ابن عمار أن قال : « ما أنكر شيئا مما يذكره . ولانا - أبقاه الله - ولو أنكرته لشهدت على به الجملادات فضلا ممن ينطق ، ولكن عذرت فأقل ، وزلت فاصفح » فقال المتمد : « هيات لئها عثرة لا تقال » وأمر به فاحدر في النهر إلى لشبيلية فدخل به لشبيلية على الحال التي دخل عليها قرطبة وجعل ، في غرفه على باب قصر المتمد المعروف بالفصر المبارك وهو ياق إلى وقتنا

ولا بد ما بيني وبينك من نثا يطبقها ما بين شرق إلى غرب

هذا فطال سجنه هناك . كتبت عنه في هذا السجن قصائد لو توسل بها إلى الدهر لنزع عن جوره ، أو إلى الفلك لكف عن دوره ، فكانت رقي لم تنجح ، ودعوات لم تسمع ، وتماثم لم تنفع ، فنها قوله :

«سجايك إن عاقبت أئدى وأسحج ، وهذرك إن عاقبت أجلي وأوضح
ولأن كان - بين الخطئين - مزية ، فأنت - إلى الأدنى من الله - تنجح
خانيك إلى أخذي برأيك ، لا نطع خدائي ولو أئدو عليك وأفصحوا
فإن رحائي أن عندك غير ما يخوض عدوى اليوم فيه ويمرح
ولم لا وقد أسلفت ودا وخدمة يكران في ليل الخطايا فيصبح
وهي قد أعقبت أعمال مفسد أما نفس الأعمال تمت تصلح
أقلني بما بيني وبينك من رضى له - نحو روح الله - باب مفتوح
وعف على آثار جرم سلكتها بهية رحى منك تمحو وتمصح
ولا تلتفت قول الوشاة ورأيهم فكل إثم بالذي فيه يرشح
سيأتيك في أمرى حديث وقد آتى يزور بنى عبد العزيز موشح
وما ذاك إلا ما علمت فأنتي إذا ثبت لا أنفك آسو وأجرح
كأنى بهم - لا درت الله درهم - أشاروا تجاهى بالشتمات وصرخوا
وقالوا : « سيجزيه ملان بفعله » فقلت : « وقد يفوملان ويصفع »
ألا إن بطشاً المؤيد يرتضى ولكن حلما المؤيد يرجح
وماذا عسى الواشون أن يتزيدوا سوى أن ذنبى واضح متصحح
نعم لى ذنب غير أن لحقه صفاة يزل الذنب عنها فيسفع
عليه سلام كيف دار به الهوى إلى فيدنوا أو على فينرح
ويهنه إن مت السلوك فإني أموت ولى شوق إليه مبرح
وبين صلوى من هواه تمية ستنفع لو أن الحمام يحلج . »

ولما بلغت المعتد هذه القصيدة وأنشئت بين يديه كان محضرته رجل من البعداديين ، فجعل يزرى على البيت وبين صلوى ويقول ما أراد بهذا المعنى ، فكان من جواب المعتد رحمه الله أن قال : أما لئن سلبه الله المروءة والوفاء ، لما أعدمه الفطنة والدكاء إنما نظر إلى بيت الهذلي من طرف حق وهو -

« وإذا النية أنشئت أظفارها الفيت كل تمية لا تنفع . »

ولم يزل ابن همار هذا بسجن المعتد إلى أن قتله صبرا في شهور سنة ٤٧٩ وتلخيص خبر قتله أنه لما طال سجنه كتب إليه بالقصيدة التي تقدم لإنشادها ، فأدركت المعتد بعض الرقة ، فوجه إليه ليلا وهو في بعض مجالس أنه فأتى به يرسف في قيوده ، فجعل المعتد يمسد منته عليه ، وأياديه قبله ، فلم يكن لابن همار جواب ولا عذر غير أنه أخذ في البكاء ، وجعل يتراق للمعتد ، ويسح عطفيه ، ويستجاب من الألفاظ كل ما يقدر أنه يزرع له الرأفة في تلب المعتد فتم له بعض ما أراد من ذلك ، وعظفت المعتد سابقته وقديم حرمته ، بحبه ، فكتب ابن همار من فوره بما دار له المعتد إلى ابنه الراضى بالله ، فوافاه الكتاب - وبمحضرته قوم كانت بينهم وبين ابن همار أحن قديمه - فلما قرأ الراضى الكتاب قال لهم : « ما أرى ابن همار إلا يستخلص » فقالوا له « ومن أين علم مولانا ذلك » فقال : « هذا كتاب ابن همار يخبرني فيه أن مولانا المعتد قد

ولاشك أن العفو منك سجيبة فلم يبق إلا أن تخفف من عتي .

(لجأوه للمعتمد على الله)

« تقدم إلى ما عتدت عندي من الرحب ورد تلقك العتي حجاباً من العتب
متى تلقني تلق الذي قد بلوته صفوحاً من الجاني رء وفاقاً على الصحب
سأوليك متى ما عهدت من الرضى وأعرض عما كان إن كان من ذنب
فما أشمر الرحمن فلي قوة ولا صار لبيان الأذمة من شمي
تكافئه أنى به لك — ملوة فليس يماني الشعر مشرك اللب . »

(والمعتمد على الله إلى ذي الوزارتين أبي بكر)

« قد زارنا المرجس الذكي وقد عطشنا دهم رى
ونحن في مجلس قدى وإن من يومنا العتي
ولى حبيب غداً سبي يالبتة ساعد السمي . »

(والمعتمد إلى الوزير أبي عمر بن غطمش)

« فديت أبا عمر من قى متى يخبر غيبه محمد
وداد صحيح ، وخلق مليح ونطق فصيح ، لدى المشهد
أتنى البديهة تندى بدعما وأبدع ما فى الرياض الندى
أزاهر : لم تنتشقى بالأنو ف لطفاء ، ولا جيتت بالبد
خجلك لشكواك فى طيها فاكدت أسمع للمنشد
وقد فبرت لك تلك الرؤى ابشع طاد ويروى صدى
فهون عليك من النائبات إذا كان نصرى بالمرصد
وكن مخبرى أنى سائل سؤال مدل على مسعد
فجاءتك صفراء عند المنا م تسمى من الأفق الأبد
لحيثك بالنفس المرجى ولافتك بالملبس السجدى
وعلتك بالريق لو أنه أبيع لدى الزهد لم يزهد . »

وصده بالخلاص « فأظهر القوم الفرح وهم يبطنون غديره ، فلما قاموا من مجلس الراضى بشروا حديث
ابن عمار أقبح نشر ، وزادوا فيه زيادات قبيحة صنت هذا الكتاب عن ذكرها فبلغ المعتمد ذلك فأرسل
إلى ابن عمار ، وقال له : « هل أخبرت أحداً بما كان بيني وبينك البارحة » فأنكر ابن عمار كل
الأنكار ، فقال المعتمد لارسل « قل له الورقتان اللتان استدعيتهما كتبت فى إحداها القصيدة ، فما فعلت
بالأخرى ؟ » فادعى أنه يفيض فيها القصيدة فقال المعتمد « هلم المسودة » فلم يعر جواباً ، فخرج المعتمد حتماً
وبيده الطبرزين حتى صعد الذرقة اتى فيها ابن عمار ، فلما رآه علم أنه قاتله ، لجل ابن عمار يزحف وفي يده
تتله حتى انكب على قدمي المعتمد يقبلهما والمعتمد لا يثنيه شيء فعلاه بالطبرزين الذى فى يده ولم يزل يضربه
به حتى برد ، ورجع المعتمد فأمر بنفسه وتكفينه وصلى عليه ودفنه بالقصر المبارك ، فهذا ما انتهى إلينا من
خبر ابن عمار ملخصاً حسب ما بقى على خاطرى . « المعجب فى تلخيص أخبار المغرب »

(وله رحمه الله)

« كتابي وعندي من فراقك ما عندي وفي خلدي ما فيه من لوعة الوجد
وما خطت الأقلام إلا وأدمي تخط كتاب الشوق في صفحة الخد
ولولا طلاب الخد زرتك طيبه عبيدا كما زار الندى ورق الورد
قبلت ما تحت اللثام من اللما وعانت ما فوق الوشاح إلى العقد
أغائبة عني وحاضرة معي لأن غبت عن هبتي فأنت في كبدي
أقبي على العهد الذي كان بيننا فأني على ما تعلمين من العهد . »

(وللوزير الكاتب أبي الوليد بن المعلم)

« أيدك الله إنه يوم تحجب فيه الصلاة والصوم
وتحفر الرياح غير وانية لا عار في حفزها ولا لوم
فانشط إليه فإنه أمل يبلغه في نديك القوم
لازلك مستيقظ السعدونا وعنك في أعين الردى نوم . »

(فأجابه أيده الله)

« سمعت بحفاقة الجناح وقد أمكن ورد فلا يطل حوم
وسمت في الطيب والسرور فني لم يزر يوما بطيبه سوم
وحامو المجلس المعد لكم فادخل إليه وليدخل القوم
إلى كؤوس لو شاء شاربها يعوم فيها لأمكن العوم . »

(فجأوبه رحمه الله)

« ليك ليك من مناد له الندى الرحب والندى
ها أما بالباب عبد قن قبلته وجهك السنى
شرفه والدام باسم شرفته أنت والنبي . »

(وقال)

« سلى تعلمي إن كنت غير علبة بأن ليس في حبي لنديك مطمع
وأن لي القلب الذي ليس خاليا من الوجد والجفن الذي ليس بهجم
بذكر نيك المصن يهتز عند ما يهب نسيم ، والفزاة تطلع
فوالله لا أنفك أذكر موضعي لديك ولا أنفك لنحوك أنزع . »

(وقال)

« ألكم إلى الصب الشحي ، ماد فتفك عنه للأسي أصفاد
رحل اصطباري إذ رحلت فائلا أوب الأجابة بيتنا للبعاد
يا من نكلت دنوهم ووصالهم فبدا على من الشحوب حداد
كم بت منكم بين غصني بانة كالسيف تضنط منته الأعماد . »

(وقال في معشوقة اسمها « اعتماد » تؤخذ حروف اسمها من أوائل هذه الأبيات .)

« أغائبه الشخص عن ناظري وحاضرة في صميم العواد
عليك السلام بقدر الشجون ودمع الشجون وقدر السهاد
تملكت مني صعب المرام وصادفت ودّي سهل القياد
مرادى لفيك في كل حين وباليث أني أعطى مرادى
أقيمي على العهد ما بيننا ولا تستحيل لطول البعاد
دست اسمك الحلو في طي شعري وألفت به حروف اعتماد . »

(وقال)

« قلبي موال لمعديه وعاشق من لا يباليه
خلى الظلوم كلما زده مودة زاد تجنييه
يا غفر الله له دنبه في ظلم سب هائم فيه
يا حسن الوجه بحق الهوى لا ترض قبح الحجر والنيه . »

(وقال)

إني رأيتك في المنام ضجعتي وكان ساعدك الوثير وسادى
وكانما عاقبتني وشكوت ما أشكوه من وجدى وطول سهادى
وكانني قبلت ثغرك والطللى والوجنتين ونلت منك مرادى
ومواك لولا أن طيفك زائر في القلب ما ذقت طعم رقاد . »

(وقال يستدعي الوزير المصري الحكيم)

« أيها الصاحب الذي فارقت عيني ونسى منه السناء والساء
نحن في المجلس الذي يهب الراحة والمسمع النوى والعناء
تعاطى التي تنسيك في اللذذ والرقصة الهوى والهواء
فأبه تلف راحته ومحيا قد أعداك الحيا والحياء . »

(وله)

« لما نأت نأى الكرى عن ناظري وصرفته لما انصرفت عليه
طلب البشير بشارة يحزى بها موهبت قلبي واعتذرت إليه . »

(وله)

« الجود أحلى على قلبي من الطفر ومن منال قصي السؤل والوطر
ومن غناء أربوى في الصبوح لنا يا طلعة الشمس في الأصال والبكر
وقد حننت إلى ما اعتدت من كرم حنين أرض إلى مستأخر المطر
وقد تنامت يدي عن كآسها غضبا وبجت الأذن أيضاً نعمة الوتر
حتى أملك مسنبي ما تجود به وأسمع الحد بالأخرى على الأثر
فهايتها خلعا أرضى السباح بها مخوفة في أكف الصرب بالبدر . »

(وله)

« من للولوك بتأو الأصيد الطل هيات جاء تكم مهديّة الدول
خطبت قرطبة الحسنة إذ منعت من جاء يخطبها بالبليض والأسل
وكم غدت طاطلا حتى عرضت لها فأصبحت في سرى الخلى والحلل
عرس الملوك لنا في قصرها عرس كل الملوك به في مأتم الوجل
فراقبوا عن قريب لا أبا لكم هجوم لب بدرع الباس مشتل . »
(وله إلى المعتض بالله)

« مولاي يا ذا الأيادي كواكفات الفوادي
أنا عبيد معدّ لحسم داء الأعادي
واعنادت النفس مي تصيد الأساد
إني عليها مقبم لرائح أو لفاد
أكر بالضرب فيها والظمن عند الجلال
حتى أبحت حاما بمرهفات حـداد
إن لم تكن أسد غيل تكن جاذر واد
بحق لحم وطى وكندة ومراد
ملكك من أرض حمص إلى قرى سنداد . »
(وله رحمه الله)

« نظن بنا أم الربيع سامة ألا غمر الرحمن ذنباً تواقمه
أاسام طيبا في ضلوعي كناسه وبدر تمام في فؤادي مطالعه
وروضة حسن أجتني من نمارها وبارد ظلم لم تكدر شرائعه
إذا شئت كنى نوالا تقيضه على معتفها أو عدواً تقارعه . »
(وله)

« أمطلع زهر نجوم الكلام ومشرقه من خلال الحلك
أنا قريضك والهم حتى لدينا فأمسى به قد هلك
فهاك موارد ود صغت يملك فيها الذي أنهلك . »
(وله)

« درا بعث مفصلا بجمان أو روضة مسكية الريحان
لا بل عروساً قد زفت تولدت ما بين فـكرنا قد وبنان
سما لأمرك إذ دعوت إلى التي تدع القلوب قليلة الأحزان
أما الكؤوس فقد جرت ما بيننا يبدى غزال ساحر الأجفان
خنت يميني للدمام بطرفه وبكفه ومق أشا غنائى
فلا لعمرك لم أكن لأضيعة لاتحسبنا من بنى سهوان . »

(وله)

« إن كان تصريدا امير تمدد فلا جملن مكانه وردا
من قهوة ضمنت أكوسها نارا تكون على الحشا بردا . »

(وله)

« اشرب الكأس في وداد ودادك وتأنس بذكرها في افرادك
قر غاب من جفونك سرا . وسكناء في سواد فؤادك . »

(وله)

« حسدت كتابي على فوزه بإبصاره الفرة الزاهرة
ميا ليت شعري يكون الكتاب فتاحته القلة الساحرة . »

(وله في اعتماد أيضا)

« بكرت تلوم وفي الفؤاد بلايل سفها وهل يثنى الحليم الجاهل
يا هذه كفى طائي عاشق من لا يرد هواي منها عاذل
حب « اعتماد » في الجوانح ساكن لا القلب ضاق به ولا هو راحل
يا ظيعة سلبت فؤاد محمد أو لم يروك الهزبر الباسل
من شك أني هائم بك مغرم فملى هواك له على دلائل
لون كته صفرة ومدامع هطكت سحائبها وجسم ناحل . »

(وله في اعتماد أيضا)

« أدار النوى كم دار فيك تلهدي وكم عقتي عن دار أهيف أغيد
حلفت به لو قد تعرض دونه كجاة الأهادي في النسيج المسرد
لجرت للضرب المهند فاقضي مرادي وعزما مثل حد المهند
فاحل خل من دؤاد خليله محل « اعتماد » من فؤاد محمد
ولكنها الأقدار تردى بلا ظبا وتصمي بلا قتل وترى بلا يد . »

(وله)

« مشمك أفوح في معطى ووجهك أملح في ناظري
ظفرت بقربك بعد امتناع فمن ذاك سميت بالظافر . »

(وله)

« يابها الشمس التي قلبي لها أحد البروج
لولاك لم أك مؤثرا فرش الحرير على السروج . »

(وله)

« أباح لطيف طيفها في الكرى الخدا مض به ثقافة واجتنى وردا
والثني نقرأ شسمت نسيمه نخبيل لي أني شسمت به ندا
ولو قدرت زارت على حال يقظه ولكن حجاب البين ما بيننا مدا

أما وجدت عنا الشئون معرجا ولا وجدت منا خطوب التوى بدا
سقى الله دوب القطر أم عبيدة كما قد سقت قلبي على حره بردا
هي الطيبي جديداً ، والفراثة سة وروض الربا فوحاء وغصن النقاقداء .

(وله)

« من عاشق يشكو صلاته إلى محب هائم مثله
كلدها صب إلى الفسه حران ظمان إلى وصله
يا رب عجل جمع هدا بدا وقرب الشكل إلى شكله . »

(وله)

« قلبي لبعذك هي غلال فتشوق صحيج وجسدي عليل
وودى على حسب ما تعلمين تزول الجبال وما إن يزول
فلا تستحلي لبعسد الديار فاني مع البعد لا أستحيل . »

(وله)

« القلب قد لح فما يفسر والوجد قد جل فما يستر
والدمع جار قطره وائل والجسم نال ثوبه أصفر
هذا ومن أعشقه واصل كيف به لو أنه يهجر
لكن عدتي نائبات الدوى في دوحه والشادن الأهور
والسكوكب الوقاد تحت المدحى في أفقه والقمر الأزهر
والرحس الفواح غب اللى في روضه والمدل الأذفر
قد خبرت عى أنى امرؤ في شحوب وصى يظهر
وأبدت الإشفاق من حالى ومثل ما تديه ما تضمر
واستفهمت أن كنت داعلة أو دا اشتياق ناره تسمر
سببتى لم تصبى عاشقا أضحى كما أخبرك المخبر
إد قلت : هل من ألم طائف ما بك أو شوق فما تصبر
طامت بالشك هواى الذى يعرفه اليب والحضر
والله ما سقى إلا هوى كل هوى فى حنبه يصفر
عير جسدى فاعلمى أبى أروم لفيك ولا أفدر
فاستغرى الله من الظلم لى فإن من يظلم يستغفر . »

(وقال)

« يا طيبي سة اطفت مى منازلها فالقلب منهن والأحداق والكبد (١)
حي لك الناس طراً يشهدون به وأنت شاهدة إن يثنهم حسد
لم يعزب الوصل فيما بنتنا أبداً لو كنت واحدة مثل الذى أجده . »

(١) نسبت هذه الأبيات خطأ لابن زيدون انظر « ص ٢٢٣ » .

(وقال)

« هل راكب ذاهب عنهم يحبيني إذ لا كتاب يوافيني فيحبيني (١)
 قد متّ إلا ذمّاء في يمسكه أنت الفؤاد بانيهم يرجيني
 ما سرح الدمع من عيني وأطلقه إلا اعتياد أسمى في القلب مسجون
 صبراً لعل الذي بالبعد أَرْضِنِي بالقرب يوماً يداويني فيشـفـي
 كيف اصطباري وفي كانون فارقني قلبي وها نحن في أعقاب لشرين
 شخص يذكرني فاه وغرته شمس النهار وأنفاس الرياحين
 لئن عطشت إلى ذاك الرضاب لكم قد بات منه يسـمـي فيرويني
 وإن أفاض دموعي نوح باكية فكم أراء يغنيني فيشجيني
 وإن بعدت وأضنتني الهوم لقد عهدته وهو يدنيني فيسليني
 أرحل عقد عزائي نأيه فلكم حلت عن خصره عقد الثمانين
 يا حسن لإشراق ساعات الدنوبدت كواكباً في ليالي بصدده الجون
 والله ما فارقوني باختيارهم وإنما الدهر بالذكور يرميني
 وما تبدلت حبا غير حبه إذن تبدل دين الكفر من ديني
 أفدى الحبيب الذي لو كان مقتدراً لكان بالفس والأهلين يفديني
 يارب قرب — على خير — تلاقينا بالطالع السعد والطير الميامين . »

(وقال)

« ولما التقينا للوداع غسدية وقد خفت وساحة القصر رايات (٢)
 وقرنت الجرد العتاق وصفقت طبول ولاحت لأفراق علامات
 بكينا دما حتى كأن حيونا لجري الدموع الحرف فيها جراحات
 وكنا تربي الأرب بعد ثلاثة فكيف وقد كانت عليها زيادات »

(وقال)

« أهلا بكم محبتكم — نغوى — القديم وحان أن يقسنى لي بكم حلم
 حشو المطى ولو لي — لا بمجهلة فلن تضلوا ومن بشرى لكم حلم
 لأنتم القوم إن خطوا يحد قلم وأن يقولوا بصب فصل الخطاب فلم
 لا خرق — إن رقوا كتباً — ولا حصر إذ يندون ولا جور إذا حكموا
 أدم أبا الأصعب المحبوب تلقى فق هس المودة لا يزرى به سأم
 هذا فؤادي قد طار السرور به إذ كنت تغفلك الوخادة الرسم
 سأكتم الليل ما أشكوه من بعد وأسأل الصبح عنكم حين ينتم . »

(١) وردت هذه القصيدة في « ص ٦١ » وقد نسبت خطأ لابن زيدون .

(٢) وردت هذه القصيدة في « ص ١٠٩ » وقد نسبت خطأ لابن زيدون .

(وقال)

« الشمس تجعل من جمالك فتغيب سرعة لذلك
والنيت يحى أن يصب لما يراه من نواك
والبدر يطلع ناقصاً حتى يتم من كالك . »

(وقال)

« وشادن أسأله قهوة فجاد بالقهوة والورد (١)
فبت أسقى الراح من ريقه وأجتنى الورد من الحد . »

(وله)

« يا هلالا إذا بدا لي تجلت عن فؤادى دجنة السكرات
وغزالا لفتيته بقلبي فتكات كأنها فتكاتى
تبت إذ حزن بالوصال وباللهجر حباتي تملكا ومماتي
مترقى بموقف أنت منه في سواد القلوب والحدفات
أنا أختى عليك ياساكن القلب المعلى بالصد من نغرات »

(وله)

« أنا في عذاب من فراقك سكران من حمر اشتياقك
صب الفؤاد إلى لقا نك وارتشافك واعتناقك
لا تحببني أنى سلوت لما توالى من فراقك
هذى جفوني أنست لا تلتقى ما لم تلاقك
فصلى جميل الطن بى وثقى فقلبي فى وثامك . »

(وقال)

« وشمة تنق ظلام الدجى نغي للعمدم عن الناس
قد جعل الرحمن من لطفه حياتها فى القطع للراس
ساعدتها والكأس يسي بها من ريقه أشهى من الكاس
ضياؤها لاشك من وجهه وحرها من حر أفاسى »

(وله)

« يا بديع الحسن والإحسان يا بدر الدياجى
يا غزالا صاد مسنى بالطلى لبت الهياج
قد غنينا بسنا وجسبك عن ضوء السراج »

(وله)

« تم له الحسن بالعدار واقترن الليل بالنهار
أخضر فى أبيض تبتدى ذلك آسى وذا بهارى

فقد حوى مجلسى تماما إن بك من ريقه صفارى . «
(وله)

« لله در أبى السنان من فارس شهم الجنان
تخشاء آساد الرجا ل كما تريم به القيات
فيأسه يشقى المدا ويحسنة يصي الحسان . »
(وله)

« يقاتل بالاحفظ محبوبنا وبالسيف والرمح أمضى قتال
فعلورا يصيد ظباء النساء وطورا يصيد أسود الرجال . »
(وله)

« إذا ما اقتحمت الوغى دارعا وقتعت وجهك بالمنفسر
حسبنا عيناك شمس الضحى عليها سحب من العنبر . »
(وله)

« يا قرا قلبى له مطلع وشادنا فى مهجتي يرمع
والله ما أطمع فى العيش مذ أصبحتى وصلك لأطمع
لبت كما يرمع فى مهجتي أنى فى ريقته أكرم . »
(وله)

« وأغن يلعب بالهدوم كما خدت أرماح قومي بالعداء لواعبا
ذى نعمة يسبي العقول بها رشا من عند رضوان أناها ربا . »
(وله)

« مجن حكى صانوه السما لتقصر عنه طوال الرماح
وصاغوا مثال الثريا عليه كواكب تقضى لنا بالنجاح
وتزدات أطواقه بالنجوم كما ليس الأفق توب الصباح . »
(وله)

« أيا نفس لا تجزمي واصبرى فإن الهوى ما به منصف
حبيب جفاك وقلب عصا ك ولاح لحاك ولا ملطف
شجون ممنع الجفون الكرى وعوضنها أدمعا تنزف . »
(وله)

« أبصرت طرفك عند مشجر القنا فبـدا لطرفى أنه فلك
أر ليس وجهك فوقه قسرا يحلى بنير نوره الخلك . »
(وله)

« فتكت مقلتنا بالقلب منى وبكت مقلتاى شوقاً إليه

فكحى لحظه لنا سيف هبا د ودمى له سحاب بديه .
(وله)

« يا قرا أفعه فؤادى مقالة لم تشب باؤك
ومن غدا مشرق حر الكلام قد حازه بملك
نرت در القريض نثرا يقوم ذهنى له بملك
فقلت لله درّ ذهن يخرج دروا من بحر فك
وجاهت الطير مودعات شرك يا سركل ملك
بيتان دلا على و داد محضته لى بنير شك . »

(وله)

« بعث بالمرسل انبساطاً منى على خلقك الجليل
نزرأ حقيراً ففیه یأتى فضلك فى العذر والقبول
لو أنه مهجى لكنت تصغر فى قدرك الجليل . »

(وله)

« ترفقاً يا أبا يحيى ومن ظفرت كفى به قدعائى فضله الظافر
إن حال ما بيننا ريمحاتنا الناضر فناظر انقلب حقاً نحوكم ناظر
أحى مكانك من قلبى وأمنه كما حى الحاجب الإسلام بالاطر . »

(وله)

« أخلفتني وعدك لى ومخلفاً أعهدك
فعد بأن تهجرنى واجر على عادتك . »

(وله)

« وودت أبا الفتح ياسيدى ورودا الكرى بعد طول السهاد
ولما احتلت بنا لم تحل من المين والقلب غير السواد
ودونك منا طيوراً قدت قطير إليك يرش الوداد . »

(وله)

« أبا الوليد تجاوز وهب لنا التفضيضا
واقبل جواباً على فظك الصحيح مريضاً
زفت نحوى مروساً تحتاب روضاً أريضاً
جلوتها فى سواد تجلسو المعانى ييضاً
وقد منحتك نزرأ لا حقك المروضا
وسوف أرفع جهدى من قدرك المخفوضاً . »

(وله إلى أبيه رحمه الله)

« يا متبج الأكرام إلهاما ومتبجع الإلغام إتماما
وطادلا في الناس لكنه أصبح للأموال ظلاما
قرنت في كفك بحر الندى بصارم أسكتته الهاما
وجعت نيك خصال الوردى وحزت آراء وإقصادا
فالموت والعيش بينناك قد صرفن أسبابا وأقلاما
أثقلت بالإلغام ظهري ، فقد ألحمت عن شكر إلهاما
سفكت إفضالا دمي كي ترى تزيد في عمرك أعواما
فاسلم لاهراق دماء العدا ما طرد الإصباح إظلاما . »
(وله إليه يطلب مجنا)

« أيا ماجدا لم يرم شامحا من المجد فاحتل غير الغنى
سألتك صفراء بكرا فجاء على بها شامحا للسنن
ترد السنن إذا أمها شيا حده من قويم السفن
ولم كنت من معشر في الوغى أقاموا القلوب مقام الجن . »
(وله إليه يطلب جوادا)

« ألا يا غرة السعد وقرّة نظر الخد
ومولاي الذي ما زال بسحب حلة الخد
لمبدك همه هامت بركن الصبر الجرد
ويرغب ضارعا منها إلى عليك في الورد
وإن تقبضه من عبد تمنّ به على عبد . »
(فبحث إليه مسرجا فكتب إليه)

« خلعت ثوب الصوّ على العبيد الوفيّ
يا مستترقا بنعما . كل حر سريّ
أنى على الورد سرج كالهدي فوق الهديّ
فسوف أورد رشي عليه قلب الكميّ . »
(وله إليه)

« يا أيها الملك الذي كفاه بخلت السحاب
أنعمت بالبيض الكما ب على الخيل العرب
وغدت تخشى للعتا ب كما ترجى للثواب
برضالك أبصر تائي ال آمال منى ذا اقترب
وبطيب أيامي لديك عرفت أيام الشباب
فشكرت ما أو ليثنيته من أياديك العذاب
بشبا سناني في الظما ن وحديني في الضراب

وشبا اسانى فى الها فل بالتمتر لا يشاب
لازلت تنتمل النجو موخذقتك فى التراب
(وله إليه)

« يا أيها الملك الذى لم يزل يسرى إلى غرته السارى
وجامعا فى كفه بالنسدى والبأس بين الماء والنار
امناً فقد نلت الذى كنتتهى نفسك واشكر نعم البارى . »
(وله إليه يطلب الإذن بالصيد)

« امنع على صيد رجاك بساعة يرتاح فيها باصطياد أرانب
حتى يصيد بسعدك الأبطال فى يوم الوغى بأسنة وقواضب . »
(وله إليه)

« وساعة للزمان مسفة قنعت فيها أرانبا وحمل
فلا أرانى إلا له منك رضى إن لم أصدمن عداك كل بعزل . »
(وله إليه)

« أوجه البدر يشرق فى الظلام وسر الله مد على الأنام
وليث العاب لإقداما وبأسا ورب الفضل والنعم الجسام
عبيدك مولع بالصيد قدما وحب الصيد من شيم الكرام
فاذمك فيه واسلم للأعادى تدير عليهم كأس الحمام . »
(وله إليه)

« أيا ملكا عمى فضله ولم ألب فى بحر نصماء جزرا
عهدت البحار لجزر ومدت وتأنى بحار أياديك جزرا
دعونا الأمانى لما رضيت بقاءت توالى علينا وتترى
فلم يبق لى أمل أرتجيه سرى أن أقوم بنعمك شكرا
بقيت ولا ملك إلا غدا غدا ملك كفك قهراً وقسرا

(وقال)

أمتنضداً بالله دعوة آمل رجاك على بعد فأصبح ذاقرب
فأمم مأمولاً وأم ميسا وحامت أمانيه على مورد عذب
موارد ما حلان هنهن حائما ولا غادرته غير مستعذب الشرب
وما أنا ظمان لمنهل وردكم وحسى موقوف على وردكم حسي
أفر بالذى أملت منذ كنت آملا وتحتل من علياء فى المنزل الرحب
فجئت أغذ السير حتى كأنى لا فراط لغذاذى على ظهر النجب
فألميت أعلى الناس قدرا وسوددا وعدلا فدنه النفس صدفا بلا كذب
يحن لى راحيه كالواقى العصب ويهتز للمعروف كالهارم المضرب
وانى لما تولى وأوليت شاكر فمن شكر النصماء نال رضى الرب . »

وقال (١)

« لما تماسكت الدموع وتنهت القلب الصديق
قالوا الخضوع سياسة فليد منك لهم خضوع
والذ من طعم الخضوع ع على فى السم النقيع
إن تستلب عنى الدنا ملكى وتسلمنى الجموع

(١) جاء فى كتاب المراكشى قبل هذه الأبيات الرائعة ما يلى :

قال يوسف بن تاشفين لبعض ثقافته من وجوه أصحابه : « كنت أظن أنى ملكت شيئاً ، فلما رأيت تلك البلاد صمرت — فى عيني — مملكتى ، فكيف الحيلة فى تحصيلها ؟ » فاتفق رأيهم ورأى أصحابه على أن يرأسوا المعتد يستأذنونهم فى رجال من صلحاء أصحابهم يرغبوا فى الرباط بالأندلس ، ومجاهدة العدو والكف عن بعض الحصون المصافية لاروم إلى أن يموتوا ففعلوا ، وكتبوا إلى المعتد بذلك ، فأذن لهم بعد أن وافق على ذلك ابن الأفطس التوكل صاحب الثغور ، وإنما أراد يوسف وأصحابه بذلك أن يكون قوم من شيعتهم مبعوثين بالجزيرة فى بلادها ، فإذا كان أمر من قيام بدعوتهم أو لإظهار لمسلكتهم وجدوا فى كل بلد أعواناً ، وقد كانت قلوب أهل الأندلس كما ذكرنا قد أشربت حب يوسف وأصحابه ، فجهاز يوسف من خيار أصحابه رجلاً استخبهم ، وأمر عليهم رجلاً من قرابته يسمى « بليجين » وأمره إليه ما أراد ، فجهاز بليجين المذكور وقصد المعتد من ملوك الجزيرة ، فقال : « أين تأمرنى بالكف ؟ » فوجه معه المعتد من أصحابه من ينزله ببعض الحصون التى اختارها لهم فنزل حيث أنزلوه هو وأصحابه ، وأقاموا هناك إلى أن ثارت الفتنة على المعتد ، وكان مبدؤها فى شوال من سنة ٤٨٣ . بأخذ جزيرة طريف المقاومة لطنجة من العدو دون مقدمة ظاهرة توجب ذلك ، ففشمت جموعه وأهواؤها ملتزمة ، وانتشرت بلادها وقلوب أهلها على محبته منتظمة ، ولما أخذ المراكشون جزيرة طريف ونادوا فيها بدعوة أمير المؤمنين انتشر ذلك فى الأندلس ، وزحف القوم — الذين قدمنا ذكرهم — السكائن فى الحصون إلى قرطبة لحاصروها وفيها عباد بن المعتد الملقب بالأمون ، وقد تقدم ذكره ، وهو من أكبر ولده ، فدخلوا البلد وقتل عباد هذا بعد أن أبلى عزماً ، وأظهر فى الدفاع عن نفسه جلاً وصبراً ، وذلك فى مستهل صفر الكائن فى سنة ٤٨٤ . فزادت الإحنة والحنة ، واستمرت فى غلوائها الفتنة . وأجمعت على الثورة بحضرة اشبيلية طائفة ، فأعلم المعتد بما اعتقدته الطائفة المذكورة وكشف له عن مرادها ، وأثبت عنده سوء اعتقادها ، وأغرى بتمزيق أديعها ، وسفك دمها ، وحض على هتك حريمها ، وكشف حرمها ، فأبى له ذلك مجده الأثيل ، ورأيه الأصيل ، ومذهبه الجليل ، وما جاء الله من حسن اليقين ، وصحة العقل والدين ، إلى أن أمكنتهم الغرة يوم الثلاثاء منتصف رجب من السنة المذكورة فقاموا بجيش غير مستنصر ، واستنصروا بقاء غير مستنصر ، فبرز هو من قصره ، سيفه يديه ، وغلالته ترف على جسده لادركة له ولا درع عليه ، فلقى على باب من أبواب المدينة يسمى باب الفرج فارساً من الداخلين مشهور النجدة شاكى السلاح ، فرماه الفارس برمح قصير أنابىب القناة ، طوبل شفرة السنان ، فالتوى الرمح بغلالته وخرج تحت إبطه ، وعصمه الله منه ودفعه بفضلته عنه ، وصب هو سيفه على عاتق الفارس فشقه إلى أضلاعه ، فخرّ صريعاً ، وانهزمت تلك الجموع ، ونزل للتسليمون للأسوار عنها ، وظن أهل اشبيلية أن الحناق قد تنفس ، فلما كان عصر ذلك اليوم ، طودهم القوم ، فظهر على البلد من واديه ،

فألقب بين ضلوعه لم تلم القلب الضلوع
لم أستلب شرف الطب ع أيسلب الشرف الرفيع ؟
قد رمت يوم نزالهم إلا تحصننى الدروع
وبرزت ليس سوى الفتيه من عن الحشى شىء دفوع
وبذلت نفسى كي تسيب مل إذا يسيل بها النجيع
أجلى تأخر لم يمكن بهوى ذلى والخشوع
ما سرت قط إلى الفتا ل وكان من أملى الرجوع
شيم الألى أما منهم والأصل تدبعه الفروع .»

ويش من سكنى ناديه ، وبلغ فيه الأمل حاسده وشاويه ، وشبت النار فى شوانيه ، فاقطع عندها العمل^{*}
واقول ، وذهبت القوة من أيدي أهلها والحول ، وكان الذى ظهر عليها من جهة البر رجل من أصحاب
يوسف أمير المسلمين والتوت الحال أياما يسيره إلى أن ورد الأمير سير ابن أبي بكر بن تاشفين وهو ابن أخى
أمير المسلمين بمساكره متظاهرة ، وحشود من الرعية وافر ، والناس فى خلال هذه الأيام قد خاسرهم
الجزع ، وخالط قلوبهم الهلع ، يقطعون السبل سياحة ، ويمبرون النهر سياحة ، ويتولون مجارى الأقدار ،
ويترامون من شرفات الأسوار : حرصاً على الحياة والموفون بالعهد ، المقيرون على صريح الود ، ثابتون إلى
أن كان يوم الأحد لإحدى وعشرين خلعت من رجب من السنة المذكورة ، وهذا يوم الكائنة العظمى والطامة
الكبرى فيه حم الأمر الواقع ، واتسع الحرق على الراقع ، ودخل البلد من واديه ، وأصاب حاضره وباديه ،
بعد أن جد الفريقان فى القتال ، واجتهدت الفئتان فى الدال ، وظهر من دفاع المعتمد — رحمه الله — وبأسه ،
وتراميه على الموت بنفسه ، مالا يزيد عليه ، ولا تناء لخلق إليه ، وفى ذلك يقول المعتمد بعد ما نزل بالعدوة
أسيراً حسيماً :

« لما تماسكت الضلوع وتنهنه القلب الصديق الخ

فشنت الغارة فى البلد ولم يترك البربر لأحد من أهلها سبدا ولا لبدا ، وانتهت قصور المعتمد نهياً قبيحاً ،
وأخذ هو قبضاً باليد ، وأجبر على مخاطبة ابنيه المعتمد بالله والراضى بالله ، وكانا بمغقلين من معاقل الأندلس
المشهورة لو شاء أن يمتنما بهما لم يصل أحد إليهما . أحد الحصنين يسمى رندة ، والآخر مارتلة ، فكتب
رحمه الله ، وكتبت السيدة الكبرى أمهما مستعطفين مسترحين مملين أن دم الكل منهم مسترهن بثبوتها
فأنقا من الذل وأيا وضع يديهما فى يد أحد من الناس بعد أبيهما ، ثم عطفتهما عواطف الرحمة ، ونظرا فى
حقوق أبيهما المقترة بحق الله عز وجل ، فتسك كل منهما يدينه ، ونبت دنياه ، ونزلا عن الحصنين بعد
عهود مبرمة وموائيق محكمة . فأما المعتمد بالله فان القائد الواصل إليه قبض عند نزوله على كل ما كان يملكه
وأما الراضى بالله فعند خروجه من قهره قتل غيلة وأخفى جسده ، ورحل المعتمد وآله بعد استئصال جميع
أحواله ، ولم يصحب من ذلك كله بلغة زاد ، فركب بالسفين ، وحل بالعدوة محل الدفين ، فكان نزوله
من العدوة بطنجة .

(وقال)

« قل لمن قد جمع العبد سمومه أحصى صوابه (١) »

(١) قال المراكشي في كتاب المعجب :

« أقام المعتد بطنجة أياماً ، ولفيه بها الحصري الشاعر ، فجرى معه على سوء عادته من قبح الكدية وإفراط الخلف ، فرفع إليه أشعاراً قديمة كان قد مدحه بها ، وأضاف إلى ذلك قصيدة استجدها عند وصوله إليه ولم يكن عند المعتد في ذلك اليوم مما زود به فيما بلغنى أكثر من ستة وثلاثين مثقالاً فطبع عليها ، وكتب معها بقطعة شعر يعتذر من قلتها سقطت من حفظي ووجه بها إليه فلم يحاوبه عن القطعة على سهولة الشعر على خاطره وخفته عليه كان هذا الرجل أعنى الحصري الأعمى أسرع الناس في الشعر خاطراً إلا أنه كان قليل الجيد منه ، فحركه المعتد على الله على الجواب بقطعة أولها : قل لمن قد جمع الخ »

وأقام المعتد بطنجة رحمه الله أياماً على الحال التي تقدم ذكرها ، ثم انتقل إلى مدينة مكناسة ، فأقام بها أشهراً إلى أن نفذ الأمر بتسييرهم إلى مدينة اغمات ، فأقاموا بها إلى أن توفي المعتد رحمه الله ودفن بها بقبره معروف هناك ، وكانت وفاته في شهر سنة ٨٧٠ وقيل سنة ٨٨٠ فافقه أعلم ، توفي وسنه إحدى وخمسون سنة ، فن أحسن ما مرى مما رثى به المعتد على الله مقطوعة من شعر ابن اللبابة أولها :

وللنى - من منايامن - غايات	« لكل شئ - من الأشياء - ميقات ،
ألوان حالاته فيها استحالات	والدهر في صيغة الحرباء منغمس
وربما قرت بالبيدق الشاة	ونحن من لعب الشطرنج في يده
فالأرض قد أقمرت والناس قد ماتوا	فانفض يدك من الدنيا وما كنتها
مريرة العالم العلوى « اغمات »	وقل لعالمها الأرضى قد كتمت
من لم تزل فوقه للعزرايات	طوت مظلتها لابل مسدلتها
هنديّة وعطاياهن هنيذات	من كان بين الندى والبأس أنصله
وكيف تنكر في الروضات حيات	أنكرت إلا التواء للقيود به
من رأسه نحو رجليه التؤابات	وقلت هن ذؤابات فلم عكست
صدرتهم فاعدوى الليث عادات . »	وأوه ليثاً تخافوا منه عادية

وله من قصيدة يرثيهم بها وهي كثيرة الجيد أولها :

أساود لهم فيها وآساد	« هريسة دخلتها الننايات على
فاليوم لا عاكف فيها ولا باد	وكعبة كانت الآمال تغرما
خطب الزمان ثقافاً غير معتاد	تلك الرماح رماح الخط تقفها
أيدي الردى وثقتها دون إغداد	والبيض بيض الظبا فلت مضاربها
وكل شئ لميقات وميعاد	لما دنا الوقت لم تخاف له عدة
هناك من درر للعجد افراد	كم من درارى سعد قد هوت ووهدت
ذوى وذاك خبا من بعد إبعاد	تور ونور فهذا بعد نعمته
في ضم رحلك واجمع فضلة الزاد	يا صيف انقر بيت المسكرات فخذ

كان في الصرة شعر فتنظرنا جوابه
قد أثبتناك فهـلا جلب الشمر ثوابه .

ويا مؤمل واديم ليسكنه خف القطيع، وجف الزرع بالوادي
ضلت سبيل الندي بابن السبيل، فسر لنير قصد، فإيهديك من هاد .

وفيه يقول :

« نسيت - الاغداة النهر - كونهم في المنش - ثبات كأموات بالحاد
والناس قد ملثوا العبرين، واعتبروا من لؤلؤ طافيات فوق أزباد
حط القناع، فلم تستر مخدرة ومنزق أوجه تمزيق أبراد
تفرقوا جيرة، من بعد ما نشأوا أهلا بأهل، وأولاداً بأولاد
حان الوداع فضجت كل صارخة وصارخ من مفداة ومن فاد
سارت سفائنهم - والنوح يقبعها - كأنها إبل يحدو بها الحادي
كم سال في الماء من دمع، وكم حلت تلك القطائع من قطعات أكباد
من لي بكم - يابني ماء السماء - إذا ماء السماء أبي سقيا حشا الصادي . »

وهي طويلة جدا هذا ما اخترت له منها .

« ولما اتصل بزعانة الشعراء وملحنى أهل الكدبة ما صنع المتمد رحمه الله مع المصري ترضوا له بكل طريق، وقصدوه من كل فج عميق، فقال في ذلك رحمه الله .

« شعراء طنجة كلهم والمغرب، ذهبوا من الاغراب أبعد مذهب
سألوا العسير - من الأسير - وإنه بسؤالهم لأحق، فاعجب واعجب
لولا الحياء وعزة الخبيسة - طلى الحشا - ساواهم في المطلب
قد كان - إن سئل الندي - يجزل، وإن نادى الصريح ببابه اركب يركب »

وله في هذا المعنى رحمه الله :

« قبح الدهر، فإذا صرنا كلما أعطى قفيسا نرعا
قد هوى - ظلماً - بمن عادته أن ينادى كل من يهوى لما
من إذا الفيت همى منبراً أخرجتها كفه فاعطما
من غمام الجود من راحته عصفت ريح به فانقشما
من إذا قيل الخناصم وإن نطق المافون هما سما
قل لمن يطعم في نائسه قد أزال اليأس ذاك الطعما
راح لا يملك إلا دعسوة جبر الله العفاة الضيما . »

معارضات الشعراء لابن زيدون (١)

سرکم الوصل ظناً لا فقدتکم
فکان بالوهم موجوداً ومظنوناً
سرى من المسك عن سراکم خبر
بُعیدَ عهد هواکم سَیرُهُ فینا
أَیَّامَ بدرکم یجلو لیالینا
نوراً وطیبکم یرعى بوادینا
مهلاً فلم نعتقد دین الهوى تبعاً
ولا قرأنا بصحف المس تلقینا
قد نصرف العدل یغوینا ویرشدنا
وتترك الدار تسلینا وتشجینا
وتتبع الحیَّ والأشواق محرقة
تحوم بالماء والأرحام تحمینا
کواکب بسماء النقع قد جعلت
لنا رجوماً وما کنا شیاطینا

معارضات أمير الشعراء

اندلسية

« نظم أمير الشعراء هذه القصيدة الرائعة وهو في منفاه بإسبانيا وفيها يحن للوطن العزيز ويصف كثيراً من مشاهد ومعاينه .

« أولح كثير من الشعراء من قدماء ومحدثين بمعارضات ابن زيدون ، ولو أردنا أن تثبت معارضاتهم السكتيرة لقصائده المشهورة لاحتجنا إلى سفر ضخمة فلنجد في قصيدة « أبي بكر بن الملح » التي ذكرها « ابن بسام » في كتاب الذخيرة من القدماء ، وقصائد أمير الشعراء أحمد شوقي بك التي عارض بها ابن زيدون . »

معارضة أبي بكر

قال ابن بسام بعد أن ذكر نونية ابن زيدون التي أولها :
« أضحى الثأى بديلاً من تدانينا » (٢)
« وهذه القصيدة بجملتها مريدة ، وقد عارضه فيها جماعة قصروا عنه منهم « أبو بكر بن الملح » نازعه فيها الراية ، فقصص عن العاية حيث يقول من قصيدة أولها . »

هل يسمع اربع شكوانا فيشكينا
أو يرجع القول مغناه فيغنينا
ثم استمر في غزلها إلى أن قال :
يا باخلين علينا أن نودعكم

وقد بعسدتكم عن اللقيا فحيونا
ققوا نزرکم وإن كانت فرائدکم
نزرأ ، ومنكم بالوصل ممنونا

(١) انظر «س ٤١٢» (٢) انظر «س ٤»

يَانَاثُ «الطلح» أشباه عوادينا
 نشجى لواديك أم نأسى لوادينا ؟
 ماذا تقصُّ علينا غير أن يداً
 قصت جناحك جالت في حواشينا !
 رمى بنا البين أيسكاً غير سامرنا
 أخا الغريب : وظلاً غير نادينا
 كل رمته النوى ! ريش الفراق لذا
 سهماً ، وسلّ عليك البين سكيننا
 إذا دعا الشوق لم نبرح بمنصنع
 من الجناحين عى لا يلبينا
 قَيْنُكَ الجنس - يابن الطلح - فرقنا
 إن المصائب يجمعن المصائبنا
 لم تال ماء ك تحناتاً ولا ظمأ
 ولا آد كآراً ، ولا شجواً أفانينا
 تجرّ من فن ساقاً إلى فن
 وتسحب الذيل ترتاد المؤاسينا
 أساة جسمك شتى حين تطلبهم
 فمن لروحك بالنطس المداوينا !



آهًا لنا ! نازحى أيك بأندلس
 وإن حللنا رفيفاً من رواينا
 رسم وقفنا على رسم الوفاء له
 نجيش بالدمع ، والإجلال يذنبنا

لفتية لا تنال الأرض أدمعهم
 ولا مفارقهم إلا مصلينا
 لو لم يسودوا بدين فيه منبهة
 للناس ، كانت لهم أخلاقهم ديننا
 لم نسر من حرم إلا إلى حرم
 كالحرم من «بابل» سارت «لدارينا»
 لما نبا الخلد نابت عنه نسخته
 ثمائل الورد «خيرياً» و «نسرينا»
 نسقى ثراهم ثناء ، كلما نثرت
 دموعنا نظمت منها مراثينا
 كادت عيون قوافينا تحركه
 وكدن يوقظن في الترب السلاطينا
 اسكن مصر وإن أغضت على مقه
 عين من الخلد بالكافور تسقينا
 على جسوانها رفّت تماثنا
 وحول حافاتها قامت رواقينا
 ملاعب مرحت فيها مآربنا
 وأربع أنست فيها أمانينا
 ومطلع لسعود من أواخرنا
 ومغرب لجدود من أوالينا
 بنا فلم نخل من روح يراوحنا
 من برّ مصر وريحان يغاديننا
 كأثم موسى ، على أسم الله تكفلنا
 وبأسمه ذهبت في اليم تلقينا

ومصر كالكرم ذى الإحسان : فأكهة
لحاضرين ، وأكواب لبادينا

ياسارى البرق يرمى عن جوانحنا
بعد الهدوء ويهمى عن مآقينا
لما ترقق فى دمع السماء دماً
هاج البكا فحضنا الارض باقينا

الليل يشهد لم تهتك دياجيه
كلّى نيام ولم تهتف بسالينا
والنجم لم يرنا إلا كلّى قدم
قيام ليل الهوى للمهد راعينا
كزفرة فى سماء الليل حائرة

مما تردد فيه حين يضوينا
بالله إن جيت ظلماء العباب على
نجائب النور محدواً (بجرينا)

ترد عنك يداه كل عادية
إنساً يعثن فساداً أو شياطينا

حتى حوتك سماء النيل عالية
كلّى الغيوث وإن كانت ميامينا
واحرزتك شفوف اللازورد على

وشى الزبرجد من أفواف واديننا
وحازك الريف أرجاء مورجة
ربت خائل ، وأهتزت بساتينا

قفق إلى النيل واهتف فى خمائله
وانزل كما نزل الطل الرياحينا
وآس ما بات يذوى من منارلنا

بالحادثات ويضوى من مغائنا

ويام مطرة الوادى سرت سحراً

فطاب كل طروح من مرامينا
ذكية الذيل لو خائنا غلاتها
قيص يوسف لم نحسب مغالينا
جشمت شوك السرى حتى أتيت لنا

بالورد كتباً ، وبالريا عناوينا
فلو جزيناك بالأرواح عالية
عن طيب مسراك لم تهض جوازينا
هل من ذبولك مسكى نحمله

غرائب الشوق وشياً من أمالينا
إلى الذين وجدنا ود غيرهم

دنيا وود هو الصافى هو الديننا

يا من نغار عليهم من ضمائرنا
ومن مصون هواهم فى تناجينا
ناب الحنين إليكم - فى خواطرنا -

عن الدلال عليكم فى أمالينا
جئنا إلى الصبر ندعوه كمادتنا
- فى المائبات - فلم يأخذ بأيدينا

وما غلبنا على دمع ولا جلد
 حتى أتتنا نواكم من صياصينا
 ونابغى كأن الحشر آخره
 تميتنا فيه ذكراكم وتحيينا
 نطوى دجاء ببحر من فراقكمو
 يكاد في غلس الأسحار يطوينا
 إذا رسا النجم لم ترقاً محاجرنا
 حتى يزول ، ولم تهدأ تراقينا
 بتنا تقاسى الدواهي من كواكبه
 حتى قعدنا بها : حسرى تقاسينا
 يبدو النهار فيخفيه تجلدنا
 للشامتين ، ويأسوه تأسينا
 *
 سقى العهد - كأكناف الربى - رقة
 أنى ذهبنا ، وأعطاف الصبا لنا
 إذ الزمان بنا غيناء زاهية
 ترف أوقاتنا فيها رياحينا
 الوصل صافية ، والعيش ناغية
 والسعد حاشية ، والدهر ماشينا
 والشمس تختال في العقيان تحسبها
 « بلقيس » ترفل في وشى اليمانينا
 والنيل يقبل كالدينا إذا احتفلت
 لو كان فيها وفاء للمصافينا

والسعد لودام ، والنعمى لو أطردت ،
 والسيل لو عف ، والمقدار لو دينا
 ألقى على الأرض حتى ردها ذهباً
 ماء - لمسنا به إلا كسير - أوطينا
 أعداه من يمنه « التابوت » وارتسمت
 - على جوانبه - الأنوار من سينا
 له مبالغ ما فى الخلق من كرم
 عهد السكرام وميثاق الوفيينا
 لم يجر للدهر إغذار ولا عرس
 إلا بأيمننا أو فى ليالينا
 ولا حوى السعد أطفى فى أعنته
 منا جياداً ، ولا أرخى مياديننا
 نحن اليواقيت خاض النار جوهرنا
 ولم يهن بيد انتشتيت غالينا
 ولا يحول لنا صيغ ولا خلق
 إذا تلوت كالحرباء شانينا
 لم تنزل الشمس ميزاناً ولا صعدت
 فى ملكها الضخم عرشاً مثل واديننا
 ألم تؤله على حافاته ، ورأت
 عليه آبناءها الغر الميامينا ؟
 إن غازلت شاطئيه فى الضحى لبسا
 خائل السندس الموشية الغينا
 وبات كل محاج الواد من شجر
 لوافظ القز بالخيطان ترمينا

سعيًا إلى مصر تقضى حق ذاكرنا
فيها إذا ندى الوافى وباكيننا
كَنَزْ (بحلوان) عند الله نطلبه
خير الوديع من خير المؤديننا
لو غاب كل عزيز عنه غيبتنا
لم يأت الشوق إلا من نواحيننا
إذا حملنا لمصر أوله شجنًا
لم ندر أى هوى الأمين شاجيننا

زحلة

« وقال معارصاً قصيدة ابن زيدون التي أولها :
« ما للهدام تديرها عينك »
شيعت أحلامي بقلب باك
ولحت من طرق الملاح شباكي
ورجعت أدراج الشباب وورده
أمشى مكانهما على الأشواك
وبجانبى واه كأن خفوة
لما تلفت جهشة المتباكي
شاكي السلاح إذا خلا بزلوعه
فأذا أهيب به فليس بشاك
قد راعه أنى طويت حبائلي
من بعد طول تناول وفكاك
ويح ابن جنبي كل غاية لذة
بعد الشباب عزيزة الإدراك

وهذه الأرض من سهل ومن جبل
قبل (القيصر) دَنَاهَا (فراعيننا)
ولم يضع حجراً بان على حجر
في الأرض إلا على آثار بانينا
كأن أهرام مصر حائط نهضت
به يد الدهر لا بنيان فانينا
إيوانه الفخم من عليا مقاصره
يفنى الملوك ولا يبقى الأواويننا
كأنها ورمالاً حولها التطمت
سفينة غرقت إلا أساطيننا
كأنها تحت لألاء الضحى ذهباً
كنوز (فرعون) غطين الموازيننا

أرض الأبوة والميلاد ، طيها
مر الصبا في ذيول من تصايننا
كانت محجلة فيها موافقنا
غرا مسلسلة المجرى قوافينا
فآب — من كُرّة الأيام — لاعبننا ،
وثاب — من سنة لأحلام — لاهيننا
ولم ندع لليالى صافياً ، فدعت
« بأن نقص فقال الدهر : آمينا »
لو أستطعنا : نلصنا الجو صاءقة
والبر نار وغي ، والبحر غسلينا

لم تبقَ منا يا فؤاد بقيَّةُ
لفتوة أو فضلة لعراك
كنا إذا صفت نستبق الهوى
ونشد شد العصبه الفتاك
واليوم تبعث في حين تهزني
ما يبعث الناقوس في النساك

يا حارة الوادي طرمت وعادني
ما يشبه الأحلام من ذكراك
مثلت في الذكري هوالك وفي الكرى
والذكريات صدى السنين الحاكي

ولقد مررت على الرياض بربوة
عناء كنت حيا لها ألقاك
ضحكت إلى وجوها وعيونها
ووحدت في أنفاسها رياك
فذهبت في الأيام أذكر رففا
بين الجداول والعيون حواك

أذكرت هرولة الصبايد والهوى
لما خطرت يقبلان خطاك
لم أدر ما طيب العناق على الهوى
حتى ترفق ساعدي فطواك

وتأودت أعطاف بانك في يدي
واحمر من خفريهما خدك

ودخلت في ليلين فرعك والذبحي
ولثمت كالصبح المنور فاك
ووجدت في كنهه الجوانح نشوة
من طيب فيك ومن سلاف لماك
وتعطمت لغة الكلام وخاطبت
عبي في لغة الهوى عيناك
ومحوت كل لبانة من خاطري
ونسيت كل تعاتب وتشاكي
لا أمس من عمر الزمان ولا غدة
جمع الزمان فكان يوم رضاك

لبنان ردّني إليك من النوى
أقدار سائر للحياة دراك
جمت نزيلتي ظهرها من فرقة
كرة وراء صوالج الأفلاك
نمشي عليها فوق كل فجاءة
كالطير فوق مكامن الأشراك
ولو أنّ بالشوق المزار وجدتي
ملقى الرجال على ثراك الفاك

بنت البقاع وأم برّدونيها
طبي كجلق واسكبي برداك
ودمشق جنات النعيم وإنما
الفيت سدة عدنن ربك

كالغيد من ستر ومن شباك
وكان كل ذؤابة من شاهق
ركن المجرة أو جدار سماك
سكنت نواحي الليل إلا أنه
في الأيك أو وترأ شجى حراك
شرقاً عروس الأرز كل خريدة
تحت السماء من البلاد فداك
ركز البيان على ذراك لواءه
ومشى ملوك الشعر في مفناك
أدباؤك الزهر الشموس ولا أرى
أرضاً تمخض بالشموس سواك
من كل أروع علمه في شعره
ويراعه من خلقه بملاك
جمع القصائد من رباك وربما
سرق الشائل من نسيم صباك
(موسى) ببالك في المكارم والعلا
وعصاه في سحر البيان عصاك
أحلت شعري منك في عليا الذرا
وجعته برواية الأملاك
إن تكرمي يا زحل شعري لانتى
أنكرت كل قصيدة إلاك
أنت الخيال بديعة وغريبه
الله صاغك والزمان رواك

قسما لو انتمت الجداول والربا
لتهلل الفردوس ثم نمناك
مرآك مرآه وعينك عينه
لم يا زحيلة لا يكون أباك
تلك الكروم بقية من بابل
هيهات ننى البابل جنك
تبدى كوشى الفرس أقن صبغة
لناظرين إلى ألد جياك
خرزات مسك أو عقود الكهربا
أودعن كافوراً من الأسلاك
فكرت في لبن الجنان وخرها
لما رأيت الماء مس طلاك
لم أنس من هبة الزمان عشية
سلفت بظلك وانقضت بذراك
كنت العروس على منعة جناحها
لبنان في الوشى الكريم جلاك
يمشى إليك اللحظ في الديباج أو
في العاج من أى الشعب أتاك
ضمت ذراعيها الطبيعة رقة
«صينين» و«الحرمون» فاحتضناك
والبدر في ثبج السماء منور
سالت حلاه على الثرى وحلاك
والنيرات من السحاب مظلة

وقال

« وقال معارضا كافية ابن زيدون التي أولها :

« ودع الصبر محب ودعك (١) »

ردت الروح على المضي معك

أحسن الأيام يوم أرجعك

مرّ من بعدك ما روعني

أترى يا حلو بعدى روعك

كم شكوت البين بالليل إلى

مطلع الفجر عسى أن يطلعك

وبعث الشوق في ريح الصبا

فشكا الحرقه مما أستودعك

يا نعيمى وعذابى فى الهوى

بعذولى فى الهوى ما جمعك

أنت روحى ظلم الواشى الذى

زعم القلب سلا أو ضيعك

موقى عندك لا أعلمه

آه لو تعلم عندى موقعك

أرجفوا أنك شاك موجع

ليت لى فوق الضنا ما أوجعك

نامت الأعين ، إلا مقلة

تسكب الدمع وترعى مضجعك



صفحات من كتاب الذخيرة لابن بسام

فصل في ذكر دى الوزارتين الكاتب أبى الوليد ابن زيدون واجتلاب عيون أخباره ، وفصوص رسائله وأشعاره .

قال أبو الحسن كان أبو الوليد عاية مشهور ومنظوم وخاتمة شعراء مخزوم ، أحد من خبر الأيام خبراً ، وفاق الأنام طرا ، وصرف السلطان نفعا وضرا ، ووسع البيان نظماً ونثراً ، إلى أدب ليس للبحر تدفقه ، ولا للبدر تألقه ، وشعر ليس للسحر بيانه ، ولا للنجوم الزهر اقتارانه ، وحظ من النستر غريب المباتى ، شعرى الألفاظ والمعاني . أخبرنى غير واحد من وزراء إشبيلية قال : حلص ابن عبد العزيز من يد عباد ، خلوص الفرزدق من يد زياد ، وبقيت حضرة من أهل هذا الشأن ، أعزى من ظهر الأفعووان وأخلى من صدر الجبان ، فهم باستجلاب (محمد بن الباسى) المشهور أمره ، الآتى فى القسم الثانى من هذا الديوان ذكره ، فكان أبى الوليد غس بذلك وواطأ أبى محمد بن الجدى على الإشارة بالاستعناء عما هنالك ، فكانت الكتب تنفذ من إنشاء أبى الوليد إلى شرق الأندلس ، ويقال تأتى بإشبيلية كتب هى بالمظم الخطير ، أشبه منها بالمنتور .

حظوته عند ابن جهور

وقد أجرى ذكره أبو مروان بن حيان فى وصف من كان اصطنع ابن جهور من رجال دولته ، فقال « ونوه بفتى الآداب ، وعمدة الطرف ، والشاعر البديع الوصف ، أبى الوليد أحمد بن زيدون ذى الأبوة السنية بقرطبة ، والوسامة ، والدراية ، وحلاوة المنظوم ، والسلاطة ، وقوة المعارضة ، والافتنان فى المعرفة ، وقدمه للنظر على أهل الذمة لبعض الأمور المعترضة وقصره بعد مكانه من الخاصة والسفارة بينه وبين الرؤساء فأحسن التصرف فى ذلك ، وغلب على قلوب الملوك » قال أبو مروان وكان أبو الوليد من أبناء وجوه الفقهاء بقرطبة فى أيام الجماعة والفتنة

وبرع أدبه ، وجاد شعره ، وعلا شأنه ، وانطلق لسانه ، فذهب به العجب كل مذهب وهون عنده كل مطلب ، وكان علقه من عبد الله بن أحمد بن المكري أحد حكام قرطبة ظفر أحجن ، أدام إلى السجن ، فألقى نفسه يومئذ على أبى الوليد بن جهور فى حياة والده أبى الحزم فشفع له وانتقله من تكبته وصيره فى صنائعه ، ولما ولى الأمر بعد والده نوه به وأسنى خطته وقدمه فى الذين اصطنع لدولته ، وأوسع راتبه وجلله كرامة لم تقفها فيما زعموا ، واتفق أن عن له مطلب بحضرة لإدريس الحسنى بمالقة ، فأطال الشواء هنالك ، واقترب من إدريس ، وخب على نفسه ، وأحضره مجالس أنسه ، فعتب عليه ابن جهور ، وصره فى السفارة بينه وبين أمراء الأندلس فيما يجرى بينهم من التراسل والمداخلة ، فاستقل بذلك ليعمل ما أوتيه من اللس والمعارضة ، فاكتمت الجاه والمنفعة ولم يعمده ذلك من التهافت فى الترقى لبعد الهمة ، فهو عفا قليل إلى عباد صاحب إشبيلية اجتذبه إلى ذلك مهاجر من وطه لآيه ، وتزل على كفه ، وصار من خواصه وصحابه ، بمجالسته فى خلواته ، ويراسل له فى مهم رسائله على حال من التوسمة ، وكان ذهابه لعماد سنة ٤٤١ هـ لإحدى وأربعين وأربعمائة . قال أبو الحسن : « فأما سعة ذرعه ، وتدفق طبعه ، وغرارة بيانه ، ورقة حاشية لسانه ، فالصبح الذى لا ينكر ولا يرد ، والزمل الذى لا يحصى ولا يعد . »

بدايته وتصرفه بفنون القول

أخبرنى من لا أدفع خبره من وزراء إشبيلية قال : « عهدى بأبى الوليد قائماً على جنازة بعض حرمة والاس يعزونه على اختلاف طبقاتهم ، فما سمع يحجب بما أجاب به غيره لسعة ميدانه ، وحضور جنازه . » وقد أخرجت من أشعاره التى هى حجول وغرر ونوادر أخباره التى هى مآثر وأثر ، ورسائله

كالدهر إن عض يوما
أبان فضل الكريم . «



وأبو الوليد بن زيدون - على كثرة إحسانه - كثير
الاهتمام في النثر والنظام ، وكتب إلى أبي بكر مسلم
وهو محتف بقربة بعد فراره من السجن ، فصلا
من رقة :

« وبلغني أنك أحد اللاتمين ومن أمثالهم
ويل للشحى من الحلى ، وهان على الأملس مالاقي
الدبر واعتبك على انفصالك عني وترى أنك أحد
الحنة مي فلم أستطع صبراً ، وعلمت أن العاجز من
لا يستقد فالمرء يهجر لاءاله ، ولم أستجر أن أكون
نالك الأذلين العير والوند ، وتذكرت أن الفرار
من الظلم والهرب مما لا يذوق من سجن المرسلين ،
وقد قال تعالى على لسان موسى : فقررت منكم لما
خفتكم . مطرت في مفارقة الوطن فديما ضاع
الفاضل في وطنه ، وكسد العلق العبيط في معدنه
كما قال :

« أضيع في معشري وكم بلد
يكون عود الكباء من خطبه »

فاستحرت الله في إيفاء العزم ، وأنا الآن حيث أمنت
بعمس الأمن إلا أن السعى لم يرتفع ومادة البغي لم
تنقطع ، وختم رسالته بهذا النظم :

« شحطنا وما بالدار نأى ولا شحط
وشط - بمن نهوى - المزار وما شطوا . »



.....
كأن أول هذه القصيدة ناظر إلى قول راشد أبي حكيمة
حيث يقول :

« ومستوحش لم يعض في أرض غربة
ولكنه ممن يحب غريب . »
وبناسبه أيضا قول المتنبي :

« إذا ترحلت من قوم وقد قدروا
أن لا تفارقهم فالرحلوت هم . »

قوله هربت وما للشيب البيت ناقص عن قول المتنبي :

التي أخرست الحفل ، واستوفت أمد المطلق الجزل .
.....
.....
.....

وله في ابن جهور ، وكتب بها من السجن :

« ماجال بعدك لخطي في سنا القمر
إلا ذكرتك ذكر العين بالآثر . » الخ

وله أيضاً قصيدة مريدة خاطب بها ابن جهور وهو
في تلك الحال من الاعتقال أولها :

« ألم يأن أن يكي الغمام على مثلي
ويطلب نأري البرق منصلت النصل . »

وفي بي جهور يقول :

« بني جهور أحرقتم بحفائكم
جناني ، فما بال المدايح تعبق
تعدوني كالعنبر الورد إنما
تطيب لكم أنفاسه حين يحرق . »
وأراه توارد في هذين البيتين مع أبي علي بن رشيق
القيرواني حيث يقول :

« أراك اتهمت أحاك النفه
وعندك مقت وعندي مقه
وأنتى عليك وقد سؤتى
كما طيب المود من أحرقه . »
وأخذه معاً من قول أبي تمام :

« لولا اشتعال النار وبها حاورت
ما كان يعرف فضل طيب المود . »



وأنشدتني بعض أهل وقتنا ، وهو أبو مروان بن
شهاخ لنفسه :

« نواب ظالتي ، فأبدت فضائي
وكانت وكنت النار والعنبر الورد . »

وليره :

« إن مست النار جسمي
أبدت طيب نسيم

« إن لا يشب فلقد شابت له كبدي

شيب إذا حصيته سلوة نصلا . »

وقد كرّر هذا المعنى أبو الطيب في مواضع من شعره وكلف به وشعب الكلام فيه فتصرف ، وقد تقدم إنشاده ، ومنه أيضاً قول عبد الجليل الرسي للمعتمد ابن عباد :

« أتتك على خلافتها جياذى

وإن كان الصياح لها شكلا . »

وكتب أيضاً أبو الوليد بن زيدون من محبته ذلك إلى أبي حفص بن برد بهذه الأبيات :

« ماعلى طيبيّ ياس يرح الدهر وياسو (١)

ربما أشرف بالمر ، على الآمال ياس

ولقد يتحكك إنفا ل، ويردك احتراس

والمخاذير سهام والمقادير قياس

يا أبا حفص وما ساء لك في فهم إياس

من سنا وأيك لي في غسق الخطب اقتباس

وودادى لك نص لم يحالفه القياس

أذوب هامت بلحى قاتبام وانتهاس

يلبد الورد السبني وله بعدد اوتراس

إن أكن أصعبت نجبو ساء ظلميت احتباس

فتأمل كيف يمشى مقلة المجدد الدماس

ويقت الملك في الترب ميوطا ويداس

لا يكن عهدك ورداً إن عهدى لك آس

وأردز كرى كئاساً ما امتطت كفك كاس

ومضى أن يسبح الدهر وقد طال الشباس . »

قوله يلبد الورد السبني البيت كقول النابغة :

« وقت يا قوم إن الليث منقبص

على برائته للوثبة المصارى . »

وأخذه ابن الرومي فقال :

« سكنت مسكوناً كان وهناً يونية

عماس كذاك الليث للوثب يلبد . »

وقوله لا يكن عهدك ورداً من قول العباس بن الأحنف :

« لا تجعلى وصلنا كالورد حين مغي

دا طلعة وأدعى الورد ككاس . »

كرّره العباس في موضع آخر ، فقال :

« ولكننى شبهت بالورد عهدما

وليس يدوم الورد والآس دائم . »

ما أخرجته من شعر ابن زيدون في النسب وما يناسبه من قصيدة :

« بتم وبنا فما ابتلت جوانحننا

شوقاً إليكم ولا جفت ما قينا (١)

لم اعتقد بعدكم إلا الوفاء لكم

رأياً ولم تنقل غيرة دينا

تكاد حين تناجيكم ضائرا

يقضى علينا الأسى لولا تأسينا

حالت لعمرك أياما فضدت

سوداً وكانت بكم بيباً ليالينا

إذ جانب العيش طلق من تألفنا

ومورد اللهو صاف من تصافينا

وإذ هصرنا غصون الأس دانية

قدأوها فجينا منه ما شينا

ليسق عهدكم عهد السرور فما

كنتم لأيامنا إلا رياحيا

لا تحسبوا نأيكم عنا يغيرنا

إذ طالما غير النأي المحيينا

والله ما طلب أهواؤنا بدلا

منكم ولا اصرفت حكم أمانينا

ياسارى البرق فاد القصر فاسق به

من كان صرف الهوى والوديعينا

ويا نسيم الصبا بلغ تحيينا

من لو على البعد حيا كان يحينا

ريب . لك كأن الله أشاء

مسكا وقد إن شاء الورى طيناً

(١) أثبتنا هذه الأبيات لاختلاف روايتها عن رواية الديوان .

(١) أثبتنا هذه الأبيات هنا لاختلاف روايتها عن رواية الديوان .

إذا تأود آدته — رفاهية —

توم العقود وأدته البرى لينا
كانت له الشمس ظئرا فى أكلته
بل ما تنجى لى لنا إلا أحيينا
ياروضة طاله ما أجت لواظنا
وردا جلاه الصبا غضا وصيرنا
ويا حياة تملينا بزهرتها
مى ضروبا ولذات أمانينا
لسنا نسميك إجلالا وتكرمة
وقدرك للمعتلى عن ذاك يغنيننا
ياجنة الخلد أبدانا بساسها
والكوثر العذب زفوما وغسلينا
كأننا لم نبت والوصل ثالثنا
والسعد قدغض من أجفان واشينا
سراى فى خاطر الظلما، يكتننا
حتى يكاد لسان الصبح يفشيننا
إنافرا أنا الأسى عند النوى — سورا
مكتوبة ، وأخذنا الصبر تلقينا
أما هواك فلم نعدل بمنهله
شربا وإن كان يظاينا ميرونا
لم نجف أفق جمال أنت كوكبه
— سالىن عنه — ولم نهجره قالينا
ولا اختيارا تجنبناك عن كتب
لكن عدتنا على كره — عوادينا
ناسى عليك وقد حثت مشعمة
فينا الشول ، وغنانا مغنيننا
لأ كؤس الراح تبدى من — شمائنا —
سيما ارتياح ، ولا الأوتار تلحيننا
دوى على الوصل — مادما — محافظة
فالحر من دان أنصافا كما دينا
فما استفدنا خيلا منك يصرفنا
ولا استفدنا حبيبا عنك يسلينا
ولو صبا نحونا من علو مظلعه
بدر الدجى لم يكن — حاشاك — يسبيننا
أبدى وفا ، وإن لم تبد لى صلة
فأذكر يقنمنا ، والطيف يكفيننا

وفى الجواب متاع إن شفعت به

بيض الأيادى التى ما زلت تولينا

عليك منى سلام الله ما بقيت

صباية بك تحفيا فتخفيننا . «

وهذه القصيدة بحملتها مريدة وقد عارضه فيها

جماعة قصروا عنه (١)

وله من أخرى أثر نزهة كانت له بعنية الزهراء :

« لى ذكرك بالزهراء مشتاقا

والأفق طلق ووجه الأرض قدراقا . »

وله من أخرى ، وكتب بها من بطلبوس أيام تكرره

عليها وهى من عرر نظامه وحر كلامه :

« يا دمع صب ما شئت أن تصوبا

ويا مؤادى آل أن أدوبا . »

وله :

« وسح الحق المبين وبقى الشك اليقين . »

وقال :

« صحت فصيح بها السقيم ربح معطرة الذميم . »

وقوله :

« يا ليل طل لا أشتهى إلا كعبرى قصرك

لو بات عندى قرى ما بت أرعى قرك . »

وقوله :

« ودع الصبر محب ودعك

ذائع من سره ما استودعك . »

وقال :

« بينى وبينك ما لو شئت لم يضع

سرى إذا داعت الأشياء لم يدع . »

ومها يقول :

ته أحتل واستطل أصبر وعزأهن

وول أفبل وقل اسمع وسرأطع . »

أراء احتذى بهذا البيت مذهب أبى العميش الأعرابى :

« فاصدق وعف وفه وانصف وأحتمل

واصلح ودار وكاف واحلم واسمع

والطف ولن وتأن وارفق واشد

واحرم وجد وحام واحمل وادفع . »

كقولك الجن :

« أحل وافقر وضر وانفع ولن واخن

ورش وابن وانكدب للمعالى . »

وهذا البيت صنعه المولودون وعدوه تقسيما

(١) وقد أبتنا بعض هذه المراضات فى ص « ١٠٤ »

وله من أخرى في ابن جهور :

« هذا الصباح على سراك رقيباً

فصلى بفركك ليلاك الغريباً . »

وقال ابن زيدون أيضاً :

« أما وألحاظ مراض صحاح

تصبي وأعطاف نشاوى صواح . »

وفي بي جهور يقول عند نكبة بي ذكوان :

« لولا بنو جهور ما أشرقت هم

عد السوالف في أحيادها تلح . »

قوله في هذه القصيدة إن السيوف إذا ما طاب

جوهرها في أول الطبع لم يعلق بها الطبع ، ينظر

يلحظ مرعب إلى قول حبيب :

« والسيف مالم يلف فيه صيقل

من سنحه لم يتفجع بصقال . »

وله من أخرى يهوى المعتضد بن عباد بـزعة ابنه

اسماعيل لابن الأنطس وقتل ولد إسحاق بن عبدالله

في تلك الحرب :

« ليهن الهدى إنحاح سعيك في العدا

ولان راح صنع الله نخوك واغندي . »

وفاة ابن زيدون

وعما يتعلق بذكر وفاة ذي الوزارتين رحمة الله

عليه فصل من تاريخ الشيخ أبي مروان بن حيان

رأيت لإبنته لنبل مسافه ، وحسن اتساقه . يقول

فيه ، وفي يوم الاثنين لثلاث عشرة ليلة خلت من

ذي الحجة سنة اثنين وستين وأربعمائة سار

الحاجب سراج الدولة عباد بن محمد إلى إشبيلية الحاضرة

الأثيرة لمطالعتها ، وتأنيس أهلها من وحشة خامرت

عامتهم من أجل عدوان رحل منهم على يهودى جاء (١)

لأمر جهة السوق عندهم ، فزعم أنه سب

الشريعة فبطش به المسلم وسط السوق وجرحه

وحرك عليه العامة ، فقبض عليه صاحب المدينة

بها عبد الله بن سلام واعتقله فكان لعامة الناس في

حبسه كلام وإكثار خشن ناله ، فتأطب السلطان

بقرطبة يعرفه ما كان منه ويستأمره في شأنه ، فجعل

إنفاذ ولده الحاجب سراج الدولة إلى إشبيلية في جيش

(١) في القطعة التالية كثير من الاضطراب وقد
أثبتناها كما هي .

وتعطيعا وتبعهم المتنبي فقال :

« اقل اقل اقطع اجل عل سـل أعد

زد هـش بش تفضل ادن سرصل . »

ثم زاد المتنبي من هذا وبني حتى قال :

« هـش ابق اسم اسر قد جد

مرانه جد رف اسر بل . »

بينه المعروف . وأحسن اعمرى ابن زيدون في

هذا التقسيم ، ودافع بالحديث في صدر القديم ، ولو

قرع سمع أبى منصور بهذا الشذوذ لما كان عند

ابن وسكير بمذكور ، ولا أغرب بفرائب الصاحب

ولا بيدائم البديع . ومن شعر أبى الوليد في

الغيب السائر العريب الطيار المليح الخفيف

الروح قوله :

« أما رضاك فشيء ماله ثمن

لو كان سامحنى في ملكك الزمن . »

وقال من أخرى :

« أنت معنى الصبي وسر الصلوع

وسبيل الهوى وقصد الدموع . »

وقال :

« غريب بأرض الشرق يشكر للصبا

تحملها مى السلام إلى الغرب

وما مضر أنفاس الصفا في احتمالها

سلام فتى يهديه جسم إلى قلب . »

وهذا مقول من قول العباس بن الأحنف حيث يقول :

« تالله ما شطت نوى ظاهن

سار من العبن إلى انقلاب . »

وقال أبو الوليد من أخرى :

« ساحب أعدائى لأنك منهم

يا من يصح بتقلتيه ويسقم . »

وقال من قصيدة :

« أما في نسيم الريح عرف معرف

لنا هل لذات الوقف بالجزع موقف . »

وقال أيضاً أبو الوليد من جملة قصيدة :

« يا أيها الملك الذى تدبيره

أضنى لملكك الزمان ملاكا . »

كثيف من نجة غلمانه ووجوه رحاله لمشاركة القصة والاحتياط على العامة، نفذوا معه وسط هذا اليوم وأنفذ معه ذا الوزارتين أبا الوليد بن زيدون أحد الثلاثة أكابر وزرائه الثلاثة وزارتهم عمده دولته أزمه النفوذ مع الحاجب على بقية وعك متأماً منه ولم يعذره في التوقف لأجله، فقصى لطيفه مساقاً إلى منيته وخلف ولده أبا بكر الفد الوزارة المرتسة بالكتابة، ورآه ساداً مكانه بالحضرة، فأقر فيها أياماً، ثم أسر بالمسير وراء والده لأمر كلفه أعجل بالانطلاق له، فقصى نخبه غداة يوم السبت لثمان خلون من المحرم سنة ثلاث وستين بعدما، ثقلت منهم منازلهم بقرطبة وصيرت إلى سواهم، فتحدث الناس بسبق مكان الأدب ابن زيدون لدى السلطان وإن استمسكه لعلى مرتبة بعد محضه المعتضد بالله. كان من اعتمد على الله رعاية لخصوصية أبيه به يعس باستمرارها تنفاد المختصان به الخيطان لديه المستهلمان لخاصته ابن مرتين وابن عمار إلى أن عملا في إبعاده وإبعاد ابنه الرقيب بعده فأمضى خلفه، فعندهما استغابا غصته، واستهلا مكانه، واحتويا على خاصة السلطان، وتدبير دولته، ولكل دولة رجال، ولكل مكتب إبدال، ولم يطل الأمد لابن زيدون بعد لحاق ابنه به، ووجدانه إياه متزايداً في سره، نازعا عن الآمة على جهده في استدعائها على انتهاء المدة، واستهاك القوة، فاستقر به وجهه إلى أن قضى نحبه، وهلك بدار هجرته اشبيلية صدر رجب سنة ثلاث وستين، فدفن بها مشهوداً مفقداً، واحتوى ترابها عليه، فباعد ما بين قبره وقبر أبيه ليدبا رحة الله عليهما فقد تولى من أبي الوليد كهل لن يخلف الدهر مثله جمالاً وبياناً وبراعة وسلطاناً وظرفاً وحولاً من مراتب البلاغة نظماً ونثراً بمراقبة لم يخلف لها بعده عاطياً بقرانه بين الكلامين وبراعة في الفنين إلا أن يكون عند أولى التحقيق والنحصيل في النظم أمد ظمأ، واحت عقاء فلا يلحقه فيه تقصير ولا يخفى رهقا شهوده في الفنين عسودل مقانع حضور عهد أهل المعرفة، ولما اتصل خبر هلكته بمسيرته أهل قرطبة شيعوه وبكوا لفقدته وحزنوا

عليه، إذ كان منهم متعصباً له، هارياً إليهم، حدياً عليهم وليجة خير بينهم وبين سلطانهم الحديث الولاية، فصار مصابه كفا فيه من تأميلهم والبقاء لمن تفرد به وحده لأرب غيره ولا جرم إذا أعز الله إخوانه بابتدار بقاء فتاه النسيب أبي بكر ولده ساد أمثله سامياً مناه عاطفا هداة عاطياً منناه بأبوة صدق يجرى إلى العلى بضيغه من سباحة ودعائه وحصافة ونزاهة ومعرفة ووفور حظ من أدب بلاغة وكتابة وشركة في التعاليم العلية واشتداد في رعاية متقدم الذمة لم يفقد إخوان أبيه معها إلا غيبته خلال حر كن حاله عما قليل بعد أبيه عند سلطانه قسطنطين السياسة فاستصر في استحضاره وأدناه من احتياؤه ورقاه في مراتب والده منتقلاً له في درجتها راضياً بلاه فيما ناطه به منها حتى فرع ذروتها عما قليل فأحظاه بالوزارة وصيره وزيراً لحضرتة الأنيرة اشبيلية، وجمع له أعظم خططها العلية معاطس الناس من قوام الملكة خطة ولاية المدينة وواتاه الزمان، والله يؤتى فضله من يشاء له الفصل والامتنان .

وقال :

« لا طار لي حظ إلى غاية

إن لم أكن ملك مريض الجناح

وعتباك بعد الغيب أمنية

مالي على الدهر سواها اقتراح

لم يشئني عن أمل ما جرى

قد يرتع الحرق وتؤسى الجراح

فاجهد بحمي الرأي عن يرح

منه العدا بكل شاكى السلاح

واشفع فللتافع نومي بما

تمر من عقد وثيق النواح

إن سحاب الأذى منها الحيا

والحمد في تأليفها للرياح . »

وكان القاضي أبو بكر بن دكوان أجل من اشتغل عليه أوان مجدا وشرفاً ونفناً في العلم وتظرفاً مع دعاة معين خلواته تحمل حيي المحتبي ورقاقه عند شواته كالتنوخى والمهلي، فإذا أصبحوا بكر أبو بكر إلى مصادرة ما يتجه عليه الحكم ومواجهته وأذكر

ما كان عليه من فكاهته فكأنه في بردية الامام
وكانه وقار بديل أو شمام مع عدله في قضائه وإنفاذ
الحكم بمقتضى الحق وإمضاءه حتى إذا راح الروح
عادوا إلى القصف وتجاروا في ميدانهم كل وصف
إلى أن اختلس أحد بكر منها وتقلس ذيل مؤانسته
عنها ، فاعتاض عنه بسواه وأفاضاً فيما كانوا فيه
وما تمديده ، واتفق أن سر يوماً بقبره في لمة من
إخوانه وجاعة من عمار ميدانه فغطفوا عليه مسلمين
ووقفوا عليه متألمين ، فقال أبو الوابد :

« يا قبره العطر الثرى لا يبعثن

حلو من الفتیان فیک حلال »

وله :

« على داره الشرق مى تحية

زكت وعلى وادى العقيق سلام »

وله :

« خليلي لافطر يسر ولا أضحي

فما حال من أمسى مشوقاً كما أضحي »

وله يرثي :

« أعباد يا أوى الملوك لقد عدا

عليك زمان من سحيته الغدر . »

ونلمع من خبر هذه الواقعة بلحة . قال أبو مروان
في سسنة اثنتين وأربعين وأربعمائة أوقع ابن عباد
بإبن الأفطس إلى جنب يابرة ، وكان سبب هذه
الحرب أن فتح ابن يحيى صاحب لبلة يؤمئذ خليفة ابن
الأفطس وإلى آل عباد للضرورة فكاشفه ابن الأفطس
وخانه فيما كان اتهمه عليه من ماله الصامت عند
ما حمله إليه وديعة عند تورطه في حرب ابن عباد قيل
فأبذت بينهما العصمة ، وأرسل ابن الأفطس في
ذلك الوقت خيله للضرب على ابن يحيى فاستمات عباد
فأرسل إليه خيلاً منتقاة فلحقت الحيل الأفطسية وهي
قد شنت الغارة على لبلة ، فكرت عليهم إذ كانوا
ضغفهم واسترسلوا في اتباع العباديين ولا يشعرون ،
فإذا بعباد بمحلمته في كمين قد خرج أثرهم فدهشوا
وولوا الأدبار ، فركبهم السيف ، وبذل عباد المال
في رؤوسهم ، وكانت تقاة خذل ابن الأفطس وأبطال

رجاله نحر لعباد من رؤوسهم مائة وخمسين رأساً
ومن خيلهم مثلها فقس جناح قرنه وأفضى حماة رجاله
ثم إن عباد أثر ذلك جمع حلفاء خيله وقود عليها ابنه
إسماعيل مع وزيره ابن سلام ، وخرج نحو بلاد
ابن الأفطس يابرة وقد استدعى أيضاً ابن الأفطس
خليفته إسحاق بن عبد الله فلحقت به خيله مع ابنه
أبي الز بعد أن جمع ابن الأفطس بقايا جيشه من
هزيمتهم المتقدمة الذكر ، وأخرج كل من قدر على
ركوب دابة من البياض بيلده وحشد من رجال البوادي
بعمله خلقاً كثيراً وأقل بجمعه هذا المنحوب ليدفع
خيل ابن عباد عن بلده يابرة ، وقد كان برابرة
خليفته إسحاق في عسكره قالوا له لا تلقهم فلست
تعرف قدر من زحف تحوك ونحن رأيناهم وسعنا
بجمعهم بإشبيلية فلم يسمع منهم ومضى ، فالتقى
المرقان من غير نزول ولا تعبئة فاختلفوا واجتلدوا
ملياً لحقق الساديون الضراب . وتابوا الشدات لحاد
البرابرة عند أصحاب اسحاق ، وانهمزم ابن الأفطس
وحمل السيف على جميع من معه ، فاستأصاهم القتل
وقتل ولد اسحاق وجز رأسه وبعث إلى إشبيلية
مع رأس ابن عم ابن الأفطس صاحب يابرة
يدعي بمبيد الله الحرار ونجا ابن الأفطس في خيله
إلى يابرة . قال أبو مروان وأقل ما سمعت في
إحصاء قتلى هذه الواقعة ثلاثة آلاف فأزيد
وأخبرني من أتق به أن بطايوس بقيت خالصة
الدكاكين والأسواق من استئصال القتل لأهلها
في وقعة ابن عباد هذه بفتيان أعمار الباء الشيوخ
الكهول الذين أصدوا يومئذ فاستدلت على مشو
المصيبة ، وجزع إسحاق بن عبد الله بمصاب ابنه
ولم يستنجر لضده عباد في طلب رأس ابنه ، فإن
عباداً أضافه إلى رأس جده محمد بن عبد الله بإشبيلية
انتهى كلام ابن حيان .

قال ابن بسام ولم يزل الرأسان عند آل عباد مع عدة
رؤوس أهدتها الفتنة المديدة حتى انتهت إشبيلية على الأمير
الأجل سير بن أبي بكر الجفي . بجواني مقفل مختوم عليه ،
مأسر بفتحها ، لا يشك أنه مال أو ذخيرة فاداه هو ملوء

من الرؤوس فأعظم ذلك وهاله ، وأسر برفع كل رأس
منها إلى من أتى من عقبه بالخضرة . حدثني من رأى
رأس يحيى بن عليّ الحمودي ثابت الرسم غير متكلم
الشكل فدفع إلى بعض ولده فدفعه .

وقال ابن زيدون في ابن جهور من قصيدة أولها :
« أجبل إن ليلى حيث أحيأوها الأزدي »

مهاة حمتها في سرايضها الأسد »

وكان ابن جهور يومئذ كسر دنانير الحر ، وكان
أيضاً يومئذ لئيل ذلك عبد الرحمن بن سعد المصفر
شعر أوله :

« كسرت لجبر الدين أوعية الحر »

فأحرزت خصل السبق في الكسر والجبر »

عمدت إلى الشر الذي جمعوا »

ففرقت منه فاسترحنا من الشر . »

في أبيات غير هذه استبدت جلتها وإنما ذهب
إلى عكس قول من تقدم من أعيان الشعراء من ذم
حب الشراب ، ومن أشهره قول بكر بن حارثة
الكوفي وقدر أي من سلطان وقته مثل ذلك فقال :

« يا لقومي لقد جنى السلطان »

لا يكن للذي أهان الهوان . » الخ

وبلغني أن الجاحظ أنشد هذه الأبيات ، فقال المنشد
من حق الفتوة أن أكتبها فائماً وما أقدر إلا أن
يمدني للمرس به ، قال المحدث فأعمدته ، وقام
يكتبها ، وكان بكر بن حارثة هذا مولى بني أسد
طيب الشعر حلماً ماجناً ، وكان بألف ممدداً يأتيه
كل يوم في موضع يعنيه شراباً فلا يزال يشرب على
صسوته إلى أن يسكر ، وكان أيضاً يهوى غلاماً
نصرانياً وهو القائل :

« زناره في خصره معقود »

كأنه من كبدي مقدود . »

وبكر القائل :

« قلبي إلى ما ضرتني داعي »

يكثر أسقامي وأوجاعي »

كيف احترامي من عدوي إذا »

كان عدوي بين أضلاعي . »

ولصالح ابن عبيد في ذلك :

« ليس همي ولا طويل انتحابي »

لمتئيب أزال عني شيباني . »

رجع وقال ابن زيدون يرثي :

« انظر لحال السرو كيف تحال »

ولدولة العلياء كيف تبال . »

وله من أخرى مما وجدته بخط ابن حيان يرثي
أبا الحرم ابن جهور :

« ألم تر أن الشمس قد ضحاها القبر »

وإن قد كفانا فقدنا القمر البدر . »

وله من أخرى في هذا المعروض ، وقد تكرر فيها
بعض أبيات القصيدة الأولى ورثي بها أم أبي الوليد
ابن جهور يقول فيها :

« هو الدهر ، فأصبر للذي أحدث الدهر »

فمن شيم الأحرار في مثلاً - الصبر . »

إلى أبيات غير هذه من سائر أبيات القصيدة استمر
فيها بالتقديم والتأخير والتأنيث والتذكير رثي بها
آخر أعباد المعتصم ، وجعل أول قصيدته قوله :

« هو الدهر فأصبر للذي أحدث الدهر . »

ثم أتبعه بقوله :

« حياة الوري نبح إلى الموت مهيج »

لهم فيه إيضاح كما يوضح السفر . »

يتلاعب أبو الوليد بهذه القصيدة تلاعب الحطيئة بنسبه ،
ويتصرف تصرف أبي حنيفة في مدمبه ، فأنت وذاك
وقدم فيه وآخر . قال أبو اللؤلؤ :

« رب لحد قد صار لحداً صراراً »

صاحكاً من تراحم الأضداد . »

وبلغني أنه وجد لابن زيدون إثر موت عباد شعر
يقول فيه :

« لقد سرنا أن النعي موكل »

بطاغية قد حم منه حمام »

تجانب صوب المزن عن ذلك الصدى »

ومر عليه الديث وهو جهام . »

وقال يخاطب الوزير أبا عامر بن عبدوس مز
قصيدة أولها :

ونخل من سيف الفدير
 نقيصة الغل الطليل
 والروض ممتور تم
 (م) عليه أنفاس القبول
 والشمس نرمفها خلا
 ل العيم عن طرف كليل
 ابان يحدو الرعد من
 ورق السحاب كالحول
 وينزكف البرق في الـ
 آفاق مرهفة النصول
 زمن سبكيه الحما
 م ممي وتذمل عن هديل
 يا برق أودية المني (١)
 تفديك نفس من رسول
 عرج بشلب محيا
 ماشئت من تلك الطلول
 والمع على شرفات حمـ
 من قراوة العرف الأتيل
 فاذا جلاك أبو الوليد
 سد بناظر اليقط النبيل
 فاقراء من قبلى سلا
 ما يقتضى حسن القبول
 يا ضرة الزمن البهم
 (م) وعزة الأدب الدليل
 وعحكم العلم القصـ
 ير على شبا الرمح الطويل
 أعلمت أنى خادم
 فذكراك بالشكر الجليل
 لم أستحل مما عهد
 ت مع الزمان المستحيل
 شفيع عنايتك الجليلـ
 سلة بي لدى الملك الجليل

(١) وفي الأصل : أودية المني .

« أنرت هزير الشرى إذ ربيض
 ونهته إذ هذا فاعتض . »
 ومما أغفله ابن بام من نسيب أنى الوليد الصحيح
 الأقسام ، النازح عن الاطماع والأوهام ، المصدق
 قول الجفريه فيما ينص من الإلهام قوله :
 « لئن قصر اليأس فيك الأمل
 وحال تخنيك دون الحيل . »
 وقوله أيضاً :
 « فديتك ليس لى قلب فأسلو
 ولا نفس فأنف إن جفبت . »
 وقوله :
 « أنى أصميع عهدك
 أم كيف أخلف وعدك ؟ »
 ولأبى بكر بن صمار يخاطب أبا الوليد بن زيدون
 رحمه الله :
 « كيف اعتزرت على الدليل
 وقطعت أسباب الوصول
 وقتلتنى ، وزعمت أن
 الدنب منى للفتيل
 وعليك' حاهدت العدا
 وإليك ملت عن العذول
 يا قاتلى ومدمى
 فى صفحتى أهدى دليل
 ما أليق الفعل الجليـ
 ل بذلك الوجه الجليل
 فبرزت فى خلق الكريـ
 م وراءه خلق البخيل
 ودعوتنى حتى أجيـ
 لك ثم حدثت عن السيل
 جسد بالقليل فليت نفـ
 سى منك تقنع بالقليل
 واذا كر حلى زمن قطعنا
 . بصافية شمول
 إذ نسحب الأذيال ما
 بين الخليج إلى النخيل

« أنا والله أصلح للمعالي
وأمشى مشيتي وأتبعني بها . »
وكننت على الآخر :

ليس له عندى إعادة ولا إبداء ، ولا من كتابى
 فى أرض ولا سماء ، ونشير هنا بهىء من أخبار
 أبيها المستكى مدا لأطناب الآداب ، ووفاء بشرط
 الكتاب ، نسخته من كتاب ابن حيان :
 هو محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الناصرى ، بويج يوم
 قتل عبد الرحمن المستظهر يوم السبت ثلاث خلوة من
 ذى القعدة سنة أربع عشرة وأربعمائة ، فتسبى
 بالمستكى بالله ، اسما ذكر له فاختاره لنفسه ، وحكم
 سوء الاتفاق به لما كتبه لعبد الله المستكى العباسى
 أول من تسمى به فى اسمه ووجهه وتخلفه وضمه
 بل كان هذا زائداً عليه مقصراً عن خال ملوكية
 كات فى المستكى سبه لم يحسنها محمد هذا لفرط
 تخلفه على اشتباههما فى سائر ذلك كله من نوبتهما
 بالفتنة ، واستظهارهما بالفسقة ، واعتدال كل منهما
 على ابن عم دى رحم ماسة ، وتوسط كل منهما
 فى شأنه بامرأة خبيثة ، فلذلك حسناء التيرازية ،
 ولهذا ابنة عكرى المروزية ، فأصبحا فى ذلك على
 فرط التباين عبرة ، وقال صاحب نكت العروس :
 ومن عجب اتفاقهما فى الأخلاق ، وفى السر والعلانية
 وأن كل واحد منهما خلع عن الأمر ، وكل واحد
 منها تركه أبوه صغيراً ، ولم يكن محمد من هذا
 الأمر فى ورد ولا صدر ، إنما أرسله الله على الأمة
 محنة وبليّة ، إذ كان منذ عرف غفلا عطلا منقطعاً إلى
 البطالة ، مجبولا على الجهالة ، طاعلا من كل خلة تدل
 على فضيلة ، عضته الفتنة فأملق حتى استبجاز طلب
 الصدقة ، وهان حتى أهانه أهله على ما لهم من المنة
 رأيته — أيام الحسف بأهل بيته فى الدولة الجودية ، ولم
 يكن ممن لحقه الاعتقال منهم لركا كته — يقصد أهل
 الفلاحة يومئذ بقرطبة أو أن ضمنهم لفلانهم يسألهم
 من زكاتها تكليما ومخاطبة ، وبالجملة فى تلخيص
 التعريف بأسره أن أجمع أهل التحصيل أنه لم يجلس
 فى الإمارة منذ تلك الفتنة أسقط منه ولا أنقص إذ
 لم يزل معروفاً بالتلف والركاكة ، مشتهراً بالشرب
 والبطالة ، سقيم السر والملاية ، أسير الشهوة ،

عاصر الحلوة منذ القتيله عبد الرحمن المستظهر فى
 الأدب والمعربة ، وكان افتتح هذه السنة المؤرخة
 القاسم بن حود بخلائته وآخرها محمد هذا المذكور
 وكان بينهما عبد الرحمن المستظهر فتصرمت تلك السنة
 المكرة على ثلاثة حلقات ، وهذا من غريب الأنباء
 والله البقاء السرمدى ، وقلد محمد هذا الأمر ولم يكن
 من أهله ، ففاق جميع الناس بالابساس واستمالهم
 بالأهوية ، ورأى أن المال عزيز ، وأن الشر
 رخيص يقوم مقامه ، وينوب منابه ، وكان يقول
 للناس أجمعين ، ارتعوا كيف شئتم ، وارتنسوا بما
 أحببتم من الخبط فتسبى بالوزارة فى أيامه مفردة
 وشاة أراذل الدائرة ، وأحابت النظر مصادم
 رطاف المكتب والخدمة ، وأما الشرطة العليا
 ومادونها من رفيع المنازل ، فقاما أكثر من التحار
 والعامه ، واشال الناس على ابتغاء هذه المنال عند
 السلطان الطماعية فى كرة الدولة ففسدوا بأبهى وضروا
 مائة ، وتعللوا بالمنى ، فلما استلبوا ضعفه رفضوا
 خططهم ، وتبرأ كثير منهم منها ، وأسم أنه لم
 يتقلدها ولا سيما عند تكرار التفسير عليهم للعامة
 عند إلحاح الإضافة ، فجرت لبعضهم عند الاتقاء عن
 تلك الخطط نوادر ظريفة مصححة وانتهى هذا
 التنويه العام بهذا السلك الهام إلى أن فصله أيضاً
 فى طبقات أهل العلم فأسم منهم الغفلة ، فآثر العلية
 منهم المشاورين أصحاب الصون بالاراء إلى خفة
 الوزارة خالطاً لهم فيها بما ذكرناه من رطاف
 الخدمة وكبار الدائرة ، وجاء فى ذلك بطامة لم تسمع
 فى الأعصر الحالية فأخطأوا وألحقوا بالدين وصحته ،
 وطلبوا زيادة المقتل على العامة ، فاستقنوا بهذه
 الخطه وشدوا أيديهم عليها ، وهجروا من حطهم فى
 الخطاب عنها مفرطين بما يعاب من ذلك إلى أن
 مضوا لسبيلهم ، وارتقى المستكى أيضاً بكثير ممن
 يحمل الحابر ، ويدرس مسائل الفاتر ، من أصاغر الطبقة
 المعقبة إلى ما بلغت عليهم من منزلة الشورى ، فوسم
 كافتهم بوسم الفتوى فأسرف فى ذلك حتى بلغ عددهم

فلما طوى النهار كافوره ، ونشر عيره ، أقبلت بهد
كالقصيب ، وردف كالكتيب ، وقد أطبقت فرجس
المقل ، على ورد الحجل ، فلما إلى دوش مديج ، وماء
سحسح ، قد قامت رايات أشجاره ، وفاضت سلاسل
أنهاره ، ودرّ الطلّ منشور ، وجيب الراح منرور
فلما شبتنا نارها ، وأدركت فينا نارها ، برح كل منا
بحبه ، وشكا إليه ما بقله ، وبتنا بيلة نحى الحوان
الثبور ، وتقطف رمان الصدور ، فلما انفصلنا عنها
صباحاً ، أنشدتها ارتياحاً :

« ودع الصبر بحب ودحك

ذائماً من سرّ ما استودحك . »

قال أبو الوليد وكانت عتبة قد غننا :

« أحببتنا لاني بلغت مؤملي

وساعدني دهرى وواصلني حي

وحاء يميني البشير بقره

فأعطيته نفسي ، وردت له قلبي . »

سألها الإعادة بسيز أسر ولادة ، فجفا منها برق
التبسم ، وبدا عارض النجهم ، وعانبت عتبة :

« وما ضرت هتبي لذنب أتت به

ولكنما ولادة اشتهت ضربى

فقامت تجر الدليل عائرة به

وتسمح طل الدمع بالغم الرطب . »

فبتنا على العتاب ، من غير اصططاب ، ودم المدام
مسفوك ، وما بدا للهو متروك ، فلما قامت خطباء
الأطيار ، على منابر الأشجار ، وانفت من الاعتراف
وبأكرت إلى الانصراف ، وشت بمسك الأتقاس
على كافور الاطراس :

« لو كنت تنصف فى الهوى ما بيننا

لم تهو جاريتى ولم تنخير

وتركت غصناً مثمراً بجماله

وجنحت للفصن الذى لم يشر

ولقد علمت بأننى بدر السما

لكن دهيت لشقوتى بالمشتى . »

قرطبة يومئذ الأربعين ، وذلك مما لم يعمد فى
العابرين ، وكثر الإرجاف بتغير رجال الدائرة ،
فاضطرت قرطبة لكثرة ما فيها من المردة ، فقبض
على جماعة من بنى عمه وحاشيته منهم على بن أحمد
ابن حرم وابن عمه عبد الوهاب المتقدمى الذكر
سجوا بالمطوق ، ثم عاجل المستكنى ابن عمه عبدالعزيز
العراقى غلق وأمسى بيتاً وماء إلى الناس فلم يسهل عليهم
أشيائه ، وفى أيام المستكنى هذا استؤصل بقية قصور
حصنه الناصر بالخراب ، وطلمست أعلام قصور
الرهراء ، واقتلع نحاس الأبواب ورصاص القنى
وعبر ذلك من الآلات ، مطوى بخرايبها ساطع الدنيا ،
وشر حسناتها إذ كانت له جنة الأرض فعدا عليها قبل
تمام المدة من كان أصعب قوة من قارة المسك ،
وأوهن بيتاً من بقعة النمرود ، والله يسلم جنوده على
من يشاء له العزة والخبروت ، فلما كانت سنة
ست عشرة وتحرك يحيى بن جود إلى قرطبة ، وضعف
أمر المستكنى ، اتفق الملال على خلعهم ودخلوا عليه
وقالوا : لقد علم الله اجتهدنا فى تثبيتك ، فاعتصم
ذلك علينا ، واضطربنا إلى مقاربة عدونا وهانحن
خارجون إليه ، ولا ندرى ما يحدث عليك بعدنا
فإن لك لك السكر فلا تيأس ، فمع اليوم غد ،
تأجل الرد ، واستشعر الدل ، واهتبل
الدرة ، وعزم على الهرب ، ففرج على وجهه
وقد لبس ثياب الغانيات ، متقباً بين امرأتين لم يعز
منهن لمراسه على التحيث ، وخرج عن قرطبة ،
فأت باقليش ، فكانت دولته تسعة عشر شهراً
صماباً فكندات سوداً مشوّهات مشوّهات انتهى
ما لحصته من كلام ابن حيان . قال أبو الوليد :
كنت فى أيام الشباب ، وغمرة التصايب هائماً بغادة
تسمى ولادة ، فلما قدم اللقاء ، وساعد القضاء
كنت إلى :

« ترقب إذا جن الظلام زيارتى

فإنى رأيت الليل أكرم للسر

وبى ملك مالوك باليد ما بدا ،

وبالشمس لم تطلع ، وبالنجم لم يسر . »

صفحات من كتاب نفح الطيب

الريان، ما يبرز أبنوا عس الأجهان، وقد أووا الانعراج
للهم والطرب والثره في روضى النبات والأدب،
ومثوا صاحباً لهم يسمى (خليفة) هو قوام لدهم
وظام مسرتهم ليأتهم ببيد يدهبون لهم بدسبه في
لجين زجاجة، ويرمونه منها بما يقتضى تحريكه
للهرب من اقلوب وإزطاحه، وجلسوا لانتظاره،
وترقب عرده على آثاره، فلما نهروا به مقلام
أول انفع بادروا إلى لقائه، وسارعوا إلى نحوه
وتلقائه، واتفق أن فارساً من الجدر رك مرسه
مقدمه، ووطأ عليه بهشم عظمه، وأجرى دمه
وكسر قصال النبيذ الذي كان معه، ومزق من
شملهم ما كان الدهر جمعه، ومضى على غلوانه
راكصاً حتى خفى عن العين حائفاً من متعلق به يحين
بثلقه الخيل، وحب وصل الورراء إليه تأسّموا
عليه، وأفاسوا في ذكر الرمان وعدوانه والخطف
وألوانه، ودخلوه بطوام المضرات على تمام السرور
وتكديره الأودت للعداء بالآفات المؤلمة، مثال
ابن زيدون :

« ألهو والختوف بنا مطيعه

ودمى والمون لنا مخيفه . »

فقال ابن خلدون :

« وفي يوم وما أدراك يوم

معنى قصاليا ومعنى حليمه . »

فقال ابن عمار :

« هما غفارتا راح وروح

تكسرتا فاشقاق وحيمه . »

وكتب الوزير الشهير أبو حاد ابن ريدرت إلى
الوزير أبي عبد الله بن عبد العزيز اثر مسدوره
عن بلنسية .

« راحت فصيح بها السيم » الأيات

ولما ورد إشبيلية نزل بدار الوزير الكاتب دى

وقد صنف أبو الوليد بن زيدون كتاب (التبيين)
في خلفاء بني أمية بالأندلس على مترع كتاب
(اليقين) في خلفاء الشرق للسمودي .

ومثل ابن زيدون في قصيدته التي لم يقل مع
طولها في النسيب أرق منها وهي التي يقول فيها :

« كأتنا لم نت والوصل ثالثا

والسعد قد غص من أجهان واشفيا

سران في حاطر الطلاء يكتما

حتى يكاد لسان الصبح يفشيننا . »

وهل نشأ عندكم من النساء مثل ولاده الروانية التي
تقول مداعبة للوزير ابن زيدون، وكان له غلام
اسمه على :

« ما لابن زيدون على مضله

يتابني طمأ ولا ذنب لي

ينظر لي شزراً إذا جتته

كأتما حث لأحصى على . »

ومن حكايات أهل الأندلس في خلق المذار
والطرب والظرف وغير ذلك كسرة الارتحال
ما حكاها صاحب (بدائع البداهة) قال :

أخبرني من أتى به بما هذا معناه .

قال : « خرج الوزير أبو بكر بن عمار والوزير
أبو الوليد بن زيدون، ومعهما الوزير ابن خلدون
من إشبيلية إلى مطرة لبنى عباد لموضع يقال له
(الفنت) تحف به مروج مشرقة الأنوار، متنسمة
الأعجاد والأغوار، متبسة من ثور النوار، في
زمان ربيع سقت الأرض السحب فيه يوسيتها وولياها
وجبتها في زاهر مليسها وباهر حليها، وأرداف
الربى قد تأزرت بالأرز الخضر من نباتها وأجباد
الجداول قد نظمت النوار قلانده حول نباتها، ومجامر
الزهر تمطر أردية النسيم عند هباتها، وهناك من
البهار ما يزرى عل مداهن النضار، ومن الترجس

فهي وإن اشتهرت بالمعرق والمغرب لم يذكر جلتها
إلا قليل ، وقد كنت وقعت بالمغرب على تسديس
لها لبعض علماء المغرب ولم يحذرنى منها الآن إلا قوله
في المطلع :

« مالميون بسهم المسج تصميها
وعن قطاف جنى الأعطاف تحميها
تألف كانت يحينا ويصنيا
تروق عاث في شمل الحينا
أضحى الفراق بديلا » الخ
وما أحسن قوله في هذا التسديس :

« ما للأحبة دانوا بالوى ورأوا
تمويس عهد المفا بالبعد حين مأوا
رعاهم الله كانوا للعهد رعوا
فغيرتهم وشاء بالساد سمعوا
عين العدا من تساقينا الهوى فدعوا
بأث نفس فقال الدهر آمينا . »

وقد ذكرنا في الباب الرابع موشحة ابن الوكيل
التي وطأ فيها لونية ابن زيدون هذه فلتراجع —
رجع — وقال ذو الوراقين ابن زيدون يقول :
« وصح الصبح المين » الأبيات
وشاسن ابن زيدون كثيرة وقد ذكرنا منها في غير
هذا المثل جملة . وسأل حارية من حوارى الأندلس
دا لوراثين أما الوليد بن زيدون أن يزيد على بيت
أنشدته لياه وهو :

« يا عطشى عن وصال كنت وارده »

هل منك لى غله أن صحت واعطشى . »

وكانت الجارية المذكورة تتشوق فتى قرشياً والوزير
يعلم ذلك وهي لا تعلم أنه يعلم ، فقال :
« كدوتى من ثياب السقم أسبقها ظلمها
وصصيرت من لحف الضنا فرشى
الآيات »

وحكى أن الوزير أبا الوليد بن زيدون توفيت ابنته
وبعد الفراغ من دفنها وقف للناس عند منصرفهم
من الجنائز ليتشكروا لهم ، فقيل إنه ما أعاد في ذلك
الوقت عبارة قالها لأحد .

أوزرائين أبى عامر بن مسلمة ، وهو يبنى مجلأ ،
ممنوع أبياتاً كتبت فيه :

« عمر من يمر ذا المجلسا » الآيات
وقال فيه أيضاً :

« أدرها وقد حس المجلس » الآيات
وكتب إلى الوزير أنى المالى المهلب بن عامر يستدعيه :
« طاب لنا لياتنا الحالية » الآيات
وكتب إليه ذو الوراقين أبو عامر المذكور معاتباً :
تواعدنا على قرب الحوار

كاننا صدنا شمس سطع المرار

تقطع لى هائل البحر بدرا

وصار هائل وصلك فى سرار

وشاع شديع قطمك لى بوصلى

هلا كان ذلك فى استقار

أيمهل أن ترى عى مسوا

مأسج مزلما دون اصطبار

وكت أريد سمك من عتاق

واسكن نائى مرط الحمار

فراع مودتى واحفظ حوارى

فأنت الله أوصى بالحوار

وزدنى منما من شير أمر

وآنس موحشاً من عقر دار . »

وكتب إليه ابن زيدون :

« هوأى وإن تاءت عمك دارى . . . » الآيات
وكان أبو العطف إذ ورد إشيلية رسولاً قد سأله
أب يرمه شيئاً من شمره فظله به حتى كتب إليه
شمرأ يستبغثه ، فأجابه ابن زيدون فى المروض
والقافية :

« أودنى من نفائس الدرر » الآيات
وهى أكثر مما ذكر . وكتب (أعنى ذا الوراقين
ابن زيدون) إلى ولادة :

« أضحى التناى بديلا من تدانينا » الآيات
وإنما ذكرت هذه القصيدة مع طولها لبراعتها ،
ولأن كثيراً من الناس لا يذكر جلتها ، ويظن أن
ما فى القلائل وغيرها منها هر جميعها وليس كذلك

ابن جهور

ول في المطمح :

الوزير الأجل أبو الحزم جهور بن محمد
ابن جهور ، وشو جهور أهل بيت وزارة
اشتهروا كاشتهار ابن هبيرة في فزاره ،
وأبو الحزم هذا أمجدهم في المكرمات ،
وأنجدهم في الملمات — ركب متون الفنون
فراضها ، ووقع في بحور المحن فغضها ،
منسط غير منكمش ، لا طائش اللسان ولا
رعش ، وقد كان وزير في الدولة العاصرية
فشرفت بجلاله ، واعترفت باستقلاله ، فلما
انقرضت ، وعافت الممن واعترضت ، تميز من
التدبير مدتها ، وخلى لأخلافه تدبير الرياسة
وشدتها ، وجعل يقبل مع أولئك الوزراء
ويدبر غير مظهر للانفراد ، ولا متصرف في
ميدان ذلك الطراد ، إلى أن بلغت الفتنة
مداها ، وسوغت ما شامت رداها ، وذهب
من كان يجد في الرياسة ويحب ويسعى في
الفتنة ، ولما ارتفع الوبال ، وأدبر ذلك الاقبال
راسل مستمدابهم ومعتمدا على بعضهم تخيلا
منه وتمويها وتداويا على أهل الخلافة وذوئها
وعرض عليهم تقديم المعتمد هشام وأومض
منه لأهل قرطبة برق خلبه يشام ثقة بسرعة
التيائها ، وتعجيل انتكائها ، وأنبأوا إلى
دعائه ، وأجابوا إلى استدعائه ، وتوجهوا مع
ذلك الامام ، وألما بقرطبة أحسن المام ،

فدخلوها بعد فتن كثيرة ، واضطرابات مستثيرة
والبلد مقفر ، والجلد مسفر ، فلم يبق غير يسير
حتى نبذ واضطرب أمره نفع ، واختطف
من الملك وانتزع ، وانقضت الدولة الأموية ،
وارتفعت الدولة العالوية ، واستولى على قرطبة
عند ذلك أبو الحزم ، ودبرها بالجد والعزم ،
وضبطها ضبطا آمن حائفها ، وردع طارق
تلك الفتنة وطائفها ، وخلا له الجوق فطار ،
واقترضى اللبانات والأوطار ، فعادت له قرطبة
على أكمل حالتها ، وانجلي به نور جلالها ، ولم تزل
به مشرقة ، وغصون الآمال فيها مورقة إلى
أن توفي سنة ٣٥٤ هـ فانتقل الأمر إلى ابنه
أبي الوليد ، واشتمل منه على طارف وتليد ،
وكان لأبي الحزم أدب ووفار وحلم سارت بها
الأمثال وعلم المثل ، وقد أثبت من شعره
ما هو لائق ، وذلك قوله في تفضيل الورد . .

« الورد أحسن ما رأت عيني وأذ
كي ماسقي ماء السحاب الجائد
خضعت نواير الرياض لحسنه
فتذلت تنقاد وهي شواهد
واذا تبسدى الورد في أغصانه
يزهو هذا ميت وهذا حاسد
واذا أتى وفد الربيع مبشرا
اطلوع صفحته فنعم الوافد

ليس المبشر كالمبشر باسمه
خبر عليه من النبوة شاهد
وإذا تعرى الورد من أوراقه
بقيت عوارفه فهنّ خوالده . »



وقال صاحب كتاب المعجب :

ولما انقطعت دعوة بني أمية كما ذكرنا
بالأندلس ، ولم يبق من عقبهم من يصلح
للإمارة ، ولا من تليق به الرياسة استولى
على تدبير ملك قرطبة جهور بن محمد بن
جهور ، ويكنى أبا الحزم ، وقد تقدّم ذكر
نسبه في ترجمة هشام ، وأبو الحزم هذا
قديم الرياسة شريف البيت كان آباؤه وزراء
الدولة الحكّمية والعامرية ، وهو موصوف
بالدهاء ، وبعد العور ، وحصافة العقل ،
وحسن التدبير ، ولم يدخل من دهائه في التفتن
السكّانة قبل ذلك وكان يتصاون عنها ، ويظهر
النزاهة والتدين والعفاف ، فلما خلا له الجوّ
وأصفر الفناء ، وأقفر النادى من الرؤساء
وأمكنه الفرصة وثب عليها فتولى أمرها ،
واضطلع بحمايتها ، ولم يفتقل إلى رتبة الإمارة
ظاهرا جريا على ما قدّمنا من إظهار سنن
العفاف بل دبرها تديرا لم يسبق إليه ، وذلك
أنه جعل نفسه ممسكا للموضع إلى أن يرجي
من يتفق الناس على إمارته فيسلم إليه ذلك
ورتب البوايين والحشم على تلك القصور
على ما كانت عليه أيام الدولة ولم يتحوّل عن
داره إليها ، وجعل ما يرتفع من الأموال

السلطانية بأيدي رجال رتبهم لذلك وهو
المشرف عليهم ، وصير أهل الأسواق جندا له
وجعل أرزاقهم رؤوس أموال تكون بأيديهم
محصة عليهم يأخذون ربحها ورؤوس الأموال
باقية محفوظة يؤخذون بها ويراعون في كل
وقت كيف حفظهم لها ، وفرّق السلاح
عليهم ، وأمرهم بتفرقة في الدكاكين والبيوت
حتى إذا دهمهم أمر في ليل أو نهار كان
سلاح كل واحد معه حيث كان من بيته أو
دكانه ، وكان أبو الحزم هذا يشهد الجائز ،
ويعود المرضى جاريا على طريقة الصالحين ،
وهو مع ذلك يدبر الأمور تدبير الملوك
المتعلين ، وكان آمنا وادعا وقرطبة في أيامه
حرما يأمن فيه كل خائف ، واستمرّ أمره على
ذلك إلى أن مات في عرّة صفر سنة ٣٥٤
فكانت مدة تديره منذ استولى إلى أن
مات أربع عشرة سنة وأشهرها ، ثم ولى
ما كان يتولى من أمر قرطبة بعده ابنه
أبو الوليد محمد بن جهور ، جرى في السياسة
وحسن التدبير على سنن أبيه غير مغل بشيء
من ذلك إلى أن مات أبو الوليد المذكور في
سليخ شوال من سنة ٣٤٤ فغلب عليها بعد
أمور جرت - الأمير الملقب بالمأمون ابن ذي
النون صاحب طليطة فديرها مدة يسيرة
إلى أن مات ، وخلف فيها بعده من البربر
رجل يعرف بابن عكاشة أظن اسمه موسى ،
فكان بها إلى أن غلب عليها وأخرجه منها
الأمير الظافر بحول الله أبو القاسم محمد بن

ورتب عليها فتوى وقام بحمايتها ، ولم ينقل إلى رتبة الأمانة ظاهرا بل رتبها ودبرها تديرا لم يسبق إليه ، وأظهر أنه حام للبلد إلى أن يحىء من يستحقه ، ورتب البوابين والحشم على أبواب قصور الامارة ولم يتحول عن داره إليها ، ودعا ما يتحصل من الأموال السلطانية بأيدي رجال رتبهم له .

وكان جهور يشهد الجارة ، ويعود المرضى ، ويحضر الأفراح على طريق الصالحين ، وهو مع ذلك يدبر الأمور تديرا للملك ، وكان مأمون الجانب فأمن الناس في أيامه ، وبقي كذلك إلى أن مات سنة خمس وثلاثين وأربع مائة ، وقام بأمرها بعده أبو الوليد محمد بن جهور على هذا التدبير إلى أن مات .

بنو عباد

أما أحوال إشبيلية فاما كانت في طاعة الفاطميين أعنى على بن حود ، وانقاسم بن حود ، ويحيى بن على بن حود أيام كان الأمر دائرا بينهم على ما تقدم ذكره . فلما زحف يحيى بن على بالبربر إلى قرطبة وهرب القاسم بن حود منها ، وقصد إشبيلية ، وقد كان ابنه محمد والحسن مقيمين بها أجمع أمر أهل إشبيلية ، واتفق رأيهم على إخراج محمد والحسن عنها قبل وصول القاسم أيهما فأخرجوهما ، وجاء القاسم فنعوه دخول البلد أيضا ، وانفقوا على تقديم رجل منهم يرجع إليه أمرهم ، وتجمع به كلمتهم فتوارد

عباد على ما يأتى بياته إن شاء الله تعالى . فهذا آخر أخبار قرطبة وكونها دارا للملك وبعد غلبة المعتمد عليها صارت تبعالا شيبيلية .

جهور (١)

جهور بن محمد بن جهور بن عبد الله ابن محمد بن الفهر بن يحيى بن عبد الغافر بن أبي عبدة رئيس قرطبة ، يكنى أبا الحزم . روى عن أبي بكر عباس بن الهذاني ، وأبي محمد الأصيلي ، والقاضي أبي عبد الله بن مبرج ، وأبي القاسم خلب بن القاسم ، وأبي يحيى زكريا بن الأشج وغيرهم . وسمع منهم وأخذ العلم عنهم ، وقد أخذ عنه أبو عبد الله محمد بن عتاب الفقيه ، فقال حدثنا ثقة من الشيوخ الأكابر ، وهو يعنى أبا الحزم هذا ، ثم صار تدير أهل قرطبة إلى أبي الحزم هذا فأثقفها بالرياسة فيها ، إلى أن توفي يوم الخميس لسبع بقين من المحرم من سنة ٣٥٥ هـ ودفن بداره ، وصلى عليه ابنه أبو الوليد محمد بن جهور متولى الأمر من بعده ، وكان سنة يوم وفاته إحدى وسبعين سنة ، وكان مولده أول المحرم سنة ٣٦٤ هـ .

أما قرطبة فاستولى عليها أبو الحسن جهور بن محمد بن جهور ، وكان من وزراء الدولة العاصرية ، موصوف بالدهاء والعقل ، ولم يدخل في شيء من الفتن قبل هذا بل كان يتصاون عنها ، فلما خلا الجوّ وأمكنته الفرصة

(١) من كتاب الصلة لابن بشكوال .

وأجابوه إلى ما أراد ، ولم يزل يدبر أمر
إشبيلية ، وهؤلاء المذكورون من وزرائه ،
وكان له من الولد إسماعيل وهو الأكبر يكنى
أبا الوليد وعباد يكنى أبا عمرو ، فأما إسماعيل
فخرج إلى لقاء البربر بعد أن حدث لأبيه
أمر في التغلب على ما كان البربر يملكونه
من الحصون القريبة من إشبيلية بعسكر من
جند إشبيلية ، فالتقى هو وصاحب صهاجة ،
فأسلمت إسماعيل عساكره ، وكان أول قتيل
وقطع رأسه وسير به إلى مالقة إلى إدريس
ابن عليّ الفاطمي كما تقدم ، وبقي الأمر
كذلك ، والقاضي أبو القاسم يدبر الأمور
أحسن تدبير ، وكان صالحا مصلحا إلى أن
مات في شهر رستة ٤٣٩ هـ .

اختيارهم بعد محض الرأي وتنقيح التدبير
على القاضي أبي القاسم محمد بن إسماعيل بن
عباد اللخمي لما كانوا يعلمونه من حصافة
عقله ، وسعة صدره ، وعلاوة همته ، وحسن
تدبيره ، فعرضوا عليه ما رأوه من ذلك ،
فتهيب الاستعداد ، وخاف عاقبة الانفراد أولا
وأبى ذلك إلا على أن يختاروا له من أنفسهم
رجالا سماعهم لهم يكونون له أعوانا ووزراء
وشركاء لا يقطع أمرا دونهم ، ولا يحدث
حدثا إلا بمشورتهم ، وهؤلاء المسمون هم
الوزير أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي ،
ومحمد بن يريم الالهاني ، وأبو الأصم عيسى
سحاج الحضرمي ، وأبو محمد عبد الله بن عليّ
الهورزي ورجال آخرون ذهبت عن أسمائهم
ولا أعرف قبائلهم وبيوتهم ، ففعلوا ذلك

صفحات من كتاب العيني (١)

عن مقاومته فأخرجوه ، فاستدعاه القاضي
أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد
إليه بإشبيلية ، وأذاع أمره ، وقام
بنصره ، فسار إليه وقام بواجبه ، وكتب
بظهوره إلى ملوك الأندلس فأجاب أكثرهم
وخطبوا له ، وجرت بيعته في الحرم سنة
تسع وعشرين وأربعمائة ، ثم إن عباد سير
جيشا إلى زهير العاصري بأنه يخطب للؤيد
فاستنجد زهير حيوس بن ماكر الصنهاجي

وأما إشبيلية فاستولى عليها فاضيا محمد
ابن إسماعيل بن عباد اللخمي ، وهو من
ولد النعمان بن المنذر ، وفي هذا الوقت
ظهر أمر المؤيد هشام بن الحكم ، وكان
قد اختفى وانقطع خبره ، وكان ظهوره بمالقه
ثم سار منها إلى المرتبة ، تخافه صاحبها زهير
العاصري وأخرجه منها ، وقصد قلعة رباح
فأطاعه أهلها ، فسار إليهم صاحبها أول
إسماعيل ذي النون ، فخار بهم وضعفوا

وتلاحق بحريز أصحابه وأشياعه ، وترك الظافر ملقى على الأرض ، فرّ عليه بعض أهل قرطبة فأبصره على تلك الحالة فنزع رداءه وألقاه عليه ، وكان أبوه إذا ذكره يتمثل بهذا البيت :

« ولم أدر من ألقى عليه رداءه

سوى أنه قد سل عن ماجد محض . »

ولم يزل المعتمد يسعى في أخذها حتى عاد ملكها إليه وترك ولده المأمون فيها فأقام بها حتى أخذها يوسف بن تاشفين وقتل فيها بعد حروب كثيرة يأتى ذكرها إن شاء الله تعالى وأخذت لإشبيلية من أبيه المعتمد ، وبقى مسحوماً في أغصان إلى أن مات بها ، وكان هذا وأولاده جميعهم - الرشيد ، والمأمون ، والراضي ، والمعتمد ، وأبوه ، وجدته علماء شعراء -

ملوك الطوائف (١)

بقلم الأستاذ نيكلسون

تفرقت امبراطورية عبد الرحمن الثالث العظيمة ، وظهر على أنقاضها عدة ممالك صغيرة « دويلات » أنشأتها الظروف والمصادفات ، وكان يحكمها بعض القادة المظفرين .

وقد أحسن نيكلسون في تشبيه تاريخ إسبانيا في القرن الحادى عشر الميلادى

صاحب غرناطة ، فسار إليه بجيشه فعادت عساكر ابن عباد ، ولم يكن بين العسكرين قتال ، وأقام زهير ببأسه ، وجاء حيوس إلى مالقة فأتى بولى بعد ابنه باديس ، واجتمع هو وزهير ليتفقا كما كان زهير وحيوس فلم يستقر بينهما قاعدة واقتتلا فقتل زهير ، وجمع كثير من أصحابه ، والنقى عسكر ابن عباد وابنه إسماعيل مع باديس بن حيوس ، وعسكر إدريس اللوى صاحب سبتة بطمحة واقتتلا قتالا شديداً فقتل إسماعيل ثم مات بعده القاسى أبو القاسم بن عباد وولى بعده ابنه أبو عمرو ، وأقب المعتمد بالله فسيطر ما ولى وأظهر وفاة المؤيد ، واشتمل بأمر إشبيلية وبقى كذلك إلى أن مات وولى بعده ابنه أبو القاسم محمد وأقب بالمعتمد على الله ، فأتى في ملكه ، وشمخ سلطانه ، وملك كثيرا من الأندلس ، وملك قرطبة أيضا ، وولى عليها ابنه الطافر بالله فبلغ خبر ملكه لها إلى يحيى بن ذى النون صاحب طليطلة فحسده عليها فصمم له جرير بن عكاشة ، وسار إلى قرطبة ، فأقام يسمى في ذلك وهو ينتظر الفرصة ، فاتمق أن فى بعض الليالى جاء مطر عظيم ومعه ريح شديدة ورعدو برق فثار جرير فخرج الظافر فيمن معه من العبيد والحرس ، وكان صغير السن فحمل عليهم ودفعهم عن الباب ، ثم إنه عثر فى بعض كراته فسقط فوثب عليه شخص فقتله ولم يبلغ الخبر إلى الأجناد وأهل البلد إلا والقصر قد ملك

(١) فصل مختار من كتاب نظرات فى تاريخ

الأدب الأندلسى للشارح .

كل جهة فتحوها فعاش أولئك المسيحيون في كنف المسلمين ، وأحسنت الحكومة معاملتهم ، ومنحتهم الحرية الدينية وكثيرا ما رفعتهم إلى مناصب عالية في الجيش وفي بلاط الملك . فاعتنق كثير منهم الحضارة الاسلامية وافمن بها افتنا .

حتى رأينا « القارد » كاهن قرطبة في أواسط القرن التاسع لليلاد يولول في أوائل ذلك العصر شاكيا من أبناء دينه انصرفهم إلى مطالعة أشعار العرب وأساطيرهم وهيامهم بدراسة كتابات لاهوت نبي المسلمين وفلاسفتهم لا يقصدون بذلك إلى تنفيذها بل يقصدون إلى التعبير عن خوالجهم بأسلوب عربي رائع صحيح .

وكان القارد يفساهل .

أنى يتاح لانسان في هذه الأيام أن يقابل واحدا من أبناء جنسنا يقرأ التفاسير اللاتينية للكتب المقدسة ؟ ومن ذا الذى يدرس منهم فصول الأناجيل وسير الأنبياء والحواريين ؟ واحسرتاه :

إن كل الشبان المسيحيين ذوى المواهب لا يعرفون الا العربية والا كتابات العرب فهم يقرءونها ويدرسونها بحماسة بالغة منتهاها كما أنهم ينفقون المال الطائل لاقتنائها في مكائهم وتراهم أنى وجدوا يذيعون أن تلك الآداب جديرة بالاعجاب .

فاذا تجاوزت عن ذلك وأخذت تحدثهم عن الكتب المسيحية أزر جانهم وأجابوك

بتاريخ إيطاليا في القرن الخامس عشر ، فقد كان وجه الشبه — كما يقول — كبيرا جدا بينهما .

وكان هؤلاء القادة الذين اقتسموا بلاد الأندلس أشبه بأولئك القادة الذين كان يطلق عليهم في إيطاليا اسم : « Condottieri » وكان من بينهم ملوك العبادية الذين قطنوا إشبيلية ، وهم أقوى ملوك ، وقد أطلق عليهم كتاب المسلمين اسم : « ملوك الطوائف » وعلى الرغم من أن ذلك كان عصر تدهور سياسى ، وعلى الرغم من أن إسبانيا تشكو عجز مواردها الاقتصادية ، فتد وصل المجتمع في تلك الأيام الى مستوى لم يصل الى مثله من قبل .

وهنا يجدر بنا أن نقف لحظة علنا نستطيع أن نستعرض فيها أمامنا الشوط البعيد المدى الذى قطعته الآداب والعلوم في طريق النجاح في ذلك العصر الذى يعد أزهى عصور الاحتلال الاسلامي في أوروبا .



فبينما ترى العرب الفاتحين في آسيا — كما بينا ذلك — قد سحرتهم حضارة قديمة تفوق حضارتهم بما لا نهاية له فأذعنوا لها وظهر أثرها فيهم إذ تراهم لم يكادوا يعبرون مضيق جبل طارق — في العرب — حتى انعكست الآية تماما .

وذلك أنهم بعد أن تغلبوا على شبه الجزيرة وقع في أيديهم آلاف المسيحيين من



وقد كان للشعر العربي - في أوروبا -
على الاجمال الخصائص التي رأيناها في الشعر
المعاصر له في الشرق .

فان الأوزان المصطلح عليها والقيود التي
لم يستطع أساطين بغداد أن يحرروا أنفسهم
من ربقها ظلت بحذافيرها في قرطبة واشبيلية .
وكما تأثر الشعر العربي في الشرق بالآداب
الفارسية ، فقد تأثر في اسبانيا كذلك باتحاد
الآريين والساميين واندماجهم شيئا فشيئا .
فكان ذلك سببا في ادخال عناصر
جديدة ظهرت في آدابها ، ولعل أمتع ميزات
الشعر الأندلسي هي ذلك الوجدان العاطفي
الراقي الذي يندر وجود مثله في النسيب
والذي ظهر كثيرا في أغانيهم عن الحب وهو
وجدان لا يقصر على تصوير فروسية القرون
الوسطى بل يتخطى ذلك إلى حد أن تحسبه
إحساسا جديدا بمحاسن الطبيعة التي جلته .
ولهذه الميزة سهل فهم ذلك الشعر على
الكثيرين من الآريين الذين قد لايسهل
عابهم تفهم روح المعلقات أو قصائد المتنبي .

بازدراء أنها أسفار نافهة لا خطر لها .

واحسرتاه عليهم ! لقد نسي المسيحيون
أنفسهم حتى ليندر العثور بين آلاف منا على
على فرد يستطيع أن يحرر الى أحد أصدقائه
رسالة لاتينية بأسلوب لا بأس به على حين
ترى جهرتهم قادرة على الابانة عمافي نفوسهم
بأسلوب عربي رائع ، وعلى حين ترى حذقهم
في قرض الشعر العربي قد وصل الى حد فاقوا
معه العرب أنفسهم .

ومهما يكن في كلام هذا السكاهن من
اغراق فما يترفع عن الجدل والنشكك أن
الثقافة الاسلامية قد أخذت بألباب
المسيحيين الاسبان ، كما افتتن بها اليهود
الذين خدموا الشعر والفلسفة بمساعداتهم
العديدة وكتاباتهم التي أنشئوها بلغتهم وبلغه
أبناء عمهم العرب .

أما المولدون والصابثون من الاسبانيين
الذين لانوا بالاسلام فقد استعربوا تماما بعد
أجيال قليلة ، ومن هؤلاء نبغ أشهر من
ازدان بهم الأدب العربي .



دراسات الكتاب لابن زيدون

« أثبتنا في هذه الصفحات أهم الدراسات
التي كتبت — في العصر الحديث — عن
ابن زيدون إعمالاً للفائدة . »

— دراسة الدكتور أحمد ضيف^(١)

اقتربت الوزارة في الأندلس بالأدب ، فكان الوزير كاتباً وشاعراً ، وكان أشهر الكتاب والشعراء وزراء ، وكانت الشهرة بالكتابة والشعر ، وفنون الأدب ، وفروع العلوم من وسائل الوصول إلى امتلاك الوزارة ، فكان للوزراء أثر عظيم في سير البلاغة والأدب ، وأصبحت منزلة الأدب كنزلة الوزراء أنفسهم في الدولة ، وظهر في الأندلس طائفة من الرجال الذين تربعوا في مناصب الملك ، وتقلبوا في مراكز الدولة ، وتقلبوا على شئونها ، وهم جميعاً من الأدباء والعلماء والكتاب والشعراء وأصحاب الشورى ، وأعلام الحياة العقلية .

ومن أشهر هؤلاء الوزراء الأدباء والشعراء المجيدين ، أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب ابن زيدون المحرومي الأندلسي القرطبي ، أشهر من عرف في حلبة الأدباء ، وأظهرهم ميزة في فنون الكلام وأساليب الشعر والبيان ، لأنه صورة من صور الأدب في الأندلس ، وصحيفة من صحف البلاغة هناك ، وثمرة من ثمار غرس العرب في بلاد المغرب .

ولد ابن زيدون بمدينة قرطبة في سنة ٣٩٤ هـ وتوفي بإشبيلية سنة ٤٦٣ هـ وهو ثالث ثلاثة تسموا بابن زيدون : أحدهم أبو بكر عبد الله بن أحمد بن غالب والده ، والثاني أبو بكر ابنه وكان وزيراً للمعتمد بن عباد ومات مقتولاً ، وهم من أصل عربي كما أشرنا إلى ذلك في كلامنا على القبائل التي نزلت الأندلس من العرب . كان أبوه قاضياً مشهوراً بين قضاة قرطبة ، وعالماً وأديباً . مات سنة ٤٠٥ هـ فكان عمر ابنه إذ ذاك إحدى عشرة سنة ، وكان أبو الوليد منذ حداثة ميلاً إلى العلم والتعلم ، فاندفع يطلب لنفسه الكمال العقلي ، وكانت نشأته في قرطبة ساحة العلوم والآداب ، فانكب على الدرس والبحث ، وأخذ الأدب عن رجاله المعروفين ، وكان له ميل شديد لعلوم العرب وفنون اللغة لحفظ منها شيئاً كثيراً ، كما وعي كثيراً من أخبار الأدباء والشعراء ، وأمثال العرب وحوادثها ، ومسائل اللغة ، حتى أصبح في مقدمة الشعراء والأدباء ، واندمج في مجالس الأدب ، فصار عالماً من أعلامها ودعامة من دعائمها ، وكانت قرطبة لا تزال في أوج صلاحها على الرغم من أنفول شمس بني أمية بها ، وأهلها في رخاء من العيش ، أكثرهم يميل إلى العلم والأدب ومجالسة الأدباء ، فامتلات المحافل والجامع بضروب اللهو والطرب ، وكان لابن زيدون خفة روح ودعابة وميل إلى المجون ، فساعده ذلك على أن يسبق غيره ، وأن ينال شهرة

(١) من كتاب بلاغة العرب في الأندلس للدكتور أحمد ضيف .

واسعة بين أترابه . وكان للنساء أثر عظيم في هذه المجالس ، فاتجه الناس إلى الاندماج فيها واستغذوا بهذا المورد ، وانصرفت همم الأدباء إلى التفوق في هذا الميدان ، فكان لذلك أثر عظيم في أخلاق الأدباء وصورة البلاغة من نظم ونثر ، وكأنما ضاعت كل صبغة جدية في المجالس الأدبية لجرؤ الوزراء على المجاهرة بالمجون ، وكان ابن زيدون أحد أطلال هؤلاء لجذب إليه الأنظار .

وكان لولادته بنت المستكفي الخليفة الأموي شهرة عظيمة في قرطبة لجمالها وعلوها وأدبها ، فوقع ابن زيدون في شركها ووقعت في شركه ، واشتمل كل منهما على صاحبه ، حتى حسد عليا وحسدها الناس عليه ، وكان من بين هؤلاء الحساد الوزير أبو هاسر بن عبدوس وهو كبير الحول والطول ، فتقرب إلى ولادة حتى أمالها إليه ، وكانت ولادة ملت صداقة ابن زيدون واتهمته كما اتهمها بذلك أيضا ، فهبت عاصفة من الجفاء بينهما شتت من شملهما وحالت بين قلوبهما ، لذلك غلب ابن عبدوس ابن زيدون على أمره ، واستولى على قلب ولادة ، ثم حدث أن رجعت إلى ابن زيدون فكنت عن لسانها لابن عبدوس رسالته الشهيرة المهرلية ، ثم استأثر بها ثاية ابن عبدوس ، فكانت هذه الحال سبب اضطراب في حياة ابن زيدون العقلية والسياسية وهكذا كانت حال الوزراء وأرباب الدولة وعقول الأدباء وأصحاب الأفلام والمفكرين ، وهذه الحادثة من أكبر الحوادث في حياة ابن زيدون . عاش ابن زيدون في بيئة كلها اضطراب ودياس ، وترى ودرج في ذلك وتقلد لورارة فيها ، لأنه اشترك في حوادث الاضطراب التي كانت على أثر زوال دولة بني أمية ، فكان من أشياع ابن جمهور أحد ملوك الطوائف الذي ادعى لنفسه الملك في قرطبة بعد انحلال الدولة الأموية سنة ٤٢٣ وعلت منزلة ابن زيدون هناك ، فاتخذ ابن جمهور وزيراً له فلك أزمة الأمور ، وكان أقرب الناس إلى سيده الذي استعان به كثيراً في المسائل السياسية ، وتأمين الصلة بينه وبين الأمراء الآخرين لذلكته ودهائه ، فكانوا بمحسود ابن جمهور على الاختصاص به ، وحدثت حوادث أوفرت عليه صدور كثير من منافسيه والحاسديه على فضله ومنزلته ، لحملوا عليه عند ابن جمهور حتى أمر بسجنه فسجنه طويلاً ، فاستغفر واستعطف بما يلين من أجله الحديدي ، فلم يفلح في إرضاء الأمير فزم على أعمال الحيلة والهرب من السجن . واختفى بقرطبة إلى أن استدفع بأبي الوليد بن جمهور عند أبيه أبي الحرم حتى شفع له ، وجعله أبو الوليد بعد موت أبيه من المقدمين في دولته ، ولكن ابن زيدون لم يأمن على نفسه من بقاءه في قرطبة ، فهاجر إلى إشبيلية سنة ٤٤١ ودخل في حاشية المعتضد بن عباد وصار وزيراً لابنه المعتمد وبقي هناك إلى آخر عمره . هذه حياته وأخلاقه ، وقد ذكرها في شعره ونثره ومنها يرى أن حركات عقله كانت تفوق ذلك خطوة بخطوة ، فكانت حياته العقلية نتيجة هذه الحياة ، لذلك يمكن أن تقسم آثاره الأدبية إلى أقسام ثلاثة : عتقه لولادة وأثر ذلك في نفسه وما كتبه في هذا ، ثم مدحه لابن جمهور وابن عباد ثم أثر السجن في حياته العقلية .

شعر ابن زيدون

كان لأخلاق ابن زيدون والبيئة التي عاش فيها وميول الناس إلى اللهو أثر عظيم في شعره ، فقد كان للمجون مسحة خاصة في النظم والنثر ، فبرع ابن زيدون في النزل ، وكثير من شعره في ذلك كان منبعثاً عن ثوران في نفسه وغليان في ميوله وأهوائه ، أذكر ذلك كله حبه لولادة ، فإن عشقه هذا فتح له باباً واسعاً

من الخيال قال فيه ما شاء وشاءت موافقه أن توحى إليه ، كذلك كانت آلامه وما لاقاه في السجن باعثاً من بواض استنفاض ملكة الشعر فيه وإلهاماً من إلهاماته الفنية .

وشى به أعداؤه وحاسدوه إلى ابن جهور ، وكاد له منافسوه في حب ولادة حتى نالوا منه ، وشفوا غلثهم بحمل ابن جهور على سجنه بعد أن أحله منزلة الوزير يدبر ملكه ، وبعد أن اثبتته وعرف له رأي السديد وبراعته في إدارة الأمور وسلمه زمام الدولة ، ولم يكن لابن جهور أن يخطئ في نظره لما اشتهر به نفسه من سداد الرأي وصحته ، فإذا ناله ابن زيدون مكانة في نفس ابن جهور ، فقد كان ذلك عن جدارة واستحقاق ، ولكن أعداؤه تمكنوا من ابن جهور فصب عليه وأمر بسجنه ، فأثار هذا السجن من نفس ابن زيدون عاصفة فنية جديدة رقت من خياله الشعرى أثارها آلامه فأخذ يئن أنيناً جبلاً ، ويفتن في آلامه ووصفها والتعير عنها مرّة شعراً ومرّة نثراً . . . والفنى يمزج فنه دائماً بكل ما يرى ويسمع ويشعر ، ولقد كانت نفس ابن زيدون من النفوس الدقيقة الإدراك ، التي إذا أنت تشأين الموسيقى ، وإذا شكت تشكو شكاة القلوب المملوءة شعوراً الواسعة التصوّر والإدراك الدقيق ، الذي يجعل الشكوى جيلة والكلام فيها جبلاً . كتب ابن زيدون من السجن إلى صديقه أبي حفص بن برد يشكو ويئن من بلواه وهو ينهض الأمل مرة ويقعده اليأس أخرى ، ولا يترك شاردة تمر بخاطره إلا هدأ بها نفسه ، وتسلى بها عن آلامه . يستسلم أحياناً إلى القضاء فيشعر في نفسه براحة واطمئنان ، ويقب أمامه صفحات الأيام فلا يعجب من الحوادث التي ألت به ، ويرجع إلى صديقه فيسليه هو بنفسه ، ويسأله ألا يكف عن مجونه ونسلته ، لأن السعادة خلسة ، ثم يعود فيذكر أعداءه ويئنهم منه ويبين أن ذلك ليس بالمعجب لأنه :

إن قسا الدهر فللمساء من الصحر انبحاس

ويرى أنه حسد لمكانته ، ويمزج ذلك بالعبير والحكم والسخرية والتهكم من أحوال العالم وحوادث الحياة ، ويرجع أنينه وألمه وحقدّه على الناس ، ولا سيما حاسديه ، ويضرب المثل كي يسكن من نفسه ، وهو في ذلك كمادته في الشكوى : يربط مرّة إلى الدرك الأسفل من اليأس ، ويرفع أخرى إلى ذروة الرجاء ، وكأنه في شجار مستمرّ بينه وبين نفسه وشعوره ، كل هذه المعاني في أبيات قليلة بأسلوب جبل رقيق ، يكاد يلجح الإنسان فيها خاطره المضطرب المتأوج . حيث يقول :

« ما على ظنيّ بأس ببحر الدهر ويأسو . » الح

هذه نفحات القلوب ، وهذا هو الشعر الذي يستولى على النفس ويلهمها الحكمة والعبرة ، وهذا هو جمال القول ، ليس ذلك لأنه مطرب مرقص بوزنه ولاميته ، بل لأنه ساحر بمعانيه وجماله ، كل معنى فيه يحتاج إليه النفس في مثل هذه المواقف ، ولقد كانت هذه المعاني سائغة للنفس لأن الشاعر صادق في قوله ، معبر عن شعوره يرسم صورته من نفسه الحزينة المتألّمة ، لهذا كان الشعر جبلاً .

وقد بدأ قصيدة من قصائده في هذا بالفخر بنفسه ، وأمن في ذلك ، وكأنما كان يبكي حظه ويندبه بهذا الأسلوب الفخري ، أو كأنما كل معنى من هذه المعاني كانت تهديّ خاطره وترجّ نفسه ، فلما مدح ابن جهور مدحه في قالب استعطاف ، وتوسط بين المدح الخالص والعتب الجدي ، وقد ظهر بنفس كبيرة وأنف أشم حتى أنه مدح نفسه أكثر من ابن جهور ، فكان مادحاً أشدّ منه عاتياً ، لأنه كثيراً ما كان في مثل هذا الموقف لا يندى بالفخر بنفسه ، ولا يريد أن يعلى عليها ولو همسا أنه في موقف منزلة ، وكأنه كان يتسلى بهذا ، لأنه يرى أن أعداءه لم ينالوا منه إلا لأنه فاتهم ببله وفضله حتى إنه قال متبكماً :

« ولو أنني أستطيع كي أَرْضَى العدا شريت ببيض الحلم حظاً من الجهل . »
وكل قصائده التي أرسلها يستعطف بها ابن جهور هي أثر ذلك التقاء الذي لقيه في سجنه ، وصورة من صور
البؤس الذي حرك شعوره وفتق من لسانه ، وأثار في نفسه عواطفه الشعرية المدللة المدلولة هماً وغمماً .
ولكن أسلوبه في الشكوى والاستعطاف واحد في نظمه ونثره ، وما أشبه قصائده في ذلك وما فيها من
من المعاني برسلاته الجدية ، وكأنها كان فكره سجيناً مثله من شدة تألمه في السجن ، فانه لم يخرج عن
عادته في ضرب الأمثال والفخر بنفسه ، وأنه أفضل لإنسان وأكرم من دبّ على وجه الأرض .
غير أن كلامه مع ذلك عذب المذاق ، رقيق الحاشية ، جذاب خلاب ، تظهر عليه سيما الابتكار
والصدق في التعبير ، فانه ليس من الخيالات الشعرية الصرفة ، بل به كثير من الحقائق التي كان يملها عليه
شعوره كما قال :

« ما جال بعدك لخطي في سنا القدر إلا ذكرتك ذكر العين بالأثر . »

وكتب إلى أحد أصدقائه وهو مخنف بقرطبة بعد فراره من السجن ، فقال :

« . . . وبلغني أنك أحد اللائمين لي الخ »

إلى أن قال :

« شحطنا وما بالدار أي ولا شحط وشط بمن نهوى الزار وما شطوا . »

إلى آخر ما قال في هذه القصيدة التي هي من أبدع قصائد الشكوى وأجمعها لذكر الماضي والحاضر والاستفجار
والاستعطاف ، والسرور بذكر ما اقصى والكاء على الحاضر ، وهي أيضاً أظهر في لهجتها الجدية من
كثير من شعره ، ولذلك كانت أحف في أسلوبها ومعانيها ، ليس بها تلك الرقة المبهدة في كلامه ، كل ذلك
ملاحه السجن ومآذوقه من الآلام ، فرسه في شعره ، لأنه رجل فني يعرف كيف يصور ما يشعر به ويعبر عما
يحول بمخاطره . ولقد يلاحظ الإنسان أن آراء ابن زيدون آراء عامة ليست ناشئة عن تفكير طويل أو
علم واسع ، وإنما هو خيال أكثر منه مفكراً ، وشاعر أكثر منه عالماً ، وهذه كل حال شعره ونثره .
أما مدحه وورثاؤه فهما في المرتبة الأخيرة من شعره ، لأنه على جمال أسلوبه في ذلك ، وحسن تصرفه في المعاني
لا يكاد يمتثل لسانه على معنى حديد ولا رأى حاس ، بل يكاد يكون كل ما جاء من المعاني من قبل معارضة
غيره من الشعراء والأخذ بمعانيهم ممزوجاً ذلك بما له من البراعة والصناعة والافتنان .

ومن أجل قصائده كلامه في المعتضد بن عباد وابنه المعتضد ، ومن أرق كلامه في الشكوى ، وأقرب
عباراته وصولاً إلى القلوب بكأؤه على الماضي ، والتلذذ بذكره وما كان فيه من النعيم كقوله :

« الهوى في طلوع تلك النجوم والى في هبوب ذاك المسيم . »

واحد كان ينظر إلى أيامه الماضية فيحن إليها حنيناً مؤلماً ، فإذا قرأت شعره في ذلك رأيت نفسك كأنك
واقف على أطلال سعادته البالية ، فبكي وبكيت معه ، كما قال :

« ألا هل إلى الزهراء أوبة نارج تفضت مبانها مدامه نرجا . »

الغزل في شعر ابن زيدون

يتبين من أحوال الاجتماع في الأندلس ، وميول النفوس ، واختلاط النساء بالرجال ، واندماج كثير من
الأدبيات في مجالس اللهو والطرب ، أن المرأة شغلت جزءاً عظيماً من أوقات الرجال المفكرين ، وملأت

رءوسهم ، كما أن مجالس الشرب كان لها سلطان عظيم على نفوسهم ، فكانت المرأة تحرك المواطف والتعور ، والحر تدر العقول ، وتغلى عليها القلوب ، وتفتح أمامها طرق التصور والخيال ، والعقول ثمة بذشوة الغرام والراءوس مثقلة بحرارة المدام ، والناس لا يفوتهم الطرب ، ولا يريدون أن يتواروا عنه لعلقته بنفوسهم ، حتى في أشد المحن ، فقد رأينا أن ابن زيدون كتب وهو في سجنه لصديقه أبي حفص بن برد يقول :

« وأدر ذكرى كاساً ما امتطت كعك كاس

واغتم صنفو الليالي إنما العيش اختلاس . »

وقع ابن زيدون في شرك ولادة بنت المستكفي بالله ، وكانت خلية ماجة بارعة رفيعة بين الأدباء « تناضل الشعراء ، وتساجل الأدباء ، وتفوق البرعاء . . . خرجت على نهاية في الأدب والطرف ، حضور شاهد ، وغزارة أوابد ، وحسن منظر ومحب ، وحلاوة مورد ومصدر ، وكان مجلسها بقرطبة متسدى لأحرار مصر ، وفناؤها ملعباً لجياد النظم والنثر ، يمشو أهل الأدب إلى ضوء غربتها ، ويتهاك أفراد الشعراء والسكناج على حلاوة عشرتها ، وسهولة حجابها ، وكثرة منابها ، تخلط ذلك بلمو نصاب ، وكرم أنساب ، وطهارة أثواب ، على أنها أوجدت للقول فيها السيل بقلة مبالاتها ، ومجاهرتها بلذاتها . . . » وقالوا « إنها كانت بالمغرب كعلية بالشرق ، إلا أن هذه تزيد الحسن ، وأما الأدب والشعر والنادرة وخفة الروح فلم تكن تقصر عنها ، وكان لها صنعة في المناء ، وكان لها مجلس يغشاها أدباء قرطبة وظرفاؤها ، فيمر فيه النادر وإنشاد كثير مما اقتضاء عصرها وكانت من الأدب والطرف ، وتمتيع السمع والطرف ، بحيث تختلس القلوب والألباب ، وتعيد الشيب إلى أخلاق الشباب » فقال ابن زيدون رضاها ، ووقع من نفسها كما وصفت هي من نفسه ، حتى كتبت إليه تضرب له موعداً فقالت :

« ترقب إذا جنّ الظلام زيارتي فإني رأيت الليل أكنم للسر

وبى منك ما لو كان بالشمس لم تلج وبالبدر لم يطلع وبالنجم لم يسر . »

قال أبو الوليد : « فلما طوى النهار نوره ، ونشر الليل دنائيره ، أقبلت بقدر كالفصيل ، وردف كالكتيب ، وقد أطبقت نرجس الغل ، على ورد الحجل ، فلما إلى روض مديح ، وظل سجع ، قد قامت رايات أشجاره ، وفاضت سلاسل أنهاره ، ودرّ الطلّ منشور ، وجيب الراح مزبور . فلما شبتنا نارها ، وأدركت منا نارها ، صرح كل منا بحبه وشكا ما بقلبه . . . وأنشدتها :

« ودع الصبر محب ودعك ذائع من سرّ ما استودعك . »

وكتبت إليه بعد ذلك تقول :

« ألاهل لنا من بعد هذا التفرّق سبيل فيشكو كل صب بما لقي . »

إلى أن قالت :

« تمرّ الليالي لا أرى البين ينفضي ولا الصبر من رق الفتوق . »

سقى الله أرمأ قد خدعت لك منزلاً بكل سكوب هاطل الوبل مغدق . »

ولا نريد الآن أن نتكلم في العشق وأثره في النفس وما يوحيه من روائع القول وجمال الفكر حتى عند عامة الناس ، فإن تاريخ الإنسانية حافل بمحوادثه . ولسنا نقول : إن العشق في كلام العرب أو شعر الغزل كما يسمونه ، ليس من المسائل الهزلية . لأن الشعر الذي هو وحي النفوس وجمال الإدراك الإنساني ، أكثر ما يكون ظهوراً في التعبير عن الحب ، ووصف هذا الضعف الإنساني الذي نسميه عشقاً ، فإن العشق إدراك

أكبر مظاهر الجمال في الحياة ، ومن لم يفتح له قلبه يوماً ما ، لم ير غير ظواهرها ولم يتسرب إلى نغمه بصيص ضوء من جمال مظاهر الحياة وأسرار النفوس في التألف ، وكثير من آمال الناس في تلك الصلة النفسية ، والعشق وما فيه من سعادة وجمال سر كامن في الشعر ، لأنه مصدر الشعر الحيالي الجميل . لذلك كان أجل الشعر ما يكشف عن سر من أسرار النفوس ، ويفتح القلوب . ويظهر مكنونات الإنسان وأخلاقه وآلامه وآماله . إن النساء منبع من منابع الشعر ، والشعراء مدينون لهن بأفضل الصفات لديهم وهي وصف شعور الناس ، والشاعر الذي يشمر بالحب لا يتكلم عن نفسه فحسب ، وإنما يجمع آلام العشاق وأنينهم فيألم ويث معهم ، وليس أعذب من هذه الآلام ولا أحب للنفس من سماع هذا الأنين . إن الشاعر بصوغ بكلماته اهتزازات القلوب ورنات مايجول من المعاني ويدفعها إلى النفوس فتصيبو إليها ، ويدفعها بين العشاق فيرى كل قلبه وكأنه ينظر في مرآة يرى فيها صورته ، وذلك لا يكون إلا في الشعر .

فإذا أخطأ العرب في إمعانهم في هذا النوع والإكثار منه ، فقد أخطأوا من جهة واحدة : وهي تكرار المعاني وتقليد بعضهم بعضاً في ذلك ، وظنهم أن كل قلب يحب بشكل واحد ، وإن صلة الحب يظهر الجسم قوية متينة ، وأن المعاني محصورة في ذلك . ولكن ابن زيدون ليس من هؤلاء المغلدين ، بل من الذين كانوا يجولون جولات واسعة في الحبال ، فكان فياً مبدعاً . أرأيت شعراء العرب كيف يطنون في وصف الأمكنة التي احتضنوا فيها مع صديقاتهم ، وهم يتخذون ذلك وسيلة لأمرين : الأول إحياء ذكرى تلك الأيام والأمكنة وما فيها ، إذ كل شيء هناك كان يشهد حبهم ويعطف على عشقهم ، وتلك الأمكنة جيلة لأنها احتوت عليهم ، والأضواء التي تسطع عليهم والأشجار التي كانت تظله . والكواكب التي كانت تنجس أخبارهم ، جذيرة بأن لا تنسى ، لأنها أثر من آثار العشق . الثاني أن الشاعر الفني يمر من التكرار ، ويعرف أن معاني العشق والحب سرعان ما تنفد ، فهو يتدأبل على شيء من المعاني الأخرى التي لها صلة بذلك ، كي يتسنى له أن يجول في ميدان أوسع ليصل إلى التعبير عن مراده ، أو يمنع العقول من أن يدركها الملل . فهو يستعين بذلك كما يستعين المصور الماهر بالألوان لإظهار الصورة التي يريد أن يرزما . كذلك كان ابن زيدون من هؤلاء الفنانين أو قريباً منهم . فقد التحأ إلى مدينة الزاهراء الجميلة في أيام الربيع ، يريد أن يسلي نفسه ويخفف عنها من أثر حبه ولادة ، فذكر في شعر أرسله إليها كل ما كان يحيط به إذ ذاك وأبدع أبداً إبداعاً ، وافقت افتناناً عظيماً في ذلك ، فقال :

« إنى ذكرتك بالزهرام . شتافا والأفق طلق ووجه الأرض فندراف »

وإذا كان لابن زيدون ميزة في شعره النزلي فليس ذلك في ابتكار المعاني التي لم يسبق إليها ، وإنما في طريقة تصويرها بمعارات تلك النفوس وتستولي على القلوب وكأن الإنسان لم يقرأ مثلها ولم يسمع بما يشبهها لجودة الافتنان في التعبير والاسلوب . كما في قوله :

« إليك من الأنام غدا ارتياحي وأنت من الزمان مدى اقتراحي . »

ولقد يسمع الإنسان أنينه في شعره ، ويرى أنه الحزينة من خلال كلامه ، وكأنه يرى تلك الحيرة وذلك القلق النفسي اللذين يملآن نفوس العشاق ويمنعان عنهم راحة الحياة ولذاتها . على أنه يلتذ لذكر محبوبته ويذوق الآلام بسببها . فيقول :

« متى أنبيك ما بي ياراحتي وعذابي . »

ولقد بلغ درجة من التعبير يحمل بها القارئ على الاعتقاد بأنه محلى كل الإخلاص في حبه ، وأن حبه هذا هو كل أمنيته ، وأنه يرى في سبيل العشق ما لا يراه غيره ، ويهون عليه كل شيء في سبيل إرضاء حبيبه حتى حياته ، وهو يغور بهذا كما قال :

« أنى تصيح عهدك أم كيف تخلف وعدك . »

على أنها لا تبرىء ابن زيدون من التصنع أحياناً وما يقول لأنه كان كديره من الشعراء يعبر عن غير شعور ، فإن تمكنه من الصنعة كان يفتق لسانه بقول الشعر ، كما قالوا إن السلطان أمره أن يمارض قطعاً كان يفتق بها ، واستحسن الخابيا ، وأتت أحياناً كأنها صادرة من عاشق مقيم ، وضمنها مدح السلطان ، فقال :

« يقصر قربك لبلى الطويلا ويشى وصالك قلبي المليلا . »

وفي بعض كلامه ، ما يدل على أنه كان يتصيد الألفاظ والمغاني التي قيلت في العشق ، فبنطها ولبسها ثوباً جديداً وكسبها له ، وقد برع براعة عظيمة في ذلك كما قال :

« يا غزالا أسارني موثقاً في يد المحن . »

وهو في كل كلامه مبدع مجيد متفوق على غيره ، خفيف الروح ، عذب الألفاظ ، سهل الأسلوب . أما نونته التي أرسل بها إلى ولاده وبثها كثيراً من شذوره وآرائه المختلفة . فهي على شهرتها وجلالها ككل شعره ولذلك لم تذكرها .

نثر ابن زيدون

اشتهر ابن زيدون برسائله الجدية والمجازية . أما الأولى فهي التي كتبها في سنة يستعطف بها ابن جهور وأما الرسالة المزجية فكتبتها على لسان ولادة يتكلم على ابن عبدوس ويبال به لمشاركته في غرامه . اشتهر ابن زيدون بانهى الرسائل لطوذة أسلوبها النادر المثال ، ولاحتوائها على كثير من الأسماء التاريخية والأمثال العريقة ، واقتباس أبيات من الشعر معروفة وقعت في صوغ الكلام وكأنها حملت من أجله ، أو قيست على سمته ، وليس من السهل اقتباس المثل في أمكنته ، ولامس المهن أن يخوض الإنسان غمار الأدب الواسع ويسهل عليه الاختيار منه ، ويحفظ نفسه من الضلال في نواحيه ، ويميز بين الجيد وغيره ، ويختار ما يناسب المقام ، ويكون ذلك مقبولا لدى النفس ، ثم يصوغ ذلك كله في قالب واحد ويضم بعض أجزائه إلى بعضها ، ويحده كما يحض الزبد ، فلا يقتصر منه جزء مع آخر .

إن الكلام على هذا الحول أصعب من الابتكار في التأليف المبتدأ ، وكلما قرب إلى القارئ الأسلوب وصعب عليه معرفة تأليفه ، شعر بسعة اطلاع الكاتب ، وأعجب به وكبرت في نفسه منزلته ، وكلما طابأه اسم لم يكن يحظر له بال ، أو رأى عاب من ذهنه ، أو تيسر إلى قصة لا يظن أن تذكر في مثل هذا الكلام ، أو حارة تحرك من نفسه حب الاستطلاع ، أو مثل القبط به ، أو ذكر رجل شهير بمجده ، أو نقطة تشرق بها نفسه ، أو مسألة فنية يرتاح لها ويلتذد بذكرها ، زاد إعجابه بالكاتب وما كتب ، ورأى أن كل إنسان غير قادر على ذلك ، وأن هذه صفة يمتاز بها الكاتب عن سواه . كل ذلك في نثر ابن زيدون وهو من دواعي الإعجاب بأسلوبه في رسائله ، فقد عرف كيف يأتي في كتاباته بالتناسق في المعاني والألفاظ ، بل عرف أن يأتي بهذا التناسق في التأليف والجمع ، وكيف يتصيد كلام غيره ويرصفه رصفاً جيلاً ، كما أمكنه أن يرسم لنفسه منهجاً جمع فيه كل معلوماته ، واختار منها ما يناسب حاجته وموضوعه ، فكانت رسائله أنيقة

جيلة ، وكان كالمهندس الماهر الذى يعرف كيف يجمع بين الحجر والحجر ، والمصور الفنان الذى يؤلف بين اللون واللون . ولقد حاول ابن زيدون فى رسالتيه التودول إلى غرضه ، فلم يدع وسيلة ما يجسم بها المعنى فى نفس القارئ لنهال عليه المعانى ويكون غرضه أوضح ، ورأيه أظهر ، إلا فذلها ، فكل ما ذكره من الأمثلة المقتبسة والمعانى المختارة قصد به توضيح ما يريد .

فى رسالته الجديدة أراد أن يستعطف ابن جهور ، ويبرئ نفسه مما اتهم به ويشكل بأعدائه ، فبدأ رسالته بالاستعطاف وهو يستذل نفسه تارة ، ويمدح ابن جهور ويظهر لإحلاصه له ويتملق إليه أخرى ، ويستنذر عنه فيما وقع منه فى حقه ، ثم يدين له شدة ألمه من شناعة أعدائه ، فقال :

« يا مولاي وسيدى الذى ودادى له . الخ . »

ثم أخذ يتعلل بالآمال ، ويضرب فى ذلك الأمثال ، ليسلى نفسه ويهدئ منها عبارات شمرية يريد أن يؤثر بها فى ناس المرجو ويحمده على كل شيء ، كما يحمد الله على السراء والضراء ، فقال :

« هذا العتب محمود عواقبه ، وهذه النبوة غمرة ثم تنجلي . »

ثم وقف موقف المذلة وكأنما يسمع الإنسان بكاءه فى كلامه ، واستصغر ذنبه فى ساحة صفو سيده ، وفى جوار ما ارتكبه غيره من الذنوب الكبيرة ، فقال :

« وأعود فأقول : ما هذا الدب الذى لم يسه عموك . الخ »

والمعجب فى ذلك من حضور ذهنه وحدته مما يدل على تيقظه الشديد ، ثم أخذ بسد ذلك يبرى نفسه ، ويصحب من سيده الذى يصنى إلى أعدائه ، على ما كان له من المنزلة التى لم تدفع عنه ذلك ، وأخذ يلوم ابن جهور لو ما لا يظهر إلا من خلال عباراته ، لشدة تمكنه من تصرف الكلام واحتراسه فيما يقول :

« فكيف ولا ذنب إلا نعمة أهداها كاشح . الخ »

ثم ذكره بإخلاصه له ، ومدحه إياه ، وأخذ يرجع إلى استعطافه وبمقله ، فقال :

« وقد زاننى رسم خدمتك . الخ »

ثم حاته مرة نفسه فانتقل ثقله أخرى ، وبين له أن مثله لا بصير على الهوان وأنه يستطيع فراقه وعجز بلده إلى مكان آخر ، ويخاطر فى هجرته هذه بما عسى أن يلاقى من الآلام مستأنساً بأدبه وفضله ، فقال :

« ولعمرك ما جهلت أن صريح الرأى أن أحوّل إذا بلغتى التمس الخ . »

وكأنه شعر بأن هذا يدعو ابن جهور إلى أن ينسى استعطافه لما يظن فى هذا الكلام من عجب ابن زيدون بنفسه ، فأخذ يلطف من حديثه ، ويسكن من هياجه ، ويظهر تمسكه بجوار سيده لأنه أفضل شيء له فى الحياة ، فقال :

« غير أن الوطن محبوب ، وللفنأ مألوف . الخ »

ثم أخذ يقوى أمله فى إجابة طلبه ، ويضرب الأمثال فى ذلك ، ويمدح البقاء فى جوار سيده بقوله :

« أعيذك ونفسى من أن أشيم خلبا وأستمطر جهاما . الخ »

هذا أكثر ما فى هذه الرسالة الجديدة ، وأعظم ما فيها تأليفها الذى يرى من خاتمة تلك النفس الحائرة المضطربة التى ترجع مرة وتحمده أحيانا ثم ترجع وتلين ، وكأنما الكاتب فى نزاع مستتر بين نفسه وأهوائه ، أو كأنه هو ونفسه قرنان : يشتد كل منهما هند ما يخاف قوة صاحبه .

هذه صورة نفس ابن زيدون يراها القارئ إذا وقف عن كسب ونظر إلى حركات نفسه وهو يكتب أو

يمكر في هذه الرسالة . يرى منه الأبية وهو يفخر بها ويطن أنه من أهل الفضل ، ويرى نفسه للتهكمة ، وهو يحسب وبعد الذنوب الكبيرة التي تستحق مثل عقوبته ، لا يريد أن يقول هذا ظلم ، ولكن يريد أن يقول هذا حق وخرق في الرأي ، ويرى نفسه الكريمة التي أخذتها الاكدار فذلك وأخذت تستعطف وتستدفع وتتملق ، يرى الإنسان كل ذلك في هذه الرسالة ، ومن هنا جالها وإبداها . لا مابها من الأسلوب المبالغ أو العبارات المتهارة لا غير .

أما رسالته الثانية التي كتبها لابن عبدوس من لسان ولادة ، فقد دلّ فيها على اطلاع واسع بالأمثال والأخبار ، وعلى ناع أوسع في المصاح ، لأنه أقذع في ذم ابن عبدوس إقذاً ، وتهكم به تهكماً لا مثيل له حتى إنه ليحيل إلى الإنسان أنه جمع كل ما يمكن أن يقال في الذم والتهكم وأفرقه على ابن عبدوس واستعمل أسلوباً جيلًا خلافاً يدل على تمكنه من التصرف في الكلام ومعرفة امتلاكه عقول انقراء ، لأن هذه الرسالة على ضوئها وكثرة الاقتباس فيها الذي يستغرق أروبة أحاسنها أو أكثر ، وعلى ما فيها من الأمثال المعروفة والآيات المشهورة ، والاطناب في ذكر الأسماء التي يكي منها القليل ، ليس فيها ما يدعو إلى الملل ، ولا ما يضر بالاستهجان والابتذال . على أن بها شيئاً كثيراً من تلك العيوب ، فقد ذكر أكثر من خمسين اسمًا لمشهورى الرجال ، مردها سرداً ، وكان يكي عسرهما ، وأكثر أيضاً من صفات الذم مما كاد يكون ثروة ولعوا ، ولكنه سترك كل ذلك ببراعته في الصنادة ، وليس أدل على جفاء الطبع وغلظه من هذه الرسالة ، فقد ابتدأها بسماحة نادرة ، ولكنها سفاهة أدبية فنية فقال :

« أما بعد أيها المصائب بقله . الخ »

وسار على هذا النحو وأكثر من ذكر هذه الأسماء ، ثم أقذع في القم وألحش في صغاته فقال :

« وهبها لم تلاحظك بمين كابية عن عيولك ملوؤها حبيبها حسن فيها من تود . الخ »

واستمر على هذا النحو إلى آخر الرسالة بضرب الأمثال للاستهزاء والتهكم ، ولقد كشف ابن زيدون في هذه الرسالة عن نفس حقودة محنة للانتقام وأنه شديد الحفيظة ، ودل على غلظة في طبعه ، وخشونة في أخلاقه مع ذلك وهي رسالة تمتاز بأسلوبها ، وتناسق عباراتها ، ولعل ابن زيدون أخذ هذا الأسلوب عن الجاحظ في بعض رسائله ، كما في رسالة الترييع والتدوير .

٢ — دراسة الأستاذ السكندري^(١)

علمه وأدبه وبديته :

نشأ ابن زيدون في عصر اختل فيه نظام ملك بني أمية بفناء بشورة البربر المشؤومة ، وقامت هذه الثورة وآثار المضادة في كل شيء من علم وأدب وفنون ضاربة بجرانها في قرطبة ، فكانت غنية بالعلماء والفقهاء والوعيين والندراء والمحسنين في كل صناعة ممن نبهوا في عصر النصور الهني ، فصادف ابن زيدون من قبل من حلهم وكرم من أدبهم ، وكان أبوه وعشيرته من أهل الفقه والأدب فلم يكن لإقباله على ما أخذ به أهله أنفسهم بدءاً من نفسه ، وإنما جرى في مفاهيمهم فزهم دليماً وأدياً ، وبعد صيت وعلو همة .

(١) مقبسة من بحث طويل ممنع للأستاذ السكندري نشرته مجلة الجمع العربي .

كتابة ابن زيدون

(أ) طريقته فيها :

كانت طريقة كتابة الأندلسيين منذ عصر الناصر والمستنصر جارية على أسلوب ابن العيديد وحلبته من أمثال صاحب بن عباد والبديع والحوارزمي والصابي ومن تابعهم من أمثال الحريري والعماد والاصمغاني ، وكان الكتاب الأندلسي الذي ينسج على منوالها ، وإن حلّ المأثور من النظم وضمن بعض القرآن والحديث لا يطلب ذلك على قوله فتفقد فيه صورة نفسه وخاصة طبعه ، بل كانت تكون له التشبيهات الرائعة والتعليقات الحسنة ثم هو لا يخرج عن التزام السجع غالباً . وابن زيدون رعى هذه الطريقة من بعض الوجوه وخالفها من بعض ، فأما ما رعاه في كتابته منها فهو :

- ١ — حل المنظوم من مشهور الأبيات .
 - ٢ — الاحتجاج والاستشهاد بكثير من هذه الأبيات مستعديلاً لها استعمال الأمثال فلا ينسجها إلى قائمتها .
 - ٣ — الاقتباس من القرآن الكريم أو الحديث بلفظهما أو تغيير بعض نظمهما .
 - ٤ — تضمين الحكم والأمثال بلفظ أصحابها أو تغيير في نظمها .
- وأما ما خالف فيه فهو :
- ١ — عدم التزام السجع .
 - ٢ — الاستكثار من أمثال العرب القديمة استكثاراً كاد يمسد قوله الحاصل بجانبه ضائماً وبخاصة العريب من هذه الأمثال .
 - ٣ — الاستكثار جداً من ذكر أسماء رجال التاريخ المشهورين .
 - ٤ — الاستكثار جداً من أسماء الوقائع الشهيرة في التاريخ .
 - ٥ — الاستكثار من الجمل المترادفة على مثال واحد في المعنى الواحد حتى يتكوّن منها فصل طويل يشغل فراغاً كثيراً من الرسالة لو اقتصر على فقرة واحدة من الفقر المتكررة في المعنى لترك الرسالة إلى خصلها أو سدسها . وهذه الطريقة غلبت على كتابته وهي على رسالتيه الجدية والهرلية أغلب ولا سيما الهزلية .

(ب) منزلته فيهما :

اشتهر ابن زيدون عند المعاربة والمشاركة بأنه من بقاء الكتاب والشعراء ، فأما الشعر فلا جدال في استعماله ، فلاستحقاق ذلك الصيت الذائع فيها تأويل وتعليل يخرجان عن حدّ بلاغة الكتابة في ذاتها إلى أمور خارجة عن جوهر الاجادة ، وذلك أن كتابته اشتهرت بين الناس لأمرين :

أولاً : أنها ليست على متوال كتابة الأندلسيين في عصره بل هي مخالفة لها في بعض الصور ، وصدر العمل المخالف لعمل الناس من رجل متوسط في الحال لاف يداته للأنظار ، باهر للنفوس ، فكيف به لو صدر من ذي شأن نبه بمنصب رفيع ونسب عريق ، وصبت ذائع في السياسة والأدب والشعر وحسن المحاضرة والمنازمة .

وثانياً : أنها باهرة لا يعمانيها وروعة أساليها وشدة حوكها في نفس قارئها بل بما اشتملت عليه من وفرة التضمين والاستشهاد والوقائع وأسماء الرجال ، مما يكبر من شأن كاتبها في الصدور ، وبهذه

بطول الباع ، وسعة الاطلاع ، ويكبر من شأنها هي ، إذ تكون بمثابة مجموعة أدبية حافلة بآثار الأقال ، معرفة بكثير من حوادث التاريخ وأسماء الأبطال ، بحيث إذا حفظ ناشر متأدب الرسالة منها أودعت صدره زبدة اطلاع كثير وبحت طويل ، فكان شهرته آتية من طريق التثقيف والتعليم ، فتكون في الأدب أشبه بمن من متون العلم كثير المسائل والاحكام وجيز العبارة ، وهذا السبب بعينه هو سبب شهرة مقامات الحريري ، وبعض الفصائد المحتوية على كثير من أسماء الرجال وحوادث التاريخ والحكم والأمثال ، كقصيدة ابن دريد ورائية ابن عبدون في رثاء دولة بني الأفطس ، ونونية الرندي ، ولامية ابن الوردى ، ونونية البسي ونحوها ، وكلها عظيمة الأثر في التعليم والتأديب وسرعة التوقيف على أكثر ما لا يسع الأديب جهله في لفظ يسير وزمن قصير ، لافي بلاغتها ذاتها وحسن تأثيرها في النفس حتى تستجيب النفس لداعياها ، وتنبئ على قائلها ، ولذلك تجد رسالة ابن زيدون الجدية التي استعطف بها جهورا لم تؤد ما وضعت له . ولا معنى بكلامنا هذا أن الرجل كان قليل الخاطر ، أو ضعيف الارتجال ، فكل من تعرض لذكر أخباره يصفه بقوة العارضة ، وسرعة البديهة والارتجال ، وأنه كان في مجلس ولادة يرتجل المقطعات الشعرية البليغة ، ويحاضر بالكت النادرة والأجوبة المسكتة ، ودفن بعض حرمه فوقف للناس يمزونه على اختلاف طبقاتهم فما أحب أحدا بما أجاب به غيره ، وتلك غاية لا تدرك .

وإنما خلق الرجل شاعرا مطبوعا ، واضطرته الوزارة إلى الترسل والكتابة فكانت كتابته بالشعر أشبه منها بالنثر ، وأكثر المغاربة لا يتحدثون إلا في شعره على عكس المتأخرين .

رسالته الجدية

هذه الرسالة أشهر رسائله وأبلغها ، وأكثرها عائدة على المتعلمين الذين يحفظونها لتوع فصولها وتعدد الأغراض التي رمت إليها ، والمعاني التي لوحت بها على ما أبانت من أمل كنيها ، وما حوته من روعة التأثير في النفس . وهذه الرسالة بحث بها من السحن إلى جهور يستعطف بها ولكنه منزع الاستعطاف بكثير من الزهو والامتنان ، واستنطاق العقاب على ذنب متوهم على طريقته الـكـنايـة التي وصفناها آنفا . وإذا حللنا هذه الرسالة إلى عناصر الأغراض التي تألفت منها وجدنا أنها لا تعدو عشرة أغراض تؤدي في عشرة أسطر إلا أن كثرة الجمل المترادفة الأسلوب والصورة زادت في ذرعها طولا .

وذلك أنه ناداه بالفاظ السيادة أولا ، ثم اعتذر له عن نكبتة إياه بعد ما أحس الجاد به الإنسان بصدق خدمته له وثنائه عليه ، بأن عمل الخير قد يعود على صاحبه بالشر ، وأول هذه المقابلة بأنها صادرة عن حسن نية وقصد تأديب ، ثم أخذ يسترث العفو ، ويستطع هذا العقاب الذي كان بعضه كافيا لردع الأبالسة وكبار الفتاك والمخارجين على الأنبياء والأئمة والدين ، مع إن المسألة لا تخرج عن وشاية حساد سمع جهور لهم فتكى وليه الذي توه بذكره ، ثم أخذ الزهو فذكر أنه كان في مكنته أن يستبدل بخدمته خدمة من يرحب به من الملوك ، غير أنه من عليه مفارقة وطنه ومولاه القديم ، ثم عود نفسه من أن يكون معه كالمتجني من الرمضاء بالنار ، وناشده العتي حتى توقع العكاك ، ثم استلج نثر هذه الرسالة ورأى أن يستلحقه بقصيدة ، فكانت هذه في رأينا آتق لفظا ، وأهذب موردا ، وأطبع اسقا .

« ثم أورد القصيدة وقال : »

محاسن هذه الرسالة ومعانيها

لا ريب أن مكان هذه الرسالة من الأدب العربي مكان المشهور المأثور المحفوظ في الصدور المخلد في السطور وذلك لأمرين :

الأول : أنها جراب أدب حار لجملة نماذج مختلفة من هيون مواد الأدب بما ضمنت من اقتباس القرآن والحديث ، والأمثال ، والحكم ، والأبيات المشهورة ، وحل نظم الكثير منها والإشارة إلى ما فيها من وقائع التاريخ الشهيرة التي يجدر بالأديب معرفتها والاستشهاد بها .

الثاني : حسن ملائمتها بين هذه الصنوف وجودة رصفها وجمع شتاتها في موضوع واحد مما يصر على غير حاذق التوفيق بين متباينة ، ويجعل نظمها غريباً ونسجها وحيداً .

الثالث : حصافة عبارتها وجرالة لفظها في كثير من مواضعها وخاصة ما استقل به كاتبها معنى وإنشاء . ولكننا إذا نظرنا إليها بعين الناقد وأنعمنا البحث في بلاغتها أي مطابقتها في معانيها ومبانيها لمقتضى الغرض الذي وضعت له ، وهو الاستعطاف ، وجدنا أنها تقصر دون بلوغه لجملة أمور :

الأول : كثرة ماردده كاتبها فيها من عبارات الامتنان على مولاه بطول ثنائيه عليه وحسن سابقته عنده وعظيم بلائه في إقامة دولته مما يعمده الرئيس عادة تعبيراً وتجييلاً .

الثاني : تهديد مولاه بأنه لولا حب الوطن لكاف له أرفع مقام في خدمة غيره من الملوك الذين يتسارعون إلى الترحيب به ، ويقنفسون في استخدام أمثاله .

الثالث : أن وضعها بهذه الصورة يجعلها غير كفيلة بانحاج الغرض الذي وضعت له (وهو تحريك عاطفة الرحمة والعفو) بما يصرف نفس فارثها عن أن يتأثر ببلاغتها ويتسلفها بتذكر الحوادث والقصاص التي أتت عابها ، وأسماها الناس ، ومضرب الأمثال ، فلا يفرغ القارىء من تعرف اسم رجل حتى يقع في مضرب مثل ، ولا يخلص من تفهم شاهد حتى يتقحم في أوعر منه ، فيتقحم فهمه ، ويتشقت تأثره ، وإنما يأتي التأثير من اسباب غمرة من الانخداعات المتكررة ، بتكرار العبارات البليغة المؤثرة ، فتحدث بمجسوها أثراً كلياً في النفس ، فتجيش بالشفقة ، وتهش للعفو ، ويمثل ذلك كان الإنشاء المبرقش بكثير من أنواع البديع غير مؤثر ببلاغته ، لشغله الدهن عن التأثير ، وصرفه إلى تفهم البديعة .

ومن هذه الوجهة نرى أن رسالة ابن زيدون ليست مثالا يحتذى للإنشاء البليغ المؤثر في النفس .

الرابع : وقوع بعض هفوات له ذكرها الصفي كاحتياج فقارها إلى ذكر فقار بعد تنم معناها وتلثم بها مع ما بعدها (وهذه نضرب صغماً عن ذكرها) وكبعض أخطاء في المعنى والوقائع (وهذه نشير إلى بعضها ، ومن أراد مراجعة الجميع فعليه بفرح الصفي) .

فن هذه قوله (وتأوات في بيعة العقبة) وسياق كلامه في هذا الفصل يقتضى ذكر أسماء أناس منكرات يبرأ هو أن يكون مثلهم ، ولم ينقل أحد من أهل الأثر أن أحداً ممن بايع فيها تأولها أو نكثها .

ومنها قوله « وتخلت عن الصلاة في بني قريظة » ولم يعلم أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أنكر على من تخلت عن صلاة العصر في بني قريظة وصلاها في الطريق بل أقر الجميع على عملها وعد ذلك من اجتهاد الصحابة .

ومنها قوله « وزعمت أن بيعة أبي بكر كانت فلتة » مع أن قائل هذه الكلمة عمر بن الخطاب ، ولم يقلها من إرادة سوء فلا ينبغي أن يتمثل به في أهمال الجناة .

ومنها قوله « وكتبت إلى عمرو بن سعد أن جميع بالحسين » مع أن المکتوب إليه الحرث بن يزيد التميمي لا عمرو بن سعد .

وقد أتى الصنفى على عيوب آتية من تصحيف أو سوء تأويل منه هو ، أعرضنا عنها خوف التناول .

رسالته الهزلية

كان الوزير أبو عامر بن عبدوس ينافس ابن زيدون في حب ولادة ، فاتفق أن حدثت نبوة بينهما ، فأرسل ابن عبدوس إليها امرأة من صواحباته لتسليمها إليه ، وتذكرها بفضله وأدبه ، فردت ولادة المرأة بالحسنة ، وكتب ابن زيدون إلى ابن عبدوس عقب رجوع المرأة هذه الرسالة على لسان ولادة ، يرد عليه ويتهم ويهجو ويتوعده . وفي ظننا أن ابن زيدون كتبها من نفسه تشفياً من ابن عبدوس لا عن رأى ولادة ورضاها عما ألحس فيها وأقنع .

والرسالة كسابقتها في قلة أغراضها وتكرار أساليب فضولها ، وذلك أنه بدأها بوصف ابن عبدوس بأوصاف الخلق والجهلاء منكرأً منه إرسال خليفته إلى ولادة ، ثم ثنية عليه ومزجعة فيه ، واصفة له بأوصاف أعيان الزمان من العلماء ، والأدباء ، والأطباء ، والفلاسفة ، والشجعان من فلان وفلان ، وإن ولادة طردتها أشنع طردة ، ثم أخذ يهجو بأوصاف في الخلق والخلق ، وإن ولادة لو أرادت الرجال لكان لها من الأكفاء من قومها وأعيان زمانها من يفضلها سنأً وشرماً وجمالاً الخ .

٣ - دراسة الأستاذ علام سلامة^(١)

هو أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيدون المخرومي القرطبي كان من أبناء وجوه الفقهاء بقرطبة وبرع في الأدب والفنون ، فم عليه فضله ، وذاع صيته ، وارتفعت مكانته ، واختص به أبو الوليد ابن جهور أحد ملوك الطوائف واتخذ وزيراً وادتمت عليه في السفارات بينه وبين ملوك الأندلس ، فأعجب القوم به ، وآمنوا بميله إليهم لبراعته ، وحسن سيرته ، واتفق أن قم عليه ابن جهور وحبيه ، فاستعطفه برسائله السابقة وبأثالثها فلم يمن ذلك عنه شيئاً فتحيل لنفسه حتى تسال من حبسه والعزل بالمتصد بن عباد صاحب إشبيلية سنة ٤٤١ هـ فحل منه محل السويداء من أفؤاد ، واستخلصه استخلاص المعتصم لابن أبي دؤاد بحالته في خلواته ، ويركن إلى إشارته ، ولم يزل صده وعند ابنه المعتصم فأم الجاه وافر الحرمة حتى توفي سنة ٤٦٣ هـ وكان له ابن يقال له أبو بكر تولى وزارة المعتصم ، وقتل يوم أخذ يوسف بن تاشفين قرطبة سنة ٤٨٤ هـ وقد أتى عليه ابن بسام في الدخيرة بقوله : كان أبو الوليد غاية منتور ومنظوم ، وخاتمة شعراء بني مغزوم ، فاق الأنام طرا ، ووسع البيان فظاً ونثراً ، إلى أدب ليس للبحر تدفقه ، ولالابد تألقه ، وشعر ليس للسحر يئانه ، ولالانجوم الزهر اقتترانه ، وحظ من النثر غريب المباني ، شعرى الألفاظ والمعاني .

ومما يحكى عنه في سعة البيان والقدرة على التنفيس في أساليب الكلام أن ابنته توفيت فوقف للناس عند منصرفهم من الجنائز ليتشكر لهم ، فما أعاد عبارة قالها لأحد ، وهذا عجيب للداية ، ولا سيما من يزرون فقد قدامة من كبده :

« ولكنه صوب القول إذا انبرت سحائب منه أعقبت بسحاب . »

كتابه

كان ابن زيدون مع صفاء قريحته ، وقوة سليقته في البيان يؤثر الرواية والتأني لنسج القول ، وكان مع سعة روايته افتون الأدب علما بأخبار المعجم والعرب ، متمسكا من كل ما يعوز الأديب بسبب ، وليس بدعا أن يكون لكل أولئك آثار في كتابته ، وليس بدعا أن لم تكن كتابته عفو الخاطر السامع ، ولا وحي البديهة البادئة ، ولا عصارة عصر الجين ووليدة التكلف ، فقد جاءت خلاصة الرواية المصبغة تؤيدها قوة الطبع ومصاصة التنقيح السديد ، يؤازره لطف الذوق ، كما جاءت سبك رائعة صائها صانع من مبتكر المعاني الساحرة ، ومستل الأمثال السائرة ، ومفتبس الأبيات النادرة ، ورصاء بفراند من أخبار الناس ونوادر الحوادث . ولئن كان البديع قد فاقه في استرسال الطبع ، ولطف الخيال ، ورشاقة المعاني ، لقد فاق هو البديع في متانة الباني ، والتغلغل في نواحي المعاني ، والنصر بمواضع الاقتباس ، وتوشية الرسائل بأخبار الناس . أما أوضح ميزانه ففحاحة الألفاظ في غير كرازة ، وطول الأسلوب في غير اعتساف ، ورصانة المعاني في غير جفاف ، والتأليف بين جلال الخيال وجلال الحقيقة .

ومن محاسن رسائله رسائله الحدية والهزلية وكتاها غرّة في جبين الآداب العربية ، وقد عني بفرحها كثير من الأدباء . أما شعره فله ديباجة رائعة ، وصياغة بارعة كأنما هو سبائك النصار ، أو حدائق الأزهار ، لا سب أنساك صاحب بئنة ، وإن مدح خلته شاعر مربيته ، ومن مقطعاته التي تشهد له بجودة الطبع ، وإتقان الصنعة قوله :

« بيني وبينك مالو شئت لم يصع سر إذا ذاعت الأسرار لم يدع . »

ومن شعره الذي يختلط بالروح رقة ، وبالهواء لطافة قصيدته التي كتبها إلى ولادة التي كان شديد الكلف بها والهام بحبها يستديم عهدا ، ويؤكد ودّا ، وفيها يقول :

« أضحي الشافي بديلا من تدانينا وزاب عن طيب لقياما تحافينا . » الخ

وقد سقنا أكثر هذه القصيدة ليراعها ، وقد ضن بعض شطورها ابن الوكيل في موشحة ، وسدسها بعض أدباء المغرب .

٤ - دراسة الأستاذ أحمد زكي باشا

أولية ابن زيدون

كان في جملة القبائل التي ذهبت إلى الأندلس رهط من بني مخزوم توطنوا في جهات قرطبة وما إليها ، وناهيك بهذه القبيلة ذات الشرف الصميم ، واللسان القويم .

فكان بنو زيدون من رجالهم المعدودين ، خصوصا في الفقه والأدب ، واشتهر منهم ثلاثة حفظ لنا التاريخ أسماءهم ، وهم :

(١) أبو بكر غالب بن زيدون .

(٢) أبو الوابد أحمد بن زيدون .

(٣) أبو بكر بن زيدون .

كان مولد الأول في سنة ٣٠٤ ومات سنة ٤٠٥ بعد أن بلغ من العمر مائة سنة . توفى في ضيعة له . ثم نقلوا تابوته إلى قرطبة ، فدفن بالربض (أى الضاحية) .

وهناك رثاء أبو بكر عبادة الشاعر الأندلسي بما يعرف بمقامه في قوله :

«أى ركن من الرئاسة هيباً وجوم من المكارم غيباً

حلوه من بلدة نحو أخرى كي يوافوا به ثراه الأريضا

مثل حمل السحاب ماء طيباً لتداوى به مكأماً مريضاً .»

وأما ثانيهم فهو واسطة العقد ، والذي يدور عليه كلامنا . والثالث هو الذي تقلد بعد أبيه (أبى الوليد) وزارة المعتمد بن عباد ، وانتقم لأبيه من ذى الوزارتين ابن عمار ، وكان أبو بكر هذا هو الذي تولى السفارة عن ابن عباد إلى يوسف بن تاشفين صاحب المغرب الأقصى حينما تنمر الاسبانويون مع ملكهم الادرش (الفرنس السادس) لماك الطوائف ، وخصوصاً لبي عباد في خلب يطول شرحه ، ولا يسع المقام تلخيصه .

من هو ابن زيدون ؟

هو ذو الوزارتين أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيدون المخرومي الأندلسي . كان مولده بقرطبة في سنة ٣٩٤ أعى في الوقت الذي سرى فيه الانحلال في جسم الخلافة الروانية بالأندلس بعد أن بلغت من المجد نهاية النهايات ، وأدركت من الفجامة ما لاتصدق منه الروايات . في ذلك الوقت تحلت عرى الدولة ، فانقسم المسلمون على أنفسهم ، وتخاذلوا ، واستنصروا أعداءهم على بعضهم بعضاً ، وسلموا البلاد والفلاح والحصول واحداً تلو الآخر إلى أعدائهم وأمدتهم بالمعونة على إخوانهم ، وهكذا حتى أودت تلك الفواح بذلك الملك الكبير ، ثم أنت على القوم بأكلهم فأصبحوا خسرأ بعد عين . نتساءل عنهم بقولنا كيف رأين ؟ في تلك الأيام استظهروا على شهراتهم بجر ذبولها ، وامتروا بظلالها من أخلاف أباطيلها . حتى انتشت عصاهم ، ودارت بدائرة السوء . على الجهالة رحاهم .

كان ابتداء الانحلال والانحلال من أول يوم جلس فيه المستعين على عرش الخلافة في منتصف ربيع الأول سنة ٤٠٠ هـ .

فقد كانت أيامه كلها كما وصفها ابن حيان الأندلسي « شداداً نكرات ، صعباً مشومات ، كربات المبدأ والفاتحة ، قبيحات المنهى والحائمة ، ما فقد فيها حيف ، ولا ورق خوف ، ولانم سرور ، ولا نقد غرور مع تغير السيرة ، وخرق الهيبة ، واشتعال الفتنة ، واعتلاء العصبية ، وظمن الأمن وطول الخماه ، دولة كفاهما ذما أنها تمخضت عن الفاقة الكبرى ، وآلت من التي بعدها إلى ما كان أعضل وأدمى . مما طوى بساط الدنيا ، وعفا رسمها وأهلك أهلها ، وإذا أراد الله شيئاً أمصاه . »

وكذلك لم يكن في المستكى أدنى كفاية للخلافة . وإنما أرسله الله على الأمة بحنة وبليسة . إذ كان منذ عرف منقطعاً إلى البطالة ، مجبولا على الجهالة ، عاطلا عن كل حلية تدل على فضله ، عضته الفتنة فأملق ، وهان حتى أمانه أهله ، ولقد رآه أبو حيان مؤرخ الأندلس المشهور أيام الحسف بأهل بيته في الدولة الجودية ولم يكن ممن لحقه الاعتقال منهم لركا كنه . كان يقصد أهل الفلاحة يومئذ بقرطبة أو ان ضمهم لملانهم يسألهم من زكاتها . قال « وقد أجمع أهل التحصيل أنه لم يجلس في الامارة منذ تلك الفتنة أسقط منه ،

ولا أقص . إذ لم يزل معروفاً بالتحلف والركاكة ، مشتهراً بالشرب والبطالة ، سقيم السر والملاينة ، أسير الشهوة ، عامل الخلوة . »

ذلك الوقت هو الذى أشار إليه ابن حزم بقوله :

« فضيحة لم يقع في الدهر مثلها ، أربعة رجال في مسافة ثلاثة أيام في مثلها ، يسمى كل واحد منهم بأمير المؤمنين ، ويخط له في زمن واحد : أحدهم خلف المصرى بلشيبيلة على أنه هشام بن الحكم المؤيد . والثاني محمد بن القاسم بن حود بالجزيرة الخضراء ، والثالث محمد بن علي بن حود بمدينة مالقة ، والرابع إدريس بن يحيى بن علي ببيتة ، تلك هي الأيام التي بقى العرب والبربر فيها في خصام مستديم ، وكان كل من الفريقين منقسماً على نفسه ، وكان الجميع في خلاف مع أهل المغرب الأقصى من الجنوب ، وفي حروب وخطوب مع بقايا الأمم الإسبانية من الشمال والعرب . في ذلك الوقت العسير تفرق أهل الأندلس فرقاً . وتنازل في كل جهة منها متقلب ، وهم الدين عرفهم التاريخ باسم — ملوك الطوائف — وقد أرادوا أن يفحدوا أنفسهم وممالكهم فتقسموا ألقاب الخلافة ، كما تناهبوا أشلاءها . فكان منهم المعتضد ، والمأمون ، والمؤتمن والمستعين ، والمقتدر ، والمعتمد ، والموثق ، والتوكل . إلى غير ذلك من الألقاب الخلافة . حتى قال في ذلك أبو علي الحسن بن رشيق ببين سارا سير الشمس ، وبقياء بقاء الدهر ، وهما :

« مما يزهدني في أرض أندلس سماع معتد فيها ومعتصد

ألقاب مملكة في غير موضعها كالحريحكي انتماخاً صولة الأسد . »

مكثت طرطوش ، وسرقسطة ، وإفراغة ، ولاردة ، وقلمة أيوب في يد بني هود . وكانت بلفسية في يد عبد الملك بن عبد العزيز ، وكان الثغر أى ماموق طليطلة في يد بني ذى النون وكانت قرطبة في يد أبناء جمهور ، وكانت اشبيلية في يد بني عباد ، وكانت مالقة والجزيرة الخضراء وغرناطة في يد بني رزال من البربر ، وأما المارية فكانت في يد زهير العاصرى الخادم ، ثم خيران العاصرى الخادم ، ثم ابن صراح وكانت دانية وأعمالها والجزائر الشرقية (الباليار) في يد مجاهد العاصرى ، وكانت بطليوس وبابرة وشنترين في يد بني الأوطس ، فلا عجب إذا كثرت الوزراء في تلك الأيام ، ولا عجب إذا كثرت أيضاً ذور الوزارتين ، فالأندلس على دين ملوكهم ، فكان كل من امتلك مائة كيلو متر مربعاً في مثلها يعد نفسه سلطاناً كبيراً . ويتخذ من الحاشية ما يضارع به أهبة الخلافة وقد كان عهدهم بها قريباً . فكثرت عندهم الوزراء ، وكثرت بينهم الذين يلبون أنفسهم بذى الوزارتين .

ومن الطبيعي أن الرئاسة إذا انحطت من جلالها تنعما الرؤوس في السقوط ، فلما تدارت الخلافة في الانحلال صارت الوزارة أيضاً في درجات الهوان . فإن المستعين الذى ذكرناه قال بعد أن جالس على عرش الخلافة للناس أجمعين . ارتعوا كيف شئتم ، وارثسوا بما أحببتم من الخطط ، فتسمى بالوزارة مفردة ومثناة أراذل الدائرة ، وأخابث النظار ، فضلاً عن زعائن الكتاب والخدمة (عن ابن بسام)

وصارت هذه الرتبة تنحط مع انحطاط الدول ، حتى نزلت في أواسط القرن الثامن للهجرة إلى الدرجة التي وصفا لنا ابن فضل الله العمري حيث قال :

« سألت الشيخ العلامة ركن الدين أبا عبد الله بن القويح رتبة الوزير بالمغرب ، فقال : ليست بباطل ، ولا لصاحبها شيء من الأسر . بل هو كالجواش يخرج من قدام السلطان يوم الجمعة : حقيقة دون السمعة » وقد استبدت هؤلاء الرؤساء بتدبير ما تغلبوا عليه من الجهات ، وانقطعت الدعوة للخلافة ، فلم يبق لخليفة

هاشمي أو أموي ذكر على منابر الأندلس خلا أيام يسيرة دعي فيها بإشيلية لهشام المؤيد بن الحكم (أو لشعص شبيه له) حسبما اقتضته الحيلة، واضطرت إليه التدبير. ثم انقطع ذلك، فأشبهت حال ملوك الأندلس بعد الفتن حال ملوك الطوائف من الفرس بعد قتل دارا. وحال قواد الاسكندر بعد وفاته. ولم يزل هؤلاء الرؤساء في اقتتال وتخاذل، يستعينون بعدوهم جميعاً فيميل تارة إلى هذا وطورا إلى ذلك حتى اختلت الأحوال إلى أن تولاهم الضعف فاستنصروا بالمرايعين فانتظم الشمل، وعادت المياه لأرئها. ولكن إلى أجل معين. ثم عاد الانشقاق والانقسام، فانحطت كلمة الاسلام، وانطفأ ذلك النور، وباد القوم عن آخرهم في سنة ٨٩٧ هجرية. بعد أن أقاموا فيها ثمانية قرون. لأن دخولهم كان في سنة ٩٢ للهجرة على يد طارق يد زياد.

رفعت الستار عن هذا المنظر الحزن ليكون لكم ولأمم المشرق تذكرة وعبرة. خصوصاً في الأوقات الحاضرة، والآن أقول لكم إنه على الرغم من توالي الفتن. واضطراب الأحوال كانت سوق الأدب رائجة وبصاعته نافعة. فكل أمير، وكل وزير، وكل كاتب، وكل وجيه كان له من الأدب نصيب وافر. عرفنا من تقسيم الأندلس بين ملوك الطوائف أن بني جهور استبدوا بقرطبة وأن بني عباد استأثروا بإشيلية، في المملكة الأولى درج ذو الوزارتين ابن زيدون وترقي وظهر فضله. وفي الثانية قضى بقية أيامه في العز والكرامة. وكانت بها وفاته في محرم سنة ٤٦٣ هـ على التحقيق الدقيق كما نُس عليه معاصره ابن بسام ولا عبرة بالأقوال الأخرى عن وفاته. لأن الذين قالوا بوفاته في سنة ٤٠٥ خلطوا بينه وبين أبيه غالب ابن زيدون.

اشتغل ابن زيدون بالأدب، وخلص عن نكته، وتقب عن دقائقه. إلى أن برع وبلغ من صناعاته الشعر والنظم المبلغ الطائل. حتى قال فيه ابن بسام:

« كان أبو الوليد غاية متطور ومنظوم وخاتمة شعراء بني مخروم... الخ. »

وما هم أن أصبح في الأندلس « متم ذلك الحى، وعاشق ولادة لامي، زاد على مجنون ليلي، وقيس لبي، وابن أبي ربيعة صاحب الزيا، تركه هواه أنحف من قلم، وأشهر من نار دلي علم. وله مع ولاده أخبار ما حكى مثلها ابن أبي عتيق، ولا الاصغهاى عن سكان وادي العتيق، ولا الأصمى عن أهل ذلك الفريق، أندى من نسيم الصباح، وأرق من ربي الفوادي في ثنور الأفاح »

وإذا تصفحنا دواوين الأدب هذه الأمم الأخرى لا نجد له شبيهاً سوى تيبواس شاعر الرومان. وتنقسم حياة ابن زيدون إلى قسمين مهين (١) في قرطبة، (٢) في إشيلية.

أولاً - في قرطبة: برع ابن زيدون في الأدب، حتى كان أبو الوليد في الأندلس شبيهاً ومثيلاً لأبي الوليد في دولة المتوكل العباسي، وقد سباه الناس بحمدى الأندلس، ولقد صدقوا.

فن جملة المخطوط عنه في صباه قوله:

أخذت نلت الهوى غصباً ولي نلت... الخ

ثم هام بعد ذلك بحب ولاده بنت المستنكى الخليفة الأموي بالأندلس، وكانت أديبة، شاعرة، جزلة القول حسنة الشعر، تناضل الشعراء، وتساجل الأدباء. وهرت صمراً طويلاً ولم تزوج قط. جاءت على خلاف

أيها في كل أوصافها . فكانت مصداقاً لقوله تعالى « يخرج الحي من الميت » وقد ابتدئ حجابها بعد نكبة أيها وقله ، فصارت تجلس للشعراء والكتاب وتعاشرهم ، وتحاضرهم ، ويتمتعها الكبراء منهم . وكانت على خلق جميل ، وأدب غصن .

وكان لابن زيدون معها أخبار تطرف القلوب ، وتشنف السامع ، لأنه خلق في هواها المذرى عذاره ، وقد شهد المؤرخون كلهم لها بالهمة والسياسة . ولكن الشعراء في كل واد يهيون ، فكيف لا يهيم بولاده أبو الوليد بن زيدون .

والفام لا يتسع لاشعاره فيها وإشعارها إليه . ولسكى آفكم يراموز ومثال ، واترك الباقي لمير هذا المجال . ودعها ذات يوم وأنشدتها مرتجلاً :

« ودع الصبر محب ودعك . . . الخ »

ثم قال :

« يانا زحاً وضمير القلب القلب مثواه . . . الخ »

ولما كان مجلس ولادة بقرطبة منتدبى لاجرار المصر . وذاؤها ملمباً لجياد النظم والنثر . يمشو أهل الأدب إلى ضوء غرتها ، ويتهاوت أفراد الشعراء والكتاب على حلالة مسامرتها ، وهي مع ذلك عافطة على علو النصاب ، وكرم الأنساب ، وطهارة الاتوب ، ولقد طمع بعضهم في الاستئثار بها دون ابن زيدون فنازحه على حبها وزاحه في دودها رجل من رجال عصره ، وهو أبو عبد الله البجليوى ، فكتب إليه ابن زيدون يزرجه بهذا الزجر :

« أيا عبد الإله اسع . . . الخ . »

ومنهم الوزير أبو عاصم ابن عيسدوس الملقب بالفار . وكان من أكابر رجال قرطبة ، فاغتاط ابن زيدون وبهت إليه بهذه الآيات :

« أثرت هزبر الشرى لاذ ربض . . . الخ »

ثم كتب له رسالته المشهورة على لسان ولادة ، وقد عبث فيها به كما عبث الجاحظ في رسالته « الترييع والتدوير » بأحمد بن عبد الوهاب الكاتب في بغداد ، فاشتهرت رسالة ابن زيدون في المشرق والمغرب وهي التي شرحها كثير من أدباء المشاركة ، كابن نباتة والصفدى .

وشرح ابن نباتة قد طبع في مصر مراراً . وهو في غاية الحسن ونهاية الفائدة . وأما شرح الصفدى لهذه الرسالة فلم يصلنا . على أن ابن عيسدوس لم يثن عن محاولته . حتى تمكن من إيقاع الجفوة بين ابن زيدون وولادة ، واستأثر بها دونه ، فاغتاط ابن زيدون والتجأ إلى قريضة الفارص ، فسمع الرجل بقوله :

« أكرم بولادة ذخرا لمذخر لو فرقت بين يبطار وعطار

قالوا أبو عاصم أضفى يلم بها قلت الفراشة قد تدنو من النار

عيرتمونا بأن قد صار يخلفنا فيمن نحب وما في ذاك من عار

أكل شهى أصبنا من أطايبه بعضاً وبعضاً صفحنا عنه للفار .»

واقعد فاز ابن زيدون ببناء . من إقصاء الفار عن حماه . بل أن ولادة أخذت تبعث بذلك الوزير . حتى لأنها صرت به ذات يوم في تربها وسربها ، وكان الوزير ابن عيسدوس جالساً على داره يستنشق الهواء العليل ، وكانت أمام داره بركة تجمعت فيها مياه المطر ، وانساق إليها حتى من أقدار الدار . وكان الوزير

جالسا في أبيته وعظمته وقد نصر كية ، ونظر في عطفه ، وحشر أعوانه إليه . فلما قربت منه ولادة نادته باسمه ، فنهش إليها وبش ، واقترب من البدر فقالت له وهي تنبئ إلى البركة : يا ابن هيدوس :
« أنت الحبيب وهذه مصر فتصدقنا فكلنا كما بجر . »

ثم نفرت كالظي الشارد وتركته حائراً باثراً . باهتاً صامتاً ، لا يحير جواباً ، ولا يبي خطأ ولا صواباً ، وهذا البيت لأبي تواس تمثل به ولادة ونقلته هذا النقل الحسن من المدح إلى الهجاء .
غير أن هذا الوزير صبر حتى خلا جو قرطبة من ابن زيدون فاستأنثر بولاده وعاش وعاشت حتى بلغنا الثمانين وهما يتراسلان ويرتمان في بساتين الأدب ورياض العفاف .



لم يبلغ ابن زيدون الخامسة والعشرين من عمره حتى نبه ذكره ، وعمّ صيته . اصططنه أبو الحزم بن جهور المتغلب على قرطبة ونواحيها وضواحيها ونوه به لأنه رآه في الآداب ، وعمدة الطرف . والشاعر البديع الوصف . ولما له بقرطبة من الأثوة السنية ، والوسامة والدراية ، وحلاوة المنظوم ، وقوة العارضة ، والافتنان في المعرفة ، فكانت الكتب تنفذ من إنشائه إلى شرق الأندلس فيقال : تأتي اشبيلية كتبها بالنظم الخطير ، أشبه منها بالمشور . ثم ترقى في وظائف الدولة القرطبية حتى صار إليه النظر على أهل الدمة . ثم رآه ابن جهور أملاً للوزارة فراه إليها . بل جعله ذا الوزارتين ، فكان منه بمنزلة السميع والوزير والمشير والسفير . فكم أفذه إلى ملوك الطوائف لأور سياسية . ولحبارات تقتضيها المعاملات والمجاملات التي التي يوجبها ، أو يدعو إليها علاقاتهم أو مع ملوك الأسبانيين الذين كانوا يترصدون به وبهم دوائر السوء . فأحسن ابن زيدون التصرف في ذلك . وغلب على قلوب الملوك . حتى كان كل ملك يخطب وده . ويحتج أن يقيم عنده . ولكنه بعد انضاء مهمته يرجع إلى صاحبه بقرطبة وإلى مجالس أسرته بها . وهو به بأهلها في ذلك الوقت المضطرب بالته الداخلية والخطوب الخارجية . كانت الجاسوسية لها أثر في مصالح الدولة ، وفي أحوال الأفراد .

ترك أمور الدولة وسياساتها جانباً . وتقتصر على الدائرة التي ارتضينا لأنفسنا الجولان فيها وهي ميدان الأدب .

ونذكر حكاية تدل على الجاسوسية الفردية في تلك الأيام .

كانت بقرطبة جارية تمسك قتي من الفرشيين . وكانت لوجدها كاتمة . ولكن الخبر وصل إلى الوزير ابن زيدون ، فلم يعبأ به لأن القوم كلهم كانوا متفلقين في هذه السبيل .

وكانت الجارية تقول الشعر فجاشت نفسها بيت فذ وامتنع عليها ما تريد . وهذا البيت هو :

« يا معطى عن وصال كنت وارده هل ملك لي غلة إن صحت : واعطى . »

جاءت إلى كبير الوزراء . وأمير الشعراء . وسأله أن يزيد عليه شيئاً وهي تظن أنه لا يعلم بما هي فيه من الغرام . فأملك القرطاس واغتم فرصة الروى ، وما يعلمه من السر المظوى ، فكتب :
« كدوتني من ثياب السقم أسبغها ظلاماً وصيرت من لطف الضنى فرقى . »

.....

« جفني إذا التدت الأجفان طيب كرى جفا المنام وصاح الليل يا قرصى . »

ومن تأمل أحوال الأندلسيين رأى أنهم كانوا يبالغون في التشبه بالعرقين في كل ما اشتهروا به أو اشتهر

من أحوالهم ، فدائنهم وعمائرهم وقصورهم ومنازلهم سموها بما اختاره الشرقيون في بلادهم كذلك حاكمهم في مجالس أسهم . وأما أقصر على ما يتعلق بابن زيدون وصحبه ، وأمهّد لذلك عما كان في بغداد . كان في دار السلام الوزير المهلب المشهور ، والناضي التنوخي ، وقد بلغا من الكبر سناً عالياً . ولهما ذقون بيبضاء تنهال على صدورهما ، وكانا يتعاطيان في النهار أمور الدولة بماية الحشمة والوقار . حتى إذا جنّ الليل اجتمعا في مجلس المقار ، فكأما يعمران في أواني من البلور والنضار ، ولا يكتفیان بلدة الشراب ، بل يفسان أذقانهما في الأواني ، ثم يرش كل منهما الشراب بتلك الرشاشات الغريبة على صاحبه لتم لهما لذة السكر حسا ومعنى . باطناً وظاهراً ، ويستمرّان على ذلك طرفاً من الليل . حتى إذا جاء الصباح عادا إلى أشغالهما ، الوزير في تدبير الدولة ، وفاضي القضاء في النظر في الحصومات ، والحكم على منتضى الشرع ، واستمرّا على هذه الحال في معاقرة المدام ، حتى وافاها الحام .

فاسمعوا نظير ذلك في خرطبة . كان القاضي أبو بكر بن ذكوان ، من الجلالة باسمي . كان ، أدركته حرة الأدب ، وله في العلم باع طويل ، وكان يقشبه في خلوته مع ابن زيدون ، بالناضي التنوخي مع الوزير المهلب ، وهناك ما شئت من دطابات ورقاطات ، وما تخيلات من وكاهات ومجانبات ، حتى إذا أصعبا ، ذهب ذو الوزارتين إلى شأنه في ديوانه ، وبكر أبو بكر إلى مجلس الحكم بمنتهى الحق ، ومتى اقترب المساء عادا إلى النصف ، وتجاوزا في ميدانها كل وصف ، إلى أن سطا الدهر على أبي بكر .

واتفق أن سرّ ابن زيدون يوماً بامر ابن ذكوان في لمة من إخوانه ، وجاء من عمار ميسدانه ، فسطفوا عليه . فقام أبو الوليد بن زيدون مرتحلاً :

« انظر لحال السرو كيف تحال . . . الخ »



ففي أديب حر يصل إلى هذه المكاة قبل أن يصل إلى الثلاثين من العمر ، فكيف لا يكون كما كان المتنبي حرب الزمان والدمر . نعم فقد دبت عقارب الفيرة بينه وبين حاسدي نعمته وسعاداته ، والمناظرين والأنداد فتألبوا عليه وتآسروا حتى انتهوا بإياعه في شراكمهم ، ونجحوا لدى الأمير ابن جمهور فحبسه حبساً طالت مدته ، فكانت تلك السجون مثارا لشجونيه ، فبعد أن صاغ لبني جمهور ولاسيما لأبي الحزم قلائد وخرائد ، كتب إليه من السجن أشعاراً ورسائل مختارة ، فاضت بها نفسه في التئصل والاعتذار والاستشفاع والاستعطاف ، ولكن المراجحين له على مركزه في الدولة ، وعلى حب ولادة كانوا دائماً يفوزون ، فبقى في السجن مدة تنيف على الخمسة يوم .

كتب لابن جمهور تلك الرسالة البديعة التي طبعها أحد المستشرقين في سنة ١٨٨٩ . وهي التي شرحها العلامة صلاح الدين الصفدي .

ولقد زارته أمه في سجنه . فحانها دمعها ، فقال يخاطبها من قصيدته اللامية التي وجهها إلى ابن جمهور مستعطفاً :

« ألم يأن أن يبكي الغمام على مثلي . . . الخ »

وما ألفت وصفه لنفسه ولوشاته في إحدى قصائده الطناتية :

« كان الوشاة — وقد نيت بافكهم — أسباطاً بمقرب وكنت الدنيا . »

هذه الأحوال مضافة إلى مص كبيرة تنب في مراددا الأبدان ، شبت رأس ابن زيدون وجعلته مرما قبل

الأوان ، فقد رأى الشيب في رأسه و عارصيه . وبكى على نفسه وقال من قصيدة أخرى يستمطف بها ابن جهور أيضا :

« لم تطو برد شبابي كبرة وأرى برق المشيب اعتلى في عارض الشعر

قبل الثلاثين إذ عهد الصبا كشب وللشيبه غصن غير مهتصر . »

وفيها يقول بما يعرف بأنه عارف قدر نفسه :

« أحين رف على الآفاق من أدنى خرس له من جناء يأنع الثمر ؟

وسيلة سبيا إن لا نكر نسا هو الوداد صفا من غير ما كدر . »

فدلنا بذلك على أن الشيب ألم برأسه وبلحيته ، قل أن يصل إلى الثلاثين من عمره . وذلك مصداق لما ذكرناه من أنه بلغ مراتب الملا وهو في سن الفتوة وريضان الصبا ، وذكر الصفدي أنه كان يحنض بالسواد . ثم أنه تحيل في الحرب ونجح . فلما خرج من السحن اختفى بقرطبة وأقام فيها متوارياً ، ثم نظم قصيدة طويلة يخاطب فيها ولادة ويستنهض الأديب أبا بكر بن مسلم للشفاعة ويستنزل أبا الحزم بن جهور وفيها يعرفنا أن مدة حبسه بلغت خمس سنين . قال :

« سنون من الأيام حس قطعتها أسيراً ، وإن لم يبد شد ولا ربط . »

والتصيدة طويلة جميلة جليلة ، ثم إنه مازال بأبي الوليد بن جهور يستشعر به إلى أيه أبي الحزم ، حتى شفع له وانتشله من نكبته وصبره في مصائبه ، ولما ولي الأمر بعد والده توه به وقدمه في الدين اصطنع لدوائه وجلله كرامة لم تقنه ، رعموا . فلا غرابه إذا بكى واستبكى حينما مات أبو الوليد بن جهور الذي أذاقه من الحبس والعذاب ألواناً . قد وجد ابن سلام يحط ابن حيان هذه المروية البديعة لابن زيدون و أبي الحزم :

« ألم تر أن الشمس قد صمها القبر الخ »

ولسكتنا نمود إلى ولادة ونقساء هل نرى أبو الوليد ولادة ؟ كلا . بل عاد إلى التودد إليها والتعرب منها ، وكان يذكرها في قرطبة ويراسلها بأشعاره الرائعة القائمة .

ذهب سرّاً إلى الزهراء يتأمل في محاسنها بوصفها بوله :

« لمي ذكرتك بالزهراء مشتاقاً الخ »

ثم أرسله أبو الوليد بن جهور سفيراً إلى حضرة إدريس الحسي بماتة .

فأطال البقاء هناك واقترّب من إدريس وخف على نفسه ، وأحضره بجالس أنسه ، فمت عليه ابن جهور وصرفه عن السفارة بينه وبين أسراء الأندلس فيما يجري بينهم من التراسل والمداخلة .

إلى هنا انقضت أيامه في قرطبة ، فلقد خشي أبو الوليد أن يلاقى من الوليد ما لا يراه من والده . وحينئذ صحت عريته على الهجرة من قرطبة والذهاب إلى المعتضد بن عباد بأشبيلية .

فلامه بعض إخصائه على ما اعتزمه من التحول عن وطنه وهجر أهله وخلاته ، فكتب إليه رسالة ضافية بمقتضى نيتها لنفسه ويتول من جعلتها مانعه :

« وكنت أول حبسي قد وضعت من السحن في موضع قد جرت العادة بوضع مستورى الناس . . . الخ . »

واسكن ابن زيدون كان قد ذاق من الدهر حلوله وحراره فلم يرض لنفسه بالذهاب إلى إشبيلية دون أن يكون على ثقة من أمره . فلذلك كتب رسائل بديعة إلى بعض المربين من المعتضد ، ثم إلى المعتضد نفسه ، يمهّد السبيل إلى الهجرة . حتى إذا تحقق أنه سيتنزل في إشبيلية على الرحب والسعة أزمع الرحيل إليها ، وكان ذلك في سنة ٤٤١ للهجرة .

واتفق في وقت فراره من قرطبة إلى إشبيلية أن صادقه عيد الأضحى ، فرأى الناس متهجين بالعيد ، وهم يتزاورون ويتبادلون التهاني ، وهو شريد طريد ، ففأست بعينه بوصف حاله :

« خليلي لا فطر يسر ولا أضحي الخ »

فلما وصل إشبيلية . نزل على كنف المعتضد ، وأصبح من خواصه ومحابته يحالسه في خلواته ، ويرسله في مهم ومثله ، وولاه الوزارة وحفظ له لقبه « ذا الوزارة » .

كان المعتضد جعل مجلسه محظا من مجلس ابنه وولى عهده المعتضد بن عباد فكتب المعتضد لابن زيدون :

« أيها المسحط عني مجلسا وله في الدس أعلى مجلس

بفؤادي لك حب يقضى أن ترى تحمل فوق الأرواس . »

فأجابه ابن زيدون يشكره :

« أسقيط الطل فوق النرجس أم سيم الروض تحت الخدس ؟ »

ولكن هل أساء ذلك ولادة ومحاسنها . أم قرطبة ومساكنها ؟ كلا فلم يزل صاحبها مشغولاً بهذه وبذلك وأشعاره أكبر دليل على ذلك . فكما كانت له فرصة ، أو مزية نشوة ، قال فيها أقوالاً تذيب المواد . فلقد تشوق إلى قرطبة وسأكنها بقصيدة تدل على حنينها ولمن فيها ، فقال :

« على أئيب الشهيد مني تحية الخ »

وكان يبلغه عن بني جمهور ما يسوءه في نفسه وفرائده في قرطبة ، فقال يحاطبهم :

« بني جمهور أحرقتكم بجفائكم مؤادي ! فما بال الدماخ تعبق

تعدوني كالسبر الورد إنما تنوح لكم أنفاسه حين يحرق . »

وأما أمداحه في المعتضد بن عباد فتشبه كثير جدل .

وقد كتب عنه إلى صهره الموفق أبي الحيث بن مجاهد العاصري صاحب دابة الجزائر الشرقية المعروفة

الآن بجرائر البليار :

« عرفت عرف العيا اذهب عاظمه الخ . »

قلت فيما تقدم إن ملوك الطوائف كانوا منقسمين على أنفسهم ، وإن الحرب كانت دائرة بينهم فإليكُم مثالا واحداً مما يتعلق بابن زيدون ، وذلك أن أخرب وقت بين المعتضد صاحب إشبيلية ، وبين ابن الأفطس صاحب بطليوس ، فالتزم ابن الأفطس هزيمة فنيعة ، وخسر خساره جسيمة ، فقال ابن زيدون يعني المعتضد :

« لبني الهدى إنحاح سعيك في العدا الخ . »

هذا مع أن ابن زيدون سبق له مدح ابن الأفطس بمدحة شراء في قصيدته التي يقول فيها :

« لبيض الطلي ولسود اللعم الخ . »

ولا غرابة في ذلك ، فالملك عقيم ، وتصاريف السياسة تقضى بالتغيير من حال إلى حال . خصوصاً إذا انقسمت أمة من الأمم على نفسها وخاضت في غمار الخطوب والعقن ، وفوق ذلك ، أفليس القلب من مديح إلى هجاء ومن ملام إلى سلام ، هو سجية من سجايا التمرأ الكرام وغير الكرام .

فلما مات المعتضد بن عباد وتولى الملك ابنه المعتضد بن عباد كان لابن زيدون عنده تلك الكرامة وهذه الحفاوة ، تدل على ذلك شهادة التاريخ وبؤبدا قول ابن زيدون نفسه في وثاء المعتضد ومحاطبته روحه بعد دفة :

«أعباد ! يأوفى الملوك لقد عدا ، عليك زمان من سجيته الغدر.» الخ

ومن المعلوم أن ابن زيدون هو الذى دبر دولة المعتضد وأظهر صوابه وأغراه بأعدائه ، وزين له الابتاع بحاله ووزرائه . فمدا شجعا فى صدورهم ، ونكدا فى سرورهم . فلما آل الأمر إلى المعتضد ، قام حساده وخصومه وسعوا لديه فى النكايه به ، ثم رموا إليه برقعة فيها قصيدة طويلة أولها :

« يا أيها الملك العلى الأعظم اقطع وريدى كل ماغ ينثم !

واحسم بسيفك داء كل مناقب بدى الجليل . وضد ذلك يكتم ! »

وهى قصيدة طويلة تتألف من ٢٧ بيتاً كلها اغواء بابن زيدون على سبيل التصريح المفهوم . ولكن المعتضد كان أعقل من ابن جهور . فلم يصغ لذلك الحيلة ، ولم تنفع لديه تلك السمايه فقال فى صدم وردكيدم فى محرم :

« كذبت مناكم : صرحوا أو جعجعوا الخ . »

فلما بلغ ابن زيدون ما راجعهم به ، وتحقق حسن مذهبه ، وعلم أن حيلتهم قد أخفقت ، وسمايتهم مانفتت ، وسهامهم تبرعت ، ومكائدهم تبددت وتوزعت ، قال يمدح المعتضد ويعرض بأعادييه بقصيدة طويلة مطلعها :

« الدهر إن أملى فصيح أعجم الخ . »

واستقرّ المعتضد به فى وزارته ، وكان أحد وزرائه الثلاثة الأكابر المشاة وزارتهم . (أى أحد الثلاثة الذين يلقب كل واحد منهم بدى الوزارتين) والآخران هما ذو الوزارتين ابن عمار ، وذو الوزارتين ابن خلدون (جد صاحب التاريخ المشهور) .

خرج الثلاثة فى أحد الأيام من إشبيل إلى منطرة (قصر خلوى) لى صاد بموضع يقال له القنت (تقريبا لقطع اسانى) وهو منتزه تحف به سروج مشرقة الأنوار ، متنسمة الأنجاد والأغوار ، متبسمة هن تعور النوار فى زمان ربيع سسقت الأرض السحب فيه بوسمها ووليها ، وجعلتها فى زاهر مليسها وباهر حليها ، وأرداف الربى قد نأزرت بالأزر الحضر من نباتها ، وأجباد الجداول قد نظم النوار قلائده حول لباتها ، وبجاسر الزهر نعطر أردية النسائم هند هباتها ، وهماك من البهار ، مايزرى على مداهن النضار ، ومن الترجس الريان ، مايزراً بنواص الأجنان ، وقد نوروا الانفراد للهو والطرب ، والتنزه فى روضى النبات والأدب ، وسعوا صاحباً لهم يسمى «خليفة» هو دوام لذتهم ، ونظام مسرتهم ، ليأتبهم بنبيذ يذهبون الهم يذهب به فى لحين زجاجة ، ويرمونه بما يقضى بتحريكه للهروب عن الدلو ولامزاحه ، فجلسوا لانتظاره ، وترقب عوده على آثاره ، فلما بصروا به مقبلاً من أول الفج بادروا إلى لغائه وسارعوا نحوه . واتفق أن فارساً من الجند ركب فرسه قصده ، ووطئ عليه فنهشم أعظمه ، وأحرى دمه ، وكسر قصال (١) النبيذ الذى كان معه ، وفرق من شملهم ما كان الدهر جمعه ، ومضى على غلوائه واكفأ حتى خفى عن العين ، خائفاً من متعلق به يحين بتعلقه العين ، وحين وصل الوزراء إليه تأسفوا عليه وأفاضوا فى ذكر الزمان وهذوانه والحطب وألوانه ، ودخوله بطوام المضرات ، على تمام المسرات ، وتكديره الأوقات المنعمات ، بالآفات المؤلمات ، فقال ابن زيدون :

« أنلهو والحتوف بما مطيعة ونأمن والمتون لنا مخيفه »

فقال ابن خلدون :

« وى يوم وما أدراك يوم مضى قصالنا ومضى خليفة »

(١) القمصال كلمة يستعملها المغاربة والأندلسيون بمعنى جرة النبيذ ، وهو لئام من الفخار .

فقال ابن عمار :

« هما غارتا راح وروح تكسرتا فأشفاق وجيفه »

ولابن زيدون مدائح في المعتمد بن عباد كلها درر وقرر ، وآيات بينات ، وله معه مداهبات ومطارحات ومساجلات ، فتارة يشوقه إلى تعاظم الحيا في قصوره البديمة ، وتارة يرسل له التماح ويكتب عليه الأشعار ، يدعو به إلى تناول العنار ، وتارة يهنيه ، وأخرى يمدحه ، وله بيتان قد بلغا حد الإبداع في هذا الباب . قال يخاطبه :

« مهما امتدحت سواك قبل فاعلم مدحى إلى مدحى لك أستطرد »

يفضى الميادين الفوارس حقبة كيما يعلمها النزال طراد »

فما أحسن هذا التوصل بالتمرن على المديح ، حتى إذا أجاد وبلغ المراد أهدى ثمرته إلى ابن عباد . هذه قطرة من بحر من بحر شعر ذلك الفرد ، وأما نثره فشيء بعيد حصره ، ومما يجمله كثيرون أنه ألف كتابا في التاريخ وجمله ابن حرم من مفاخر الأندلس ، وقال إن أبا الوليد بن زيدون ألف كتاب التبيين في خلفاء بني أمية بالأندلس على منزع كتاب التبيين في خلفاء المشرق للسمودي ، وقد نقل صاحب «مع الطيب سطرأ أو سطرين عن هذا الكتاب الذي لم يبق له أثر ولا عين .

وما زال ابن زيدون يشوق لقرطبة ولمن فيها ويعمل لدى المعتمد بن عباد حتى جعل قرطبة منتهى أمله . فسمى في مداخلة أهلها . ومواصلة ذوى الكرم فيها لأنه رأى عدم العائدة والمكاييد لاستمساك أهلها بدعوة الخلافة وأفتهم من زوالها عنهم وانطماس رسومها في بلدهم ، فلما فاز بالمرام وانتظمت تلك العاصمة الضخمة في ملكه ، ذهب إليها مسرعا واهتم بتدبير شؤونها ، هنالك جاشت نفسه بالفر على سائر ملوك الطوائف قال : « من الملوك بشأوا الأصيل البطل الخ . »

أما ابن زيدون ، فقد عاد قرير العين إلى وطنه وأهله ، وكانت له شيع كبيرة في قرطبة ، فارتفع جده ، وزاد لإقبال الدنيا عليه وبلغت خطوته عند المعتمد درجة لا يطعم فيها .

حينئذ سمي في هلاكه صاحباه ، ابن مرتين وابن عمار ، وتلقا في إمامه وإبعاد ابنه من بعده ليحلوا لها الجوى ، ولينمردا بالاستئثار بابن عباد ، ولقد ساعدتهما الظروف .

وقد وقعت فتنة في إشبيلية واضطرت ابن عباد للتعجيل بإرسال جيش كثيف إليها تحت قيادة ابنه سراج الدولة بن عباد ، فسول ابن مرتين وابن عمار لابن عباد أن يرسل ابن زيدون مع سراج الدولة وتلقا في تفهم السلطان أن دهاب ذى الوزارتين فيه حقن للدماء ، وحفظ للنظام ، لما له من المسكنة العالية والجاه الرفيع ، ولأنه محبوب لدى جميع القلوب ، ثم وسوسا له بأن المصلحة لكل المصلحة هي في وجود ابن زيدون الوزير العاقل المدرب المحك المحبوب بجانب سراج الدولة الذي هو قرّة عين الملك ، ومطمح الأنظار لبقاء البيت المبادى ، وما زال الرجلان ينسجان على هذا المنوال حتى أفلحا خصوصا لعياض ابن زيدون في مرض أزمه البيت .

صدر إليه الأمر بالذهاب ولم يعذره السلطان في التوقف لما به من الآلام ، فخرج منها مع الحاجب سراج الدولة بن عباد والجيش متوجهين إلى إشبيلية ، وكان ذلك يوم ١٣ ذى الحجة سنة ٤٦٢ ، وحلف في قرطبة ابنه الوزير الكاتب أبا بكر بن زيدون ، ولكن صاحبينا (ابن مرتين وابن عمار) مازالا يميلان لدى ابن عباد حتى صدر الأمر إلى أبي بكر بن زيدون أيضا بأن يلحق بابيه في إشبيلية .

حينئذ خلا لهما الجو فاستأثرا بالأمور كلها وانفردا بتدبير الدولة بلا مشارك لهما في أهوائهما ولا معارض

لهما في اغراضهما ، وكان روال دولة ابن عباد كان مقداراً على يد هذين الرجاين فان مرتين ، يكنى في التعريف بمرايه أنه ابن مرتين أى أنه من أصل غير عربى ، فان جده رجل إسباني ، وأما ابن عمار فقد أنكر فضل ابن عباد ، وشق عصا طاعة ، وسمى في المساد والحراب ، وخرق اليهود ، وخان وأثب ابن عباد حتى أوهى دولته ، على ما هو معروف مشهور .

أما ابن زيدون وهو في إسبيليه ، فلم يزل الأندلس به مدحاً حتى أبه به ، فكانت له جاء ليكشفه ويدفنه بها في صدر رجب سنة ٤٦٣ ، حيث قد تولى منه كهل أن يخاف الدهر مثله جنالاً وبياناً وروعة وظرفاً .

وهو عند أول التحقيق في النظام آمد طما ، وأحث عناء ، فلا يلحقه تقصير ، ولا يعشى وهناً ، ولما وصل خبره إلى قرطبة ، وله فيها تشرة كبيرة وأشياء كثيرة ، تنازعه وحرثوا عليه لأنه كان منهم ، هاوياً إليهم ، حذا عليهم ، وليحه خير بينهم وبين سلطانهم اخذت الولاية .

فأراد السلطان أن يترصاه فأرسل لابنه (أى أى بكر ابن زيدون) وقرنه إليه ، ورقاه في مراتب والده حتى أحاطه بلورارة وقد اثنى هذا مرصه ما وقع من دى الوردتين ابن عمار من الخروج على ابن عباد فأوغر صدر ابن عباد عليه ، وما زال يعمل لديه حتى كان سباً في هلاك ابن عمار على ما هو معروف مشهور .

اتمنى الكتاب



تم طبعه « بشركة مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده » في يوم الخميس ٢ ربيع الثاني سنة ١٣٥١ (٤ أغسطس سنة ١٩٣٢) م

مدير المطبعة

مستم مصطفى الحلبي

فہرست

القوافي من ديوان ابن زيدون^(١)

صفحة	حرف الألف	صفحة
٢٥٣	لأنت الذى نفسى عليه تذوب	٧٥
٢٥٩	يا قرالديوان ، والموكب	٧٧
٢٦٤	يا راحتى وعذابى	(٧٧)
٢٦٩	قد ضاق نى - فى حبك - المذهب	٢٢٩
٢٦٩	سوى أنى محض الهوى صادق الحب	٢٦٠
٢٧٣	أم لساكيك طبيب	(٢٨٥)
٢٧٥	وما فى الحق غصبي واجتئنانى	(٣٨٧)
٢٧٦	يا ليت غائب ذاك العهد قد آبا	حرف الباء
(٢٨٦)	(يختطف الناس عن قريب)	١٩
(٢٨٧)	(وما أجتماعا ولا اقترقا إهاب)	٣٤
(٢٨٩)	(عن اليان فكنونى أبا العجب)	٤٠
(٣٢٥)	(فقلت لهم إن الشكول أقارب)	(٤٠)
(٣٧٠)	(نادى لفقد حبيب النفس واحربا)	٦٠
(٣٧١)	(رقد صا دنى طرف كحيل وحاجب)	٦٩
(٣٧١)	(وبجر له فى المكرمات عباب)	٩١
(٣٧٢)	(وللقب - فى حين الذراء - وجيب)	(٩٦)
(٣٧٨)	(ومن يلتذ غفران الذنوب)	(١٧١)
(٣٧٩)	(فأمضى عزمى أم أعوج مع الركب)	(٢٣٠)
(٣٨٥)	(ورد تلقك العتى حجابا من العتب)	

صفحة

فهز - من الهوى - عطف ارتياحي ١٥٨
وَأَنْتَ عَلَى الزَّمانِ مَدَى اقْتِرَاحِي ٢٦١
(وَأِنِّي فِي سُلُوكِ فِي انْتِزَاحِ) (٣٧٣)
(أَمْدِيكَ يَا فِتْنَةَ الْجَنَانِ وَالرُّوحِ) (٣٧٣)
(أَصْبَحَ قَلْبِي بِهِ قَرِيحًا) (٣٧٨)
(وَعَذْرُكَ إِنِّ عَاقِبَتِ أَجَلِي وَأَوْضَحَ) (٣٨٤)
(لِنَقْصَرِ عَنْهُ طَوَالَ الرِّمَاحِ) (٣٩٣)

حرف الدال

(مُجَادٌ بِالْقَهْوَةِ وَالْوَرْدِ) (٣٩٢ و ٦٠)
(فَكَابَوْهَا وَلَكِنْ لِلْأَعَادِي) (٦٨)
وَلَمْ تَجْهَلِ مَحَلَّكَ مِنْ فَوَادِي ٧٤
فَلِلَّهِ مِنْ أَجْلِ الشُّكْرِ وَالْحَمْدِ ٧٨
(قُلْتُ : أَمْرَانِ هَيْنَ وَتَشْدِيدِ) (٨٦)
وَقَدَّتْ خَيْرَ وَافِدِهِ ١٦٥
مِهَادَ حَمَتِهَا - فِي مَرَاتِعِهَا - أَسَدِ ١٧٧
لَوْ سَاعَفَ الْكَافَ الْمَشُوقُ مَرَادِ ١٩٧
(وَأَنْتَ أَمْرٌ عَافِي أَنَا لَكَ وَاحِدِ) (٢٠٤)
(ضَرَبْتَ عَلَى الْأَرْضِ بِالْإِسْدَادِ) (٢٠٦)
(جَهْلًا بِنَا وَوَلَدْتَ عَبْدًا) (٢١٠)
(يَفْخَصُنَ بِالْمَعْرَاءِ شَدَا) (٢١٠)
(وَلَا نَرَاكَ صَنَعَ اللَّهُ نَحْوَكَ وَأَغْتَدِي) (٢١٦)
(مَاطِلٌ فِيهِ سَمَاكِي وَلَا جَادَا) (٢١٩)
كَالشَّرَابِ الْعَذْبِ فِي نَفْسِي الصَّدَى ٢٢٣

صفحة

(أَرْمَاحُ قَوْمِي بِالْعِدَاةِ لَوَاعِبَا) (٣٩٣)
(كَفَاهُ بَخَلَّتِ السَّحَابِ) (٣٩٥)
(يَرْتَاحُ فِيهَا بِأَصْطِيَادِ أَرَانِبِ) (٣٩٦)
(رَجَاكَ عَلَى بَعْدِ فَأَصْبَحَ ذَا قَرَبِ) (٣٩٦)
(وَمَا أَحْصَى صَوَابِهِ) (٣٩٩)
(ذَهَبُوا مِنَ الْإِغْرَابِ أَبْعَدَ مَذْهَبِ) (٤٠٠)

حرف التاء

وَقَدْ خَفَقَتْ فِي سَاحَةِ الْفَصْرِ رَايَاتِ ٦١ و ٣٩١
وَأَعَزَلَ عَنْ رِضَاكَ وَقَدْ وَلِيَتْ ٢٦٦
(جَدَاوِلُ مَاءٍ أُرْسِلَتْ فَاسْبَطَرَتْ) (٢٠٩)
(لَيْسَ مِنَ الْوَحْشِ وَلَا النَّبَاتِ) (٢٨٧)
(عَنْ فَوَادِي دَجَنَةِ الْكَرْبَاتِ) (٣٩٢)
(وَلَدَنِي مِنْ مَنَايَاهُنَّ غَايَاتِ) (٣٩٩)

حرف الثاء

وَأَوْفَى لَهُ بِالْمَهْدِ إِذْ هُوَ نَاكِثِ ٢٧٧

حرف الجيم

(قَلَمِي لَهَا أَحَدُ الْبُرُوجِ) (٣٨٩)
(يَا بَدْرَ الدِّيَاحِي) (٣٩٢)

حرف الحاء

فَمَا حَالُ مَنْ أَمْسَى مَشُوقًا كَمَا أَضْحَى ٥٤
نَصْبِي ، وَإِعْطَافِ نَشَاوِي صَوَاحِ ٨٩
(وَأَخَذِي الْحَمْدَ بِالْتَّمَنِ الرِّبِيحِ) (٩٦)

صفحة	صفحة
(٣٩٠)	٢٢٣ فالقلب منهمن والاحداق والكبد
(٣٩٤)	٢٤٩ ادناءك الأمل البعيد
(٣٩٥)	٢٤٩ وهادما بكل وجد
(٣٩٩)	٢٥٠ وأقبس هديك نور الهدى
(٤٠٠)	٢٥٣ لديك فاشكو بعض ما أنا واجد
	٢٦٢ وزهدت فيمن ليس فيك بزاهد
	٢٦٤ يا سوء ما لقي الفؤاد
	٢٦٨ وأصابتك بآلم أرد
	٢٧١ ثم امتزجت امتزاج الروح بالجسد
	(٢٧٤) وبلفت من ظلمي المدى
	(٢٧٨) وواصل حبلى صدى
	(٣١٧) (وإن النوى عارية فتزود)
	(٣٢٦) (وتعتري ذات يوم تبترد)
	(٣٧١) (إذا خفيت طرق العرائس عن أسد)
	(٣٨٥) (متى يختبر غيبه محمد)
	(٣٨٦) (وفي خلدي ما فيه من لوعة الوجد)
	(٣٨٦) (فتفك عنه للأسى أصفاد)
	(٣٨٧) (وحاضرة في صميم الفؤاد)
	(٣٨٧) (وكان ساعدك الوثير وسادى)
	(٣٨٨) (كواكفات الغوادر)
	(٣٨٩) (فلا جعلن مكانه وردا)
	(٣٨٩) (وكم عفى عن دار أهيف أغيد)
	(٣٨٩) (فعض به تفاع وأجتني وردا)
	(٣٩٠) (ولا وجدت من أخطوب النوى بدا)
صفحة	
(٣٩٠)	فالقلم منهمن والأحداق والكبد
(٣٩٤)	(ورود الكرى بعد طول السهاد)
(٣٩٥)	(وقرة ناظر المجد)
(٣٩٩)	(أسود - لهم فيها - وآساد)
(٤٠٠)	(خف القطين وجف الزرع بالوادي)
	حرف الراء
(٣٣)	(ملكا يحسنه الخليفة جعفر)
٣٨	لما جرت بالذى تشكوه أقدار
٥٨	كمثل هواى فى حال الجوار
٦١	وأمرضت حسادى، وحاشاك أن تبرى
٩٢	إلا ذكرتك ذكر العين بالأثر
(٩٢)	(إما من الطول أو من القصر)
٩٨	وفاضح الرشأ الوسنان إن نظرا
١١٩	مضمخة الأنفاس طيبة النشر
١٤٠	فمن شيم الأبرار - فى مثلها - الصبر
١٥٠	وأن قد كفانا فقدنا القمر البدر
١٥٢	عذارى دونه ريق العذارى
١٦٨	واطلع كما طلع الصباح الزاهر
١٧٠	غصن أثمرت ذراه بدر
١٧٤	فمن شيم الأبرار فى مثلها الصبر
(٢٠١)	(بأن المرء لم يخلق صباره)
(٢٠٥)	(تروح بالخورنق والسدير)

صفحة	صفحة
(٣٧٦) (وقصرت أعمار العداة على قسر)	٢٤٤ ما أبرزته غرائز الفسك
(٣٧٦) (وقد زهرت فيه الأزاهر كالزهر)	٢٤٨ وقربك من دون البخور معطر
(٣٧٧) (ماذا يفيد عليك البعث والحذر)	٢٥٤ واجتل التأيد في أبهى الصور
(٣٨٠) (والنجم قد حصر العنان على السرى)	٢٥٩ إلى أن بدا للصبح في الليل تأثير
(٣٨٧) (ومن منال قصى السؤل والوطر)	٢٦٧ قلبي عليك يقاسى الهم والفكرا
(٣٨٩) (بإبصاره الغرة الزاهره)	٢٦٨ واختيارى إن أخير
(٣٨٩) (ووجهك أملح في ناظرى)	٢٧٢ لا كتفين بساع الخبر
(٣٩٠) (والوجد قد جل فما يستر)	٢٧٢ وارضى بتسايمك المختصر
(٣٩٢) (وأقترن الليل بالنهار)	٢٨١ مدى الدنيا مظفر
(٣٩٣) (وقنعت وجهك بالمغفر)	(٢٩٨) (وعشرته مشكورة وعشائره)
(٣٩٤) (كفى به فدعاني فضله الظافر)	(٣٠١) (حرف لفصل اللفظ مقدور)
(٣٩٦) (يسرى إلى غرته السارى)	(٣١٧) (ويمق من المال الأحاديث ولذكرك)
(٣٩٦) (ولم ألف في بحر نعماء زجرا)	(٣٧١) (غرست أشجارها مستجزل الثمر)
حرف السين	
١ يجرح الدهر ويأسو	(٣٧١) (فيها السرى إلا برأى مقمر)
(٩٣) (للشيب غدرا في النزول براسى)	(٣٧١) (ووصل كظل الروض تعطيكه نورا)
٩٨ وقد آن أن تترع الأكوس	(٣٧١) (يناقضه سنا البدر)
١٠٦ أطول عمر يبهج الأنفسا	(٣٧٣) (إلى أن بدا للصبح في الليل تأثير)
١١١ ويظلم لى النهار وأنت شمسى	(٣٧٣) (ويقصر أن لاقيتها أطول الدهر)
(١٩٣) (بها أثر منهم جنى ودارس)	(٣٧٤) (من أفق من أنا في قلبي أشاطره)
(٢٤٧) (أم نسيم الروض تحت الحندس)	(٣٧٤) (وتصبر عنه ولا يصبر)
(٢٩٧) (وارع إذا المرء أسا)	(٣٧٥) (ومقلة تنفث بالسحر)
	(٣٧٥) (وإن فؤادى - والإله - صبور)
	(٣٧٥) (ويأمرنى ، إن الحبيب أمير)

- صفحة
 ١٨٤ بنعيك أن الدين من بعض ما نعى
 (٢٠٩) (تفرع لمتى شيب فظيع)
 (٢١٠) (وهز المشرفية والوقوع)
 ٢٦٣ ومشير كامنة الدموع
 ٢٦٥ محضا ولا م به الواشى فلم أطمع
 ٢٧٠ وسبيل الهوى وقصد الولوع
 (٢٧١) أناديك لما عيل صبرى فاسمعى
 ٢٧٩ سر إذا ذاعت الأمرار لم يذع
 (٣٧٨) (ويا واحدا فاق الخلاتق أجما)
 (٣٢٨) (نفيس لا تمار ولا تباع)
 (٣٧٣) (يعنوله ملك الزمان ويخضع)
 (٣٨٦) (بأن ليس فى حى لغيرك مطمع)
 (٣٨٨) (ألا غفر الرحمن ذنبا تواقمه)
 (٣٩٣) (وشادنا فى مهجتي يرتع)
 (٣٩٧) (وتنهنه القلب الصديق)
 (٤٠٠) (كلما أعطى تدباً نزعا)

حرف الفاء

- لنا، هل لذات الوقف - بالجزع - موقف ٢٣
 (٢٠٤) (تخوفنى الأعداء والنفس أخوف)
 ٢٦٨ أنا مستودع لعلى شريف
 ٢٧٨ ذكرك منى بالأفاس موصول
 ٢٧٩ يا من تناهيت - فى الطافه - نجفا

- صفحة
 (٢٩٨) (بأنس السماع وحس السكؤوس)
 (٣٩٢) (نقى للعدم عن الناس)
 . حرف الشين
 هل منك لى غلة إن صحت «واعطشى» ٢٨٠
 . حرف الصاد
 (فى غير ذلك من الأمور أرخص) (٦٨)
 حرف الضاد
 ٨٢ نشب وافر ، وراه عريض
 ٢٣٧ ونهته اذهدا فاغتمض
 (٣٧٤) (كراكب فى السماء تبيض)
 (٣٩٤) (وهب لنا التغميضا)

حرف الطاء

- وشط - بمن نهوى - المرار وماشطوا ١٣
 حرف العين
 (٢٢) (يوما وصلنى ساءه)
 (٦٦) (وخذ - فيما ترى - أودع)
 ٧٩ ذهب الفؤاد فليس فيه براجم
 (٩٧) (نفيس لا تمار ولا تباع)
 ١١٨ عارض كرب بلطفه رفعه
 (١١٨) (بعقبى الدواء مطامعه)
 ١٣٠ أم فى المئات التى قدمت منتفع
 (١٤٥) (من الدهر حتى قيل لن يتصدعا)

- صفحة
- (٣٨٨) (ومشرقة من خلال الحلاك)
- (٣٨٩) (وتأنس بذكرها في انفرادك)
- (٣٩٢) (فتغيب مسرعة لذلك)
- (٣٩٢) (سكران من خمر اشتياقك)
- (٣٩٣) (فبدا لطرفي أنه فلاك)
- (٣٩٤) (مقالة لم تشب بإفك)
- (٣٩٤) (ومخلفا أعهدكا)
- (٤٠٥) (ولحت من طرق الملاح شباكي)
- (٤٠٨) (ردت الروح علي المضني معك)

حرف الالام

- (٣٢) (رحال عن الباب الذي أنا داخله)
- ٥٧ فديتك واعتززت على ذليل
- ٦٢ أم عهدنا البدر يجتاب الحلل
- (٦٨) (سهام العدا غنى فسكرتم نصالها)
- ٩٩ ومورد هم حيث الدماء مناهل
- (٩٩) (نهال وأسباب المنايا نهالها)
- ١٠٥ تخالط لون المحب الوجل
- (١٠٨) (لَوَ أبصره الواشي لقرت بلابله)
- ١١٢ ويطلب ثأري البرق منصلت النصل
- (١١٥) (فلا تمتصر ماء الصنيعة بالمطل)
- ١٢٠ وحدي - في رجائك - الكايل
- ١٣٩ لا تخش مني نسيانا ولا بدلا

- صفحة
- (٢٩٣) (وصول ليس بالجاني)
- (٣٧٠) (فلست على العلات منها أخاكف)
- (٣٩٣) (فإن الهوى مابه منصف)
- حرف القاف
- (٤٩) (على الصديق والعدو صدقه)
- ٦٠ جناني ، ولكن الدائح تعبق
- (٢٠٠) (وما المرء إلا عهده ومواقفه)
- والآفق طلق ومرأى الأرض قدراقا ٢٥٧
- (٣٧٤) (فنظّل نصبح بالسرور ونعيق)
- (٣٧٥) (كأنه الصبح تحته شفق)

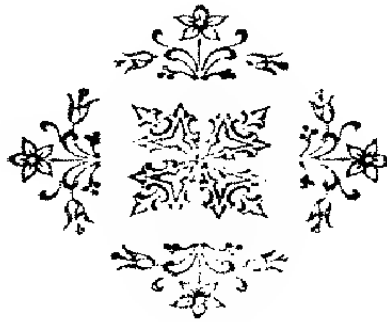
حرف الكاف

- ٩ في سكر الصبا - عطفاك
- ١٢ ذائع من سره ما استودعك
- ١١١ بكل السننا جلالك
- ١٣٦ واطلب فسعدك يضمن الإدراكا
- ١٤٧ دعمهم فشأنهم غير شأنك
- (٢١٧) (كلاهما ذو أنف ومحك)
- ٢٦٦ أم كيف أخلف وعدك
- ٢٧٠ لا تظهرى بخلا بمود أراك
- ٢٧٢ الا بوصل قصرك
- (٣٧٥) (لا تتركنى - هكنا - هالكا)

صفحة		صفحة	
(٣٧٤)	(كل نيل أناله لى قليل)	١٤٩	وحز المنى وتنجز الآمالا
(٣٨٨)	(هيهات جاءكم مهدية الدول)	١٥٣	ولسولة العلياء كيف تدال
(٣٨٩)	(سفها وهل يثنى الحليم الجاهل)	١٦٥	فى المنظر الحسن الجميل
(٣٩٠)	(إلى محب هائم مثله)	(١٦٦)	(والمرء يعجز لا الحويل)
(٣٩٠)	(فشوقى صحيح وجسمى عليل)	١٦٧	كم لها من ألم يدنى الأمل
(٣٩٣)	(وبالسيف والرمح أمضى قتال)	١٦٩	قد لفتح التشوق عن حيال
(٣٩٤)	(منى على خلقك الجميل)	١٩٥	وحال تجنيتك دون الحيل
(٣٩٦)	(قنصت فيها أراننا وحجل)	٢٢٤	ومطلمعها من جيوب الحلل
	حرف الميم	(٢٤٢)	(يا دهر أف لك من خليل)
٣٥	ريح معطرة النسيم	٢٦٩	لقد فقت - فى الحسن - بدر الكمال
٥٠	والمنى فى هبوب ذاك النسيم	٢٦٣	ويشقى وصالك قلبى العليل
٧٦	وعلى أنت بها عالم	٢٤٨	وسوغت دأبا نساء الأجل
١٢٢	بعقلي - مذبذبة - لم	٢٧٥	يا حائر الحكيم أفديه بمن عدلا
١٨٨	يعطى اعتبارى ماحيات فأعلم	٢٧٥	لا ولا ذاك التجنى مللا
١٩٢	إذ العيش غص والزمان غلام	٢٦٩	يملا عيني من تأمل
٢٤١	عن القصد إن أعيالك منه مرام	٢٨٠	يميل - مع الزمان - كما يميل
٢٤٣	علينا أذمة لا تدم	(٢٩٢)	(ولكن على أثر المسير قفولها)
٢٧١	يا من يصح بتقلتيه ويسقم	(٢٩٢)	(وايس عليه فى النكاح سبيل ؟)
٢٧٦	زكت ، وطى وادى العقيق سلام	(٣٧٠)	(ولما يهوى الندامى لفعال)
٢٧٩	قام بك العذر فلا لأثم	(٣٧٠)	(فأنا الذى لست بسال)
(٢٩٢)	(كما باهت بصحبته الكرام)	(٣٧٢)	(إلى أن بدت للصبح فى الليل أعمال)
٣٠٣	ومرويا لكل لهم		

صفحة	صفحة
(٢٢١) (بدور الزمان واسد العرين)	(٣١٧) (من العيش أن يلتقى لبوساً ومطعماً)
٢٦٥ ودعوت من حنق عليك فأمنا	(٣٢٩) (أخت بنى الأكرمين من جشم)
٢٦٧ واستحدث القاب شوقاً بعد سلوان	(٣٣٢) (إلا لتوهن قوة العظم)
٢٧٠ سأحفظ فيك ما ضيعت منى	(٣٧٠) (إلا الظلوم للظلم)
٢٧١ حسب المقيم أنه قد أحسنا	(٣٧٠) (وأوقد فى الأعداء شر ضرام)
٢٧٣ وحططتني ولطالما أعلمتني	(٣٧١) (وقد خلقت لها فى مجلس الكرم)
٢٧٣ وعن تمادى الأسى والشوق سلوانا	(٣٧٤) (فان فؤادى بالمعالى لهائم)
٢٧٦ لو كان سائحى فى وصله الزمن	(٣٧٨) (طعمين منه أرى وسما)
٢٧٨ وقضينا الذى علينا وزدنا	(٣٧٩) (وفى والا مانواح الحاتم)
٢٧٨ من الحسن فنون	(٣٨٦) (يحجب فيه الصلاة والصوم)
(٣٧٥) (يسلو - وإن سئل السلو - ضنين)	(٣٨٦) (أمكن ورد فلا يطل حوم)
(٣٧٦) (فقد فقت للمالك فى معان)	(٣٩١) (وحن أن يتسنى لى بكم حلم)
(٣٨٨) (أروضة مسكية الريحان)	(٣٩٥) (ومتبع الانعام اتاماً)
(٣٩١) (إذ لا كتاب يوافينى فيحيينى)	(٣٩٦) (وستر الله مد على الأنام)
(٣٩٣) (من فارس شهم الجنان)	
(٣٩٥) (من المجد فاحتل غير القرن)	حرف النون
(٤٠١) (أو يرجع القول معناه فيغنينى)	وناب - عن طيب لفيانا - تجافينا ٤
(٤٠٢) (تشجى لواديك أونشجى لوادينى)	ونفى الشك اليقين ٣٩
حرف الهاء	بعت ودى بلائى ٦٨
٢٥٨ انستك دنياك عبدا أنت دنياه	فى حلى الظرف الحسان ١٧٠
٢٦٦ ومستغشاً لنا صحيه	موثقاً فى يد الحن ١٠٨
(٢٨٨) (فاق ذكاء فخاله من شبیه)	(١٠٨) (أصرحنا بذكرك أم كنينى)
	(١٠٩) (إذ لا كتاب يوافينى فيحيينى)

صفحة	صفحة	
	(٣٣٢)	(أن الرؤوس محل النهى)
	(٢٧٨)	(فالأرض تشرق منه)
	(٣٧٩)	(ونعيمه فاشتد به أواره)
	(٣٨٧)	(وعاشق من لا يباليه)
	(٣٨٧)	(وصرفته لما انصرفت عليه)
	(٣٩٣)	(وبكت مقلتاى شوقا إليه)
		حرف الواو
	(٢١٧)	(فوز من قراقر إلى سوى)
صفحة		
حرف الياء		
٥٩		فلتسناها هذه التالية
(٢٠٥)	(فروق ، فرامح ، فحقه)	
(٢٧٥)	(وإن كنت قد جردت عزمى ماضيا)	
(٣٨٥)	(وقد عطشنا وثم رى)	
(٣٨٦)	(له الندى الرحب والندى)	
(٣٩٥)	(على العبيد الوفى)	



مُخْتَارُ الشَّعْرِ الْجَاهِلِيِّ

يتضمن هذا الديوان عيون الشعر الجاهلي

لستة من فحول الشعراء

وهـم

- | | | |
|-------------------------------|--|--------------------|
| (١) أمروء القيس | | (٤) طرفة بن العبد |
| (٢) النابتة الذبياني | | (٥) عنقورة بن شداد |
| (٣) زهير بن أبي سلمى المُرَني | | (٦) علقمة الفحل |

صحح روايته، وشرح غريبه، وضبطه

مُصْطَفَى السَّقَا

مدرس اللغة العربية وآدابها بمدرسة الخديو إسماعيل الثانوية بالقاهرة
مطبوع طبعاً متقناً على ورق جيد وحرف جميل مضبوط بالشكل ومصحح
بغاية الاعتناء ومجلد بالقماش المذهب .

يطلب من مكتبة :

مصطفى البابی الحلبي وأولاده بمصر

ص . ب . الفورية رقم ٧١

التي تقدم الفهرس الحاوى للكتب الأدبية وخلافها لمن يطلبه مجاناً .